H E N R Y   K E S S I N G E R

هنري كيسنجر

مذكّرات

ترجمـــة : عاطف أحمـــد عمـــران

2

HENRY KESSINGER





الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

المملكة الأردنيّة الهاشميّة ، عمّان ، وسط البلد ، خلف مطعم القدس
هاتف ٤٦٣٨٦٨٨ ، فاكس ٤٦٥٧٤٤٥
ص. ب : ٧٧٧٢ عمّان / الأردن
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : ٨٢٤٢٠٣ / ٠١ ـ مقسم ١٩

مذكّرات ـ الجزء الثاني
هنري كيسنجر
ترجمة :
عاطف أحمد عمران / الأردنّ

الطبعة العربيّة الأولى ، ٢٠٠٥

تصميم الغلاف : **زهير أبو شايب / الأردن**
ستوديو سيب®

الصفّ الضوئي :
علي الحسيني ، عمّان ، هاتف ٠٧٩/٥٣٥٦٤٩٩

مذكرات

هنري كيسنجر

مذكّرات

ترجمة: عاطف أحمد عمران

2



الفهرس

القسم الثالث : حرب في الشرق الاوسط

المقدمة

يجد هنري كيسنجر نفسه في الجزء الثاني من مذكراته مكلفاً بمتابعة يومية لسياسات الولايات المتحدة الأمريكية الخارجية، أبان ولاية ريتشارد نيكسون الرئاسية الثانية.

لقد كانت هذه الولاية فترة من الفوضى، لم يسبق لها مثيل في الأنظمة السياسية الأمريكية والغربية طوال تاريخ القرن المنصرم، القرن العشرين. أن رئيساً خرج لتوه متعب الأوصال من معركة انتخابية، ما كان ليظفر بها بسهولة، على الرغم من كثرة الاعباء الملقاة على عاتقه. وجد نفسه بعد فترة قصيرة من ذلك في خضم معركة أخرى لا نظير لها في التاريخ.

ان الرئيس نيكسون وجد نفسه مُقالاً من جميع مهامه وسلطاته، أثر فضيحة سببتها تصرفاته الخاصة، ولم يستطع بسلوكيته تهدئتها، وفيما كانت سلطة الرئيس الأمريكي تتدمر كلياً. كان هناك إنقلاب حقيقي، وحوادث غاية في القسوة والصعوبة تجري في الشرق الأوسط.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل ظهرت في الأفق خلافات وأزمات حادة، بين حلفاء الولايات المتحدة، في الوقت الذي كانت فيه قضية فيتنام لا تزال في طور المفاوضات، لإنهائها، وأيضاً كان هناك جدل عنيف في داخل الولايات المتحدة حول

موضوع العلاقات الأمريكية السوفيتية، وقضايا التسلح ومفاوضات سالت الأولى والثانية.

يقول كيسنجر عن تلك الفترة المضطربة: «لقد بدأنا ولاية نيكسون الثانية، يحدونا أمل وينمو فينا إعتقاد أننا على ابواب عهد جديد، ملؤه الابداع السياسي الدولي!!

إلا أننا بعد عدة أشهر، وجدنا أنفسنا فريسة خيبة آمال كبيرة من السلطة في بلدنا، ووقعنا في عراك مستميت، في سبيل منع خصومنا الأجانب من إغتنام هذه الفرص، والنيل من أمتنا، وأمن وإطمئنان بقية الشعوب الحرة الأخرى».

ان ممارسة العمل الدبلوماسي بالنسبة لهنري كيسنجر في الولاية الثانية، انتهت صيف عام ١٩٧٤، بنكسة مذهلة، حيث ان اضعاف الحكم في السلطة التنفيذية، جعل الصعوبات تتعاظم والتجربة تزيد، حتى إنتهت بتلك النهاية القاسية، إستقالة نيكسون عن الرئاسة.

كان لمشكلة واترغيت نتائج خطيرة أثرت كثيراً على مسيرة الدبلوماسية الأمريكية في جميع إتجاهاتها ومناحيها، فالواقع ان السياسة الخارجية القوية والفاعلة يلزمها حتماً رئيس قوي وخلاّق، لا رئيس أقعدته فضيحة واترغيت عن كل مشاركة سياسية خارجية، وبقي يصد هجمات مناوئيه المتكاثرة.

أما بشأن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط، وكما يبيّن كيسنجر في كتابه الذي بين أيدينا، خاصة أبان حرب تشرين الأول لعام ١٩٧٣، فكانت تسير بإتجاه إيجاد تخطيط لمشروع صلح وسلام، ويرى كيسنجر أن السياسة الخارجية الأمريكية حققت بعض النجاحات في مشروع الصلح في ذلك الوقت، على الرغم من بعض الإخفاقات التي تطرأ أحياناً.

تريث

و

أمــل

الفصل الأول

جولة في آسيا

ظهر كل شيء مختلفاً عمّا كنّا نأمله لعام ١٩٧٣. وكانت السنة حُبلى بالأحداث والوعود. ونادراً أن تبدأ ولاية رئاسية في غمرة إشراقات سياسة خارجيّة.
وفي شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣ بدا وكأن عشرات من الانقسامات الداخلية الكبيرة، تشرف على الانتهاء، مع نهاية حرب فيتنام. وفي شهر تشرين الثاني، حققنا فوزاً انتخابياً ساحقاً، مكننا من البقاء في الحكم لولاية ثانية، كما دعاني نيكسون لأن أشرَكَ في الحكم كل الرجال والنساء القادرين على دمل جراح الأمّة.

إن فترة الشك، التي واكبت المشاحنات حول الوضع في فيتنام، لم تكن بعد لتنتهي، لكن معظم محرّكيها، افحمهم البرهان، وهزمهم قدوم عالم جديد، انحسرت فيه شعارات العهد السابق، وفقدت بالتالي أي مفعول لها.

كنّا نأمل أن المعارضين للحرب، ستخفّ وطأتهم مع نهاية المعارضة، حتى ولو

أخذوا بعين الاعتبار الخط الذي سرنا فيه. والذين ساندونا في مواقفنا، سيسرّهم رؤية العزّ الذي كسبناه بما قبلنا بتقديمه من تضحيات وتنازلات للحفاظ على شرفنا.

إن نيكسون نفسه كانت تساوره أفكار مريبة، تحمله على الاعتقاد أن كل نجاح يحرزه كان وقتياً، وهو غير موقن من دوامه والبقاء فيه بعد حياة قضاها بالتغلّب على الصعاب. هذا من جهة نيكسون، أما الحقيقة فإنه لم يبق أمامه أية معارضة يُحسّب لها حساب. وفي نهاية المطاف فقد حصل على معظم الأصوات في جميع الولايات باستثناء واحدة. وأصبح ممكناً أن يأمل، أن كل خصومه سيأخذون من أحداث العهد الماضي عبرة، ولا سيما أن الانتصار لا يكون على حساب الغير، بل بكسب رضا الجميع.

ربمّا كنّا على مزيد من التفاؤل، إذ كنّا على اعتقاد، أن لدى الولايات المتحدة في هذه الفترة، فرصة نادرة، تتمكن معها من إظهار فكر خلاّق وجديد في سياستها الخارجية. وكنا نعتقد أن شعبنا قادر على الالتفاف بوحدة آراء كانت قد أبعدتنا عنها فكرة الاستحواذ على الهند الصينيّة. إن الخط الطبيعي للقادة الجدد هو في إبقاء بعض المشاكل التي لا تقبل الحل أو بعض الالتزامات الصعبة، تخضع لقوانين خاصة، وهذا في الحقيقة، ما جعل حرب فيتنام تطمس آثار الولاية الأولى لنيكسون. وها أننا نفاجأ الآن بعدد من العوامل في العلاقات الدولية، تبدو متوثّبة إلى خلق دبلوماسيّة جديدة مبدعة.

- وضع نيكسون خلال الولاية الأولى حداً، لمشادتنا السخيفة مع فرنسا. وحافظ على التزاماتنا العسكرية في أوروبا على الرغم من مهاجمات الكونغرس، كما أنه حمى متانة تعهداتنا على الرغم أيضاً من صدمات سطحيّة تعرّضت لها

بسبب مبادراتنا المرتجلة نحو خصومنا الشيوعيين. إن نشاط أوروبا واليابان السياسي والاقتصادي كان يدعو لمبادرات أخرى، تؤهلنا لإثبات هيبتنا كاملة وتوحيد آراء ديمقراطيّتنا.

- كنّا قد حسنّا خلال الولاية الأولى لنيسكون علاقاتنا مع الجبّارين الشيوعيين، الاتحاد السوفيتي، وجمهورية الصين الشعبية. إن عدم الثقة المتبادلة والخوف من أن كل واحد يريد الإيقاع بالآخر، كان يمنعهما من إظهار عدائهما الأيديولوجي ضدنا بوضوح. ولم ترغب إحدى القوتين في إثارتنا إلى حدّ نندفع فيه إلى حصن عدوتها اللدودة.

وبعد أن تخلّصت الولايات المتحدة من حرب فيتنام، أصبحت قادرة على مواجهة أي عمل عدائي من شأنه تهديد الأمن الدولي. ونيكسون الذي تعزّز موقفه بفوز انتخابي عارم، كان باستطاعته السماح لنفسه الشروع بمفاوضات ذات أهمية رئيسية.

- كانت مصر، في الشرق الأوسط، قد أخذت بالابتعاد عن الاتحاد السوفيتي، وأسهمت استراتيجيّة دبلوماسيّتنا كثيراً في هذا المجال، الذي فتح أمامنا آفاقاً لم يسبق لها مثيل في البحث عن السلام بالطرق الدبلوماسية.

- وبفضل التأثير الذي أضفَته التسوية التي حدثت في فيتنام، وبفضل تحسن العلاقات القائمة بين القوّتين الأعظم، أصبحت حكومة نيكسون قادرة على الاتجاه نحو العالم الثالث. وقد تدارسنا طرقاً جديدة لمواجهة المشاكل في أمريكا اللاتينية، ونظمنا مشروعاً للبدء من هناك بإقامة تنظيم جديد من علاقات التعاون بين الشعوب المصنّعة والبلدان التي هي في طريق التطوّر.

من جانبي كنت أشعر، في بداية الولاية الثانية، لا سيما بعد إزالة آثار الاقتتال التي اتسمت بها الولاية الأولى، والضغوط الخانقة على الإدارة، والخصومات الشخصية بالنسبة للحياة في واشنطن، إن الكثير من الأشياء بدأت تفقد قيمتها الحقيقية، فعزمت على تقديم استقالتي في نهاية العام.

كانت لديّ حرية تامة للإقدام على ذلك، أفضل من بقائي مؤملاً عهداً جديداً في ظل سياسة دولية، وعند إزاحة الغيوم المتلبّدة والانقسامات التي خلّفتها الحرب، كانت تبرز لديّ حقيقة، أن الوقت قد حان لوضع حدّ لمناورات بيزنطية، كان يقوم بها نيكسون داخل حكومته خلال السنوات الأربع الأولى من ولايته.

كما رأيت من الأفضل ألا تبقى السلطة موزّعة فقط بين أيدي نواب الرئيس، يعملون في الخفاء من وراء ظهر الرئيس والسلطات الرسميّة الأخرى.

وكان صديقي النابه، الجدير بالاحترام، دافيد بروس، يطالب بالقيام بإدخال بعض التعديلات على تنظيماتنا، وتسليم مسؤولياتها إلى آخرين. وإذا كان بناؤنا ثابتاً، ونحن على حقّ في إشادته، يجدر بنا أن نعيد الاهتمام بإعداد سياسة أمتّنا الخارجية، وإذا كنا راغبين في أن نبقي لخلفنا تذكارات تغلّبنا على عقباتنا، فيلزمنا والحالة هذه أن نسند المسؤوليات الكبرى إلى موظفين ثابتين في الوزارة ودبلوماسيين محترفين. وكان بروس يؤكد لي دون تكلف أو مواربة، أنه يمكن التوصّل إلى ذلك، طالما أني أشرف على كافة القرارات التي ستتخذ، من على مكتبي في البيت الأبيض.

وبعد تفكير، توصلت أن أكون إلى جانب رأيه. وكانت هناك في الواقع أسباب بسيطة تزيد في أهمية هذه الأسباب المبدئية.

إن سرّية سفري إلى الصين عام ١٩٧١، كانت قد وضعت حداً لتستّر كنت أسهم فيه قبل ذلك، وعلى الرغم من أني لم أشجع هذا التطوّر، فلا أستطيع الجزم بأني كنت أعارضه ، حيث أن البيت الأبيض لم يكن يفوّت مناسبة لوضعي في المكان المعدّ لي، وكأن الوضع قد أعد خلال أزمة الهند والباكستان، إبّان الاستعدادات لعقد قمة موسكو عام ١٩٧٢ وخلال المرحلة النهائية من مفاوضات السلام الفيتنامية.

زد على ذلك، فإن الفريق المكلف بقضايا الأمن القومي، جُدّد تعيينه ولم يكن قد بقي لدىّ ميل وتحمّل للعودة إلى العرين، حيث كان يسعى الطاقم الجديد، لاسترجاع قوته إلا أن الدهشة أخذتني بعيداً عندما بادرني نيكسون في الحادي والعشرين من آب، دون أدنى انفعال أو حماس، قائلاً: (سأفتتح غداً مؤتمري الصحفي معلناً تعيينك وزيراً للخارجية)، وكانت هذه المرة الأولى التي يفاتحني بهذا الموضوع. وللحقيقة فإني كنت قد سمعت قبل ذلك من يتكلم حول هذا الموضوع. إن مشكلة واترغيت جعلت وضع مستشاري البيت الأبيض مزعزعاً، وكنت أستمد نفوذي في سياقات عملي من سيطرة الرئيس، مع علمي بأن هذه السيطرة تسير نحو الاضمحلال بسبب ضربات الإفشاء العديدة.

قبلت العرض مؤملاً أن أكون أهلاً لثقته، وما عليّ منذ الآن سوى تبرير كل ما تلوكه الألسن، من أقاويل ضده، وما يُحاك حوله من أحابيل، وأظهر وكأنه يهبني خطوة كبيرة. وفي الواقع، كان الجميع على اعتقاد أن ليس لدى نيكسون غير هذا الخيار.

❑ ❑ ❑

إن أولى المهمات التي كانت تنتظرنا لعام ١٩٧٣، تتركز على تمتين اتفاقية الصلح مع فيتنام، الموقعة في باريس في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني. وهذا هو السبب الذي حملني على القيام بإحدى الرحلات غير العادية في منصبي الدبلوماسي زيارة عاصمة ألدّ أعدائنا الذي أدخل الحرب إلى الهند الصينية، والقلق والاضطراب إلى أمريكا. وكانت مهمتي أن أتفاوض مع قادة فيتنام الشمالية، حول التطبيق الدقيق لاتفاقية باريس التي تفاوضت بشأنها مع الدوق تو ومن ثم وانطلاقاً من هذا المبدأ نصل إلى إمكانية تمتين العلاقات بين بلدينا.

«إن اتفاقية وقف القتال وإعادة السلام إلى فيتنام، اتفاقية باريس، أصبحت ممكنة بعد عشر سنوات من قتال مستميت، وأربع سنوات من المفاوضات دون نتيجة عندما قبلت فيتنام الشمالية أخيرا ما كانت ترفضه بعناد حتى الآن، أي الحفاظ على حكومة سايغون. وكانت الإتفاقية تتضمن:

- وقف إطلاق النار الفوري حسب الأوضاع الحالية في فيتنام بكاملها.
- إنسحاب الجيوش الأمريكية التي لم تشارك بعد في القتال، وتعد قرابة سبعة وعشرين ألف رجل.
- تحرير كافة أسرى الحرب.
- يمنع على هانوي ان تسمح بتسلل رجالها وعتادها إلى الجنوب

ويكلف جهاز مراقبة دولي، للإشراف على تطبيق وقف إطلاق النار. وتنظيم حركة الأسلحة والتجهيزات العسكرية في مراقبة محدّدة سلفاً، وجهاز آخر مهمتهُ تحديد النقطة السابعة عشر من خطوط العرض، خطّاً عسكرياً فاصلاً مؤقتاً بين فيتنام الشمالية والجنوبية، ويمنع بموجبه كل تحرك عسكري، ويخضع اجتيازه من قبل المدنيين الى سماح الفريقين الفيتناميين. غير ان هانوي قبلت بسحب قواتها من

لاوس وكمبوديا ورفضت استخدام اراضيهما لشن هجمات ضد فيتنام الجنوبية. وأجّلت التسوية السياسية في فيتنام الجنوبية، إلى مفاوضات أخرى.

لقد اجتهدت الولايات الولايات المتحدة وبعزم، ان تضع حداً للحرب في لاوس وكمبوديا، لكن فيتنام الشمالية أصرّت على رفض ذلك. بحجة أن هذا من اختصاص الشعبين اللاوسي والكمبودي. ان اهتمام فيتنام الشمالية بتسلط جيرانها، مثير للانتباه، اذ لم يكن حديثاً. وكانت توجّه اهتمامها تحديداً الى انسحاب الجيش من هانوي، لأن عشرات الآلاف من جنود فيتنام الشمالية، كانوا قد خرقوا وبانتظام سيادة وأمن لاوس وكمبوديا منذ عقدين من الزمن، وكانت هذه الجيوش لاتزال في أماكنها.

وفي نهاية المطاف، قبل الدوق تو بمعالجة وتحديد وقف إطلاق نار في لاوس. وبعد اجراء استشارات مع القوات الشيوعية في هذه البلاد وعد الدوق تو بتحديد وقف إطلاق نار في لاوس، خلال الثلاثين يوماً القادمة وجاء مفاوضي، في أوائل شهر كانون الثاني ليحدّد المدة نفسها بخمسة عشر يوماً.

بالنسبة لكمبوديا، فان الدوق تو، كان يرفض أي تحديد في هذا المجال مبيّناً - ان المستقبل سوف يكشف - ان نفوذ هانوي كان دون تأثير لدى حلفائها الكمبوديين، الخمير الحمر. وخلال مفوضاتنا، بدءاً من شهر أيلول ١٩٧٢ حتى شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣، أكد لي الدوق تو وبصدق، ان الحرب اذا انتهت يوماً في فيتنام، فلن تبقى أيّة حجّة تحملنا على متابعتها في كمبوديا. لكن هانوي لن تقبل بأي التزام رسمي في هذا السبيل، وستكتفي بانتهاج مسلك منفرد للمشاركة الفعلية في جعل السلام يهيمن علـى كمبوديا، عندما تنتهي الحرب في فيتنام. وبعد اصرار دون جدوى طيلة عدة شهور، توصل نيكسون، إلى نتيجة، اننا لن نتمكن من الوصول إلى نتائج ايجابية، اذا

لم نستمر في الحرب. وبات من الطبيعي أن الشعب الأمريكي لن يساندنا، اذا لم نؤجل تنفيذ الاتفاقية، بسبب كمبوديا، علماً اننا قبلنا بها بالنسبة لفيتنام. أضف الى ذلك فان الكونغرس كان يسعى منذ سنوات عدة لتقليص مساعدتنا إلى الحد الأدنى للخمير الحمر. وإذا تمسكنا بذلك فإن الكونغرس قادر على قطع جميع الأرصدة المخصصة لكمبوديا وفيتنام. أضف الى ذلك وحسب رأي سفارتنا في فنوم بين، وخبرائنا العسكريين، فان الخمير الحمر، لم يكونوا على مستوى الظفر بنا دون عون هانوي في ساحات القتال، وحظرت هذا العون اتفاقية باريس.

اجتهدنا أن نحتفظ لأنفسنا بتدبيرين اضافيين: ان نؤكد للرئيس الكمبودي لون نول بالمطالبة (وللمرة الخامسة في ثلاث سنوت) بوقف اطلاق النار، وأن ننادي بوقف أحادي الجانب للعمليات العسكرية الهجومية، ومن ثم بتقديمنا للدوق تو، قبل التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقية باريس، تصريحاً يتضمن: «اذا وقعت عمليات عسكرية هجومية على كمبوديا، قبل ايجاد تسوية لوضعها، تكون غاية هذه العمليات الإساءة الى الوضع الحالي، وان عمليات كهذه مخالفة لروح المادة ٢٠ ـ ب من الاتفاقية، والقرائن التي استند عليها عقدها. ».

وهذا يعني، إذا رفض الخمير الحمر مطالبة لون نول بوقف إطلاق النار، فإن الولايات المتحدة ستكمل دورها في المساندة العسكرية للحكومة الكمبودية. وظهر أن الدوق تو فهم فحوى ذلك.

على الرغم من كل غموض اتفاقية باريس، فإنها كانت تعكس موازنة القوى في فيتنام، عند وقف القتال، الذي كان في أشدّه عام ١٩٧٢. وككل تسوية صلح، فإن هذه الاتفاقية، تتوقف على الحفاظ على هذا التوازن. لم تكن لدينا أية فكرة، عن أهداف هانوي على المدى الطويل، ولا عن نيّتها في الهيمنة على الهند الصينية بكاملها. وفي

المرحلة النهائية للمفاوضات في تشرين الثاني وكانون الأول من عام ١٩٧٢، لفت انتباه نيكسون وبكل إلحاح إلىٰ هذا الأمر. وكنت في نفس الوقت على ثقة، أن شعبنا لن يتحمّل أبداً إطالة زمن الحرب، لكي يسبّب ذلك تطوراً في المجال العسكري. وفي شهر آب من عام ١٩٧٢، أعلمني رئيس فيتنام الجنوبية، وطبعاً حسب رأيه، إذا استمرت الحرب، فان فيتنام الشمالية، ستصبح أقل قدرة في شهر كانون الأول من عام ١٩٧٣، ممّا كانت عليه في شهر آذار من عام ١٩٧٢، وهذا يعني تقدماً بسيطاً بالنسبة لوضعنا حينذاك. ومن جهة أخرى فإن جميع خبرائنا، كانوا يستبقون القول، ان الكونغرس المنتخب حديثاً، سوف يقلّص الأرصدة العسكرية، بدءاً من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣ بشنّ حملة تنظيم، على رؤوس الأموال الإضافية التي طالبنا بها، لنتمكن مادياً من مواجهة الهجوم الربيعي الذي ستنفذه هانوي عام ١٩٧٢.

وبالايجاز، لم نكن فقط على أهبة التخلص بلباقة مما نحن فيه من ورطة، بتدبير دقيق للإبقاء ولبعض الوقت، على ماء الوجه، قبل الانهيار النهائي. وكنا نؤمّل في الواقع الوصول إلى تسوية لائقة. ان الأخطار الماثلة في الاتفاقية، كان يتصوّرها جميع مفاوضينا. لكننا قد توصلنا الى شروط أفضل من تلك التي كان يتخيلها معظم المراقبين. وفي عام ١٩٧٢، استنتج مناوئونا ان هانوي لن تقبل بتسوية، لا تتضمن إسقاط حليفنا - حكومة تيو في سايغون. ونجحنا في عدم تلبية هذا الطلب. وهكذا أسهمنا في منح حق البقاء لفيتنام الجنوبية غير الشيوعية. إذا جلب مستقبلاً الوضع في فيتنام مزيجاً متوازياً من التشجيع والمعاقبة، ولدينا سبب معقول كما اعتقدنا ان نحافظ على توازن القوى الهش في الهند الصينية. وعلى كل حال كان هذا السبب أكبر مع أية اتفاقية، وأفضل من متابعة حرب غير متكافئة تعتورُها معاداة متزايدة في بلدنا وأمل شبه أكيد بحذف الكونغرس للأرصدة.

وقبل السفر إلى هانوي كنت قد قمت بعدة رحلات دبلوماسية، كانت بانكوك أولى العواصم التي زرتها في رحلتي لتعزيز وتوطيد المهام الملقات على عاتقنا في بداية الولاية الرئاسية الثانية.



على قوس الدائرة الكبير، الذي يمتد من البحر الأبيض المتوسط، إلى الجنوب الشرقي من آسيا، مروراً بالشرق الأوسط، والمحيط الهندي، والهند، فإن بلداً واحداً وهو تايلند، نجا من الاحتلال الاستعماري في القرن التاسع عشر.

ولقد توصلت، بعناية ودون تردّد، إلى اختبار تلك المخاصمات التي تحدث فيما بين القوتيّن الأعظم. إن وضعها الجغرافي والحق يقال، في ملتقى مناطق النفوذ الفرنسي والبريطاني، كان يجعل منها دولة حاجزة مثالية بين الإمبراطوريات الأوروبية. لكن وضعاً كهذا، يؤدّي غالباً بالشعوب إلى التمزّق أكثر منه إلى الاستقلال.

إلا أن تايلند حافظت على استقلالها، لأن زعماءَها، استغلّوا وبحذق، موقعها الجغرافي للإبقاء على نوع من السيادة الذاتية بين دول متخاصمة وأقدر منها. وقد ساعدها في ذلك، عدم خدش هويتها الثقافية بتأثير جيرانها. وكان هدفها الأعلى الأخذ بسياسة مرنة، وثابتة، مثل عود الخيزران.

والحق يقال أن سلطات بانكوك، استقبلت نبأ اتفاقية باريس بابتهاج. لم تستطع هذه السلطات أن تفهم، كيف أن قوّة عظمى، ترى من واجبها أن تخضع لتسوية مع مستبدّ محلّي. وكانت أيضاً إلى جانب اي حلّ يمكنه تأمين الحفاظ على استقلال فيتنام الجنوبية وحياد كل من لاوس وكمبوديا. أضف إلى ذلك ضمان

حدودها من جهة أخرى. كما كانت السلطات التايلندية على معرفة دقيقة بطبيعة فيتنام الشمالية، مع ارتياب كبير بإمكانية تعديل الطبيعة البشرية للحكم على حالة عابرة من الضعف ـ حتى ولو كانت ثابتة، كما يحسن اعتبارها ـ وقبولها قلبياً من جهة هانوي. أجلاً أو عاجلاً حسب رأي التايلنديين الذين يأملون إيقاف الفيتناميين الشماليين خارج حدود مملكتهم، فإن هؤلاء سيستعيدون مسيرتهم في سبيل الاستيلاء والسيطرة. وكل ذلك بالنسبة لهم متوقف على إرادة الولايات المتحدة، بالإسهام في المحافظة في الهند الصينية على توازن القوى.

لم أفاجأ عندما وجدت المخاوف تعمّ بانكوك. إن رئيس الوزراء، المارشال تانوم كيتّيكا شورم، المحافظ على أصدق تقاليد بلاده، كان يخفي ذكاء مفرطاً، من وراء ضعف ظاهري وتثاقل. كان يجسّد في شخصه الثقة التي تؤمن بها تايلند في الولايات المتحدة. وعندما اتخذ الكونغرس في شهر حزيران من عام ١٩٧٣ قراراً، بمنع أية عملية عسكرية في الهند الصينية، أو في مجالها الجوي، غاب تانوم وراء إحدى هذه التغييرات غير المرئية، التي كشف بها التايلنديون أنهم في سبيلهم إلى اتخاذ وضع جديد.

عندما التقيت تانوم، في التاسع من شهر شباط لعام ١٩٧٣، كان مظهره ينمّ وكأن الحلّ لابدّ منه. ويميل إلى استراتيجية السنوات العشر السابقة، وكان راغباً في الحصول على جوابين للسؤالين:

- ماذا ستكون ردود فعلنا، عندما يخرق الفيتناميون الشماليون بنود الاتفاقية؟
- ما هي القوى المسلّحة التي سنحتفظ بها في الجنوب الشرقي الأسيوي، لا سيما على الأراضي التايلندية، للإسهام في المحافظة على توازن القوى في المنطقة؟

فشرحت له بجلاء أننا كنّا يقظين جداً لمطامع هانوي ولن نقف مكتوفي اليد، عندما تعزم فيتنام الشمالية على خرق الاتفاقية عن قصد. كنت أمل خلال زيارتي إلى هانوي، حضّ فيتنام الشمالية للبدء بتصرّفات سلمية.

بالنسبة للوجود العسكري الأمريكي في الجنوب الشرقي من آسيا، ففي الواقع لم يكن لديّ أي تأكيد بهذا الصدد، لأن ذلك يتوقف على سياستنا الداخلية. ولذلك أجبت بإجابات غامضة.



لم تكن (فنوم بين) ضمن مخطط رحلتي، لأن سبيرو أغنيو، نائب الرئيس، كان بدوره يتردد إليها وكذلك إلى سايغون. ونفوذ نائب الرئيس لدى حكومة سايغون، كان يحرّك الرئيس تيو نحو توقيع اتفاقية باريس. إن الحقد المقيت الذي كان يشعر به الرئيس تيو، تجاهي، كان يجعل تردّدي إلى سايغون دون جدوى. ومن جهة أخرى، فإني لم أكن لأستطيع التوقف في عاصمتي الهند الصينية الأخرّيين دون المرور بسايغون. ولأجل ذلك فقد أجبرت على تجنب الذهاب الى فنوّم بين، والتحدّث عن مستقبل كمبوديا في بانكوك، الأمر الذي جعل الناس يذهبون في توقعاتهم إلى حدود وقوع أحداث كبيرة في المستقبل.

إن سفيرنا في كمبوديا ـ سوانك ـ لم يكن سوى صقر بالنسبة للهند الصينية. فقد كان يراقب تقليص النفقات، التي يفرضها الكونغرس برضا واعتناء، دون تأثر، بعكس ما كنت أشعر به من غضب شديد لخنق شعب جرئ خنقاً بطيئاً. كانت آراؤنا مختلفة، كما يحدث ذلك كثيراً بين أناس ذوي شأن. ومع ذلك، كنت احترم كفاءته الوظيفية، ونبله ومهارته. على الرغم من أن سوانك لم يكن مؤمناً

بإمكانية الحل العسكري، فلم يكن مخدوعاً بما هم عليه خصومنا من طباع. كان على ثقة أن الخمير الحمر، كانوا عازمين على إحراز نصر شامل، على الرغم من إبرام اتفاقية باريس، ووقف إطلاق النار، الأحادي الجانب الذي أعلنه لون نول، تظاهرهم هانوي في أهدافهم. واثنان وأربعون ألف جندي من فيتنام الشمالية، لا يزالون معسكرين في كمبوديا، وحسب رأيه، لا همّ لهم سوى خرق حتمي للمادة ٢٠ من اتفاقية باريس. كانت غالبيتهم العظمى أي ٣٥ ألفاً، يقومون بإيصال الإمدادات من فيتنام الشمالية باتجاه فيتنام الجنوبية، مخالفين بذلك الشروط الأساسية والتسلّل إلى بلدان الهند الصينية الأخرى، التي كان يعسكر فيها، بالإضافة إلى سبعة آلاف عضو من الوحدات المقاتلة، نصفها يساعد ويعاضد الخمير الحمر. ولقاء ذلك كان يوجد في كمبوديا، أقل من مائتي رجل أمريكي، مدنيين وعسكريين، بسبب التقليصات القاسية، التي فرضتها علينا السلطة التشريعية ولم تُلاحَظ أية إشارة تدل على انسحاب من قبل قوات الفيتناميين الشماليين.

بالنسبة لرئيس كمبوديا السابق الحيادي، الأمير نوردوم سيهانوك، الذي كان يقيم في المنفى في بكين، فإن سوانك بدا وكأنه لا يمكن الاعتماد عليه، إذا لم يبقَ له أنصار في كمبوديا، حتى أنه فقد ثقة الحكومة والشيوعيين. وكان يتمنى (سوانك) تفويضه بإعلام لون نول رسمياً، بأنني لن أقوم بأي اتصال مع سيهانوك، عند زيارتي القريبة لبكين.

إن الحقد الأعمى بين لون نول وسيهانوك، كان العقبة الحقيقية التي كانت تصطدم بها محادثاتنا مع سيهانوك في عام ١٩٧٣. وفي شهر تشرين الثاني، أعلنت لكياو غوانهوا، نائب وزير الشؤون الخارجية الصيني، أننا مستعدون لمفاوضة الصين، حول وضع حد لحرب كمبوديا، بطريقة تُعيد لسيهانوك دوراً

بارزاً. ولكي يتمكن سيهانوك من إكمال لعبته التقليدية بإيجاد توازن ما بين مرشحي السلطة، كان من الواجب عليه إيجاد مرشحين في كمبوديا يستطيع التعامل معهم. وطوال المدة التي بقي فيها الزعيم الاسمي لقطاع ما، فإن الخمير الحمر، عزموا وبعناد على إحراز نصر شامل، وفي الواقع كان سيهانوك يحكم على نفسه بالزوال، إذا تلاحقت الحرب، وبالتبعيّة المطلقة إذا ظفر بها الخمير الحمر. لم تكن نيّتنا في حفاظ لون نول على منصبه، لكن سيهانوك كان يهمّه في أن القوى المعادية للشيوعية، التي يقودها لون نول، تتمكن من الثبات والبقاء بطريقة أو بأخرى. وإلاّ. فإنه أي سيهانوك لن يكون سوى رجل لا قيمة له، ويصلح بالكاد للحفاظ على وضع يد الشيوعيين على كمبوديا، يُبعَد بعد ذلك عن مسرح السياسة بكل تأكيد.

كانت وجهات نظرنا أنا وسوانك متقاربة، حول منفعة العمليات العسكرية، التي تؤدّي إلى وقف إطلاق النار، وكان تقديره، أن الفرص أمامنا متاحة للوصول إلى هذه النتيجة، ولو تقلّص الضغط العسكري إلى الحدّ الأدنى. وكنت أنا ميّالاً لإخضاع هذه النظرية إلى اختبار واقعي. وفي حال فشلها. يصبح الضغط العسكري لازماً. لقد علمتني التجارب أن شيوعيي فيتنام الشمالية، لا يسمحون لنا بالخروج من مأزق، إلاّ إذا كانت الحلول الأخرى، عسيرة بالنسبة لهم. وليس لدينا حالياً، سوى وجهات نظر. ما كاد لون نول يلقي بورقة جديدة منادياً بوقف إطلاق النار، حتى بادر الخمير الحمر إلى رفضها، لكن سوانك، الذي كان يحمل نفس فكرتي، يعتقد أنهم لم يغلقوا الباب نهائياً. وكنا نؤمّل متفائلين أن الوصول إلى مخرج حقيقي من خلال مفاوضات كمبوديا لم يقطع منه الأمل نهائياً.

كان سوانك يفضّل مثله مثل لون نول، بإجراء مفاوضات على طريق هانوي. وهو

ما أثار الارتياب عندي لأني كنت أعتقد أن بكين ستكون بالنسبة لنا أفضل وسيط. إن الطرق التي ينادي بها لون نول، تفيد لوقت قصير، لكنها من وجهة نظر استراتيجية ذات نتائج محدودة. كانت هانوي تقصد جعل كمبوديا تابعة لها، وتهدف إلى السيطرة عليها، وفتح طرق إمدادها نحو الجنوب، وتثبّط همة فيتنام الجنوبية، بإشاعة فكرة، أنها لا بدّ سائرة باتجاه الهيمنة على كل الهند الصينية حتماً. والصين من جهتها تسعى لبقاء كمبوديا مستقلّة. وبكين غير راغبة في أن ترى فنوم بين وقد أصبحت تابعة لهانوي، ويفضّل الصينيون أن يُشكل الجنوب الشرقي من آسيا من دول مستقلّة، لا أن تسيطر عليه فيتنام الشمالية، التي تغذّيها تقليدياً فكرة عدائية نحو الصين، بالإضافة إلى أنها تابع لموسكو. إننا نلتقي والصين بفائدة متشابهة، تضفي أهميّة أساسيّة في سبيل الإبقاء على فيتنام الجنوبية. فأخذت أسعى إلى التفاوض عن طريق بكين. (الأمر الذي كان يفرض إسناد دور إلى سيهانوك، المقيم في العاصمة الصينية). ولم يكن ضرورياً اتخاذ قرار في الحال. ورحلاتي وشيكة الوقوع إلى هانوي وبكين، ستلقي بعض الضوء، على ما سوف يكون ممكناً عمله.

تلقّيت تقارير، خلال سنوات عدّة، عن عمليّات عسكرية، تجري في ضواحي فيانتيان (عاصمة لاوس)، وكما يحدث عادة، كوّنت صورة عن حقيقة العلاقة بين أهمية هذه الأحداث والساحة التي تدور فيها. ان كلمة فيانتيان، التي تسبق تاريخ الرسالة، كانت تبعث في نفسي صورة حاضرة تقاسي حياة مرّة وفي حالة حصار.

وفي الحقيقة فإن فيانتيان كانت بلدة ريفية صغيرة، يستولي عليها الحرّ والغبار مع الهدوء والطمأنينة، يعيش فيها أناس متحابّون ومسالمون، يعيشون بأناة ووضعهم مرضٍ. ولم تكن لاوس لتطلب سوى ان تترك وشأنها. وهذا فعلاً ما كانت تجهله جارتها فيتنام الشمالية، التي لا تعرف هدنة أو استقراراً.

كانت شواطئ نهر الميكونغ تحتضن فيانتيان، فاصلة بها لاوس عن تايلند. نادرة هي العواصم الكائنة على حدود الوطن والتي حدودها الحضرية، تلتقي بحدود بلد آخر. وكأني باللاووسيين الذين بعد أن دبّ الذعر في جارتهم فيتنام الشمالية، هربوا منها، قدر تمكنهم وكأن المواصلات الماديّة كانت بالنسبة للاوس أدة اطمئنان بالبقاء.

منذ أواخر العام ١٩٥٠، كانت البلاد ضحيّة موقعها الجغرافي. ان المنطقة المعزولة للسلاح DMZ على طول خط العرض السابع عشر، في فيتنام، كانت تحرّم كل تسلّل كثيف ومباشر من الشمال إلى الجنوب، إذ ان ذلك يشكّل خرقاً واضحاً لإتفاقية جنيف لعام ١٩٥٤، لكن منطق فيتنام الشمالية، كان يحتال على ذلك، بالتفافه حول المنطقة ومروره بأراضي دولة أخرى ذات سيادة، فكان يبدو لهم هذا الأمر شرعياً على الرغم من أن حياد لاوس. كانت تضمنه رسمياً تلك الإتفاقية. ان طريق هو شي مين (كانت شبكة طرق مواصلات حقيقية) خُطّطت ضمن غابات كثيفة كانت تغمر نصف لاوس الجنوبي. كما كان الامر ذاته في كمبوديا، فإن هانوي قد استولت وبكل بساطة على أراضي جوارها، وطردت السكان المحلّيين. وكما جرى في كمبوديا، فإن الأمريكان الذين كانوا يرغبون بمدّ يد العون إلى لاوس والمحافظة على استقلالها، اتهموا بتوسيع رقعة الحرب إلى بلد مسالم، مع أن هذه الحرب جاءت اليها بسبب احتلالها بصورة غير شرعية من قبل الفيتناميين الشماليين، الذين لم يكتفوا بوضع اليد على النصف الجنوبي من لاوس، بل زوّدوا فريقاً شيوعياً بالسلاح، وأمدّوهم بستة آلاف مقاتل من جيشهم النظامي.

لو ظلّت خطّة هانوي ثابتة نحو السيطرة، فإن قلق أمريكا لن يكون أقل منها، خلال الأعوام ١٩٥٠ نظراً لما ظهر من عداء للشيوعية حينذاك فإن الولايات المتحدة،حافظت على بقاء حكومة في فيانتيان موالية للغرب، راغبة في بسط نفوذها على البلاد بكاملها. لكن هانوي، التي كانت في طريقها إلى اختيار نموذج تعبوي،

طلبت تشكيل حكومة إئتلاف يرأسها الامير سوفانا فوما. قبلت حكومة كينيدي هذا الطلب، وأكدت من جهة ثانية ارسال قوات مارينز إلى تايلند في بداية عام ١٩٦٢، لردع هانوي من إكمال احتلالها لكافة أراضي لاوس. استخفّت هانوي بالاتفاق، بصلافتها المعهودة.

وفي مؤتمر جنيف لعام ١٩٦٢، وهب لاوس رئيس وزراء حيادياً، وحكومة في ذات الاتجاه، كما كانت تطالب هانوي، فعلى كل الجيوش الغربية مغادرة البلاد، مارّة بنقاط مراقبة، خاضعة للجنة دولية. ولكن لا هذه الاجراءات، ولا إعتراف موسكو وجمهورية الصين الشعبيّة بسوفانا فوما، كانت الرادع الحقيقي لهانوي من الاستيلاء على مقاطعتين في الشمال الشرقي بسبب وجود شيوعييّن متعصبين لها في باتيت لاو. وبقي قطاع طريق هو شي مين مشغولاً من قبل قوات فيتنام الشمالية. وبالنسبة لإنسحاب كل الجيوش الأجنبية، فقد غادر ستمائة وستة وستين مستشاراً أمريكياً، مارّين بنقاط المراقبة الدولية. ومن الستة آلاف فيتنامي شمالي، أربعون منهم بالضبط جاؤوا لُيعادوا إلى وطنهم. وربّما كان ذلك يعني التغيير الأسبوعي، أو بعض المرشحين لإجازات إستجمام في هانوي. لم يظهر من الفيتناميين الشماليين، ما يدل على احترامهم لإتفاقية جنيف، حيث انهم ينفخون بأبواق دعايتهم في العالم أجمع مساوئ التدخل الأمريكي. ومن سنة إلى أخرى، كان عدد جنود فيتنام الشمالية على الأراضي اللاووسية بازدياد، وأصبحوا ستين ألفاً عام ١٩٧٣.

لم نفاجأ في أن رئيس الوزراء، سوفانا فوما، وأعضاء حكومته، الذين استقبلونا جيداً في التاسع من شهر شباط، ان يقابلوا اتفاق باريس بحدس قاتم، ليس بأقل من أمل عارم. ولم يمضِ أسبوعان على توقيع العقد، حتى خرق.

كانت هانوي يحتقر أبسط المبادىء، كمبدأ المساواة، حتى أنها تلتجئ إلى الخداع، فتتظاهر مثلاً بقبول إتفاق مكتوب، ولو أنه يجلب لها متاعب. أعلمني الدوق تو، في باريس، ان إتفاقاً خطيّاً، يحدّد وقف إطلاق النار في لاوس، خلال الخمسة عشر يوماً، التي تلي توقيع الإتفاق، مُدّد الموعد ولم يبدُ ما يشير إلى تطبيق هذا الإتفاق. لقد صرّحت هانوي فجأة، ودون الإستناد إلى أي حق قانوني، مخالفة النصّ الموقع عليه، مدّعية أن المطالبة بوقف إطلاق النار، هي نتيجة لإتفاق سياسي. وتوّجت هانوي هذا التصريح التهكمي الجميل، بتصريح آخر لا يقل عنه إثباتاً، وهو الإعتراف بسوفانا فوما زعيماً للفريق المحايد، فقد عثرت على وجود فئة أخرى من المحايدين، بنوع ان أصدق مؤيّديها لم يكونوا يعرفونهم أو يسمعون بهم. فأعلنت زمرة هانوي المتعصّبة، أنها لن تقدم على توقيع أية وثيقة، لا تشتمل على شجب شديد لتدخل أمريكا، وهذا يضاف إلى تفسير هانوي المستهجّن في الوثائق الخاصّة على وضع حدّ للنزاع، ويمنع العودة إلى السلطة الأمريكية حول حمل الفريقين على إحترام الإتفاق.

كان سوفانا فوما، عازماً على عدم قبول تلك الشروط، فقد قاتل بحزم في سبيل إستقلال بلادّه، وعلى الرغم من قبوله العون الأمريكي والتايلندي فإنه يتمنى، وقبل كل شيء، ألاّ تكون بلاده سبب أي شقاق، على الحلبة السياسية الدولية. وهو لطيف ويتحلّى بعذوبة فائقة، ويجسّد في نهجه، فضائل شعب دخل التاريخ بفنّه وطريقة عيشه ومواهبه الحربيّة. على كل حال، ليس له ان يتساوى مع خصم يفوقه عدداً سبع مرّات. ان لاوس، التي تتعرّض يومياً لإبتزاز فيتنام الشمالية السياسي والعسكري، لم تكن لتستثنى بين تلك البلدان التي لها علاقة بهذه الأخيرة. ولم تكن لتهتم لتأثيرات أوهام يبثّها الكثير من المسالمين العائشين فيها.

كان سوفانا على استعداد لمتابعة تأرجحه الخطر المعقّد، الذي بدأ به. وسيتابع حتى النهاية طريقة مفاوضات السلام. وسيأخذ على عاتقه خطورة إبرام اتفاقيات جديدة. لم يكن ليتذمّر أو يغتاظ. وكل ما يطالبنا به، هو تخفيف الحمل الأمريكي عنه.

وأولم لنا عشاءً، في مساء التاسع من شهر شباط، لي ولحاشيتي، في فيلاً بسيطة جداً، كان يملكها في ضواحي فيانتيان. كدنا نعتبرها بمثابة مقر وزير خارجية فرنسي، بقدر ما كانت خالية من الأبّهة التي تملأ عموماً القصور الرئاسية. وفي نهاية الوليمة، وقف سوفانا وشرب نخبنا، وألقى كلمة بليغة، بل مؤثّرة، توجز آمال ومخاوف الهند الصينية بكاملها، التي ترغب في إبقاء السلام مهيمناً عليها، والإبقاء على إتجاهها نحونا لتستعين بنا: «الدكتور كيسنجر، أيها الأصدقاء الأحبّاء.

«نحن سعداء لاستقبالكم في لاوس، في هذه الفترة الحرجة. حتى أن بقاء لاوس يرتكز على كواهلكم، ولحسن الحظ، فإن هذه الكواهل قويّة، أننا نعتمد عليكم، لإفهام جيراننا أننا نريد السلام، ولا شيء غير السلام. نحن بلد صغير جداً، ولا نشكل خطراً على أحد. نحن نعتمد عليكم، لنعرّفهم أن اللاووسيين شعب مسالم، بموجب تقاليده وديانته. لا نطلب شيئاً سوى المحافظة عل سيادتنا واستقلالنا، اننا نطالبهم ان يسمحوا لنا بالعيش بسلام على أرضنا الصغيرة، الباقية لنا من مملكتنا القديمة، كانت هذه الأرض تحمل سبعة عشر مليوناً من السكان، ولا نعدّ الآن سوى ثلاثة ملايين تقريباً.

«إذا ضغطتم بنوع كافٍ على الفيتناميين الشماليين، ليقدّروا المخاطر التي يسبّبونها بخرقهم الاتفاقية، فلربما يعودون إلى رشدهم ويحترمونها. يجب ان تعيش لاوس بسلام، لا تريد الولايات المتحدة وبكل تأكيد، ان تنهي جهودها، إلى تثبيت سيطرة فيتنام الشمالية على الهند الصينية. ان أمنيّة هو شي مين هي الاحتلال مكان

الفرنسيين، وتوطيد هيمنته على كل البلاد. . . «يجب علينا الإعتماد على أصدقائنا الأمريكان، ليساعدونا في البقاء. وأملنا ومطلبنا، أن تتحقق هذه الأمنيّة».

انه لمن المؤثر جداً، أن يعقَد الأمل، على أمّة بعيدة، وشديدة البعد عن لاوس، تتمكن من المجيء إليها مؤكدة لجارها المباشر معنى رسالة السلام. ومحتمل بعكس ذلك ان تحثّ فيتنام الشمالية على العداء، بما ان هذه فكرته. ولم يكن اقل تأثيراً، تأكيد الآمال بقبولنا الدائم الدفاع عن حرّية شعب بعيد جداً عنّا.

ربّما فهمت من خطاب سوفانا فوما، أحسن من أيّة جلسة مفاوضات رسميّة ضعف ثقته وآماله، وطبيعة مسؤولياتنا، لذا فإن جوابي لم يرتفع إلى درجة النبل التي أثبتها مضيفنا. ولم يخلّ من بعض التبجّح، كما تخلّله ادّعاء بالقدرة علىمساعدته في تحقيق مهمة شبه روحيّة. فلم آتِ إلاّ على ذكر النقاط الجوهرية، التي تفيد مضيفينا اللاووسيين:

«إني أقدّر عالياً النوايا المؤثرة جداً، التي أوردتموها معاليكم، تطلبون مني تحمّل مسؤولية كبرى جداً. لي الشرف أن أقوم بمهمتي هذه، منذ أربعة أعوام ولقد اجتزنا فعلاً صعوبات جسيمة. ولم ينته بنا الأمر إلى خيانة أصدقائنا وفي حال قيام حكومة أمريكية جديدة، بعد حملة انتخابية، ترتكز بكل تأكيد على نقطة ثابتة، تبين فيما إذا كانت الولايات المتحدة، ستبقى أمينة لمبادئها».

وفي صباح اليوم التالي، في مطار فيانتيان، قبل رحيلي إلى هانوي، كنت أدعو علناً، إلى التطبيق الدقيق لإتفاقية باريس، وأطالب بالبدء بوقف إطلاق النار في لاوس في أقرب فرصة ممكنة.

عندما هبطت بي الطائرة على أرض هانوي، في العاشر من شهر شباط من عام ١٩٧٣، كان لدي إحساس، كأني صعدت إلى القمر. طوال عشر سنوات،

أخذت الحرب تتحول شيئاً فشيئاً إلى كابوس قومي، في الوقت الذي كان فيه المشرفون على الحرب الباردة في هانوي، يستغلون تردد أمريكا، وكأنها في شك من أمرها. ومن كان من مواطنينا معادياً متابعة الحرب، كان يتوجه سائحاً نحو ركن الثورة الصحيحة، في حين أن هذا أصبح تافهاً.

ونجحت فيتنام الشمالية، في جعل نفسها بلداً بريئاً، صديقاً للسلام، ضُرب بشدة من قبل غرباء قساة. وأوضح مفاوضوه في باريس طريقة غامضة في طرح الأمور تعطي فكرة واحدة فقط، وهي أن العديد من فرص الانفراج، أضاعتها حكومة أمريكية غير راغبة كثيراً في السلام. وفهمت هانوي، أن أحد أهم حقول القتال موجود في دماغ الأمريكان، ولم يكن أمامنا سوى احترام هؤلاء المتزمتين، الذين منذ حداثتهم، تشيعوا للشيوعية، وتحملوا ببسالة شديدة الألم، وقاتلوا بتفان وشجاعة مثلى، أولاً ضد اليابانيين، ومن ثم ضد الفرنسيين، وأخيراً ضد الأمريكان لينهكوا قوة خصومهم، ليس في السلام فقط، بل في ساحات قتال حرب نفسية.

لقد استطعنا إجبار هؤلاء المتشيعين على قبول تسوية بسيطة. وكان يلزمني من الثقة أكثر مما لدي، لأصدق أنهم سيحافظون عليها برضاهم، لا سيما وأنه حل مبهم. إن الهدف من سفري إلى هانوي، هو تشجيع ميول، إذا كانت لا تزال موجودة هناك، لتكرس جهود سليمة، في سبيل إعادة البناء، أفضل من متابعة الحرب، ثم ترسيخ السلام، في المجالات التي تستطيع أمريكا مدّ يد العون فيها، وكم تكون خيبة أملنا كبيرة إذا لم تتحقق هذه الآمال.

هبطت البوينغ ٧٠٧ التابعة للأسطول الجوي الرئاسي، في مطار نوابيه Noi Bai العسكري، على بعد خمسة وسبعين كيلو متراً شمال هانوي. وكان الجو

في ذاك الصباح مكفهراً ضبابياً. والأراضي المحيطة بالمطار كانت مستوية ومقفرة، كانت قاذفاتنا B-52 قد هدمت الكثير من أبنيتها، وأكثرت على مدرّجاتها الحفر بقنابلها. وهذا ما دعا إلى ارتجاج طائرتنا حتى توقفها الكامل.

استقبلني الدوق تو بحرارة تقريباً. ولقد وُجدت. بيني وبين هذا الثائر العنيد العقائدي، علاقة غير عادية من خلال لقاءاتي السرّية في باريس طوال أربعة أعوام. كان يُبدي لي بعض الكراهية، بصفتي ممثلاً لقوة "امبريالية" تسعى أن تسلب من فيتنام الشمالية، ما كانت تعتقد أنه ملكها منذ الولادة، الا وهو الاستيلاء على كل الهند الصينية. وهو مثل كل لينيني محترف، كان يكره بل يحتقر كل الاعتبارات البرجوازية، وبالطبع طرق التسوية التي كنت أتّبعها. وكنت أغتاظ كثيراً في العديد من المناسبات، عندما كان يسعى إلى تفنيد آرائنا العامة، وإزالة الاحترام الذي نكنّه نحن لأنفسنا. إن قوّة حجّته على طاولة المفاوضات، كانت قادرة على إغاظة أياً كان. وكنت في الوقت نفسه أكبر فيه، حدّة ذهنه وذكاءَه، وانتظامه القوي. طوال كل هذه السنوات من التفاوض معي، لم يتبرّم في وضعه، ولم يقترف خطأ، ولم يفقد لياقته، سوى في مناسبة وحيدة في شهر أيار من عام ١٩٧٢، عندما قلق مما كان يبدو وكأنه غلبة وشيكة الوقوع، فلقد شط في كلامه ونطق ببعض الكلمات النابية ونجح بقوّة دهائه، خلال ثلاث سنوات، أن يجعلني وكأني أناطح صخرة. وعندما حانت الفرصة للتفاوض نتيجة إخفاق هانوي عام ١٩٧٢، انسحب بلباقة.

وبعد حديث يسير تخلله المزاح، فيما كنا نشرب الشاي، ركبنا طائرة نقل سوفيتية صغيرة من طراز (An-24) لاجتياز مسافة جوية تقطع بعشرين دقيقة. وصلنا بعد ذلك إلى مطار جيالام الدولي، الذي كان قريباً من هانوي، واسمه

مألوف لدي أيضاً، لكثرة ما ورد ذكره في الاتصالات العسكرية، التي قمت بها، طوال سنين عديدة.

كان مطار جيالام متضرراً جداً، إذا أن القاذفات (B52) ألقت بكامل حمولتها على هدف في قلب المدرج الرئيسي، فلم يبق منه قائماً سوى الواجهة الداخلية لبرج المراقبة، التي كنا نستطيع مشاهدة الفضاء الخارجي من داخلها السفلي، ومن خلال نوافذها.

عند هبوط الطائرة، بادر إلى استقبالنا هناك عدة ضباط. قبل أن نستقل سيارات الليموزين السوفيتية والتي أقلتنا إلى المدينة، بموكب رسمي.

كان المطاران يقعان شمال النهر الأحمر، أما هانوي التي تنتشر على الضفة الجنوبية، فكانت تحاكي مدينة ريفية هادئة في مقاطعة فرنسية. وكان يتعذر علينا اجتياز النهر، دون الاستعانة بطوافات، لا سيما وأن جسر بول دومير الشهير، المصفح بالفولاذ (والذي طالما ذكر بقاؤه كمثال على عدم فعالية غاراتنا فيه) قد تداعى أخيراً تحت وابل القذائف التي القيت عليه، أثناء الغارت التي شنت أيام عيد الميلاد.

أما ضفة النهر الشمالية، فكانت تظهر فيها حفر القنابل. وكانت تذكرنا بصور المناظر التي التقطت لسطح القمر. ومع ذلك ما أن يصل المرء الى قلب المدينة حتى يلقى مشاهد، لا تستطيع النفس الركون إليها. من السهل التأكد فوراً، ان المدينة لم تكن متضررة وهذا أمر يكذب أسطورة افتراءات كاذبة، حول حملاتنا الجوية، التي وصفت أنها كانت بربرية في عيد الميلاد. وعلى طول الشوارع التي نجتازها، لم نشاهد سوى أثر واحد للتدمير، ظهر على بيت متهاوٍ للمندوب العام الفرنسي. لقد أصيب هذا البيت عرضاً، قبل عدة شهور، خلال مفاوضات باريس. وهذا ما جعل

قلوب محدثينا تشح علينا بتوددها. وهكذا كان مضيفونا الفرنسيون. ولم نكن لنشاهد ما يشبه فوضى سايغون الجنونية، ولو صدف وجاء زائر من كوكب آخر، وقام بزيارة المدينتين، لما أعتقد أن شعباً واحداً يسكنهما، ولما كان اكتشف دون ارتكاب خطأ، أية عاصمة من الاثنتين، استعملت في غاراتها، أسلحة تدميرية، خربت كل البلدان المجاورة، وشغلت بال العالم بكامله. وهذا ما يبين، كم يضفي الصدق والتنظيم على معسكر، من الأفضلية والاعتبار، لا تستحقهما له القدرة المادية.

أن بنايات هانوي، المقامة على طراز جنوب فرنسا، كانت متداعية. وهذا ما يوضح، أنه لم يشيد فعلا أي شيء جديد منذ إعلان الاستقلال، قبل عشرين عاماً. والطريق التي تحد جانبيها الأشجار، كان يعمرها ركاب الدراجات. وكنا نشاهد من حين إلى آخر، شاحنة من صنع سوفيتي، ولكن لم تكن هناك سيارات خصوصية. أما الشوارع فلم تكن مزدحمة. والسلطات لم تعد إلى المدينة. أما المارة فكان يبدو عليهم الوقار والترفع وعدم المبالاة. يمكن للبطولة أن تظهر، تحت أشكال: آه كم هي غير لائقة !! ومهما يكن السبب الذي حارب لأجله الرجال والنساء والفقراء، وثبتوا في القتال بكل بسالة، لا يستطيع الإنسان أن يرى ذلك على وجوههم. وكانوا لا يبالون بمرورنا، على الرغم من كثرة السيارات التي ترافقنا، والتي يجب أن توحي لهم أن شيئاً غير عادي يحدث.

دخلت إلى هانوي بترفّع غريب. وكانت هذه الزيارة تظهر نهاية سفر طويل، لكنها غير ذات مغزى خاص. منذ انتهاء واختتام المفاوضات كان الدوق تو واللجنة التنفيذية في الحزب الشيوعي. قد أظهرا رغبة ملحة، للقيام بزيارة عاصمتهم. وسبب ذلك لم يكن واضحاً. ولن يخطر ببالهم، أن يضعوا على قدم المساواة مع الصين ـ السبب الذي حدا ببريجنيف أن يدعوني إلى موسكو، بعد رحلتي السرية إلى بكين. إن زعماء هانوي كانوا يظهرون انطواءً كبيراً بسبب ذلك. وفي المجال

البسيكولوجي فإن قلة الاطمئنان، لم تكن بالنسبة لهم، سوى خطيئة صغيرة مقبولة. وكأني بهم يريدون، إحباط نشاطنا، قبل البدء بموجة جديدة من غزواتهم. ربما كان ذلك ممكناً، لكنه سلاح ذو حدين. من وجهة نظرنا، كان علينا أن نبين للرأي العام الأمريكي، أننا تفحصنا جميع الآفاق، للتمكن من فرض تطبيق اتفاقية باريس، لاسيما إذا كنا بعد بحاجة لاستخدام أساليب أخرى. وهل هو صحيح أن تكتفي هانوي بما حصلت عليه من ابتزاز، طيلة اقتتال دام أكثر من عمر الإنسان، وتبدأ بإشباع حاجات شعبها؟ هذا ما نادى به الدوق تو بكل إلحاح، وعزمنا نحن على تحقيقه.

على كل حال، الخيارات جميعها محددة، وسفري إلى هانوي، كان عليه أن يجسد، في أمريكا، رغبتنا في المصالحة القومية، التي كانت غير ذات فائدة للفيتناميين الشماليين. وكنا نأمل إقناع زعماء هانوي، على عدم جدوى العودة إلى العمليات العسكرية، مصرين على تطبيق اتفاقية باريس بدقة. لكنني كنت أعلم أن في أعماق نفسي ما يؤكد الإحساس باليأس، ليس للكلمات أي تأثير عليهم. وسيضعوننا على المحك أجلاً أو عاجلاً. وعلينا حينئذ أن نظهر صلابة معدننا. وكان علي أن أحاول في الوقت ذاته، حثهم على القيام بأعمال سليمة، على حساب مغانم مغرية.

أسكنتُ في قلب هانوي، في طابق من مقرّ فخم، يحتفظ به لضيوف الحكومة الرسميين. وكان يسكن في هذا المقر سابقاً، الحاكم العام لتونكين الفرنسية. وأقام القسم الأكبر ممّن كانوا معي، في فندق إعادة الوحدة يقع بمواجهة إقامتي تقريباً، من الطرف الآخر من الشارع. والنقوش التي كانت تكسو جدرانه، ومعظمها في اللغة الروسية، كانت تمثل الإرث الثقافي لمهمّات إسعاف وصلت من

الاتحاد السوفيتي. إن المصلحة كانت تعكس اقتناعاً داخلياً، إن كل الأجانب لم يكونوا سوى جواسيس، بالقوّة، ويجب ملاحقتهم، للمغادرة حالاً، ورفض دون شفقة كل توسّل يقدمونه للحصول على وسيلة راحة مهما كانت أولية.

رافقني الدوق تو، حتى غرفتي، قبل أن يتاح لي مجال لإعداد لقائي الأول، لرئيس الوزراء فام فان دونغ، ولما كان لدينا بعض الوقت عزمنا، مساعديّ وأنا، على القيام بجولة قصيرة على الأقدام، مما دعا إلى خيبة أمل رجال البروتوكول الفيتناميين، وشاركهم فيها معظم حرسي الخاص، وخانهم هذه المرّة تحذلقهم الفيتنامي الشمالي. إذ ما من أحد توقع هذا الأمر، ولم تكن لديهم تعليمات بهذا الشأن، والحرّاس الواقفون على الباب، الذين حيّرهم الأمر، لم يمانعوا في خروجنا. وها نحن على أهبة التسكّع في شوارع، جعلتها نُدرة السيّارات، مهملة وهادئة، فيما كان الشعب متفرّغاً لأعماله.

يشغل قلب هانوي بحيرتان صغيرتان، طفنا حولهما، وكنا أول شخصيّات أمريكية رسميّة، تتنقلّ في هانوي بحريّة منذ عشرين عاماً. فيما كان على بضع مئات من الأمتار، أمريكيون أسرى حرب لا يزالون يتحملون قساوة الأسر. كان المارّة ينظرون إلينا دون تأثر ظاهر، ولا يُبدون لنا عداء أو صداقة، ويعتبروننا غرباء متنقلين دون أيّة فائدة ترجى منّا.

عدنا جميعنا إلى مقر إقامتي. وهناك لمسنا ذوق الفيتناميين الشماليين في المحافظة على التنظيمات الرسمية، وما اتخذوه لقاء ما قمنا به ولم يتوقعوه أمام باب الدخول، طلب منّا إظهار إجازة المرور. ولم يشكل ذلك أقل صعوبة لمعاونّي، الذين منحوا وثائق باسمهم في المطار. ولسوء الحظ، فإني لم أشرَك بورقة من هذا النوع. لا يمكن التهاون بأي تنظيم في بلد ما شيوعي يحكمه حزب واحد. وفي

هانوي، يصبح هذا قسرياً، فلم يسمحوا لي بالدخول. وحجة الحرس الفيتنامي الشمالي أنه لم يسمع أحداً يتكلم عني. فأظهرت امتعاضي بلباقة وتواضع معروفين. ظهر عند ذاك ضابط، فتردّد هو أيضاً، في مخالفة النظام. وتلا ذلك محادثة دامت عشرين دقيقة. ولجأنا إلى تدخل الدوق تو، ليوفّر لي خيارات أخرى غير خيار النوم على الرصيف. طرح أحد معاونيّ، هذه القضيّة، بعد ذلك بقليل، على أحد أعضاء جهاز التنظيم الفيتنامي الشمالي، فقدّم اعتذاره، مع عصبيّة، وبيّن كيف أن رؤساء الوفود، لا يحصلون على إجازات مرور، ممّا يدل على الاحترام !! وأخيراً سلّموني ورقة، كنت أتمسّك بها، كما لو كانت حياتي معلّقة بها.

زرت في اليوم التالي متحف الفنون الجميلة. ويجب أن أصرّح أنه كان مخيّباً للآمال. وكدت أقول إن هذا الشعب الموهوب، كتب عليه، أن يقضي كل أيامه، في قتال مستمر طوال وجوده، دون أن يخصّص بعضاً من وقته أو طاقته، إلى نشاطات أو أهداف محبّبة إلى النفوس.



أظهر زعماء هانوي أنهم لم يتخلوا عن عنادهم الذي قاسينا مرارته لسنوات عديدة، على الرغم من كوني أتفاوض هذه المرة، مع فام فان دونغ، رئيس وزراء جمهورية فيتنام الديمقراطية منذ قرابة عشرين عاماً. لكن تغيير الأشخاص، لا يلطف الوضع المتعالي المتعجرف، أو الخداع الكامن في دروس أخلاقية، أصبحت لديّ عادية.

لا يغيب فام فان دونغ، عن مخيلتي منذ شهر كانون الثاني من عام ١٩٦٧، بمناسبة المقابلة العظيمة، التي جاد بها لهاريسون ساليسبوري، من صحيفة نيويورك تايمس، ليبيّن له حينذاك، كيف ان هانوي تأمل الإنتصار على أعظم قوّة عالمية. وأكد دونغ في هذا اللقاء، ان تباين القوات خدّاع، لأن الفيتناميين الشماليين مستعدون للقتال طوال أجيال، في حين أن التفوّق الأمريكي المادّي، لن يدوم سوى ردح من الزمن محدود جداً. ويكفي ان يصمدوا أكثر منّا. ولقد أثبت المستقبل، ان نظرية فان دونغ كانت صحيحة، ساعدها في ذلك إستراتيجية أمريكية، تدفع بحلول عدّة، جعلت موقفنا الأخلاقي متّهماً من قبل الحلبة الدولية، ولكن بطريقة جدّ وَجِلَة، حتى بات الحلّ وبكل تأكيد عسيرا.

ان فام فان دونغ، عنيد وقاسٍ، وقد غشى افكارنا، وحتى ضمائرنا أحياناً، خلال السنوات اللاحقة. فكم أحيت آراؤه من آمال في الرأي العام، وخيّبت آمال الحكومة. وألغى في بداية عام ١٩٧٢ بمنطق غير مقبول كل فكرة توحي بتسوية. وعندما توصّلنا إلى تسوية بعد مدة بسيطة من العام نفسه، فإن اللقاء الذي منحه لصحفي أمريكي، جعل تفسير الاتفاقية مغرضاً وأسهم في قطع المفاوضات. وخلال المرحلة الأخيرة للمحادثات، فان الاتصالات المهمة الواردة من هانوي الى الرئيس نيكسون كانت بتوقيع فام فان دونغ!!

كلام فام فان دونغ موجز وجاف، لكنه يقظ وجذر، نظره ثاقب، يخشى دون انقطاع الوقوع في أحبولة متوقّعة، لكنّه يفرض في الوقت ذاته ان يقدّم لمحادثه البيّنة، مهما يكن الموضوع الذي يعالج، لا سيما إذا كان محادثه رأسمالياً أمبريالياً مثلي. استقبلني على مدخل بناء مؤلّف من عدة أجزاء كان يعرف سابقاً بإسم «بيت الرئيس». وفيه حكم المحافظون الفرنسيون المستعمرون كل الهند الصينيّة، ورسّخوا في أذهان أتباعهم من الفيتناميين ـ وكانوا يصدقون ـ فكرة ان حدود الهند الصينيّة

يجب ان تتطابق دائماً مع تلك الحدود، التي ثبتتها الامبراطورية الفرنسية الاستعمارية. والتمدّد الفيتنامي الذي أصبح فيما بعد كابوس البلدان المجاورة، حتىقبل وصول الفرنسيين انتعش هذا التمدد وجعله قانون الاستعمار شرعياً. وكان بعد المدخل قاعة استقبال كبرى، جلس الجميع فيها متحلّقين، لاجراء محادثات تمهيدية، دون بروتوكول، كما هو في الصين. ومثلما جرى معي في الصين أيضاً، كانت مناسبة لطرح أفكار مفاجئة، لخلق جوّ مباحثات.

بدأ الاجتماع بصورة مرضية جداً، وطالب كل من فام فان دونغ وأنا وبملء إرادتنا، البدء بعهد جديد في علاقاتنا، ووعدنا بالمواظبة في سبيل الوصول إلى ذلك. وتقدم رئيس الوزراء بمذكرة نشاز إلى المحادثات، تدعو إلى استئناف الحرب، وإذا لم يتم توطيد نوع جديد من العلاقات يسمح بإقامة أساس ثابت من المنفعة المتبادلة، حسب قوله، وبالتالي فإن جميع اتفاقيات باريس الحديثة، لا شأن لها سوى تهدئة الوضع جزئياً، ولا يمكن اعتبارها إلاّ استراحة. غير أنه فجأة، لطّف لهجة خطابه، وأردف قائلاً: أن هذا ليس هو الحل الذي تفضله هانوي. ولما كان لينينياً أميناً عاد إلى تصريح صادر عنّي، عندما قلت، ودون مقدّمات، أننا سنبني علاقاتنا المستقبلية، على مواقف عملية. ولم يستطع فام فان دونغ نفسه الامتناع عن العودة إلى نص المقابلة والحديث الذي دار فيها بينه وبين هاريسون ساليسبوري من صحيفة نيويورك تايمس، الذي أورد فيه: "أننا نحن الفيتناميين، نعيش هنا على هذه الأرض، وسوف نبقى فيها إلى الأبد". لكنكم أنت تأتون من الطرف الآخر للمحيط، أفلا يجب أخذ هذه الناحية، بعين الاعتبار، في الوضع الحاضر؟؟ ومن جهة أخرى، كان يسألني عن موعد مغادرتنا فيتنام الجنوبية، فأجبته بتلميح واضح، من تشريع البلد المستقل، الذي هو فيتنام الشمالية: "لأجل هذا، وعلى الرغم من كل الأحداث التي تجري الآن، فإننا لا نهدّد أبداً استقلالكم".

ولم يكن فام فان دونغ، ميالا إلى التصديق، إن الدوق تو، قبل في حينه، وتصرّف في حدود مبدأ فلسفي، ودون مقابل. ولذلك لم يفته إصدار تحذير جديد مفاجئ، بالنسبة لما تبديه هانوي من عناد: "يجب أن نفكّر بذلك".

وهكذا، لم يتباطأ فام فان دونغ، في هدم أملي الضعيف، في أن يصبح كما هو (شوان لاي) شريكاً جديداً، قادراً على تغيير عداوة قديمة إلى تعاون جدي ومثمر، وأعتقد أن السبب في ذلك أن فيتنام غير الصين، فإن فام فان دونغ، يمثّل شعباً فرضّ بالقّوة، عناداً لا يقّهر، بينما (شوان لاي) كان زعيم بلد، رسّخ آثاره في التاريخ، بسموّ ثقافته، ونبل تشريع مسيرته.

وبعد هذا التبادل المبدئي من تهجّم وردود، توجه كلّ من فام فان دونغ، وأنا، ومعاونونا، إلى قاعة اجتماعات أكثر بروتوكوليّة، مجهزة بأثاث فخم، تغطي نوافذها ستائر مغلقة. وجلسنا وجاً لوجه، ولم تمضي فترة طويلة حتى انغمسنا في مشادة كلامية جديدة. وبعد أن وجّه إلي رئيس وزراء فيتنام الشمالية، خطاب ترحيب قصير، رسمياً ولطيفاً: عبّر فيه عن أمله أن يرانا وقد توصّلنا إلى نتائج حسنة، فرددت عليه بالعبارات التالية:

"نحن بالحقيقة نُطري ونعيش ايديولوجيات مختلفة، ولا يجدي أن ندّعي العكس، لكنّنا برهّنا من خلال العلاقات التي نتعامل بها مع البلدان الأخرى، أنه ليس بالعسير أن نعثر فيها على ما يهيئ إقامة علاقات حسنة، وتعاوناً فعّالاً. وعلى المدى البعيد، وفي نظرة تاريخية، نرى أن قوّة واستقلال، وثقة فيتنام بنفسها، لا تعتبر أبداً غير متوافقة مع مصالح الولايات المتحدة القوميّة. لقد انجرفنا في تيّار هذه الحرب، وأصبح كل منّا يعارض الآخر، بسبب إشاعات كاذبة ومغلوطة تشاع هنا وهناك. كنا نعتقد أن الحرب تُدار انطلاقاً من مكتب مركزي

غير موجود على أراضيكم. ربما أنكم اتخذتم من تاريخكم عبراً لم تكن دقيقة تماماً. ولكن مهما تكن ظروف عملنا السابق ومصلحتنا في الهند الصينية، فنحن مطالبون بالمحافظة على استقلال وسيادة كافة بلدان شبه الجزيرة، وهذا حسب مفهومنا، لا يناهض مصالحكم".

لم يُسَر فام فان دونغ، وبصورة خاصّة لمطالبتي إياه بالمحافظة على مكانته المرموقة. ان استقلال وسيادة البلدان الأخرى في الهند الصينية، لم يرد ذكرها مطلقاً بين أهداف فيتنام الشمالية حتى الآن، وتبيّن بوضوح أيضاً انها لن تكون أحد أهدافها على المدى البعيد في المستقبل. وهي لا تقبل بوجهات نظرنا بإعتبار فيتنام الجنوبية دولة ذات سيادة. وأقدمت على تحفّظ غير عادي بهذه المناسبة. ولقاء ذلك، كان هناك شيء لا يمكن السكوت عنه، ألا وهو تلميحي بقابلية فيتنام الشمالية على الخطأ.

«بالنسبة لما حدث بيننا وقد ألمح إليه الدكتور كيسنجر، وكأنه سوء تفاهم، لقد أعدنا ولمّرات عديدة وجة نظرنا للأشياء ومن جانبنا، فقد عملنا، على ما أعتقد، ما كان يجب علينا عمله. . . .)

وبعباة أخرى، فان الخطأ جميعه كان من جانبنا، ولكن كما هي العادة، فقد تقشّعت هذه الغيوم بصورة سريعة. وتابع دونغ: «أنه الماضي، السحيق وحدهّ وكم يلزمنا ان نستخلص منه بعض العبر للحاضر والمستقبل. ويجب علينا اتباع ما أوحت إلينا به أفكارنا، خارج هذه القاعة، والمحافظة عليه في هذه القاعة نفسها، ونقلع عن الحرب متجهين نحو السلم. . . .

ومن المجابهة الى المصالحة، كما تنص عليه الاتفاقية، والسعي لإقامة علاقات جديدة بيننا، وعلاقات متينة. على أسس اتفق عليها الجانبان، بُغية الوصول إلى الأهداف التي جاء على ذكرها وحدّدها الدكتور كيسنجر. وفيما يتعلّق بنا، فإننا

سنتبع هذا المسلك بكل ثبات، الأمر الذي يعني تطبيق الإتفاقية الموقعة بكل ما تحويه من نصوص».

كان جدول أعمالنا اليومية يحتوي على ثلاثة بنود رئيسية:

- احترام اتفاقية باريس.
- تطبيع العلاقات.
- إعادة بناء فيتنام اقتصاديا.

وما كدنا نبدأ بمعالجة الموضوع الأول حتى فوجئنا بشيء جديد:

أن هانوي غير راغبة في أن تجعل من اتفاقية باريس أولى المعاهدات التي يجب المحافظة عليها.

بُدئ بتنفيذ وقت إطلاق النار، في منتصف ليل السابع والعشرين من شهر كانون الثاني، حسب توقيت غرينتش، وذلك بموجب ما نصّت عليه اتفاقية باريس. فخرق حالاً من قبل الجانبين، لأن كلاً منهم كان يحاول وضع يده بقدر استطاعته على أراضٍ، خلال الساعات الأخيرة التي تسبق وقف القتال ولذلك فقد تلاحقت المعارك طوال الأيام التالية. وفي غضون المرحلة الأولى هذه، كان الجانبان متساويين ليس في خرق بنود الاتفاقية فحسب بل في نقض مبادئها. وسايغون التي كانت لا تزال في موطن قوّة، لم تترك مجالاً لخصمها أن يتغلب عليها. ومن ثمّ فقد ظهر أن الشمال وحده، نكث كثيراً بالتزامات معاهدة، لم يمضِ وقت طويل على توقيعه إيّاها.

واصطدم جهاز المراقبة الدولي، على الفور، بعرقلة العمل من قبل الشيوعيين. ولم تحددّ هانوي نقاط العبور الرسميّة، التي يجب أن يمرّ فيها العتاد العسكري،

حسب ما نصّت عليه بنود الاتفاقية، باستثناء أي مكان آخر، للمرور إلى فيتنام الجنوبية، تحت إشراف مراقبة دوليّة. كانت هانوي تعتقد، أنها بعدم تطبيقها لهذا البند من الخضوع لمراقبة دولية، تتخلّص كذلك من حظر منصوص عليه في بند آخر، يحدّد إدخال عتاد جديد، قطعة فقطعة لإبدال العتاد المستهلك. وهانوي متلبسة بخرق واضح لبنود الاتفاقية، تابعت إرسال معظم إمداداتها على طول طريق - هو شي مين - المحرّر من تهديد القصف الأمريكي، بطريقة مقلقة ومتزايدة منذ نهاية الحرب.

وبالنسبة للتنظيمات السياسيّة، فإن سايغون، لم تقم بتشكيل مجلس مصالحة قومي، ولا مجلس وفاق وطني، حسبما نصّت عليه الاتفاقية. ومن جهة هانوي فقد كانت تفشّل كل محادثة تهدف إلى إجراء انتخابات، يشرف عليها المجلس.

وفي حين أن لا هذا الجانب الفيتنامي ولا الآخر، يهتم بتنفيذ التنظيمات السياسية، ولا مجال أيضاً للشك، ان تسللات غير متساوية من الرجال والعتاد، أخذت سريعاً وجهتها نحو هانوي، ثم تزايدت سابقة ما يتوقع من خرق لإتفاقية باريس، والذي نسب فيما بعد الى سايغون، من قبل متملقي هانوي.

ولإثبات أقوالنا حول هذا الموضوع، تقدمت بلائحة مخالفات ارتكبتها فيتنام الشمالية، خلال الأسبوعين الماضيين منذ توقيع الاتفاقية. لم يبق هذا البيان مجالاً للشك. ولم تأخذ هانوي على نفسها أيّة مسؤولية في احترام بنود اتفاقية وقعتها حديثاً. وكان بحوزتنا البرهان الذي لا يُدحَض، مائتي مخالفة كبرى في المجال العسكري.

وأكبر هذه المخالفات وأهمها، كان تحريك مائة وخمسة وسبعين شاحنة خلال

المنطقة المنزوعة السلاح، في السادس عشر من شهر شباط، وتحريك مائتين وثلاث وعشرين دبّابة في طريقهما الى الجنوب، مارّة بلاوس وكمبوديا. ان المرور بالمنطقة المنزوعة السلاح، يشكل خرقاً للمادة (١٥/ أ) التي تطلّب وضعها قرابة شهرين. ويحظر مضمونها كل تحرّك عسكري، دون الأخذ بعين الاعتبار وجوب السماح لسايغون بتنقل السكان. وهذا يشكّل كذلك خرق الشروط الواضحة، التي تمنع ادخال أي عتاد جديد إلى فيتنام الجنوبيّة إلاّ في حالة استبدال عتاد مستهلك، قطعة فقطعة، مارّة بنقاط خاضعة لمراقبة دوليّة (المادة السابعة). وتحريك الدبّابات خلال لاوس وكمبوديا، يخالف المادة العشرين، التي تنص بنودها، على وجوب مغادرة القوات الأجنبية هاتين الدولتين، اللتين لا يجوز استخدام أراضيهما كقاعدة هجوم ضد بلدان أخرى. وصول الدبابات إلى فيتنام الجنوبية خرق للمادة السابعة، والتي تمنع ادخال عتاد جديد إلى الجنوب.

لم يقلق الأمر كثيراً كلاً من، فام فان دونغ والدوق تو. ومع ما أحمله من ذكريات لسفاهات حمقاء، منذ لقاءاتنا في باريس، فلم يكتفيا بذلك، بل أقدما على تفسير المخالفات، بعبارت لا تمت إلى الموضوع بصلة، لكنها شوّشت القضيّة كثيراً.

هناك استاذ حقوق، كان يدرّس طلابه طريقة الاستفادة من كل عبارة للدفاع عن زبونه، فإذا اتهم هذا الزبون بسرقة وعاء أسود فان الطريقة الفضلى ان يقال: «أولاً ان المتهم لم يقدم على سرقة اي شيء أبداً، ومن ثم أنه لم يسرق إناء، وأخيراً ان هذا الإناء ليس بأسود). والدوق تو، الذي سمح له فام فان دونغ بالكلام، باشر كلامه بالطريقة نفسها، فلم يكن هناك مخالفات حسب رأيه. وعلى كل حال فإن الشاحنات التي اجتازت المنطقة المنزعة السلاح، كانت محمّلة بحمولات مدنيّة. وفي هذا طبعاً مخالفة للمادة التي تحظر كل شحنات مدنية دون موافقة سايغون. وكل حظر تفرضه

المادة السابعة يصبح باطلاً، إذا اكتفت هانوي بتصريح بسيط، ان كل شحناتها هي شحنات مدنيّة لتنقذها من المراقبة الدولية. ونفى فام فان دونغ والدوق تو دون سابق تحقّق، كل ما أتيت على ذكره من قرائن بالنسبة للدبّابات، لكنهما وعدا القيام بتحرّي ذلك. وأعلنا عقب ذلك، ان الدبابات كانت في خط سيرها عند توقيع المعاهدة،وهذا طبعاً لا يبرّر أبداً دخولها غير الشرعي إلى فيتنام الجنوبية. وأعطيت الكلمة النهائية، لنائب وزير الشؤون الخارجية نغوين كو تاش الذي قام بدور مناقشة البروتوكول التقني مع السفير وليم سوليّفان، فأكّد قائلاً: ان الغاية القصوى، في أن تكون تلك الشاحنات تنقل كذلك إمدادات خاصّة بالمدنيين.

ان توسلات هانوي الملحّة، لما يقرب من مليونين من الفيتناميين الجنوبيين كانت تعتبر انها مسؤولة عنهم، ان هذه التوسلات كانت واضحة، وكانت بحاجة للإثبات طوال مدة الاعتداءات. وبدأت أشعر وكأن قلقاً يساور فكري، واننا كنّا في طريقنا إلى عدم التحمّل، وإذا اقتضى الأمر يجب أن نصل إلى اختبار القوّة، بسبب هذا التسلّل والإمدادات غير الشرعيّة، وإلاّ فان الحرب ستعود، حالما تستعد هانوي، بنوع اننا نكون قد حصلنا بثمن باهظ، على مهلة وجيزة نتمكن أثنائها من سحب قواتنا.

أصبت أيضاً بخيبة أمل، عندما تباحثنا في موضوع أسرى الحرب، أو الذين اعتبروا في عداد المفقودين. كنّا على علم، بوضع ثمانين حالة على الأقل، من عسكريين أمريكيين أُسروا أحياء، ثم اختفوا على الأثر (ونملك إثباتات لهذه الوقائع بفضل تسجيل اتصالات شفهيّة، أعطيت للمواقع، من قبل ذوي العلاقة أنفسهم قبل أسرهم، أو بفضل نشر صور واتصالات شخصيّة، صادرة عن الشيوعيين أنفسهم). ولم يرد ذكر لواحد من هؤلاء، في لوائح أسرى الحرب، التي تسلّمناها بعد توقيع الاتفاقية. لماذا؟؟ هل كانوا أمواتاً؟؟ وبأية طريقة ماتوا؟؟ هل اختفوا؟؟ كيف كان ممكناً ذلك بعد أسرهم؟؟

وعندما لفت، انتباه محدّثي، حول تسع عشرة حالة من الأسرى الذين كانت صورهم قد نُشرت في الصحافة الشيوعيّة. قال فام فان دونغ، دون تعريض نفسه لأية شبهة، أن اللوائح الحالية كاملة، ولن يجهد نفسه بتبيان الخطأ. ثم أردف قائلاً: لقد دلّت التجارب أن هناك بعض الأمور تدعو أحياناً إلى وقت طويل، للتمكن من الحصول على معلومات كاملة عنها، بسبب طبيعة الأرض في الهند الصينيّة، ولم يتكلّم بإسهاب عن العلاقة الكائنة بين الأرض واختفاء الأسرى. ولم نحصل أبداً على بيان لمصير العديد من هؤلاء، الذين نشرت صورهم الصحافة الشيوعية، وكان هذا نصيب بعض الطيّارين، الذين علمنا عن طريق اتصالات شخصيّة، أنهم وصلوا إلى الأرض سالمين.

ولتنقية الجو، وعد الدوق تو، أن يسلّمنا عشرين أسيراً قبل التاريخ المقرّر، تكريماً منه لزيارتي، واقترح عليّ أن أنتقيهم بنفسي من الأسماء المبيّنة في اللائحة. رفضت الانتقاء. لم يكن لديّ أي سبب يسمح لي بالتمييز بين رجال تحملّوا الكثير وعلى مدى طويل (وعلى كل حال، فإن الأسرى الذين عانوا مدة أطول من الاعتقال، أفرج عنهم أولاً)، واحترم هذا الوعد، وأفرجت هانوي عن عشرين أسيراً، بالإضافة إلى الفريق الأول.

كان الفيتناميون الشماليون يظهرون وكأنهم في أوج عنادهم بالنسبة للاوس وكمبوديا. والمادة العشرون، من اتفاقية باريس، تنص بكل وضوح، أن على البلدان الأجنبية، وضع حدّ لكل نشاط عسكري في كمبوديا ولاوس، وسحب جميع قواتها، الموجودة في هذين البلدين. وفي اتفاق مكتوب على حدة، كنت اتفقت والدوق تو، أن تكون الفرق الأمريكية والفيتنامية متساوية مع الفرق الأجنبية، في حدود منطوق هذه المادة. وإذا كان ثمة معانٍ للكلمات، فإن هذا التنظيم يتطلب انسحاب

الفيتناميين الشماليين السريع من لاوس وكمبوديا، ومحظور عليهم استخدام الأراضي الكمبودية واللاوسية لإقامة قواعد ومراكز، وإجراء أي تسلّل.

لم أتابع محادثاتي مع فام فان دونغ، قبل أن يتوصل الفيتناميون الشماليون إلى فرض إرادتهم، بتجريد المادة العشرون من كل محتوى. وكانت فحوى كلامهم، أن الانسحاب، غير المشروط حسب الظاهر، يجب تأجيله ليس حتى الاتفاق على وقف إطلاق النار في كمبوديا ولاوس فحسب، بل حتى التوصل إلى تسوية سياسية في البلدين. ولن تسحب هانوي قواتها إلا بعد إجراء مفاوضات مع الحكومتين اللتين ستشكلان فيهما. وبما أن مقتضيات أمور الشيوعيين السياسية، عادت لتفرض تفوّق الباتيت لاو في لاوس، وانتصار الخمير الحمر في كمبوديا، لذا فإن انسحاب الفيتناميين الشماليين سيتم، فيما إذا لم يبقَ لوجود القوات أية فائدة، وأن تُحل القضيّة لصالح المعسكر الشيوعي.

وفي الواقع فان هانوي كانت تقترح إجراء مفاوضات مع عملائها من لاوسيين أو كمبوديين، حول البدء في العمل بتعهّد يُتفق عليه معنا. على الرغم من أن القضيّة بحد ذاتها، لا تحتوي شيئاً يشير إلى موضوعنا، فقد كان واضحاً أن الدوق تو، قد رفض قطعياً في محادثات باريس الحديث عن أية تسوية سياسية في لاوس وكمبوديا. وبالنتيجة لا يمكن اعتبار ذلك شرطاً مسبقاً، يوجب احترام الالتزامات الموقع عليها.

إن هذا التفسير المثير من قبل هانوي، كان نذير شؤم، لا سيّما بالنسبة لكمبوديا. وفي لاوس، كانت المفاوضات تسير بخطى ثابتة، بعد أن حصلنا على وعد من هانوي، في إيصالها إلى نتيجة مرضية، خلال خمسة عشر يوماً. أما في كمبوديا، فقد رفض الخمير الحمر، التباحث مع كل من لا يمثل المعسكر

الشيوعي. وكان ردّهم هجوماً عسكرياً جديداً، حالما أعلن عن وقف إطلاق نار، أحادي الجانب، من قبل لون نول. لقد ارتكبنا خطأ عندما عقدنا صلحاً في فيتنام، دون إجراء تسويات أساسية، في كمبوديا، لأن الكونغرس الأمريكي، لا يتسامح بأي تأخير ينسب فقط إلى هذا البلد، وأيضاً لأن خبراءنا أجمعوا على أن الخمير الحمر، لا يتمكنون من إحراز النصر وحدهم. وطبعاً يمكن التوصل إلى تسوية مصالحة، إذا لم يحصلوا على عون منطقي، ومساعدة في القتال من قبل الفيتناميين الشماليين، كما يفرضه الاتفاق. ولكن إذا ثابر الفيتناميون الشماليون على ما هم عليه من خرق لهذا الاتفاق، فإنهم سيرجّحون كفة الميزان إلى جانب الخمير الحمر. أضف إلى ذلك، فإن جميع دراساتنا تقريباً، كشفت أن استيلاء الشيوعيين على كمبوديا، وفتح جبهة قتال جديدة، وطريق تموين بحري، بوساطة ميناء سيهانوك فيل، ستهدم كل فرص بقاء فيتنام الجنوبية.

غنيّ عن القول، أن جوابي لفام فان دونغ كان فظّاً. وللحقيقة فقد تكلمت بتهكم، محاولاً الحصول على احترام من قبل هانوي يكون دائماً بشأن سيادة حلفائها. ومن الغرابة بمكان أنّ أركن إلى أن هانوي غير قادرة على اتخاذ قرارٍ أحادي الجانب، لسحب قواتها من بلد دخلت إليه، بناء على تطبيق معاهدة، وُقّعت منذ أقل من خمسة عشر يوماً. ولم يكن جنود فيتنام الشمالية، أسرى على هذه الأرض القريبة. وهانوي التي كانت جلبت قواتها إليها، دون موافقة مسبقة، من حكومات شرعية، قادرة بكل تأكيد على سحب جيوشها منها بطيبة خاطر.

أحدثت أرائي تلك تأثيراً عميقاً. كما أثبتت التجارب أن هانوي، لا تتمسك دائماً بموقفها المبدئي، وكانت بعد كل هذا قد تخلّت عن موقف مشابه بخصوص فيتنام الجنوبية. والنتيجة الوحيدة المباشرة، التي حصلنا عليها، كانت وعداً، قطعه

على نفسه الدوق تو، باستخدام نفوذه، لتنفيذ سريع لوقف إطلاق النار في لاوس. وطُبقّ أخيراً وقف إطلاق النار، في الثاني والعشرين من شهر شباط، ولكن بعد أن قصفت القاذفات الأمريكية (B-52) تجمعات قوات الفيتناميين الشماليين في لاوس، وسط اعتراضات غاضبة، في الكونغرس وعامة الشعب، الذين كانوا يتهموننا بتمديد الحرب مدة أطول.

إن عناد الفيتناميين الشماليين، حكم على كمبوديا، أن تتحمّل آلاماً مبرّحة. زعم فام فان دونغ والدوق تو، أن فيتنام الشمالية، لا دخل لها في قضية كمبوديا، الأمر الذي كان يشكّل تحريفاً جلياً للحقيقة، وتبيّن في نفس الوقت عدم حاجتهما إلى اتخاذ موقف، بشأن وقف إطلاق النار الذي أعلن عنه لون نول. واحتقرا عرض الأخير، بإجراء مفاوضات، سواء مع الخمير الحمر، أو هانوي، وتمسّكا بموقفهما لعام ١٩٧٠، وأصرّا على إسقاط حكومة كمبوديا. وكما جرى معنا في المفاوضات حول فيتنام، فقد وصلنا إلى طريق مسدود، وطالبا بتغيير التنظيم السياسي في فنوم بين، قبل الدخول بأيّة مباحثات، الأمر الذي يجعل المحادثات غير موضوعيّة.

في الحقيقة، لم تكن هانوي تقبل بحكومة إئتلافية في كمبوديا، وكان يهمها وضع يد شيوعي صرف حينئذ نصحني الدوق تو، وبوقاحة، أن التقي سيهانوك، وكان الغموض يلفّ كلامه، حول الأمير، وأنصاره. ولم يفته ان يبيّن بكل وضوح، أن الخمير الحمرسيقومون بدور حاسم، في مستقبل كمبوديا. ان الدوق تو (كان معروفاً أنه خبير المكتب السياسي، لكل ما يتعلق بالبلدان الأخرى في الهند الصينيّة) أخذ موقف المتعجرف من سيهانوك. وتهكّم على رحلته الحديثة التي قام بها إلى هانوي، وانتقد حبّ الأمير وتعلّقه بالظهور الشخصي. ومن ثمّ أرانا فيلماً دعائياً، حول جولة سيهانوك، في الأراضي الخاضعة لمراقبة الشيوعيين في كمبوديا. وكان يبيّن بوضوح،

ان سيهانوك كان مقيماً هناك، بناء على رغبة الخمير الحمر، ونفعه الوحيد، حسب رأي الدوق تو، هو استخدامه أداه لتدمير حكومة لون نول.

ان الدوق تو، كان ينخدع، في مرونة الخمير الحمر، الذين يرفضون ان يكونوا أدوات في يد هانوي، على الباتيت لاو. وربّما كان على استعداد لدفع الثمن، إذ منح للخمير الحمر، حكماً ذاتياً مؤقتاً، لأن النتيجة المباشرة، لأنتصارهم في الحرب، ستكون تقويض حكومة سايغون، التي لا تستطيع العيش طويلاً متشيّعة لكمبوديا. وكان لهانوي كذلك، كما ثبتت رؤيته بعد ذلك، طريقة مجربة ومجدية، لمعالجة ووضع حدّ لما يقوم به الخمير الحمر من مظاهرات، وإذا تمادوا في غيّهم. و بعد أقل من أربع سنوات من إنتصارهم، أي عام ١٩٧٥، كانت فيتنام الشمالية، ترسل قواتها، للاستيلاء على كمبوديا الشيوعية واحتلال أراضيها. دون إبداء أي اهتمام كانت تظهره تجاه كمبوديا سيهانوك الحياديّة، نحوأواسط الأعوام ١٩٦٠، وكمبوديا لون نول عام ١٩٧٠.

كنّا على استعداد، لاجراء تسوية، تشكل على اثرها حكومة ائتلافية حقيقية، مع سيهانوك، للتمكن من مسك زمام الأمور. ان ما كان يرضي هانوي. هو قيام حكومة شيوعية يكون فيها سيهانوك رجلاً لا قيمة له. وكما جرى سابقاً مع سايغون، فان اشتراكنا في المفاوضات كان يعني بالنسبة لفيتنام الشمالية، التخلّي عن حليفنا. وإذا كنّا قد اضطررنا، إلى العودة للقصف في شهر شباط، إنما كان هذا، نتيجة فعليّة لرفض الشيوعيين الثابت لكل وقف إطلاق نار، طبيعي أو متفق عليه، أو اجراء أية مفاوضات حقيقية حول كمبوديا، وسبب كل هذا هجوم عسكري جديد من قبل الخمير الحمر. كان هدفنا الوصول، إلى توازن قوي، يفقد الشيوعيين كل أمل بحلّ عسكري، ولحثّهم برضا أو بغيره على اجراء تسوية. وفشلت هذه المحاولة، عندما منع الكونغرس، في شهر حزيران من عام ١٩٧٣، كافة العمليات في الهند الصينيّة.

وبالنسبة لتسوية، نتيجة مفاوضات، في لاوس، فإن موقف زعماء فيتنام الشمالية ظلّ غامضاً. ولقد أبلغني فام فان دونغ، في ظرف ما، انه يستطيع التوسّط خلال تسعين يوماً على الأكثر، بعد وقف إطلاق النار، وبالغرابة الأمر، فقد أفشله الدوق تو، الذي طلب إليّ لقاء خاصّاً، فقط ليبلغني أن أمور لاوس وكمبوديا، لن تناقش بعد الآن، إلاّ معي، لأن رئيس وزرائه، لم يكن علىعلم بجوانب الأوضاع. وعلى كل حال، لم نتوصل إلى إتفاق حول تسوية سياسية في لاوس، إلاّ في الرابع عشر، من شهر أيلول لعام ١٩٧٣. وحكومة الائتلاف الجديدة، التي شكّلت حديثاً حافظت بصعوبة علىتعايشها الهش، طوال عامين، قبل ان تُلتهمّ نتيجة اندحار تام في عام ١٩٧٥. ولم يبد الفيتناميون الشماليون، اهتماماً أكثر مما كانوا يظهرونه عام ١٩٦٢، ولم تكن نيّتهم وفاء تعهداتهم وسحب قوّاتهم. فكان هناك وبصورة دائمة من أربعين إلى خمسين ألف جندي فيتنامي في لاوس، حتى بعد تصريح هانوي غير المحدّد بقبول اتفاقية باريس.

❐ ❐ ❐

تضمنت المباحثات أيضاً تبادل بعض الآراء، ولكن دون جدوى، حول تطبيع العلاقات الدبلوماسية بين هانوي وواشنطن، وحول المباحثات الدولية، التي ستقام في باريس، لتضفي على الاتفاقية ضماناً دولياً. لم تكن هانوي على استعداد لإقامة علاقات رسمية معنا، ولا الاهتمام بافتتاح المكاتب، ولسبب أو لآخر، بسبب عدم وجود تمثيل دبلوماسي. واقترحنا العديد من الصيغ فكان نصيبها كلها الرفض. وبتبجح طبيعي، أظهرت هانوي، أنها ستمنحنا مكافأة، عندما ترى أننا نستحقها فعلا، بسماحها لبعض الدبلوماسيين الأمريكان، بمشاركة عدة دبلوماسيين غربيين، وطبعاً سوفيت، النفي والآلام، التي كانوا يقاسونها في فيتنام الشمالية.

وبالنسبة للمفاوضات الدولية، فكان اهتمام هانوي منصبّاً، على تقليص اشتراك الأمين العام للأمم المتحدة فيها إلى الحد الأدنى الممكن، هذا إذا لم تتمكن من إلغاء دوره نهائياً، فأوجدنا لها وظيفة شرفيّة، تحافظ على كرامتها، مع الأخذ بعين الاعتبار، الطريقة السيئة، التي تعالج بها فيتنام الشمالية، قضايا السيادة القومية.

وفي الجلسة الختامية، بدا فام فان دونغ مغتبطاً من زيارتي ونتائجها. ومع ذلك، عندما أعدت قراءة حيثيات سفري، تبيّن لي أن سبب اغتباطه، لم يكن طبيعياً. فأسود أفقي، لكنيّ لم أقطع الأمل.

ربما بعد عشر سنوات من القتال المرير، لا يمكن أن نأمل بأكثر مما وصلنا إليه، تبادلت هانوي وواشنطن تكبيد بعضهما آلاماً مبرحة. إن آلام الخصم كانت مادية، أما آلامنا فكانت أخلاقية، والتي كانت أقسى، وصعبة الالتئام. أظهر مضيفونا كل لياقة، وعلينا ألاّ نستعجلهم، بشأن تغيير نواياهم. إنهم يطبقون طبعاً، الطرق ذاتها، التي استخدمت لإيصالنا إلى الحرب، ويتظاهرون الأخذ بالاتفاقية. وكانوا يمارسون ضغوطهم في جميع الأنحاء، مختبرين تحملنا، خارقين الترتيبات الأساسية، ليمتحنوا قدرتهم، ومعرفة كيفية إقامة علاقات تنطلق من موقع قوّة. ومع ذلك وعلى الرغم من كل ما كان لدينا من ريب، فقد عزمنا على بذل جهود كبيرة، للسير على الطريق الصحيح. لقد اجتزنا الكثير من الآلام، لنرمي أنفسنا في مجابهة جديدة. نستطيع التطلع والأمل يحدونا، إلى الأفق البعيد، فنرى هانوي ساعية لإرضاء نزعتها القومية، ومتقرّبة منا، لتنمية إطار تحرّكها، تجاه أسيادها الشيوعيين: بكين وموسكو. ربما كان تصلّب فام فان دونغ بإلحاحه، على قضية المعونة الاقتصادية، يدل على أن أسياد هانوي، كانوا يتفحصون إمكانية إعادة بناء مجتمعهم، قبل الإجهاز على الدول المجاورة. وفي هذه الحال، أصبحنا

جاهزين للتعاون معهم. لكني كنت أحمل الكثير من الشكوك التي تمليها علي بتجربتي الدبلوماسية. فغادرت هانوي وكان عزمي متفوقاً على تفاؤلي. اجتازت عربتنا، الجسور المعلّقة ذاتها باتجاه طريق مطار جيالام ثم طرنا مجدداً بطائرة نقل سوفيتية، نحو مدرج نوابيه، حيث كانت بانتظارنا طائرة الرئاسة الأمريكية، فصعدنا إليها بارتياح. الجو الكئيب، والخشونة القاسية في هذا البلد، وعدم الثقة الواضحة، التي كنا هدفها، تجمعت كلها في هانوي لتجعل جوّها غير مقبول، أكثر من أية عاصمة أخرى أجنبية قمت بزيارتها. وزعماء فيتنام الشمالية، كانوا حذرين، وغير محافظين على عهودهم، حتى أن كل محاولة لإجراء محادثات مفيدة معهم، معرّضة للفشل، كما هي الحال مع الموظفين الشيوعيين الآخرين. قدّمت لنيكسون تقريراً، بينّت فيه وجهة نظري بالنسبة لمستقبل اتفاقية باريس:

"في الحقيقة، ليس لهم خيار، إلاّ في أحد أمرين، كما بينّت لهم ذلك بوضوح يمكنهم استخدام اتفاقية باريس سلاحاً هجومياً، بكسب قليل، وضغطهم على سايغون، وغير عابئين بنا في كل مناسبة. وفي هذه الحال، يصبحون قادرين على الإفراج عن أسرانا، وانتظار انسحاب قواتنا، للإعلان عن رأيهم دون غموض. ويحتفظون بقواتهم في لاوس وكمبوديا، مطيلين أمد المفاوضات، أو خارقين الاتفاقية عمداً، ثم يقومون بهجوم سريع مباغت.

"والإمكانية الأخرى، بالنسبة لهم، هي في الواقع، احترام تعهّداتهم والسعي للوصول إلى أهدافهم تدريجياً. وعندئذ يصبحون سعداء بإقامة علاقات معنا أكثر متانة، ويسعون للحصول على معونة اقتصادية من قبلنا. ويخصصون أوقاتهم لإعادة بناء بلادهم، فيما يكملون إشادة الشيوعيّة في الشمال. فيتجه حلفاؤهم في الهند الصينية، إلى متابعة ما يصبون إليه مستخدمين وسائل سياسية. وبالاختصار

سيختارون اتباع وضع أكثر سلاماً، ويلقون على التاريخ مسؤولية تنفيذ أمانيهم، خلال بعض سنوات.

"وأعلن الفيتناميون الشماليون، أنهم يميلون طبعاً إلى الأخذ بالحل الثاني، لكن هذا لم يكن يعني شيئاً. ولا أستطيع الحكم من خلال ما رأيت أثناء محادثاتي، عمّا إذا كانت خسائرهم الكبيرة، وخشيتهم من عدم مساعدة حلفائهم لهم، وأملهم بالمعونة الاقتصادية، ولد فيهم كل هذا العدول عن الحرب والأخذ بتنفس الصعداء. أنهم يفضلون وبكل تأكيد القدرة على اصطياد الأرنبين في آن واحد: خرق الاتفاقية، للتمكن من متابعة أهدافهم، وتلطيف علاقاتهم معنا، للحصول على معونتنا الاقتصادية.

إن مهمتنا الرئيسية هي إقناعهم بوجوب اتباع الخيار الذي يريدون. وهذه هي الغاية الأساسية من رحلتي إليهم، ولقد أفهمتهم أن الحل الأول سيؤدي بنا للعودة إلى المجابهات الماضية، وهم غير قادرين على الحصول على معونتنا الاقتصادية، والتهام الهند الصينية دفعة واحدة. ومن جهة أخرى، إذا برهنوا عن اعتدال، وحافظوا على تعهداتهم، فنحن على استعداد لتطبيع علاقاتنا معهم، تماماً كما فعلنا مع الصين. ولن نتدخل مستقبلاً بمشروع تقرير المصير، المتوقع حدوثه حينذاك في الهند الصينية مهما كانت جوانبه.

إن اجتياز هذه المرحلة، كان صعباً، حتى في أفضل الشروط وأسهلها. وكان هذا الأمر يتطلب أن تكون البلاد موحّدة، وأن تكون هناك حكومة أمريكية قويّة جداً، ذات عزم وانتظام، قادرة أن تتصرّف بحزم وأن تحافظ وتصون توازن القوى من الأخطار والتعهدات المنبثقة عن اتفاقية باريس. لكن مشكلة واترغيت، حالت دون ذلك، وبكل تأكيد.

الفصل الثاني

خطوات أخرى إلى الأمام

عندما غادرت هانوي بالطائرة، أعطيت نفسي فرصة استجمام في هونغ كونغ لمدة ثماني وأربعين ساعة. كلما كنت أغادر بلداً شيوعياً (باستثناء الصين) كان يدهمني إحساس بالانفراج. فلما يتحرّر المرء من كل ما هو مسيطر فيها: أحادية اللون الشاحبة، والمُثلة المرهقة، واحتقار كل ما يتميز به كل شخص بشري من صفات فريدة، يصبح لدى هذا المرء هدوءً بعد ضغوط، وشعور بحيوية مفرطة. إن هانوي، كانت العنصر المخيف في كل العالم الشيوعي. ومن مفارقات الحياة، إن رضاها عن نفسها، الملموس في هونغ كونغ، بالنظر لماديّتها العدوانية، التي كانت تنطلق إليها بفرح، كان كل هذا يعيد إلى ذهني كم أن الطبيعة البشرية مختلفة.

اغتنم الصينيون فرصة مروري بهونغ كونغ، فأعلموني بإمكانية قبولي لديهم برقّة تظهر في آن واحد، كم هو غير مُجدٍ خداع شعب اختص نفسه بمزيّة احترام الأجانب طوال ثلاثة آلاف عام. وأدباً كنا امتنعنا عن إعلام بكين ببقائنا في هونغ

كونغ ـ الأرض البريطانية المحصورة في أرضٍ صينية. وعلى العكس من ذلك، فقد كنا تأكدنا قبل الوصول إليها، إن لا غنى لنا عن بحارة صينيين لايصالنا إلى شانغهاي، وهذا يشكل بالنسبة لنا عودة آمنة.

لدى الصينيين، مصلحة استخبارات قادرة ولائقة في آن واحد. ودون أن يعرفوا بتوقفنا في هونغ كونغ، طلبوا إلينا اصطحاب بحارتهم إلى كانتون، وهذا يؤمّن لنا سفرنا. وعلى الرغم من عدم إعارتنا اهتماماً كبيراً لهذا الأمر، فإن رئيس مكتب الوكالة الصينية الجديدة، الذي كان يعتبر الممثل الأعلى للصين في هونغ كونغ، اغتنم المناسبة ليبيّن لنا، أن لا شيء يجري في مستعمرة التاج البريطاني هذه، وتجهله الصين. واستعلم من قنصليتنا ساعة مغادرتنا ليتمكن من الذهاب إلى المطار ويكون في وداعنا، وهذا ما جرى فعلاً.

وصلنا إلى بكين بعد ظهر الخامس عشر من شباط لعام ١٩٧٣. ورحلتي هذه هي الخامسة إلى إمبراطورية الصين وأصبحت بكين معروفة لدي. ولقد حظينا باستقبال حار، وطبعاً، يعود الفضل في ذلك إلى تسوية الحرب في فيتنام. كان الصينيون يظهرون وكأنهم قد تخلّصوا، من كل المتطلّبات التي كانت قد فرضت عليهم لمساندة حليفتهم فيتنام الشمالية المتضرّرة. كان مضيفونا بانتظارنا عند سلّم الطائرة، وصفقوا عند نزولنا منها.

بعد قليل، اجتزنا وبسرعة شوارع بكين العريضة، إلى أن وصلنا إلى مقّر الزوّار الرسميين حيث مكثنا، وحيث استقبلنا الحرس ولأول مرّة رسمياً، حين اجتيازنا للحواجز المشبكة. وسنستقبل منذ الآن بتحيّة عسكرية، حيثما نذهب ويكون الحرس، حتى في قصر الشعب.

وما أن وصلنا، حتى قدم رئيس الوزراء الصيني ـ شو ان لاي ـ وأخذ يسأل كلاً منا، لجعل مقامنا أكثر راحة. وعلى الرغم من أن الصينيين ليسوا كاليابانيين، ميالين إلى المجاملات، فإن لياقتهم مع ذلك واضحة. ومن الطبيعي، أن يكون الجواب على أسئلة ـ شو ـ أننا لسنا بحاجة لشيء، وهكذا نتمكن من القول أن الضيافة الصينية حسنة. وإذا كان لابدّ من التعليق، فالأفضل أن يُطلب شيء لا يبالي به الصينيون من تلقاء أنفسهم. فإن إحدى سكرتيراتي، التي لم تستطع طبعاً، حجز لسانها، فطلبت أن يكون عشاؤنا بطّاً مليكاً، وهذا ما قُدمَ لنا، بصورة طبيعية، في كل واحدة من سفراتنا السابقة. وكان لطلبها تأثير قوي، إذ أني طوال بقائي في الوظيفة، فيما بعد، لم يقدّم لي بطّ مليّك أبداً. وكانت الغاية من ذلك إفهامنا، أن الصينيين لا يأتمرون بما يُطلب إليهم عمله، بل أنهم يعرفون واجبهم.

وبعد وضع هذا الخرق الصغير للبروتوكول جانباً، لا بد من القول ان الصينيين قد أظهروا كل لياقة نحونا. وخلال السهرة المعدّة لحفل ثقافي، تحاشوا تقديم أحد المشاهد الثوريّة، الذي لا تُحتمل رؤيتهُ، إلاّ من خلال غفوة. (ولتجنب الوقوع في أمور مربكة، أقدموا على تجاوز ذاك المشهد قبل إعادة النور، والإعلان عن النهاية فتبادر إلى ذهني، كيف ان المستشار الألماني هلموت شميت، الذي حلّ حزامه وفتح أزرار بنطاله، في سبيل أخذ بعض الراحة في جلسته، وبعد أخذ غفوة استيقظ على صوت التصفيق، فلم يتمكن من إغلاق فتحة بنطاله وشد حزامه والاشتراك في التصفيق في آن واحد).

ان البرنامج الثقافي هذا المساء، مُعد لحفلة موسيقية كلاسيكية ـ صينية وغربية معاً ـ تقدمها فرقة مدينة بكين، التي بدأت نشاطها حديثاً بعد ان كانت ضحيّة الثورة الثقافية. عزف الموسيقيون، السيمفونية السادسة لبيتهوفن. وعلى الرغم من ميلي الى كل ما هو صيني، لا أستطيع القول، ان الموسيقيين، كانوا يحاولون إطلاق العنان

للمسرح، بعد فاصل الثورة الثقافية الزمني المدمّر. وللحقيقة، مرّت عليّ فترات، لم أكن اتبيّن ما يعزفون، ولا كيف يميّز الموسيقيون التقسيم. لكن المهم وهو المقصود من وراء ذلك. هو وضع الصين في الطليعة، أعني خلع التسلط الذي فرضه عليهم الماضي القريب، وان يسير بالصين، ليس، فقط، نحو التكنولوجيا الغربية، بل بالثقافة التي أحدثتها. (وكان شديد الاندفاع، وفي السنة التالية، أصبح لنا حق جديد بالأوبرا، وبعد ان حكم الأطباء على شو، ان لا أمل بشفائه من مرض أبتلي به، لم يسمع قط من يتكلم عن تطوير الصين، أو انفتاحها على الغرب إلى ان توفي ماو).

كان شو كعادته: متحمساً، سريعاً، ذا ذهن مفتوح، لبقاً، مملوءاً ظرفاً. استقبلني بحرارة، وكانت قسمات وجهه تدل على عدم الحاجة إلى وجود مترجم. تعارفنا منذ تسعة عشر عاماً، ونمّينا صداقتنا أنا وشو وكان كل منا يكن للآخر مودة كبيرة، وأذكر أنني قلت له في بداية محادثاتنا:

"اعتقد أن السيد رئيس الوزراء، لاحظ ما كنت عليه من ارتباك اليوم بحضوره.

تساءل شو: ولماذا ؟

فقلت له: لأني قرأت، ما قد صرّحتم به للصحافة، أني الرجل الوحيد، الذي يستطيع أن يتكلم طوال نصف ساعة دون أن يقول شيئاً.

فقال شو مازحاً: أظن أني قلت: ساعة ونصف".

إن هذه الدعابة الودية، تدل على أن الصين بعد توقيع الصلح مع فيتنام أصبحت قادرة، على التقرّب منا بسرعة ودون عائق. وإذا كانت متانة العلاقات الصينية ـ الأمريكية في تزايد مستمر، فإن جميع ما يقدم عليه السوفيت من إجراءات عسكرية، لن يُقام لها وزن البَتة. إن عدد الفرق السوفيتية الموضوعة على

طول الحدود الصينية، ارتفع من واحداً وعشرين عام ١٩٦٩، إلى ثلاث وثلاثين عام ١٩٧١، وأصبحت خمساً وأربعين عام ١٩٧٣. إن الشعور بخطر عام مداهم، ينسي ما هو ثانوياً. وما كنّا نتمناه، أن يزداد تحسّن علاقاتنا، وانطلاقاً من هذا، تظهر منفعتنا من بقاء أرض الصين سليمة. وعندما تبادلنا، قبل سفري، المذكرات التمهيدية، طالبت أن يوضع في جدول الأعمال:

- تطبيع العلاقات.
- الوضع العالمي الحالي.
- السياسة الممكن اتباعها في الجنوب والجنوب الشرقي من آسيا، بعد الحرب" لم يجد شو هذه اللائحة طويلة بالنسبة له. وأجاب بوجوب إضافة شيء إليها: "أن المواضيع الأخرى، التي تتضمن فائدة مشتركة للفريقين يمكن بحثها أيضاً". وفُهم حالاً، أن تلك المواضيع الأخرى، كان يُقصد بها فتح مكاتب دبلوماسية، هنا وهناك، في العواصم ذات العلاقة.

لقد قطعنا مرحلة حسنة، منذ بدء المصادمات التي جرت على الحدود الصينية ـ السوفيتية، التي نبّهتنا وللمرة الأولى إلى وجوب اجراء اتصالات مع بكين. كما أننا قضينا أكثر من عام ونصف، لنجد وسيطاً يأمن جانبه الفريقان. كنا نعتقد ان بكين تفضّل وساطة بلد شيوعي، ولهذا وقع اختيارنا على رومانيا. وأتضح لنا فيما بعد، ان الصينيين قلقون جداً، من إحداث خلايا سوفيتيّة، لدى الأحزاب الشيوعية في أوروبا الشرقية. ووردتنا المذكرات الحاسمة في الظرف المناسب، من قبل الباكستان، البلد الوحيد في العالم، الذي كان يتحالف في وقت واحد مع الولايات المتحدة والصين.

في رحلتي السرّية الأولى إلى بكين، في تموز عام ١٩٧١، أقمنا اتصالات مباشرة بين بلدينا، وقررنا زيارةً للرئيس نيكسون إلى الصين. ولم تكن الثقة متبادلة بيننا، لنتبادل الآراء حول الوضع الدولي. وفي زيارتي الثانية، وإقامتي هناك في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧١، بحجّة تهيئة زيارة نيكسون، تبادلنا شو أن لاي وأنا، أحاديث خاصّة، حول القضايا الدولية. ومن خلال هذه الجهود المتخذة، في سبيل إظهار تحليل عام في السياسة الخارجية، لم تكن هي المناقضة الأولى، لنثبت لأنفسنا جهل الولايات المتحدة الكامل لحكومة بكين. كانت واشنطن تعترف وبصورة شرعية بحكومة جمهورية الصين في تايوان (فورموزا) وكأنها تمثل كل الصين. وكنا نرتبط مع هذه الأخيرة (فورموزا) بمعاهدة دفاع مشترك، وقوات عسكرية أمريكية، كانت مرابطة في الجزيرة، التي كانت تعتبرها الجمهورية الشعبيّة، وكأنها جزء متمّم لأراضيها. ولو شاءت بكين جرّنا إلى هذه الحلبة، على الرغم من تحدّينا شرعيّتها، فلم تكن لديها سوى وسيلة وحيدة، أي أن توازن بين تحدّينا والوجود السوفيتي على حدودها الشمالية. ونظراً لتهديد الاتحاد السوفيتي الوشيك الوقوع، فقد اختارت الصين تجاهل إهانتنا لها. وفي إعلان شانغهاي، بعد انتهاء زيارة نيكسون، في شهر شباط ١٩٧٢: توصّلنا إلى اتفاق مع الصين، بصياغة أعدّت بدقة، تعطي الحق لوحدة الصين، وأجّل اتخاذ القرار بذلك إلى فترة لاحقة. أن جميع هذه التباينات حول موضوع تايوان، متوقفة على صدور قرار وكأنه هدف الفريقين، أي الوقوف بقوّة في وجه أطماع وسيطرة الغير في أسيا، والاتحاد السوفيتي وحده، هو القادر على القيام بهذا الدور المعيب. وبعبارة جليّة، كان هذا يعني أن الصين والولايات المتحدة، كانتا على اتفاق في المحافظة على توازن القوى في العالم.

إن سفري عام ١٩٧٣، بعد عام من جولة نيكسون التاريخية، كان يجري بتفاؤل حسن. وهذا لم يكن يعني فقط، أننا أنهينا قضية فيتنام، بل لأن نيكسون، كان قد أُعيد انتخابه، إثر فوز انتخابيّ ساحق، بنوع حمل الصينيين على التفكير، أنهم يستطيعون التعامل مع زعيم قوي، طوال أربع سنوات على الأقل. وقضيّة تايوان، تبدو وكأنها تسير بنا إلى طريق غير سويّة. وكانت فكرتي تتفق، مع ما جاء في إعلان شانغهاي، عند انتهاء الحرب في فيتنام، من أن القوات التي تعاني المشقّة هناك، تُعاد إلى وطنها. وأعلن شوان لاي أن الصين لا تفكر "حالياً" بتحرير تايوان بالقوّة. زد على ذلك، أعلن الجانبان عن عدم إعارة هذا الأمر أي اهتمام، والالتفات إلى القضايا الدوليّة - أعني بها السوفيتية، التي تدور بفكر شو، فأعدنا النظر معاً بجميع الأحداث، بصدق يندر وجوده، حتى بين الحلفاء الأقربين.

وبالنسبة لشو، فإن نزاع الصين مع الإتحاد السوفيتي ، كان في آن واحد عقبة منيعة، وذا ديناميكية خاصة، غير ممكن كبح جماحه. ومن سخرية القدر أن الايديولوجية الشيوعية، تزعم وضع حد للنزاعات الدولية، بينما هي في الحقيقة، تجعلها غير قابلة الحل. وفي نظم تؤسّس على حقائق تُقدر أن تكون صائبة، فلا يسمح إلا بهذا التفسير، ويعتبر كل خصم يزعم بأصالة الرأي، انه جالب خطر مميت، وفي هذا الصدد، فإن الخلاف بين الإتحاد السوفيتي والصين، كان فوق جميع الايديولوجيات، وكان المطلوب ان يعرف من هو المالك الحقيقي للمبدأ الصحيح الذي سينبثق عنه تزجيه الأحزاب الشيوعيّة والتقدمية في العالم أجمع.

لا يمكن ان يوضع حد للنزاع، إلاّ بتبعيّة طوعية من الواحد للآخر، وهذا أمر خارج عن الموضوع لا يجوز بحثه، أو ربح معركة من الواحد على الآخر، الأمر الذي كان، كما تراه بكين، الهدف الحقيقي لموسكو.

وفي الوقت ذاته، فان النزاع بين الإتحاد السوفيتي والصين، يتجاوز كل موضوع ايديولوجي، في سبيل الحصول على ميزة أصلية. وللقوتين العظيمتين القاريّتين حدود مشتركة، تقدّر بستة آلاف وخمسمائة كيلو متر، شبه حلقة تبدأ من سهوب سيبريا الجليدية، حتى صحاري آسيا الوسطى المجدبة، والخط الفاصل كان يمرّ كيفياً، خلال بلد جاء منه الفاتحون ـ المنغوليون ـ الهون أو الكازاك لا على التحديد ـ والذين هيمنوا على شعوب المنطقة. ومن جهة أخرى فان السيادة كانت توزع إلىعدة مناحٍ، دون الأخذ بعين الاعتبار إلى العرق واللغة، بنوع ان وجود الشعوب المحلية، المحرومة من سيادتها، وتتكلم بلغتها الخاصّة، المختلفة طبعاً عن الروسي والصيني، كان إحساس هذه الشعوب يتزايد قلقاً وعداء كامناً. وفي هذه الأنحاء الفسيحة، المجهولة الحدود، فان السيادة بمعناها الحقيقي المعاصر، لم تكن سوى سلعة مستحدثة. وكانت الحدود تقدّم أو تؤخّر، على مدى التاريخ، حسب أطماع وقوّة الفرقاء المتخاصمين الموجودين.

ان جزءاً كبيراً من آسيا الوسطى، لم يُضم إلى منطقة نفوذ القياصرة إلاّ في القرن التاسع عشر، وكان يستولي على هذا القسم أسياد الكرملين، الذين رفضوا كل إرث يصلهم بأسلافهم، ما عدا غزواتهم. وهذا وحده كان كافياً ليجعل بين الصين وروسيا علاقات ذُهانيّة.

لا يستطيع أي زعيم سوفيتي أن يبقى غير مبالٍ أمام الحقائق الديموغرافية. ان قرابة مليار صيني، كانوا يضغطون على حدود، عرفت في المصادر التاريخية، بانها مناطق سيبرية فسيحة المدارس الصينية وتشكل جزءاً من الصين، ومقابل ذلك، فان في سيبريا المقفرة، ثلاثين مليون روسي فقط، هم الذين كانوا يُشغلون أرضاً غير هامة بالنسبة للشعوب السوفيتية، والتي على مدى التاريخ، كان تستعين بل تلجأ إلى الأشغال الشاقّة للتمكن من استعمارها. وفي عام ١٩٧٤، عندما زرت فلاديفوستوك ،

وأوساكا وسيبول، تملكني العجب في أنها لم تكن حاضرة آسيوية من التي تعجّ بالسكان، بل هي مدينة من مقاطعة أوروبية. وفي الواقع، كانت جغرافياً أقرب إلى هونولولو أكثر من لينينغراد، وأقل بعداً عن بكين من موسكو. فأخذت أتفهم الشعور بالعزلة، والحس الداخلي العميق، الذي يدفع بالقادة السوفيت، إلى الهستريا، باجترارهم أفكارهم حول الصين.

ولا يستطيع أي زعيم صيني أن يتناسى الحقائق الإستراتيجية. ان التزايد الكبير، منذ عام ١٩٦٩، للقوات العسكرية السوفيتية، المجهّزة على طول الحدود الصينيّة، تساندها ترسانة متطورّة من الأسلحة التدميرية الضخمة، كل هذا في الواقع، لا يدل على رغبة في المصالحة. وكل لقاء بين الاتحاد السوفيتي والصين، ليس إلاّ أداة عداوة دائمة، يعود إلى عامل جغراسياسي.

ولن تستطيع أية مفاوضات، مهما تكن طبيعتها، ان تزيل التفوّق العسكري السوفيتي ، الذي هو ولا بدّ في تزايد طول عشرات السنين، ولا ازالة التفوق الديموغرافي الصيني، الباقي سرمداً، حتى إذا تناقص عدد القوات السوفيتية، نتيجة مساومات افتراضيّة، يمكنها أن تعود خلال بضعة أسابيع. كما أن أية تسوية من قبل الصين، بالنسبة لمطالبها الحدودية، لا تتمكن من تغيير شيء، وإلى أن تنشأ الأجيال الجديدة، ويصبح هناك تفاوت بين القوّتين الصينيّة والسوفيتية في آسيا، حينئذ يمكن ان يميل القبّان إلى اتجاه آخر. وانطلاقاً من هذا، فان مصير سيبريا متوقف أكثر فأكثر، على حسن نيّة الصين، التي ولا حكومة من حكوماتها قادرة على ضمان ذلك إلى الأبد. وبكل تأكيد، فان الدبلوماسية الأمريكية، ترتكب خطأ، وتبرهن على عدم قدرة، عندما ترغب في توحيد جهود الصين والإتحاد السوفيتي ، ومهما تكن الطريقة، التي يتوصلان إليها في سبيل تعايشهما، فقد لا

تستطيع البقاء طبيعية، أو تصبح دائمة، على الرغم من انها تتمكن من البقاء فترة طويلة، لتسبّب لنا أضراراً جسيمة.

ان القادة الصينيين، في مجال السياسة الدولية، كانوا من المحلّلين المهّرة، الذين قابلتهم في حياتي، ويتفهمون هذه الحقائق، وهم لا يتوقعون امكانية التوصل إلى تسوية مع السوفيت، التي لن يضعفوها بدورهم. وحسب رأيهم فان أقل ما يتطلبه رجل مسؤول صيني، هو عدم تحالف قوة عظمى مع الإتحاد السوفيتي ، وزد علىذلك، يجب على هذه القوة ان تكون علىاقتناع بإضافة جهودها إلى جهود الصين. ولقد علّمتهم التجارب، انه لا يمكن استبعاد النظرية القائلة، ان الأجنبي يروي غليله، في مقاتلة الصين ذات الجسد المنهك. وللحقيقة خلال زيارتي السرّية للصين عام ١٩٧١ ، بيّن شو، وبصورة خاصّة، امكانية عزم أوروبا، والإتحاد السوفيتي واليابان على تجزئة بلاده للمرّة الثانية، غير مبال بهذه الأطماع، والتي يجب الاّ تؤخذ على غير طائل.

وهذه الصفة طبيعية، إذ ان الصين كانت تقرن سلامتها بسمعة عنادها القوي، وبارادتها ان تبيّن انطباعاً حقيقياً - طبعاً - انها ستدافع عن سلامة حدودها وشرفها، مهما يكلفها الثمن. وكان تتصرّف، وكأنها تخشى حدوث مصالحة غير ذات شأن، فتقودها إلى منزلق، فيجب استبعادها وبكل قوّة، كأنها تهديد جليّ خطر على بقاء الأمّة. وكانت الصين تعتبر سلامتها في عزلة الإتحاد السوفيتي ، وجلب أكبر عدد ممكن من القوى إلى جانبها، وهذا كان يفرض تقارباً سريعا من الولايات المتحدة.

ان وجود مثل هذه الفكرة، لدى القادة الصينيين، سهّل علينا انفتاحنا نحو بكين. وكادت فيما بعد، ان تعقّد علاقتنا معها. لأن ارادتنا موحّدة ـ في أهدافنا الإستراتيجية - وهي احتواء قدرة الإتحاد السوفيتي ، وعدم استبعاد وجود فوارق بيننا، سواء في الأسلوب أو الوسيلة، وحتى في وجهات النظر. وبالنسبة للصين، فإن

تشبّثها بإيديولوجيّتها، كان لديها بمثابة حكم، في المجال الداخلي، وكأنه سلاح موجّه لإحباط جميع الضغوط الخارجية. ان السياسة الخارجية، والشؤون الداخلية، كانت تتطلب مقتضيات العمل ذاتها. أما نحن، الذين لم يمضِ سوى القليل على خروجنا من حرب فيتنام، التي أدّت بالأمة إلى فُرَقة عميقة، وجعلت المناقشات تتغلّب على ارادة السلام، لدى القادة الأمريكان، لا نستطيع أن نسمح لأنفسنا أن نكون هواة مجابهة. لقد عزمت حكومة نيكسون، خوض غمار المخاطر اللازمة، في المجال العسكري، اتّقاء للتمرّد السوفيتي، وللتمكن من متابعة هذه السياسة، ضمن حدود الرأي العام، وكذلك تجاه أوروبا واليابان كان علينا أن نبرهن على استخدامنا جميع الوسائل المشرّفة، لتجنّب المجابهة. ولم نقطع الأمل كذلك، بأن نرى ترسيخ العلاقات الأمريكية السوفيتية، التي أُقيمت عام ١٩٧٢، يؤدّي بنا إلى فترة تكون فيها هذه العلاقات، أكثر إيجابية، ترتكز على توازن في مجال التسلّح، وبعض التحسّن في تصرفاتنا. ولا نستطيع أن ننسى أبداً، أن على الشعوب التي تضع يدها على أسلحة قادرة على تدمير الجنس البشري، واجب أخلاقي أن تتعايش سلمياً على الكرة الارضية. كان النهج الأمريكي اذا حسب قوّته، اكثر تعقيداً، وأكثر مرونه وأقل تماسّاً مما كان لدى الصين.

وكان هناك أيضاً فرق بيننا، بطريقة معالجة العلاقات الدولية. إذ ان الصين كانت تمارس التقليد الكلاسيكي القديم، في السياسة الأوروبية، كان القادة الصينيون الشيوعيون، يقدّرون وبرباطة جأش، ودون تأثر مستلزمات توازن القوى، دون إغراء البتّة من الأيديولوجيا أو العاطفة. لقد كانوا علماء في البهلوانية، ومَهرة في النظرية النسبيّة، وكانوا يفهمون جيداً، ان ذراع الميزان يخضع لقوى الحركة، ويأمر بتعديلات متلاحقة في ظروف متغيرة. وبقي مبدأ واحد مصاناً، لا يجوز لأية أمّة الظفر به، ولو لمدة قصيرة، ضد قوى منسّقة يمكن تعبئتها ضدّها. لأن الآخرين معرّضون

لفقد هويّتهم واستقلالهم بصورة نهائية، نتيجة لحظة اهمال بسيطة. لا تقدر الصين على جعل بقائها معلّقا بحسن نيّة قوّة مسيطرة، وستعمل لاتّقاء أي خطر. وتعتبر الحكومات متخاذلة في حال السماح لأي خصم من جمع قوى كافية، لتصبح قادرة على الصمود.

لكن الولايات المتحدة، لم تكن لتملك مراجع معنويّة أو تاريخيّة، تسمح لها بممارسة سياسة، معدّة بهدوء كبير، والطبقات الرسوبيّة والمتغيّرة، التي تشكل الموضوع الفكري لسياستنا الخارجية، ظهر انها دائماً غير ملائمة لفكرة أسّسَت على تقدير المغنم القومي وعائدات القوّة. يشعر الأمريكيون بالرضا، عندما يراد تطبيق دوافع كبرى. في منهج مثاليتهم التقليدية أي الدفاع عن حقوق الإنسان، أو تجديد خلق العالم، حتى تصبح الديمقراطية في أمان، تفرض الذرائعية الأمريكية، ان تُعالج مضاعفات المرض، حال ظهورها، وحسب طبيعتها، وهذا يعني الاكتفاء بانتظار الأحداث. فيما ان الصينيين يعالجون امورهم بطريقة مختلفة تماماً. ومن التقاليد عندنا. ان كل نزاع دولي، يترافق بدعوى قضائية، ويلجأ فيها بعد ذلك إلى اجراءات رمزية قضائية لوضع حدّ له. ان الصينيين يعتبرون هذه الطريقة ساذجة. وحسب عرفهم، فان الحق الدولي هو انعكاس وليس مبدأ التوازن علىالأرض. لقد ورثنا من خلال تجاربنا ان أمريكا منيعة. وهذه النظرة التاريخية، تجعل فكرة توازن القوى مبهمة جداً، مع لازمتها والتي بموجبها، يجوز الرجوع عن مبدأ القتال بأسرع وقت ممكن، في ظرف لا تظهر فيه النزاعات شديدة الوقع، وقبل التمكن من السيطرة عليها، إلاّ بثمن ضحايا رهيبة، إذا بقي هناك وقت لانهائها، وكل هذا يتأتى من فعل سرعة مقرّرة.. ونحن أنفسنا، ضمن حكومة نيكسون، نرى من واجبنا، ان نعلّم الشعب الأمريكي، نظرية وشروط التوازن العالمي، ان هذا الادراك الجديد لدبلوماسيتنا، يتطلب ان نكون دوماً على استعداد، لنقذف بثقل قواتنا إلى جانب الضعيف، ولو كان

النزاع بين دول شيوعية، والتي نرثي لمارساتها وطرق تصرفها في السياسة الداخلية. وكان قصدنا من ذلك، ان لنا مصلحة في منع هجوم سوفيتي ضد الصين، ومقاومته عند حدوثه.

وفيما لو نجحنا في اقناع الناس برأينا واجتياز هذه الخطوة بتعقّل، فان مصالح ووجهات نظر الصينيين والأمريكيين، كانت جدّ متباينة، لإجبار بعضنا على التشاور وباهتمام كبير، هو حصيلة تاريخ طويل، فلم يمرّ أسلوب لينيني، إلا ووصفنا بأعداء المجتمع. غير ان الايديولوجية السوفيتية لم تقدّر تاريخاً خاصاً لانهيارنا، وهي في سبيل اغتنام الفرص، ولقد كنّا حقّاً مهدّدين كما هي الصين، ولكن تعرّضنا للخطر كان بعيد المدى. وفي عام ١٩٧٣ كانت قوة الولايات المتحدة العسكرية أكثر من الاتحاد السوفيتي ، وسنحافظ بلا نهاية، على تقدّمها بالنسبة لثرواتها التعبوية.

كان لدينا إذاً خطة عمل لاتقرها الصين. وكان الإتحاد السوفيتي يتراجع ظاهرياً. خشية مجابهتنا، ولا سيما عندما نعلن عن قرارنا بجلاء. وكان مستبعداً خضوعنا لإنذار، وطالما ان الإتحاد السوفيتي ينكفئ في أراضي وطنه، فانه لا يشكل خطراً بالنسبة لنا، لا نستطيع مقاومته. ان الخطر يكمن في الوقت، الذي يحشد السوفيت جيوشه، ويجمع أسلحته، فتسول له نفسه حينئذ القيام بمغامرة ضد الآخرين. وبعكس الصين فاننا قادرون، دون أي عون خارجي، استخدام القوة اللازمة، لمنافسة الترسانات السوفيتية، وإفشال مجازفات الكرملين، بقدرة انتاج عظمى، بالإضافة إلى ما لدى حلفائنا، لقد أصبحنا قادرين على صنع أسلحة أكثر من السوفيت، وفي حال تفهمنا الحسن لمصالحنا، التي لن تبقى ضمن إطار بسيط، في ضوء الأحداث الأخيرة، ستكون لدينا الوسائل لاحتواء مبادرات الإتحاد السوفيتي. ان الولايات المتحدة، كانت قادرة على اكتساب الوقت، لترى ما سوف

يحدث من تغييرات على النظام السوفيتي ، فيما إذا كان محتوى حقّاً في حدوده الأساسية، وكيف ينهي التوتّر الداخلي.

لم تكن بكين قادرة، ان تسمح لنفسها بهذا النوع من البذخ، اذ ان الخطر الذي كان يتهددّها، كان وشيك الوقوع وسيصل الى الأوج، وبسخريّة من القدر، وحدث هذا في الوقت الذي وضعت فيه الصين حداً لاختلافاتها، وستبدأ مرحلة نموّ اقتصادي نظامية. وهذا سيضع السوفيت أمام مرحلة جديدة من الواجبات، في ظرف وشيك الوقوع، فتجد في بكين عقبة لا تقهر، لا سيما اذا اخذنا بعين الا عتبار، بلدانا أخرى، ستنقلب ضد موسكو. وحالما تستطيع الصين تنمية نفسها بنفسها، فقد يقدم الكرملين على أن يقذف بنفسه بحملة وقائية، اذا لم يظهر الصينيون استعداداً، لاجراء مصالحة مع الإتحاد السوفيتي ، الذي لم يكن بحاجة أبداً لزيادة تنمية وسائله العسكرية ليهاجم الصين، التي لم تكن حتى في عام ١٩٧٣ تملك القوّة لمهاجمة الغرب. ان القادة الصينيين قادرون ان يزعموا خلاف ذلك، وهم بحاجة للجرأة لإثبات ذلك. والتلميح الى أن السوفيت يتظاهرون بالالتفات نحو الشرق، لمهاجمة الغرب، يمكن اعتباره صراحة في حال اجراء مساومات، لكنهم اي السوفيت كانوا نابهين جداً، ويقدّرون المخاطر التي كانت تتهدّدهم، غير أن أفعالهم كانت مناقضة لأقوالهم (فلم تكن علىكل حال، تتضمن اصراراً) مهما تكن الأسباب التي تدعونا لمفاوضة السوفيت، الاستعداد لما سوف تكون عروضنا، فان بكين لم تكن لترى أية أفضلية في تأجيل مجابهة تعتبرها لا مفرّ منها ولا تستطيع منعها، بوسائلها الخاصة، دون ان تحكم علىنفسها، البقاء طويلاً في موطن ضعف.

هذه الاعتبارات أصبحت أكثر ملاءمة لبكين بعد انتهار حرب فيتنام، وطالما ان الكرملين، كان يسلّح هانوي، وهي داخلة في حرب مريرة مع الولايات المتحدة، فان كل

تقارب متوقع، بين موسكو وواشنطن كان بعيد الاحتمال. وفي وقت من الأوقات. لا بد ان تجبر الولايات المتحدة على اتخاذ بعض الاجراءات الرئيسية في الهند الصينية. التي ربما تحمل السوفيت على الرد. لا يغيظ الدبلوماسي الكبير، شو ان لاي ـ ذاته، ان يرى حرب فيتنام قد وضعت حداً لخياراتنا ولهذا السبب نفسه فإن انتهاء الحرب قد أحدث مفعولاً عكسيان اذ ان خيارات أمريكا قد تعدّدت، وأصبحت في الواقع، تفوق ما لدى بكين. وسنكون منذ الآن وصاعداً. أكثر قرباً من الإتحاد السوفيتي ، والصين، أكثر من قرب الواحد للآخر. وهذا يشكل ظرفاً مثيراً لدولة، كان تستغلّ منذ أجيال، عداوة من كانت تعتبرهم متخلفين. كان شو ذكياً جداً في توضيح المعضلة الصينية. وكان يدرك، ان الولايات المتحدة والصين، قادرتان على تقديم تحاليل تشابه الحالة العالمية الراهنة. وهو بدوره سيُتبعها تلقائياً، ومن هنا وهناك بمبادرات ملائمة.

كان شو يعبّر عن اهتماماته فيما يتعلق بالنزاع الصيني مع الاتحاد السوفيتي، بصورة موجزة، ويضعها بصيغة سؤال: هل نبين بجلاء ضرورة احتواء السوفيت حتى في آسيا؟ أو نسعى إلى خلاص بلادنا، في أن ينهك البطلان الشيوعيان بعضهما؟ وهل نحن على استعداد مع انتهاء الحرب في فيتنام، لمجابهة التمدّد السوفيتي؟ وفي النهاية، هل يحاول الغرب، أن يتصالح مع الكرملين، لكي يبدّل اتجاه "مياه الاتحاد السوفيتي الآسنة" نحو الشرق؟ وبعبارة أخرى، هل نشجّع، أو على الأقل نتسامح في تهديدنا للصين؟ والحقيقة، أن معضلات شو هذه، كانت تختلف عماّ كان يظهر. الأمريكان وهم مثاليون، حتى لمعادي الشيوعية عندهم، لم يكونوا قادرين أبداً على أن يُثيروا بصلف وتصميم الخلاف بين الصين والاتحاد السوفيتي.

ومن وجهة أخرى، فإن هناك قادة أمريكيين مثل نيكسون، يقبلون بنظرية التوازن العالمي، ولكنهم لا يستطيعون أن يكونوا على مستوى، تطبيق نظرياتهم فعلياً، ما يعني أنه مغنم حيوي للولايات المتحدة أن تمنع تقطيع أوصال الصين أو إذلالها حتى ولو لم يكن هذا البلد حليفاً لنا وأصبح مؤخراً عدونا، ولا يبدي أية دلالة في أن يكون ديمقراطياً في مستقبله.

بقدر ما كنّا، نيكسون وأنا في انشغال، فإن دبلوماسيتنا نحو موسكو دائمة الارتباط، في إدراك مصلحة أمريكا القومية، التي كانت تفرض الحفاظ على سلامة أراضي الصين. وإذا أقدم الاتحاد السوفيتي يوماً، على شلّ الصين، فإن وقع هذا الأمر على التوازن العالمي، يشكل كارثة تهون عن غزو السوفيت لأوروبا. وإذا اتضح بجلاء، أن أمريكا ليست في وضع يساعدها على صد هجوم واسع النطاق في آسيا، فإن اليابان سينفصل عنّا. وتجاه هذا الجبار السوفيتي، فإن أوروبا ستفقد ثقتها، وكل ما لديها من ميول حيادية ستتخلص بوقت أسرع. وكل الجنوب الشرقي من آسيا، سينتظم طبعاً إلى جانب المنتصر. وسيتفوّق المتشددون في الشرق الأوسط، وفي آسيا الجنوبية، وفي افريقيا وحتى في أمريكا. لن يكون من صالحنا، أن نؤمّل حدوث هجوم سوفيتي ضد الصين. وحسب رأيي، لم نكن نملك الخيار، فنحن مدعوون لمساندة الصينيين وحملهم على الصمود.

عرضت وجهات النظر هذه، أمام شو، في أحد اللقاءات المفاجئة والشاملة لجميع شؤون سياستنا الخارجية، التي لم أقدم عليها مرّة أمام زعيم أجنبي، وفي سبيل تنوير رئيس الوزراء، فقد أكدت له، أن لا نيكسون ولا أنا، ننخدع بالتحركات السوفيتية، ولذلك يجب على الصين ألاّ تهتم بموضوع إجراءاتنا التعبوية، التي تفرضها استراتيجيتنا أحياناً:

"نظرياً، هناك احتمالان: أولهما أن القادة السوفيت يتمنّون حقاً انفراج التوتر في العالم، وإذا كان ذلك حقيقياً، فإن الأمر يسير في مصلحتنا.

"والاحتمال الثاني: أن كل الدلائل تشير، وكأنها واقعية، إلى أن الاتحاد السوفيتي، قد عزم على استخدام استراتيجية أكثر مرونة، ليتوصل إلى الأهداف التالية: إرباك أوروبا الغربية، ناشراً فيها بعض الأوهام السلميّة. والانتفاع باستخدام التكنولوجيا الأمريكية، لتغطية الفارق الموجود بين قدراتها الاقتصادية والعسكرية. وجعل حفاظ الولايات المتحدة على قدراته العسكرية الخاصة شاقاً، بخلقه جوّ انفراج، وعزل من لا ينخدع من مناوئيه بهذه الأحبولة السياسية.

(" ـ فقاطعني شو قائلاً: مثل الصين!!

"حاولت تلطيف الجو، فأجبت، قبل متابعة عرضي).

"إذاً ما هي استراتيجيتنا؟ نعتقد أن التفسير الثاني، للنوايا السوفيتية، هو المفضّل كثيراً، على الرغم من كل احتمالاته. ففي المقام الأول إذاً، ولا حاجة لإخفاء شيء عنكم، لقد اجتزنا من مدة قريبة، فترة قاسية جداً، في السياسة الخارجية، وكان السبب في ذلك، الحرب الفيتنامية، الأمر الذي يجب أن تكونوا قد عرفتموه، من خلال معلوماتكم الخاصة. ولذلك فإننا اضطررنا إلى التصرّف بدهاء، وفي عدة مناسبات، قبل أن نسلّم أنفسنا لهجوم جبهي. أما الآن وقد انتهت حرب فيتنام، ولا سيما إذا لم تتحوّل التسوية إلى معين من النزاع ضد الولايات المتحدة، سنتمكن مجدداً من تكريس جهودنا نحو مشاكل سياستنا الخارجية الأساسية. وطوال مدّة هذه الصعوبات، التي يكون قد اطلّع عليها حتماً، السيد رئيس الوزراء، كنّا نردّ بشدّة على كل تحدٍّ من قبل الاتحاد السوفيتي.

"أما عن استراتيجيتنا؟ أن أول واجب هو توحيد شعبنا، بفضل بعض النجاحات الدبلوماسية، والتي ستحقق لنا إمكانية إدارة سياسة خارجية مدروسة جيداً. وكان علينا بعدئذ وضع حدّ لحرب فيتنام، بشروط لن تعتبر غير مشرّفة بالنسبة لأمريكا. ثالثاً، كانت رغبتنا في تحديث جهازنا العسكري، وخصوصاً قوانا الاستراتيجية. (رابعاً) كانت نيّتنا، أن نتصرف بطريقة تجعل السوفيت في وضع يجبرهم على كشف تحدّياتهم. (خامساً) كان واجبنا يدعونا إلى تعويد شعبنا على بعض الأفكار، الحديثة جداً بالنسبة له.

"والأفكار الجديدة" هي أن من ضمن مصلحة الولايات المتحدة القومية، يصبح حيوياً الحفاظ على توازن القوى، في العالم، بصورة عامة، وسلامة الأراضي الصينية خصوصاً، بنوع يمكننا أن نبرهن على ذلك عند الحاجة، دون أن نجبر عليها بالتزامات قانونية.

وظهر فجأة، أن عرضي للسياسة الأمريكية، كان الهدف منه توضيح:

أن الصين والولايات المتحدة، عليهما تطبيق استراتيجية متوازية، وكما سبق وقلت: ليس لأمريكا أية مصلحة في الدخول بدون سبب، في سياسة مجابهة نظامية مع الاتحاد السوفيتي ـ الأمر الذي تريده الصين دون شك. ولا شيء يحملنا أن نكون ورقة لعب تستطيع الصين تحريكها. والأخيرة بحاجة للاعتماد على مساندة أمريكا، في حال ضغط السوفيت عليها لكن يجب علينا والحالة هذه، ألاّ نسمح لها أن تجرّنا إلى مجابهات عديمة الجدوى.

ويحسن بنا أن نكون قريبين من موسكو وبكين، بصورة أكثر مما هو عليه الواحد نحو الآخر، ما عدا في حالة هجوم سوفيتي ضد الصين.

وفي الوقت نفسه، يجب علينا أن نصمد في وجه محاولة لعبة الورقة الصينية بدورنا. أن تقوية علاقاتنا وتوطيدها مع الصين، بهدف وحيد هو إيقاف تقدّم السوفيت، تحتمل خطراً مضاعفاً:

- تحريض السوفيت على القيام بهجوم وقائي ضد الصين، الذي يؤدي إلى النكبة ذاتها، التي نريد اجتنابها.
- حمل بكين على التفكير طويلاً، أننا في الوقت الذي تقربنا منها، للردّ على تصلب السوفيت كنا نعمل العكس إذا أبدى السوفيت بعض التساهل. وبدل أن تكون الصين موضع ثقل، فقد تصبح موضع مساومة ـ وهذه خطوة غير مسلّم بها عموماً مع الضرورات الجوهرية التي أوصلتنا إلى التقارب.

كما أكدت أيضاً، على الرغم من التحفظات التي تبديها الصين، فإننا سنتابع التفاوض مع موسكو، لأننا نعتقد أن هذا ينطلق من مصلحتنا المشتركة. وسنُعلم بكين سلفاً بكل خطوة نقدم عليها. وستكون وجهات نظر الصين موضع اعتبارنا. ولن نتخذ أي قرار ضدها. ثم أكدت أننا على استعداد، لإبرام ثلاث اتفاقيات مع الاتحاد السوفيتي، تخفّف من التوتر في القطاعات الخطيرة، مثل برلين، إذ أننا نعتقد أن الأمور تجري على وجه العموم لصالحنا، وهي ذات فائدة عامة ومشتركة، مثل المعاهدة التي أبرمت حديثاً، حول تحديد الأسلحة الاستراتيجية.

قاطعني رئيس مجلس الوزراء الصيني، الذي لا تفوته فائته، وقال: "يمكن أيضاً، أن ما جئت على ذكره، يكون في صالح السياسة السوفيتية، التي من أهدافها: تحذير وإرباك أوروبا الغربية".

"أجبته: أني أُقِرّ ذلك"، إذ نحن الفريقين نراهن على بعض المناحي. يعتقد

الاتحاد السوفيتي، أنه قادر على إرباك أوروبا، وإيقاعنا في شلل. ونحن بدورنا نعتقد، أن سياسته هذه، ستفسح لنا مجالاً وحرّية في اتخاذ إجراءات، نحن بحاجتها، للصمود أمامه، في قطاعات، سيمارس حتماً ضغطاً أو هجوماً".

كان شو ان لاي يعتقد بذلك أيضاً، وكان يطالبنا بالقيام بمبادرة لتنظيم تكتّل معادٍ للسوفيت، يمتد من اليابان إلى أوروبا الغربية، مروراً بالصين، والباكستان، وإيران وتركيا. كانت الفكرة مصيبة، ولكن لا يمكن تحقيقها. أما من جهة أوروبا واليابان، سيكونان بحاجة لمعالجة دقيقة، لأن كلاً منهما، سيمانع دون ريب، في اتجاهات سياستنا نحو الصين، وعدّة خيارات أمريكية أخرى، تتعلّق بأمور هامّة، في سبيل المحافظة على التوازن العالمي. ومع ذلك، فإن هناك الكثير، من المحافظين الأمريكيين، سيجدون نقاطاً، يشتركون بها مع رئيس الوزراء الصيني، عند إقدامه على تحليل القضايا العالمية، إذ أنه قد هزئ حتى بفكرة فتح باب المفاوضات مع الاتحاد السوفيتي. لأن ميول التوسع في نظام الاتحاد السوفيتي، مستعصية، والمفاوضات معه لن تؤدي إلاّ إلى متاهات. ومهما يكن من أمر أمريكا، فلن يكون دور الصين، سوى كشف تدابير الكرملين، وتهيئة ملاك فكري لمعارضة متفق عليها.

كانت هناك عقبة، يصعب اجتيازها، أضف إلى ذلك أن شو ان لاي، قد اكتشف وبكل تأكيد، غموض سياستنا. نحن بحاجة، من جهة، للمرونة حتى نتأكد أن الولايات المتحدة، لن يشلّها اختلاف آرائنا، أو آراء حلفائنا، الذين سيرون أن سياستنا تبعث على التوتّر. ومن جهة أخرى، أن الانفراج يقدر، كما بيّن شو، على تخدير الغرب، وإفساح المجال لخلفيات السوفيت، والسماح لموسكو بالضغط على بكين، ولغم الإرادة العارمة المستعدة للمقاومة. فأي الخطرين كان أكبر؟ لم يحظ السؤال بجواب أبداً، لا في محادثاتنا مع القادة الصينيين، ولا في مباحثات

سياستنا الداخلية، لأن فضيحة واترغيت سترغمنا قريباً أن نتجه نحو أمور ضرورية أخرى.



انطلاقاً من هذه النظريات، والمقدّمات المتجانسة، والأوضاع المختلفة، والإستراتيجيات المتطابقة، دقّقنا، شو ان لاي وأنا في الوضع الدولي. علماً أن هدف محدثي الأساسي، هو احتواء قدرة السوفيت، إذ ان الثائر القديم، كان مناصراً لكل ما يستطيع تنمية الترابط، وقوة عالمية، غير شيوعية، بغض النظرعن الايديولوجية، التي تدين بها أهم البلدان. كان شو ان لاي، يتطلّع إلى اوروبا الغربية. وعلى الرغم من أن اوروبا، كان تشكل بالنسبة لي، ميدان إبحاثي طوال عشرين عاماً، وكنت عارفاً تمام المعرفة لمعظم زعمائها، إلاّ أن شو ضايقني بأسئلته حول سياسة، ووجهات نظر، الشخصيات الأوروبية.

ان عدداً من زعماء اوروبا الغربية، دّعوا حديثا الى بكين لسماع (وكان ذلك مفاجأة بالنسبة لهم) خطب حول أهمية الوحدة الأوروبية، والتماسك الأطلسي، وتقوية القدرات الدفاعية لحف شمال الأطلسي OTAN وبعد مدّة، أقدمت على تسمية الصين (مازحاً) وكأنها أحد أحسن حلفائنا في حلف شمال الأطلسي.

وعلى الرغم من تخصّص شو، لدراسة التوازن العالمي، إلا أنه كانت معرفة أوضاع الأوروبيين، التي تختلف تماماً، عما علم، طوال عشرين عاماً، ولم يستطع ان يفهم، لماذا كانت اوروبا تمانع في تغيير قدرتها الاقتصادية، إلى قوّة عسكرية ولماذا قارّة مثلها قادرة على الدفاع عن نفسها، كانت تُصر على الالتجاء الى حليف بعيد. وبات واضحاً، لو ان الصين كانت تملك ثروات مماثلة لما لدى اوروبا، لما قبلت أبداً تبعيّة مثل هذه. ولما كان شو يرى ان اوروبا قوية اقتصادياً، وضعيفة عسكرياً، فكان

يحثّنا على تنظيم اولويّاتنا تنظيماً دقيقاً. يجب ألاّ نسمح للنزاعات التجارية فيما وراء الأطلسي، حسب رأيه، أن تشكل عقبة في سبيل التعاون ضد الإتحاد السوفيتي. ويضيف شو قائلاً: يجب ان تكون السياسة الأمريكية في اوروبا مدروسة جيداً، بنوع انها تميّز بين الجوهر والشكل. وتفضيل تعبير حقيقي عن الاستقلال، على خضوع، لا يمكن الركون إليه. وقال أيضاً: يلزمنا ان نكون حذرين من تصرفات الرئيس جورج بو مبيدو، إذ ربما ظهرت لنا المناداة باستقلال فرنسا، مثيرة، ولكن علينا ألاّ ننسى ان الفرنسيين ينهجون سياسة خارجية، أثبت من أية سياسة ينهجها شعب آخر في أوروبا. الأمر الذي يدعّم أمن الغرب. ومهما سبّبت من مضايقات، ومن وقت الى آخر، الاجراءات الفرنسية فعلينا ان نذكر، ان فرنسا بصفة كونها قويّة، فهي قادرة ان تحد من محاولات ألمانيا للتطلّع نحو موسكو، لأن شو كان يشاطر، بعض حلفاء المانيا الغربية، وجهات النظر، حول ما أبرمه داهية السياسة، المستشار ويلّي براندت (معاهداته مع الإتحاد السوفيتي والمانيا الشرقية وبولونيا) من انها تتضمن خطر الانتهاء الى نزعة قومية جامحة ولم تكن في بدء انطلاقتها، سوى بادرة مصالحة، مع توقّع ان تكون نتيجة طبيعية لامكانية تثبيط همّة اوروبا.

وبعد ان أصبح واضحاً، ان مصلحتنا المشتركة، تتطلب منا احتواء القدرة السوفيتية، برزت مشاكل الهند الصينية بلون جديد. كان شو على معرفة أكيدة، ان حالما تخفق اتفاقية باريس، يحسن بنا ان نتوقع حدوث أمور مؤسفة. وربما تعود الحرب، فيجد الصينيون أنفسهم أمام معضلة، هل يخاطرون بقطع علاقاتهم معنا، على حساب فيتنام الشمالية، ذلك البلد الذي كانوا يخشون جانبه كثيرا؟ أو ما هو أسوأ من ذلك، من حيث وجهة نظر بكين ـ فان هانوي ستبسط سيطرتها على كل الهند الصينية، دو ن أن تكون هناك حاجة لخوض معركة، تقلّل من اعتبار الولايات المتحدة، وتجعل منها صورة نمر كارتوني في الحلبة الدولية، وتشكّل على حدود

الصين، دولة فيتنامية قوية، يغذّيها إحساس بعداوة قديمة تقليدية نحوها(أي الصين) وتكون هذه الدولة الفيتنامية، تابعة كلياً للاتحاد السوفيتي في جميع تجهيزاتها العسكرية.

والواقع ان المصالح الصينية والأمريكية، متوازية تقريباً في الهند الصينية. ان الفكرة في رؤية فيتنام شيوعية موحدة، تتحكم بالهند الصينية، هي بمثابة كابوس إستراتيجي للصين، حتى في حال عدم تحقيق هذه الفكرة لأسباب إيديولوجية. كان إذاً شو ان لاي صادقاً، عند تصريحه برغبته في تطبيق اتفاقية باريس وبصورة دقيقة. وفعلاً لو أعطى هذا الأمر نتائج حسنة، يكون اولها منع هانوي، من أية سيطرة على شبه الجزيرة، ودعم فيتنام الشمالية بثلاث دويلات حاجزة: لاوس، كمبوديا وفيتنام الجنوبية. ولا غنى عن القول، ان شو كان يطالب دائماً بوقف إطلاق نار، شبيه جداً بالذي كنا قد أبرمناه، والذي يفرض دون شك، امكانية بقاء حكومة فيتنام الجنوبية. وخلافاً للعديد من المعارضين الأمريكيين، فانه لم يحثّنا قط على إسقاط تيو، لوضع دمية من هانوي في مكانه.

وبالنسبة للاوس وكمبوديا، فقد تصرّف شو، في سبيل الانفصال عن هانوي، بخطّة حكيمة مدروسة، في أزمات عام ١٩٧٢، لقد أنكر كل معرفة لما يجري في هذه البلاد، وهذا تأكيد قلما يؤخذ به، إذا أخذنا بعين الاعتبار التدقيقية التي يُعِدّها الصينيون، للقائهم بزعماء أمريكان، والعلاقات التاريخية التي كانت تربطهم بالهند الصينية، لكنّ هذا التلفّيق كان يؤهّله ان يستفئ إلى الغموض عندما لا يريد الإقرار باختلاف وجهات النظر مع هانوي، وصرّح ان هذا الموقف كان صحيحاً. وتمنّى شو بالنسبة للاوس، ان تنجح مفاوضات السلام، بين الحكومة الملكية اللاوسية والباتيت لاو، بصورة مرضية، وتنتهي إلى اتفاق صادق حيادي وسترحّب الصين بوقف إطلاق

النار، وما يتمّ حالاً يُفضّل. كان يقدّر عالياً العاهل اللاوسي سافانغ فاتّانا «وطني نزيه» الذي لم يكن من المقربين لهانوي، ويساند شرعيّة رئيس الوزراء الحيادي «سوفانا فوما». وبمقولة أخرى، كانت الصين تُقِرّ ما قد أقدمنا علية في لاوس وهو إقامة نظام غير شيوعي، مستقل عن هانوي، مسالم وحيادي.

أزاح شو النقاب عن أمر طالما أقلقنا، بالنسبة لواحد من أغرب المشاريع التي كانت تغذّيها الصين خلال حرب فيتنام. فمنذ ما يقارب السنوات العشر كانت القوات الصينيّة تعبّد طريقاً في شمال لاوس، خلال جبال صعبة المرتقى وغابات كانت تشكل حدّاً بين البلدين. وقرابة عشرين ألف جندي، تحميهم مدافع مضادة للطائرات، كانوا يتعهدون هذا المشروع، على أراضي دولة أخرى ذات سيادة. وكان سوفانا قد أكّد لنا مراراً، ان تنفيذ هذه الأعمال كان لقاء وعود سابقة مع لاوس. ويزعم الصينيون انه سُمح لهم بذلك باتفاق سابق ولم تكن لديّ المقدرة على فك رموز هذه المشكلة القضائية. وسوفانا من جهته، كان يرفض ان يصرّح علانية، ان تعبيد الطريق غير مسموح به. وتصرّفه هذا كان من قبيل الخوف، أو أنه كان مطلعاً على شيء يتردّد في تأكيده، وكنا نحن غير قادرين على البوح به. ومن جهتها، كانت بكين كانت ترفض تقديم البرهان، على سماح لاوس المزعوم. وهنا أيضاً، لا نستطيع التأكيد، عمّا إذا كانوا يرفضون اطلاعنا على المشاكل القائمة على حدودهم، أو إذا كانت هناك براهين واضحة.

وفي شهر شباط من عام ١٩٧٣، وعلى كل حال، فان الواقع القضائي لتعبيد هذا الطريق، كانت أهميّته لدينا أقل بكثير من خاصيّته الإستراتيجية. وأوضح شو هذه النقطة ولكن بإيجاز. خلال الجزء الأكبر من الحرب، كان اعتقادنا ان الطريق مخصّص لإمداد الباتيت لاو، التي تسيطر عليها هانوي. وقمنا مصادفة بوضع مخطّطات، لم نضعها موضع العمل، لقصف ما يُنشأ. ومع ذلك، فقد توضحت الفكرة

لنا. لم يستخدم الطريق أبداً في نقل إمدادات ومن جهة أخرى، كانت تساير تقدم الفيتناميين الشماليين، وجاء يوم ان طرحت نظرية بحجة مشاطرة شو برأيه حول المخاوف التي كان يخشاها التايلنديون، في إمكانية استخدام هذا الطريق ضدّهم، فأجاب ان الصين تتمنى ان تكون لها علاقات حسنة مع بانكوك، وتعبيد الطرق سيتتابع، وسينتهي قبل الحدود التايلندية. وإذا كان هذا هو الواقع، فلم يكن الغرض من هذا الطريق سوى احتواء تهديد هانوي. طوال كل سنيّ الحرب في فيتنام، كانت بكين تُعِدّ لنفسها إمكانية وضع قدم في لاوس، على ساحل مقدّمة فيتنام الشمالية، لكي تعيق مشروع استيلاء حليفها المفترض على كل الهند الصينية.

وقطع العلاقات وشيك، بين الصين وهانوي، وهو حتمي عند التكلم عن كمبوديا، ان الموقف الرسمي للصين، كان مماثلاً لموقف هانوي، والذي يقوم على مساندة المتمردين الشيوعيين، الذين يقودهم نظرياً الأمير نوردوم سيهانوك لكن التشابه كان يقف عند هذا الحد. وهانوي كانت تعتبر سيهانوك وكأنه ملحق، ويكاد أن يكون مقبولاً لدى الخمير الحمر، والأمير مقدّر جداً من قبل شو. ولذلك كان يعارض فعلاً، القرار الحاسم، الذي كان يطالبنا بتنفيذه، كل من فام فان دونغ والدوق تو، لإسقاط حكومة لون نول في فنوم بين. كان شو متآلفاً جداً مع مشاكل كمبوديا، لكي لا ينخدع بتأرجح سيهانوك، الذي كان يتطلّب إدامة وضع القوّتين المتخاصمتين في كفّة الميزان. فمن الطبيعي إذاً، ان نسمع شو يؤكد:

«لا أقدّر أن القوى التي يمثّلها (لون نول) لا أهميّة لها. اننا مطمئنّون لتوجيهاتنا الخاصّة. كما انه غير ممكن لكمبوديا ان تصبح حمراء بكاملها في الوقت الحاضر. وإذا جرت محاولة بهذا الشأن، فانها ستخلق مشاكل أكثر خطورة».

من المذهل سماع زعيم بلد، تعتبر معيناً للثورة، يؤكد ان جعل بلد بكامله

شيوعياً، قادر على مضاعفة مشاكله دون قياس. لكنها هي الحقيقة. ان جعل كمبوديا بكاملها شيوعية، يجعل سيهانوك عديم الجدوى، يثبط همة سايغون، ويسلّم بالقوّة الهند الصينية إلى هانوي.

ان موقف شو كان يحملنا على التفكير، انّ باستطاعتنا بعد الوصول الى اتفاق عملي. اذا كانت القوى التي يمثّلها لون نول، قادرة على البقاء ضمن تنظيم خاص، أن نوجد مجالاً رحباً للمناقشات. وإذا كان شرطنا المسبق أساسياً، في حماية من وضعوا ثقتهم فينا، من أن يكونوا لقمة سائغة للشيوعية. وإذا نفذ الشرط، فان سيهانوك يصبح قادراً على الظهور والقيام بدور هام، وربما كان هذا الدور حاسماً. وهو جعل إئتلاف بين القوى المتخاصمة، يعني القيام بدور رقّاص البهلوان. وما كان منّي إلا أني اقترحت لقاء عاجلاً، بين ممثّل لحكومة لون نول، ورئيس وزراء سيهانوك (بين نوث) للقيام بمفاوضات حول تشكيل حكومة ائتلافية. وقد بيّنت، أننا لا نُلحّ على مشاركة لون نول نفسه في هذه الحكومة، خلال المدة التي تكون القوات التي يقودها ممثلة فيها.

فأجاب شو ان كمبوديا ستثير مشاكل معقّدة. وليس فقط الحرب الأهلية التي كانت تدور فيها، إذ ان هناك قوات أجنبيّة (الفيتناميين الشماليين) يشتركون في القتال ويتغلغلون في الداخل. وهناك أيضاً عدد من الأحزاب في الحركة التمردية التي يقودها سيهانوك مع وجهات نظر مختلفة. لن يتفق المتمردون، الذين بقيادة سيهانوك. على جميع هذه الأسس، ليسندوا إليه الدور الرئيسي، الذي كنت خطّطت له. (إذ كان الخمير الحمر، يريدون جعله رجلاً لا قيمة له، في أحسن الحالات). مع ذلك، فقد صرّح شو، انه سينقل أفكارنا هذه، إلى الفرقاء ذوي العلاقة، وفي الدرجة الأولى إلى سيهانوك، وعلى طريقته الخاصة، (وهذا كان يعني، أنه سينقل ببساطة اقتراحنا ذاته، الذي رفضه زعماء هانوي، منذ مدة قريبة). وسيجعل نفسه أنه صاحب

الاقتراح إلى حدّ ما. وبيّن شو، بعد أخذه رأي الفرقاء المعنيّين، انه سيتصل بنا حول هذا الموضوع. وبدأ الصينيون، لأول مرة، القيام بدور حيوي في مفاوضات السلام في الهند الصينيّة.

وحَقّ لهم أن يقوموا بهذا، لأن مصلحة الصين في كمبوديا، التي توازي وبشكل غريب مصلحتنا، تضطرهم إلى ذلك. ان الذي يهمّنا مع تطبيق اتفاقية باريس من قبل هانوي، هو قبل كل شيء، مصداقيتّنا تجاه جميع شعوب الأرض قاطبة. أما بالنسبة للصين، فكانت قضيّة أمنها القومي، من حيث وجود قوة كبيرة، تقارب خمسين مليون مواطن، على حدودها الجنوبية، تسيّرهم إدارة متعصبّة، ومتحالفة مع الإتحاد السوفيتي. وكمبوديا في هذه الحالة، هي المحرّك الرئيسي للهند الصينية، لان انهيارها هو بمثابة تدمير كلّي، لفيتنام الجنوبية، بالإضافة إلى سيطرة هانوي. ان همّ شو الأكبر، لم يكن إذاً عدم انتصار الخمير الحمر فقط، بل إقامة ادارة قادرة على ضمان أكيد لاستقلال وحياد كمبوديا. وهو يتفهم اننا نسعى لحّل المشكلة ذاتها.

كيف السبيل إلى تجاوز، ما يصبو إليه الاخوة الكمبوديوين المتخاصمون، إذ أنهم في بقائهم على ما هم فيه، فسوف يدمّر كل منهم الآخر، ويحطّمون معهم كل أمل ببقاء بلادهم.

وافقنا شو على أهدافنا. وبقي علينا معرفة كيفيّة الوصول إليها. واغتنمت الفرصة، للفت انتباه محدّثي، إلى اهتمام الولايات المتحدة، في أن تكون النهاية مشرفة، ما دامت المصلحة مشتركة، لأسباب تتجاوز إطار قضيّة الهند الصينيّة:

«ان طرح قضية الا نسحاب الامريكي، من جنوب شرقي آسيا، هو كارثة، وأقسى مهمّة يجب على الرئيس نيكسون إنجاحها، خلال ولايته الثانية، هي أن يحفظ للولايات المتحدة، حصّة من المسؤولية في المحافظة على التوازن العالمي، وان تمارس

بلاده سياسة تناهض كل تسلّط، من قبل أيّ كان. فليس مرغوباً إذاً، ان تأخذ الولايات المتحدة بسياسة، مؤيّدة لمبادئ الانعزاليين الأمريكيين».

لم يعارض شو هذا القول. وكان تصرّفه خلال الأشهر اللاحقة وكأنه مع هذا الرأي.

❒ ❒ ❒

بقدر ما أخذت سياستنا وسياسة الصين، في اتباع خطوط متوازية، ظهر أن وسائل اتصالاتنا الأولية، كانت غير كافية. ولعدم وجود علاقات دبلوماسية (لأن الولايات المتحدة، كانت تعترف دوماً بتايوان) فقد أجرينا اتصالات باتجاهين. الاتجاه الأول والذي يتعلق بالقضايا التي تحتاج إلى وضع حلول ناجحة لها، وهو الأوسع والأشمل، كان يعالج عن طريق باريس، حيث كان هوانغ شين Huang Chen ـ سفيراً لبكين، وهو جنرال قديم محنّك وعضو في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني. وكنت قد عرفته جيداً، للتمكن من إجراء الكثير من المحادثات السريّة معه. ونظيره من جانبنا، سفيرنا في فرنسا، أرتور واتسون. وكان الاتجاه الثاني للاتصال يتم عن طريق اتصالات سرية مع الصين عن طريق الوفد الصيني، في الأمم المتحدة في نيويورك، الذي كان برئاسة هوانغ هوا، منذ عام ١٩٧١ (والذي رقّي فيما بعد إلى رتبة وزير الشؤون الخارجية لبلاده).

أصرّت بكين مبدئياً، على إجراء الاتصالات عن طريق باريس، وعدم الالتجاء إلى وفدها في الأمم المتحدة، سوى في الحالات الحرجة، وربّما كانت تقصد من وراء ذلك، أن نحصل على جميع الميزات، المكن أن يمنحنا إياها، وجود سفارة صينية في بلادنا، دون اعتراف دبلوماسي من قبلنا. ولقد دفعتنا حالاً، الحاجة الملحة إلى

إجراء اتصالات سريعة، ومحادثات صادقة، إلى توسيع مفهوم "الحالات الملحّة". ومن شهر تشرين الثاني عام ١٩٧١، إلى شهر أيار من عام ١٩٧٣، ذهبت إلى نيويورك، عشرين مرّة، لمقابلات شخصيّة مع هوانغ هوا، وكانت هذه المقابلات، تجري على وجه العموم في بيت "وبكل صراحة" أنشأته الوكالة المركزية للمخابرات الأمريكية، في قلب جزيرة "مانهاتن" ـ وهو عبارة عن شقّة سكن عاديّة جدرانها مغطاّة بالمرايا، تتحمل اجتماعات غير ذات بال. لكن هذه الزخرفة الوهميّة، كانت مرغوبة من وجهة نظر المنطق الدبلوماسي. أضف إلى ذلك، فيما لو كانت تحاليلنا الاستراتيجية صادقة، لوجب على بكين وواشنطن، أن ينظرا من زاوية صحيحة، ليؤكدان أن شعبيهما في طريقهما إلى التقارب.

ومن وجهة نظر بكين، ومن خلال مصلحتنا كذلك، يجب تفحّص حركات من هذا النوع، التي توضح بجلاء، أن الولايات المتحدة لن تبقى غير مبالية، تجاه الضغوط العسكرية، التي يمكن أن تمارس ضد الصين.

وفي زيارتي الأخيرة إلى بكين، في شهر شباط من عام ١٩٧٣، لم تكن لديّ خطّة دقيقة لتقويم اتصالاتنا ووجهات النظر المنبثقة عنها. وكانت نيّتي أن اقترح بعض الإجراءات البسيطة، كافتتاح مكتب تجاري أمريكي في الصين. وكنا على اقتناع، أن بكين لن تقدم على افتتاح مكتب في واشنطن، طالما أن ممثلي تايوان موجودون فيها. لم نكن لنتوقع، أن يتخذ شو قراراً بالإقدام على خطوة، توازي بأهميتها، إقامة علاقات دبلوماسية بين بلدينا. ومن ضمن أحسن تقاليد الإمبراطورية الصينية العمل بطريقة وكأن الاقتراح صادر عنيّ، فكانت إشارة بديعة، تؤكد مشاركتي، في ما قد أنجز. والحقيقة لا تظهر، إلاّ بعد المرور بعقبات.

ولما كنّا نتحدّث عن علاقاتنا الثنائية، أشرت إلى ضرورة إقامة همزة وصل

دائمة، ولم يشأ شو، هذه المرة، أن يظهر فائدة كبيرة من وراء ذلك. وسألني عمّا كنت أفكر به، لتنفيذ هذا الأمر. ولم يكن ليهتم من جانبه بتمثيل قنصلي، يُضفي على ذلك طابعاً تقنياً حسب رأيه. إن فكرة مكتب تجاري، مهما يكن شكله، وعلى الرغم من الروايات المختلفة التي اقترحتها، لم تُثِر فيه أي اندفاع نحو ذلك. وكان يؤمّل بكل وضوح، ترسيخ علاقاتنا السياسية، لا التجاريّة. ولذلك اقترحت إقامة مكتب *اتصال*، وهذه *الفكرة* طُرحت *سابقاً* في *هانوي* ورفضتها بصورة حاسمة (إذ لم نكن نستحقِ، حسب رأي فام فان دونغ، الامتياز بإقامة علاقة، تجعلنا نتضايق من الآن وصاعداً، بالوسائل النظامية). وكان شو يصغي. ولم أكن دقيقاً جداً وغير مؤمّل أن أقدم لواشنطن تبادلاً، على قدر ما كنا متأكدين، أن ممثلي بكين لن يأتوا إلينا، حيث ممثلو تايوان كانوا يملكون بيتاً.

قال شو، أنه سيدقق في اقتراحي، المتعلق بإقامة مكتب اتصال. ولم أكن على ثقة من الوصول إلى هذا الهدف. لكن الاقتراح قُبل في اليوم التالي، بالإضافة إلى لفتة كريمة مباغتة: تؤكد الصين على وجود تبادل، ووجوب إقامة مكتب اتصال صيني في واشنطن. وهو على استعداد لإجراء محادثات على الفور، حول تنظيمات تقنية، وهذا ما يثبت أنه أشبع اقتراحي، تفكيراً أكثر مني. أن مكاتب الاتصال، كما حدّدها، كانت حسب رأي مراقب "سفارات دون تسمية". وسيتمتع موظفو هذه المكاتب بحصانة دبلوماسيّة، ويملكون شبكات اتصال سريّة خاصة، ويعامل مديروهم بمثابة سفراء، ويقومون بدور قوي في جميع التبادلات التجارية التي تجري بين الحكومتين. ولن يحسبوا بين الهيئة الدبلوماسية، وهذا يعطيهم الأفضلية، لمعاملة أفضل، دون تعريض البروتوكول إلى التشويش.

كان المخطط يقدّر بصورة مبدئية، إسناد المكتبين، إلى دبلوماسيين محترفين

من مرتبة متوسطة. وعندما درسنا الأمر (نيكسون وأنا)، عزمنا على تعيين دافيد ك. أ. بروس، أحد سفرائنا القديرين ومن شخصيات بلادنا الممتازة.

إن تعيينه كان يرمز إلى الأهمية التي نعلّقها على هذا المنصب. وكان موضع ثقتنا، بالنسبة لأدق الاستعلامات. ولن يتمسك بالشكليات، في حال عدم تكليفه، بمهمات عادية، يعتبرها رجل عادي أنها ملازمة لوظيفته. أضف إلى ذلك، أنه حكيم ومجرّب، الأمر الذي يسمح له أن يدير بصورة حسنة، شؤون مكتب الاتصال: أي المحافظة على تناسق وجهات النظر الخاصة في العاصمتين، اللتين تدينان بأيديولوجيات متعارضة، منبثقة عن تقاليد تاريخية، تختلف الواحدة عن الأخرى، وستتوحد منذ الآن وصاعداً لضرورات تنظيم واحد.

وأقدم (شو ان لاي) بالمقابل على تعيين هوانغ شين، الذي كان حتى الآن سفيراً في باريس. وانتهيت إلى أن أكنّ حباً عارماً لهذا الرجل، ذي الإحساس القوي، والودود، الدقيق في انتظامه، ككل الدبلوماسيين الصينيين. ومع ذلك، فقد كان يتهيأ دوماً لتمرير بعض المضمرات، التي يكون قد حلّ رموزها من خلال التعليمات التي يتلقّاها. وأظهر أنه سيّد عمله، لا سيما في المرحلة الأكثر تعقيداً، من المفاوضات حول فيتنام، مبرهناً على حسن نيّة كاملة، متجنباً تعريض حكومته للخطر، تجاه حلفائها الشرسين في هانوي. وكان يتوصل إلى إشاعة الثقة، حتى في الظروف الصعبة، التي أجبرنا على اجتيازها فيما بعد، وكان سببها ضغوطاً داخلية في كل من بلدينا. وكان الجانبان يظهران الأهمية التي يعلّقانها على مستقبل هذه العلاقات، بإرسال كل منهما الرجل الكفء إلى عاصمة الآخر.

وهكذا وجدنا حلاً عملياً لمعضلة، سببّها نزاعنا حول موضوع تايوان، نزاع كان يمنعنا من تسوية صحيحة وتامّة. في حين أن اهتمامنا المشترك بشأن التوازن

العالمي، يتطلب اتصالات سياسية منتظمة ودقيقة. والمبدأ الذي يسمح بإعادة العلاقات الدبلوماسيّة، يتوقف على اتفاق حول تايوان. والحقيقة انه في الدقيقة، التي أعيدت فيها هذه العلاقات بصورة نهائية (أي الأول من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٩) فإن كل ما اتخذ من إجراءات، هو تغيير اللوحات، التي كانت على أبواب مكاتب الاتصال، وكتابة كلمة "سفارة". وخلال أقل من عامين، تراسلنا بمذكرات مخطوطة نقلها وسطاء، لتهيئة أرضيّة لعلاقات سياسية وثيقة، وديّة، مثل التي تتبادلها معظم البلدان، التي لها في بكين تمثيل دبلوماسي بصورة رسميّة.

❐ ❐ ❐

احاط ماو تسي تونغ، رئيس الحزب الشيوعي الصيني، نفسه، طوال حياته، بحجاب من السريّة والاحترام، وبحجة أولى مثل كل الأباطرة الذين خلفهم. كان يعيش في مسكن متواضع، داخل جدران القصر الامبراطوري القديم «الحاضرة المحرمّة». مضيفونا من الصينيين، كانوا يرددون باحترام مبادئه، التي كانت تظهر جديرة بان تجد معنى خاصاً للملاحظاته المبهمة. حتى ان شو ان لاي، رئيس الوزراء، كان يؤكد بتصميم، ان جميع القرارات الخطيرة كانت تصدرعن ماو، وكان يؤجل أحياناً لقاءاتنا، بحجة افتقاره لنصائح الرئيس. وعندما كان يعود، كنا نجد كلماته وقد أصبحت ثورية، شديدة وملتهبة، وكان كلامه معقولاً جداً، وانه في الواقع مطيع لتعليمات ماو الخاصة كما كان يدّعي، ويجسّد افكاره. لكني لم اتمكن أبداً، من فهم، فيما اذا كان شو، يسعى في نفس الوقت ليتخلّص من الرئيس، أو انه يريد تأكيد إحدى ملاحظاته.

وفي هذا الوقت، كنت ترى صورة ماو في كل مكان من بكين. وكان خطّه يغطي جميع لافتات الإعلانات. والبنايات العامّة. وهيمنته الشخصية على الكيان

الاشتراكي، الذي أنشأه، كانت هذه الهيمنة قادرة على وضع حدود تنظيمية حقيقية لكل مجريات الحياة. ومن المذهل ان نسلّط الضوء على شخصية مهمة، في نظام ماركسي، كان ينادي نظرياً بدور مسيطر على القطاعات المادية، والقوى التاريخية. وكأن هذه الصورة الجبارة. سليلة وسط وضيع جداً، ثم علا مقامها، حتى سيطرت على ما يقرب من ربع البشرية، وكانت لا تثق بديمومة الايديولوجيا، التي نسبت لنفسها تطبيقها. وبعد أن اعتبر ماو نفسه مزاحماً للآلهة، كان يسعى الى خلود عبادة هؤلاء الملايين من البشر، الذين تحملوا بل عانوا الكثير بسبب مرور العديد من الفاتحين، الذين أجبروا على الخضوع الى مقدار كبير من التغييرات، والذين في النهاية تمكنوا من تجاوزها، بطول احتمالهم، ومعنوياتهم القوية وانسانيتهم الرفيعة.

كان ماو يعلم جيداً ان التزلّف والتهليل وقتيّ، وكون المتملقون موجودين بين طبقات الناس، فهم غير أهل لمنحهم الثقة. وخائفاً من المصير الذي صار إليه الامبراطور، كين شي هوانغ دي الذي بعد ان زرع الاضطراب في الصين، طوال عشرين عاماً، أصبح اليوم نسياً منسياً ذلك النسيان الذي تحتفظ به الشعوب، لمن يزعمون انهم يشوهون النظم المبدئية للبلاد، فاستعجل ماو ما كان يقصد اجتنابه. ومحاولاً ان يفرض على وطنه الخاص، ثورة دائمة، والتي لم تكن سوى التغلّب على العقبات، فاغتنم الفرصة ذاتها، ليوقظ في النفوس الحاجة الى الاستمرار في الثورة، الذي كان شعار تاريخ الصين الدائم. واذا كان الشعب الصيني استطاع المحافظة على بقائه، فليس هذا بفضل حميّته، لكنه نتيجة ثباته، وليس أيضاً بسبب انطلاقاته المخيفة، بل لأنه سار بخطوات موزونة. ويدين بعظمته الى مزيج خاص من الإدراك الجيد، والثقافة والتنظيم الذاتي. وأكبر زعمائه، وجدوا أنفسهم مأخوذين آجلاً أو عاجلاً، بهذه الكتلة الدائمة من الشخصيات القادرة على تحمل الألم، دون تبديل في صفاتها الأساسية، والتي تفهم حتى عند عدم البوح بما تهدف اليه، ان عظمة الصين هي في استعادة أمجادها التاريخية الى الحلبة البشرية.

يشكل الصينيون شعباً موهوباً، تحرّكه طموحاته، لكنه على ثقة تامة ان فكرة رجل واحد، مهما يكن ذا تأثير، لا يستطيع إيجاد حلّ لجميع معضلات التاريخ.

كان ماو ينصب نفسه فوق الجميع. ولم يكن يستقبل الأجانب إلاّ نادراً. والذين يستقبلهم كانوا دائماً رؤساء دول، أو موظفون شيوعيون، من مراتب عالية جداً. كنت التقيت ماو مرّة، عندما كنت أحد أفراد حاشية نيكسون، في أول زيارة رسمية لرئيس الولايات المتحدة إلى بكين. والدعوة وصلت فجأة، اذ لم يكن هناك موعد لقاء طبقاً للأصول الواجبة. وكان يعود ذلك خصوصاً الى ضعف صحّة الرئيس ماو، ولا يمكن استباق الفرصة التي يكون فيها قادراً على قبول الزيارات. ولا بد من القول ان هناك تصميماً يرافق ذلك. لأن، العزلة تنمي الأسرار، والابتعاد عن الناس شعار العظمة. وفي الحقيقة، لم يكن ماو بحاجة لأية براعة لتعظيم الأمور التي يُقدم عليها. لقد تأثرت طوال لقائه مع نيكسون، من تمكنه من بسط هيمنته على الموقف، فكان سيد اللقاء، كما لم يفعل قط تجاه شخصيات أخرى.

والتقيت به مرة أخرى، في السابع عشر من شهر شباط، فحينما كنا شوا ان لاي وأنا نتحدث في المكان المخصص للمدعوين الرسميين. وكان الوقت يقارب الساعة الحادية عشر مساء، لأن شو من طبعه ان يتأخر في عمله، بنوع أننا كنا تقريباً، نعقد جلساتنا بعد العشاء. كنا مجتمعين في قصر الضيافة، اذ ان شو قد اعتاد ان يأتي لزيارتي، في كل مرة كنت أذهب لرؤيته، على الرغم من البروتوكولات التي تباعد بيننا. وفجأة انقلب جوّ هدوئنا انا ومحدّثيّ الى بعض الاضطراب، عندما ظهرت الآنسة وانغ هيرونغ، معاونة ووزير الشؤون الخارجية. مع ما يعرف عنها انها قريبة ماو، فكانت وكأنها ظبية سريعة الإجفال، متنقلة بسرّية هنا وهناك، حتى غدت غير مرئية في تحركاتها.

وضعت الآنسة وانغ مذكرة أمام شو. فأكمل شو بدوره حديثه مدّة دقيقة عن

معلّلات السوفيت، ثم أعلن: «اني ارغب في إطلاعكم على خبر آخر جديد: «ان الرئيس ماو يدعوكم لمقابلته. انكم تستطيعون لقاءه مع معاونكم لورد». وما قاله شو ألغى وبصراحة بقيّة من كانوا معي. وهكذا أتيحت لونستون لورد، مناسبة ليظهر فيها ولأول مرة في صورة برفقة ماو.

وللذهاب الى لقاء ماو، كان لا بدّ من استخدام عربات صينية. والصينيون ما كانوا قط ليسمحوا لأعضاء مصلحة الأمن الأمريكيين بمرافقة الزوّار. فاستقلّينا سيارة شو القديمة، من طراز ١٩٣٩، وكلّها مخلّعة، وسرنا في شوارع عريضة، منطلقين من قصر الضيافة للزوّار الرسميين الى قلب المدينة، الذي كان تقريباً مقفراً، في مثل هذه الساعة من الليل. وقبل الوصول الى ساحة «تيان آن مين» وقصر الشعب، انعطفنا الى الشمال، لاجتياز مدخل من الطراز الصيني التقليدي، وأعمدته الحمراء، تقطع اتصال جدار طويل، مبني على محاذاة طريق معبّد وعريض. وأتبعنا من هناك طريقاً، سرنا فيها ما يقرب من كيلو متر ونصف، بين مساكن بسيطة، خلف جدران عالية يتعذر تحديدها. ثم انحرفنا قليلاً بموازاة مع شاطئ بحيرة، بينما كانت تظهر لنا من الجهة المقابلة وبالمصادفة. بعض المساكن من الطراز البيروقراطي السوفيتي ، كان مقرّ ماو متواضعاً، وكأنه مسكن بعض الموظفين متوسطي الحال.

أوصلتنا السيارة الى رواق مسقوف، ولم نلحظ أية اجراءات أمنيّة خاصة. وفي الداخل، وفي الجهة المقابلة لقاعة استقبال صغيرة، وبهو كبير، كان يجلس ماو، تجاه نصف دائرة من المقاعد، مغطّاة بقماش أسمر اللون. الكتب مبعثرة في كل مكان، في الأرض، أمام ماو، على الطاولات الصغيرة، بين المساند، على الرفوف، إلى جانب الجدران!!

مزح ماو قليلاً، فيما كان المصوّرون الصينيون، يأخذون بعض الصور.

كانت الغاية من اللقاء، التاكيد على ان روابط الصداقة بين الولايات المتحدة والصين، زادت توثقاً في حياة ماو، الذي لم يفوّت الفرصة لتحقيق هذه الغاية. ولما أخذنا بالتقدّم نحو المقاعد، وفيما كان المصوّرون لا يزالون في القاعة، بادرني ماو بالكلام قائلا: «صحتي لا بأس بها». (وقوله هذا تخطّى ما كنت أفكر به، لأني كنت أقارن بيني وبين نفسي ما هو عليه الآن، مع ما كان عليه من وضع سيء، حين التقى نيكسون، قبل عام تماماً) «لكن الله افتقدني بدعوة». ومهما يكن من أمر، فقد بدا غير لائق، بزعيم أكبر أمةّ ملحدة في العالم، وأكبر ماديّ جدلي، ان يستعين بالعناية الالهية. ولا يجوز لأي شخص كان السماح لنفسه بإعاقة كدّ الرئيس. ومن المؤثر أيضاً أن نرى، بأي خلق ومرح، يقابل بهما ماو قرب نهاية سلطته، وكيف كان يستعجل الأمور التي كان يصرّفها شخصياً، لتنفيذها جيداً.

وبالطريقة التي حادَثَ بها نيكسون قبل عام، حاول ماو استداجي إلى حديث سقراطي مرح، كان بالنسبة له سبيلاً للإفصاح عن وجهات نظر هامة، بشكل مناسبات مفاجئة، وبمظهر عرضي، تبدو ملاحظاته وكأنها بادرة بنت ساعتها، لكنها كانت في وضع ترتيبي، لتشكل مجموعة توجيهات موجهة الى أتباعه. أورد ماو حادثة عن الماضي، متكلماً بصورة غير مباشرة، قائلاً: هناك رئيسان هارّي ترومان وليندون جونسون، قد توفيا خلال الشهرين الفائتين، فدفنّا معهما السياسة، التي كانت تديرها قديما الولايات المتحدة تجاه الصين وفيتنام. وبطريقته اللاذعة، أثارني ماو قائلاً: «في ذاك الوقت، أنتم (. . .) كنتم تتصدّون لنا، ونحن كنا نتصدّى لكم كذلك، نحن إذاً أعداء». وأخذ يضحك.

أجبت «أعداء قدامى».

ولم يكتفِ ماو بهذا، بل قال: «إننا نُعِدّ الآن علاقات ودّية».

وبالمناسبة أعطى مباشرة تفسيراً لذلك، مؤكداً على أحد المبادئ الأساسية، في كيفية الحكم علىالطريقة الصينية، بمعنى ان الذي يعمل لتأمين مغانم جزئية، ووجهات نظر قريبة المدى، لا يجوز أبداً أن يقدم على شيء قادر علىتهديم ثقتنا المتبادلة. «علينا ألاّ نسمح لأنفسنا ان نتبادل كلاماً كاذباً، ولا يخادع أحدنا الآخر، وبكل تأكيد، اننا لا نسعى أبداً لسرقة أوراقكم. انكم تستطيعون وبعزم، ان تكملوا مساعيكم لتضعونا موضع الاختبار»، وأكمل حديثه مازحاً، دون ان يتطرّق البتّة إلى كيفية البدء بالمحاولة الجديدة، ولا معرفة نتائجها، اذا لم تُغتنم هذه المناسبة. ثم أردف ماو نفسه قائلاً: والمخاطرة لا تعني شيئاً. وعلى الرغم مما كان فيه من وضعٍ مرضٍ، أدخل الريب الى نفوسنا، بعدم جدوى فعالية مصلحة الاستعلامات. انه كان يقدّر فعلاً، وبصورة عامة، ان سمعة مثل هذه الأجهزة، مُغالى في تقديرها. وحالما يُخطرون بما يتمنى الساسة القياديون سماعه، تتهاوى تقاريرهم كقذائف الثلج. لكنهم في الظروف الدقيقة، فاشلون في معظم الأحيان. ولم تتمكن الخدمات الصينية السريّة، من اكتشاف مؤامرة (لين بيا)، (وزير الدفاع الذي توفي بحادث طائرة في أيلول عام ١٩٧١، فيما كان هارباً الى الإتحاد السوفيتي، بعد اكتشاف مؤامرته ضد رئيسه ماو). وكان يخشى ان توصلنا مصلحة استعلاماتنا الى النتيجة ذاتها.

وبالاختصار فان المشاريع الكبرى تتطلب سياسة النفس الطويل، لا اجراءات تعبوية. وكان الوضع الحالي، ينتظر ان تقوم الدول بإجراء مشترك، على الرغم من اختلافاتهما العقائدية. فعلى الفريقين والحالة هذه، المحافظة على مبادئهما ومتابعة الأهداف المشتركة. وكان ماو يعيد الى ذاكرته، ويؤكد صحّة ملاحظة، توجّه بها أليه نيكسون عام ١٩٧٢ والتي كان يقصد بها، ان في حال حدوث تقارب بين الصين والولايات المتحدة، يكون صادراً عن نفسيهما وضمن احتياجاتهما. واضفى ماو على الاقتراح زخماً أكثر، غير خالٍ من التهكم، مبيناً اننا سنجد تأييداً كبيراً من الرأي

العام تجاه تعاوننا، اذا تخاصمنا قليلاً بالمناسبة، لكي لا نعتبر اقتراحاتنا على محمل رسمي.

«وطوال الوقت، الذي تبقى فيه أهدافنا متجانسة، يجب علينا ألاّ نزعجكم، وعليكم انتم عدم ازعاجنا، وفعلاً، ربما يخطر لنا في المستقبل ان ننتقد ما تقدمون عليه، وتقابلوننا أنتم بالمثل. ان رئيسكم نسب هذا الى التأثيرات الايديولوجية. أنكم تقولون: «فليسقط الشيوعيون». ونحن نقول أيضاً: «ليسقط الامبرياليون». إننا نقول أحياناً، كلمات من هذا النوع، ولا يحسن ألاّ أن تقال».

ماو تسي تونغ، أو الثورة الشيوعية الصينية،الرجل الذي غمس شعبه، في أسوأ اضطرابات سياسية، يبذل جهوداً للوصول الى المبادئ السامية، ويتحمل آلاماً كبيرة، ليظهر أن تلك الشعارات المنتشرة علىجميع جدران الصين، تخلو من أي معنى، وان المصلحة القومية، بشأن السياسة الخارجية، تعلو على جميع الخلافات الايديولوجية. ليست الشعارات الايديولوجية، سوى واجهة، تخفي وراءها الاهتمام بالمحافظة على التوازن العالمي. ومفروض على كل معسكر ان يجعل مبادئه في المقدمة. وملزّم هذا المعسكر ان يعمل بطريقة، لا تتعارض فيها هذه المبادئ مع المصلحة القومية ـ تعبير كلاسيكي لميكيافيلية حديثة ـ و«أعتقد ان كلاً منا يجب ان يبقى أميناً لمبادئه، هذا كان جوابي محاولاً مشاركته في الحديث. وسننقذ الموقف اذا تكلمنا بذات الاتجاه».

وهكذا وبقليل من المزاح، تذاكرنا بالوضع العالمي، حتى الساعة الواحدة والنصف صباحاً. ان التهديد السوفيتي، حسب رأي ماو، كان حقيقياً، وهو في ازدياد. وحذّرنا من انفراج مزيّف، يزيل فكرة المقاومة، ضد التوسع السوفيتي ، ويوقع الشعوب الغربية في ارتباك. يجب على الولايات المتحدة واوروبا، ان يقاوما في توجيه القلاقل نحو الشرق. اذ ان هذه إستراتيجية ساخرة، وعندما تحين الساعة، يلتهم الغرب أيضاً. فيجب على

الولايات المتحدة والصين ان يتعاونا. وهذا يتطلب ان نضفي على علاقاتنا صفة تأسيسية. ان إقامة مكتب اتصال في كل عاصمة، فكرة مقبولة، وتحملنا على مضاعفة اتصالاتنا، وأيضاً مبادلاتنا التجارية، و التي هي في وضع محزن عل حدّ قوله.

وحسب رأي ماو، فان الولايات المتحدة، قادرة على تحسين المصالح المشتركة للبلدين، عند قيامها بدور قيادي في الشؤون العالمية، يعني كما بيّن، بأخذه المبادرة بإقامة تحالف معاد للسوفيت. ومنذ زمن بعيد وبكين ترفض التحالف مع الولايات المتحدة، معتبرة إياها أداة امبريالية، ولكن حسب وجهة نظرها الحالية، أصبحت تحالفات كهذه دعامة الاستقرار الدولي. ان وجود القوات الأمريكية، خارج بلادها، مُهانة طوال عشرات السنين، أصبحت فجأة ذات نفع، شريطة توزيعها بطريقة حسنة. ثم انتقد الرئيس جاهزيتنا في آسيا، والسبب في ذلك عدم شمولها بمخطّط إستراتيجي، إذ ان قواتنا هناك كانت «جد مبعثرة». وكما سبق وأشار شو. فقد أكّد ماو أهمية تعاون وثيق بين امريكا وأوروبا الغربية، واليابان، والباكستان، وايران وتركيا. إذ كان علينا حسب رايه، إقامة دفاعنا، والاحتفاظ بعيوننا مفتوحة وبحذر شديد نحو عدونا الرئيسي (الإتحاد السوفيتي)، افضل من أن نتخاصم مع حلفائنا بسبب مشاكل لا اهمية لها. وطالب بتقوية وحدة الديمقراطيات المصنّعة:

«بالنسبة لما هو مطلوب منكم، في أوروبا واليابان، رجائي ان تتعاونوا بعضكم مع بعض. وممكن ان نتخاصم ونتعارض في أمور معينة، لكن الواجب يدعونا الى التعاون في القضايا الأساسيّة».

غير انه، وعلى مما هو عليه من اهتمام شديد للسياسة الدولية، فان الرئيس، لم يكن قادراً على التخلّص من فكرة تستحوذ عليه، بأنه لم يبق لديه سنوات كثيرة، لحل مشاكل بكين الداخلية، وكما حصل ذلك في غالب الأحيان، في تاريخ الصين، تتابع

الأحداث في مجراها الطبيعي وبطريقة تلقائية ومرّة بعد مرّة، كان يحذرني ماو، من الضغوط التي يمارسها عليه المتطرفون لكنه أشار إلى ذلك بطريقة تلميحية، حتى ان بلادة ذهني كرجل غربي، لم أتفهّم مباشرة، ما كان يدور في خلده.

قال ماو «انكم تعلمون ان الصين بلاد فقيرة جداً، ليس لدينا أشياء تعتبر زائدة، سوى النساء».

واعتقاداً مني ان ماو كان مازحاً، فقد أجبت بلهجة معيّنة: ألا يوجد للنساء كوتا أو تعرفة جمركية».

أجاب ماو: «لذلك، إذا رغبتم في الحصول على بعضهن، فاننا قادرون على تزويدكم ببعض عشرات الآلاف».

فقاطع شو الحديث قائلاً: «بكل تأكيد وبصفة اختيارية».

فأكمل ماو حديثه: «دعوهّن يطأن أرض بلادكم، فانهم مدعاة للسكينة، وبهذا تخففون حملاً عن كاهلنا». وهنا قهقه عالياً.

ولم يتأكد ماو، انني قد فهمت ما كان يقصد، فعاد إلى نفس الموضوع بعد بضع دقائق: «هل تريدون من نسائنا الصينيّات؟ اننا قادرون على السماح لهن بغمر بلادكم بالسكينة، ومع هذا إتلاف مصالحكم». ومن الجدير بالذكر، ان تفهم الأمريكان للأمور بطيء، لذلك فان ماو أعاد الحديث مرّة أخرى، وهذه المرة، عرفت أنه يريد إطلاعي على شيء، لكنّي لم أستطلعه جيداً. وبعد مرور وقت ما على ذلك، شرحت لي الموضوع (بيت) امرأة ونستون لورد: ان الوضع في الصين، لم يكن مستقرّاً كما يبدو، والنساء، ويعني منهن «جيانغ كينغ» زوجة الرئيس ماو، رئيسة الجناح اليساري، وكن هؤلاء النساء يُثرِن الاضطراب في الصين، ويجعلن من الخط السياسي المهيمن موضوع تساؤل.

غير ان هذا الأمر، لا يتعلق بالأشخاص الموجودين، ضمن مشاكل الصين الداخليّة، وكان ماو يرى نفسه، في آخر أيامه، نهباً لمعضلة كبيرة، في سبيل تحديث البلاد. لقد أسست الصين تفوّقها على قيمة مثاليّتها، وسمّو أخلاقها، أكثر مما هو على بسط نفوذها بوضع رديء، كما كان عليه الحال، بالنسبة لتاريخ أوروبا السياسي. ان الصين في الحقيقة، كانت قد سيطرت، على ما تبقى من آسيا طوال قرون، دون ان يكون لها أيّة خبرة حقيقية، في منطقة نفوذها، أو مبادىء يقتضيها توازن القوى، أو المساواة بين دول ذات سيادة.

وكانت الصدمة قاسية، عندما علمت الصين في القرن التاسع عشر، ان متخلفي الغرب، مهّروا بتكنولوجيّا، تسمح لهم بفرض ارادتهم على امبراطورية الصين، وباقي دول آسيا. وفيما كان اليابان، يقاسي ردّ فعل، بالنسبة للتهديد نفسه، عزم على تحديث نفسه، مهما يكلّفه الأمر (وتوصّل بصورة عجيبة إلى المحافظة على هويّته في هذه المغامرة). ولم تكن الصين مهيئة لتعريض ثقافتها للخطر، إذ كانت تبني عليها آمال عظمتها، وللتكنولوجيا صفة عمومية، تجلب معها سمة خاصّة من التقنين، يؤدي بدوره إلى التحييد. ان التكنولوجيا والتحديث، يجلبان معهما، تهديداً للصين، أكثر من غيرها من شعب آخر، لانها تتّهم جوهر كيانها، وارادتها بالمناداة بنفسها انها فريدة.

ان الصين قد رفضت عمداً كل حلّ على الطريقة اليابانية، وانطوت على تقاليدها، مزهوّة بمواهبها الدبلوماسيّة، ومن ثقتها بنفسها، لإبعاد الأجانب الشياطين، المكروهين (والذين يخشى جانبهم). وفعلاً فقد نجت الصين بنفسها، خاصة عندما حلّ المستعمرون الأوروبيون في بعض الدول وبمراقبة المنافسات بحذر، وفهم السلطات الأمبريالية، أمّنت الصين لنفسها خطّاً استقلالياً، واسع المدى، أكثر مما حظيت به دولة أخرى في وضع مشابه.

كانت ثورة ماو، تحمل في ذاتها، انعكاس ازدواجية التاريخ. ومن غريب أمرها، انها كانت تناهض قيم الصين القديمة، وتؤيّد تلك في آن واحد. كانت الماوسيّة تدّعي التغلّب على ماضي الصين، لكنها مثلها مثل الكونفوشيوسيّة التقليدية، كانت تنظر إلى المجتمع، وكأنه اداة في خدمة الأخلاق والبيراغوجية. ونظراً لهذا الاختلاف اليسير، الذي جاء به ابن فلاح من مقاطعة هونان الريفية وادخله ضمن مبادئه. بتناقض كلّي. مع ما أعد، ان الغاية من الثورة الثقافية الكبرى، التي أطلقها ماو من عقالها عام ١٩٦٦، اقتلاع جذور كل مبدأ تجديد، ولم يكن هذا الأمر ينحصر في النفوذ الغربي، والبيروقراطيّة، بل بكل ما يجدد الصين ويدمجها في ثقافة عمومية.

وفي شهر شباط من عام ١٩٧٣، عندما التقيته، فان الرئيس الشيخ، كان قد فهم، أنه، إذا كانت مبادرته الكبيرة العظيمة قد وطّدت وبنوع مذهل استقلال بلاده، فانها في الوقت نفسه قد حدّت من قدرتها، وكان يوقن منذ الآن وصاعداً ولو كان هذا الاعتقاد بصورة مؤقتة، انه إذا أكمل المسيرة منعزلاً عن بقيّة العالم، فان الصين ستنتهي بألاّ تعني شيئاً أبداً، بل ستتعرّض إلى أخطار غير منتظرة، وكان يردّد بكلام لا يخلو من الألم: يجب على بلادنا أن تتخذ لها مكاناً في مدرسة الأجنبي. وأمر بإيقاف الثورة الثقافية، ولاحظ والحزن يغمّ صدره، ان الشعب الصيني كان «شديد العناد، وصلب المحافظة». وأتاه ظرف، لتعلم اللغات الأجنبية. التي هي طريقة جديدة للكلام، ومن ثم لتلقّي دروس من الخارج، وهذا ما رمز إليه فعلاً بالسماح بعزف سمفونيّة بيتهوفن في التظاهرة الثقافية، وسيرسل الكثير من الصينيين للدراسة خارج بلادهم، وأخذ بتعلّم اللغة الانكليزية. أضف إلى ذلك فقد أقدم على تبسيط الكتابة الصينيّة، حتى يتمكن الصينيّون من تفهّم حسن للأفكار الواردة من الخارج.

لكن الرئيس الطاعن السن. تقدّم في العمر كثيراً ليستطيع السير بثورة جديدة ضد ميول حزبه الفطريّة، وتقاليد شعبه، وبمعنى أدق، ضد خفايا نفسه. وقبل

انقضاء سنة على محادثاتنا. انكر جميع الآراء التي كان قد طرحها في مكتبه ليلاً، أو على الأقل، سمح لآخرين ان يخالفوها. ونُحّي شو ان لاي. وبعد أقل من عام، كان خلفه (دانغ كسياوينغ) ضحيّة القوى، التي كان ماو نفسه، يقاومّها عام ١٩٧٣، بنوع ان التحديث أجّل مرّة أخرى، على الرغم من ان الرئيس، وعن طريق أحد مقرّبيه، كان يعترف بضرورة وجودها.

فهل شجّع ماو المتطرفين، الذين عرفوا فيما بعد باسم «زمرة الأربعة»؟ وهل اغتنم هؤلاء مناسبة ضعفه المتزايد؟

ربما كان هذا أو ذلك، ولكن ماو عند وفاته، كان لايزال في انقطاع مع معضلات وتناقضات ثورته، وللحقيقة، مع كل مشاكل تاريخ الصين.

بعد الجلسة التي قضيتها مع ماو، بدا لي ما بقى من الأمور تافهاً. وكانت محادثات اليوم التالي، مع شو، تدور حول دقائق افتتاح مكاتب الاتصال، فأطلعته على مخطّطاتنا، بالنسبة للمبادرات الجديدة، التي سنقوم بها نحو أوروبا والشرق الأوسط، وأبدى شو ان لاي أيضاً موافقته على تحرير طيارّين أمريكيين، ضلّت طائراتهما الطريق، في أجواء الأراضي الصينية، خلال حرب فيتنام. كما ان الصينيين، كانوا قد اعتقلوا أسيراً آخر (جون داوني) الذي أسِرَ خلال مهمّة استطلاعية عام ١٩٥٠، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة.

ان الحكم على داوني، كان قد خُفف، ممّا أدّى إلى إطلاق سراحه عام ١٩٧٣. لكن شو قد ألمح إلى أن هذا الإفراج، سيسبق موعده، في حال إقدامنا على أسباب إنسانيّة. وبعد شهر مرضت أم ـ داوني ـ فأبلغنا الخبر الى شو ان لاي. وفي الثاني عشر من شهر آذار من عام ١٩٧٣، أفرِجَ عن داوني، وهكذا وُضع حد لفترة عَداوة بين الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبيّة.

إن جولتي في آسيا، كانت بالنسبة لي أول رحلة إلى الخارج، حيث لم أشعر بوطأة حرب فيتنام، ولو أن هانوي أظهرت تفاؤلاً سلبياً، فإن زيارتي لبكين تؤذن بفتح باب للبدء بإمكانيات طيبّة. وستكون لدينا الفرصة، لتخصيص وقت لها في المستقبل، بعد أن وجهّنا كل انتباهنا، نحو إعداد سياسة خارجيّة، منبثقة عن فكر خلاّق. وحسناً علاقاتنا مع موسكو وبكين في آن واحد، على الرغم من أن هذه العاصمة والأخرى كانتا راغبتين في أن نتخذ موقفاً أقل غموضاً، فتوّج عملنا بالنجاح، وحتماً في سبيل الغاية نفسها. أن التقرير الذي كتبته في الطائرة خلال رحلة العودة من الشرق الأقصى، لتقديمه إلى نيكسون، كان يتضمن:

"يجب علينا، ونحن نولي اهتمامنا الكلّي للعاصمتين، أن نكون قادرين على تذوّق آراء ماو، دون المساس بتفكيرنا وما نستسيغ. وفي نهاية المطاف. إن الصين تتوقع أن الاتحاد السوفيتي، سيتابع عداوته لها، ولا تملك الخيار، وعليها أن تتّجه نحونا لتجد توازناً (على الرغم من وضع أقدامها حديثاً في اليابان وأوروبا الغربية). وموسكو أيضاً هي بحاجتنا في مجالات: سياستها الأوروبية والاقتصادية.

"غير أن المقصود هنا، القيام بدور توازن صعب، يحملنا أكثر فأكثر على اختيار خيارات صعبة، وسنكون دون منفعة تجاه بكين، التي ترى فينا توازناً لموسكو، في حال إشاحتنا بوجوهنا عن العالم، ونُضعفَ وسائل دفاعنا، ونقوم بدور سلبي، في الحلبة الدولية، يطالب ماو وشو بتكثيف الوجود الأمريكي، ونسدّ الطريق أمام مخطّطات السوفيت وفي قطاعات مختلفة، ونوثق علاقاتنا بحلفائنا، ونحافظ على قوّة جاهزيتنا الدفاعية. وإذا خُلص الصينيون إلى الاعتقاد، أننا نخضع للميول الانعزالية، التي يجهر بها بعض عناصر الكونغرس، والرأي العام، والصحافة، فإننا سنشهد دون ريب انعطافاً من بكين وحسن تخلّص من الموقف الذي تتخذه. لقد

طمأننا أنتم وأنا، وبصورة طبيعية، قادة الصين الشعبية، سواء على انفراد، أو ببيانات علنيّة، عمّا ننويه من القيام بدور دولي، ينبثق من شعورنا بالمسؤولية".

إن الغاية من الخط الأساسي لسياسية نيكسون ـ والذي كان يؤمله غالباً ـ خلال ولايته الأولى، هي توطيد التحام وثقة أمريكا بنفسها، وهذا يسمح بل يخوّلها القيام بدور أساسي على المستوى العالمي. وكنا نؤمّل أن نكون قادرين، خلال الولاية الثانية، على إعطاء المدلول والبعد الصحيح للمعركة الدائرة سابقاً. إن الذهاب إلى بكين، فتح أمامنا آفاقا كبرى، حسب اعتقادنا، نحو مستقبل أحسن، كنا نسعى لبلوغه. وبعكس ذلك تماماً، لقد كانت هذه آخر مبادرة دبلوماسيّة طبيعية، قبل الكشف عن فضيحة واترغيت القادمة لابتلاعنا.



الفصل الثالث

فضيحة واترغيت

في مساء الجمعة، الثالث عشر من شهر نيسان عام ١٩٧٣، حصلت على لفتة كريمة من كلوب سيتي الاتحادي في واشنطن، الذي كان معظم أعضائه من الديمقراطيين فخصّني بجائزته، التي يمنحها لخدمات المنفعة العامّة، على الرغم من كوني أحد موظفي نيكسون، وكان هناك فائز آخر: عضو مجلس الشيوخ ـ جون شيرمان كوبر ـ أحد أهم أعضاء مجلس الشيوخ من الجمهوريين.

وفي ذلك المساء، اجتمع فريق من الشخصيّات المعتبرة، ضمّ جميع مسؤولي واشنطن، احتفاء بمتنفذين جمهوريين ـ ولم يتخلّف سوى بعض الأعضاء البارزين في حكومة نيكسون، الذين وصلوا حديثاً إلى السلطة وللمرّة الثانية، إثر انتصار انتخابي، لم يشاهد مثيل له قط، ما عدا بعض الاستثناءات. وفي هذه المناسبة، وجهّت أنا وعضو مجلس الشيوخ كوبر، نداءً حول الوحدة الوطنية. وبسطت أمام الحضور العبارات التالية:

"نأمل مع نهاية الحرب الفيتنامية أن نرى سياسة بلادنا الخارجيّة متوافقة مع المثالية العظمى التي كانت تتميّز بها حكومة كينيدي، والاهتمام بخدمة المصلحة القومية، دون حساسيّة".

"وما دمنا أمّة، فقد مررنا بهزّات قاسية، لا سيّما عندما فهمنا أننا على خطأ، وتألمنا كثيراً، عندما تأكدنا أننا ابتعدنا عن تقاليدنا الطيّبة في حالتنا تلك. فوجب علينا بدورنا، أن نعرف حدودنا، أسوة ببقيّة الشعوب. ولقد أتممنا في هذه المناسبة أحد الشروط التي تؤدي إلى النضج، والصعوبة كامنة الآن في تفهمّنا جيداً هذه العبرة، إذ بدل الإقرار بعدم القدرة على عمل كل شيء، نخطئ باعتقادنا أننا لا نستطيع عمل أي شيء".

لاشيء يدعو إلى الإسراع، أكثر من فتح حوار بيننا، بكل لياقة ورحابة صدر، لتحديد مسيرتنا، لأننا في حال عدم القدرة على استيعاب ما نحن بصدده من مخططات للمستقبل، نتمكن من تدبير أمورنا، لا التحكّم فيها. عرفت الحكومة عن كثب ولأول مرّة،منذ عشر سنوات، في فترة كانت تتهم انها تغالي كثيراً بتفاؤلها وبشكل غير مقبول. هذا نقد معظمه صحيح، ويمكن إرجاعه إلى الحالة الفكرية التي كانت وستبقى جوهر التآمرك، والمشاكل التي نعيشها ليست سوى اختبارات يجب التغلب عليها، لا بالأعذار، بل بالأفعال. ولا تقدّر قيمة الانسان فقط بنجاحاته، بل أيضاً بجهوده. والأفضل لنا أن نختطّ لأنفسنا أهدافاً عليا، من الرضا بالتمتع برفاه زهيد. وزد علىذلك، فان الادارة القائمة حالياً، ومن يعارضها، مدعّوان إلى القيام بمشروع مشترك، لا إلى خصومات دائمة، يتعذر تسكينها.

«اننا نعيش في زمن، سيحمل المؤرخين وبكل تأكيد، على معرفة المدلولات التي تحدّد الثورات الكبرى، وكيف ان العالم لا يزال بحاجة الى مثاليتنا وقوة ارادتنا.

وبهذا الصدد، فان الحالة الذهنيّة، التي كنا نتمتّع بها في بدء سنوات ١٩٦٠ كانت متوافقة مع الأوضاع حينذاك، اكثر ممّا هي عليه اليوم. وخلال سنوات ١٩٢٠ كنا ندعو الى العزلة، لاعتقادنا بتفوّقنا على العالم الذي يحيط بنا. ونحن معرضون اليوم للانعزال عن العالم، لأننا نؤمن اننا غير متكافئين معه، ولا تزال النتائج تتشابه. فقد حان الوقت اذا، ان نضع حداً لحروبنا الخاصّة، حروبنا الأهلية.

"وبكل تأكيد. يجب مزج تفاؤلنا، بخميرة من إحساس مأساوي، وأن نعمل بطريقة تعدل مثاليتنا بواقعيّة، لقد عظمنا كثيراً أشكال جدلنا الحضوري. وهذا ما يجعل منه خطأ كبيراً في يومنا الحاضر".

"إنها الوحدة التي تكلم عنها عضو مجلس الشيوخ كوبر. هي التي يجب أن تشكل بالنسبة لنا موقفاً مسبقاً، إذا أردنا التحكم في المستقبل، ووضع حدّ للماضي".

لاقت اقتراحاتي قبولاً وحماساً. وأشرقت على القاعة النية الطيبة، ورغبة المصالحة، وتجديد التفاؤل.

وفي اليوم التالي، أي السبت الرابع عشر من شهر نيسان، كان استيقاظي مرعباً إذ كنت لا أزال أعلل نفسي بفكرة المصالحة والشهامة التي هيمنت على كافة الحضور خلال أمسيّة الأمس، حين جاء لايونار غارمات يسأل عني في مكتبي، في البيت الأبيض. وعند اطلاعي على ما كان يحمل إليّ، اخذ يرتجف كل ما كان حولي.

كان هدف زيارة غارمات لي في مكتبي شرح تلك الأمور التي نوقشت منذ بضعة ايام. وعلى طريقته المرحة، ارتمى على المقعد المنجد بقماش أزرق،

والموضوع بجانب الجدار تجاه أبواب النوافذ المشرفة على حديقة خضراء، أمام البيت الأبيض في شارع بنسلفانيا. وجلست أنا على مقعد قريب من مكتبي وغارمات رجل لا يسعى إلى منفعة نفسه بشكل موارب، لذا بدأ حديثه بسؤال ليس له جواب موضوعي:

"هل أضعت صوابك"؟

ودون انتظار جواب، أخذ يقصّ حكاية مذهلة، والتعب بارز عليه، حكاية صعقتني، لأن ندائي الذي وجهّته، منذ بضعة أيام، حول المصالحة الوطنية، كاد يفسّر وكأنه نداء استغاثة، ثم التهمته أزمة، فاقت على ما كنا فيه من قلق واضطراب إبّان حرب فيتنام. أصبح أعداء نيكسون الدائمين مسلّحين بأسلحة لم يتمكنوا من الحصول عليها حتى الآن. وفي هذه العاصفة الهوجاء من التشكك، الهابة ضدنا، ظهر ندائي نحو مثالية معتدلة، وتفهم عميق لأهدافنا القومية، وكأنه لا معنى له، بل بذيئاً. أن نتيجة الانتخابات الأخيرة آيلة إلى الفشل بكل تأكيد، فتسبّب عراكاً مميتاً.

كما بيّن غارمات لي: أن هذه "الورطة القذرة" لها عدة تفرّعات ولا يعرف هو منها سوى جزء يسير. وطبعاً لا يمكن حدوث شيء، دون مساهمة شخصيات عليا، متمركزة داخل الحكومة. يعتقد غارمات أن مستشار الرئيس الخاص: شارل كولسون، هو "القدوة السيّئة" في كل هذه الحكاية. مع ذلك فإن أبعاد الإساءة، كانت تجعل الناس حيارى، لا يستطيعون التفكير بأن مساعدي الرئيس هـ. ر (بوب) هالدمان وجون اهرليخمان، اللذان سبق أن دعتهما الصحافة "الألمانيان" هما على غير علم بشيء!! أن هناك لغزاً، لأن عداء هذا وذلك لكولسون، كان مضرب المثل. وإذا كان الاثنان متورطين في هذه الفضيحة، فلا يدرك أن الرئيس ليس مطلعاً عليها.

وليكن الآثم من كان، حسب رأي غارمات، فلا يمكن تجنّب الكارثة، إلاّ بإجراء عملية جراحية كبرى، والتعرف الكامل على الخطأ المرتكب. ولكن إذا كان الرئيس هو المتورطّ، ولو بطريقة غير مباشرة، فلن يُلجأ إلى أخذ إقرارات كاملة. وعلى الحكومة منذ الآن التهيّؤ لنزف دم يتبعه موت محتوم، في وسط فيض من الاعترافات يستغلها بفرح عشرات الآلاف من الأشخاص الذين استطاع نيكسون أن يجعل منهم أعداءه على مرّ السنين. كان غارمات على اعتقاد بوجوب تقطيع أوصال الحكومة، وتغييرها رأساً على عقب، برجالها وطرق حكمها في آن واحد. ويجب على نيكسون أن يكون على رأس الحركة الإصلاحية، ويستأصل الشر دون رحمة، ويوحّد حوله الشعب الأمريكي في سبيل انطلاقة جديدة مثمرة.

أذهلني الأمر. وهناك أحدهم، من داخل البيت الأبيض، أعطى زخماً لبعض الأهواء الرئاسية المستندة الى أمور صبيانية، فأخذ باجراءات مكروهة من قبل المتطرفين، الذين كانوا يعارضون الحرب الفيتنامية، عطلت تلاحمنا الاجتماعي وقابليتنا لتحمل مسؤولياتنا الدولية. ان الذي ساندني في أوج متاعبي، منذ أربعة أعوام، وخلال كل هذه الاضطرابات التي كانت تدور حول الحرب الفيتنامية لم تكن تلك المساندة، سوى الأمل بالوصول الى أمريكا موحدة، متجهة نحو مهامها الانشائية. اما الآن، وبحجة تصرفات سيئة خالية من كل معنى، يدبّ الخلاف مرة أخرى، في مجتمعنا الذي أضعفته عشر سنوات من التغييرات. وشعرت بنفسي وكأنني سابح، لم ينج من التيارات الخطيرة، إلاّ لتلتهمه أرض قوية صلبة، بجزر ومدّ غير منتظر وأكثر خطراً، نحو بحار لم تكتشف بعد.

وعندما كنت أفكر، ما يعني هذا بالنسبة لسياستنا الخارجية، خارت قواي. ان قابلية أمّة لإعلاء شأنها ترتكز على مزيج روحيٍ من القدرة والشهرة، والتمسك بالمبادئ. ولاستغلال هذه الصفات، ووضعها موضعها بعناية وحسن تدبير، يجب ان

تستند على سلطة قوامها الثقة وقبول الرأي العام. لكن غارمات لم يكن ليخادع نفسه، فان الرئاسة قد أخذت بالتخلي، وبصورة حتمية، عن كل سلطة معنوية وسياسية. وآمالي برؤية عهد جديد،كلّه فكر مبدع، سيتلاشى على كل حال. وحتى ما كنا قد قمنا به ـ التسوية التي اتفق عليها في الهند الصينية مثلا ـ أن هذه ستتكشف سابقة لأوانها وصعبة البقاء. والخطر حقيقي. واذالم تعطِ امريكا انطباعاً بقدرتها على ممارسة سلطتها، فان الأعداء يقوون عليها. وتوازن القوى العادي، في أقطار حيث وجود الأمريكان يشكل بنداً رئيساً للسلام، يصبح أقل ضماناً. وسوف تنقص قابليتنا للقيام بدور الوسيط في النزاعات الدولية، أو اسداء النصيحة لاصدقائنا. ونحن مهددون بركود سياستنا الخارجية. وربما اضطررنا إلى شنّ معركة في المؤخرة حتى نمنع أن تذهب جهودنا هدراً.

عندما جرت كارثة واترغيت، في شهر حزيران من عام ١٩٧٢، كنت أنا في طريقي إلى الصين. وكنت أعير انتباها قليلاً، إلى ما يردني من موجز أخبارنا. وعسير عليّ أن أتصوّر: أن سياسياً محنّكاً مثل نيكسون، يسمح بسقوط البيت الأبيض في مجازفة تخلو من أي معنى. وفي أسوأ الأحوال، كنت أعتقد أن أحد أتباعه الأذكياء، يبادر إلى معونته في مغامرة تافهة كهذه.

خلال الأشهر التي تتابعت، كانت فضيحة واترغيت، تقترن في ذهني، بمحاولة السرقة التي جرت في السابع عشر من شهر حزيران ولم تعالج في الاجتماعات التي اشتركت فيها في البيت الأبيض. إن المساعدين الذي يعملون هناك، هم في آن واحد شركاء في مشروع مشترك، وخصوصا عند الاطلاع على أمور تتعلق بالرئيس وتتطلب اهتمامه. والاعتبار الأخير يتغلّب على ذلك. وهذا ما كان يجري فعلاً للتمكن من الظهور بمظهر لائق والبقاء في البيت الأبيض على زمن نيكسون.

لذلك، هل كان هناك حاجز في بيت نيكسون الأبيض، يحجز تماماً بين السياسة الداخلية، والشؤون الخارجية؟ إن التقارير المتبادلة بين معاوني الرئيس، كانت تشبه إلى حدّ ما، التقارير التي تصل إلى مساجين في زنزانات متجاورة. وكان الحكم عليها بقدر الصدى الذي تحدثه. والقرب منها لا يدلّ على الإسهام فيها أو معرفتها المباشرة. ولأسباب عملية عديدة، احتفظ بي بعيداً عن القضايا الداخلية، وهذا ما جرى أيضاً لاهرليخمان، رجل السياسة الداخلية، عندما يقصد العمل بسياسة خارجية. وهالدمان الذي كان يعمل بهذه وبتلك، كان يتصرّف بثبات بشؤون العلاقات العامة والسياسة. وكانت تعقد كل يوم جلسات عدّة يحضرها الفريقان، ويقتصر الكلام فيها على العلاقات العامة، ولم يطرق باب أي موضوع دقيق أبداً.

وكنت بالحقيقة متأثراً، من الإرهاق الكبير، الذي يبدو على شخصية الرئيس ذاته، والهجوم القاسي، وأحياناً بغير حق، من قبل المعارضين لحرب فيتنام. غير أني، خلال صيف ١٩٧٢، كنت أبعد احتمال تورّط البيت الأبيض في فضيحة واترغيت. وكنت واثقاً بالتصريح العلني، الصادر عن الملحق الصحفي، رونالد زييفلر، والذي كان يشير فيه إلى "محاولة سطو من الدرجة الثالثة" ولا تتعلّق بأي شخص في البيت الأبيض.

ولكني عندما عدت إلى ذكرياتي، ظهر لي بوضوح، أن هناك شيئاً لفت انتباهي منذ بداية عام ١٩٧٣. وهذا الشيء هو تصرّف نيكسون نفسه. إذ كنت أجد صعوبة، منذ ذلك الحين، في التحدث معه بالشؤون الخارجية، إلى درجة تسبّب لي القلق. وأصبح صعباً بالنسبة لي، أن أستميله للإطلاع على مذكراتي. وكانت تعاد لي، دون تسجيلات هامشية معتادة، تظهر الاعتناء الذي قرِئت به.

(وفي مناسبة واحدة فقط، دقّق نيكسون في جميع الخيارات الواردة في تقريري، ورفضها جميعها).

ولا أذكر، أني طوال هذه الفترة، أجريت مع نيكسون، سوى محادثة واحدة، تتعلق مباشرة بواترغيت. وكانت هذه في بداية شهر نيسان من عام ١٩٧٣، في حين أن لجنة عضو مجلس الشيوخ ـ سام أرفين ـ (وهي لجنة خاصة من مجلس الشيوخ، مكلّفة بتدقيق النشاطات التي لها علاقة بالحملة الانتخابية الرئاسية ـ والتي عُرفت باسم لجنة واترغيت) عندما كانت هذه اللجنة تبدأ بالتحقيق. وكنا إذ ذاك في سان كليمانت. وبعد ظهر أحد الأيام، دعاني نيكسون إلى مكتبه ليسألني عمّا إذا كان هالدمان مجبراً لتقديم شهادة. واتضح بعد ذلك إني كنت ساذجاً عندما أجبت، أن شهادته إقرار بالجرم، ووحدهم المطلعون على قضية السطو، هم المجبرون على تقديم الشهادة. ولم يخطر ببال نيكسون إلاّ ما كان يعرفه، أي أني أقدمت على اقتراح مخالف. وقال لي بهدوء أعصابه، أن أشرك هالدمان بوجهة نظري هذه ـ لكني لم أفهم غموض هذا الاقتراح، إلاّ بعد عدة أسابيع. ومذعناً لإرادة نيكسون أصغى إلي هالدمان بكل هدوء أعصابه، كما فعل نيكسون، وطلب إليّ إعادة رأيي هذا لاهرليخمان. وهذا بدوره، تقبلّ ملاحظاتي، برفع كتفيه استهزاء، متخذاً هيئة رجل متّزن تجاه جهلي المطبق في شؤون السياسة الداخلية.

أما الآن، وقد أصبحت واترغيت على شفا الانفجار، أخذت أوازن بين خيارات نيكسون. وكنت أشكك بالحلول التي يقترحها غارمات. وهي قيام الرئيس شخصياً بحركة إصلاح، تعيد النظام داخل حكومته، وهذا أمر يتطلب مصداقية كبرى. ولسنا على ثقة من جدوى العلاج. وأي شخص، يعرف جيداً الطريقة، التي يدير بها نيكسون أموره، يعرف بصورة أكيدة، أنه يجب أن يكون في البيت الأبيض،

أمين عام حازم، ليتمكن من تطبيق أي مخطط كان. وعند غياب الضغوط القاسية، من قبل الأشخاص الموثوقين، كان يسوّف كل شيء. ومع رباطة جأشه، فإنه عندما يهاجمه العدو، يصبح بحاجة إلى من يشجعه، من قبل معاونيه الموثوقين. وبعبارة أخرى، فإن هالدمان وحده قادر، أن يحمل نيكسون على تسريح هالدمان، ولا يعقل أن يقدم على ذلك. وحتى لو كان متورطاً، وبصورة غير مباشرة في الفضيحة، فلن يكون هناك شخص، لإنجاح البرنامج، بعد أن تغلّبنا على تردّد رئيسنا وبناء على تشخيص غارمات، يبدو أن الحكومة معرّضة ولمدة طويلة لهزّات، لا يمكن التنبؤ بكيفية الخروج منها.

وإذا كان واجبي حقيقياً، كما كنت أتفهمه، فعليّ أن أوحّد بين كل هؤلاء، الذين لا دخل لهم بهذه الكارثة، لنتمكن مجتمعين من اجتياز الذي ينتظرنا. واستأذنت غارمات، بإبلاغ بعض أعضاء من البيت الأبيض، لأن نزاهتهم واستقامتهم، ستساعدنا على حفظ ثقة الرأي العام فينا، خصوصاً جورج شولتز وآرتور بورنز.

ولما كان هذا الأمر قد أسخطني، فقد روَيت لاهرليخمان، عن مخاوف غارمات التي ألقاها عليّ، فأجاب اهرليخمان بكثير من الهدوء، "أن غارمات هو أقوى من مفاعل ذرّي، ولا تعرهُ انتباهاً، أن مشكلتنا الرئيسية، تكمن في أن نستدرج جون ميتشيل لتحملّ مسؤولياته". ميتشيل، حقاً! أنه هو الذي يجب أن يتحمل أهم أخطاء السطو على واترغيت، أو أنه قد اختير ليكون كبش الفداء؟ حينئذ طرحت على نفسي سؤالاً، ولم تكن لديّ أية فكرة بالإجابة عليه. ومع ذلك فإن الأمر واضح، إذا كان ميتشيل متورّطاً في الفضيحة، فإنها لن تُستَر، جون ميتشيل مثال الشهامة، لا يمكن أن يُقدم على أمر، ما لم يكن استجابة لأهداف الرئيس.

وعندما التقيت بجورج شولتر وآتون بورنز، كما كان مقرراً، في مساء يوم الأحد الخامس عشر من نيسان، في مكتب شولتز في البيت الأبيض بُحثُ لهما بوجهات نظر غارمات، لم يصدقا مبدئياً. وكنا جميعنا فريسة لشعور بعدم القدرة. لم نكن مطّلعين على الأبعاد الحقيقية للفضيحة، التي كانت ترسم أمام عيوننا بشكل غامض وضبابي. فعزمنا على تبادل المعلومات التي سوف نطّلع عليها، وأن تكون فحوى محادثاتنا مع الرئيس، عندما تحين المناسبة، حول اهتماماتنا الحالية، بنوع أننا نستطيع، في حدود الإمكان، الإدلاء بآراء صائبة. وسنجتهد معاً في تحديد خط سياسي، ومبادرات، تسمح بالمحافظة والإبقاء على ثقة الأمريكان في حكومتهم، حتى في أحلك الأزمات السياسية. وكان لا يزال أمام إدارة نيكسون، قرابة أربعة أعوام، وكما ظهر من ادّعائنا. أنه قد فاتنا الإبقاء على رصيد الحكومة المعنوي والقومي، لإنقاذ ما تبقّى لديها ويمكنّها من البقاء.

❒ ❒ ❒

بعد مضي يومين على أحداث عطلة الأسبوع، والتي أفهمتني ولأول مرة، ما كانت طبيعة فضيحة واترغيت، أولم نيكسون عشاء رسمياً في البيت الأبيض، على شرف رئيس الوزراء الايطالي: جيوليو أندريوتي، وكان فرانك سيناترا يجتذب قليلاً من اهتمام الحضور. وقال لي أحد المدعويين الجالسين معي على الطاولة، أن الرئيس كان قد ولج قاعة الصحافة، قبل بضع ساعات من العشاء ليبيّن أنه أمر، قبل شهر، بإجراء تحقيق جديد، حول سرقة واترغيت وقضية السطو عليها. وأعلن "عن نجاحات حقيقية، في البحث عن الحقيقة". وخلافاً لتعليمات أصدرها في السابق. فإن ملاك البيت الأبيض، سيكلّف منذ الآن وصاعداً بالمثول أمام اللجنة

العليا لمشيخة واترغيت. ولن يتمتع أي شخص في البيت الأبيض، بالحصانة لدى النائب العام. لقد اعتقد نيكسون ومعاونوه السياسيون، أن هذا القرار لن يؤثّر كثيراً على السياسة الخارجية، حتى أنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء إبلاغي إياه، لا قبل ولا بعد اتخاذه. والذي نقل الخبر، هو أحد الموالين الصادقين لنيكسون، وكان على ثقة أن الرئيس بعمله هذا، قد وضع حداً للمشكلة. والمجرمون كُشف أمرهم بوضوح، والقضاء سيأخذ مجراه.

وفي ضوء ما كان قد كلمني به لين غارمات، كنت أبدي ريبة في بساطة الأمر. في الحقيقة، أن أول تفسير، للبيان الصادر عن البيت الأبيض، كان يدل على أن هناك عراكاً حتى الموت بين نيكسون ومستشاره القضائي جون دين، هذا المعاون، الذي كان الرئيس يخشى أن ينقلب ضدّه.

وما أن وصلت شقتي، حتى تلقيت مكالمة هاتفية من الرئيس، وكان قصده من هذه المكالمة، معرفة ما كان يدور بخلدي حول بياناته. واعتقاداً مني انه بحاجة مرة أخرى، إلى الاطمئنان، كما كان يحدث له أحياناً، فطمأنته عن كلمته في شرب الأنخاب قبل العشاء. ولم يكن هذا، ما كان يهدف إليه. إذ كان يريد معرفة ردّة الفعل التي حدثت عندي، نتيجة البيان الذي أصدره حول مشكلة واترغيت. فأجبت بعدم قدرتي على الحكم في الموضوع إذ لم اطلّع على من أتّهِم، وما كانت الغاية من هذا الإجراء. فأجاب بدوره قائلاً: إني برفضي منح الحصانة لأيّ كان، أبثّ "خوف الله في قلوب كل هؤلاء الصبيان الصغار" الذي يسعون إلى التهرّب من مسؤولياتهم، موقعين بشركائهم في الفخ. وكنت لا أزال متردداً في تصديق ما أسمع، فقد أزال نيكسون القناع ليسألني، عما إذا كان يجب عليه صرف هالدمان، واهرليخمان، وأردف قائلاً: ويحزّ في قلبي، حتى طرح السؤال.

لقد أصبت بالذهول، مرة أخرى وأنا أسمع غارمات وهو يرسم خطّة ويعدّ نظريات بهذا الشأن، أن هذا الشيء خطير. وإذا كان نيكسون نفسه يأخذ بهذا الرأي، فإنه سوف يجد نفسه في خطر مميت. فأجبت بأني لست على إطلاع كاف بما يمكنني من الإجابة . . غير أني، رسمت لنفسي خطة، لم أحِد عنها فيما بعد، وتقدمت بهذه النصيحة: أن ما سوف نضطر إلى إجرائه في آخر المطاف، يجب إجراؤه فوراً، لإيقاف النزيف البطيء.

دخل أغنيو إلى الشقة، في الوقت الذي كنت أرجع فيه السمّاعة إلى موضعها فبادرني بالسؤال، عن الفكرة التي كوّنتها عن بيان نيكسون، حول مشكلة واترغيت. فأجبته هو أيضاً، بعدم استطاعتي تقدير النتائج. وبلهجة استخفاف وغير مسؤولة، صرّح أغنيو: إن نيكسون مخدوع، إذا اعتقد أنه يقدر على تحاشي صرف كل من هالدمان واهرليخمان، ويكون محظوظاً، إذا استطاع إنقاذ نفسه.

إن تعليق أغنيو اللاذع، كان يظهر لي غموض العلاقة، التي يجب أن تتوطّد وبدون ريب، بين العضوين الوحيدين اللذين انتخبا في حكومتنا.

وانطلاقاً من هذا، فإن نواب الرئيس، يعاملون دائماً وكأنهم شركاء. وجاء رئيس السلطة التنفيذية الجديد، ليعلن أنه لن يسقط في التجربة كأسلافه، الذين كانوا على استعداد لجعل وظيفة نائب الرئيس "دولاب غيار" حسب الكلمة التي أوردها نيلسون روكفلر. ووُعد أن يعطي دوراً هاماً، في إعداد وتنفيذ السياسة الخارجية. وما عدا بعض الاستثناءات النادرة، فإن جميع الآمال والوعود قد خابت، واستنتج منها نائب الرئيس انطباعاً بالحرمان كان ينمو ويتزايد. وكان يُرى دائماً والحزن بادٍ عليه، الأمر الذي أحاطه بحلقة مفرغة، وعزّز قلق الرئيس وانحراف هذا تجاهه. إن هذا الأمر "طبيعي" لأنه يجب علينا أن نضيف إلى

إمكانيّاتنا البشرية، نكران ذات عظيماً، حتى يمكن الشعور بالرضا، بوجود إنسان سعادته العظمى لا تكمل إلاّ بأن يراك ميتاً. ورجال يتحلون بمثل هذه التضحيات، لن يصلوا إلى الرئاسة.

وهناك أيضاً عائق هام، ملازم لطبيعة عمل الادارة، وهو ان المسؤوليات الهامة مخصّصة لنائب الرئيس. وهو العضو الوحيد في السلطة التنفيذية، الذي لا يتمكن الرئيس من صرفه، وتكليفه بمهمة نظامية. وفي حال عدم الاتفاق على موضوع سياسي، فعلى الرئيس، الاّ يستخدم سوى الوسائل المعروفة، لحمل نائب الرئيس على الخضوع، إذا كان هذا (نائب الر ئيس) مسنوداً في قطاع ادارته الخاص. ولأجل هذا فان نواب الرئيس يرون أنفسهم، وقد اقترح إيفادهم في مهمات غريبة، في مجالات مختلفة جداً، أو تُحدّد مع الزمن تحركاتهم، وهذا يمنع صاحب هذا المنصب أن يخطّط للسير ضمن سياسة واضحة ومترابطة. أو القيام بأمور تنظيمية في الأدارة. (عندما كان نيلسون روكفلر، نائب رئيس، كان يقول وبطريقة مازحة: انه كان يقرأ وبشغف، العناوين الخاصة بتراجم الموتى في الصحف، ليعرف متى سيوفد إلى الخارج، على رأس وفد لتشييع جنازة مسؤول).

والواقع، ان نائب الرئيس يحضر اجتماعات مجلس الأمن القومي، حيث تدقّق وتتخذ أخطر القرارات، التي تحدّد السياسة القوميّة. أما من كان مستشاراً فقط، ويريد الحصول على مستقبل، فيجب ان تكون له شخصيّة ولديه امكانيّة تتبع تطوّر قضية. فيستطيع نائب الرئيس. ان يضمّ صوته إلى بقيّة الأصوات (وفي أية حال، فانه يعزّز الرأي المتفق عليه على الرغم من عدم جدواه) أو يعارض رأي المجلس، لكنه في هذه الحالة يلزمه على وجه العموم اطلاع تعبوي دقيق، ليتمكن من فرض وجهة نظره، ويخشى أن يصبح فقط مُضايقاً. وفي مناسبة أو اثنتين، تبنّى أغنيو رأياً مخالفاً لرأي

نيكسون، فوجد نفسه مُبعداً عن الاجتماع التالي، على الرغم من ان الرئيس كان إلى جانبه. وغاية نيكسون الوحيدة، ان يكون على ثقة، من إفهام كل واحد، أنه هو سيّد الموقف.

أضف إلى ذلك، ان رئيس الدولة، مدفوع لسلوك هذا المسلك من قبل من يحيط به في البيت الأبيض. ان هؤلاء الرجال والنساء، لا يكسبون نفوذهم إلاّ بتقربهم من الرئيس. ويدافعون بعناد عن هذه العلاقة ضد كل أجنبي. ورأس مالهم في هذا، هو ولاؤهم، هذه الصفة التي تعزّزها سهولة الاتصال والاندماج في المعاشرة يقوّي أساسها. ان الرئيس ومعاونيه معرّضون لانتقادات الصحفيين ذاته. وتعترضهم نفس العقبات في الا دارة، كما أنهم معرضون لانتقادات تأتيهم من قبل الفئات الضاغطة. ومن غير الممكن ان تصبح مغانمهم مشتركة، فيؤلفون جبهة موحّدة، ضد هؤلاء الذين يستمدون ولاءَهم من مصادر مستقلة، أو أسوأ أيضاً، ويعزّزون مطامع لحسابهم الخاص.

ولا يندر ان يكون أعضاء الحكومة ضحيّة لهذا النوع من المواقف. وعلى الأقل، تبقى لهم تعزيّة، في ممارسة مسؤولياتهم في مجالات متنوعة، يتمنى الرئيس عدم التعرّض لها، بسبب عدم وجود الكوادر اللازمة، أو لأن الموضوع مثير جداً. أضف إلى ذلك فان لأعضاء الحكومة، أجهزة بيروقراطية خاصة بهم. وولاء هذه الأجهزة يتراوح بين العادي والكثير. ونائب الرئيس لا ينظّم شبكة أمن من هذا النوع. وهو دائما الضحيّة المعنيّة بالغيرة التي يظهرها ملاك البيت الأبيض، وكل محاولة جادّة من قبله. لاتخاذ موقف شخصي، توشك ان تنقص من نصيبه في الوصول إلى مطمحه العظيم، ان يرشحه الرئيس ليكون خلفاً له في الانتخابات المقبلة.

كانت العلاقة بين نيكسون واغنيو توضح جيداً أن هناك توتراً كبيراً كامن بينهما. كان نيكسون انعزالياً، ومصاباً بعدم ثقة مزمن. وكان ينطلق من وجهة

نظر، أن أغنيو كان فظاً في السياسة. وفكرة تقلقه دائماً، وهي وجود شخص استطاع أن يعيش في ظلّه، ولربما أنه انتخب اغنيو لهذا السبب بعينه. وما عتم أخيراً أن كوّن فكرة، في قدرته على استخدام نائبه وكأنه "قاتل بالأجرة". ويقدر على إطلاق النار على أهداف، لا تستحق أن يرميها الرئيس، ويقدم على أفعال، يشارك فيها الرئيس سراً ولا يستطيع إظهارها. ولم يفكر أبداً أن أغنيو أهل ليخلفه. وقد سمع وهو يصرّح في إحدى المناسبات مازحاً: أن سبيرو أغنيو هو شرطي أمنه وسلامته ضد أخطار الاغتيال.

واغنيو من جهته، كان على جانب عظيم من الكبرياء، وكان يهمّه أن يختص بوظائف تتعلق بالمحيط الخارجي بصمت كله كرامة، وكان يقلقه انطباع عميق من حيث عدم إعلامه، مسبقاً، عن رحلاتي السرّية إلى الصين. وكنت أجده أنا، مفرط الذكاء، وذا فكر ثاقب، على غير ما يظن فيه بصورة عامة. لكن حرمانه من حقوقه، كان يجعل منه رجلاً انطوائياً. وكان انطباعي عنه بعد تلك السهرة، أن قلب أغنيو، لم يكن محطماً فعلاً، بنوع أن معذّبيه من البيت الأبيض، كادوا يجملون المسامير التي غرزوها فيه. وعلى مدى المرحلة الأولى من المشكلة، فإن أغنيو، توصل إلى استلام مقاليد أموره بجميع أبعادها. وعندما دخل أعرافه الخاصّة، أي البيت الأبيض، بما فيها نيكسون، انفصل عنه.

وبالتأكيد، فإن السابع عشر من شهر نيسان، كشف عن تفكّك كبير، في البيت الأبيض، لكن ابتعاد أغنيو الشديد، عن ازعاجات رئيسه، أفسحت مجالاً للحدس، وكأن هناك كارثة مداهمة. ونائب رئيس راغب في إحياء آماله، لا يكون قاسياً هكذا، أكثر مما يجب، لو لم يكن على ثقة أن ليس لنيكسون دور حاسم، يقوم به، عند تعيين مرشح يخلفه في انتخابات عام ١٩٧٦.

وشخصية أخرى، أخذت رأيها كانت برايس هارلو، الذي شارك في حملة ايزنهاور الانتخابية. وكان نيكسون قد كلفه القيام بتسيير العلاقات مع الكونغرس، خلال السنوات الأولى من رئاسته. وبعد أن أحيل على المعاش نحو أواخر عام ١٩٧٠، عاد إلى حياته الخاصّة. وكان هذا الرجل من أوكلاهوما، ويتكلم بصوت خافت، وقضى زهرة حياته كموظف، في دراسة أساليب واشنطن بصفة مراقب ومشترك بالتناوب. ولم يتبادر الشك إلى ذهني أبداً، أن مشكلة واترغيت لم تقع، لو اعتمد نيكسون على هارلو، أو على شخصيات لها صفات مماثلة. لم يكن لدى هارلو تصوّرات زائدة، بل كانت لديه حكمة وتقدير للأمور. وكان يعلم حقّ العلم، بما يعرّض سلوكيّة واشنطن للخطر. كما كان يعرف أي مواد قانونية مخالفة للقوانين يجب تجنّب استخدامها، إذا كانت هناك رغبة صادقة أن تسير الديمقراطية بشكل صحيح. وينمي ذلك عاطفة صادقة للرئاسة، وسلطاتها، وهيبتها، والمسؤوليات الهائلة التي تلزم بها نفسها. والولاء العميق الذي يكنّه لشخص الرئيس، لم يكن محدوداً، ينبع من نزاهته الشخصيّة. واحترامه لمؤسّساتنا، وشعوره بالواجب نحو أمتّه، وبمثل هذه الفلسفة، وجد برايس نفسه مستبعداً، من قبل شباب متحمسيّن، عملاء للسلطة، سلكوا منهجاً وثيقاً وبقسوة، عندما كان هذا غير ضروري، ووصلوا إلى تخاذل، عندما تهدّدت مراكزهم.

قدمت لهارلو تقريباً موجزاً، بما كنت أعرفه، وسألته عمّا يكون قد جرى حسب رأيه. فقال "دخل غبيّ إلى المكتب البيضوي، والتقط ما سمع بالمعنى الحرفي" فكان يعتقد (أي هارلو) أن مشكلة من هذا النوع، لا يمكن إلا أن تقع فعلاً. "وإذا لم تكن قد وقعت هذه المرة، فإن الأمر سيكون في المرّة القادمة أسوأ". كانت الأساليب منذ بعض الوقت جدّ عجيبة. والجو مشحون كثيراً بالذهان الهذياني. وإن صرف موظفين، في الوقت المطلوب سينقذ البلد. ويجعل من نيكسون

رئيساً كبيراً. وهكذا فإن هارلو نفسه، لم يكن يصدّق أن ولاية نيكسون مهدّدة في ذاتها. أن جزءاً من هذا التهديد يعود، دون شك، إلى إمكانية رؤية رئيس يتحطّم، ومن ثمّ فإن انهيار السلطة التنفيذية، يؤثر كثيراً على قدرة معالجته. ومثله مثل غارمات، كان يرى في مشكلة واترغيت، فرصة لتطهير الحكومة، باستبعاد بعض العناصر غير المرغوب فيها.



كان الجميع يميل، إلى وصف هـ. ر. هالدمان، وجون اهرليخمان وكأنهما متطوّعان بروسيّان، يستخدمان بما بقي لديهما من آثار الساديّة الأوامر العدوانيّة الصادرة عن المكتب البيضوي. وغالباً، ماكانوا يشبهونني بهما تحبّباً. وكان البعض يعتقدون أني استخدم هذين الأثنين بمثابة «مطرق» كما يقال. ويعزى اليهما الاسوداد الحالك، في حين أني أوصف ببياض الثلج، فكنت استدعي الصحفيين، عن طريق الهاتف، عندما كانوا يبحثون عني دون جدوى. وكنت التقي على العشاء، العديد من نقّاد سياستنا، عل الرغم من انهم ينتمون للكونغرس، والجامعة وعامة الشعب، حتى أن بعضهم كانوا من أصدقائي. وكنت أعير انتباهي إلى وجهات نظر المعارضة. ولا أدري، إذا كان من أفاوضهم يعتقدون، من خلال محادثتي معهم، أن أفكاري تتطابق مع أفكارهم، أو أني أُضلِّلهم ببيانات غامضة. وقد يستحيل انشاء الحقيقة ثانية، بعد وقت طويل، وبالطبع هناك القليل من الاثنين.

ان الطريقة التي كانت تعرّف بها تقاريري، بصورة عادية، مع باقي البيت الأبيض، كانت تثبت تبسيطاً مطّرداً، لدور كل منهما. ان هالدمان واهرليخمان في الدرجة الأولى، لم يكونا ليشكّلا كتلة. وحسب تقديرات البعض، فقد كانا متخاصمّين. وعلى العموم، فان آراء اهرليخمان كانت تتجه نحو اليسار. وكان يولي اهتمامه

للجوهر لا للشكل. وكان نصير سياسة داخلية تقدّمية وكلها انسانية، سواء بتقديم اقتراحات معايير لهذا العمل، أو بمعاضدته مشاريع بهذا الخصوص. وخلال مشاوراتنا الداخلية، كان يطرح وجوب تقييد النفقات العسكرية، الى حدّ كنت أخشى خطورته، وغايته من ذلك رصد أموال في سبيل مشاريع اجتماعية. وأجبرت عدّة مرّات على لفت انتباه نيكسون، ضد تدخلاته، أضف إلى ذلك، زعزعتْه من مظاهرات الطلاب، التي تلت هجومنا على كمبوديا. وكان له ثلاثة أولاد في سن المراهقة، وقبض عليهم أثناء اضطرابات الجامعة، والعذاب الذي كانوا يتحملونه يؤلمهم كثيراً. وما من أحد، كان يستطيع البقاء طويلاً في البيت الأبيض، دون رغبة الرئيس. ومعلوم أن رضا نيكسون، لا يوهب لأي إنسان إلاّ إذا أبدى استعداداً للإنتماء إلى مذهب الذهان الهذياني «لقساة القلوب» ومؤامرة الصحافة، وعداء المؤسّسات، وادّعاء زمرة جورج تاون، كانت جميعها النصوص المحبّبة في أحاديث نيكسون. وإذا تجاسر أحد فخالفه، فان هذا يكلّفه إبعاده من دائرة الأصدقاء الحميمين.

ان قساوة الأسلوب، والتعبوية العدائية، لم يكونا ما يتميّز به اهرليخمان. ولما كان كل مستشار في البيت الأبيض، يحاول ان يجلب لنفسه زيادة نفوذ بمسايرته مزاج الرئيس، فان اهرليخمان كان يسعى لسدّ ثغراته، وكان يشعر أنه مجبر على ترجمة أفكار الرئيس الأشد تطرّفاً إلى وقائع. ولما كان مكلفاً بتطبيق برامج السياسة الداخلية، فكان دائما في الصف الأول، لكل اختبار قوة، وتجاه تصعيد المظاهرات، والاختفاء الاجمالي للوثائق السرّية، وتحركات المعارضين بكامل أنحرافهم نحو عدم الشرعية، فإن اهرليخمان، كان بتصرّفه يبرهن عن غيرة مفرطة أحياناً، متخذاً مواقف متبجّح، وهذه أوجبت له اللوم في آخر المطاف.

كان اهرليخمان يظهر لي مزيجاً من حسن النيّة والرفقة مع غيرة نزقة. ويقرّ آرائي، ولكن ليس بالثقة التي تحملني على تقديمها. والواقع، كان علينا ان نكون

مثاليين، حتى لا تؤلمنا المفارقات، التي أوقعها الشعب بيننا. لقد عمل طويلاً مع نيكسون، حتى استطاع الرئيس تقبّل ما لديه من علاقات اجتماعية، أو مواقف، كانت بنظري، يجب أن تعتبر نقائص خلقية وإرثاً من ماضيّ. وبقي اهرليخمان موزّعاً بين ما يفضّل من تساهل والثبات في السياسة. وهذا يجلب له اللوم، لذا فقد تشجّع وسلك طرقاً متغطرسة. جعلت الأجانب ينظرون إليه وكأنه متكبر، والسبب الوحيد الذي دعاه إلى ذلك هو تناقضه الوجداني.

وكان يستفيد أحياناً من بعض ما يوجّه إليه من تشجيع، في سبيل الظفر بي، بزعمه أنه يظهر شدّة أكثر ويقظة زائدة، نحو أعداء نيكسون، الذين كانوا يؤلفون فريقاً لي من خلال انتساب طبقات عالية إلى الجامعات. وذهب إلى أبعد من ذلك بإجراء تحقيقات حول بعض تسرّبات الأخبار، بنوع يظهر أنه يتّهم نفراً من معاونيّ. وكان يؤخذ هذا على محمل المناوشة، أكثر ممّا هو مبارزة وعلى الرغم من بعض التوتّر العابر، كنت أنا وأهرليخمان بالأساس أصدقاء. وكنت أحترم حسن نيّته وأهليّته القوية، وكان يعجب ويحسدني على تفوّقي.

كان هالدمان من قماش أغلى. وعمل معاوناً لنيكسون، مدة عشر سنوات وهو مطّلع تماماً على تعقّيدات وضعف معلمه، ومع انه محافظ بفطرته، ففي الواقع، لم يكن يهتم بالسياسة. كان يعز نيكسون كثيراً، معتقداً أن واجبه الأساسي، هو تهدئة التأثرات، التي تجول في خلد الرئيس، ويجعل منه موضع اهتمام العالم الخارجي، واظهاره بمظهر زعيم ثابت، هادئ الأعصاب.

وثقة منه بالمبدأ القائل، ان الحقيقة تعكس الصورة، كان يتحمل ويشجع أحياناً نيكسون على تصوّره. في ان جميع متاعبه، كانت تتأتّى من نقص في تنظيم علاقاته العمومية، وكل هذا يعود أساساً فيشكل أمراً تقنياً. لم يستطع نيكسون التخلّص أبداً من تلك الفكرة المستحوذة عليه خطأ، في أن عدم كفاءة جهازه الدعائي، يحول دون

تلقّيه الهتافات، التي لا تفارق تذكاراته عن شخص جون كينيدي (وكان يتناسى هذا الواقع، إذ انه بعد عام من ارتقائه سدّة الرئاسة، كان رصيده الشعبي، لا يزال حسب الاستفتاءات، أعلى مما كان عليه رصيد سلفه). وكان هالدمان ميالاً لمزج السياسة بالاجراءات معاً. وكان الرئيس وأمينه العام، يقضون وقتاً طويلاً في مناقشة الوسائل المفيدة في معالجة أمور الصحافة. ومحكوم على مجازفتهم هذه بالبقاء دون جدوى، طالما ان الاثنين كانا لا يتقبلان إستراتيجية حكيمة والحق يقال، انها الوحيدة الممكنة، وهي البدء بمناقشة رصينة، ومحترمة مع ممثلي الشعب، الذين يكرهونهم، ويخافون منهم، ويحسدونهم.

ان الامر أكثر أهمية، مما كان نيكسون وهالدمان يتظاهران بتفهّمه، وان النقطة الأساسية، هي القبول باجراء اتصالات شخصية. وطوفان من المذكرات التنظيمية، كانت تنهال على ملاك البيت الأبيض السيّء الحظ، وكان مصدرها المكتب البيضوي، عن طريق هالدمان، لتفسير وبإسهاب، الخط الواجب اتباعه، تجاه الصحافة، والاعلان عن عقوبات بحق الصحفيّين، المتمرّدين، وكان يتضمن هذا الخط، انتقاداً مريراً لخصم سياسي، ولم يكن هذا غالباً سوى لائحة طويلة من صفات معالمنا البارزة ومثلما كان يشاع عنيّ حول تردّدي إلى جورج تاون (حيث لم أكن أعرف أحداً هناك قبل مجيئي إلى واشنطن) فأصبحت هدف عدد مطّرد من هذه الاتصالات.

لم أفهم أبداً، لماذا لا يجرؤ الأعضاء الآخرون، ممن يحيطون بنيكسون على التحدّث مع عامة الشعب، عن العلاقات الحسنة، التي كانت تربطني بهم شخصياً. يجب أن تكون عدم الثقة هي العامل الرئيسي، وهذا بالطبع نقص يتهمونني به كثيراً. ولما كنت لم أعقد أي مؤتمر صحفي حقيقي، قبل تعييني مستشاراً للقضايا الأمنية، فلقد تخلّصت من هذا الأمر، حتى اثناء وجودي في هذا المنصب. ولأجل ذلك، كان يُنظر إليّ في البيت الأبيض، وكأن اهتمامي منصب على طريقة خاصة من

العلاقات العامّة. وربما ظنوا زملائي بي سوءاً، ويعود ظنّهم هذا الي مجيئي من جامعات رفيعة القدر.

واتهم هالدمان بتأثيره السيء على نيكسون، بحمله على العزلة. وهذه التهمة غير حقيقية. لان نيكسون هو المسؤول الوحيد عن وحدته. وكان يرتاب من اللقاء بأجانب. وكان غير قادر على إعطاء أوامر مباشرة إلى هؤلاء الذين، لم يكونوا على وفاق معه. وعند لقائه بمن لا يعرفه، كان يزيل كل أسباب التوتر، متظاهراً بتصديق كل ما يقوله محادثه، وكان يسعى من خلال كل تلك الرسميات التي اخترعها له هالدمان، إلى مساندة ضعفه الواضح. لم يكن له منفذ إلى الرئيس، الذي كان يريد تحديد لوائح المواعيد، وعلى الرغم من قصرها، كانت تنقلب لدى الرئيس إلى تذمّر. عضو من البيت الابيض، كان يشارك في كل لقاء للرئيس، مع زائر يأتي من الخارج، ليظهر انه يقوم بجميع مواعيده (وليستطيع أحياناً من الغاء بعضها) وعلى قدر الامكان، فان الموظفين في البيت الأبيض. كانوا يتلقون تعليماته، عن طريق مذكرة تعليمات. لأن نيكسون، كان قادراً على ابداء وجهات نظره الحقيقية كتابة أكثر من الكلام، أمام محادثيه.

ولكن في الوقت ذاته، كان مساعدو نيكسون ممن يثق بهم، يشكلون حاجزاً واقياً يلجأ اليهم الرئيس، للتخلص من توتّره العصبي. كنا نبقى جلوساً ولعدة ساعات، مصغين الى اقتراحاته، مع إثارته من حين الى آخر، ونصلّي لحدوث أزمة تحريرية، منتظرين مناسبة تبادل المشعل الى اي مساعد آخر من مساعدي الرئيس، يكون قد دخل، على غير انتباه منه، الى القاعة. ولم يكن أحد يقضي ساعات أكثر من هالدمان، أو يصغي بانتباه مثله. واذا حدث يوماً، وتقوضت وظيفة هذا الرجل، الذي كان يأخذ بوعود الرئيس بمعناها الحرفي واعتقد ايضا ان عدة تعليمات معطاة بفضل التأثير، لم تكن لتبتعد عن دفتر المذكرات الأصفر، وكانت تصنف بانتظام، وكأنها معدة

للتنفيذ، فان هذا الرجل، لم يكن همّه سوى مغادرة المكتب البيضوي. والواقع ان هالدمان لم يكن ليهتم بالسياسة التي تعطي مغنماً، ونتمكن من الثقة انه يوصل كل شيء للرئيس، دون تحريف نظريات أحد، حسب فهمه لها. وفعلاً لم أكن أوفره في أحيان كثيرة، عندما أريد ايصال آراء الى الرئيس، تكون مخالفة لما يريد سماعه. وكنت اتصرف هكذا، لان نيكسون سيثور ضد ناقل هذه الأنباء السيّئة، قبل ان ينسبها الى مرسلها، وايضاً لأن هالدمان سيحاول التأكد من تفحّص نيكسون لجميع الأمور، حتى التي لا ترضيه. ان هالدمان لم يكن يخفي أية اطماع شخصيّة، او على الأقل، ان مطامحه كانت تكتفي بالمنصب الذي يشغله. وبكل تدقيق، لم يكن يطمح الى الحصول على أكثر، ولم يكن بحاجة أن يصيبه نقد لاذع، بين مختلف المكاتب.

ومع ذلك، فان في هذا الإنفصال غير الانساني تقريباً، كانت توجد جرثومة تخريب إدراة نيكسون اللاحقة. لم يكن هالدمان على اطلاع تام في السياسة الداخلية. وبكل صراحة، فان تفهمه للمجاملات، وحدود وأبعاد الامتيازات الرئاسية، لم يكن على مستوى الوظيفة التي يشغلها. وخطؤه الثاني، كان في الطريقة التي كان يعالج بها، الترددات الصادرة عن مولاه الرئاسي، ان خضوعه التام، كان هنا وظيفياً. لأنه كان يفرض على نفسه طاعة عمياء، معظمها لاختصار الطريق على الأوامر التي تبدو شاذة وتصدر عن الرئيس. وهناك طريقتان لتأمين النظام، سواء بتشغيل المرؤوسين بإغرائهم بالوصول الى أهدافهم التي وعدهم بها رئيسهم، أو بوضع تسلسل قاسي حيث لا يجوز مناقشة أمر صادر، لأن المرؤوس لا يعطي حق التعبير عن رأية الشخصي. واختار هالدمان الطريقة الثانية. وكل ما تجمع لديه لم يكن سوى ردود من قبله على المذكرات.

بالنتيجة، ان موقف أعضاء ملاك البيت الأبيض تجاه الرئيس، يشبه الى حدّ ما وكالة دعاية، اذ كان معظمهم يتجهون نحو عميل وحيد متغطرس. وممكن ارتطامهم

ببعض التعليمات التي يتلقّون، ويقدرون حتى على تخفيف بعض المتطلبات المفرطة، على قدر ما كان لديهم من قوة محاكمة. وكانوا يعرفون أنه سيّسجّل لهم في سجلاّتهم، في نهاية المطاف، قدرتهم على التنفيذ الحسن لما كانوا يكلفون به من مهمّات صعبة. لقد كانوا أناساً لديهم سرعة ويفتقرون الى التنظيم. وما أن تبدأ الآلة بالانزلاق، لا يهمّهم سوى تسريع انجرافها نحو الهاوية بدلاً من إيقافها في الوقت المناسب.

كانت العلاقات، التي يقيمها معي هالدمان، لا تخلو من محطات خلافية. فهو من كاليفورنيا، ومن طبقة متوسطة، ومن وسط محافظ، وكان نهباً لكل الانطباعات، وعدم الثقة، والغيرة الضمنية، وكل ما يمكن ان يكون عند هذا النوع من الناس. لم يلتق إلاّ نادراً برجل موهوب من طرازي، ولم يبدِ رغبة قط بمعاشرة مثل هذا الرجل (غير أنه، كان يبالغ في تقدير، وثيق ارتباطي بمؤسّسة، كان يحتقرها هو) ومضى في مشاركة نيكسون بعد الهزيمة الانتخابية، التي جربت مع المرشح ليكون حاكماً في كاليفورنيا عام ١٩٦٢. منافس وحيد، يصمد في مضمار السعي نحو السلطة، ويبقى إلى جانب شخصية قلّما تفي بوعودها. وهو على ثقة تامّة في مهمة نيكسون، وكان يغيظه دون شك، ان يرى قادماً جديداً، وأحد أعضاء فريق روكفلر، هذا العدو الأبدي لنيكسون، يأتي ويشاركه في الدعاية. ونادراً ما كان يظهر غيرته وان جوهر هذه السكينة الخاصّة، التي تتبيّن من خلال علاقاتنا، هو كونه لا يعتبرني منافساً له. ويقوم بتسامح واضح تجاه كل رغبة أظهرها نحو السياسة. وفعلاً، كان يعتبرني كذلك. وكان مفرطاً في الحصول على مغنم غير الروتين المطلوب للقضايا الجوهرية. وكان يحدث بيننا صدام، عنما كان يُصر على ممارسة حقّه، في إدخال زوّار الرئيس تسللا، الطريقة التي كنت أراها لا تمت الى التفكير بصلة، أوعندما كان يبالغ بإيصال الاستحواذ على العلاقات العامة الى درجة الخطر، حسب رأيي، بالنسبة لمسيرة

سياستنا. لكن هذه الخلافات، كانت في الحقيقة، قليلة الحدوث، غير ما كان يتوقع، بين الأمين العام للبيت الأبيض، ومستشار الرئيس لقضايا الأمن القومي.

ان موقف هالدمان، بالنسبة لي، كان يعكس تماماً موقف نيكسون، وعندما كان هالدمان يضايقني، يصبح لديّ حدس أكيد، انه يريد تنفيذ بعض مآرب الرئيس. لو شاء هذا ان يبقى في معزل عن المعركة، لما كان قد استقبح المعركة التي نشبت بين وزير الخارجية وليم روجرز وبيني وعلى وجه العموم، كانت هناك تعليمات، توجّه الى هالدمان ان يكون الى جانبي، شريطة ان يكون على ثقة من عدم تنفيذ أي شيء بصورة نهائية.

(وبكل تأكيد، ليست لديّ وسيلة، لأعرف ما كان يقال لروجرز من وراء ظهري) أضف الى ذلك، فان نيكسون كان على ثقة، من أن مواهبي الخاصّة ستتفتح أحسن في مناخ قلق شخصي. كان يحرص دائماً، ان يزيد شكّي في نواياه وأفضليته، حتى على وضع علاقاتي معه.

لكن هذا التوتر، الذي ولّدته هذه الممارسات، قد اضمحلّ قسم كبير منه عندي في بداية عام ١٩٧٣، عندما عزمت على الاستقالة. وفي النصف الثاني من شهر نيسان عام ١٩٧٣، ونتيجة لما مضى، فان انطباعي نحو هالدمان و اهرليخمان، بدا كئيباً. وعلى الرغم من الخلافات العابرة، عملنا معاً، خلال هذه السنوات المليئة بالاضطراب. سأتذكر نشاطهما وأيضاً وبكل تأكيد، لن انسى تفانيهما في الوظيفة. وكنت أفهم أحسن من أيّ أحد، البيئة التي ساعدت وبشكل خفي، على نموّ هذا السرطان (فضيحة واترغيت). ان البيت الأبيض، هو في آن واحد، حوض سمك أحمر، وزنزانة انزواء، ان الأسماك تسبح في حوض دائري غير شفّاف سوى من جهة واحدة' يتمكن المرء من رؤيتها، دون الضرورة الى معرفة طبيعتها، وهي نفسها

لا ترى شيئاً بدورها. ومنعزلة عن بقية العالم، فان حياة قاطني البيت الأبيض تنظمها قوانين التعايش الداخلية، أو ما يتصوره هؤلاء السكان مظهر العالم الخارجي. وانحرف البيت الأبيض، طوال ولاية ريتشارد نيكسون، وابتعد أكثر فأكثر عن الحقيقة، حتى أن استحالة القياس بين العالمين، أصبحت فجأة، غير محتملة. لقد انفجر الوعاء الزجاجي الذي كانت تعيش فيه، واختنقت كلها بفعل جوّ معاير. وهكذا فان هالدمان و اهرليخمان أخذا يتعبان سدى بل بيأس، في نهاية شهر نيسان من عام ١٩٧٣، وأصبحا في حيرة من فهم التوريطات، التي كانت في طريقها للظهور، وكذلك فانهما لا يستطيعان تحديد درجة مسؤوليتهما الخاصة. ولما كانت الأيام تمضي دون أن يستطيع أحد، تبرئة نفسه، أصبحت أكثر اعتقاداً، ان الأمر انتهى بالنسبة لهما، وانهما لن يستطيعا بعد القيام بأي دور، فيما لو حافظا على وضعهما الرسمي. ان سلطة مستشار رئيس هي كسلطة مروّض حيوانات، في مشهد لترويض حيوانات متوحشة. فطالما لم يدخلها الشك فهو قادر على ضبطها، وفي حال تغاضيه عن أول فوضى تحدث، فان هذا التغاضي يفقده كل أمل بالسيطرة على تلك الحيوانات. ومنذ ذلك الحين، فان كل نظام، لا بدّ أن يفسح مجالاً للاقتتال، ولا يمكن اجتناب حرب الاستنزاف. أما وقد شك بأمرهما، فان هالدمان و اهرليخمان، حكم عليهما بمعركة لا تنتهي، لأن كل الذين كانوا يعتقدون أنهم ضحية سوء تصرّفهما، وهم كُثُر، سيسعون لتقدير حدود قدرتهما. وسيلحق بالرئيس تعبٌ بسبب هذه النزاعات الدائمة. فلن يرغب بعد الآن ان يكون ملزماً على تأكيد أوامره وبصورة دائمة، على وزراء متمردين. وجاء هذا في نهاية المطاف، ليوفر على نفسه، ضرورة العودة الى سلطة، كان منحها بالأصل الى كل من هالدمان و اهرليخمان.

ولما كان نيسان يقترب من نهايته، أصبحت لديّ بعض الأسباب التي تحملني على الاعتقد ان هالدمان و اهرليخمان، لن ينجوا بنفسيهما من المأزق، مهما استعملا

من طرق. وفي كل محادثة تقريباً، تجري مع نيكسون كان يسألني بطريقته الإضمارية، عمّا اذا كان يجب ان يستقبل مساعداه المقرّبان منه كثيراً. وكان هذا سؤالاً مستغرباً، لأنه لم يكشف لي أبداً عن الأسباب التي تحمله على الانفصال عمّن رافقاه منذ عشر سنوات. وطوال أزمة واترغيت، لم يبين لي نيكسون ولو مرة واحدة، ما تكوّن لديه من انطباع خاص حول الأحداث. وكان يحتفظ في سرّه، بموقف يتخذه علانية، يعني ان كل كشف عن الحقيقية، كان جديداً بالنسبة له، اذ كان مجبراً على معالجة الفضيحة أولاً بأول، حسب مجريات أحداثها.

وفي الواحد والعشرين من شهر نيسان، كلمني نيكسون هاتفياً من كاي بيسكاين، ليقول لي ان هالدمان واهرليخمان، سيقضيان عطلة الاسبوع في كامب ديفيد، متأمّلين في وضعهما الحزين. وهما غارقان في ضيق شديد. فهل تقبل نفسي بمكالمتهما هاتفياً، لأعيد لهما معنوياتهما؟ كنت قد تآلفت مع اجراءات نيكسون، من حيث الشك في كل شيء، فهو لا ينتظر مني، أن أقدم لهما العون البسيكولوجي، بل أن ادفعهما الى عمل ما كان العامّة تنتظره منهما. وأكثر من ذلك ان يبيّن لي انه في طريقه إلى اجراء حاسم، وهو شؤم بحد ذاته. وأردف قائلاً، ان عليه انتظار الظرف المناسب.

وتكلمت مع هالدمان و اهرليخمان، عدة مرات، خلال الأيام التي تلت ذلك. وكنت أصغي اليهما كيف يتخبطان والهلع يروعهما. وكنت أثبت لهما حسن نيتي نحوهما، غير قادر ان اتصوّر كيف استطيع مساعدتهما فعلياً. وكما ان الرئيس لم يصارحني بشيء كذلك، فان اقرب المقربين إليه من مساعديه، لم يعلماني ما قد جرى. وكانا يطيلان التفكير بالطريقة التي تبقي عليهما، ولم يعيرا أقل اهتمام الى الظروف التي أدّت بهما الى هذه التهلكة. واني على ثقة انهما لم يتفهما حقيقة ما كان يجري. وما سُمِي بعدئذ، فضيحة واترغيت، لم يكن سوى مجموعة قرارات وضعت لهذا الغرض. ومحادثات إضمارية، وتصرّفات تعزى الى أفراد مختلفين، لا رابط بينهم، وكان

معظمهم يتماحكون بينهم على نيل رضا الرئيس، ويتسابقون بعناية قصوى لحفظ قصاصات معلومات يجمعونها عن المكتب البيضوي أو من زواياه.

وبين هذه الأحداث التي تكدّست لديهم بالمصادفة، هناك ما وضّح التحقيق، وأظهر من كان منهم أنفسهم مذنباً. وهذا ما يبدو غامضاً حتى الآن، بالنسبة لهالدمان واهرليخمان. فلم يتصوروا قط بل لم يخطر ببالهما، ان سلوكيتهما تجعل منهما مجرمين بتهمة «اخفاء الحقائق». في حين انهما كان يسعيان فقط، لنصرة حكومة انتخبت حديثاً، وعليها ان تعمل كثيراً ضد معارضيها، الذين يسيئون إلى المصلحة القومية، حسب ادراكهما، أو انهما كانا منفذين للأوامر، بقدر لا أستطيع تخيّله. ولم يبديا أي صعوبة في تقبل صحة توصيات الوثيقة، التي أجبرنا في نهاية المطاف على تنفيذها، ويجب تنفيذها حالاً. وعلى كل حال، فإنهما ملزمان على تقديم استقالتهما. اذ لا شيء هناك يستطيع انقاذهما. ولم تكن هناك أسباب داعية للإقدام على ذلك حالاً. وكانا يعتقدان ان عليهما عدم ترك وظائفهما، إلا في حال ثبوت مسؤوليتهما بجرم. وكنت من جهتي اعتقد ان بقائهما يتوقف على مقتضيات أقوى. ولم يكن لدي اطلاع كبير لأدافع في قضية كهذه. وليس من واجبي القيام به. ان القرار في النهاية اذا اراد الرئيس انقاذ نفسه من الخطر يعود إليه وحده.

❐ ❐ ❐

وهكذا فإن فضيحة واترغيت، كانت في تزايد مضطرد يوماً بعد يوم، مثيرة في الوقت ذاته دهشة أولئك الذين كانوا يسعون للمحافظة على بقاء الحكومة على هيبتها، وتقوّي فيهم انطباعاً يحد من ذلك، وتثير في الوقت ذاته الرعب لدى أولئك الذين لهم تورط مباشر فيها. ولقد أصبحنا جميعاً، كركاب سفينة تميل إلى

الغرق، تائهة في الضباب دون سكان. وكان كلّ يرى الأمور من زاويته الخاصة. ومن أراد التدخل لإعادة الأمور إلى نصابها، كان يحول دون أمنيّته، جهله المطبق بالقضية، على الرغم مما يكنّ من مزيج من الألم والولاء والفزع. إذ لم يكن لديهم سوى رؤى جزئية لمناظر مختلطة ومشوّشة. أما الذين كانوا على إطلاع، بما تحتويه تلك الوحدة العميقة، فهم عاجزون عن أي عمل، خوفاً من حدوث عقبات أمنية، تؤدي بهم.

هذا هو الجو الذي كان سائداً، بعد عشرة أيام فقط، من طرحي تصوّراتي الدقيقة التي استطعت الوقوف عليها، في نادي سيتي كلوب الاتحادي، بعد أن علوت المنصّة، في حفلة الغداء السنوية، التي أقامتها رابطة الصحافة، في القاعة الكبرى من مسرح ويلدورف ـ استوريا في نيويورك، ولألقي أول خطاب عمومي، منذ نهاية السنة الرابعة لمباشرتي مهام وظيفتي. وكانت الغاية من هذا الخطاب البياني، الكشف عن المبادرة الجديدة لحكومة نيكسون، تحت اسم: الديمقراطيات المصنّعة، إعلان دعي فيما بعد عام أوروبا. والموضوع الذي أوضحت جوانبه، هو أن جيلاً مضى منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية، وعلى الحلف الغربي، أن يعطي انطباعاً جديداً يثبت وجوده. لا يزال الدفاع العسكري ذا أهمية أساسية، ولكنه لا يبدو مبرراً حقيقياً لهذه القوة. أن الشعوب ذات الحسّ المشترك للقيم الديمقراطية، يجب عليها أن تتحد، مؤكدة مثلها العليا وأهدافها المشتركة. هذا إذا أردنا المحافظة على ترابطنا، في وقت تبدأ فيه مرحلة جديدة، للدبلوماسية بين الشرق والغرب، والمشاكل الاقتصادية، والتوازن العسكري، على أوسع مدى.

استقبلت كلمتي بترحاب، لكن الأسئلة التي تلتها، كشفت عن صعوبات يجب علينا اجتيازها. وكان الرأي العام، مهتماً بكل شيء، عدا مبادرتنا الجدية،

فطُرحت عليّ أسئلة، حول وقف إطلاق النار في فيتنام، وحول ما أهدف إليه شخصياً، وحول مشكلة واترغيت.

"بالنسبة لمشكلة (واترغيت)، إني أعرف بالطبع، عدداً كبيراً من هؤلاء الذين يدفعون ثمن ما تقررون، ومن جهة أخرى، فإن الأمور تسير على خلاف ما تظهره لكم تلك المقالات التي تطالعونها. ومن العسير أن نبعد عن أنفسنا، انطباع الهلع الذي تسببه هذه الأحداث، وأمام المأساة، التي ارتطمت على كثير من الناس المذنبين، أو من يُظَنّ بهم أنهم قاموا بارتكاب مثل هذه الأفعال. ولذلك، دون أن نستبق الحكم على أمور كهذه، يجدر بنا على الأقل أن نطالب بمعاملتهم بطريقة لطيفة.

"وبالنسبة لسياستنا الخارجية، فإنها تتوقف بمعظمها، على طريقة تنميتها في الخارج، ودرجة النفوذ التي تمنحها إياها حكومتنا، وأيضاً درجة قبول الشعب للوصول إلى ما يصبو إليه، عن طريق العلاقات الخارجية.

اهتم الحضور بأجوبتي حول قضيّة واترغيت، دون اللجوء إلى التساؤل عن بياني حول "العام الأوروبي". ويعود جزء من الخطأ إلى تنظيمنا السيئ. وللتقليل من حدوث خصام بين المكاتب الحكومية ومكاتب البيت الأبيض، كان نيكسون قد رغب إليّ عدم الإعلان عن خطابي مسبقاً. ولذلك، لم يتلقّ الصحفيون أي إعلام مسبق من هذا القبيل. وكانت النتيجة، أن نيويورك تايمس وحدها، منحت اهتماماً كبيراً لندائي في سبيل إنعاش الحلف، الذي امتدحته كثيراً. أما الواشنطن بوست فقد بدأت تعليقها على مؤتمري الصحفي، بإجابتي حول مشكلة واترغيت ولم تأتِ على ذكر "عام أوروبا" إلا في الفقرة الأخيرة. وهناك بعض المقالات الافتتاحية، التي جاءت على ذكر خطابي، واعتبرته مناورة خاصّة لصرف النظر عن مشكلة واترغيت.

قضيت عطلة نهاية الأسبوع أي الثامن والعشرين والتاسع والعشرين من شهر نيسان في نيويورك، لأشغال خاصّة، ولا سيما للقاء زوجة المستقبل، نانسي. وبعد ظهر يوم الأحد الواقع في التاسع والعشرين من شهر نيسان، تلقيت مكالمة هاتفية من نيكسون، الذي كان إذ ذاك في كامب ديفيد. وكان الغّم يمنعه تقريباً، من التكلم بأفكار مترابطة. وأكّد لي أنه طالب، كلاً من هالدمان واهرليخمان بتقديم استقالتهما. كما أن النائب العام ريتشارد كلايندياينست، قد تقدم باستقالته أيضاً. وصُرف جون دين من الخدمة. وصارحني الرئيس أنه بحاجتي الآن أكثر من أيّ وقت كان، ويأمل أن أكون قد تغاضيت بصورة نهائية عن الاستقالة. وعلى البلاد أن تبقى موحدة إبّان الأزمات.

كنت أتحدث إليه بصورة طبيعية وأكلّمه بحرارة، وكنت أحثه أن لا تغرب عن باله، الخدمات الواجب عليه تأديتها نحو بلاده. ومن ثم كنت راغباً أيضاً في سماع كلامه، بعد أن يكون قد استعاد أفكاره، فأراه يستسلم لأفكاره الايجازية، وهي كناية عن مزيج من نصف دفاع، ونصف تهديد. ولم يعتم أن قال"ارجو أن تساعدني في صيانة قضايا أمننا القومي، لا سيما وأن أهر ليخمان، تارك منصبه الآن".

لم أستطع تكوين أية فكرة عما يريد قوله. وإذ كنت منذهلاً، فأنني لم أُحر جواباً، معتبراً أن هذا التعليق الغريب، لا يرتكز على أساس بيّن، مثله مثل تعليقات أخرى كثيرة من هذا النوع.

وفي اليوم التالي صباحاً، وكان الاثنين الواقع في الثلاثين من شهر نيسان استدعى هالدمان إلى مكتبه في البيت الأبيض،معظم الشخصيات الهامة، لاجتماع عام، فحضر كل من هالدمان، واهرليخمان ، وشولتز، وروي أش (مدير مكتب التنظيم والموازنة) وأنا أيضاً. فأعلن هالدمان بهدوء تام،أنه هو واهرليخمان، عزما

على الاستقالة، ليفسحا مجالاً للرئيس لمتابعة المهمّات، التي جئنا جميعنا إلى البيت الأبيض لحمل أعبائها (وفي الواقع لم يبّين أيّ منها، فيما إذا كان نيكسون هو الذي أوعز أليهما بالأقدام على ذلك). أما الذين يبقون لإكمال شوطهم، فعليهم مضاعفة جهودهم، كما قال، إذ لا تزال هناك أهداف يجب الوصول إليها، والرئيس في حاجة ألينا اكثر من أي وقت مضي. فأجبت باسم الجميع: أننا نعلم كم قدمّا من خدمات، ونحن بدورنا سنجتهد اكثر ونتمنى لهما حظاً أوفر.

وفي مساء اليوم نفسه، ظهر نيكسون على شاشة التلفاز، بسحنة غير عادية، وأعلن عن تطهير شامل في حكومته. ومن العسير أن يفهم، بناء على اقتراحاته هل يُقدم على وضع حد لعهد بكامله. كما كان يصعب التصديق أن هذا الرجل المتزعزع، قادر على افتتاح عهد جديد. كلامه يدل على وداعته، لكن موقفه لا ينفع أحداً. إذ لم يكن ذلك سرد وقائع عادية ومعروفة كما توقعه البعض مناً. ولم يكن أيضاً دفاعا مستميتاً عن ملفاّت، لقد كناّ في وضع خطر.

أن الكارثة تبدو واضحة وحقيقية، من دون أدنى إهدار لشأنها. ولم يكن هناك أحد ممن شاهد نيكسون على الشاشة، وتأمّل ملياً ما هو عليه من يأس ومرارة، يعطي لنفسه حق التفكير، انه لا يزال سيّد الموقف والأحداث.

وكما جرت العادة، بعد كل من خطاباته الهامّة، استدعى بعضاً من حاشيته لتهدئة روعه لكن روز ماري وودس، سكرتيرته، التي كان ولاؤها له شديداً ومثيراً، أجابتني ان هالدمان أبعدها عن بطانته المباشرة، ليضمن لنفسه سيطرة تامّة على جميع المنافذ الموصلة إلى الرئيس. وأصبحت منذ ذاك أحد مساندي نيكسون الهاميّن. ولقد قالت لي: ان الرئيس كان مهزوزاً جداً ولم يستطع بنفسه التكلم على الهاتف، وسوف تنقل له ما أكنّ له من تمنيات.

وبالنسبة لي، فإن السهرة لن تنتهي، دون مزجها ببعض من السياسة. وكانت جمهورية الصين الشعبية، في طريقها إلى إقامة مكتب اتصال لها في واشنطن. وقبل عدة أسابيع، كان دعاني رئيس الوفد الصيني لتناول العشاء، في الثلاثين من شهر نيسان، في مطعم يانشينغ بالاس، برفقة أصدقاء أمريكيين آخرين. وكان الصينيون غير راغبين في الإعلان عن إلغاء الدعوة، لكنّهم أجّلوا فقط موعد العشاء إلى الساعة العاشرة، بعد اطّلاعهم على كلمة الرئيس المتلفزة.

أولِم العشاء باحتفاء كبير. وتم تبادل الأنخاب العاديّة، علىشرف الصداقة والتعاون. ولم يتمكن مضيفونا الصينيون الشيوعيون، من إدراك، كيف ان بلداً كبلدنا، سمحت بتدمير سلطتها المركزية، بسبب الأحداث التي توضحت حتى الآن، وجلّ اهتمامهم يتجه نحو وضع حد لمثل هذه الفترة العصيبة، لنستطيع العودة، إلى قضايانا الأساسية، التي تتطلبها العلاقات الصينية الأمريكية. كما ان مضيفي السفير هان كسو، قال كلمة رائعة، ألمح فيها إلى الأزمة، التي تغلّب عليها نيكسون بشجاعة فائقة، وخلص إلى القول: ان فضيحة واترغيت وجدت حلّها العادل.

ومرّة أخرى أيضاً، فإن تحليل الصينيين الدقيق، أوقعهم في الخطأ. ولم تكن سوى البداية لما سوف يلحق بنا من أهوال.

❐ ❐ ❐

عجلت كلمة نيكسون المتلفزة، مساء الثلاثين من شهر نيسان، في تفكك أدارته، وأخذت فضيحة واترغيت، في شغل بال الجميع في البلد، ولم يكن هناك ما يدعو إلى الشك، في أن ظهور نيكسون على الشاشة مذعوراً، يعطي انطباعاً أنه كان في آن واحد: مرهقاً ومراوغاً، ولا تمثل هيئة رئيس سلطة تنفيذية، يستطيع احتواء

أزمة. وتأكيده كما قال، أن هالدمان واهرليخمان، كانا بين أفضل من خدم الدولة ممّن عرف. مقارنة بعزمه على اتخاذ قرار بصرفهما من الخدمة. وتلميحه إلى أن معاونيه المقربين، مثل جون ميتشيل، أبقوا عليه في جهل مطبق، لما يجري من أحداث عامّة منذ سنوات، أن مثل هذا القول، كان ثقيلاً على سمع البعض، ويظهره بمظهر الضعف لدى البعض الآخر. دون شك. كان الأفضل لنيكسون. لو اجتنب هذا الخطاب، واكتفى عنه بالإعلان عن تغيير في إدارته.

وأي تغيير يعقب ظهوره المتلفز، لا يستطيع تلطيف أثر ما كان يظهر من حقائق، تتساقط الآن كالمطر على رؤوس الأمريكان، تفاصيل السطو وطاولات التنصّت، التي تنطلق جميعها من واترغيت. والسطو على مكتب طبيب الأمراض العقليّة دانيال السّبرغ. والكتم المقصود للحقيقة. ومن ثمّ استخدام أجهزة تحقيق الحكومة، ضد المعارضين السياسيين، إلى حد الإرهاق. والتصرّفات الصبيانية، في وضع لوائح سوداء أو مزعومة، والتي لم تكن في حقيقتها سوى لوائح بأسماء شخصيّات، لعدم دعوتها إلى ولائم البيت الأبيض، وهذه أشياء موجودة ضمناً في جميع الإدارات. إن فقدان النضج لدى فئة المرؤوسين في البيت الأبيض إبّان ولاية نيكسون، غيّر سفاسف الأمور هذه، إلى فضيحة قوميّة جديدة.

وخلال الأسابيع التي تلت خطاب نيكسون، الذي ألقاه في الثلاثين من شهر نيسان، كثيرون هم الأصدقاء الذين بادروا إلى سؤالي، وكان يحدو بعضهم الأمل، والقلق يلّم بالآخرين، متى سيُقدم نيكسون على القيام بهجوم معاكس، كالذي عودنا عليه سابقاً؟ ولكن إذا حدث ما يعكّر هذه الإمكانية فإن نيكسون لن يقدم على ذلك أبداً. وحدثت أخيراً تلك الكارثة، التي كان العالم يتوقعها لا شعورياً، ولا شيء سوى تحمّلها، بالطريقة ذاتها، لمن دبّرها. وكان يتردّد في الكشف عن

الحقيقة، دفعة واحدة، لأنه لم يكن مطّلعاً في الواقع، على جوهر تلك الحقيقة، أو أنه قد أزالها من فكره، أو لأنه يعرف أنه المذنب الرئيسي في القضيّة، لأنه قام بعرقلة عمل العدالة. وكان يرفض في الوقت ذاته، أن يَكِلِ الدفاع عنه إلى محام محنّك، تمرّس بالأعمال السياسية في واشنطن، وكان قسم من ممانعته تلك، يعود إلى أن اللجوء إلى محامٍ من هذا النوع يربكه. ولذلك فإنه كان يتحمّل هذه التجربة بصورة سلبيّة، رافضاً منح ثقته لأيّ كان، ملتجئاً بعدم اكتراث إلى أعذار وأنصاف الحقيقة، مبدياً اهتمامه في القضايا الحكومية، دون تجميدها، مستخدماً الاندفاع الذي كان قد سبّب نجاحات ولايته الأولى.

وخلال الأسابيع التي تلت استقالة هالدمان واهرليخمان، أقدم نيكسون على تعيين جون كونلّي، وميلفن ليرد وبرايس هارلو، في مناصب استشارية، من الطبقة الأولى في البيت الأبيض، وهؤلاء الرجال المتمرّسون في شؤون واشنطن، المفروض أن يشكلوا الفريق المكّمل من معارفهم المحترفين ويقوموا بمساندة الرئيس. وكانوا مسؤولين أيضاً، أن يدخَلوا إلى الحكومة طرقاً جديدة، ومحترمة. وسيكون لمشاركتهم في الحكم تأثير هام، لكن نيكسون كان مهزوزاً جداً، ولم يتمكن من القيام بجهود صادقة في هذا الاتجّاه. فلم يأبه لتأسيس حكومته الجديدة، وكظم غيظه ومخاوفه الداخلية، أكثر من ذي قبل. وبعد استدعاء تلك النخبة الممتازة، إلى البيت الأبيض، لم يجد خّطة عمل يعرضها عليهم. ودون تحديد مهمّة حقيقية، فإن تلك النخبة المتميزة لم تقم بأي عمل نافع. وبعد بضعة أشهر، استقال جميعهم.

وفي مساء الثاني من شهر أيّار لعام ١٩٧٣، تلقيت مكالمة هاتفية من روز ماري وودس، لتعلمني أن نيكسون عازم على استدعاء الكسندر هيغ ليكلفه بمهمة أمين عام للبيت الأبيض، لمدة أسبوع أو أسبوعين، لكنه يخشى حدوث ردّ فعل

عندي. إذ ربَّما أتأثر، إذا رأيت مرؤوسي القديم يكلّف بمنصب نظرياً أعلى من منصبي. وهي تأمل أنه عندما يكلمني نيكسون بالأمر، في صباح اليوم التالي، ألاّ أكون قاسياً نحوه. وعليّ الاَ أنسى أنه لا يزال متأثراً لترك هالدمان واهرليخمان لمنصبيهما، وهو بحاجة للمساندة. وهي تكلمني (كما قالت) بمبادرة خاصّة منها، بالخفية عن رئيسها، (ومن المحتمل أن يكون واقفاً بالقرب منها، ليلقّنها ما تقول).

وهذا كان تصرّفاً خاصّاً من نيكسون، خوفه من المجابهة، والطريقة غير المباشرة، وحدسه طبعاً بما سوف يكون عليه ردّ فعلي، ومحاولة تلطيف ردّ فعلي، نتيجة مسرحيّة مبهمة، ستمكّنه مهما يكن الأمر، من اجتياز العقبة الأولى. ومن كان مطّلعاً على خفايا نيكسون، يعرف جيداً، إذا كان بحاجة لأمين عام، فلن يكون هذا لأسبوع أو لأسبوعين. وهذه الحاجة هي أشدّ ضرورة من أي وقت كان، عندما كانت قضايا فضيحة واترغيت قائمة. ولقد حضرت غالباً، وشاركت أحياناً، هكذا ألعاب سياسية وإن كانت من نوع مختلف نوعاً ما كتغليف قرار مرّ بالسر، وإعداده أولاً، ثم الحصول على موافقة أصحاب العلاقة، حرصاً على ما سوف يسبّبه حتماً.

لقد عرف نيكسون تماماً، ما سوف يصدر عني من ردّ فعل. ومن العسير قلب علاقات، كانت قائمة مع مرؤوسين قدماء.

ومهما تكن الطريقة، التي يعالج بها هيغ قضايا الأمن القومي، فمن المؤكد، أن تكون هناك منافسة. وفي الوقت نفسه، كنت أعلم أن الأشياء ليست كما كانت عليه، حتى أتمسك بالطرق الإدارية القانونية. وإذا كان علينا اجتناب كارثة قومية، يجب توطيد الترابط ضمن الدولة، ولا سيما في الموضع الحسّاس منها أي في البيت الأبيض. لقد أستند نيكسون على هالدمان طوال ولايته الأولى، وبكل تأكيد، فإنه لا

يستطيع العمل، دون مساعدة أمين عام نشيط، مكلّف بتصريف الشؤون اليومية في المكاتب، وتنفيذ ما يتخذه من قرارات. وفضيحة واترغيت، تمنع من استدعاء شخصية مستجدة تماماً لهذا المنصب. وعلى كل حال، لم يكن يصلح لهذا العمل سوى هيغ، الذي كان قد ألف شخصية نيكسون، وطريقة عمله، فعزمت مهما يكن الأمر، أن أكون متساهلاً، في هذه الحادثة، وتسيير أمور جميع الناس.

هيغ من جانبه، كلمني صباح اليوم التالي، وبيّن أنه لن يقبل بمنصبه الجديد دون مباركتي، وعلي أية حال، أن المقصود بهذا التعيين لا يتعدّى الأسبوع أو الأسبوعين، وهذا الكلام ليس أدّل على ما أكدته أولاً روز وودس. وبما أن هيغ يتمتع بتقدير كبير للواجب، فإنه لن يرفض طلب الرئيس مهما يكن تأثري من هذا الأمر. وما أن يركزّ نفسه في البيت الأبيض، فإنه لن يغادره خلال بضعة أيام. ومقتضيات العمل التي جاءت به إلى البيت الأبيض، لن تنفرج بهذه السرعة. وعلى كل حال، فليس هناك خيار غير هذا، وتعيين هيغ هو الحل الوحيد الممكن. فأكّدت عليه بالقبول، وبينّت له أن هذا يعني دون ريب نهاية منصبه العسكري. فأجابني هيغ بما معناه: خلال مأمورياتي في فيتنام، كان ليس فقط منصبي في خطر، بل حياتي. ولا يملك حقّ التخلي عن قائده العام في وقت الضيق. وهذه هي الحقيقة إلى حدّ الإقناع.

بعد هذه المقدّمات، استدعاني نيكسون هاتفياً (ولم يكن على استعداد لمشادّة مباشرة) وبلباقة غير متناهية، كشف عن رأي لا يُردُ حول تعيين هيغ وأكد أن هذا التعيين تعزيز لنفوذه. وهو يهدف إلى حدّ ما لوضع حد لأغنيو. وأردف الرئيس قائلاً: أن وجود هيغ ضروري، لمنع أغنيو، "من حشر أنفه في هذا العمل. أن أغنيو لا يستطيع . . . ولن نسلّم بذلك". ومن غير الممكن التصديق أن الرئيس بحاجة

لأمين عام نشيط، لإبعاد نائب الرئيس، الذي لم يسلّم سوى القليل من المسؤوليات عند توزيعها، وليس لديه سوى هيكل أمانة سر، ولم يكن على مستوى "حشر أنفه في هذا العمل". وأضاف نيكسون: على كل حال، ليس عليّ أن أزيد في متاعبي، وسأكمل دوري الرئيسي في الإعداد لسياسة خارجية. "وكلانا سيوليها اهتمامه، أنا وأنت" وأنا بحاجة فقط، إلى مَن - والقول غير مألوف - يهتم بالشؤون الأخرى، بنوع يمكنّنا أنا وأنت، من الاهتمام بباقي الأمور، كما ترى". فأجبته: أن مثل هذا الانتخاب الذي تريده، سيأتي من ذاته، من خلال هذه الوظائف المختلفة، أثناء العمل. وبدا نيكسون جدّ مرتاح، عندما أخبرته أنني دفعت بهيغ إلى القبول.

وهكذا أصبح هيغ أميناً عاماً للبيت الأبيض. وجلب السعادة للبلاد. بقوته وتنظيمه، حافظ على الترابط ضن السلطة التنفيذية، وساعد الحكومة على اجتياز أزمة واترغيت، دون أن تتفكّك بكاملها. وأنشأ ملاذاً آمناً لرئيس يائس. وتوصل إلى ذلك دون تشجيع الآراء المسبقة بنيكسون. وعمل بنوع أن خيارات وأوامر الرئيس تُدقق من قبل جهاز حكومي قادر أن يقدّم لهذا الرئيس، آراء رزينة، ضمن طبيعة المصلحة القومية.

أول مبادرة، قام بها هيغ، هي إلغاء الإجراءات الاعتباطية، وكان يدرك، أنه من غير الممكن، ولا أحد يرضى أبداً، باتخاذ قرارات واعتبارها وكأنها صادرة عن السلطة الرئاسية العليا. وبذل مجهوداً كبيراً لزيادة عدد المشتركين في صياغة القرارات. وأعلن في الثامن عشر من شهر أيار، خلال جلسة اقتصرت على أعضاء الحكومة فقط: سيرى أعضاء هذه الحكومة أن أوضاعهم سترتفع، في حين أن أوضاع ملاك البيت الأبيض، ستنخفض. وسيكون هذا الملاك موضوع تعديل. أضف إلى ذلك، أننا سنحاول بأمانة تلطيف العلاقات بين البيت الأبيض

والكونغرس وبالحقيقة، فإن مشكلة واتر غيت، كانت تفرض مثل هذه الإجراءات، وقد ترجم هيغ إلى افعال، امور بقيت طي الاهمال حتى ذلك الوقت، وجدد قوة التوجيه لدى حكومة مرتبكة. ومهما يكن من تنظيم داخلي، فانه لا يستطيع ان يأتي على نهاية سلسلة من التفكك سببتها موجة لا آخر لها، من كشف حقائق، وازمات، وتحقيقات. لقد خدم هيغ بلاده جيداً، وبشرف، في هذا الظرف.

وخلال الشهور الخمسة عشر التالية، عملنا أنا وهيغ، في تناسق تام. ولم يكن هذا ليخلو من بعض المشاكسات الوقتية، سبّبه الفارق الكبير بين وظائفنا، مثلاً: من منا تكون غرفة نومه أقرب إلى غرفة نوم الرئيس في الكرملين، أثناء رحلة نيكسون إلى موسكو عام ١٩٧٤، ولم يكن لهذه الازعاجات أي تأثير. كان هيغ يهتم بالمشاكل الداخلية، وكنت أنا مسؤولاً عن السياسة الخارجية، والأمن القومي. ولم أكن أبعث بتوصيات هامّة إلى نيكسون، دون إعلام هيغ بها مسبقاً. وكان يوقفني بوجه العموم على جميع الأحداث الهامة في السياسة الداخلية ـ ولا سيما عن مشكلة واترغيت ـ وهذا يوطّد علاقاتنا الخارجية. وهو وأنا، وآخرون، اجتهدنا في الحفاظ على ثبات سفينة الدولة، في حين أن قبطانها، كان يهوي تدريجياً. وهناك شخصيات لها قيمتها مثل: جورج شولتز، ارثور بورنس، وليم سيمون، ليونارد غارمات، جيمس شليسنجر، وآنّ ارمسترونغ، وآخرون أيضاً، استطاعت أن تبرهن على نبلها في هذه الظروف، لأنها كانت متفهمّة جيداً أن المسرحية القومية التي نعيش هي المطالبة بالقيام بالواجب. ولقد أثبتت هذه الشخصيات، بسلوكيتها، تفوّق وديمومة قيم بلادنا.

❑ ❑ ❑

أغرب ما تكشفت عن فضيحة واترغيت، تداول أخبار أن الرئيس نيكسون، سجل جميع محادثاته، منذ عام ١٩٧١ على أشرطة مغناطيسية، وهذا ما علمت به بعد تعيين هيغ أميناً عاماً، عندما طلب مني الاحتراس لكل ما أقول في داخل المكتب البيضوي، حيث وضع جهاز تسجيل مغناطيسي يبدأ بالتسجيل بمجرّد تذبذب الصوت.

ووحدهما هالدمان والكسندر بوترفيلد، اللذان كانا مكلفين بتشغيل الجهاز، ووحدهما كانا على إطلاع بوجود مثل هذا الجهاز. ويبدو أن اهرليخمان ذاته، بقي بعيداً عن معرفة ذلك. وتولّدت الفكرة لدى نيكسون، عندما وجد في البيت الأبيض، جهاز تسجيل ركّبه الرئيس جونسون. ولقد أمر بتفكيكه أولاً، ثم أذعن بفكرة وجوده، عندما وجد نفسه، وقد أرهقته سلسلة من الهزائم، قادرة على وصفه وكأنه "قدوة سيّئة" للحكومة.

كانت الشرائط التي سجّلها نيكسون، معدّة لتوضع في مكتبة نيكسون الرئاسية مستقبلاً، حيث ستكون تحت تصرّف الباحثين. وكتب هالدمان، أن إحدى ذرائع نيكسون، هي سعيه للدفاع عن نفسه ضد بعض معاونيه، الذين يحاولون إنكار مناقشات اشتركوا فيها. ودفع ثمن هذا الاحتراس غالياً.

بعد أن علمت بوجود الشرائط المسجلّة، توضحت في ذهني، ممارسات أخرى، أقل تعقيداً. وكثير من المحادثات، التي لم أكن أعرها اهتمامي، في حينها، تمثلت أمامي بقرائن جديدة، وهكذا أستطيع تذكر مناسبات أحمل فيها على رفض إبعادي عن اتباع سلوكية معيّنة، أو أن أمثل على سجلات التاريخ، كذلك الذي أصرّ على رسم بعض الرسومات الملتوية. وأورد على ذلك مثلاً: ففي اليوم الذي أمر به نيكسون لغم موانئ فيتنام الشمالية، وقصف البلاد، استدعيت إلى مكتبه

قبل خمس دقائق من توقيع الأمر. فوجدت نفسي في خصام مع هالدمان، الذي قدّم لائحة بآراء تناقض القرار المتخذ سابقاً، وتعاكس ما قيل في الأسبوع الماضي. وثابر نيكسون على صمته. اعترضت على القرار المتخذ وأكدت أن الوقت متأخر، لنعود عن آرائنا وحملت على هالدمان. أضف إلى ذلك، فإن نيكسون وقّع الأمر دون أيّ تعليق. وسيظهر التسجيل، أن هالدمان كان يعارض القرار، الذي عارضته بشدّة، بينما نيكسون يحتفظ بصمته.

وبعد أن أظهرته مشكلة واترغيت على حقيقته، أصبح مستحيلاً اعتبار كل محادثة دسيسة، مدى ساعات النهار وطوال سنوات. فلقد اصطيد العنكبوت بنسيجه. وفيما لو أن مشكلة واترغيت لم تحدث، يكفي أن تسيء الشرائط المسجّلة لسمعة نيكسون. حتى ولو تأخر وصول أخبارها إلى مسامع الشعب، إذ أن مآثره الخاصّة ستتلاشى. ولو سارت الأمور في سياق طبيعي، ولو أن الشرائط سرقت أو بُدّلت بعد موت الرئيس، يكون نيكسون قد استغلّ هذا النتائج قليلاً.

وبصورة غريبة، اعتقد أن اطلاعي على جهاز تسجيل في عام ١٩٧٣ لم يغيّر كثيراً، في ما قلته، أو أقوله للرئيس على أثر ذلك. لقد كان بحاجة ملحة للعون، وكان على العموم منفرداً، وجهاز أمننا القومي، متوقف كثيراً على أداء واجباته، أكثر من الاهتمام بوصولنا إلى أهدافنا، حاملين في نفوسنا انطباعاً، أن جميع ما ننطق به سوف يُسمع ويُقرأ من قبل الأجيال القادمة، في زمن تكون جميع قرائنه قد مُحيت من الأذهان.

فكرت ملياً بالشرائط المغناطيسية، نحو أواخر شهر حزيران، حين أدىّ جون دين، المستشار القضائي القديم للبيت الأبيض، شهادته ضد نيكسون أمام عدسات التلفاز، واللجنة الخاصّة بواترغيت، التي كان يرأسها سام أرفين عضو

مجلس الشيوخ، وأعلمني هيغ بعدئذ، أن النيّة كانت متجهة، للإعلان عن تسجيل يكذّب هذه الشهادة، ولم يستمع هو إلى هذه الشرائط، ولا أعرف كيف توصّل المحامون إلى الإطلاع وسماع بعض هذه الشرائط، إن هؤلاء يعتقدون أن دين متلبس بجرم تغيير الكثير من الوقائع. فحذّرت هيغ من أن الإعلان عن شريط يبرّئ ساحة الرئيس سيكشف عن وجود كامل الجهاز، ويؤدي بصورة حتمية إلى الكشف عن جميع التسجيلات. فلا يجوز الإقدام على ذلك، ما لم يكن نيكسون قد أظهر استعداده الكامل لاتخاذ مثل هذا الإجراء. وبسبب توصياتي. أو لأن المحامين وجدوا أن الشريط لا يحوي ما كانوا يعتقدون أولاً، لم أقف فيما بعد على ذكر لهذا الاقتراح.

لم أُعِر أي اهتمام لهذه الشرائط، إلى اليوم السادس عشر من شهر تموز، حيث أعلن في التلفزيون عن وجودها وبصورة رسميّة، من قبل اليكس باترفيلد أمام لجنة ايرفن. فتبادلت أنا وبرايس هارلو بعض الاقتراحات حول هذا الموضوع، فأجابني أن امرأته مبتهجة، لأن نيكسون المحتال قد أربك أعداءه مرة أخرى. وبكل تأكيد، فإن الشرائط ستنفي التهمة عنه تماماً. وهارلو وأنا كنّا غير واثقين بذلك. ولما كنا غير مطلعين على ما تتضمنه تلك الشرائط بخصوص واترغيت، ولكن على الرغم ممّا كنا نعرفه عن أوضاع رئيسنا، حينما يكون نهباً بين الغبطة والقلق، كنّا نخشى في الوقت ذاته، أن الإعلان عن الشرائط سيوقعه في ورطة لا مثيل لها.

وكان باترفيلد يرى وجوب إتلاف هذه الشرائط حالاً، لأنها تتضمن إساءة إلى من دخل إلى المكتب البيضوي. ولما كان يستحيل على أي كان إتلافها أو إبدالها في الوقت الحاضر، فإنها ستكون موضع ابتزاز انتخابي من قبل

نيكسون، أو أحد معاونيه، أو أي شخص يهمّه استغلالها. لكن نيكسون كان في ذاك اليوم، في المستشفى لإصابته بذات الرئة. ولم يستعن برأي أحد. ولما عاد إلى روعه، كان الوقت متأخراً، والإجراءات القضائية بالاستيلاء على الشرائط كانت تأخذ مفعولها.

ويتضح من العودة الى الماضي، انه بدءاً من هذه اللحظة، لا يستطيع أحد إنقاذ ولاية نيكسون. وطوال المدة، التي ستتناقض خلالها شهادات العاملين في البيت الأبيض، ويكمل استماعها في مجلس الشيوخ، فان القلق واستحالة فرض حلّ ممكن يوفق بين وجهات النظر المختلفة، سيؤديّان دون شك إلى تفاقم المشكلة.

أما الآن، وقد كشف النقاب عن وجود أجهزة التسجيل السرّية فلقد أصبح الحل ممكناً. وبعد أن عمّ الاستنكار، دفعة واحدة، تأكد لدى العموم ان نيكسون قد اقترف خطيئة خطيرة، لا مثيل لها. واستبعد موضوع استعمال هذه الأجهزة من قبل أسلافه. ولو لم تكن تسجيلات المكتب البيضوي، لا سابقة لها، لما لاقت هذه الدعاية القاسية. أضف إلى ذلك، انها المرّة الأولى، التي تكون فيها شرائط التسجيل سبيلاً لأمكانية تجريم رئيس، ومعاونيه المقرّبين. ولذلك فان مشكلة واترغيت قد تحوّلت إلى عراك مرير بين الرئيس من جهة، ولجنة تحقيق من قبل الكونغرس، والوكيل الخاص (الذي عيّن في أيّار) من جهة أخرى. وفي الواقع، فان نيكسون كان يسعى للاحتفاظ بشرائط التسجيل في ملكيّته الاستثنائية، تطبيقاً لمبدأ دستوري في فصل السلطات.

ومهما تكن دقائق النقاش القضائي، فهي تملك حق وضع نيكسون وكأنه يخفي معلومات، يؤدّي مضمونها إلى الفصل بين إدّعاءات متناقضة. وانطلاقاً من هذا، فان القضيّة لا تتوقف بعد الآن على معرفة من كان ثقة بين الشهود، بل تنحصر في ارادة الرئيس إخفاء البراهين. وبصرف النظر في وضع مخرج للدعوى، فان هذه طبيعته،

مع إدّعاء في سبيل إخفاء أمور ضارّة، أتت على هدم ما كان يتمتع به نيكسون من سمعة أخلاقية. ولقد حوّلته هذه الظروف إلى عدم الاتزان، أعني من رئيس مطمئن إلى رئيس يحتضر، وجاء ذلك بعد ستّة أشهر، من تجديد ولايته، نتيجة نجاحه في معظم أصوات الناخبين تقريباً، نتيجة لم يعرف تاريخ الولايات المتحدة نظيراً لها.

إن القلق الذي كان مسيطراً عليّ، طوال فترة فضيحة واترغيت، لم يكن بسبب الأحداث التي كانت تشغل حيزاً كبيراً من عناوين الصحف اليومية. إنما كانت غايتي الحفاظ على مصداقية الولايات المتحدة، بصفتها قوّة عظمى. إنها المأساة، أن نشاهد بأنفسنا عودتنا إلى التفرّق الداخلي، الذي كان السمة الرئيسية في ولاية نيكسون الأولى. وفي الحقيقة، أن الصدمة القومية هذه المرة، لم تكن من خارج نطاق سياستنا الداخلية، كحرب فيتنام مثلاً، لكنها تهدف إلى ضرب وضعنا الدولي في الصميم. وفي هذه الحالة يجب علينا اتخاذ مبادرات دبلوماسية. وباستطاعتنا أيضاً إصدار إنذارات شديدة اللهجة، وهذا ما قمنا بعمله، مع توقعنا تهديداً لأمننا. لكن القدرة على تنفيذ هذا أو ذاك، أخذت تُفلت من أيدينا، لأسباب عديدة، تبدو وكأنها تتعلق بإرادة المسؤولين عن سياستنا الخارجية، وهم أسرى أعراف، لم تكن نتيجتها انتصاراً بل ضحايا.

وللوهلة الأولى، لم يُشعر بالضرر الحقيقي الذي سببّته مشكلة واترغيت على سياستنا الخارجية. إن الروح الوطنية والحس القومي، اللذين لعبت بهما الأحداث بصورة رهيبة، حملا العديد من مناوئينا العادين على تعليق تهجمهم.

إن أعراض وهن السلطة، كانت بادية للعيان في كل مكان. وفي العاشر من شهر أيار لعام ١٩٧٣، جاء من ينبئني أن الحكومة الصينية تبدي قلقها وبصورة سرّية، عن مدى الضرر، الذي لحق بسلطة نيكسون. وبدوا وكأنهم يعتقدون أن

هناك "فرقاً منظّمة" في الولايات المتحدة، عازمة على تصفية وضع سياسة الرئيس الخارجية، وهي نفسها تدير مناورات المعارضة.

وهذه الأسئلة نفسها، وُجّهت إليّ في الاتحاد السوفيتي، حيث مكثت من الرابع إلى التاسع من شهر أيار، لإعداد رحلة بريجنيف إلى الولايات المتحدة في شهر حزيران. في بداية الأمر، كان الزعماء السوفيت، يقدّرون أن مشكلة واترغيت، ليست سوى ظاهرة عابرة. ولكن لمّا أخذت الإفشاءات تتراكم، وبات التحقيق مستمّراً، بدأنا نشعر أن الكرملين أخذ يسعى إلى الانفصال عن نيكسون. وفي أوائل شهر أيار، سألني بريجنيف، عن إمكانية اصطحابه عقيلته وأولاده إلى أمريكا. وفي أقل من أسبوع من وصوله أي في الثاني عشر من شهر حزيران، أعلمنا فجأة أن عقيلته لا تستطيع الحضور. "إذ أن الأطباء كانوا يعارضون سفرها. أما بالنسبة للبنت والصبي، فهناك أسباب خاصّة وقهريّة، تحول دون سفرهما حالياً". وألغِي كذلك، توقف لبريجنيف في هوستون، دون معرفة السبب، ودون أخذ رأينا. ولا مجال لمنع أنفسنا من التفكير أن مشكلة واترغيت، كانت في جوهر الاهتمامات السوفيتية، عندما بيّنوا وفي الرسالة ذاتها، أن بريجنيف سيذهب إلى سان كليمانت، بصحبة نيكسون، مخالفاً بذلك رأي أطبّائه، لأن:

"إذا كان هناك من يتصوّر، أني عازم، على عدم السفر في الطائرة إلى كاليفورنيا، بسبب مشاكل داخلية تجري في الولايات المتحدة، سيدي الرئيس، فهو غير مُحق في تصوّره. ولا شيء يؤيّد هذا التفسير، السيد الرئيس يعلم جيداً، أننا منذ البداية، اتخذنا ودون تردّد، مسلكاً مترابطاً في علاقاتنا معه، وأن احترامنا له، واحترامي الشخصي تجاهه، لم يتغيرا على الإطلاق".

يمكن تفسير هذا الاهتمام الظاهري من قبل السوفيت، وكأنه محاولة، مدروسة بعناية، لتذكير الرئيس بموقفه، وفي هذه الحالة كما في غيرها، مذّل جداً أن نفكر أن الرئيس لا يزال بحاجة للتأكد من احترام الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي.

أن تآكل السلطة التنفيذية، لا ينحصر فقط بالخصوم، بل يشمل كذلك علاقاتنا مع أصدقائنا. ولقد أوضح لي، سفير ألمانيا الغربية برندت فون ستادن أن التعليقات البذيئة، الصادرة عن الصحافة الألمانية، بخصوص سفر المستشار ويلّي براندت إلى الولايات المتحدة في أوائل شهر أيّار، كان لها (أي للتعليقات) دون ريب علاقة، بالخطاب الذي أعلن فيه عن استقالة هالدمان واهرليخمان. وعندما التقيت في الثامن من شهر حزيران، السفير الفرنسي للشؤون الخارجية . . ميشيل جوبرت، أوضح لي أن الغاية من مشروع "عام أوروبا" هي لمعالجة وضعنا الداخلي. الأمر الذي حملني على تذكيره، أن المشروع كان قد اتخذ، قبل مشكلة واترغيت بكثير. وأعيد الموضوع ذاته، عندما التقيت ممثلي الحلفاء في مجلس الأطلسي الشمالي، وكانوا إذ ذاك مجتمعين في سان كليمانت في العشرين من شهر حزيران. (حيث كانوا يقومون بجولة في الولايات المتحدة). ثم أعاد الموضوع نفسه، سفير إيطاليا، في الرابع والعشرين من شهر تموز، وبمناسبة زيارة الوزير الألماني للشؤون الخارجية، ولترشيل - ووزير خارجية الحكومة البريطانية - بورك تراند - في شهر تموز. كانت تلميحاتهم المهذّبة مقرونة بالعطف، لكن المهم في سياسة أمّة كبيرة أن تُقابل بالاحترام، لا بعواطف الشفقة.

وفي الرابع من شهر آب، فإن - لاي كوان يو - رئيس وزراء سنغافورة الرجل ذو الذكاء الفريد، والمحاكمة العقلية النادرة، والصديق الوفي للولايات المتحدة

تخلّى عن مؤتمر لرؤساء حكومات الكومنولث المنعقد حينذاك في أوتاّوا، وتوجّه نحو نيويورك بالطائرة، ليجري حديثاً خاصاً معي، في مطار كينيدي، وغايته الوحيدة من وراء ذلك تفهّم التأثير المتوقّع، بسبب مشكلة واترغيت على سياسة الولايات المتحدة الخارجية. فقال لي: "أنتم مرساة كل العالم غير الشيوعي، الذي أصبح قريباً إلى اليأس، ونتيجة للنقمة التي تثار ضدكم، أصبحتم على وشك إغراق هذه المرساة في الوحل". وكان يخشى. في حال سقوط نيكسون، ومهما تكن أسبابه، فإن السياسة الخارجية النشيطة التي ينتهجها الرئيس، ستهدم من أساسها. وفي عام ١٩٧٦، فإن المنتخب الجديد، سيعتبر فوزه وكأنه تثبيت لشرعية الأوضاع الجديدة الداعية إلى الانعزاليّة، والمعادية لحرب فيتنام. فيجب ألاّ يحدث هذا: ثم أردف: "أن بقائي منوط بذلك".

فقلت له: سنتمكن من المحافظة على قوة، وصلابة الأمّة، وسنتجاوز هذه الأزمة. كما تغلّبنا على الكثير من أمثالها، وضمنت له، أن سياسة الخلف، مهما يكونوا، ستحافظ على قوّة أمريكا سليمة، ولا أدري إذا كان ـ لاي موان يو ـ يصدقني، على الرغم من كونه لماحاً وذكياً كما أعرفه. إني أشكّ في ذلك.

نحو منتصف عام ١٩٧٤، كتب فالمر روبيرت، أحد كتاب افتتاحيات الواشنطن بوست المتازين، كتب هذه الأسطر التي استوحاها من الشؤون الخارجية:

"إن السياسة الخارجية، وليدة أعمال وإهمال. وتتأثر بالأمزجة والفوارق، وبتقدير القوّة والضعف، وبمقدار ما تأخذه الحكومة من تصميم الآخرين وقدرتهم على العمل. وبالطريقة التي يستطيع بها زعيم بلاد معرفة أهمية سياسة زعيم آخر، معادٍ أو صديق، في بلده. وما هي التأثيرات التي تطرأ على وضعه وعلى السلطة وعلى الخط السياسي القومي".

وهنا تكمن المشكلة حتماً. وفي كل يوم يمضي، كنا نرى مشكلة واترغيت وكأنها تحدّ من حريّة عملنا. وكنا في طريقنا إلى فقدان كل إمكانية من التزام تعهدات جديرة بالثقة، لأننا لا نستطيع التأكد من تصديق الكونغرس عليها. ويلزمنا الاحتراس في الوقت نفسه، من إثارة مجابهات، خشية عدم قدرتنا، على الوقوف بوجهها، في وسط ما نحن فيه من وضع ولدته عدم الثقة الداخلية. (وعندما أجبرنا على إعلان النفير العام، نحو أواخر حرب الشرق الأوسط، في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٣، سئلت خلال مؤتمر صحفي، عما إذا كان المقصود بذلك مناورة تضاف إلى مشكلة واترغيت) وعندما أصبحنا محرومين من الجزرة والعصا معاً، لجأنا إلى الاكتفاء بالمراقبة بفراغ صبر يشوبه الكبت، كيف ستبدأ هانوي أولاً، ثم موسكو، في استغلال عجزنا عن الوفاء بالتزاماتنا.

وفي السرّاء والضرّاء، فإن مهمّة الحفاظ على تماسك سياستنا الخارجية، ارتكزت أخيراً، أكثر فأكثر، على خدماتي. وظهر أن جو البيت الأبيض، أصبح يختلف تماماً، عمّا كان عليه، خلال ولاية نيكسون الأولى. وقد ابتعدوا، صغار الديكة المختالة من فريق هالدمان، وبعد وقاحة اعتقدوا، أن كل شيء ممكن تخطيطه سلفاً، وكل مشكلة يمكن حلّها. عندما نجري ما يلزم. والوحيد الذي بقي في منصبه هو رونالد زيبغلر، رئيس مكتب الصحافة، الذي كان منهمكاً بتلك المهمة القاسية، التي يمليها عليه ولاؤه وتفانيه ولم يبقَ حالياً لملاك موظفي البيت الأبيض، تلك السلطة التي يمنحها إيّاهم رئيس قوي، أو ذلك الاعتقاد الداخلي بخدمة مُثل عليا. وأصبح المسؤولون مجُبرين على تبرير كل واحدة من طلباتهم، كل واحدة بدورها وبدعم كبير من تدخّل شخصي، وقدرة على الإقناع، ومبرهنين على رغبتهم في تلبية ما يعود بالنفع على المصلحة القومية، في وسط الصعوبات

الحرجة، وأقلّها عدم القدرة التي صرنا إليها، ولا نستطيع بنتيجتها إقناع الجميع بمدى الخطر الذي يداهمنا.

ولا ينقضي أي مؤتمر صحفي، دون أن أسأل، عن تأثير مشكلة واترغيت على سياستنا الخارجية، فكنت أرفض بشدّة أن تكون أيّة علاقة بين هذه أو تلك. والواقع أن كل العالم يعرف أن هذا ليس بصحيح، لكن إظهار، بعض البرودة كان ما بقي لدينا من سلاح لحفظ ماء وجهنا. ولا يجوز لسلطة عظمى أن تأمل في تقديم ما يفيدها، بحجّة كونها نهباً لمشاكل داخلية. ولن نستطيع تحاشي أخطارنا، إذا لم نوفّق إلى العودة إلى ثقتنا بأنفسنا، ونؤكد للعالم أننا سندافع عن المصلحة القومية على الرغم من كل عائق، داخلي أو خارجي.

لكن نفسي كانت مليئة بحدس سيّء. يبدو أن البلاد قد أصبحت ذات "مزاج انتحاري"، هذا ما صارحت به صديقاً لي في شهر أيار لعام ١٩٧٣. وكنت أيضاً أبوح بسرّ لصديق آخر في شهر تموز، إذ قلت له: "على الرغم من الأزمات التي حدثت خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة، لم يخطر ببالي أبداً، أن البلاد في خطر. لكنني أعتقد اليوم وبصدق، أننا سنُصاب بخسارة لن تعوَّض". وفيما بعد:

"في أية مغامرة تقوم بها، فإن الفرق بين العظمة والخسة. هو فارق دقيق. ولا يمكن وصف مثل هذا الفارق. وقضينا عامين، ونحن نبذل جهوداً، دون أن يتفهم أحداً ما كناّ نعمل، للوصول إلى ما كنّا نصبو إليه. ومن ثم فإن كل نجاح جرّ نجاحاً آخر. وعندما تنحل ربطة الخيوط فتنحل وينحّل غيرها. ولن تروا حدوث شيء خلال عامين، وستبدأون بعدها بسحب الخيطان، الواحد بعد الآخر. وحينئذ أستطيع الذهاب إلى الكابتول فأقول: أيها السادة، إن الخطر يداهمنا، وإذا استمّرت الحال، ستحدث حرب في الشرق الأوسط".

وهذا ما حدث فعلاً لا أكثر ولا أقل، أضف إلى ذلك فإن النواح لن يُجدي. ولم أتمكن من الذهاب لإبلاغ الكونغرس، لأني كنت مشغولاً في أمور أهم، إذ كنت أُعد خطّة أخرى لاتّباعها. كما أن السماع في مجلس الشيوخ كان مصطنعاً، والإجراءات غير مُرضية، ولا إمكانية محتملة للاستجواب. ولا اتصال مُسبق برؤساء الاتّهام. لكن العفونة. التي كانت بادية للعيان، كانت حقيقية وواضحة، وكنت تجد أصل جميع المشاكل في لبّ إدارة نيكسون، وليس عند من يُتّهمون بها، مهما يكونوا متقلّبين. وبمجرّد أن أُشيع عن مشكلة واترغيت، أصبح مستحيلاً إيقاف تيّارها. وأن نفراً من خصوم نيكسون القدماء، تفهموا جيداً الضرر الذي لحق بهيبة بلادهم وأصيبوا بالذعر. وكان أفضل ما يستطيعون عمله، هو تسهيل مهمّة بعض المسؤولين، الذين لا يزالون محتفظين بمكانتهم ويحاولون الحفاظ على ما تبقّى.

وهكذا فإن غريباً، قد منح الجنسية، يجد نفسه مكلفاً بمهمة غير عادية، وهي المحافظة على تماسك سياستنا الخارجية، وبعث الاطمئنان في الرأي العام. وليس لكل هذا دخل في جدارة من يكلف، إذ أنها الغريزة التي تدعو إلى المحافظة على البلاد. وبالتأكيد لم أقدم علىعمل شيء يستحق ان توجّه نحوي أنظار الجمهور، خلال الولاية الأولى، التي دامت أربع سنوات، إذ قد أطلق عليّ لقب «الشخصيّة الجذّابة» في التاريخ. لكن هذه المسؤولية الجديدة والعظيمة، التي انتقلت إلي، ظهرت في عيني وكأنها بليّة، مرعبة جداً، حتى وكأني سعيت إليها بتبصّر، إذ كانت ترتكز على إيجاد انطباع لدى العموم، ان قوّة وعزم أمريكا باقيان كما هما، وان بلادنا لا تزال تهتم وبحيوية في الشؤون العالمية، وهكذا استطعنا بعث الثقة في الجميع، اننا في قلب محنتنا، نبقى أسياد موقفنا.

لست أنا من اختار هذه الوظيفة لنفسه، ولا أزال في حيرة من أمري. إذ أرى

أنني لست أهلاً لها. علماً انني قمت بجهود كبيرة في سبيل عدم ظهوري. وعلى كل الذين ظلّوا أحياء بعد النكبة، واجب لا مفرّ منه في المساعدة على النهوض منها، مستخدمين كافة الامكانيات لتقوية الحسّ القومي بأهدافنا القوميّة، واستخدمت من جهتي كافة جهودي. وهذا أمر يتطلب ان تسير دبلوماسيتنا في نمط يلفت الانتباه، وعلينا أيضاً ان نبرهن عن ثقة بأنفسنا، تمنع الخصم مهما يكن قوياً من إثارتنا. ولابُدّ أن يشوب ذلك بعض الغطرسة، ترافقها أيضاً إرادة قويّة، وليدة مخاوف سابقة. وعلينا أيضاً ان نثبت علانية، وبطريقة مسرحيّة عند الاقتضاء، ان أمريكا ستتغلّب على مصاعبها، وستسهم أيضاً في خلق عالم أفضل. وإذ قبل نيكسون فعلاً مثل هذه الأمور، فان هذا يظهر كم كان موقفه حرجاً. وبفضل ما كان عليه من وطنيّة وثبات، فقد رضي بالخضوع.

وكانت شروطنا المسبقة، في حال رغبتنا في اجتياز هذه المصاعب، هي العمل بنوع أن القرارات تظهر وكأنها صادرة عن رئاسة قويّة وسليمة. لم يبق لدى نيكسون حريّة التصرّف، ولا الملاك اللازم من الموظفين، لمواجهة صعاب معقّدة، على غرار المشاكل التي تدبر أمرها خلال ولايته الأولى. وأصبح مثلي، يقتصر على عمل المهم فقط. فكان يحكم طبقاً لاجراءات أكثر اصطلاحاً، ومن جهتي أنا، فقد كنت أجهد نفسي للإبقاء على الإجماع القومي حول سياستنا الخارجية. أمّا المحادثات التي لا رابط بينها وكنا إذا ذاك نقوم بها، فقد أصبحت اكثر جدّية، وصارت بصورة غريبة، أقل امتداداً وأقل عصبيّة. وبعد حلول البلاء لم يبقَ لدينا سوى المبادئ.

وكنت أسعى أكثر فأكثر، إلى مساندة مزدوجة، من حزبي الكونغرس، على الرغم من أن هذا كان يبدو مستحيلاً، حول مواضيع حسّاسة، مثل فيتنام، او هجرة اليهود من الإتحاد السوفيتي، لكننا نحافظ على وحدتنا في مجال السياسة الخارجية، في موضوع أو آخر. فظهر لي وكأن زعماء الكونغرس، وصلوا إلى درجة

رفيعة من الرعب، عند رؤيتهم أمواجاً، وكأنها كوارث تنقضّ على البلاد، مهدّدة بابتلاع الصالح والطالح.

وفي سبيل منع تصدّع سياستنا الخارجية، فلقد أسهمت، دون ريب في بذل جهود كبيرة وصحيحة، تجاه خصوم نيكسون الألدّاء، ولم يكن لديّ الخيار. وفي آخر المطاف، سُدّت السبل في وجه مصير الرئيس، في حين أن موظفي البيت الأبيض، أخذوا هم أنفسهم بالتفكّك، وانقلبوا ضد رئيسهم. وبدءاً من هذه الساعة، أصبح واجبنا نحو بلادنا صيانة أمنها ومصداقيّتها، بإيجادنا وحدة وإرادة مواجهة، وشفا الكارثة يتطلّب أمراً واقعياً، وهو امتلاك حق المناورة والعمل.

وهكذا فُرِض عليّ جزء، وعلى هيغ جزء آخر، وعلى فريقي عملنا، القيام بمساندة الرئيس الجريح، الذي كانت رباطة جأشه توحي بالاحترام، وما ابتلي به من آلام يستوجب إحاطته بالعطف. لأن العقاب الشديد الذي انقضّ على نيكسون، ظهر بموجب التحليلات الأخيرة، أن ليس هذا العقاب فقط، بل كل ما حلّ به من الآلام، سبّبها هو لنفسه. أمّا وقد وصل إلى هذا الدرك، فقد حافظ على رؤية سامية في أمور السياسة الخارجية. وكان احترامه لواجبه يبقيه محافظاً على ما كان عليه. وفي حين أننا لم نستطع إنقاذ الرئاسة، كان علينا واجب إنقاذ الأمة.



الفصل الرابع

عـام أوروبـا

في أوائل عـام ١٩٧٣ بـات واضـحاً للعيـان، أن العلاقـات الأطلسـيّة، كانـت بحاجـة لإعـادة النظـر فيهـا مـرة أخـرى. بسـبب حـدوث العديـد مـن التغيرات التنظيمية الهيكلية والسياسية. ففي الأول من شهر كـانون الثـاني مـن عـام ١٩٧٣، قُبـل ثلاثـة أعضـاء جُـدد، في المجتمـع الاقتصـادي الأوروبـي (بريطانيـا العظمـى، ايرلنـدا والـدانمارك) منضمين إلى البلدان الستّة، التي أسسته عام ١٩٥٨ وهـي (فرنسـا، ألمانيـا الغربيـة ـ إيطاليـا، بلجيكـا، هولنـدا واللكسـمبورغ) وأوروبـا الجديـدة، المشـكلة مـن تسـعة بلـدان، أصـبحت قابلـة، منـذ الآن وصـاعداً، لتوحيد سياستها واقتصادها أيضـاً.

إن هذا التوسيع وهذا الدعم، للوحدة الأوروبية، كانا مؤشرين حقيقييّن لنهاية محتومـة للتفـوّق الأمريكـي، في شـؤون الغـرب، الـذي كـان سـائداً منـذ عـام ١٩٤٥. وخارجاً عـن القـوّتين الأعظـم، فـإن قـوة أوروبـا الاقتصـادية، والعسـكرية، أصـبحت

منذ الآن وصاعداً أكثر قوّة، بصورة تفوق فيها أية قوة في العالم. ومع الوحدة كان عليها إثبات هويتها الخاصّة. ومن جهتنا، بعد أن تحرّرنا نفسّياً من الصدمة الفيتناميّة، فلم يبق علينا والحالة هذه، سوى التوجّه نحو أوروبا، لنحيي وإياها أهدافنا، وبعد كل ما حدث، فإن لنا أشياء كثيرة مشتركة، مع هذا القسم من العالم الحر، سواء تاريخياً، أو ثقافياً، أو قيماً أخلاقية.

لقد تغيرت أشياء كثيرة منذ عام ١٩٤٥، ولكني كنت أشكك دائماً في توحيد أوروبا. أو مشاطرتها أعباءنا أو أنها ستكتفي بالقيام بدور ثانوي، عندما تصبح لديها الوسيلة في استخدام مشاريعها الخاصّة. وفي سبيل تعاون أكثر اتساعاً بشؤون الغرب، يجب أن تقبل أوروبا على تحقيق أهدافها المحددة. ليس هناك ريب في قدرة هؤلاء على التناسق مع أهداف أمريكا، وفي معظم المجالات، فإن مصالح أوروبا ومثلها مصالحنا متوازية. لكن علاقاتنا ستختلف كثيراً، في "العصر الذهبي" لمشروع مارشال، الذي أوجدته أمريكا، بنيّة الاستيلاء على الأمور، والقضاء على المشاكل في مهدها. وبعد أن أصبحت أوروبا قوية اقتصادياً، وموحدة سياسياً، فلن يبقى للتعاون الأطلسي، تلك المجازفة الأمريكية، التي تدور جميع أبحاثها حول المشاريع الأمريكية.

كان شارل دي غول، الأول في معارضة الموقف الأمريكي، والذي يقوم على رغبتنا في رؤية أوروبا موحدة، وحنيننا إلى الماضي من حيث تثبيت دهاء السياسة الأمريكية. وبكل تأكيد فان دي غول، عبر عن رؤيته هذه، بطريقة جارحة جداً بالنسبة لنا. فكان يطالب ليس فقط بحرية أوروبا في البحث عن مصالحها الخاصة، بل أيضاً، أن تكون هذه المصالح مختلفة على الأرجح عن مصالحنا. وفعلاً فإن هوية أوروبا تتوقف تماماً على هذا الاقتراح.

أما بومبيدو، فقد بيّن الموقف الأوروبي بدقة أكثر. وكان أكثر انفتاحاً ورحّب بالتوحيد الأوروبي أكثر من دي غول، ولم يُصرّ مثله على واقع أوروبا في كونها لا تستطيع أن تكون سوى تجمّع ضعيف لدول قومية. لكنه في الوقت ذاته، لم يكن أقل صلابة في مطلبه بأن تقوم أوروبا بدور خاص وفعال في الشؤون الدولية.

وفي التاسع عشر من شهر تشرين الأول عام ١٩٧٢، حدّد بومبيدو موقفه من الولايات المتحدة، جامعاً بين التعاون والتحدّي، وجرى ذلك عندما افتتح مؤتمر القمة التاريخي، الذي قرّر فيه المجتمع الأوروبي السير في طريق الوحدة السياسية الكاملة:

"إن علاقاتنا هي ودّية جداً، مع هذا البلد الكبير، أول قوّة اقتصادية في العالم، ولقد انضم إليه، ثمانية بلدان منا، ضمن الحلف الأطلسي، فأصبح مستحيلاً أن نتصور أوروبا وهي تعارضه. ونتيجةً لوثوق هذه العلاقات، يجب إثبات الشخصية الأوروبية أيضاً، بالنسبة للولايات المتحدة. إن أوروبا الغربية، بعد أن سرّحت جيوشها، بفضل المساهمة الحقيقية من الجنود الأمريكيين، وأعادت بناء نفسها بعون أمريكي، وضمنت أمنها بالحلف الأمريكي، وقبلت حتى الآن، كمبدأ أساسي لاحتياط عملتها، النقد الأمريكي، فيجب عليها ألاّ تُقدم على الانفصال عن الولايات المتحدة. وعلى كل حال، يجدر بها ألاّ تتناسى أنها قوّة رئيسية".

إن إدارة نيكسون تقبل وبدون تردّد، الفكرة القائلة أن أوروبا حرّة في اتباع سياستها الخاصة. وكنا متفقين مع بومبيدو على أن تكون مصالحنا ومصالحهم متوازية، في جميع المجالات الرئيسية.

لا تستطيع كل من أوروبا وأمريكا الاكتفاء بتصحيح طرق اتخاذ القرارات ضمن الحلف، بل عليهما أن تجابها مجتمعتين، مخاطر أساسية، تعكس تغييرات مبدئية في الظروف العالمية منذ الأربعينات، تلك الفترة التي شُكل فيها الحلف. وهنا أخذت مسألة أساسية بطرح نفسها: وهي الدفاع عن أوروبا.

في نهاية الأربعينات، وخلال الخمسينات، كانت الولايات المتحدة، تتمتع بتفوّق نووي ساحق على الاتحاد السوفيتي. وبالنتيجة فقد أصبح الدفاع عن أوروبا مرتكزاً وبصورة رئيسية على ردّ انتقامي نووي أمريكي. واتخذت إدارة ايزنهاور مبدأ، دعي في حينه: الردّ الرّادع، لم يُعلن عنه بتعبير عملياتي دقيق، ولقد كان يعني فعلاً: في حال مهاجمة أوروبا، سنضرب الاتحاد السوفيتي بأسلحة استراتيجية نووية. ولما كانت القوات الاستراتيجية السوفيتية معروفة وغير محصنة، لذا فإن المسؤولين العسكريين في حلف شمال الأطلسي، سمحوا لنفسهم على غير عادتهم، عدم الاهتمام، بذلك التهديد الدائم، الذي يفرضه عليهم، قرب الاتحاد السوفيتي الجغرافي، وتفوقه العددي في تسلّحه الكلاسيكي. ولم تكن الاستراتيجية المقرّرة، هي التي تشغل بال حلفائنا، بل عدم استطاعتنا استخدامها. فأصبح الحل الأوروبي، تشجيع انتشار واسع لجنود أمريكيين في أوروبا، حتى لو أن الاستراتيجية المقرّرة، تفرض أن هجوماً سوفيتياً سيسبّب رداً نووياً من قبل أمريكا. والفكرة صحيحة وصعب إقرارها. فإن هجوماً سوفيتياً، هدفه جميع القوات البرية الأمريكية، وقوات الحلفاء أيضاً، سيؤدي وبصورة تلقائية إلى ردّ نووي.

ولما كان من غير المقبول سياسياً، أن تتخذ أمريكا قواعد لقواتها في الخارج، دون مشاركة أوروبية ولو رمزية، لذا أخذ كل من حلفائنا بتشكيل وحدات بريّة، على

خط جبهة أوروبا المركزية. وكانت النتيجة فوضى جيوش قومية، منتشرة بموجب اعتبارات جغرافية، تعود إلى عهد الاحتلال، دون تسلّح محدّد، أو اتفاق على سرعة التحرّك والتجهيزات، الأمر الذي لم يكن فقط بادرة غير ناجحة، بل يعكس حقائق بسيكولوجية. لم تكن الجيوش الأوروبية مشكلة، لإحراز نصر في أوروبا، وليس هذا ما كان يؤمّل منها. وكانت مطالبة أن تكون إنذاراً بالخطر، أو مدخلاً نووياً، وليست هذه سوى اعتبارات مؤشرة، على أن أمريكا لا تملك الخيار في البدء بردّ نووي.

إن التفوق النووي الأمريكي، الذي ترتكز عليه هذه الاستراتيجية أخذ يتفتّت في أواخر الخمسينات، عندما كشف الاتحاد السوفيتي عن قذائفه البالستية. وخلال بضع سنوات، أخذ التقدّم السوفيتي بالتباطؤ، وبقيت صواريخه غير محصنة. لكن أزمة صواريخ كوبا عام ١٩٦٢، أفهمتهم وبألم، كم يكلّفهم تدنّي استراتيجيتهم، فأقدموا على تنفيذ برنامج دقيق وكبير لمعالجة ذلك. وتوصلوا عام ١٩٧١، إلى تغطية تأخرهم العددي. وبدل الاكتفاء بالتكافؤ معنا، كما كانت تأمل إدارة جونسون، أكملوا جهودهم، فجهزوا عدداً كبيراً من الصواريخ، فاق ما لدينا.

ولذلك ففي عام ١٩٧٣، فإن استراتيجية حلف شمال الأطلسي، المرتكزة على التفوق النووي الأمريكي، غدت بحاجة ماسة لإعادة النظر فيها. وخلال وقتٍ ما، وربما أن هذا قد يستغرق نحو عشر سنوات، ستحافظ الولايات المتحدة، على تقدم ملحوظ، في عدد الرؤوس النووية، إذ قد أصبح لدينا على الأقل خمس سنوات قدم في تصنيع الرؤوس النووية المتعدّدة المسيرّة ذاتياً. وهذا أجلّ موعد إعادة النظر، التي لابدّ منها. واضطرّ الحلف الأطلسي إلى إعادة تقويم تنظيمه العسكري، لأن الوعود التي قطعتها أمريكا على نفسها، بالقيام بردّ نووي، أخذت تفقد مصداقيتها.

إلا أن تداعيات الحرب الفيتنامية وضغوط الداخل الأمريكي وخاصة

الكونغرس حال دون رغبة أمريكا في السير قدماً نحو مخططها وهو ما دفعها بالتالي للتخلي، ولقاء ثمن باهظ، عن العديد من الأفكار والمخططات. والمشاريع ذات العلاقة بالدفاع المحلي، تأثرت بصورة خاصة، وكانت ضحيّة الفكرة المستحوذة بتقليص التزاماتنا الخارجية.

وكانت أوروبا غير راغبة في مجابهة تغييرات الواقع العالمي، وأكمل عدد من حلفائنا اعتبار تنميتهم العسكرية، وكأنها وفاء رمزي لصيانة الدفاع عن أوروبا، من قبل الولايات المتحدة. وكانوا بعيدين جداً، عن اختيار بديل حقيقي لدفاعهم المحلّي. وهم يخشون تخريب أراضيهم، ويأبون التخلّي عن اللجوء إلى حماية درعنا النووي. كما أنهم كانوا يترددون كثيراً في مجابهة توريطات التكافؤ الاستراتيجي، الذي يهددنا، والذي علينا أن نتصدى له. وكانوا يستعينون أيضاً بوسيلة قديمة، مؤدّاها توجيه اهتمامهم على الأقل إلى مطالباتنا المتعلقة بتنمية جهودهم، دون إجراء أي تعديل وإن كان طفيفاً بمبدأ فلسفتهم.

وتوتّرات مشابهة كانت توجد في العلاقات الاقتصادية، حيث لم تكن موجودة أية أولويات، خلافاً لطريقة التنسيق، وكان يشوب عمل حلف شمال الأطلسي الكثير من التعقيد. وبمقدار ما كانت تتعاظم قدرته الاقتصادية، فالمجتمع الاوروبي أخذ ينافس أكثر فأكثر اقتصاد الولايات المتحدة، وطابعه البارز في ذلك تعرفة خارجية مشتركة، أخذت تفرض على الحاصلات الأمريكية. ولكن هذا لم يفاجئ أحداً. إذ ان أوروبا منتعشة، تستوعب من جهة، الكثير من صادراتنا. ومن جهة أخرى، فان ما يجعل السوق المشتركة، ذات نفع لأعضائها، هو كون تنظيماتها، تميّز الصناعة الداخلية، بالنسبة لما يصنعه من هو غير مشترك في تلك السوق. غير ان هذا كان صدمة حقيقية للأمريكان من أن يجدوا أنفسهم منافَسين اقتصادياً، من قبل بلدان، ساندوها بعد الحرب.

أخذ الموظفون الاقتصاديون، بتقديم شكاوى يومية، لدى المكتب البيضوي، يشكون مما تأثر به الاقتصاد، نتيجة ما أقدمَ عليه مجدداً المجتمع الأوروبي. وكان آخرون يلومون البلدان الأوروبية، لاحتفاظها باجراءات تجارية خاصة مع مستعمراتها القديمة، فيحرمونها بذلك من دخول هذه الأسواق. وكانوا ينتقدون شبكة العلاقات الخاصة، بين المجتمع الأوروبي، وبلدان أخرى أوروبية ومتوسطة. وكانت هناك، منازعات دائمة، حول السياسة الزراعية المشتركة في المجتمع الاقتصادي الأوروبي. ومن جهتهم (أي الاوروبيون)، فقد أغاظتهم القسوة، التي عدّلنا بها التنظيم النقدي الدولي عام ١٩٧١. وكان اللوم يوجّه الينا غالباً، لتخلّينا عن عيار الذهب المعدّل، وتصديرنا اليهم تضخمنا المالي، ونحمل حلفاءَنا رفضنا من الانتظام داخلياً.

وفي أوائل السبعينات، فان التنظيم المالي والتجاري الليبرالي الذي عاشه الغرب، خلال عشرين عاماً من الازدهار، أصبح مهدّداً بانخفاض فكري، وأزمات نقدية، وعداوات حمائية. ومن جهة أخرى فان هذا التوتر المباشر، قد أحدث بعضه، لتنظيم سياسة مشتركة، تجاه البلدان، التي هي في طريقها الى التطور، والأسواق الدولية، للمواد الأولية، التي كان البترول أضعفها.

وكما قال بومبيدو لجيمس رستون، في حديث جرى في شهر كانون الأول: لن يوجد حلّ البتة على المستوى التقني. ويجب على بعض القرارات السياسية، إخضاع المختلفين لأمر له الأولوية في وحدتنا السياسية والأخلاقية.

إضافة إلى أن ردّ الفعل الأوروبي، على تحسين علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتي، كشف عن عدم وجود اتفاق على الأهداف السياسية، وهذا أمر لا يخلو من التهكّم، لأننا في سياساتنا، ظهر الانفراج، وكأنه استجابة لتمنيات بل ضغوط الأوروبيين. ومنذ أوائل ولايته الأولى، كان حلفاؤنا يعتبرون نيكسون، كأنه مدافع

ومشجع للحرب الباردة، ويجب على التعقل الأوروبي تلطيف الغرائز المحبة للقتال. إن زعماء أوروبا الغربية، كانوا يظهرون للرأي العام وكأنهم وسطاء بين العناد الأمريكي والعدوانية السوفيتية. إن الزيارات إلى موسكو، التي قام بها كل من، ماكملان، ويلسون، دي غول وبراندت، والتوقيع على بيانات مناسبة للانفراج الدولي، أصبحت محط كلام الدبلوماسية الأوروبية. خلال العامين الأولين لرئاسة نيكسون، لم نكن نلتقي برجل دولة أوروبي، دون أن يسمعنا تلميحات دقيقة (أو إذا لزم الأمر، بحثاً شكلياً) حول الضرورة الملحّة لتلطيف التوتّر.

لقد اتبعنا نصائحهم، وأخذت سياستنا الخاصة في سبيل الانفراج الدولي، تؤتي أكلها عام ١٩٧٢. ولدينا العديد من الأسباب لوضعها موضع العمل. وكان من الواجب أيضاً، إبعاد الاتحاد السوفيتي عن حليفته فيتنام الشمالية، والإبقاء على مجال عمل في الداخل، لتنمية سياسة خارجية قوّية للوقوف بوجه الضغوط الشديدة التي يمارسها الكونغرس والجمهور، مطالبين بالعودة إلى العزلة وتقليص قوة الدفاع. وكنا نملك سبباً آخر، تظهره التطلعات التي يتدارسها الحلف الأطلسي. ونحن لا نريد أن يُنظر إلى حلف شمال الأطلسي، وكأنه عائق أمام التعايش السلمي. كما كنا نأمل إقناع الأوروبيين ببدء محادثات أحادية الجانب مع موسكو، مؤكدين أننا نحن الأمريكان نملك كل وسائل النجاح، في كل مسعى يعود إلى تحسين العلاقات مع الاتحاد السوفيتي. وأثمرت هذه الخطّة، وخفّت الضغوط الأوروبية، في سبيل الحصول على تنازلات، بمقدار ما كنا نعلن عن خيارنا الذي نتبناه نحو موسكو.

ومهما تظهر لنا توهماتنا أنها دون مبرر، وباطلة في أغلب الأحيان، فمع ذلك، فإن هذا القلق كان يتكشف عن أن الشعوب الأطلسية كان ينقصها توجيه مشترك.

وفعلاً فإن التزامنا المتحمّس في هذه المبادرة الجديدة، يمكن أن يعود لأسباب بسيكولوجية وأخلاقية. وكنا على اقتناع أن الدول الديمقراطية، لن تكتفي بعد بإدارة تراثها. ولقد أكملت مسيرتها في كل هذا الطريق، بسبب ما ورثته من التزامات سمحت لها بالتغلب على كل تقلبات التاريخ. أصبح الجيل الناشئ كبيراً، ولم يكن على علم بشيء من أخطار الأربعينيات، المسؤولة عن تشكيل الحلف، كما أن هذا الجيل الثاني، لم يعرف شيئاً عن صدق رؤية ذلك الإنسان الذي عمل على تشكيل المؤسسات السياسية. ولقد تركزّت خبرته في أمريكا على المحادثات المضجرة التي جرت في الستينات، حول فيتنام. أما في أوروبا فكان قلقاً في الحصول على دولة تحميه وتسعده. ومنذ زمن سحيق كانت المثالية والثقة بالنفس، وقف على الغربيين، لم يتمخضا عن التزام حقيقي في كثير من المهمات الايجابية. وكل ما يحققه الإنسان من أمور هامة، لم يكن سوى أحلام، قبل أن تصبح حقيقة. كنا معتقدين بنفع المناداة بالعودة إلى تقاليد الديمقراطية المثالية، عندما أطلقنا شعار "عام أوروبا"، لكننا بالحقيقة، كنا نجهل كيفية البدء بالعمل.

❒ ❒ ❒

بدأت السنة ١٩٧٣، بإمارات مزعجة قليلاً، إذ ان كل حلفائنا من الأوروبيين ونستثني منهم رئيس وزراء بريطانيا ادوارد هيث، قد تخلوا عنا بطريقة او بأخرى، إثر الصدمة المؤلمة لحرب فيتنام، ولا سيما القصف الذي جرى ليلة الميلاد. ان معظم الجماهير الأوروبية، تجرّعت الغصّة وكأننا أقدمنا على إفناء شامل للمدنيين، والعديد من الزعماء الأوروبيين أصدروا تعليقات لم تكن لهجتها خالية من إهانة.

أسقطت كل الانتقادات والتعليقات المهنية على نيكسون، وهو الذي كان يبني

الآمال الكبيرة على الحلف الأطلسي، وأسهم عام ١٩٤٧ بلجنة (هارتر Herter) التي تدارست كيفية إعادة بناء أوروبا، واقترحت إنشاء مشروع مارشال، ولذا فانه، بكل بساطة. لم يستطع ان يفهم، كيف يتصرّف حلفاؤنا نحونا، في مثل هذا الظرف الرهيب الدقيق. وبعد مرور أكثر من شهر على القصف، وأسبوع على عقد اتفاقية باريس، تحدث نيكسون مع هيث في الأول من شهر شباط لعام ١٩٧٣، قائلاً: لقد قرّرنا ما قمت به نحونا، كما اننا لن ننسى ما قام به الآخرون، وعندما يبتعد عنك أقرب حلفائك في ضيقك فمن العسير التغاضي عنه. وفي الخامس عشر من شهر شباط، أكدّ القول نفسه للجنرال (اندرو غودباستر) الذي كان في حينه قائداً أعلى للجيوش الحليفة في أوروبا. وغيظ نيكسون لم يمنعه من القيام بمبادرة جديدة في العلاقات الأطلسيّة. وفعلاً، ففيما كان المصوّرون لا يزالون في القاعة مع الجنرال غودباستر، أكّد نيكسون عزمه على جعل عام ١٩٧٣ عام أوروبا».

وفيما كانت فوضى بعد الحرب، تلفّ أوروبا بكاملها، كان جان مونيه، رئيس المجتمع الأوروبي، الرجل الذي لا تحدّ من همته العوائق، قد فهم ان الدولة الأم الأوروبية التقليدية، قد اندثرت بعد الحرب، وللنهوض من كوارث الحرب وويلاتها، فان القارّة بحاجة لفكر أريب يقودها إلى الوحدة الأوروبية. وكان مونيّه رجل دولة لامعاً، على الرغم انه وبكل بساطة لا يمثّل جهة ما. وعلى العموم فإن الانجازات التاريخية تصدر غالباً عن تصوّرات عقليّة بسيطة، لأن المغامرة التي تتطلّب تعاون جماعة كبيرة، نادراً ما تصل إلى حلّ تعقيدات مهما يكن نوعها، وإسهام مونيّه في الوحدة الأوروبية، يمكن إيجازه في اقتراحين، ظاهرين للعيان:

أولاً: ان الدول الأوروبية المختلفة، المتسترّة وراء سيادة غير متماسكة، لا تستطيع دون تحريض، أن تثب إلى مستقبل تفرضه مبادئ الوحدة الأوروبية.

ثانياً: ان الولايات المتحدة قادرة على حثّهم، لكنّها تخشى في الوقت ذاته، ان أوروبا عندما تتوحّد، ستنقلب ضد أمريكا.

والغريب جداً ان مونّيه، وجد في نفسه قوّة لاستنهاض همّة الحكومات، بوساطة فريق غير حكومي. و في عام ١٩٥٥ شكل مونّيه لجنة عمل في سبيل إيجاد ولايات أوروبا المتحدة. وببديهة لا تُفلّ جمع مجموعة معتبرة من الشخصيّات، القادرة على التأثير على الأحزاب الحاكمة في بلادها. ولم يكن هذا كافياً في حدّ ذاته، لرفع معنويات مونّيه، إلى أكثر ممّا كانت تقوم به فرق عديدة من دراسات دولية يتوقع لها نتائج حسنة. والذي أضفى على اللجنة اندفاعاً، ووهب مونّيه قوة حقيقية، هو أنه كان يتمتّع بقدرة أكثر من أيّ شخص آخر يكون في وضعه، على التدخل لدى الشخصيات البارزة الأمريكية، فاستطاع التأثير عليها، وان يبهرها فعلاً. لقد اختار مونّيه أمريكا وكأنها «الأداة المُنزَلة لدفع أوروبا نحو الوحدة. فكان هذا الاختيار بمثابة تقدير صحيح للبسيكولوجية الأمريكية، لأن برنامجها كان يدعو جميع التصوّرات الفكرية الأمريكية إلى إغفال الدولة الأم التقليدية، وايجاد حلول مناسبة للمشاكل التي تواجه الدولة بما يحقق عامل استقرار حقيقي يفضي لأوروبا موحّدة قادرة على مشاطرة أمريكا أعباءَها.

ان الانسان الذي توصّل إلى ممارسة نفوذ كهذا، لا يبدو أبداً وكأنه يتمتّع بتفتح ذهن كهذا الذي يملكه مونّيه. فهو نموذج للفرنسي المثالي، وكان ضعيفاً، ولا تدل هيئته على حذق، وبريق عينيه، يعكس لمعاناً داخلياً، وكاد ألاّ يكون مميّزاً وسط أي فريق له قيمته. لقد كان يجسدّ في نفسه أحد مبادئه الأساسيّة: «كل العالم طمّاع».

والسؤال يكمن هنا في معرفة، هل الانسان خلق طمّاعاً في طبعه، أو يصبح طماعاً في أفعاله وتصرّفاته». وكان مونّيه طمّاعاً من خلال تصرّفاته فعلاً. وكان يقلقه

الادعاء المغرور، ولا يسعى ليظهر نفسه شخصياً. وحياده كان يعكس التزاماً ضمنياً، لقد كان مونّيه من عداد الأنبياء النادرين، الذين يستطيعون إرضاء الناس. كما أنه كان أيضاً من الثوّار النادرين الذين يقلبون الأنظمة القائمة، دون التنازل عن الدفاع عن المؤسّسات الموجودة.

وكاد يلاحظ بمقارنته بدي غول، ان منطقه لم يكن يختلف عنه كثيراً. وكان مونّيه يعتقد كدي غول، يجب على أوروبا ان تكون قويّة، لتصبح ذات نفوذ. ولا يعني التعاون شيئاً، إذا لم تكن هناك قدرة عمل مستقلّة. وكان مونّيه يعاكس دي غول، في أن أوروبا الموحّدة ستتعاون معنا، أكثر من أن تنافسنا. وهنا تكمن فكرة دقيقة جداً، لأن لا مونّيه، ولا دي غول، يقدران على ضمان الطريقة التي ستستخدم بها أوروبا القوّة الناتجة عن توحيدها. ان مونيه لم يكن ضد الفكرة القائلة ببقاء أوروبا على ما هي عليه الآن، من متابعة مصالحها المتفاوتة. ولم يكن دي غول يُعارض التعاون، حيث تلتقي المصالح، وأعطى برهاناً على ذلك مساندته القويّة حين نشبت أزمة برلين في نهاية الخمسينات، وإبان أزمة صواريخ كوبا عام ١٩٦٢.

التقيت مونّيه، في شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٣، وقد بلغ عامه الرابع والثمانين، فبدا هزيلاً. وجرى ذلك، عندما كنت في إحدى رحلاتي إلى باريس، لأضع اللمسات الأخيرة على اتفاقية فيتنام. وكان مونّيه يرغب في التأكد، عمّا إذا كان أصدقاؤه ومحبّوه، لا يزالون في مستوى مبادئه الرفيعة، وإذا لم يكونوا هكذا، فان بريق عينيه الزرقاوين، كان ينقلب إلى نظرة فولاذيّة. وإذا لحظ بعض تباطؤ في العمل، فان مونّيه يعبّئ اسطوله من الأصدقاء القادرين، وخصوصاً في الولايات المتحدة، حيث لا يقابله أي مسؤول باللامبالاة.

ان الضغوط في هذا الظرف غير ضرورية. وكان على اعتقاد، أن كل تقرّب يفيد،

وأي عمل مبدع يظهره. ونيّتي متّجهة لتصديقه. ويظن مونّيه، ان على الولايات المتحدة الارتباط حتماً مع أوروبا، في تنظيم أكثر تماسكاً في الشؤون الاقتصادية والامنيّة. وهذا بالطبع ما كنا ننوي عمله من وراء طرحنا «عام أوروبا». وأشار بحرارة إلى وجوب زيارة نيكسون لأوروبا، والاشتراك في مجلس وزراء المجتمع الاوروبي، والإسهام في البيان الجماعي عن الأهداف والمواضيع المشتركة. وعلى أمريكا ان تبدأ في معاملة أوروبا ككيان سياسي. فيما إذا كانت انشأت أو لم تنشيء مؤسّساتها. ومقولة أخرى، يجب على الولايات المتحدة، إكمال مشروع الوحدة الأوروبية الذي بدأت به. مع مشروع مارشال، سواء أكانت أوروبا تقبل به أم لا.

قبل نيكسون وبصورة إيجابية، وجهات نظر مونّيه، لكنه رفض اقتراحه القائل بالبدء بمعاملة أوروبا الغربيّة مباشرة وكأنها موحدّة. وفيما كنت أنقل اقتراح مونّيه بوجوب فرض مبادرتنا على المجتمع الأوروبّي، كتب نيكسون على الهامش: «ك -١- هل هذا ممكن؟ -٢- هل هذا في مصلحتنا؟ وفي نهاية المطاف، لم يكن نيكسون أقوى ممّن سبقه، لم يستطع الإفلات من منطق مونّيه السليم. وإذا حافظت رؤية مونّيه على قيمتها المعنويّة، فان تأثيرها متوقّف على الأمريكان، الذين كانوا على استعداد للإسراع في تفهّم المؤسّسات الأوروبيّة، والزعماء الأوروبيين، الذين كان للعلاقات الأطلسيّة لديهم أولويّة عليا. وهاتان الفئتان لم تكونا جاهزتين في عام ١٩٧٣. وكنت أنا و نيكسون نريد الخير للمجتمع الأوروبي، لكننا على ثقة من وجوب تطوره، بدءاً من القرارات الأوروبية المتخذة، وليس بضغط من أمريكا، ولم نكن لنبدي اهتماماً في معرفة كيف ومتى سيحين التماسك السياسي، شريطة عدم السعي في تثبيته ضدنا، ومع ذلك، فان هذا التفهّم للوحدة الأوروبية، هو الذي كان يتقدم، والزعماء الأوروبيون، الأكثر موالاة للوحدة الأوروبية، أخذوا يدركون أسباب النزاع بين الوحدة الأطلسيّة والهوية الأوروبية. و كان توحيد أوروبا يستحوذ على الجزء الأكبر من نشاطهم وحيويتهم اكثر من الإعداد

للمؤسسات الأطلسية، التي ظهرت لهم وكأنها تسير من تلقاء ذاتها. وبالفعل فان بعض الزعماء، كانوا يعتبرون ان إعطاء أفضلية جديدة للترابط الأطلسي وتماسكه، يبعدهم عن أهدافهم المبدئية، وهي انشاء أوروبا موحدة. وعلى عكس مونّيه، فانهم كانوا لا يصدّقون اننا قادرون على التوفيق بين الأثنين.

كل هذه الميول تقريباً، كانت متجسّدة في إدوارد هيث، رئيس الوزراء البريطاني، وأول مسؤول أوروبي، تناقش معه نيكسون حول «عام أوروبا». أنه أمر طبيعي اختيارنا بريطانيا العظمى لأخذ رأيها بهذا الشأن. لانها تمثّل ما كان يُدعى «العلاقات الخاصّة». ومنذ أجيال، والحكومات الأمريكية المتتالية تزامن مبادراتها مع لندن، ولا سيما بما يتعلق بالحلف الأطلسي. وتصارع البريطانيون بعناد في سبيل ذلك. وطريقتهم في المحافظة على تشريع ذي نفوذ كبير، كانت جزءاً غير منفصل عن مشروع قرار أمريكي، وان فكرة عدم أخذ رأيهم، تبدو وكأنها مخالفة لسير الأحداث الطبيعي، ان نظراءنا من البريطانيين، كانوا لبقين وواثقين بأنفسهم، انهم سيتوصلون إلى إعطاء انطباع، انهم هم الذين سَيهبوننا معروفاً، بسماحهم لنا بمشاطرتهم تجربتهم العريقة في القدم. ولا نلومهم أبداً في اعتقادهم ذاك.

لكن هذه الطريقة، هي التي عزم هيث على تغييرها فعلاً، وكان يفضّل ان يكون في اوروبا موقف توجيهي، أكثرمن كونه دوراً استشارياً مرموقاً في واشنطن ولم يكن ليظن ان هناك انسجاماً بين الموقفين.

كان هيث أول رئيس مجلس وزراء، من المحافظين، توصّل إلى ترؤس حزب نتيجة لانتخابات برلمانية ثوريّة، لا بفضل الطريقة التقليدية، أي بإجماع ضمني لزعماء محافظين أساسيّين، اثر مناقشات خاصّة في نواديهم أو خارجها. وبيانه السياسي الوظيفي، كان يتضمن تقليداً أقل من وصوله إلى الرئاسة العظمى. وهو سليل بورجوازية صغيرة، وارتقى إلى رئاسة حزب، كان توجّهه، ان لم نقل تأسيسه، لا يزال

توجّه الطبقات الحاكمة. وكان يبدى قلقه متخوفاً من ان النظام الاشتراكي البريطاني، يصبح عبئاً على كاهل هؤلاء الذين لم يولدوا في كنف الطبقات العليا. وكان بعضهم يتوافق مع هذا النظام بوضعهم قناعاً، والتظاهر بقبول شكل وأوضاع وطيبة قلب هؤلاء الذين ولدوا بوضع حسن.

لقد اختطّ هيث لنفسه طريقة تقرّب واضحة ومختلفة عمّا كان يسلكه غيره وكان الانطباع عنه انه رجل ودود جداً، ولا بد ان يكون في ايام شبابه بشوشاً ومحباً للمجتمع، قبل تدرّعه بالتنظيم الذاتي الحديدي، لتأسيس هيمنته، لا على أساس شخصيّته بل على أساس انجازاته. وكان يرفض في الوقت نفسه الاستعانة بسحر بلاغته الشخصية، على الرغم من أنه كان يستطيع ذلك في ظرف ما. وكان يفاخر بالظفر بها بتفوّقه الثقافي وموقفه المتَحفّظ. ولقد توحّد في مزاياه الشخصيّة. وكانت ابتسامته تخفي ما لديه من بشاشة أثناء العمليات. وما كان يسمح به لنفسه من تدخّل نادر في النشاطات الانسانية، يبقى منفصلاً تماماً عن أعماله السياسيّة. وكادت شخصيّته ونزاهته المفرطة، تفوّتان عليه «علاقاته الخاصّة» لولا مؤازرة من خبرته واقتناعه.

ان تعقيدات هيث، كانت في كثير من الأحيان، تتفق مع ما لدى نيكسون. وعلى كل حال فان هيث كان يبدي تنوّعاً أكثر. فلم يكن ليبتعد تماماً، كما هي الحال عند نيكسون غالباً، عن نشاطه وسخاء طبيعته، بل يرتفع بها ليشركها إلى ما لديه من ميول للموسيقى والتسابق باليخوت. وبالنتيجة فان هيث، كان نادراً ما يظهر ما لديه من قلة ثقة قاتلة، وكان نيكسون يعاكسه بذلك فيبرهن عنها، على الرغم من ان كليهما من طبيعة انعزاليّة. وكان يستطيع التظاهر بالرضا، بل السرور ضمن طبقة، كانت تبعث القلق في نفسه، أما نيكسون فقد كان يجد نفسه وبصورة دائمة في بلد معادٍ.

ولدى هيث ترابط يفوق كثيراً ما لدى نيكسون. ومبادئ شخصيّة، كانت متفقة تماماً. وممّا يثير الاستغراب، ان هذا يجعل منه ايديولوجياً، ان لم نقل عقائدياً. وكان قليل المرونة وقليل البراعة. وكان يتكلم حسناً وبكثير من الثقة، وكان في الوقت ذاته رجل دولة لا يستطيع التكيّف.

إن طبيعتهما، كانت إلى حدّ كبير متشابهة، حتى انها لا تسمح بتجاوز ما لديهما من فوارق. وكانت علاقة نيكسون بهيث، علاقة محب متخلّى عنه، ولا يزال الناس يقولون له، ان الصداقة ممكنة، ، لكنه يجتّر الخيانة بدل الاغتباط بالمستقبل. وفي نهاية المطاف، فان نيكسون يكن لهيث تقديراً كبيراً، كما ان فوز هيث غير المنتظر، عام ١٩٧٠، قد أفرحه، وكان يهيّئ نفسه لإقامة علاقة شخصيّة وثيقة معه، على الرغم من كل عائق.

بين كل الزعماء البريطانيين، كان هيث أكثرهم في عدم الاهتمام بإقامة علاقات مع أمريكا، ومن الممكن أيضاً مع الأمريكان طالما هم على هذا النحو. وبالنسبة لي شخصياً، فقد كنت أكُنّ لهيث الكثير من المحبّة والتقدير، وفي جميع الظروف، لقد أقمت معه صداقة، طالت مدّتها أكثر من أيّة صداقة أخرى مع شخصيّة سياسية بريطانية. وعلى الرغم من ذلك، فلم يمنعه هذا ان يكون أعند رئيس حكومة بريطانية، قضت علينا ظروفنا، ان نحتاج إليه. فهل كان سبب ذلك، تذكّر تلك الضغوط الأمريكية، التي أفشلت معركة قناة السويس عام ١٩٥٦، إذ كان هيث أول رئيس وزراء من حزب المحافظين (وكان غالباً يطلق بعض التلميحات حول ذلك) أم هل هو تمسّك برؤية أوروبا وهي تشبه كثيراً أوروبا دي غول؟ ومهما يكن الأمر، فان هيث كان يعاملنا بعاطفة أقل مما يجب أن تكون عليه «العلاقات الخاصّة».

ان المشاورات الخاصّة، التي سمحت بتنسيق السياستين البريطانية والأمريكية، خلال المدة التي أعقبت الحرب، تقلّصت فأصبحت تبادلاً دبلوماسياً

رسمياً. ولكي لا تتهمه فرنسا كسلفه هارود ماكميلان، انه «حصان طروادة» أمريكا، فان هيث كان يأنف من مكالمة نيكسون هاتفياً من حين إلى آخر في سبيل إقامة علاقة شخصية كان نيكسون يؤمّلها، علماً اني كنت أنا بدوري أرجو السفراء البريطانيين بهذا الشأن. وكان هيث قد رئس، قبل عشر سنوات، الوفد البريطاني المفاوض، لدخول بريطانيا العظمى السوق المشتركة، الذي عارضه دي غول بكل قسوة، ويعزى جزء من رفضه هذا لأتفاقية التعاون النووي المعقودة في (ناسّو) بين ماكميلان والرئيس كينيدي.

وكان تصلّب الرأي، وربما شيء من البسالة، يغلبان على سياسة هيث، فلم يكن يسعى فقط إلى تغيير النمط الدبلوماسي لدى شعبه، بل مواقفه أيضاً، وكان قلب معظم البريطانيين ميّالاً نحو أمريكا والكومنولث، ولم تكن أوروبا بالنسبة لهم، تتوافق مع وجود الجزر البريطانية، إنما كانت في الجانب الآخر من بحر المانش، ذكريات تاريخية، تؤكد ان الخطر كثيراً ما كان يأتي من أوروبا، وحيث لا تصل النجدة إلاّ عن طريق البحر. كان معظم البريطانيين، يعتبرون أن الدخول إلى أوروبا، يعكس بصورة جليّة، تكيّفاً يسيء إلى ضرورات الحياة، لكن هيث، كان على عكس ذلك، يقبل أن يصبح مستقبل بريطانيا العظمى أوروبياً، بل كان يفضل هذا الاحتمال. وهكذا وبشكل متناقض، من عام ١٩٧٠ إلى عام ١٩٧٢، بينما كان زعماء أوروبيون آخرون، يجتهدون في تحسين علاقاتهم معنا، مثل ويلّي براندت في ألمانيا الاتحادية، ليجعل توازناً مع انفتاحه على الشرق. وبومبيدو ليضع حدّاً للعزلة التي كانت تهدّد سلفه، أمّا هيث فكان يسير في تيّار مضاد. ولقد تحسّنت علاقاته معنا كثيراً، لكنّها لا ترتفع إلاّ نادراً، لتتجاوز تحفظاً أساسياً، كان يمنع باسم أوروبا، تنسيق العلاقات الذي كنا نقدّمه إليه.

ان تنظيم اللقاءات، حتى بين الرئيس، ورئيس الوزراء في أوائل شهر شباط من عام ١٩٧٣، أوضح عدم وثوق العلاقات. وللتدليل على احترام خاص له اصطحب نيكسون في اليوم الثاني، هيث ووفده، إلىكامب ديفيد، حيث يستطيعون هناك متابعة أبحاثهم في جوّ أكثر انفراجاً. والكلام الفارغ، لم يكن صفة ملازمة لهذين الرجلين، وكلا الاثنين، كانا يسرّان بلقاءات منتظمة حول طاولة مباحثات. وفي الطريق إلى كامب ديفيد، وفيما كانا في نصف المسافة تقريباً، اضطرّت الطائرة المروحيّة إلى الهبوط، بسبب ضباب كثيف، غطّى فجأة المقر الرئاسي، وأجبروا هكذا على إكمال طريقهم بالسيارة. فان السير بارك تراند (والآن اللورد تراند) أمين عام الوزارة البريطانية، بالاتفاق معي كنا نتساءل في السيارة الثانية، عمّا كان يدور من حديث بين الزعيمين، والخوف الذي يستولي عادة على المستشارين في كشف ما يزيد عن حاجاتهم، أو بطريقة مؤثّرة أكثر، في ان يجعلوا من أنفسهم مسؤولين، عن تنفيذ القرارات، التي يسهو زعماؤنا عن اطلاعنا عليها. وعلاوة على كل ذلك، كنا لا نستطيع تخيّل هذين الرجلين الصامتين، يستطيعان التحدّث عن أمور عالمية في مؤخرة سيارة، دون جدو ل أعمال، أو أيّ من المستلزمات العادية لجوّ حكومي. لم أعلم ما قيل، فيما إذا جرت هناك محادثات. ولم أستطع الاطّلاع الا علىتعليق مقتضب فاه به نيكسون: «هو متطلّب».

وعندما وصلنا أخيراً الى كامب ديفيد، وتوصلنا الى الاطلاع على جدول الأعمال، توضح لنا أن اللقاء كان مفيداً، لكنه غير مثمر، كان يفترض نيكسون أن كلامه موجه الى فكر شبيه بفكره، وشريك يحمل في ذاته نفس الأهداف. ونظريته الأولى لم تكن مغلوطة، لان بعث حياة جديدة في العلاقات الأطلسية، لم يكن بالنسبة لهيث أولوية فقط. فقبل بتحليل الشؤون العالمية، الذي عرضه أمامه نيكسون، وأضاف إليه اعتبارات رزينة. ولكن عندما لجأنا الى استخلاص نتائج مشتركة، تبيّن أن صيغة

محادثات هيث، كانت على جانب عظيم من التعتيم وعدم الوضوح، نظراً لما يتمتع به من ذكاء، فهي بالطبع مقصودة. وظهر هيث بعيد النظر، في تقييمه للوضع في الجنوب الشرقي من آسيا، والشرق الأوسط، وحمل بتعليقات لاذعة، على رئيس وزراء استراليا الجديد اليساري، غوغ ويتلم الذي كان لتصريحاته المغلوطة وقع سيّء في نفس نيكسون عن قصف فيتنام ليلة عيد الميلاد. وأصبح توافق وجهات النظر أكثر بعداً، عندما وصلنا الى تدارس العلاقات الأطلسية.

وفي جملة ما قدّم من بيانات بليغة، عرض نيكسون المشكلة الأساسية، ان امريكا ذات الطابع الانعزالي الخطر، والمجتمع الأوروبي، المتقوقع على ذاته والحمائيّ، هما مشرفان على خطر الوقوع في نزاع جسيم، ان الرأي العام وواقع التسلّح الذرّي، يتطلبان بذل جهود مرئية، لتخفيف الضغوط التي تستطيع تحطيم الحلف، اذا لم نبادر إلى صياغة سلسلة أهداف مشتركة. وطالب نيكسون بريطانيا العظمى وأمريكا تشكيل فرق بحث، تكلّف بتنسيق التوجيه والاستراتيجية. كما اقترح اجتماع قمّة لكل قادة الديمقراطيات المصنّعة، يرمز الى إحياء التعاون بين الشعوب الحرّة.

فلم يستطع هيث، إلا ان يساعد في تشخيص المرض، وان يكون واضحاً في وصف الدواء. فوقّع بالموافقة على مطلب نيكسون. وأقرّ ضرورة القيام بمبادرة جديدة في سبيل العلاقات الأطلسية. لكنه في الوقت ذاته، يريد إرجاء البدء بالانضمام، طالما ان المؤسسات الأوروبية، لم يطرأ عليها تقدّم ملموس. ولم يقبل بتشكيل مجموعات البحث المشترك، التي اقترحها نيكسون. فعزونا هذا وبكل بساطة، إلى واقع «العلاقات الخاصة» التي لا تزال مزدهرة، وتؤكد عدم الحاجة الى فِرَق جديدة، و عُقد العديد من الاجتماعات بما فيها المحادثات، النصف شهرية، بيني وبين بورك تراند، حيث كان يمكن مناقشة جميع القضايا ضمن الأطر الموجودة.

ان تحفّظ هيث، لم يكن مبنياً على أسباب تعبوية، انما على اعتبارات فلسفية، وبهذا لم يفكّك الجهاز الاستشاري الحالي. اذ كان مصدر استعلامات مفيدة حسب رأينا. وكان يرفض ان توكل اليه مهمات جديدة. وكان يطالب بما يأتي: طالما ان اوروبا موحّدة، يجب عليها إعداد أجوبة على أسئلتنا. وكان عازماً على اجتناب كل شبهة تواطؤ للإضرار بانكلترا أو أمريكا.

كان موقف هيث على جانب من الغموض، لأن وزيره للشؤون الخارجية، السير اليك دوغلاس ـ هوم، وزملاءَه في وزراة الخارجية، كانوا لا يزالون محافظين على طبيعة من التعاون منظمة جيداً، وكانوا يبذلون أكبر جهد لتغطية، ما يقدم عليه رئيس الوزراء من مماطلة وتسويف. ومن جانبنا، فقد فسّرنا الصمت وكأنه رضا، طلما انه لا يوجد هناك شيء يدعو الى التنفيذ المباشر، واعتبرنا البريطانيين شركاء لنا في ما كان بالنسبة لنا المهمة المشتركة في تقوية الوحدة الأطلسية. وهكذا فقد فُضّ الاجتماع الذي كان يحضره هيث الى غموض، ولم نفهم أبداً مدى تقدّمنا.

طالما كنا نظن أننا في تنسيق مع هيث، حول الأمور السياسية (وهذا كان حقيقياً بالنسبة للقضايا العالمية) ووجود صعوبات على المستوى الشخصي فان العكس هو الصحيح في علاقاتنا، مع مستشار الجمهورية الألمانية الاتحادية، ويلّي براندت. أنا شخصياً كنت أحبّه كثيراً، أما نيكسون فاقل، وكانت سياسته تقلقنا. تحاشيت اعطاء صورة عنه في «البيت الأبيض» لأني كنت أخشى ان تناقضي الوجداني يُثير سوء تفاهم معه، وعليّ الآن محاولة ذلك.

كان براندت في بداية تعارفي به، في الخمسينيات، حاكماً لإحدى ضواحي برلين في أواخر الحرب، وكان يدافع بشجاعة عن حرية القسم الموكول إليه، وهو مستقيم، قوي، ودّي، صاحب حجّة، ومنعزل في الوقت ذاته بالنسبة للدراما، التي كان يقوم بأحد أدوارها

الرئيسية. وكان يُقاتل مدافعاً عن حريات شعبه، وغير مبالٍ بصورة غريبة بما كان يهددهم. وحصل لديّ انطباع، لو أن القدر لم يوصله الى ذاك المقام، لما وصل إليه وحده بكل تاكيد، ومن الأسباب الداعية الى ذلك، لو كان براندت ذا طبيعة انفعالية، لوجب عليه ان يتصرّف كثيراً بحدس مسبق آني، أكثر من مبدأ موجّه ومع كل هذا، كان هناك فارِق بين الدور الذي أوكله إليه القدر، ويقوم به على غاية الكمال، وبين اندفاعاته الخاصة. وما يقوله فهو عموماً مبتذل، ومايفعله، يعكس قضايا الساعة، دون تحديدها.

عانى براندت عشر سنوات من جرّاء ازعاج السوفيت له. وقاده ذلك بكل تأكيد، الى التفكير بطريقة تبدّد عنه ذلك الكابوس، ان تراخي امريكا خلال فترة ما بعد الحرب، الذي كان سبباً لبناء جدار برلين، أقنع براندت ان وحدة المانيا، أو على الأقل إنقاص الانقسامات الألمانية، لا يمكن الحصول عليه، دون العودة، بدون قيد أو شرط الى امريكا أو حلف شمال الاطلسي.

وقوّت العنصرية الألمانية استنتاجه الواقعي. وألزم براندت نفسه بالدفاع عن المصالح القومية الألمانية، بطريقة غير مباشرة جديدة، بالخفية مبدئياً ثم أخذ بالظهور شيئاً فشيئاً، لا بالمعاداة العاتية للسوفيت، التي يستخدمها كونراد اديناور، ولكن ضمن جهود معينة تقلّص من الضغوط والشكوك بين الشرق والغرب، علىأمل ان هذا سيحمل الإتحاد السوفيتي على إصدار أوامر بتخفيض الحواجز الفاصلة بين نصفي المانيا المقسّمة.

وما بدا وكأنه حساب عملي، حوّلته طبيعة براندت الانفعالية وبصورة تدريجية الى ضرورة بيسكولوجية. لقد لاحظ علماء النفس، ان الأسرى يجعلون من أسرهم أمراً محتملاً، ناسبين الى سجّانيهم كل الصفات العظيمة، الحقد وشكل آخر من الاحترام المتواجد معه. وكان يأمل من ذلك، ويحسب توقعاته ان الألم لابد سيؤول يوماً الى الانفراج، وبعد ان كان في صفوف المقاومة انخرط في الشيوعية، وجعل من نفسه مدافعاً

في سبيل تقليص الضغوط، واختطّ لنفسه خط سير جديد، وبراهين تتعلّق أحياناً بالحياد القومي. ان شخصية براندت النشيطة والحسّاسة، سمحت له بإتقان دوره المثالي في الحفاظ على السياسة الألمانية من الترجرج في فترة ما بعد الحرب.

من يستطيع نسيان ذاك المشهد التاريخي والمؤثر، الذي قام به مستشار ألمانيا أثناء زيارته لبولونيا، اذ ركع فجأة إكراما لضحايا مَجبَر فرسوفيا؟ وما ان يفقد براندت سلوكيته، مكملا ما أعدّه له القدر، فلن يكون لديه نشاط، أو مدى ثقافي يسمحان له بقيادة القوى التي حرّرها. فأصبح فعلاً أسيرها، واستسلم للموافقة، بدلاً من إيصالها الى حدود معقولة، أو الإحتفاظ بها سالمة لسياسة طويلة الأمد.

وعام ١٩٧٣، كان براندت، عرضة لضغوط سياسية، وفي خصام مع نفسه. عزوت في أول الأمر، صمته الطويل الكئيب إلى إنحطاط في قواه، ثم خطر لي بعدئذ، انه بعد أن أكمل مهمته العظمى، لم يبق لديه فعلاً ما يقوله، لكنه لا يستطيع التصريح ان مهمته قد انتهت. وكان حائزاً على موهبة نادرة بتجسيد آمال عالم أكثر انسانية، لكن عدم سيطرته على تحركاته، كانت تمنعه من الإحاطة بمنجزاته الخاصة. وكان هذا تناقضاً، وقد غيّر مجرى التاريخ، لذا أصبح مبتذلاً (ومن نواحٍ خطرة) ومن ثم، سعى لتسريع تلك اللحظة الحاسمة، وهذا مكّنه من إيجاد أعذار أكثر جرأة، وتعرّضاً للخطر، لتكوين شكل سياسي شرقي وغربي موفقاً بين القومية، ورفض كل مجابهة.

ان إسهام براندت في أحداث التاريخ، ساعد على اكتشاف وسيلة للعيش ضمن ألمانيا مجزّأة، الأمر الذي رفض الإقدام عليه، أسلافه في بون، طوال فترة ما بعد الحرب. وحسبما يسمى بالمذهب الهلّستيني، فان بون كانت فقد أخذت عهداً على نفسها، بقطع العلاقات الدبلوماسية مع كل حكومة تعترف بالتنظيم الشيوعي في ألمانيا الشرقية. وسعى براندت عن طريق سياسته الجديدة المتجهة نحو الشرق، الى

إقامة علاقات مع ألمانيا الشرقية، وتخلّى عن مطالبة ألمانيا بالأراضي الشرقية، التي كانت حينذاك قد ضمت الى بولونيا و الإتحاد السوفيتي . واذا امعنّا النظر ومن زاوية ما ان قرار التمزيق الذي أصدره براندت، بقبول تقسيم بلاده، كان بالفعل اعترافاً شجاعاً بالحقيقة. لأن توحيد ألمانيا، لا يمكن تحقيقه دون انهيار قدرة السوفيت، الأمر الذي لم تكن بون قادرة على إحداثه أبداً. وافقت الولايات المتحدة على هذا الجزء من السياسة وشجّعته. وطلبت ان يضاف اليه اتفاق يكون مقبولاً وضامناً لوضع برلين الحالي.

وبقي هناك مشهد آخر من سياسة براندت، لم نستطيع تجاوزه، لا سيما عندما كان يوضح افكاره عن طريق مؤتمن أسراره السياسي إيغون باهر. لأن براندت لم يكن يبيّن حقيقة سياسته، هل هي القبول بتقسيم ألمانيا، أم على العكس من ذلك؟، كان يبرهن ان ماهو بصدده ليس سوى وسيلة في سبيل تحقيق وحدة ألمانيا، فهو يقيم علاقات حسنة مع الشرق، ويحوّل ألمانيا الاتحادية، الى قطب جاذبية لاوروبا الشرقية. وكبرهان أولي على ذلك ستتحسن حياة سبعة عشر ألف مليون من سكان ألمانيا الشرقية، وستتضاعف الأسفار والتبادل، وتدريجياً حسب قوله، ستصبح العلاقات أكثر وثوقاً، وسيسقط الخط الفاصل بين أوروبا هذه وتلك.

وكنّا نتساءل من جهتنا، أي جانب من الحدود، يكون في الحقيقة الجهة الجاذبة. وكنا نخشى ان مع مرور الزمن، وبلا شعور، يجد العالم الشيوعي نفسه في موضع قوّة. ومن الصعوبة بمكان على الانفراج، معالجة شؤون الحلفاء الغربيين، لأن ذلك ربما يؤدي الى نشاط أكثر، وربما يؤخذ على محمل علاج نفساني، ويؤدي بالسوفيت الى عدم التبادل. وبالنسبة لبون فان جميع هذه الأخطار مضاعفة فعلاً، لأن الإتحاد السوفيتي كان يحتفظ بسبعة عشر مليوناً من الألمان كرهائن. وكنا نحن نتسائل في الوقت ذاته، عمّا اذا كانت ألمانيا الغربية قادرة ان تنظر الى الجانبين في آن واحد. ولا يكمن الخطر في

انسحاب حلف شمال الأطلسي. ولن تجرؤ اية حكومة المانية على الاستغناء عن هذه الحماية، ضد هجوم مباشر. وما كان يقلقنا، هو الميل الى تجنب المنازعات خارج اوروبا، حتى لو أدّت بالنتيجة الى الاستقرار. والكفّ التدريجي عن السياسات الغربية، ما عدا تلك التي تتعلّق بالدفاع الطبيعي عن أوروبا الغربية. وموقف أكثر ثباتاً في وجه التحدّيات السوفيتية، التي كادت ان تحرم الصمود الغربي من معناه. ولقد حدّثت يوماً مساعداً لي: أنني اتخوف من تلك اللحظة، حيث لا يكون أي مستشار الماني، على مستوى مواجهة العداء السوفيتي . وعند حدوث ذلك، فان الوضع يصبح خطيراً جداً. لم تتحقّق نبوءتي، لكنها كانت تكشف عن كثب ملحمة براندت الشخصية.

ورفاقه الرئيسيون في الحلف الأطلسي، كانوا يشاركوننا القلق، من جرّاء انحراف سياسة براندت. ان المحادثات التي كانت تجري باستمرار مع بومبيدو وهيث و نيكسون، كانت تتّصف دائماً بالخوف من أن سياسة براندت مع الشرق، تنتهي الى أن تكوِن أجلاً أو عاجلاً، عنصرية ألمانية كامنة، ولو كان ذلك عن غير قصد. ان المانيا قادرة وعلى وجه العموم مستقلّة، وتحاول ان تتذبذب بين الشرق والغرب، مهما تكن ايديولوجيّتها، ان المانيا هذه ستطرح التحدّي التقليدي لتوازن القوى في أوروبا، ولأن الجهة التي ستميل اليها المانيا، ستشكل مدخلاً الى التفوّق. وفي سبيل التحذير من ذلك، وربما موارية من حيث هذه الامكانية، فان كل واحد من نظراء براندت، وبما فيهم نيكسون حاول ردع المانيا، واتبع سياسة انفراج ناشطة وشخصية. وتجاوزت وقائع السياسة المتجهة نحو الشرق، المقصود منها في هذا المعنى. فشاركت في القيام بسباق لصالح الإتحاد السوفيتي . وانتهت الى مضاعفة الشكوك المتبادلة بين الحلفاء. أما بالنسبة لبراندت، فقد أصبح بعد استقالته، الناطق المتحمس لسياسة تتوقف على ضمانات حلف شمال الأطلسي، ومضمون تطبيقها الفعلي ليس سوى الحياد الأوروبي، وعلى الأقل، فيما يتعلق بالشؤون الخارجية في اوروبا .

وما كان يعتبر عاطفياً لدى براندت، كان بمثابة اهتمام فاتر لدى أيفون باهر، مساعد براندت الرئيسي في المفاوضات الدقيقة، والذي عرفته في اواسط الخمسينيات. وهو ذو طبيعة غير جذّابة، وبارع ثقافياً، ولا يعرف الكلل. وشكل القوة العاملة في تحريك سياسة براندت الموجهة نحو الشرق. ولباقته ومهارته كمفاوض. أوضحتا عدم الاستغناء عنه، في إبرام المعاهدات، بين بون والإتحاد السوفيتي ، وبولونيا والمانيا الشرقية، وكذلك في ابرام الاتفاق الذي جرى بين الدول ذات السيادة الأربع حول برلين.

وبعد التغلّب على بعض التحفّظات المبدئية، أقررنا نيكسون وأنا، تلك السياسة التي كان قد أوجدها براندت، والتي جوبهت بمعارضة كبيرة في الولايات المتحدة، وهنا عليّ ان أنوّه، ان باهر هو الذي كان يفاوضني في جميع المفاوضات الدقيقة وبالطرق السرّية بين البيت الابيض والمستشاريّة. وكنت أعرف انا وباهر، اننا الاثنان، ننطلق من مقدمات منطقية مختلفة، بل ومتعارضة، ولكننا وجدنا أنفسنا، وكأننا معجم مفردات مشترك يعبّر عن مصالح متوازية. وربما خطر للمراقبين الخارجيين ان يتساءلوا، من منا يخادع الآخر، اما الذين يبحثون جدّيا الشؤون الدولية، يعرفون ان سياسة مشتركة، لا يمكن أن تدوم إلا في حال وجود منفعة لكل من الفريقين.

ومهما يكن الأمر، فان باهر لم يكن يتطلّع بتردّد الى الوقت الذي يستطيع فيه التقرّب من موسكو. وهذا بالطبع عنصر ملازم لسياسة براندت. وكان ينشط كثيراً في سبيل ذلك. وكاني أرى في خطواته هذه المميزة مفتاح وحدة المانيا، وكان تصوّره لذلك يختلف عن تصوّر الكثيرين بيننا، ومردّ ذلك أنه موال للسوفيت. فهو على العكس من ذلك، قومي الماني على الطريقة القديمة. وعلاوة على ذلك فهو نصف يهودي، وحاول أن يكون ضابطاً خلال الحرب العالمية الثانية، وتأثّر كثيراً من عدم قبوله في ذاك

المنصب. وكان يسعى لاستغلال الوضع السياسي لألمانيا، لأغراضه القومية. وثقة باهر كافية بمهارته، ليصدّق نفسه انه يتمكن من تجنب المكائد التي أدّت الى النكبات في ظروف سابقة، عندما التزمت ألمانيا بسلوك خطّ عسير جداً.

وضمن هذا المنظور القومي الملتزم، تصرّف باهر في «عام أوروبا». وبحثت القضية معه ولأول مرة، خلال محادثة جرت في واشنطن في شهر كانون الثاني. وأخذت رأيه، في أوائل شهر نيسان، قبل أن أنشئ خطابي حول «عام أوروبا». ومثله مثل معظم المسؤولين السياسيين، كان باهر يستخدم كل البراهين لتدعيم تصوّرات صمّمها بنفسه. وفي إجابة وليدة تفكير عميق، ساند النظرية الاصطلاحية، فيما يختص بأهمية العلاقات الأطلسية. وفي المستقبل المنظور، كان يعتبر ان حماية أوروبا العسكرية تتوقف على الولايات المتحدة. وأي اختلاف في التنظيم الاقتصادي، يجب ألاّ يعرّض هذه العلاقات الى بحث مجدّد. لكن باهر كان يؤكد أيضاً، ان القضايا الأمنية قد تطوّرت جداً في هذه السنوات الأخيرة. وكانت قوة إستراتيجية الولايات المتحدة النووية، أساساً لأمن أوروبا. وفي حال خسارتها لمصداقيتها، فلن يقبل أي بلد أوروبي، بل حتى أوروبا بمجموعها، التضحية بإقتصادها المطلوب، في سبيل اختلاف دفاع اصطلاحي، قادر على ردع اجتياح سوفيتي. ومن خلال كل هذه البديهيات كان باهر يستخلص نتائج ثورية. ان التكافؤ السوفيتي الأمريكي، سيؤدّي بالقوتين الأعظمين، الى تحاشي كل امكانية تُحدث نزاعاً نووياً. ولكل منهما مصالح مشتركة تحول دون ذلك النزاع، وتحملهما على تأدية واجباتهما نحو خلفائهما. وبخصوص أوروبا، فاذا كانت لا تثق بتفوق أمريكا الإستراتيجي، ولا تريد ذلك، أو لأسباب سياسية داخلية، لا تستطيع بذل جهود تمكنها من حماية نفسها، فعلى أوروبا، ولا سيما ألمانيا الاتحادية، السعي إلى ايجاد أمنها، من خلال تقليص الضغوط مع الشرق. يجب إنقاص القوات العسكرية في أوروبا المركزية، لا

مضاعفتها، كما يجب مضاعفة الاتصالات بين الشرق والغرب. ومن خلال هذا المنظور، يُصبح تقليص الضغوط خياراً للسياسة الأمنية، لا أحد نتائجها.

وبالنتيجة، فان باهر كان يعارض الغاية الأساسية من تقرّبنا الجديد، ولا يريد سماع كلمة تنسيق سياسي ضمن الحلف، لأن تكتّلاً أطلسياً ستعوزه المرونة الضرورية للتوصل إلى الانفراج. وعلى أقل تقدير، تكون لكل بلد أوروبي حريته في علاقاته بين الشرق والغرب حسب مصلحته. ولم يفسّر باهر أبداً، لماذا لا يريحنا الإتحاد السوفيتي، في النتيجة من هذا الواقع، وهو المستفيد من وضع مسيطر، بسبب ما يعتري الغرب من متاعب، فيقوم بالدور الذي قام به باهر وبصورة نهائية، فيقتدي بنا نحن الذين خفّضنا عدد قواتنا المسلّحة ومن جانب واحد.. غير ان هذه العبارة تنطوي على ان أوروبا، ربما رأت نفسها في بعض الظروف، مضطّرة في سبيل مصلحتها على الانفصال عن الولايات المتحدة لتوسّع حرّية عملها تجاه الإتحاد السوفيتي . وهذا هو السبب الذي كان يحمل أوروبا على الدخول في الإستراتيجية السوفيتية للانفراج المغاير، وواضعة نصب أعينها، إثارة الديمقراطيات، الواحدة ضد الأخرى، وبالتالي فصل أوروبا عن أمريكا.

إذا كان تحليل باهر على صواب، فان التكافؤ النووي، سينقص من أهمية الحماية الأمريكية، ويأتي هكذا دور أوروبا الاصطلاحية فيُملي حلاً «سياسياً»، فيعتبر هذا طريقة عظيمة لتهيئة تسوية مع السلطة السوفيتية ويمكن ان يتحوّل هذا التطوّر إلى تقوية العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب.

أخذ ما دعي «بعام أوروبا» بكشف فوارق في الأهداف، لم تبحث حتى ذاك الحين، من قبل الولايات المتحدة، وقليل من حلفائها الاوروبيين. ان الخوف المشترك الذي وثّق وجود الحلف، خلال العقدين الأولين اللذين تبعا تشكيله، أخذ بالاختفاء،

وإذا فرضنا وجوده في جوّ ما، فليس هو سوى سبب لتهدئة موسكو، وفي الوقت نفسه تحديد لقرب تجمّع غربي. لم نتعرّف على كنه سلوكية هيث، عندما كان في الحكم، إذ كان ذلك يبعث التحفظ على شخصيته أكثر من تجريمه، أما بالنسبة لبراندت، فقد كنا نفهم عميق أفكاره، كنا نرى فيها خطراً كامناً، لم يصبح بعد حقيقياً. واستخلصنا منه وجوب التحفّظ منه، بتعزيز ارتباطات الحلف، وهذا شكل نقطة انطلاقنا نحو «عام أوروبا».

وحانت الفرصة الآن، في أخذ رأي فرنسا مجدداً، حول ما جرى منذ التقيت بومبيدو في شهر كانون الأول. فالتقيت في التاسع والعشرين من شهر آذار سفير فرنسا الجديد في واشنطن ـ جاك كوسيوسكو موريزت ـ لأتفق وإياه على طريقة البدء بالعمل.

لم يحصل كوسيوسكو على أية شهادة، فقد كان نتاجاً تقليدياً لمدارس كبرى. كان كوسيوسكو لامعاً، محلّلاً، ومجّرداً عن أي تحيّز، ويسلك سياسة خارجية على أساس المصلحة القوميّة، وهذا كان يحمله ان يضع موضع العمل، تصوّراً نُفِّذ في فرنسا قبل ثلاثة قرون على الأقل. لقد فهم مباشرة، اننا غير راغبين في اعادة فتح مناقشات الستّينيات. فلن نثير أية معارضة لسيادة أوروبا، ولن نهاجم أبداً قضيّة الهويّة القومية، التي طالما أشغلت بال دي غول. وأضفت قائلاً: ولن نبحث أبداً، حقّ أوروبا في سلوك سياستها الخاصّة، ان مانسعى إليه، هو التناسق في وجهات نظر جليّة، لا وثيقة قضائية تحظر السير وراء آراء متباينة، وعلى هذا الأساس، أثبتنا فكرة عقد قمّة تضم القادة المتحالفين، التي كان بومبيدو قد طرحها في ريستون في شهر كانون الأول. وللتمكن من البدء بذلك، اقترحت عقد لقاء بين بومبيدو ونيكسون. وأكدت على اهتمامنا الكلي حول هذا الموضوع فقلت: «ان الرغبة تحدونا في معرفة،

ما إذا كان العالم الغربي يتبع سياسة مقبولة، أو هل أصبحنا مثل الشعب اليوناني، وقد اكتسحنا العالم الخارجي».

فكان جواب كوسيوسكو، انه سيذهب إلى باريس لتلقّي تعليمات بهذا الصدد. وقبل تمكنه من العودة. كان حزب بومبيدو، قد أحرز انتصاراً ساحقاً في الانتخابات التشريعية. وفي التغيير الوزاري الذي تبع هذه الانتخابات، بدل بومبيدو وزير الشؤون الخارجية، الذلق اللسان، موريس شومان، بمشيل جوبير القدير، وبدا هذا التدبير وكأنه دلالة خير. لأني عرفت جوبير ذات يوم جميل في البيت الأبيض. بما أسداه إلينا من عون قيّم، في كثير من الظروف إذا كان حينذاك مستشاراً لبومبيدو، ونظيري في الأليزيه. وفي أوائل شهر نيسان، عاد كوسيوسكو إلى واشنطن، حاملاً موافقة فرنسا على عقد قمّة فرنسية ـ أمريكية، وتقربّنا بوجه العموم، من عام أوروبا، لم يكن ليثير أية معارضة.

ومثل كل مرة، فان الإعداد لمكان عقد القمّة بين نيكسون وبومبيدو، كان مدعاة للمصاعب، بسبب أنفة الفرنسيين الحسّاسة. وكان نيكسون مديناً لبومبيدو بزيارة، لقاء الرحلة التي قام بها الرئيس الفرنسي الى الولايات المتحدة خلال آواخر شهر شباط وأوائل شهر آذار من عام ١٩٧٠. وباريس لا تريد استقبال نيكسون بمناسبة الجولة التي يقوم بها في أوروبا. ولا نستطيع من جهتنا، الذهاب إلى أوروبا، وهدفنا زيارة فرنسا فقط، دون أن نسبّب قلقاً لكل حلفائنا الآخرين. وهكذا أدّى بنا الأمر، كما في مناسبات عديدة، إلى تحديد إحدى جزر المحيط الأطلسي. وقادنا تفكيرنا إلى جزر «الآسور» عام ١٩٧١. وبهذه الطريقة، كنا قادرين وبصورة دقيقة، ان نتوقع الظرف، الذي تبدأ فيه العلاقات الفرنسية الأمريكية، بالركود بسبب عدم وجود جزر، تسمح لزعيميهما باللقاء.

وفي الثالث عشر من شهر نيسان، قدمت لكوسيوسكو الخطوط العريضة لخطاب حول «عام أوروبا» والذي كنت آمل إلقاءه في الثالث والعشرين من شهر نيسان. ولم تثر باريس أي اعتراض، واعتبرنا هذا الصمت دليل رضا.

ولم يبق علينا سوى أخذ رأي ايطاليا، في مشروع يفرض عادة تعارضاً من هذه الجهة أو تلك. وكان الزعماء الايطاليون يطالبون، ان يعاملوا على قدم المساواة، أسوة بنظرائهم من البلدان الأوروبية الأخرى ذات القيمة المماثلة، لكنهم على غير استعداد، لإثارة أزمة داخلية، لتنفيذ مشاريع أمريكية، وعلى الأقل، عدم تعريض علاقاتهم للخطر، مع الأعضاء الآخرين في المجتمع الأوروبي، وكانوا راغبين في الالتزام دون نقاش. ونحن عزمنا على استشارة دون التزام.

ان الزيارة الرسميّة، التي قام بها رئيس مجلس الوزراء الايطالي جيوليوم اندريوتي إلى واشنطن، في السابع عشر من شهر نيسان، أفسحت أمامنا المجال لتقديم براهيننا، فكتبت لنيكسون قبل اللقاء قائلاً: «يمكننا الاعتماد عليه (اندريوتي) في الدفاع عن مهمتنا لدى زملائه الأوروبيين، وفي حدود وضعه الداخلي، ووزن إيطاليا السياسي المتواضع». وكان هذا الوصف الأخير أكثر أهميّة مما نقوم به من مبادرات، إذ كان يعني في الحقيقة، عدم توقع أي معونة من روما، لأن وضع اندريوتي الداخلي ضمن المجتمع، كان ثانوياً، وطرق معالجته للامور كأستاذ، كانت تخفي وراءها ذكاءً سياسياً مشحوذاً، وكان شديد الاهتمام بالسياسة الخارجية، أكثر من جميع أسلافه، الذين التقيتهم. وآخر شيء كان يمنّي به نفسه، هو إضافة السياسة الخارجية إلى المشاكل التي ترهقه. غير ان رئيس الوزراء الايطالي هو بالفعل رئيس مجلس وزراء. وليس هو برئيس السلطة التنفيذية. فلا يمكن الاطمئنان إلى ان وزير شؤون خارجيته، يقوم تنفيذ أوامره. إذ أن هذا يتوقف على وضعهم الخاص في لجان الحزب الديمقراطي المسيحي، أكثر مّا يتوقف على المراتب الحكومية.

كرّس اندريوتي جُلّ نشاطه، للسير ضمن هدي طريقة سياسية جديدة عنيفة قليلاً، في مجال عمل ضيّق جداً. فمنذ عشر سنوات، والانفتاح نحو اليسار، يهيمن على السياسة الايطالية، وتسدّ الولايات المتحدة الباب أمامها منذ أوائل الستّينات، ووجهتها إشراك الاشتراكيين في الحكومة، ليتمكن هؤلاء من سدّ الطريق أمام الشيوعيّين، فلو كانوا متّحدين مع الديمقراطيين المسيحيين في المجال القومي، لشكّل الاشتراكيون نوعاً من الائتلاف مع الشيوعيين في المجال المحلّي. فأصبح والحالة هذه وضع برنامج مترابط وهام شبه مستحيل. والطريقة الوحيدة للتغلّب على هذه المعضلة، هي تجميد كل تجديد يزيد الأزمة اتّساعاً، وهو آخذ على عاتقه حلّها.

سعى اندريوتي للخروج، من هذا المأزق المعقّد، من خلال جعل الأحزاب المنبثقة عن الاشتراكيين الديمقراطيين، كتلة فعّالة (علماً ان الاشتراكيين غير راغبين في التعاون مع الشيوعيين) تنضم إلى الحزب الليبرالي، المؤيّد لهذه المبادرة الحرّة، ولكن إذا غدا هذا التجمّع أكثر تجانساً ايديولوجياً، من «الانفتاح نحو اليسار». فان الحسابات البرلمانية لن توافق عليه. والأغلبية فيه هيكليّة، خصوصاً وان الديمقراطيين المسيحيين، لم يكونوا قادرين على تشكيل حزب بل هم عبارة عن اندماجة حزبيّة. تضاف إلى الجناح اليساري الذي انفصل عن الشيوعيين. والجناح اليميني، الذي لم يكن ليتميّز عن الفاشست، إلا عند ذكر تلك الكارثة القوميّة. وكان على ايطاليا ان تختار، بين تعايش أيديولوجي وثمنه تغيّر برلماني، أو استقرار برلماني، مهدّد بفوضى فلسفيّة، لكنه في النهاية حقيقي وثابت.

ان جوهر المحادثات، التي جرت بين اندريوتي و نيكسون، لم تأتِ على ذكر «عام أوروبا» ولا عجب في ذلك، لكنها اتّجهت نحو دقّة ما يجري على الساحة الايطالية الداخلية، من حيث ان الوحدة القومية، لم تكن نتيجتها سوى نقل ما يجرى خلالها من تعقيدات دون هوادة في شؤون الدول، نقل هذا إذاً إلى الحلبة السياسية الرومانيّة،

ولم يجد أندريوتي بدّاً من الإفضاء بتلك الفكرة القوميّة الثابتة، وهي نظراً لأن ايطاليا بحكم موقعها الجغرافي، مجاورة للشرق الأوسط، لذا فهي مطالبة بالإسهام في وضع حلّ للمشكلة. إن جميع من التقيت، من الزعماء الايطاليين، أعادوا على مسامعي هذه العبارة، ولم يتصرّف أياً منهم وكأنه يعتقد بذلك حقاً.

وعد اندريوتي بمساندة هامّة، في حال طرح مبادرة جديدة، في مجال السياسة الأطلسية ولم يبين نوع المساندة، ومع ثقتنا بحسن التفاته، فإن الحكومة الايطالية، لن تضع نفسها في الصف الأول من مبادرة جديدة.

انتهت مرحلة الاستشارات في التاسع عشر من شهر نيسان لعام ١٩٧٣، وكان السير بورك تراند، موجوداً آنذاك في واشنطن، ليقوم بأحاديثه المألوفة، فسلّمته مسودة لنص خطابي، الذي سأعلن فيه عن مبادرة أطلسيّة. فأظهر تفهّماً مقبولاً، ولم يصدر عن لندن أيّ تعليق انتقادي، ولا شيء آخر غيره.

ولربما استنتجنا، من عدم ورود أجوبة دقيقة حول استشارتنا، أن حلفاءنا، الذين منذ سنوات، وهم يطالبوننا بمنح أولوية كبرى للعلاقات الأطلسية، هم في طريقهم إلى خداعنا، وبمقدار ما كنا نبدي اهتمامنا للتحفّظات الأوروبية، فمع ذلك كنا نرى فيها سبباً إضافياً يحملنا على بذل جهود وبلا انقطاع، في تهيئة خطّة لأهدافنا المشتركة، وكنّا نعتقد ان الطريقة الفضلى في تجنيد الأفكار، هي عرض اقتراح رسمي.

❑ ❑ ❑

منذ أربع سنوات، أصبحت مستشاراً للرئيس. لشؤون الأمن القومي، ولم ألقِ خلالها خطاباً رسمياً أمام الجماهير، حول موضوع هام. لذا فإن كلمتي الموجزة

عن "عام أوروبا" كانت بمثابة تجربتي الأولى. وصادف يوم إلقائي هذه الكلمة، الثالث والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٧٣، يوم يجتمع فيه سنوياً رؤساء تحرير الأسوشيتد بريس، في ولدورف استوريا بنيويورك، ولم يدر بخلدنا، أنا ونيكسون، إثارة نقاش ما. وجلّ ما كنا نقصده، هو تدشين حقبة إبداع في المجتمع الأطلسي.

فبدأت بالتأكيد على تسميتنا عام ١٩٧٣ "عام أوروبا" لا لأن أوروبا كانت سابقاً أقل أهميّة، ولكن لأن هناك ظروفاً جديدة تتحدّى البلدان الحرّة:

"إن عام ١٩٧٣، هو عام أوروبا، لأن الحقبة التي سوّتها قرارات الجيل السابق قد انتهت الآن. ونجاح هذه السياسة، أعطى إنجازات جديدة، تتطلّب تقرّباً جديداً أيضاً:

- إن نهضة أوروبا الغربية هي واقع مكين، كما هو عليه نجاح خطّها التاريخي نحو وحدة اقتصادية.

- أن توازن القوى العسكري والاستراتيجي بين الشرق والغرب، قد تحوُل من تفوّق أمريكي، إلى شبه تساوي، وحمل معه ضرورة تفاهم جديد حول متطلبات أمننا المشترك.

- هناك دول أخرى في العالم، أصبحت لها أهميّة متزايدة. كما أن اليابان أصبحت أيضاً قوّة كبرى، وفي العديد من المجالات، فإن الحلول الأطلسية حتى تضمن لنفسها البقاء، تستوجب احتواء اليابان.

- إننا نجد أنفسنا في حقبة انفرجت فيها الضغوط. ولكن بمقدار ما تقلّ الانقسامات العنيدة، التي سادت خلال العقدين السابقين، سينبعث تثبيت هويّة جديدة ومنافسة قوميّة.

- لم نكن نتوقع، منذ جيل، طغيان مشاكل، تطلّبت على الأثر أنظمة جديدة للتعاون، كضمان تزويد *الطاقة للدول الصناعية*".

إن فكرة رحلة رئاسية إلى أوروبا خلال السنة الحالية، أصبحت مؤكدة تماماً في أذهان المسؤولين، حتى لدى الرأي العام، فأخذت أعالجها وكأنها أمر مقرّر، ووضعت برنامج عمل لتنظيمها. وقررت في داخلي أنه، عندما يتوجّه الرئيس إلى أوروبا، نحو أواخر هذا العام، يجب علينا وعلى حلفائنا إعداد "ميثاق أطلسي جديد" أو بيان مشترك لما ينوي عمله. إن القضايا التي كان علينا مواجهتها مجتمعين مثل الدفاع، والتجارة والعلاقات بين الشرق والغرب، لابد وأن تتطلّب تنسيقاً لتقرّبنا القومي. ثم صغت هذه التصوّرات المختلفة بطريقة، سوف أندم عليها قريباً:

"أن الدبلوماسيّة تشكل موضوع المشاورات المتواترة، لكنّها مسيّرة وبصورة خاصّة من قبل دول وشعوب تقليدية. وتقع على الولايات المتحدة مسؤوليات، ولها مصالح عالمية. ولحلفائنا الأوروبيين مصالح إقليمية. إن جميع هذه الاهتمامات ليست بالضرورة في تنازع، لكنها ستصبح في الحقبة الجديدة أكثر تطابقاً وبصورة تلقائية".

إن القصد من خطابي، هو عرض الطريقة، التي كانت الولايات المتحدة مستعدّة للمشاركة في تقوية الحلف، وما كنّا نؤمله من أوروبا وقد أكدت:

"سنكمل مساندتنا للوحدة الأوروبية. وسنقوم بالتزامات، مبنيّة على مبادئ المشاركة، إثر تطوّرها، أملين الاستفادة بالتبادل.

"سنحافظ على الالتزامات المعلنة التي قمنا بها نحو حلفائنا. وسنحتفظ بقواتنا ولن ننسحب من جانب واحد من أوروبا. ولقاء ذلك، ننتظر من كل حليف أن

يسهم بإنصاف في سبيل الدفاع العام. (سنكمل السعي لتقليص الضغوط بيننا وبين خصومنا، على أساس مفاوضات واقعيّة، ضمن المصلحة العامة، أملين إسهام أصدقائنا في محادثات بنّاءة بين الشرق والغرب.

"لن نلحق أي ضرر أبداً وعن عمد، بمصالح أصدقائنا في أوروبا وآسيا. ونقدّر أنهم لقاء ذلك، سيتبعون سياسة، تهتم جدّياً بمصالحنا ومسؤولياتنا.

كان هذا الخطاب يهدف إلى إحداث حقبة جديدة من الإبداع بين الديمقراطيّات المصنّعة. وفي الداخل، كنا نمنّي أنفسنا تجاوز ما أورثتنا إياه حرب فيتنام من دمار مريع. أمّا في الخارج، فإننا كنا نحاول تجاوز الخصومات الاقتصادية المثيرة وغيرها، وتوحيد حلفائنا، حول رؤية مستقبل جديد. لكن الظرف الذي ألقي فيه هذا الخطاب، الذي أعددته قبل شهر، تكشّف عن جوّ مشؤوم.

فقد كان رد فعل حلفائنا غامضاً ولم يسارع أحد منهم بالالتحاق بالمسيرة. وهو ما يدل على معارضة واضحة لفرصة طيّبة مع مشروع مارشال. وارنست بيفن، الذي كان حينئذ وزيراً للشؤون الخارجية البريطانية، أخذ على عاتقه مسؤولية تنظيم جواب أوروبا الإيجابي. وعند اختتام اجتماع لمجلس الوزراء الفرنسي، في السادس والعشرين من شهر نيسان، علّق ناطق فرنسي على خطابي بموضوعية حقيقية، قائلاً: أن اقتراحاتنا تستحق دراسة معمقّة، تقوم بها باريس "بروح نتبناها نحن، بالبقاء على ولائنا للحلف، في إطار احترام استقلالنا" وهذا ما يمكن تفسيره حسب أرادتنا.

وفي اليوم ذاته، ذكرت سفير فرنسا، أن اقتراحاتنا تعكس ما قدّم بومبيدو من ملاحظات، في شهر كانون الأول الماضي. وكنت بدوري جئت على تفصيلها إلى

كوسيوسكو ـ موريزت في شهري آذار ونيسان. فلم ينكر كوسيوسكو ذلك. وغمغم قائلاً، لا يليق بنا أن نحصر أوروبا في "دور إقليمي" كما هو وارد في خطابي. فأجبت: "ليس من أهدافنا أن تقوم أوروبا من جانبها بدور عالمي، ولم نلاحظ حتى الآن أية رغبة لديها في القيام به". عاد حينئذ كوسيوسكو وأخذ ببحث جوهر الموضوع فقال: أن من الصعب على أوروبا، أن تجيب بصوت واحد، على مشروع كبير كهذا.

وفي الرابع والعشرين من شهر نيسان، أصدر مكتب الشؤون الخارجية تصريحاً وديّاً جاء فيه: اني القيت خطاباً يستحق الاهتمام، لما ورد فيه من عناصر بنّاءة. وذكر أيضاً، ان بريطانيا العظمى ستعكف على دراسته عن كثب مع حلفائنا الاوروبيين. وبالطبع ستعود لندن في ذلك إلى فرنسا بصورة خاصّة. ان وزير الشؤون الخارجية، السير أليك دوغلاس ـ هوم، الذي كنّا نقدّر فيه سلفاً نزاهته وتفانيه نحو العلاقات الامريكية ـ البريطانية، قدّم ملاحظة وديّة، في السابع والعشرين من شهر نيسان، دون توجيه أيّة تهمة فعليّة:

«ان الموضوع الرئيسي لخطاب الدكتور كيسنجر، والتصريحات الجديدة التي أوردها وزير خارجية أمريكا، توحي جميعها باستمرارية الثقة والتعاون بين اوروبا الجديدة الموسّعة، و الولايات المتحدة الأمريكية. وأضاف ان أفق هذا التعاون يجب أن يمتد حتى إلى اليابان وكندا. واني أوافقه على أفكاره. وإذا كان هذا يجلب بعض التعقيد إلى المفاوضات، وتوسّع مثل هذا، لم يكن أقل ضرورة لضمان الازدهار في جوّ من الأمن».

رحبّت حكومة ألمانيا الغربية. بمساندتي للوحدة الأوروبية، لكنها تحاشت إضافة التزامات على ما كانت قد التزمت به سابقاً، وحجّتها في ذلك أن المستشار براندت، عازم على التقاء نيكسون، بعد أقل من أسبوع عند قيامه بزيارة واشنطن.

كما رحّبت إيطاليا أيضاً، وأبدت تشككها في مساهمة اليابان، محتاطة لجميع ما يتوقع حدوثه في جميع الجهات. أمّا البلدان الأوروبية الصغيرة، فقد أجّلت اتخاذ أي قرار، إلى أن يجتمع وزراء المجتمع الأوروبي، خلال بضعة أسابيع من هذا التاريخ. وتساءل اليابان، وتساؤله كان منطقياً، عمّا يدعوه إلى الانضمام للميثاق الأوروبي. والواقع أن وزيره للشؤون الخارجية كان متوجهاً إلى أوروبا في هذا الوقت، فوفّر عليه الإجابة المباشرة.

وعند وصول وزير الخارجية الياباني إلى باريس، صرّح وبصورة غريبة، أنه يوافق على مشروع الميثاق الجديد الأطلسي، وهو متفهّم للفكرة جيداً. وبقي جواب اليابان كامل الغموض، بنوع أنه لم يكن يدلّل على اشتراك اليابان بهذا الميثاق. وطوكيو لن تربط نفسها بتفسير زائد حول ذلك.

وليس بالعسير أن نستنتج أن جميع شركائنا الرئيسيين، وجدوا لأنفسهم أسباباً، لتأجيل أجوبتهم على مبادرة أمريكية هامّة تدعوهم إلى الالتزام. وظهر هذا أكثر وضوحاً، عندما وصل ويلّي براندت إلى واشنطن في الأول من شهر أيّار، بمناسبة زيارة رسميّة. ويا للأسف، في أن أول محادث أوروبي، يتحدث إلى نيكسون حول "عام أوروبا" كان رجل الدولة الأوروبي، الذي تسيء إليه سياسته، والذي ربما كانت شخصيته (براندت) أكثر تنافراً مع شخصية نيكسون.

ويمكننا اختصار موقف نيكسون، بردّ فعل صدر عنه تجاه رسالة وردت إليه، قبل زيارة براندت، من قبل الروائي الأمريكي، هانس هاب. كان فيها هاب يتهم براندت بتدمير الحلف الأطلسي وعن تصميم، ويحثّه على ذلك تعصّب عدائه للأمريكان. ولأن كل الرسائل التي ترد للرئيس، وفيها معالجة لشؤون السياسة الخارجية، كانت لابد وان تمرّ بمكتبي، حيث كنت أضم اليها على الأغلب موجز أو

مذكرة تحليلية. ولذا ألحقت الرسالة بمذكرة من هذا النوع في الخامس عشر من شهر آذار. فأعادها إلي نيكسون مع هذه الحاشية: «ك ـ تحليل دقيق جداً ومقلق جداً. وأعتقد انه قريب جداً من الحقيقة».

لو أن نيكسون كان قليل الثقة، فان براندت كان يفوقه كثيراً. فكان هادئاً وبصورة غريبة، لكن من يفقّط اهتمامه بهندامه وجلسته، لا بدّ وان يتبادر إلى ذهنه انه بحاجة إلى جهد كبير، من الانضباط النفسي، ليتمكن من التغلّب على شكوكه، إذ كان يتحسّس اشمئزاز براندت نحو رئيس أمريكي، لكن صعوباتنا الداخلية، قلّصت مع ذلك أهمية تلك الشكوك المتبادلة، وكان نيكسون قد ألقى الخطاب الذي أعلن فيه عن استقالة هالدمان و اهرليخمان عشيّة لقائه براندت. وهذا القرار أسخط نيكسون أكثر من أي قرار آخر. وجرى ذلك نحو خمسة عشر شهراً قبل استقالته هو نفسه. وقد توصّل ما أظهره من أرادة عفوية واتّزان، ألاّ يبدى أيّ تأثّر منذ بداية زيارة براندت حتى نهايتها.

وعلى العكس من ذلك، فإن نيكسون على طريقته المهذّبة، أخذ يتحدّث إلى المستشار بكل رزانة وتفكير. وعلينا ان نعلم جيّداً، ان فكر نيكسون كان شارداً، عندما يأخذ المستشار دوره بالكلام، وإذا حدّق أي شخص بنيكسون كان يتمكن من ملاحظة نظراته السوداويّة الكئيبة، ونبرات صوته الفاترة، إذ أنه بمقدار ما كانت تتكشف أمور فضيحة واترغيت، كان لزاماً ان تظهر عليه علامات الألم الداخلي. أمّا أفكاره فكانت نائية بل سابحة في عالم آخر منعزل وبعيد، فيضطر كل يوم إلى استجماع قوّته واستعادة أفكاره، ولم تبدّ عليه دلالة على شقائه. وتلميحه الوحيد حول قضيّة واترغيت، كان ملاحظة أعادت إليه صوابه، وكان أشبه بولد صغير في ليل بهيم يشجّع نفسه على رفع صوته ليستطيع الاستمرار في سيره، وحدت به شجاعته إلى التصريح بأن جميع ما يحدث عندنا من مناقشات داخلية، لن تؤثّر أبداً على

سياستنا الخارجيّة. وكان يتمتّع بخبرة كافية لخداع نفسه، وهو في الوقت ذاته يدرك انه لا يستطيع قول اي شيء آخر.

اني غير واثق من تمكن براندت من معرفة ما كان عليه نيكسون من آلام، ويلزمه جهد كبير ليدرك بعض الشيء منها وأقرّ بعجزي عن تفسير ما طرأ على سلوكه من تغيير. وما حدث لديه لم يكن سوى تنوع في أفكاره، يستدي تنظيم نهائي بعلاقاته مع الآخرين. وإذا كان ذلك صادراً عن تصميم أولا، فعلى كل حال، لقد أصبح براندت غير مبال، فظهر عليه وعلى غير عادته الجزم والصراحة فليست لياقته المستحدثة ولا مواقفه القديمة الثابتة، التي أدّت به إلى قطع محادثات سابقة، والتي أسهمت بقسط كبير في حمل نيكسون أن ينفذ صبره، وقبل سنتين بقليل، إنقاذاً من نيكسون لبراندت في سياسة أراد اتّباعها، أوعز إلى (نيكسون) لمساندة مفاوضات برلين، لدى السفير السوفيتي أناتولي دوبرينين. ومع ذلك، فان براندت في هذه المرّة لم يكن على استعداد لمعاملته بالمثل. والسرعة التي أعلن فيها عن جدول الأعمال عكست إستراتيجيته، وهي عدم تسوية أي شيء.

زعم المستشار براندت، أنه يُقرّ مبادرتنا، ولم تكن حاجتنا إلى كلام معسول ومشجّع، ولم يُقدم بعد ذلك على طرح أي اقتراح حول تنفيذ ما كان يدّعي تأييده. وكان في الوقت ذاته، موافقاً على إجراء محادثات أطلسيّة عامّة، حول القضايا الاقتصادية، والسياسية والأمنيّة، لكنّه لم يقترح أيّة إجراءات لتنفيذها، ولم يكن يعتبر أنه من الضروري إجراء مفاوضات آنيّة على جميع هذه المشاكل. إن عدم القدرة على الاتفاق في موضوع ما، يجب ألاّ يحجز ما أُنجز في مجالات أخرى، بحسب قول براندت، الذي كان يسترجع بإحدى يديه ما أعطته الأخرى. وإذا أخذنا بعين الاعتبار، عدم ضرورة التقدّم في جميع نواحي المفاوضات العامة، فإن

هذا يعود فعلاً بالضرر علينا، وجعل اقتراحنا بلا معنى، لأن ليس هناك من ينكر ضرورة إجراء محادثات منفصلة في جميع الشؤون الشائكة.

وبيّن براندت عن أمله، في أن يتّبع المفاوضون المكلّفون بدراسة الشؤون الاقتصادية، توجَهاً سياسياً، واحتفظ بتحديد طبيعة الأهداف السياسيّة الواجب الوصول إليها، أو الوسائل الواجب استخدامها في سبيل ذلك. وكان يبدي اغتباطه من زيارة الرئيس (نيكسون) لأوروبا، وطرح فكرة إمكانية لقاء رؤساء الحكومات المتحالفة، عند انعقاد مؤتمر قمة، في إطار حلف شمال الأطلسي.

وهنا عاد براندت فأكد اقتراحه السابق قائلاً: بشأن اجراء مفاوضات مع المجتمع الأوروبي الموسّع حديثاً، يمكن ان يلتقي الرئيس وزراء الشؤون الخارجية، خلال إقامته في بروكسل، في حين انه من العسير الطلب إلى الرئيس الالتقاء بوزراء الشؤون الخارجية، ورؤساء دولهم موجودون في المدينة نفسها، لحضور اجتماع حلف شمال الأطلسي. ولن يستطيع اجتماع كهذا، اتخاذ أي قرار، ومردّ ذلك إلى اختلاف في الآراء والطبقات، ولم يلّمح براندت أبداً إلى مشروعنا حول ميثاق أطلسي، وإكتفى عند تبادل الأنخاب الذي جرى، أثناء حفل العشاء الرسمي الذي أقيم على شرفه، بتلطيف الحملة التي أثارها جوابه المحدود جداً الذي فاه به في السابق. وأردف قائلاً: انه غيرمستعد ان يلتزم نهائياً، حتى في الأمور التي وافق على بحثها.

«ما من أحد منا نحن (رؤساء الدول الأوروبية، الذين حضرنا إلى واشنطن) لا يلتقي بكم، بصفته ممثلاً لبلده الخاص فقط، بل في الوقت ذاته وإلى حدّ ما، كونه ممثلاً للمجتمع الأوروبي.

«لذلك فاني أنا هنا أيضاً، لا كناطق بلسان أوروبا، بل كمتكلم بشؤون أوروبا».

ولقد قبلنا راضين بهذه العلاقة النظرية من العلاقات بين المجتمع الأوروبي و الولايات المتحدة. وجوهر المشكلة هي إعطاء تفسير عملي خلال فترة تشكيل الوحدة الأوروبية. ولما كان لا يوجد مؤسسات سياسية أوروبية كان عسيراً اجراء اتصالات مع أوروبا. وكان براندت يضعنا فعلاً أمام معضلة لا تُحلّ. فاذا كان كل زعيم أوروبي يعتبر نفسه انه يتكلم بشؤون أوروبا، ولا يستطيع تمثيلها، ولما كان من يمثّل أوروبا، ليسوا سوى فئة من الموظفين، لا قدرة لهم على اجراء المفاوضات، فمن له صلاحيّة التنفيذ إذاً؟

وإذا كنّا لا نزال مشككين، في أن براندت جاء إلى واشنطن، ليقوم بعرقلة الأمور، فإن تصريحات الوفد الألماني للصحافة أزالت كل غموض ولقد علمنا، والدهشة تلفّنا، أن جميع الأوساط الألمانية كانت تردّد: أن تعليقنا العام الأخير حول "توازن القوى بين الفرقاء" كان بمثابة تنازل غير مباشر من قبلنا، عن كل رغبة في السيطرة، وهذا بالطبع مطمح لم نكن لنعلم به. ورُحّب بإسقاط كلمات "الميثاق الأطلسي" في التعليق وكأنه انتصار، كما لو أن تحاشي اقتراح أمريكي، يربط مصيرنا النهائي بأوروبا كان برهاناً على هيمنة سياسية. وكانت فضيحة واترغيت الحاجز الغير مباشر في تصريحات الوفد الألماني، كأسلوب ضغط فعال ضدنا.

إن ردّ الفعل حول تقرير عن سياسة الرئيس الخارجية، الذي نشر في الثالث من شهر أيّار، كان البرهان على ما كنّا نعتبره تحفظاً من قبل أوروبا، لا يمكن تفسيره. وكان هذا التقرير هو الوثيقة الرابعة من هذا النوع، التي أُقرت خلال ولاية نيكسون، وهو كناية عن محاولة انفرادية من الرئيس، لعرضٍ سنوي عن توجهات سياسة الرئيس الخارجيّة. متضمناً أهم الأحداث الممكن إشهارها، بدلاً

من تصنيفها في جدول إداري. وكان المقصود إعطاء الكونغرس، والرأي العام، والجماهير، والزعماء الأجانب، لمحة عن تفهمنا للأمور.

على الرغم من بذل كل الجهود، لم نصل أبداً إلى هدفنا الرئيسي. فالتقارير المرفوعة حول السياسة الخارجية، كانت تؤول إلى مباحثات عامّة معمّقة. وقابليّة العامّة المتزايدة نحو الاطلاع على كل شيء جديد، تلقي بعض الضوء على ذلك، وادراك الأمور والتعرّف على أهدافها، هما جدّ معنويّين، فلا يمكن والحالة هذه اعتبارهما مختصّين بالصحف. وورد سبب آخر وهو الطول المتزايد للوثيقة (إذ ان الوثيقة الأولى، كانت تعد مائة وستين صفحة مطبوعة، أما الرابعة فكان عدد صفحاتها مائتين وأربعاً وثلاثين) الأمر الذي لا يسمح إطلاقاً للصحفيين حتى من ذوي النوايا الحسنة، ان يقدروها حقّ قدرها. وربما لم يخطر ببالي تقديمها للصحافة، لأني لا أريد أبداً معالجة مثل هذا الموضوع، طالما أني المسؤول الأول في هذه المهمّة. ومهما يكن الأمر، وعلى الرغم ممّا لحق بالمؤلفين من قلق، وحرمان عوائلهم من مرافقتهم خلال أسابيع، فان الجماهير الأ مريكية، لم يكن يروق لها سوى الاطلاع على الفصل الذي كان يعالج قضايا الهند الصينيّة. وبعودة سريعة إلى الماضي، يجب الأخذ بعين الاعتبار، الإدراك القومي لشؤون فيتنام، على الرغم من ان دراسة موضوعية، سمحت بالكشف عن دلائل هامّة عن سير سياستنا تجاه الصين و الإتحاد السوفيتي ، وما بقي من التقرير، قُرئ بعناية في المستشاريّات، ومن قبل صحفيّين ونقّاد مجدّين، فاطّلعوا منه على تفهّم عظيم للأمور من قبل مسؤولين كبار.

وفي عام ١٩٧٣، اعتقدنا اننا توصّلنا إلى وسيلة، نُجنّبُ فيها استحواذ قضيّة فيتنام على أفكار الجماهير، ولذلك فقد أجّلنا تعميم التقارير، حتى اختفى الموضوع كليّة من الصفحة الأولى من جميع الصحف. ونيكسون نفسه قدّم التقرير الرابع في الثالث من شهر أيّار، سبقه بخطاب موجز في الاذاعة والتلفزيون، وقام بهذه الحيلة

الداهية وليم سافير عام ١٩٦٨، ليتمكن من التكلم عن ترشيح نيكسون. وحسب رأي سافير، فان الاذاعة هي عبارة عن جو، يسمح وبسهولة اعتبار المتكلم بمثابة رجل مفكّر، دون التعرّض لمهاجمته في الصميم. وكان التقرير يؤكد وبقوّة، التزام أمريكا نحو حلف الأطلسي، ويدعو اوروبا بإلحاح للإسهام بأهداف مشتركة.

«وبمقدار ما كانت تخِفّ الضغوط بين الشرق والغرب، أخذ نفر من حلفائنا بالتساؤل، عمّا إذا كانت الولايات المتحدة تحافظ على التزاماتها نحو أوروبا أو أنها تفضّل السعي نحو توازن قوى جديد، تُحلّ بموجبه التنظيمات القديمة ويختفي التفريق بين حليف وخصم. لكن الولايات المتحدة لن تتساهل أبداً في أمن أوروبا. وفي مصالح حلفائنا. والطريقة التي تحملنا على الوثوق بوحدتنا، لاتتوقف على إصدار وعود شفهيّة بل في معرفة أكيدة، اننا قد جدّدنا خياراتنا وسياستنا العامّة. وها قد مضى ما يقرب من عشر سنوات، ولا يزال الحلف يناقش قضايا الدفاع والأنفراج السياسي، فكان بعضهم يوصي بعمل كذا، بينما يوصي غيرهم بتبنيّ أمور أخرى ذات أفضليّة. ويجب ان تنتهي هذه المباحثات الآن. فيجب علينا رصّ الصفوف، وتحديد توجيهاتنا معاً للسنوات العشر القادمة».

ومرّة واحدة، توصّلنا إلى إقصاء قضيّة فيتنام، من الصفحة الأولى في كل الصحف، ولكن ليس تماماً، حسب الطريقة التي كنا نتدارسها، لأننا قد غُمِرنا جميعنا بالعاصفة، التي تلت استقالة هالدمان و اهرليخمان، والتي فوجئنا بها قبل ثلاثة أيام.

وهكذا تهرّب رؤساء الحكومات الأوروبية، من الاستجابة لما عرض نيكسون بشأن إحياء تجمعّنا. ولاذوا وراء آراء خبرائهم مستعينين بإجراءات مشلولة، ممّا جعل الباب مفتوحاً أمام الجماهير والتي بتحريض من الدواوين الوزارية، دعت الرأي العام الأوروبي، إلى الثبات أمام ابتزاز وتهديد الأمريكان. ولا تزال الصحف

الألمانية، تهنئ نفسها على توصّل براندت إلى إسقاط عبارة "الميثاق الأطلسي" من البلاغ الرسمي الذي أذيع أثر زيارته. ولم يكن ردّ فعل الصحافة الفرنسيّة أكثر مرونة. وكانت تحذّر من محاولة توحيد القضايا المختلفة، وتستبق تهديداً للسيادة الأوروبية، وتبدي سرورها بإجراء محادثات، ولكنّها تفضل إخلاءَها من كل مضمون.

ان دور أوروبا الإقليمي، الذي أشرت اليه في خطابي حول «عام أوروبا» أعيد كثيراً ومحّص إلى النهاية، ولم يكلف أحد نفسه عناء ملاحظة أنني كنت أحدّد شرطاً لن نرضى عنه. وكنت أؤكد واقعاً دقيقاً، كان من المفروض على أوروبا تثبيته، فيما سبق وحالياً. لقد أضاعت أوروبا مسؤولياتها عبر البحار، طوال فترة ما بعد الحرب. ولم تبدِ أقل رغبة في تحمّل مسؤولية أي عمل جديد. وعلى الرغم من كل تحفظاتنا، تخلّت بريطانيا العظمى عن مراكزها في الخليج الفارسي. وكانت تعترض طريقنا صعوبات جمّة في إقناع حلفائنا لتعزيز دفاع حلف شمال الأطلسي. لم يكن من السهل توضيح الحقيقة، لكن مماحكة الأوروبيين، حول تحديد صيغة الأمور، كانت مزيجاً من الرياء والخدعة، وقبل نهاية العام، كرّر عدد من البلدان الأوروبية النموذج نفسه، أثناء حرب الشرق الأوسط، ومن ثمّ إبّان الأزمة الإيرانية والأفغانية، غير مبالين بالنداءات الأمريكية بشأن عمل موّحد.

وكانت الصحف البريطانية هي الوحيدة، التي أرادت فهم حقيقة ما كانت تقصده ادارة نيكسون. ووضعت التايمس التي تصدر في لندن، تقرير «الدراسة المستفيضة، والمعمّقة، التي يجب اعتبارها من الآن وصاعداً، النص الأساسي للمتطلبات الأمريكية». وبالنسبة لأوروبا، فقد قالت صحيفة الكوتيديان:

«ان النقطة البالغة الأهميّة هي انه يُخشى في حال دمج التجارة والدفاع أن

تبادر أمريكا لقاء التزامها، وتأخذ بالمساومة، وتفرض السياسة التجارية المطبّقة في المجتمع الأوروبي، أو تطلب تنازلات سياسية من قبل الإتحاد السوفيتي وهذا بالتأكيد أمر جيّد».

أمّا صحيفة التايمس، فعلى الرغم من كل ما لديها من لياقة، لم تقدر ان تمتنع عن إبداء الملاحظة التالية فقالت: ان الألمان الغربيّين، يتساءلون أسوة بغيرهم، عن مدى تأثير نكبات نيكسون داخل بلاده، على سياسته الخارجية. «ورأت الديلي تلغراف، الصحيفة اليومية المحافظة»، أن بعض المقاطع الأكثر دقّة و تمحيصاً، الواردة في التقرير الرئاسي، موجودة في القسم الذي يبحث في أوروبا والحلف الأطلسي:

«وفي مرحلة النقاش الحاليّة، يتخيّل كل واحد أنه يخاطب جمهوراً داخل المسرح، بوجوب إنجاز عمل ما، وينتظر بعد ذلك ان يتقدم شركاؤه بمبادرة أو طرح رأي جديد. وهذا بالطبع أمر لا بدّ منه في فترة تتعاقب فيها الأحداث الهامة وبصورة مفاجئة، بعضها متوازٍ، وبعضها الآخر كأنه يدور حول تعارض المصالح. وهنا يبرز دور رجال الدولة، الذين يفرض عليهم واجبهم أخذ الحيطة لكل أمر متوقّع الحدوث. وتحيّة لمن يفهم!!

وكان هذا بالنسبة لنا، جوهر القضيّة. ولا يمكن توقّع حدوث تقّرب واقعي أكيد، نتيجة مشاكل تقنيّة. وسيكون هذا التقرّب، غير قادر على حثّ همم الجيل، الذي أصبح بالغاً ومدركاً، لما أقدم عليه الغرب أخيراً من أعمال كبيرة خلاّقة.



بقينا نراوح في مكاننا، حتى نهاية شهر حزيران من عام ١٩٧٣، حيث لم

يتقدّم خلال تلك الفترة، أحد بأقل فكرة عمّا سيكون عليه "عام أوروبا". ولم نحظَ بجواب رسمي من أوروبا.

وفي السابع والعشرين من شهر حزيران جاء إيتين دافينيون، لزيارة واشنطن، وكان يشغل منصب مدير عام للشؤون السياسية، في وزارة بلجيكا للشؤون الخارجية. وكان يدافع بعناد عن المؤسسات الأوروبية، وقبل لقائي به في سان كليمانت، التقى دافينيون ويليم بورتر، معاون وزير الخارجية، وولتر ستوسل، معاون مدير الشؤون الأوروبية، ولما كان يمثل وجهة نظر الوحدة الأوروبية فإن دافينيون كان يحمل مذكرة، قريبة جداً مما كانت عليه مذكرة لونس، وكان يبدي خشيته، من أن مساوماتنا الثنائية الجانب مع فرنسا، قد تحول دون رغبة الأعضاء الآخرين في الوصول إلى تسوية. أن الواجب يدعو إلى إعادة النظر وتحديد علاقات الوحدة الأوروبية مع الولايات المتحدة، لأن معظم الخلافات تنشأ دائماً على صعيد كفاءات المجتمع الاقتصادي الأوروبي C. E. E. ، لا على صعيد حلف شمال الأطلسي OTAN. وحسبما ورد في أقوال دافينيون، أن جوبرت كان يحول دون إنجاح مبادرتنا في اجتماعات الوحدة الأوروبية، وحجته في ذلك سببان:

يجب ألاّ يتخذ أي قرار، قبل مداولاته القريبة مع الولايات المتحدة. ولا شيء يدعو إلى العجلة طالما أن الوضع الراهن غير سيّء. وكما أظهرت فرنسا الموقف، فإن الحاجة لا تدعو إلى عقد اتفاقيات مع واشنطن للحصول على علاقات طيّبة مع الولايات المتحدة.

وكل الأمر منوط إذاً بجوبرت، الذي سيأتي ليزورني في سان كليمانت في يومي التاسع والعشرين والثلاثين من شهر حزيران.

وفي صحن دار مكتبي، وتحت إشراقة شمس بلاد كاليفورنيا، استعاد كل من ميشيل جوبرت وأنا نشاطه، وكنا نعمل معاً، كما لو كنا شركاء في مغامرة واحدة. كان جوبرت قد قرأ الكثير من المؤلفات التي تدور مواضيعها حول تاريخ فرنسا العسكري، فعرف من خلال ذلك فوائد الهجوم المباشر. وبدأ بإطلاق النار مطالباً بوضع حدّ لإبلاغ شركائه في الوحدة الأوروبية، عمّا يدور بيننا من محادثات، وربّما كان يشير بذلك إلى زيارة دافينيون القادمة. ولم يجلب جوبرت معه شيئاً ممّا كان يعد بإحضاره، فليس هناك أي مشروع، أو اقتراح بتنظيم موعد مفاوضات أو منهج لمتابعة المحادثات. وبالفعل، فقد أشار بوضوح، إلى أن الغاية الرئيسية من زيارته، هي الإطلاع على ما جرى في مؤتمر القمة بين نيكسون وبريجنيف. وضمن هذا الإطار دارت محادثاتنا، وعندما تطرّقنا أخيراً إلى "عام أوروبا" بيّن أنه تحمّل عناء السفر ووصل إلى سان كليمانت بقصد الإطلاع على مشروع إعلاننا في البيان الأطلسي، لا السعي إلى إيجاد أفضل الطرق في توفير الوقت لحقبة المواصلات. وبرهاناً مني على حسن نيّتي، سلّمته نصّي المشاريع التي هدفنا إلى تقديمها، وعلى وجه العموم كان هذا إجراءً خاطئاً، لأنه يسمح للخصم، اختيار ما يفيده، والاطلاع على ما هناك من خلافات داخلية، لدى الفريق الآخر. ورفض جوبرت قراءتهما في الحال. ووعد بقراءتهما ودراستهما، أو إذا أتيح له الوقت فسوف يدرسها بعد قراءتها. والمهم لديه أن يعمل كل شيء عدا إفساح المجال لحصول بعض التقدم في المفاوضات. ولو وافقنا على مشروعنا لسهل الأمر واستطعنا البدء بإجراءات جماعيّة، فلم يتكرم ببيان ما سوف يحدث في حال عدم موافقته.

ان أحسن تمثيل في زيارة جوبرت، حدث في حفلة العشاء المشؤومة، التي أقمتها على شرفه في لوس أنجلس. إذ كنت قد دعوت مندوبين يمتازون بسياستهم وأعمالهم

وصناعتهم الراقية. وسارت الأمور على خير ما يرام، إلى أن وقف جوبرت ليبادلني الأنخاب باللغة الفرنسيّة. لكن صديقي، داني يكاي، الممثل والذكي النادر، الذي لم يكن يفقه شيئاً من البروتوكول الدبلوماسي، قاطعه مبدياً دهشته من اللغة المختارة، لانه قد لاحظ ان جوبرت يتقن اللغة الأنكليزية، فلماذا لا يتكلم وزير الشؤون الخارجية الفرنسي بلغة يفهمها معظم الضيوف؟ فأجاب جوبرت بفتور انه يتكلم اللغة الفرنسية، إرضاء منه للوفد الذي كان يرافقه، حينذاك تقدم داني كاي، بحلّ للمشكلة، فقام بوظيفة المترجم.

تملكني الذهول، من قبول جوبرت، وربما دعاه إلى ذلك، عدم لقائه بواحد مثل داني كاي، عند حضوره حفلات رسمية. فبدا الاستياء على جوبرت، لأن هذا المشهد تجاوز التقليد المتّبع، ووصل إلى ماتنطوي عليه النفوس، وبعد ذلك أخذت الأحاديث تصفو بعد الرطانة التي أقدم عليها داني كاي.

وبعد لقائي جوبرت في سان كليمانت، وجهت دعوة لباهر بالمجيء إلى واشنطن. قبل الدعوة في بداية الأمر رغم التحفظات التي أبداها، ثم ألغى سفره دون بيان الأسباب. وجدّدت الدعوة في الثلاثين من شهر حزيران. وفي هذه الأثناء، عمل جوبرت المستحيل لتعكير الأجواء، إذ قام بإبلاغ ولترشيل، وزير ألمانيا للشؤون الخارجية، إني اعتبر باهر بمثابة مفاوض لي فيما يتعلق بعام أوروبا، وضمن بذلك حدوث خلاف بين الألمان حول الامتيازات الخاصّة.

وأرسل نيكسون، في الثاني من شهر تموز، برقية إلى براندت، لإبلاغه عن فحوى المحادثات التي جرت مع جوبرت، وهذا إجراء كانت الضرورة تدعو إليه، حرصاً من أن تكون فرنسا وحيدة في إطلاع بون على مجريات الأمور. وفي البرقية ذاتها دعا نيكسون براندت إلى إرسال ممثّل عنه إلى واشنطن، لإجراء محادثات

ثنائية الجانب بين ألمانيا وأمريكا، للتمكن من إنهاء البيان الأطلسي، قبل زيارة نيكسون لأوروبا في فصل الخريف. وترك الحرّية لبراندت في تعيين ممثّله.

أجاب براندت بفتور في السابع من شهر تموز، ولم يُشِر أبداً إلى سفر نيكسون إلى أوروبا في الخريف. ووافق في الوقت ذاته على إجراء محادثات ثنائية الجانب، حول البيان الأطلسي، الذي وصفه بأنه يتضمن: بعض المبادئ العامة، التي تتعلق بتطوير العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية، وأوروبا الغربية، والتي لا تزال تسير بثبات نحو الوحدة. وبصراحة فإن عام أوروبا، لا يتمتع بحماس متزايد من قبل الألمان.

فوض براندت برسالته، ولترشيل، وزير الشؤون الخارجية، بإجراء المحادثات الثنائية الجانب الاستكشافية. ويفهم من خلال هذا، أن باهر ربمّا خسر معركة إدارية. أو أن براندت، لا يريد أن يُظهر انحيازاً لعام أوروبا.

وصل ولترشيل إلى واشنطن في الثاني عشر من شهر تموز، وهو رجل طيّب القلب يخجل من المجاملات. ومرونته الزائدة تعطي انطباعاً أنه لا يضمر شيئاً. وهذا خطأ فادح. وملامحه الرضيّة ترتبط كثيراً بذكاء من الطراز الأول. كان داهية في السياسة، لكن التزامه بوحدة الغرب، كان يفوق كل ما يحدث في العالم. وهو صلب العود، كما أظهرت ذلك مهارته، في تبديل وجهة حزبه الليبرالي ـ الديمقراطي من جناح اليمين إلى جناح اليسار، هذا الانزلاق العظيم، الذي حفظ له دوره أن يكون محور السياسة الألمانية، وأمدّه بنفوذ واسع، بالإضافة إلى ما كان يتمتع به من أهمية.

كان ولترشيل متفهماً جيداً للأهمية التي تبنى على العلاقات مع الولايات المتحدة، بخصوص أمن ألمانيا، وبالتالي دبلوماسيّته أيضاً. وكانت مسودة البيان

التي حملها إلينا، هي المشروع الرئيسي الوحيد، الذي قُدْم لنا، وهو في الوقت نفسه قريب من تصوّراتنا الأساسية. فحملت ولترشيل على تغييره وجعله وثيقة رسمية. فوعد أن يُتّم ذلك خلال أسبوعين أو ثلاثة ولم نسمع بعد من يتكلم عنه، إذ أن مشروعه قد اختفى، وكل ضحيّة ضغوط فرنسيّة، وتفكّك المحادثات، بعد بضعة أسابيع.

ولم تتجسّد قوة ارادة ولترشيل على حقيقة الوسائل التي استخدمها، كما أنه لم يبدِ رغبة أكثر من براندت في قيام الرئيس بالزيارة المنتظرة. والتاريخ الوحيد الذي سبق فألح إليه، ان يكون قبل الانتهاء من مؤتمر الأمن الأوروبي. ولما كان المؤتمر قد تألّف، والظروف سانحة له ان يمتد بضع سنوات، لم يكن هناك ما يدعو إلى القيام باستعدادات عاجلة. ثم وصف ولترشيل المعضلة التقنية، التي أصبحت مألوفة، والتي يصبح بموجبها ممكناً جمع رؤساء الحكومات في إطار حلف شمال الأطلسي، ويصعب في الوقت نفسه مناقشة القضايا الاقتصادية، أو العلاقات الأوروبية الأمريكية، بينما لا يمكن معالجة هذه المواضيع في إطار المجتمع الأوروبي، ما لم تجرِ هذه الامور في غياب رؤساء الحكومات.

واقترح ولترشيل حلاً بإصدار بيانين: الأول حول القضايا الخاصّة بحلف شمال الأطلسي، والآخر حول المشاكل المتعلّقة بالمجتمع الأوروبي، لكن هذه المحاولة لن تضع حداً لتساؤلات قديمة. ولن تشترك فرنسا في اجتماع يضم رؤساء حكومات المجتمع والرئيس الأمريكي. واقترح ولترشيل أيضاً ان بإستطاعة الرئيس مقابلة رئيس اللجنة الأوروبية في بروكسل (وهو كناية عن موظف) ورئيس المجتمع الأوروبي (الذي بحسب دور التعيينات لهذا المنصب، سيكون رئيس وزراء الدانمارك، خلال الشهور الستة القادمة) وتسعة وزراء الشؤون الخارجية بصفتهم أعضاء في اللجنة

السياسية الاستشارية. وعسير علينا جداً ان نتخيّل كيف ان رؤساء الحكومات، الذين بعد ان ضمنوا أولاً. أمن الغرب، لدى اجتماع لحلف شمال الأطلسي، يرفضون حالياً معالجة القضايا الاقتصادية والسياسية وفي نفس المدينة، مع الرئيس. على النقيض من ذلك، نراهم يلقون تصريف هذه الامور إلى وزرائهم للشؤون الخارجية. ولقد بيّنت استحالة القبول بهذه الفرضيّة الإضافية، التي كان يحثّنا عليها كل حلفائنا، بخصوص لقاء قمة مع ليونيد بريجنيف في آخر المؤتمر المقام حول الأمن الأوروبي، ولماذا هم أنفسهم يمانعون في الاشتراك بمؤتمر قمّة مع رئيس الولايات المتحدة؟ فما هو الداعي إذاً، الذي يجعل اللقاء ببريجنيف سهلاً؟ وظلّ ولترشيل بعيداً عن التأثر، ونحن بدورنا أرجأنا القرار، إلى وقت إعداد مشروع الميثاق.

ان الضغوط الهائلة، التي كان جوبرت قد فرضها علينا، أخذت طريقها في إثارة ركود فريد من نوعه. وأخذت مشاريع الوثائق تتطاير كغبار الطلع مع الهواء الربيعي وبالاضافة إلى المسودة الألمانية، التي كنا قد تسلمناها ورأيناها، فان مخططاً هولندياً موجزاً، أرسل إلى حلف شمال الأطلسي. وجوبرت بدوره كان وعدنا ان يرسل إلينا وحدنا مشروعاً فرنسياً، ولا يسهو عن بالنا ان نذكر أنّ هناك مشروعين أمريكيين، اطّلع عليهما جوبرت وحده أيضاً.

ويستحيل القول، ان يكون أحد رأى شيئاً أو أقرّه فعلاً. ويعسر عليّ التصديق ان تكون المسودة الألمانية قد أعدت، دون استشارة أحد. وما هو المقصود من دراسة جوبرت مشروعاً أمريكاً، طالما ان ولترشيل عازم على تدبيج مخطّطه متجاهلاً موقفنا.

سلمت ولترشيل أيضاً المشروعين الأمريكيين؛ كما استطعنا تسليمهما كذلك إلى لندن في الثامن من شهر تموز. وكنت على علم مسبق، أن هذا سيتيح لجوبرت أن يسجّل عليّ انتصاراً، إذ كنت قد بينّت له أني بانتظار ردّ فعله. وبهذا يكون قد

مضى على استلام جوبرت وثائقنا عشرة أيام، والمشروع الثنائي الذي اتفقنا عليه، بناء على طلب من فرنسا، كان يثير ضغوطاً خاصّة. ويُصعب علينا ألاّ نقول لكل واحد من شركائنا، ما قلناه لغيره.

وظهر لنا، أننا تأخرنا كثيراً في إحباط مناورة جديدة يقوم بها جوبرت. لقد ذهب إلى لندن، في أوائل شهر تموز، وسارع إلى سؤال الزعماء البريطانيين، عمّا كانوا يفكّرون بشأن المشاريع الأمريكية (ولم تكن هذه المشاريع قد وصلتهم بعد) وعندما صارحوه بكل أمانة، أنهم يجهلون كل شيء، أتّهمهم بالتواطؤ معنا ضد فرنسا. واحتجّ قائلاً: لا يُعقل أننا لم نُطلع أقدم حليف لنا على تلك الوثائق. وهكذا حقّق جوبرت الماكر هدفين في ذات الوقت: فإذا كنا قد سلمنا وثائقنا إلى لندن، فإنه ولد انطباعا لدى البريطانيين بأنه قد حصل على مثيلاتها قبلهم. وبذلك تدخل العلاقات الإنكليزية الأمريكية في حالة من الجمود والتشكيك وهذا ما أراده أيضاً كهدف ثاني. ولم أطلّع على بيان مسهب حول زيارة جوبرت هذه، إلاّ بعد أن تركنا أنا وهيث السلطة، كما بدا واضحا في شهر تموز من عام ١٩٧٣، وفي الوقت الذي كانت المفاوضات تقترب من نهايتها، شعر ويتهيل أنه كان ضحيّة محاباة، فأبدى تحفظاً غير الذي كان يظهره في الفترة السابقة إبّان حكومة هيث.

ووقعت الضربة الثانية في السادس عشر من شهر تموز، إذ سلّمني القائم بالأعمال الفرنسي في واشنطن، رسالة من جوبرت، يرفض فيها مشروعينا الاثنين. ووثيقة مكتب الخارجية، الذي لم يكن ليعيره انتباهه سابقاً، ظهر الآن أكثر قبولاً من المشروع الذي أعددته، ولم يقدّم جوبرت طرحاً جديداً. لأنه لا يريد إثارة ما يمكن أن يصبح حرباً كلامية، وهذا شيء يغيظه. ونصحني بصفته صديقاً لي، بالبدء بالمحادثات الثنائية، التي كنت راغباً فيها وتضمينها طروحات حقيقية. ولم يوضح ما

كان يقصده بالأفكار الجديدة التي ربما نالت قبوله. وبعد تفكير عاد إلى رشده وقال: أن عمل ذلك قد يضايقني، وكتب إليّ يدعوني إلى عدم الإقدام على شيء. وبعبارة أخرى، يُسمَح لنا بتقديم الوثائق التي نريد، لكنّنا لن نحظى بردّ إيجابي عليها. وفي أثناء ذلك استخدم جوبرت مشاريع بياناتنا، لإضعاف علاقاتنا مع البلدان الأوروبية الأخرى. وكان هذا مشهداً من تمثيلية دبلوماسية، لم تكلّف ثمناً، ولن تعود بالنفع لا عليه ولا على بلاده. سوى أنها تجمدّ العلاقات الفرنسية الأمريكية.

ولم تكن نتيجة ما قام به جوبرت من تحركات، سوى تأجيل مبادرتنا. وفي الثالث والعشرين من شهر تموز، اجتمع وزراء شؤون خارجية المجتمع الأوروبي في كوبنهاكن لدراسة مشروعنا بكامله، بعد ثلاثة أشهر من تقديمه، وبعد الخطاب الذي أعلن فيه عن "عام أوروبا"، وبعد عدة أسابيع من مشاورات ثنائية. والمفارقة أنهم رغم ذلك قرروا رسمياً، أن على المديرين السياسيين في المجتمع الأوروبي (وهم الموظفون الأساسيون في وزارات الشؤون الخارجية) إيضاح المبادئ، التي يجب أن يتدارسها الوزراء في منتصف شهر أيلول. وعندما ينهي المجتمع الأوروبي أعماله، حينئذ يعلمنا رئيس مجلس الوزراء فيه عن النتائج التي توصل إليها، ولن تشمل بالطبع على تلميح حول زيارة نيكسون لأوروبا.

وبعد مضي بضعة أيام، تأكدنا أن ما جرى في كوبنهاكن، يهدف ليس فقط إلى تجميد "عام أوروبا" شهرين آخرين، بل إلى الاستغناء عن الزيارة الرئاسية، وهذان حدثان لا سابقة لهما في العلاقات الأطلسية، وربما تجاوز ذلك فأحال ما كان يجري من محادثات بين أمريكا وأوروبا إلى نزاع. وبعد أن قررنا عدم إجراء مداولات مع المجتمع الأوروبي، اتخذ جوبرت من ذلك، ذريعة لإقناع الأعضاء الباقين، بموقفنا الجافّ، وليقطعوا المداولات التي كانت جارية، لفترة طويلة.

واتضح بعد ذلك أن البلدان الأوروبية عزمت على إجراء دراسة (حول العلاقات الأطلسية فقط) دون أخذ رأينا. كما أنهم لم يطلعونا على مشاريعهم. ولم تتاح لنا فرصة لعرض وجهة نظرنا. وعندما ينهي وزراء شؤون خارجية المجتمع الأوروبي أعمالهم، وإعداد وثائقهم خلال بضعة أشهر، ستُرسل إلينا من قبل وزير شؤون خارجية الدانمارك الرئيس الحالي للمجتمع الأوروبي حتى نهاية العام. وله الحق فقط بإطلاعنا على المشروع، ومن ثم تسجيل تعليقاتنا عليه، وتقديم تقرير بذلك، لبقية وزراء الخارجية الذين بدورهم سيدرسون وجهات نظرنا، في اجتماعهم الشهري القادم، وإذا توصلوا في النهاية إلى جواب ملائم، فإن الطريقة آنفة الذكر ستتكرّر. ومن خلال مقابلاتنا مع وزير الدانمارك للشؤون الخارجية، لم يجرؤ أحد من زملائه على محادثتنا، ولو بصورة رسمية، عن مبادرة كنّا نحن قد بدأنا بها.

فشرح هيث، طريقة العمل الجديدة هذه، ببرقية أرسلها إلى نيكسوّن في الخامس والعشرين من شهر تموز. وأكد أنه منذ الآن وصاعداً، سيتبادل الأعضاء التسعة بينهم جميع المعلومات التي تصلهم ضمن إطار المحادثات الثنائية مع الولايات المتحدة. وسيبلغ الجميع بما قد حدث. ففهمنا في الحال، لماذا كان يتهّرب بارك تراند من إجابتنا إذ كان أميناً عاماً للوزارة، وله حق الاتصال بنا، ومعيناً في الحكومة البريطانية لإدارة شؤون "عام أوروبا". فلقد تحاشى مداولتنا بأي موضوع، منذ شهر نيسان حتى اليوم التالي لاجتماع كوبنهاكن، واعتباراً من هذا التاريخ، لم يبق له حق بإجراء محادثات ثنائية.

والمؤلم في الأمر، هو معرفتنا أن جوبرت قد خدعنا، لقد استفاد جوبرت كثيراً، مما كنا نبذله من جهود لاستمالة فرنسا، واستخدمها خديعة لعزلتنا. وبناء على طلب جوبرت، تغاضينا عن طلبات البلدان الصغيرة التي كانت ترغب في

إصدار بيانات رسمية، أو إطار محادثات أوسع. ورغبة منّا في اجتناب عزلة فرنسا، وعلى الرغم من ضغوط قويّة مورست علينا، بدأنا بمحادثات ثنائية مع فرنسا وبريطانيا العظمى وألمانيا، بدل التوجه مباشرة نحو مؤسسات السوق المشتركة. ولكي لا ننكأ جروحاً قديمة، تحاشينا اقتراح جوزيف لونس، بتنظيم مداولاتنا ضمن إطار حلف شمال الأطلسي.

لقد تفهمنا جيداً، ما حدث خلال الأشهر الثلاثة، التي كنا ننتظر فيها جواب أوروبا. إذ استغل جوبرت قلق البلدان الصغيرة، من أمر فرض من قبل الكبار الأربعة، بالإضافة إلى عناد ألمانيا الغربية، عندما رأت جمود سياستها ضمن إطار أوسع، وشارك بذلك تصميم هيث على إتمام رغبة أوروبا في إعادة توحيد ترابط متعارض. لقد تفوق علينا إذا جوبرت بمساندة هيث، والسبب في ذلك أننا لم نكن نتصوّر أن أمراً كهذا يمكن أن يتحول إلى مجابهة، فليس هناك شيء يثير الدهشة، في أن إرادة نيكسون، التي أقضّت مضجعها فضيحة واترغيت، تبقى جامدة في مكانها.

وكانت النتيجة، أن أجاب الرئيس على رسالة هيث، بلا مبالاة غير اعتيادية:

"على الرغم من قبولي رأيكم، في أن بعض التقدم قد أحرز في الإدارة العامة، من ذلك الذي كنا نأمل إتمامه، فيجب علي أن أقول وبصراحة. أننا لا زلنا نعاني بعض الإرباك في أوضاعنا".

"اعتقد أن آراءنا قد اتفقت، عند لقائنا ومحادثاتنا التي جرت في شهر كانون الثاني، عما دعوناه بعدئذ "عام أوروبا" ووجوب القيام بمشروع كبير في سبيل المصلحة العامة، في هذا الظرف الدقيق. وفي أثناء هذا اللقاء، وتبادل الآراء الذي

جرى، ومن خلال المحادثات التي جرت مع ممثليكم، أصبح معلوماً أن إحياء العلاقات الأطلسية، يفيد أوروبا أسوة بنا، وأن هذا الأمر يتطلب جهوداً غير عادية، يكون لها أثرها الحاسم لدى الرأي العام.

"لا نقرّ أبداً، ما يدعو الأوروبيين إلى إجماع آرائهم، حول الطريقة التي يرون محادثتنا بموجبها. ورغبة منّا في اجتناب كل تأخير، تسبّبه الإجراءات، لجأنا إلى المحادثات الثنائية، لأنها هي التي تفضلها أوروبا، وقد ظهر فعلاً عدم جدوى استخدام طرق أخرى. ولقد رُفضت المحادثات الجماعية، بما فيها تلك التي اقترحتها حكومتكم، عندما زار الدكتور كيسنجر لندن في شهر أيار. كما قبلنا وبصورة نهائية، بمحادثات ثنائية الجانب، لأننا مثلكم كنا مصمّمين على عدم عزل الفرنسيين. واتضح أننا كنا نفضل المباحثات الجماعيّة. وكنا نوضح باستمرار أن المشاورات المختلفة الثنائية، يجب أن تتحول إلى جماعية حالما تسمح الظروف. وإذا كنا قد سعينا في الماضي إلى المحافظة على أسرار ما جرى من تبادل الآراء، فإن كل هذا يعود إلى طلب الأوروبيين، ولرضانا بناء على واقع المجريات، باعتبارها الطريقة الفضلى بالنجاح. ولقد تملكتني الحيرة بما أوردتم من استغلال اتصالاتنا الثنائية الخاصة، من قبل بلد كانت تطالب بها بإلحاح".

وأدلى نيكسون بتعليقات مماثلة، وبقوة أكثر، في رسالة وجهها إلى براندت في الثلاثين من شهر تموز، بعد استدعائه لإعادة النظر بالمشروع الأوروبي، الذي أصبح ساري المفعول، واعُتبر اجتماع كوبنهاكن بمثابة ردّ على مبادرتنا. واغتنم نيكسون الفرصة، ليؤكدّ مجدّداً، انه لن يزور أوروبا في ظروف كهذه، ولن يوقع وثائق لم يوقعها غيره من رؤساء الحكومات الأخرى. وهذا جواب معاكس لذلك الاقتراح القائل بتمكنه من لقاء وزارة الشؤون الخارجية، وليس رؤساء دول وحكومات المجتمع الأوروبي.

وبصراحة تامّة، عليّ ان أطلعكم على دهشتي من قرب حدوث مداولات المجتمع الأوروبي دون اطلاعي، اننا بعد ثلاثة أشهر من إعلاننا عن مبادرتنا، ومن خلال محادثات عدّة جرت بناء على طلب الأوروبيين، حول تحديد مبدأ المحادثات الثنائية، يتضح لنا الآن، ان الاوروبيين غير راغبين في التباحث معنا حول القضايا الأساسية قبل منتصف ايلول. في حين ان الحكومات الأوروبية، بما فيها حكومتكم، أكدت لنا، انها ستجيبنا علىاقتراحاتنا، نرى أيضاً ان الاوروبيين عازمون الآن على تأجيل هذه الإجابة الى ان يتخذوا موقفاً موحداً، نتيجة مباحثات لا نشترك نحن فيها. ان النّية متجهة، كما يبدو لي، الى طرح وجهة نظر جماعية، ومن ثم متابعة المفاوضات، بوساطة ممثلين اوروبيين وكلاء وتطيب لي مصارحتكم بصدق، ان ما يدهشني، هو ان محاولة كانت الغاية منها خلق روح جديدة من تضامن أطلسي، ويتوقف بقاؤها على التحرك في جميع الأصعدة، تتحوّل فعلاً الى مجابهة أمريكية أوروبية.

ويحسن بكم ان تعلموا، ومن خلال هذه الشروط، اننا لن نقدم أبداً علىأية محاولة جديدة، ما لم تكن في إطار ثنائي اوجماعي، على ان ننتظر ما سوف يخلص إليه الأعضاء التسعة في شهر أيلول القادم، وسنقرّر إثر ذلك المتابعة وكيف . . .

"ومع ذلك، اسمحوا لي أن أبيّن لكم الآن، أنني توصلت إلى الحلول التالية فيما يتعلق بمشروع سفري إلى أوروبا:

- لن أزور أوروبا، ما لم تكن لزيارتي نتائج تتعلّق بضرورة توطيد العلاقات الأطلسية.
- لن أتمكن من القيام بلقاءات جماعية، لا يرى نظرائي إمكانية مشاركتي فيها.
- لن أوقّع في أوروبا بيانات، لم يوقّعها غيري من رؤساء الدول".

لا يُعلم مدى تأثير، هذه الرسائل، إذا أرسلت من قبل رئيس، إلى سلطة سليمة. لكن حلفاءنا كانوا على علم، أن مشاكل فضيحة واترغيت، قد وصلت إلى القمّة، باكتشاف أجهزة التسجيل في البيت الأبيض، وعلى غالب الظن، أن لولا وجود فضيحة واترغيت، لما دعت الحاجة إلى إرسال مثل هذه الرسائل.

وصل السيد براك تراند، إلى واشنطن لاجراء محادثات ثنائية بين انكلترا وأمريكا، في اليوم ذاته، الذي ارسلت فيه الرسالة الى براندت أي الثلاثين من شهر تموز. ونتيجة للقرار المتخذ في كوبنهاكن، لم يستطيع الادلاء بحديث ما. وكان اللقاء غيرمُجدٍ مع هذا الصديق المملوء حكمة ولياقة وفهم كل منا، ان في حال مواصلة الجهود، سنصل الى منعطف في العلاقات الأطلسية. وفي سبيل تفهم حقيقي للوحدة الأوروبية، ولبيان نقاط نظرية صحيحة، كدنا نهمل أشياء تحقّقت خلال جيل كامل. كانت العلاقات الأطلسية، ولا سيما البريطانية الأمريكية قد قطعت شوطاً بعيداً، بفضل مبادئها الثابتة، القائمة على الثقة والاطلاع المتبادل. وها هم الآن، يعتقلونها ضمن زنزانة وبصيغ قضائية. لقد عايش تراند طويلاً الأنظمة القديمة، التي أسست على الثقة المتبادلة، فلا يجد مشقّة في منصبه الجديد. فكاد ان يظهر ارتباكه العميق، وبالطبع في حدود ما يسمح به قانون التنظيم الاداري البريطاني، وتهذيبه العالي. لكن الأمور كانت قد تجاوزت مستواها التدريجي.

ان عزم الحكومة البريطانية، على تغيير نهجها القائم، بدا أكثر وضوحاً، عندما قُدِّم لحلف شمال الأطلسي، في بداية شهر آب، مشروع عن البيان الأطلسي، للمرة الثانية دون اجراء أية مداولات، أو تقديم اي تنبيه مسبق. وأدهش هذا الاجراء لندن، فلم تبدي اهتماماً جيداً للمشاريع التي ارسلناها إليها في الثامن من شهر تموز. (ولم يصلنا جواب عدم موافقتها على اقتراحاتنا إلاّ في السابع عشر من شهر آب). ان المشروع البريطاني، كان طافحاً بالعنوية، غير انه تنقصه مساندة المجتمع الأوروبي،

الذي يمانع في تقديم وثيقة شاملة ومدروسة حسب التوقيت الموضوع للحلف. وبناء على ذلك، فان مؤتمر قمّة لن يُعقَد، قبل الاجتماع القادم، لمجلس حلف شمال الأطلسي، في شهر كانون الأول، وهذا ظرف يعسر على نيكسون السفر فيه الى اوروبا، للحاجة الماسة إلى إعداد الدورة البرلمانية ولما كنا لانزال أسرى لطريقة علاقات قديمة، تذمّرنا من انقطاع المداولات، فأجابتنا حكومة صاحبة الجلالة بما يلي:

«تعترضنا صعوبات جمّة، مع بعض البلدان الصغيرة، من المجتمع الأوروبي، التي تتذمّر من تأخير إعلامها، بما جرى بيننا وبين البيت الأبيض من مباحثات. اننا نعتقد بوجوب اللجوء الى مباحثات جماعية، كلما سنحت الفرصة . . . ان طبيعة العلاقات الأطلسية، ليست أمراً يمكن تقريره، من خلال مباحثات ثنائية صرفة، ويجب ان يكون الأمر بالعكس، نتيجة مداولات جماعية».

وعلمنا فجأة، أن المجتمع الأوروبي قد أرسل إلى اليابان مسودة عن البيان، وان وثيقة تصدر عن مداولات بين أوروبا واليابان، ستكون واقعية، بينما اذا شاركنا نحن فيها سيكتنفها الغموض. ولم نطلع على مثل هذا المشروع، ولم يؤخذ رأينا في ما حواه. وكان سعيهم حثيثاً، لإنزال ضربة بنا، إذ ان هذه الطريقة لا لزوم لاتباعها. أما اليابان فانه كان يحاول بدوره وقبل كل شيء، ان يكون بعيداً عن خط النار. ومن حين الى آخر، أخذ الدبلوماسيون اليابانيون يستطلعون الأمر بتهذيب، مقرون بعدم مبالاة، حول عام أوروبا الغريب، الذي دُعوا للمساهمة فيه. لكنهم أفهموا من دّعاهم، أنه اذا حاول أحد استبعادهم من مشروع ما، فلن يكون لهم مصلحة المشاركة في عراك الغرب الداخلي، فانظروا كيف ان الذي بدأ بمحاولة لتوطيد الوحدة الأطلسية، تحوّل الى وسيلة حشد جميع الديمقراطيات ضد الولايات المتحدة.

ولا مجال للشك، في أن ما اعترى الادارة من شلل، وما لحقنا من يأس إثر مشكلة واترغيت، دفعنا الى التقدّم، لكن عام أوروبا فقد ما كان له من قيمة.

ان القسم الأعظم، من اقتراحنا، حول بيان جديد عن العلاقات الأطلسية تحقق أخيراً ولكن بعد عام. كان نيكسون هو رئيس الحكومة الوحيد بين الأربعة الكبار، الذي لا يزال في السلطة، وكان عليه ان يقدم استقالته بعد ستة أسابيع. لكن عام مماحكات، أخلى هذا الموضوع من كل مدلول معنوي ونفسي.

لقد تعلّمنا، ان التاريخ لا يستطيع ان يعيد نفسه بناء على توصية. والفكرة السائدة، بأن يلقى أمريكي خطاباً مأساوياً، يستنهض همة أوروبا، كانت صورة طبق الأصل واضحة، عن اعلان مشروع مارشال، من قبل وزير الخارجية جورج س. مارشال، ولا تزال مقولة «ميثاق الأطلسي» ترجع صدى الاتفاقية الشهيرة التي جرت في الأربعينيات بين روزفلت وتشرشل. حرّضنا الأوروبيون وشجعونا على الالتفات مجدداً نحو الغرب، أكثر من الجنوب الشرقي من آسيا، ورغبة منا في المبادرات التاريخية، حاولنا لكننا كبونا، لأننا وجدنا أن واقع الحال قد تغير تماماً منذ عام ١٩٤٧. لقد قدّم مارشال في حينه هدية فخمة لبعض البلدان دون مقابل، وهذه الهدية كناية عن عون أمريكي ضخم لإعادة بناء أوروبا، التي طلب اليها تنظيم نفسها للاستفادة من الهبة، وهذه مهمة سهلة، لا تغيظ رجال السياسة، ان البيان الأطلسي الذي أعلن عنه في ١٩٧٣/١٩٧٤ لا يقدّم مغانم مباشرة، بل كان يطالب كل حكومة ان تباشر بمشاريع صعبة وفي مجالات متعدّدة، ويفضل الزعماء السياسيون المنتخبون وعلى وجه العموم ارجاء مثل هذه المهمة الى من يخلفهم.

توضّحت أبعاد خيبة أملنا، لأسباب نفسية معقّدة. وكانت رغبتنا شديدة في التخلّص من الصدمة الفيتنامية، التي لم نُعِرها في الواقع الاهتمام الكافي، ولم نقدّر ان أوروبا لن تسهم بموضوع أمريكي بحت ضمن قدرتها.

ربما نجح عام اوروبا، لو لم تتسرّب أخبار فضيحة واترغيت من طيّات ذاك

المشروع وثناياه ويمكن لرئيس قوي، صاحب هيبة ونفوذ، مدعوم برضا شعبه، ان ينجح الوحدة المعنوية لدى البلدان الحرّة، ويسر هذه البلدان ان تقف معه في مقدّمة العرض، على عكس ما كان يحدث تماماً عام ١٩٧٣، فأصبح الاتحاد مع نيكسون خطراً جداً. ورئيس ضعيف مثل نيكسون غير قادر بعد ان يستقطب الرأي العام الأمريكي، بطريقة يجهلها حلفاؤنا. لو لم يكن نيكسون يسبب إزعاج للزعماء الأوروبيين، فمن الممكن جداً ألاّ يكونوا قد أظهروا تحفّظهم العنيد. وكان على هؤلاء ان يتساءلوا المرّة تلو المرّة، حول ما يحدث لهم من مضار وأخطار، عند توقيعهم وثيقة رسمية مع رئيس دولة لاتزال سمعته وقيمته في إنحدار. فلو حصلوا على بعض المغانم المباشرة، لتذرّعوا بها وخاطروا بأنفسهم. كان البيان الأطلسي يجسّد معضلة زعيم ديمقراطية حديثة، ومدة ولايته قصيرة جداً، لتتيح لسياسته ان تؤتي ثمارها، بينما ان سيّئات القرار المتخذ أخذت تبدو للعيان مباشرة. فوجب على كل زعماء الحكومات الأوروبية، ان يوازنوا بين مستقبل أفضل، ودمار مباشر، هم معرّضون للسقوط فيه، اذا ساروا في خطّة نيكسون، قبل ان تلتهمه فضيحة واترغيت. والمشاكل التي كنا نعالجها كانت جد معقّدة، والأفضل لنا إخفاؤها وتجاهلها.

غير اني اذا عدت بذاكرتي الى ما قبل عشر سنوات، يعتريني الألم من جرّاء القسوة التي تصرّف بها بعض حلفائنا، عندما فقد نيكسون سلطة حكمه. فهو رجل كرّس معظم حياته العامة لتوطيد الحلف الأطلسي، وبذل جهوداً كبيرة خلال ولايته الأولى، ليكسب ثقة الزعماء الأوروبيون، كما انه وضع حداً لمشادّة رديئة مع فرنسا. ولقد تغلّب على تحفّظاته، وأسهم في إنقاذ سياسة براندت. وبرهن في مرّات عديدة عن إعجابه بهيث. وعلى الرغم من بعض قصور حدث عام ١٩٧١، إلا انه بذل جهوداً غريبة ومضنية لتبادل الآراء بانتظام مع زملائه الأوروبيين. ومع ذلك فان كل هؤلاء الزعماء، دون الإخلال بآدابهم طبعاً، أقدموا على اجراءات، لا يمكن ان

يتصوّرها أحد نحو رئيس لا يزال يمارس كامل سلطته، حتى دون مساندة جماعية من قبل الرأي العام.

على الرغم من شديد تأثري، يجب ان استنتج التالي: يحسن التقيد والعمل بتلك المحاولة، فيما اذا كان فشلها متوقعاً مباشرة. لأني لا أزال معتقداً أنها تتضمن شروطاً حسنة. واجتنب زعماء الديمقراطيات الصناعية ولوقت طويل، القضايا الأساسية، مستخدمين علاقاتهم مع الولايات المتحدة، في سبيل غايات سياسية داخلية. وكانوا طوال فترات الضغوط الدولية، يتهمون السياسة الأمريكية بتعريض أمن أوروبا للخطر. ونتيجة لتبادل الآراء مع شركائنا، لطّفنا علاقاتنا مع موسكو، فأخذوا ينادون بأن هناك حكما ثنائياً سوفيتياً أمريكياً. وفي الحقيقة، كانت أوروبا تطالب أمريكا بالتزام الدفاع عنها، مؤمّلة في الوقت نفسه استبعادها من العمليات العسكرية في أراضيها. وكانت حكوماتها تريد الحصول على تأكيدات مفصلة، عن كل جوانب مفاوضاتنا مع الإتحاد السوفيتي وليس لديها استعداد في الوقت ذاته لقبول تقييدات مماثلة لمبادراتها الثنائية. وإذا امتدّ هذا التعارض طويلاً، فانه لا بدّ آيلٌ إلى فك الوحدة الغربية، ضمن ركود سياسات متنافسة، أسّست على ضغوط داخلية مباشرة، وما هو أهم من ذلك أيضا، حرم الاستحواذ على التعبوية، سياسة الديمقراطيات من كيانها المعنوي. ودون رؤية صحيحة للمستقبل، فقد زادت المشاكل التقنية المسلّمة لغير اختصاصين من انحراف توجهات الرأي العام. ولقد أصبح الخوف، وليس الارادة الأساس الجوهري لسياسة العديد من الديمقراطيات، كما أصبح التوافق، لا تحمّل مسؤولية المصير، هو التفسير الحقيقي للحنكة السياسية. ان الأسباب التي دعت الى جميع هذه الأمور، عميقة ولا يمكن حلها ببساطة وبمبادرات سياسة أجنبية. ومع ذلك، فان الأفكار التي تقدمنا بها في إطار عام أوروبا. من الممكن ان تساهم في التغلّب عليها.

الفصل الخامس

مبادرة في الشرق الأوسط

لم تأخذ أي مشكلة من مشاكل الشرق الأوسط الكثيرة طريقها إلى طاولة المناقشات والمداولات في الولايات المتحدة، طوال الفترة الماضية، بسبب الصدمات التي لحقت بنا، على أثر حرب فيتنام، وما عانيناه بسبب فضيحة واترغيت.

وفي المقابل لم تكن دول الشرق الأوسط تبدي اهتماماً حقيقياً بما يحدث لدينا في أمورنا الداخلية، لكنها كانت على قناعة بأهمية أن تبقى أمريكا متمتعة بنفوذها وقدرتها، لتتمكن هي من تجاوز العقبات التي تمر بها.

وكان كلّ على طريقته يقدّر أن الوصول إلى حلول لقضايا المنطقة يتوقف على سياسة أمريكية قويّة. فدوام بقاء إسرائيل متوقف على مساندة الولايات المتحدة. أما العرب المعتدلون فكانوا يؤمّلون أن تستخدم أمريكا نفوذها على إسرائيل، في

سبيل الوصول إلى صلح مشرّف. كما أن العرب المتشددين يتذرعون بحاجتهم إلينا. ويستغربون كيف أننا على الرغم من كل اقتدارنا، لم نستطع وضع حد لفضيحة واترغيت.

أبدى نيكسون عزماً أكيداً، على تدشين ولايته الثانية، بالإعلان عن مبادرة دبلوماسية، في سبيل إحلال السلام في الشرق الأوسط، مفضّلاً ذلك على إعداد خطط حكمه. لأنه صرّح في إحدى لقاءاته قبل يومين من إعادة انتخابه، إن لقضايا الشرق الأوسط أولوية عليا خلال الولاية الثانية. وفي الخامس من شهر تشرين الثاني، أعلن وزير الخارجية، وليم روجرز، أن الولايات المتحدة، على استعداد، لأن تقوم بأدوار جديدة وفاعلة في الحلبة السياسية. وطالما أن حرب فيتنام أشرفت على الانتهاء، أخذ الرأي العام يوجّه اهتمامه نحو الشرق الأوسط. وخلال الأسبوع الأول من شهر شباط لعام ١٩٧٣، أشار كل من الصحفيين: رولاند إيفان وروبيرت نوفاك، إلى الضغوط المتزايدة، من قبل البلدان العربية، صديقة الولايات المتحدة، لإقرار دبلوماسية خاصة تجاه الشرق الأوسط. وفي الأسبوع ذاته، أكدت نيويورك تايمس بمقال افتتاحي، أن الفرصة متاحة أمام نيكسون، للإعلان عن مبادرة جديدة، عند زيارة زعماء الشرق الأوسط لواشنطن. وأكدت صحيفة بالتيمور سون، أن مثل هذه المبادرة قد تأخرت. أما الواشنطن بوست، فقد طلبت من نيكسون، أن يولي جلّ اهتمامه بالشرق الأوسط، ما دامت حرب فيتنام قد انتهت، وأضافت إلى هذا قولها: أن ما تظهره إسرائيل من غرور هو غير مقبول.

واقعاً كانت لدينا أسباب عديدة، لنظهر حكمتنا. لقد رأينا سخافة مشاريع السلام التي قدمت خلال الولاية الأولى، ولما كانت هذه المشاريع سطحية، وغير مدروسة لم تصمد، ولم تلب رغبات الفرقاء ذوي العلاقة، والانقسامات الموجودة

ضمن حكومتنا. وكانت إسرائيل تعدّ شعبها لانتخابات تجريها في نهاية شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٣. وعلّمتنا التجارب، أن ما من حكومة إسرائيلية تجرؤ على اتخاذ قرارات حاسمة، ما دام مصيرها في يد القدر. وكنا نتوقع بدورنا تخصيص هذه الفترة للقيام بمحادثات استكشافية، بيني وبين حافظ إسماعيل، الذي كان حينذاك مستشار الرئيس أنور السادات للأمن القومي. وعلينا أن نتفهم جيداً مقاصد مصر، لنتمكن من إعداد ورقة عمل حقيقية.

أخذ توجه دبلوماسيتنا، نحو الشرق الأوسط، ينمو في حكومتنا. لقد تخلّى نيكسون، خلال ولايته، عن سياسة الشرق الأوسط، لوزارة خارجيته ونيّته في ذلك إعطاء مجال أوسع لروجرز، ولأنه من جهة ثانية، كان يعتبر أن دبلوماسية هذه المنطقة، تعرّضه لمخاطر، لا يريد أن يشترك فيها شخصياً، لا سيما في إطار سياسته الداخلية. ولذلك، فإن نفوذي تجاه تسيير سياسة الشرق الأوسط، كان أقل بكثير، من توجّهي المباشر إلى غيرها خلال ولاية نيكسون الأولى، علماً أني كنت قادراً على تقديم مذكرات، إسداء تنبيهات أو تحذيرات، تأجيل تنفيذ قرار ما، لكني باستثناء الأزمة الأردنية، لم أمنح اهتمامي المباشر لغيرها، إن اتصالات البيت الأبيض، والمفاوضات السرّية، التي يقوم بها مع حكومات أخرى، بالإضافة إلى ما تقوم به وزارة الخارجية، كل هذا لم يوجّه إلى شؤون الشرق الأوسط، حتى منتصف عام ١٩٧٢. وكنت استاء من وقت لآخر من الطريقة السائدة آنذاك والتي ظهرت بعدئذ أنها نموذجية وهي بالحقيقة الاستراتيجية التي كنت أهدف إليها وهي كناية عن معضلة دائمة تدفع بالعرب إلى الاعتدال، وتباعد بين السوفيت ودبلوماسيّة الشرق الأوسط. وفي نهاية عام ١٩٧١، أخذ نيكسون يوكل إليّ مسؤولية المنطقة. وكان يخشى في الوقت نفسه، أن تؤدي خطوات وزارة الخارجية

إلى تبني مشاريع يعارضها جميع الفرقاء. وكلّفت بصورة أساسيّة لمنع حدوث انفجار يطيح بانتخابات عام ١٩٧٢، وهذا أمر يتطلّب مني في نهاية المطاف وجوب تهدئة الوضع.

لم تكن الاتصالات والمباحثات التي أجريتها مع مستشار أنور السادات لشؤون الأمن القومي، تفضي إلى نتائج إيجابية، بسبب اختلاط جميع المبادئ التي تقوم عليها أزمة الشرق الأوسط (نزاع إسرائيلي ـ عربي، صراع أيديولوجي بين عرب متشددين ومعتدلين، نفوذ ومنافسة القوى العظمى). وبالتالي لا يمكن التوصّل إلى حل جزء، دون التعرّض لغيره. إن خلق دولة إسرائيل بمساندة الولايات المتحدة ألهبت الشعور العربي، ودعا إلى إعلان الحرب. أن إسرائيل أوجدت شعبها بقوة السلاح، وبقيت منذ ذلك الوقت غير معترف بها، ومنبوذة، تثير غيظ جيرانها، واجتازت إسرائيل، في شهر حزيران من عام ١٩٦٧، خطوط الهدنة. بعد أن كانت مصر جمال عبد الناصر، قد أعلنت عن محاصرة الميناء الإسرائيلي إيلات، وتقدمت بجيشها نحو إسرائيل في المنطقة المجردّة من السلاح ـ صحراء سيناء ـ وبعد ستة أيام انتهت الحرب. كانت إسرائيل خلالها قد وضعت يدها على مناطق واسعة في مصر وسورية، وكذلك في المنطقة الغربية لنهر الأردن. فزاد هذا في كراهية العرب لها.

ما ثبتت إسرائيل يوماً، ضمن حدود معترف بها، ولم تجد صعوبة في تغيير حدودها من مكان غير معترف به إلى مكان آخر. حيث أخذت تسعى، قدر إمكانها، لتوسيع رقعة أمنها. وكانت البلاد العربية نهباً، بين هدفها الأساسي من حيث وجود الدولة العبرية وواقعها الفعلي، من حيث عدم القدرة على تعديل وتغيير الوضع الراهن، إلاّ ببعض مبادرات دبلوماسية. وكانت الحكومات العربية المعتدلة،

مثل الأردن، تسعى لإيجاد صيغة، تجبر إسرائيل على العودة إلى حدودها قبل حرب ١٩٦٧. لكنها وهي التي تنتظر تسوية لقضية الفلسطينيين العرب، لا تريد أن تكون نهاية حالة الحرب، سوى صيغة هدنة جديدة، وليس السلام الحقيقي الذي تنشده إسرائيل.

غير أن القضية الفلسطينية كانت مجمّدة، ليس بسبب مواقف العرب المتشددين فقط، بل بالطريقة التي كانت إسرائيل تتفهّم بها ضرورات أمنها في الضفّة الغربية. وكانت سورية ترفض إجراء مفاوضات مهما تكن الشروط. وكانت تعارض حتى وجود إسرائيل، وليس حدودها فحسب. أضف إلى ذلك عندما وصلت إلى دمشق في شهر كانون الأول من عام ١٩٧٣، قادماً من تل أبيب، نشرت الصحافة السورية نبأ وصولي قائلة: قدم وزير الخارجية الأمريكية من "الأراضي المحتلّة" "إسرائيل". وكان العراق يضع كامل ثقله مع العرب المتشددين، كما كانت الحال أيضاً مع الجزائر وليبيا. ومنظمة التحرير الفلسطينية التي كانت الدول العربيّة ترغب في أن تمثل جميع الفلسطينيين، إن هذه المنظمة، كانت تطالب بدولة علمانية في فلسطين، وهذا يفسّر باختفاء إسرائيل. وإسرائيل كانت تثبّت أمنها، بتواجدها في الضفّة الغربيّة. وحجمت هذه المعضلة كل الخطوات الدبلوماسية في الشرق الأوسط، طوال كل الفترة التي تخلّلت حربي ١٩٦٧/١٩٧٣.

وغدا شعار هذه المعضلة، القرار (٢٤٢) الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي، في الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٦٧، وكان يعطي الحق لجميع دول المنطقة العيش "بسلام عادل ودائم" ضمن "حدود آمنة ومعترف بها" وكان يفتقر إلى تحديد المواصفات. فرفضت بعض البلدان العربية هذا القرار، بينما قبلته إسرائيل لتستند عليه في تصرفاتها، فأصبح هذا القرار رمزاً للمعضلة، اكثر

مما هو وسيلة للخلاص منها. وكان الزعماء العرب، الذين كانوا يقبلون بإجراء مفاوضات، يعتبرون أن هذا القرار يتطلب تراجع إسرائيل الكامل إلى حدودها ما قبل شهر حزيران ١٩٦٧، وكانت إسرائيل تقول أن حدود ما قبل الحرب لم تكن آمنة، وتطالب بأن تحتفظ بجزء من أراضي كلّ من جيرانها. ولكي تضاعف التأمين على مصالحها، تقدمت بطلب مقبول ظاهرياً، ولا يمكن تحقيقه: وهو مفاوضة العرب بطريقة مباشرة. وبعبارة أخرى فإن إسرائيل كانت تطالب بالاعتراف بها قبل إجراء أية مفاوضات، وكان العرب بدورهم، يطالبون باستعادة أراضيهم، قبل طرح أي مخططات دبلوماسيّة. وليس هناك زعيم عربي، مهما يكن معتدلاً يمكن أن يؤمّل البقاء، إذا قبل بمطالب إسرائيل، على أرضيّة هذا الإذلال، كما أنه لن يبقى رئيس وزراء إسرائيلي في الحكم يوماً واحداً، إذا تخلّى عن الأراضي المحتلّة، في سبيل إجراء مفاوضات، وكانت إسرائيل تمني نفسها بقدرتها على الإبقاء على هذه الأراضي، والوصول إلى سلام في آن واحد، وكان يتبادر إلى أذهان أعدائها (العرب) فكر معاكس، أن باستطاعتهم استرجاع أراضيهم دون عقد صلح معها.

غير أن الأردن ومصر، كانتا تحاولان إجراء مفاوضات، في بداية ولاية نيكسون الأولى. ومن بين كل الزعماء العرب، كان حسين ملك الأردن، يبدي استعداداً لاعتبار إسرائيل أمراً واقعاً. وللتفاوض معها. وكان يعتقد على وجه العموم أنه سيتبعه في ذلك بعض الدول العربية، وما من أحد استطاع تكذيب هذا الرأي. وقد أصبح هدفاً لعداء العرب المتشددين، لأنه رفض قطع العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة عام ١٩٦٧، ومن ثم لأنه أبعد منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٠، وحُكم بالضعف على هذا العاهل المعتدل الموالي للغرب، لعدم قدرته على إيقاف مدّ التشدد الفعلي والحقيقي ضد مشروع السلام.

وكانت شائعات الرأي العام، تؤكد أن الأردن سيكون البلد العربي الثاني في عقد وثيقة الصلح مع إسرائيل.

وأصبح في يد مصر. مفتاح دبلوماسيّة الشرق الأوسط، وكانت الضرورات الأساسية، تعزّز من موقفها، لأنها تغلّبت بهيبتها، وتقاليدها، ونفوذها الأدبي وتضحياتها العديدة، في سلسلة من الحروب الإسرائيلية العربية. وهي أكثر عدد سكان بين البلدان العربية، ونقطة الانطلاق الفكري في المنطقة. ويشكل مدرسوها العمود الفقري للتنظيم الثقافي في العالم العربي. وتستقطب جامعاتها طلاباً من المنطقة بكاملها. وليس هناك أي بلد، باستثناء الصين، تملك تنظيمياً سياسياً، مثل ما تملك مصر.

ولقد تحملت من العناء أكثر من الجميع، إثر النزاع الإسرائيلي العربي، ولقد خاضت في عهد الملكية، كما في زمن الجمهورية، معارك أفقدتها الكثير من مصالحها الحيوية. ولقد ضحّت بشبابها في سبيل الوحدة العربية، وتقرير مصير فلسطين، فتعرّضت لخسارة شبه جزيرة سيناء، وكاد يؤدي بها الأمر إلى فقدان تلاحمها القومي.

وبالنسبة لنا، فقد أخذنا بجس نبض مصر بصورة خاصّة. وتبدو لنا قضايا الأرض الحدودية سهلة. إذ لم يكن لشبه جزيرة سيناء، تلك الأهمية الاستراتيجية ولا ذاك المدلول التاريخي الهام، التي هي عليه بقية الأراضي الحدودية، وخصوصاً ضفّة الأردن الغربيّة.

ولكن طالما أن عبد الناصر لا يزال رئيساً، فهو يشلُ مصر بتناقض رأيه. فمن جهة، كان يتظاهر أمام الجمهور بالإسهام بمشروع السلام. وبرنامجه غير قابل

للتحقيق، فهو يطالب بعودة إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧، في مقابل إنهاء مصر لحالة الحرب معها، بينما أن السلام يتوقف على تسوية إسرائيلية مع الفلسطينيين، ولم يكن عبد الناصر يبدي رغبة في إجراء مفاوضات مباشرة مع إسرائيل. وكان علينا، أن نضمن انسحاب إسرائيل، حتى يعيد علاقاته الدبلوماسية معنا. وبالاختصار كان عبد الناصر عازماً على تسيير دفة سياسة العالم العربي، على أساسٍ موقف معادٍ للأمريكان، مبرهناً بما قد حصل عليه من امتيازات بفضل الكفاح العربي، والمساندة العسكرية والدبلوماسية السوفيتية. ولم تكن مصلحة الولايات المتحدة في تشجيع مثل هذه الآراء. وكان يشار علينا في الوقت ذاته، أن نقبل بمطالب عبد الناصر الحاسمة، لقاء إعادة العلاقات الدبلوماسية، والتي لن يكون لها أيّة قيمة في حال عودتها الآن، وليست بصالحنا أكثر مما هي عليه لمصر".

وخلال هذا المأزق، كان دور الاتحاد السوفيتي متأرجحاً. فكانت أسلحته تزيد من تصلّب العرب. ولا تؤدي إلا إلى تفاقم خطورة المأزق، دون الوصول إلى حل. ولم يفرّق الاتحاد السوفيتي بين هذه المآسي، وطالما أنه كان يساند مواقف من كانوا معه، فلن يقدر أبداً على إنجاح مشروع السلام، ولا تحسين دوره. ومن ثمة فليس هناك من سبب يدعونا للقبول ببرنامج العرب المتشددين الذين كانوا يؤنّبوننا. وفي حال إقرار النظرية غير المؤكدة، التي أصبحت مدار وجهات نظرنا، فلن نكون بحاجة إلى وساطة موسكو. وبعبارة أخرى، لن يستطيع الاتحاد السوفيتي القيام بإيجاد حل ناجح إلاّ بعد تلبيته إلى حد ما مطالب البلاد العربية، ومعرّضاً للخطر بعض صداقاته في العالم العربي. وإذا لم يقم بهذا، فإنه يساند أهدافاً لن يستطيع إنجاحها. نعم كان الاتحاد السوفيتي قادراً على تأجيج جمر

الأزمة ولكن ما إن يشتعل البارود، فلن يكون قادراً على استخدامه ضمن حدود غاياته الخاصّة إلا بتعريض نفسه لخطر المجابهة مع قوة عظمى، وهذا أمر تحاشاه حتى الآن باعتناء. وأخذ الاتحاد السوفيتي بالتسويف مثله مثل بقيّة الفرقاء، ويقوم بدور الدفاع عن العرب، وكان يغتنم الفرصة بتوزيع أسلحة، تزيد النار اضطراماً، ولا تغيّر واقع الحال الأساسي.

واجهت إدارة نيكسون هذا المأزق بنوع من الغموض، وكانت وزارة الخارجية تجهد نفسها في سبيل الحصول على حلّ دبلوماسي، يقلّص من استياء العرب تجاه الولايات المتحدة. فكان أن طرح مشروع روجرز، والذي كان يتضمن اقتراحاً بعودة إسرائيل إلى حدودها السابقة. ولم يتوصّل أبداً إلى إقناع إسرائيل بالتخلي عن جميع توسّعاتها، في ظرف كانت سورية ترفض كل الاقتراحات وحيث مصر أيضاً كانت ترفض عقد صلح دون اشتراك سورية، والفلسطينيون بدورهم عازمون على تدمير إسرائيل. لم يكن للمبادرات الدبلوماسية، من خلال هذه الشروط، سوى تشديد الضغوط، أكثر بكثير من تقليصها، كما أن اقتراحاتنا لم تجد أيّ صدى، بل عززّت موقف السوفيت والمتشددين من العرب. غير أن نيكسون كان يعتقد أن كثرة التزاماتنا في الهند الصينيّة، تحول دون وضع كل ثقل البيت الأبيض، في سبيل إنجاح مقرراته، التي يرى الآن أنها غير قابلة التحقيق، ولن يكتب أي نجاح للمفاوضات، ما لم توفّق بين المتطلّبات الدنيا لكل فريق. وإبّان ولاية نيكسون الأولى، لم يقدم أي فريق على تحديد سوى الحدّ الأقصى من برنامجه إذ كانت إسرائيل ترفض تغييراً عاماً لحدودها، بينما كان العرب يطالبون بانسحاب شامل، وعدم التقيّد بالتزامات رسميّة في سبيل السلم بالإضافة إلى الأمن.

توفي جمال عبد الناصر في الثامن والعشرين من شهر أيلول لعام ١٩٧٠.

وخلفه أنور السادات الغير معروف سياسياً، ولا يتمتع بالتقدير المطلوب. وكان خبراؤنا، على وجه العموم، يذهبون إلى أن وجود السادات سيكون مؤقتا وانتقاليا وسينهار أثر استبداله بأقرب وقت بعلي صبري، الأمين العام للاتحاد الاشتراكي العربي وهو معروف أكثر منه، ويعرف أيضاً بتقربه لموسكو. ولم يقلّد السادات منذ البداية توجهّات عبد الناصر. فبدأ بمناورة معقّدة، كان يهدف من خلالها، تعزيز وضعه في العالم العربي أولاً، في حين أنه كان يتّجه بمصر نحو نظرية قوميّة قابلة التحقيق. وفي حال اضطراره لإجراء تسوية بخطا سريعة وواقعيّة، فلا بدّ له من العودة إلى اتباع طريقة سلفه عبد الناصر، من حيث معاداة الغرب. لكنّه أبعد علي صبري ومن يلوذ به في شهر أيّار من عام ١٩٧١. ووقّع في الشهر ذاته، معاهدة صداقة لمدة عشرين عاماً مع الاتحاد السوفيتي.

وطرحت وزارة الخارجية، في سبيل الخروج من هذا المأزق، مبادرة جديدة في شهر أيّار من عام ١٩٧١، تقوم على انسحاب جزئي للقوات المتواجدة على طول قناة السويس. وأفشل السادات هذا المشروع، لأنه كان يطالب بأن يكون هذا الانسحاب مرحلة أولى لاتفاقية جلاء شامل، وحينئذ طالب الإسرائيليون بابتعاد الجيش المصري أيضاً عن القناة، مؤكدين على عودة القوات المصرية إلى أراضيها، لقاء جلاء إسرائيل من الأراضي المصرية. وحصل بعض التقدم الدبلوماسي عام ١٩٧٢ إذ أن السوفيت أخذوا يطالبون بتسوية عامّة وعاجلة. فعاد الإسرائيليون إلى المطالبة بمفاوضات مباشرة، بينما كان المصريون يؤكدون على حلّ شامل تدريجي، لكن السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية، كانا يرفضان كل المفاوضات، فإذا بوزارة الخارجية تقترح مجدداً انسحاباً مؤقتاً في قناة السويس.

باعتقادي، أن هذه الفوضى المعقّدة، كانت تعود بنا إلى استراتيجيّة اعتبرت

الخيار الوحيد الحقيقي بالنسبة للولايات المتحدة إذ ليس للأمريكان أية مصلحة بفرض تسوية على إسرائيل، نتيجة ضغوط المتشددين، لأن هذا يدعو إلى الاعتقاد، أن الطريقة الفضلى للتعامل مع أمريكا هي قسرها على الشيء المطلوب. وكان علينا أيضاً إثارة العرب المعتدلين ضد المتشددين في العالم العربي، والحكومات ذات الارتباطات بالغرب، ضد تلك التابعة للاتحاد السوفيتي، والحاجة لا تدعو إلى جسّ نبض الاتحاد السوفيتي، ما دام موقف موسكو يشابه تماماً موقف العرب. وكنت على اعتقاد أن مصر وغيرها من البلدان، ستعود أجلاً أم عاجلاً فتحاسب نفسها، في أن الاستناد على الاتحاد السوفيتي وعلى النظريات المتطرّفة، هما الوسيلة الأكيدة في عدم تحقيق شيء من تطلّعاتها. فتعقد العزم تجاه هذا الموقف على استبعاد الوجود العسكري السوفيتي. "وطرد" هي الكلمة التي استخدمتها في عرض واقع الحال الغاية في الإحراج في السادس والعشرين من شهر حزيران لعام ١٩٧٠، وتقديم مشاريع مقبولة بدلاً من أحلام خيالية. وحينئذ فقط. يمكن لأمريكا طرح مبادرة صحيحة، وتفرض، إذا اقتضت الحاجة، على الإسرائيليين ما ينقذ الموقف.

ولم يفرّق نيكسون رسمياً، خلال ولايته الأولى، بين استراتيجيتين: توصياتي في معارضة اليسار، أو نظرية وزارة الخارجية، القائمة على تقويض المساعي الأخرى، بتقديم حلول تتضمن تسويات. وكان ميّالاً إلى اتباع تحليلي، ووضعه موضع العمل، دون إصدار قرارات، بل بإفساحه المجال أمام وزارة الخارجية، لطرح مبادراتها غير المجدية، وعلاقاتي بنيكسون لم تكن سهلة، وكانت على كل حال معقّدة بالنسبة لقضيّة الشرق الأوسط، أكثر من جميع القضايا الأخرى. وكان نيكسون يعتقد أنه غير مدين بشيء للناخبين اليهود، ومهما يعمل، فلن

يستفيد شيئاً من تصويت اليهود. وكان يريد في الواقع فرض تسوية عامّة خلال رئاسته. وهناك العديد من بياناته، المكتوبة والشفهية، تثبت موقفه المبدئي. وقدّمت له في شهر تشرين الأول من عام ١٩٧٢، مذكرة من وزير الدفاع، وكان إذ ذاك ملفن ليرد، يوصي بالبدء بمحادثات سرّية مع مصر، مستفيدين من إبعاد السادات للسوفيت، والتقرّب من الموقف العربي (وكانت هناك اتصالات سرّية مع مصر، وهذا ما كان يجهله ليرد) فأعاد لي نيكسون المذكرة مع الحاشية التالية:

"ك - إني أوافق ليرد على وجهة نظره. إن تصرّف المجتمع اليهودي الأمريكي حول مسألة التأشيرات السوفيتية، يدلّ بوضوح، أنه يضع المصالح اليهودية قبل المصالح الأمريكية. وهذا شيء لا نقرّه".

وغالباً ما كان نيكسون يكتب مثل هذه الحواشي، لكنه لا يتابع أبداً ما تحدثه من أثر إني أثبتُها هنا، لأن إهمالها تغيير في فلسفة حقيقة التاريخ، ولأنها في الوقت نفسه، تكشف بوضوح عن العلاقة الغريبة، غير المتشابهة بين الرئيس ومستشاره. وانطلقنا من حدّي القضيّة الدقيقين، فيما يتعلّق بإسرائيل، عدنا إلى اتباع سياسة واستراتيجية يكون فيهما ضمان المصلحة العامة. وكان نيكسون يتبادل الرأي مع بورجوازيين صغار، من كاليفورنيا، وهو يعتقد في صميمه أن اليهود يشكلون فريقاً موحّداً وقادراً، في المجتمع الأمريكي. وهم في معظمهم يفضّلون اليسار، ويضعون مصالح إسرائيل في المقدّمة. وهم على وجه العموم، أكثر اتجاهاً نحو الاتحاد السوفيتي، من الفئات العرقيّة الأخرى، وأن نظرة الناس إليهم تجعل منهم خصوماً إلدّاء. فكيف نتمكن والحالة هذه من فرض اتفاقية صلح على إسرائيل، وعدم السماح لها بإلحاق ضرر بمصالحنا مع العرب؟

وكل هذا لم يكن ليمنع ان تكون لنيكسون علاقات شخصية وديّة مع عدد من اليهود، بعد أن عيّن بعضهم في مناصب حكومية هامة. وفعلاً، كان يبدى أحياناً سروره، من لقائه فريقاً، يبادله الخبرة والرأي في بعض الأمور المعقّدة. وكان تعصّبه يظهر في بعض تنظيماته، فيعكس تأثّره الوقتي، وكان معاونوه يعلمون بوجوب عدم أخذ ذلك بالحسبان، لأنه لن يعود إليه مرّة ثانية. اني لم أحسب عدد المرات، التي أوصاني فيها، بإلغاء معونة إسرائيل، بمثابة انتقام من أعمال بعض النواب قليلي التهذيب. وكان عضو مجلس الشيوخ جاكوب جافيتز يتفنن في إغاظته. ولقد أصدر نيكسون مجدداً، أمراً من هذا النوع قبل استقالته بثلاثة أيام فقط. فعزمنا أنا وهيغ. على إصدار توجيه، وتقديمه للرئيس الجديد، لتوقيعه أو رفضه، (وتبنّى فورد الرأي الأخير). كما أن توجيهاته كانت عديدة، لنبيّن للزعماء اليهود المخالفات المعنوية التي كان تقدم عليها الشيوعية، فيما لو أن اليهود كانوا بحاجة لدروس خاصّة حول مساوئ الشيوعية.

غير أنه في نهاية المطاف، كان نيكسون يساند إسرائيل في كل أزمة، بقوة تفوق ما يقوم به رئيس آخر، باستثناء هارّي ترومان. وكان يبدى إعجابه من شجاعة إسرائيل، ويقدّر في الزعماء الاسرائيليين، دفاعهم الصلب عن مصالحهم القوميّة، ويعتبر أن شجاعتهم العسكرية، كانت ورقتهم الرابحة لدى الديمقراطيّات. وعلى الرغم من اعتقاده ان الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية، يقوّي عناصر التطرّف المعادية للغرب، فانه مع ذلك كان يعاند في تفهم ان العكس غير صحيح وكان يرى، ان تحويل إسرائيل لتنسيق أمورها مع القوات اليسارية، يساعد على تحبيذ المصالح السوفيتية على المصالح الغربيّة. وكان أيضاً لا ينسى مبدأ الأولويات، حين وقوع أزمة، ومهما يكن مسبّبها حسب رأيه. وكان يعلم انه غير قادر على تقديم حلول وسط، قبل إفشال جهودنا، نتيجة ضغوط سوفيتية، وفي النهاية وبعد استخدام عدة

طرق، توصل نيكسون إلى الحل ذاته الذي كنت توصّلت إليه وهو ان المصلحة القومية الأمريكية تتطلب إظهار السوفيت والمتشددين، بمظهر غير الراغبين في تحقيق شيء من أهداف العرب، ولم يحصل أي تقدّم، طالما ان العرب المعتدلين، هم أنفسهم على الأقل، لا يقبلون بإقامة صلح في حدود تسوية صحيحة.

ان وجهة نظري الشخصية، كانت تنطلق من الطرف الآخر من هذا الطيف العاطفي. إني غير ممارس لمذهبي، لكني لا أستطيع نسيان ثلاثة عشر شخصاً من عائلتي، ماتوا في معسكرات الاعتقال النازية. ولذا لم تكن لديّ رغبة البتة في تسهيل حدوث تضحيات أخرى، من خلال سياسة غير منظمة وتفتقر الى مراقبة. ومعظم الزعماء الاسرائيليين كانوا أصدقائي الشخصيين. ومع ذلك تشبهاً مني بنيكسون، يجب عليّ إخضاع رغباتي الشخصية إلى تفهم المصلحة القومية. وبالفعل، اذا عدت الى واجباتي التقليدية نحو مذهبي، أجد ان عليّ واجباً خاصاً يدعوني لممارسته، وليس هذا سهلاً، بل كانت ترافقه المشقّة أحياناً. لكن أمن اسرائيل، لا يمكن أن يصان على المدى الطويل، إلاّ اذا ارتبط بمصالح الولايات المتحدة الاستراتيجية، لا بعواطف بعض الأفراد. وعلى هذا الأساس تشاركت الطاقة غير المنتظرة المتكوّنة من المعاداة الضارية للشيوعية في كاليفورنيا الجنوبية، والهارب من ألمانيا النازية، في سبيل الخروج أخيراً من مأزق، شلّت فيه دبلوماسية الشرق الأوسط.

وفي نهاية عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢، ساهمت ثلاثة أحداث، في إيجاد حلول لقضايا الشرق الأوسط، وزيادة الترابط الموجود بين الرئيس ومستشاره للقضايا الأمنية، في المجالات الأخرى من سياستنا القومية. وأول هذه الأحداث الثلاثة، كان نيكسون يتحاشى تفجرّ الوضع في الشرق الأوسط في سنة انتخابه. ولذلك فقد طلب إليّ في نهاية عام ١٩٧١، البدء بمحادثات سرّية حول الشرق الأوسط، مع

إسرائيل والاتحاد السوفيتي لتأجيل الأمور إلى ما بعد الانتخابات الرئاسية. وعلى أي حال، فإن التأجيل واجب، وكان لدينا أمور كثيرة لبحثها في مؤتمري القمة في بكين وموسكو، دون المجيء على ذكر هجوم الربيع الذي قامت به هانوي.

ويمثل الحدث الثاني، قمة موسكو في شهر أيار من عام ١٩٧٢. ولقد وجهّنا لوماً للاتحاد السوفيتي، للميول التي يبديها لتشجيع الخلافات، حتى في أشدّ الإنفراجات وضوحاً. لكن نفوذه (أي الاتحاد السوفيتي) في الشرق الأوسط، عام ١٩٧٢، كان موجهاً في مجموعه، إلى تهدئة الأمور. وعلى كل حال، فقد أخذ يقلّص من تصدير الأسلحة إلى مصر، ويعطي انطباعاً باهتمامه دبلوماسياً بإحلال السلام في الشرق الأوسط. فتذمّر السادات كثيراً من مماطلة السوفيت في تسليم السلاح. وارتقى بتفكيره هذا إلى الذروة، عندما قبل وزير الشؤون الخارجية، أندريه غروميكو، لدى انعقاد قمة موسكو، فقرة وردت في البيان الختامي، تشير بكل وضوح إلى أن الاتحاد السوفيتي، أخذ في تجميد قضية الشرق الأوسط. وبعد أن أتعبته ساعات المحادثة الطوال، وافق غروميكو كذلك، على مجموعة من المبادئ العامة لتنفيذها، من خلال المفاوضات حول الشرق الأوسط، والتي كانت تتضمن تنازلات مذهلة حسب وجهة نظرنا.

على كل حال، فهم أنور السادات واقع ما جرى، وهذا ما أدى للانتقال للحدث الثالث والحاسم في تلك الفترة وهو انسحاب الجنود السوفيت. إن بيان قمة موسكو، كان بالنسبة للسادات، تلك القطرة التي جعلت الكيل يطفح. وهذا التواطؤ الظاهري، بين السوفيت والولايات المتحدة، شكل "صدمة عنيفة" لمصر كما ورد ذلك في مذكراته. ثم صرّح في أحد خطاباته، أنه لن يقبل أبداً أن يصبح الشرق

الأوسط، في المرتبة الرابعة أو الخامسة من أولويات السياسة السوفيتية. وهكذا أقدم السادات على مناورة جريئة، اختص بها نفسه، في الثامن عشر من شهر تموز لعام ١٩٧٢، وطالب بإبعاد جميع العسكريين السوفيت من مصر، خلال ثمانية أيام. وكان يقصد من وراء هذه العملية هدفين: إزاحة عائق يحول دون هجوم مصر على إسرائيل، لأن السادات كان على اعتقاد متين أن مستشاريه من السوفيت، لن يحرّكوا ساكنا ويشاركوا في العمليات العسكرية. ويفاجئ العالم بانفتاح دبلوماسي على الولايات المتحدة. ولم ينقضِ شهر على ذلك حتى جددّ اتصالاته المباشرة مع البيت الأبيض، فوجد من خلال ذلك تنظيم دبلوماسي سرّي، طريقه إلى الشرق الأوسط.

وحاول كل من البيت الأبيض والقاهرة، في خريف عام ١٩٧٢، تنظيم لقاء سرّي بيني وبين حافظ إسماعيل، مستشار الرئيس السادات لقضايا الأمن القومي، وحدّد آخر شهر تشرين الأول موعداً لهذا اللقاء، الذي أُجّل، نظراً لأن المفاوضات حول فيتنام، كانت تستغرق جميع أوقاتنا وكافة نشاطاتنا.

على الرغم من هذا التأجيل، فإن استراتيجيتنا الناشطة في آخر ولاية نيكسون الأولى، قاربت على إيتاء أكلها، وأبعد التواجد العسكري السوفيتي من مصر. وأخذ السادات بالتقرّب منا، على الرغم أننا لم ندرك مجمل ما يرمي إليه، ووضح لنا أن أهدافه مختلفة تماماً، عن المساومات الأساسية التي كان يقوم بها سلفه. ذهل الزعماء السوفيت ممّا لحق بهم، وأخذوا يتساءلون عن الطريقة لاسترداد نفوذهم المتهاوي، وأخذوا يحصرون اهتماماتهم بأمور سطحية، أثبتت أنهم لم يتقنوا اغتنام الفرص في حينها. وأصبح الزمن إلى جانبنا ولن يحدث بعد ذلك أمر دون أخذ رأينا، ولم يبق أمام من كانوا يستندون في شؤونهم على الاتحاد

السوفيتي، سوى التخلّي تدريجياً عمّا كانوا يحلمون به. ومسلك نشيط ومتزّن أخذ ينفتح، باتجاه الولايات المتحدة.

❒ ❒ ❒

قلّما تتواجد احتمالات وحقائق في الشرق الأوسط، ففي بداية عام ١٩٧٣، لم يكن الوضع الراهن ليعطي أيّ مؤشّر لتغيير إستراتيجي، إذ بعد ان قتل الفدائيون الفلسطينيون، الرياضيين الاسرائيليين، في دروة الألعاب الاولمبية في ميونيخ، في شهر أيلول من عام ١٩٧٢، قامت اسرائيل بهجمات انتقامية على سورية ولبنان، وتفاقم الوضع. فوحّد العرب صفوفهم ضدّ إسرائيل. وعلى أثر ذلك، اجتمع ثمانية عشر وزيراً عربياً للشؤون الخارجية والدفاع، في القاهرة، في آخر شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٢، فشكلوا مجلس دفاع عربي مشترك، وعينوا وزير الحرب المصري، المارشال أحمد اسماعيل علي، قائداً أعلى لجبهات القتال الأردنية والسورية والمصرية. واتفق الوزراء العرب كذلك، بعد موافقة عمّان، على تعزيز الجبهة الأردنية. (وظلّ تفسير هذه العبارة الأخيرة غامضاً، لأن الأردن صرّح فجأة، أنه يحتفظ بسياسته، القائمة على عدم السماح بعودة الفدائيين إلى الأردن، ليقوموا بعمليات ضد إسرائيل). ولما جاء دور التطبيق، ظهر ان هذين القرارين الأول والثاني، لن يصار الى تطبيقهما، وهذا ما يحدث عادة خلال اجتماعات الوزراء العرب للشؤون الخارجية.

ولقد أعلن، رئيس الوزراء المصري، الدكتور عزيز صدقي، في الحادي عشر من شهر شباط عام ١٩٧٣، صرف النظر، عن بعض البرامج الداخلية في سبيل إبراز فكرة أساسية تُعِدّ الشعب لمقاتلة إسرائيل، وهو في طريقه لوضع موازنة حرب. فعدنا بذاكرتنا الى التهديدات المصرية التي لم تنفّذ في الماضي، فلم نُعِر اهتمامنا للتهديدات

الجديدة، بقدر ما كان يهمنا أن تضع أجهزتنا السرّية، تحديداً لخيار عسكري حقيقي لمصر، على الرغم من التقدم الذي حصلت عليه بهذا الشأن. وفعلاً، يتّهم السادات، في العالم العربي، بعدم القدرة على عمل أي شيء، مما يدل، علىان جميع الفرقاء ذوي العلاقة، لا يفقهون حقيقة أهدافه المعقّدة.

كان السادات يتهيّأ للحرب، محتمياً بتعبئة غريبة لا تخطر ببال أحد. فإذا أعلن زعيم عن نواياه، بطريقة متواترة وطنّانة، لن يصدّقه أحد. وأخذ السادات يعلن ان عام ١٩٧١، سيكون «عام الحسم» فصدّقناه. وفعلاً فإن أحد الأسباب الهامة، التي دعتنا أن نعارض بقوّة الهجوم الهندي على الباكستان، هو اننا كنا راغبين في ردع مصر عن محاولة تحقيق مطامعها بنفس الطريقة. وربما كان هذا السبب، أو غيره من الأسباب الشخصية، التي حالت دون اتخاذ السادات أيّ اجراء عسكري، في هذا العام، أو في العام الذي تلاه أي ١٩٧٢. وظلّ التهديد المقلق، ينطلق من القاهرة، وكان تقديرنا منذ العشرين من شهر كانون الأول لعام ١٩٧٢، ان ليس لدى السادات أيّ خيار عسكري. وتفوّق إسرائيل العسكري كان يبدو أكيداً. لا يستطيع السادات التخلّص من مشاكله، عندما يعلن عن هجوم عسكري شامل، تكون نتيجته الفعلية الفشل. ومن جهة أخرى، فلو كان قادراً على القيام بهجوم عسكري محدود، فلا نرى فيه حسب تقديرنا، مبرراً عسكرياً تقليدياً، ولن يكتب النجاح أيضاً لهذا الهجوم. ولن تكون نتيجته سوى أحياء الاهتمامات الدولية والتحريض عل اجراء مفاوضات. وسيؤدي فشله الى تفاقم المأزق الدبلوماسي. ولو بدأنا بالمفاوضات، ربما تظهر صعوبات أخرى لأن وقف إطلاق نار يستند الى انسحاب جزئي للقوات على طول قناة السويس، لن تقبله مصر. والسلام الكامل يبدو مستبعداً، ما دامت إسرائيل، لاتوافق على تسوية عامة، على أساس حدود عام ١٩٦٧، بحيث ان الدول العربية الأخرى، ستناهض كل صلح مصري منفرد، فلم يبقَ أمام مصر والحالة هذه، خيار آخر، سوى إنتظار مبادرة دبلوماسية أمريكية. ولم

تكن للسادات أية علاقة بوجهات نظرنا، إذ بينما كنا نسعى للقيام، بمحاولة دبلوماسية جديدة، كان هو بدوره، يفتش عن وسيلة عسكرية تخرجه من المأزق.

أخذ نيكسون في بداية ولايته الثانية، يدفعني بإلحاح الى اجراء مفاوضات في الشرق الأوسط، ولكن دون العودة الى تلك المهمّة، التي كان كلّف بها وزارة الخارجية. وفي كل مرّة كان يلتقي زعيماً من الشرق الأوسط، كان يباحثه بطريقة استكشافية و بحضوري، وهذه طريقة جيدة لضياع ساعة من الزمن دون إحداث بلبلة. ولما كان نيكسون لم يسحب بعد من روجرز الحق ببدء مفاوضات، فلقد توضّحت أمامنا ثلاثة أصعدة متوازية:

- الاتصالات الرسمية، التي تقوم بها وزارة الشؤون الخارجية، الهادفة الى الحصول على انسحاب مؤقت على طول قناة السويس.
- واتصالاتي السرّية مع حافظ اسماعيل، حول تهيئة اقتراحات مصرية يصار إلى تحديدها، في ضوء تنظيم لقائنا السرّي.
- واتصالاتي الخاصة مع السفير السوفيتي ، اناتولي دوبرينين، بشأن تقارب امريكي سوفيتي، الغرض منه النظر في مشكلة الشرق الأقصى. وللتمكن من الوصول الى ترابط منطقي ولو ظاهرياً، سعيت الى تأجيل كل مبادرة جديدة تقوم بها وزارة الخارجية، خلال الولاية الثانية، وتجميد ولو آنياً الانفتاح على السوفيت حتى أتمكن من سبر غور ما كان يريده المصريون، عندما التقي حافظ اسماعيل. ولم تكن العملية بحدّ ذاتها سهلة، في حين كنت أقوم وحدي بتتبع جميع هذه الاتصالات إذ ان عمل وزارة الشؤون الخارجية، قد شُلّ دون سبب وجيه. وأسلوب حكومي كهذا لن يكتب له البقاء، طوال ولاية رئاسية بكاملها، حتى ولو لم توجد فضيحة واترغيت.

كالمعتاد، فان وزارة الشؤون الخارجية، هي التي تأخذ المبادرة بدبلوماسية الشرق الأوسط. وكانت نتيجة ما طرحته من مشاريع حلول عامة، بين عامي ١٩٦٩ / ١٩٧١، أن توحّد رأي الطرفين في معارضة الاقتراحات الأمريكية. فعزمت وزارة الشؤون الخارجية، على السعي الحثيث مجدّداً، للحصول على انسحاب مؤقت على طول قناة السويس، الأمر الذي فشلت فيه في الولاية الأولى، لأنه كان عبارة عن التورّط في عمل، دون إشباعه درساً وتمحيصاً، مع هذا الفريق وذاك للتأكد من تحقيقه.

ولكي تظهر وزارة الخارجية قدرتها عل العمل في عدّة أصعدة، أرسلت في الثاني والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣، أي قبل يومين فقط من حفلة تنصيب نيكسون، تعليمات الى القائم بأعمالنا في القاهرة، وكان إذ ذاك جوزيف ن. غريين، دون إعلام البيت الأبيض. (ولا أعلم بكل تأكيد، عما اذا كان روجرز، كلّم نيكسون بذلك). ودون الأخذ بعين الاعتبار، رفض السادات العلني، في شهر أيلول عام ١٩٧٢، لكل اتفاق مؤقت مماثل، عادت وزارة الشؤون الخارجية، فطلبت من غريين، ان يحاول الحصول علىاتفاقات فعليّة مشابهة، وكان هذا أفضل اقتراح، يحمل أفق تقدّم حقيقي، يعرض في الوقت الحاضر.

والمألوف في السياسة، يوجب على السادات انتظار، ما تؤول اليه محادثاتنا، لذا فقد رفضت مصر هذا العرض. وفي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني، بيّن اسماعيل لغريين، ان مصر لا ترغب في تسوية مؤقتة، وهي لا تمانع في اجراء محادثات تمهيدية حول مشروع كامل. ولم تكن هذه الإمكانية متاحة عام ١٩٧١، إذ لو أن إسرائيل أبدت استعدادها بقبول العودة الى حدود ١٩٦٧، لما دعت الحاجة الى اتفاقية مؤقتة. وخلال محادثته تلك، عدّد اسماعيل تظلّم مصر من مساندة الولايات المتحدة لإسرائيل. ان مصر توافق، من جهتها على ما يظهر مفيداً للأمّة العربية، ولن تقبل باستخدام النقض من قبل أي بلد آخر. ومن جهة أخرى، فانها لن تُقدم على صلح منفرد. واكتفى

اسماعيل بذلك، ولم يبيّن لغريين كيف يمكن التوفيق بين هذين الاقتراحين. ومن المفيد لنا ان نعرف ما كان يدور في ذهن هذا الرجل، لأن توقّعاتنا الحكومية، رفعته الى مقام يتمكن فيه من مفاوضة ممثلين أمريكيين يجهل كل منهما ما يتوصّل اليه الآخر.

وسار اسماعيل في الاتجاهين حسب أهمية كل منهما. وحاول في اتصالاته السرّية ممارسة ضغوط قوية، وحذّراً من أنه في طريقه الى اجراء محادثات مع الإتحاد السوفيتي في بداية شهر شباط، وهي مباحثات متوقع اجراؤها منذ أمد طويل. وأكّد في الوقت نفسه، ان مصر ستتخذ قرارات، لا رجعة عنها، اذا لم يحدّد تاريخ الالتقاء. فأجبت بدوري، ان لقاءً سرّياً بيننا غير ممكن حالياً، قبل الانتهاء من مفاوضات فيتنام، ولكني أقبل، « بكل وجهة نظر مصريّة مبدئية في هذا السبيل». لم يقع اسماعيل في الشرك، لكنه أعلمني بالمقابل، انه متوجّه الى لندن في نهاية شهر شباط، ويرى لقائنا مناسباً هناك وللأسف فقد كنت أُعِدّ نفسي للسفر الى هانوي ومن ثَمّ الى بكين. وليس لدي ذريعة للتواجد في لندن في التاريخ المقترح. ومستفيداً من اقتراحات المصريين حول اجراء مشاورات تمهيدية، لتنظيم لقائنا، فأوفدت مبعوثاً الى القاهرة، ليبيّن لاسماعيل الخطوات التي نتّبعها في حياتنا الادارية. وكان هناك تحديد للسفرات السرّية، التي اتمكن من القيام بها، لا سيما في الوقت الحاضر، حيث أصبح دوري معروفاً في المفاوضات، وأخذت الصحافة تتتبع تحركاتي. ويجب إطلاع الحكومة البريطانية على واقع الأمر، اذا توجهت الى لندن بصورة رسمية، وإيجاد الذريعة اللازمة للإبقاء على ادارتنا خارج الموضوع.

لقد لاحظ المصريون دون شك، العديد من الاختصاصات الثقافية، لدى الأجانب، الذين التقوا بهم، طوال آلاف السنين من تاريخهم، ويصعب على هذا خلب لبّهم. وفي الواقع، اذا صدف وتكشّف أمر عن بعض التعقيد والإشكال فان المصريين

أهل ان يوجدوا له الحلّ السريع. فأخذ اسماعيل القضية على محمل الجدّ وبعد تبادل آراء، اتفق رأينا أخيراً على اجراء يقبله العالم قاطبة، ويسمح بصورة عجيبة، ان تشترك فيه جميع الأطراف الإدارية ذات العلاقة. ويكون الاجراء كالتالي:

يدعى اسماعيل من قبل وزارة الخارجية، للقيام بزيارة رسمية الى واشنطن في الثالث والعشرين من شهر شباط لعام ١٩٧٣، وسيقابله نيكسون، كما يلتقي بمسؤولين في وزارة الشؤون الخارجية. وبعد الانتهاء من هذا البرنامج الرسمي سيتوجه الى نيويورك، ثم ينتقل من هناك الى مكان سرّي في الضاحية، وهو بيت مستأجر لمثل هذه الحالات، حيث نلتقي أنا وإياه، ونتذاكر في العلاقات المصرية الأمريكية، ونكون في هذه الحال منفردين لمدة يومين.

هكذا إذاً، استقبل جيري غريين، بصورة مفاجئة، وبكثير من الدهشة، تعلميات وصلته الى القاهرة، حول دعوة حافظ اسماعيل ليقوم بزيارة الى واشنطن، ولم تتمالك وزارة الشؤون الخارجية نفسها، إلا أن تعزو ما جرى في الواقع، الى تذبذبات البيت الأبيض الغامضة، لا الى اتصالات ظلّت متباعدة طوال خمس سنوات، ثم تبدّلت فجأة الى عناق تفاخري، أمّا بالنسبة لاسماعيل، فانه سيتعرّف على المرجع مباشرة، في تنظيم جهاز اتصالاتنا، لأني لا أنا ولا واحد من فريق عملي، يجوز لنا حضور اجتماعات وزارة الشؤون الخارجية، وكذلك الأمر فان وزارة الخارجية، تجهل كل ما سوف يدور حين التقائي باسماعيل.

لم تكن القاهرة تتحرّك فقط تجاه ادارتنا، بل أيضا تجاه قوى عظمى تتنافس في السيطرة على الشرق الأوسط. ولتعزيز الدور الذي ستقوم به مصر في واشنطن، قام حافظ اسماعيل والمارشال علي، وزير الحربية آنذاك بزيارة موسكو، في شهر شباط من عام ١٩٧٣. فوجد الكرملين نفسه في وضع غير مريح. لأن الزعماء السوفيت، فهموا

انهم سيدفعون غالياً، ثمن عدم اهتمامهم بقضايا مصر في مؤتمر قمة موسكو، الذي انعقد عام ١٩٧٢. كما كانوا يعملون في الوقت ذاته، انهم اذا شجعوا على حلول لا ترضي إسرائيل، تنكشف عدم قدرتهم، (وهكذا فانهم يقومون بتمثيل دورنا) ولو أجبروا على حلّ بالوسائل العسكرية، فان هذا سيؤدي الى هزيمة العرب. (ويمكن الحكم على ذلك، من خلال التعليقات الصلفة التي كانت توجّه إلينا، والتي تدل على ما كان لديهم من عدم تقدير لقدرات العرب القتالية).

ان قوّة السوفيت غير كامنة في حدّة ذهنهم، فقد يتوصلون إلى حلّ ما يعترضهم من عقبات، وربّما عن غير قصد، باستخدامهم مزيجاً من الحلول الاعتراضية. ويبدو أنهم أكدوا لاسماعيل معارضتهم لتسوية مؤقتة، معتبرين ان كل اتفاقية تجري تحت كنفنا، تقلّص من نفوذهم، وفيما هم يشيرون بذلك للمصريين ازداد الضغط وتفاقم الخطر، مما دعاهم إلى تحريرهم (أي المصريين) من حدوث مجابهة بين الإتحاد السوفيتي و الولايات المتحدة. وانطلاقاً من هذا الموقف، على مصر ان تتدبر حسناً مصالحها الخاصّة، مع ترك الباب مفتوحاً امام إمكانية معارضة ماتطلبه إسرائيل. ولم يمض وقت طويل على ذلك، حتى نفّذ السوفيت تسليم أكبر كمية من السلاح، يمكن ان يتفق عليها الشرق الأوسط. ولربما يُظّن هنا، ان الإتحاد السوفيتي رأى في هذه السياسة المبتورة، الوسيلة الوحيدة التي يتمكن بها من تأجيل الأمور، وكأني به أيضاً يوافق ضمنياً على هجوم مباغت محدّد، ويعارض حرباً طويلة الأمد. وبالفعل، فانه أوجد فكرة انفجار في المنطقة لا يستطيع هو نفسه احتواءَها. كما انه شجّع أزمة، اعتقد ان يستغلّها بجعل نفسه الناطق بلسان العرب. دفاعاً عن مصالحها. وهو لا يملك القدرة على إكمال ما يتحمس ويوعز به. وفي نهاية المطاف، فان هذه المبادرة أفقدت السوفيت، كل ما كانوا يبنون عليه من آمال، وأثبتت ان أنصاف الحلول ليست احتكاراً للغرب البورجوازي.

وعن طريق الاتصالات السرّية، أرسل بريجنيف إلى نيكسون، في الثامن عشر من شهر شباط، مذكرة يعلمه بها خلاصة ما جرى خلال زيارة إسماعيل لموسكو. وبموجب المذكرة السوفيتية، يمكن توقّع حدوث تسوية ولكن على مراحل، «في إطار مشروع موحد عام، بنوع ان جميع عناصر التسوية تكون متناسقة ومتوازية. ولن تكون هناك تسوية إسرائيلية مصرية مستقلّة، عن التسوية التي تحدث بين إسرائيل، وبقية البلدان العربية الأخرى، المشمولة بالنزاع. وفي النتيجة، أضاف بريجنيف قائلاً: «لقد حدث لدينا انطباع، من خلال المحادثات التي أجريناها مع السيد اسماعيل، إذا لم تصل القضيّة إلى حلّ سياسي هذه المرّة، فباستطاعة العرب اللجوء إلى وسائل أخرى ممكنة لوضع حلّ حيوي لها». ان السوفيت بعد توجيه الأنظار نحو أخطار مجابهة، عادوا فنبّهونا بلهجة غيرمستحبّة، إلى ما أثاروه هم أنفسهم.

وبالاختصار، فقد قدّموا، وهم يهددون بالحرب، برنامجاً عربياً متصلّباً، لا يؤدّي، إلاّ إلى مأزق، أو إلى عمل عدواني. ان موسكو، التي تعارض اجراء تسوية مؤقتة، والصلح المنفرد بين إسرائيل ومصر، هي التي تشجع ضمنياً على تفجير الموقف. ولربّما كان تقدير الكرملين، في أن تأزّم الأزمة يدفع بالولايات المتحدة إلى التدخل. لكن الإفراط في المهارة، لا يجدي في الدبلوماسية. ومشكلة موسكو تكمن في عدم قدرتها على المشاركة في إجراء تسوية، إلاّ بحمل من هو تابع لها من الدول العربية على الصلح. ولما كانت موسكو نفسها غير راغبة بالوصول إلى ذلك، فانها كانت تقوي النزاع، مبدية تخوفها من نتائجه، ومؤكدة عدم تدخلّها.

❐ ❐ ❐

عندما وصل حافظ إسماعيل إلى واشنطن في الثالث والعشرين من شهر شباط لعام ١٩٧٣، كنّا على معرفة ضئيلة بتصوّرات مصر الحقيقة. وكنّا نقدّر، أن

هذه الاتصالات السرية، هي بمثابة مؤشّر مشجّع، ويجدر بنا موازنتها، مع ما كان يجري من مباحثات بين مصر وموسكو، واستمرار الدعاية الحربية المصرية. كان إبعاد القوات السوفيتية من مصر، حدثاً هاماً، لكننا لا نستطيع أن نستنتج أن إقدام السادات على ذلك كان ليفسح المجال لنفسه، بطرح مبادرات عسكرية. وكما يبدو لنا، أن السادات، كان يتّبع دوراً ملطفاً مأخوذاً من الاستراتيجية الناصرية، فهو يقدّم لنا مثلاً برنامجاً عربياً متكاملاً متضمناً تنازلات، ويعرف أن الفلسطينيين سيعارضونه مسبقاً، لأن السوفيت هم الذين يساندونهم. ومن العسير علينا أن ندرك بالضبط مطالب السادات، وربّما هو نفسه لم يقدّر بعد ما يريد.

وكان السادات كغيره من فرقاء النزاع، أمام طريق مسدود، وحيث أنه كان كثير التصوّر، فلربما أن هذا سبّب له بعض الحرمان. فهو يعلم أن البرنامج النهائي للانضمامية العربيّة، لن ينفّذ، لكن التخلّي عنه يعرضه للعزلة في العالم العربي، دون أن يضمن له بالمقابل، موافقة إسرائيل. وبالفعل، إذا حكمنا على ما تطلقه إسرائيل من تصريحات علنيّة، فإن التسوية تدعو إلى التخلّي عن أراضٍ مصرية، الأمر الذي لن يقبل به السادات أبداً. ولا يغيب عن بالنا أن الصلح يستوجب تنازلات من قبل العرب، وهذا أمر عسير القبول به، ضمن إطار ما أوجدته خسارة حرب ١٩٦٧ من حرمان وخيبة أمل. وهذا ما كان يدعو السادات إلى الوقوف بصلابة أمام مشروع تسوية مؤقتة. وهو يخشى أن يتهم بالضعف، لا بعدم القدرة على مسك زمام السلطة وفن تدبيرها. ولهذه الأسباب مجتمعة، وفي سبيل إيجاد مخرج لهذه المشاكل، جاء إسماعيل إلى واشنطن.

كان نيكسون يبدي استعداده لتدخّل الولايات المتحدة دبلوماسياً، أولاً

بصورة استكشافية، ومن ثمّ بصورة كاملة، بعد إجراء الانتخابات الإسرائيلية المتوقع إجراؤها في شهر تشرين الأول. لكننا لن نستطيع تحقيق أيّ تقدمّ، إذا ظنّ أننا نحن أيضاً سوف نتقدّم بتسوية عامّة مُترابطة، أو أن يُسنّد إلينا القيام بهذا المشروع. ولا مجال للنقاش بالنسبة لنا من فرض الصلح، لكني تريثت واقترحت "موضوعاً للمناقشة" (وافق عليه نيكسون) ودعوته إلى تحديد الأمور التالية لإسماعيل:

"برهنت سياستي (والقول لنيكسون) في فيتنام، أننا لا نخون أصدقاءنا. وقوة عظمى، لا تتصرف بهذا الشكل، لتظهر قدرتها. وتحول دون رغباتنا، موانع قويّة لإجبار إسرائيل أن تقوم بما نريد ...

"على مصر، ألاّ تنخدع، وليس هناك تسوية تحقّق جميع مطالبها".

"ومن جهة أخرى، على مصر ألاّ تأمل أبداً استرجاع ما فقدت من دون تسوية. ولا علاقة لنا بذلك، لكنّها الحقيقة المجرّدة كما نراها. ولذلك فإن كلاً من مصر وإسرائيل ستقدم على اتخاذ قرارات صعبة".

وبمقولة أخرى، لدينا استعداد لحمل إسرائيل على تقديم تنازلات، لكن هذا يتطلب أيضاً أن يقدم المصريون بعض المرونة، وعلى كل حال، فإن مذكرتي، أعادت إلى ذهن نيكسون، ازدواجية أفكاره. ولقد أشرت فيها إلى خيارات ثلاثة:

أولاً: البقاء على الحياد، وإفساح المجال أمام الفريقين، للتفكير ملياً بأوضاعهما.

ثانياً: السعي في سبيل تحقيق اتفاقية مؤقتة.

ثالثاً: العمل بسرّية، بغية الوصول إلى اتفاقية حول المبادئ العامة لتسوية شاملة.

أظهر نيكسون عدم رغبته في الحديث عن الخيار الأول: البقاء على الحياد.

وسجّل ملاحظة على الهامش، تتضمن توقّعه في أن التأجيل في حلّ المشاكل يؤدي إلى الحرب:

«ك ـ حتماً لا. ولا بدّ من مصارحة (السفير اسحق) رابين، قبل أن التقي (غولدا مائير) لقد أجّلت القضيّة، طوال فترتين انتخابيتّين، وإني عازم هذا العام على التدخل في صميم القضيّة. وإني لا أوافقك أبداً على رأيك».

ولم يعلّق نيكسون على الخيار الثاني (اتفاقية مؤقتة) وأظهر أنه يفضّل الحل الثالث: محادثات سرّية، بغية الوصول إلى تسوية عامة، فسجّل إزاءَها: "خطّ سير العمل، الواجب اتباعه، وفي الوقت ذاته، أكمل الاتصالات العامة ولو ظاهرياً، ولا تسمح لها أن تتدخل بالاتصالات الخاصّة". ولم يفسح لي نيكسون المجال، لكي أتدبّر أمري فأبدأ باتصالات عامة، أُسبقها بمشروع من قبل وزارة الخارجية، حول تسوية جزئية مؤقتّة، تكون بمثابة مبادرة لمفاوضات حول تسوية شاملة، علماً أن الموضوعين متناقضان.

لقد أظهر عنف الحواشي، التي سجّلها نيكسون على هامش مذكرتي، كم كان اهتمامه كبيراً بوجوب السير إلى الأمام. وألحق تعليقاً آخر في نهاية مذكرتي:

"ك ـ أنك تعلم أن موقفي الذي يتطلب مني مساندة إسرائيل بحزم، يرتكز على أمور تفوق بقاء إسرائيل فقط. وهذه الأمور تدعو الآن وبإلحاح إلى بذل جهود بغية الوصول إلى تسوية. نحن الآن الصديق الوحيد لإسرائيل في العالم. ولم ألاحظ أنهم تخلّوا ولو عن حرف واحد».

ومن خلال هذه الأجواء، أخذ محمد حافظ إسماعيل لمحة عن عدّة مستويات في الحكومة الأمريكية. وفي فترة لا تتجاوز ثماني وأربعين ساعة، سيقابل رئيس

الولايات المتحدة، الذي سيوقفه على أمور عامة، ووزارة الشؤون الخارجية التي ستبحث معه أمر اتفاقية مؤقتة، دون دعم من قبل البيت الأبيض. ومستشار الرئيس نيكسون لقضايا الأمن القومي، الذي سيباحثه حول المبادئ التي تؤدي إلى اتفاقية شاملة، أثناء اجتماع سرّي، دون مشاركة وزارة الخارجية. واحتفظ إسماعيل برباطة جأش غريبة، أمام كل هذه التعقيدات. وهو ممتلئ الجسم لا يزال وقار رتبة الضابط، بادياً عليه، كما كان إبّان خدمته، ويتحلّى بالإضافة إلى ذلك بعزّة نفس المصري المثقّف.

كان موعد لقاء حافظ إسماعيل بنيكسون، في تمام الساعة الحادية عشرة والثلث من يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر شباط، وكما هي عادته في المقابلات الوجاهية، أظهر نيكسون غموضاً أكثر ممّا كانت عليه تعليقاته على مذكرتي آنفة الذكر. وأثناء اللقاء، سلم إسماعيل للرئيس نيكسون مذكرة أرسلها له الرئيس السادات، وكانت تتضمن بموجب العرف السياسي إنذاراً لمساندة المطالبة بتسوية شاملة. وقد جاء فيها: "أن الجهود مبذولة الآن، للوصول إلى تسوية عادلة وشاملة. غير أن الوضع في منطقتنا، قد ساء، وأخذ يهدّد تقريباً بالانفجار. فأبدى نيكسون أسفه لعدم تحقيق أيّ تقدم في الماضي، وأضاف أن المهم الآن، هو معرفة المدى الذي نحن فيه والذي يمسح لنا باستكشاف الإمكانيات، التي توصلنا إلى حلول.

وأعاد إسماعيل على مسامع نيكسون، خلال محادثتهما، ما ورد في رسالة رئيسه، مؤكداً أن وقف إطلاق النار، منذ ثلاثين شهراً، ليس هو بالنهاية المرجّوة في حد ذاته، لأن نتائجه العمليّة تثبت غزو إسرائيل. ووقف إطلاق نار فعلي يجب أن يؤدي إما إلى تقدم حقيقي نحو الصلح أو العودة إلى الحرب. وعلينا الآن إيجاد حلّ لقضيّتين: الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصري، والقضيّة الفلسطينية،

التي هي جوهر المشكلة بكاملها. فإذا وافقت إسرائيل على الانسحاب من الأراضي المصرية، فإن لدى القاهرة استعداداً لبحث موضوع الضمانات الأمنيّة، وإنهاء حالة الحرب القائمة. كما أن الصلح النهائي بين مصر وإسرائيل، يتطلب حلاً يرضى به الفلسطينيّون. ولم يرد ذكر لسورية في هذه المحادثات.

ونيكسون، الذي يغيظه الإسهاب أثناء المفاوضات، رأى إجراء محادثات سرّية بين إسماعيل وبيني ليوفّر على نفسه إجابات دقيقة. ولقد أكد والحق يقال، على حل القضّية، خلافاً لما ورد في تعليقاته على مذكرتي. ولقد ذهلت ممّا أبداه، في نهاية الأمر، من تحبيذ لتسوية مؤقتة في قناة السويس. ثم أردف قائلاً: إني مدرك لمدى خوف مصر من أن الحلّ المؤقت يمكن أن يبقى مجمَّدا. غير أن إنجازه ممكن في المستقبل. وبالنتيجة على إسماعيل أن يتدارس هذه الأمور معي، بصفة إنها نقلة نحو مراحل جديدة، وأخيراً أكدّ نيكسون: نحن مناصرون للحلّ النهائي، ووعد بتوجيه جميع جهوده، في هذا السبيل، وكان في الوقت ذاته، لا يعتقد بإمكانية حلّ مشكلة الشرق الأوسط بكاملها دفعة واحدة، وبجميع مراحلها. وهذا أيضاً، ما كان علينا أنا وإسماعيل بحثه، ولكن بأقصى درجة من السرّية.

وبعد تكليفنا أنا وإسماعيل بوضع إطار لتسوية مؤقتة، وتسوية شاملة ذهبنا معاً إلى إحدى ضواحي نيويورك. لنجري محادثات استكشافية ونهائية في آن واحد، خلال يومي الخامس والعشرين والسادس والعشرين من شهر شباط. وكنا اقتنينا بيتاً فخماً، لمثل هذه المناسبات، في منطقة كثيرة الغابات قابلة للسكن. وكانت لقاءاتنا تتّم على طاولة غرفة الطعام، فنتبادل الحديث دون جدول أعمال، في ردهة الاستقبال. وتناولنا الغداء معاً في اليوم التالي.

إن المباشرة بمفاوضات معقدّة، هي بمثابة بداية لزواج منسّق. لأن المشاركين يعلمون أن الرسميات تنتهي، عند التعريف على أوضاعهم الحقيقية. ولا يستطيع أحد الفريقين معرفة الظرف الذي يتمكن فيه من القبول، ومتى تظهر مؤشرات الرضا، وعند تغلّب المجتمعين على خلاف ما، فإن هذا يظهر على وجوه جميع المشاركين، الذين ظلّوا حتى الآن متكتّمين، وربما أن اختلافاً في وجهات النظر، يؤدي إلى قطع نهائي للعلاقات. ولما كان مستقبل المحادثات لا يزال غامضاً، يجتهد الفرقاء في حل أمور، لا يقدرون على حلّها في ظروف غير هذه الظروف.

وكما هي عادتي، أُمضي الجلسة الأولى في أية مفاوضات جديدة، في الإطلاع. ولا أتقدم باقتراح ما. بل على العكس من ذلك، أحاول فهم خفايا وضع محدثي، وتقويم مدى وحدود أية تنازلات ممكنة. وبذلت مجهوداً كبيراً، حتى لا يكون هناك مجال للشك في تقارب وجهات نظرنا الأساسية. والمخادعون وحدهم يعتقدون أن باستطاعتهم التغلّب في المفاوضات، بطريقة الخداع، ومدّعو المعرفة وحدهم يظنّون، أن تقدّم المفاوضات يدعو إلى التكتّم. وفي مجّمع دولي ذي سيادة، لا يبت باتفاقية، ما لم يجمع الفرقاء، أن فيها مصلحتهم. ويجب أن تحملهم رغبتهم على الاشتراك في النتيجة. لا يتوقف فنّ الدبلوماسيّة على خداع الفريق الثاني، بل على إقناعه، بمجموعة من الفوائد، أو بالأخطار التي يتعرّض لها، إذا لم يبادر إلى الخروج من المأزق.

وسرت على هذا المنوال في محادثاتي مع إسماعيل. فبدأت بإطلاعه على ما في حكومتنا من شواذ. كان منهج سياستنا ينطلق من وسيلتين. وهذا ما استخدمته مصر فعلاً، باتصالها مباشرة بالبيت الأبيض. ولن يؤدّي بنا الأمر إلى نتيجة، ما لم يفرد الفريقان أوراقهما على طاولة المباحثات. فلو حاولت القاهرة أن ترسل إلينا المذكرة تلو الأخرى، لأوقعنا هذا وبدون شك في الارتباك، وأصبح سبباً لمأزق

حقيقي. وهذه طريقة تتبّع عند حدوث مشاكل. وهناك طريقة أكثر سهولة بإقامة أساس أو قاعدة من الثقة. فدعوت إسماعيل إلى مصارحتي والكشف عمّا يفكر به، وما هو شعوره.

عندما التقيت بحافظ إسماعيل، في ضاحية من ضواحي نيويورك، كنا بعيدين عن مستوى هذه الثقة. وفي الحقيقة، لم يأتِ إلينا إسماعيل، متوسطاً، أو واعداً بتسوية، بل ليوجّه إلينا إنذاراً دقيقاً، يطالب بما ليس بمقدورنا أن نكمله. وعندما صارحني بما قاله لنيكسون، بدى إسماعيل وكأنه يُصر على إجراء تسوية خلال عام ١٩٧٣، وكان يؤمّل على الأقل، أن يصار إلى هذه التسوية قبل شهر أيلول، بموجب المبادئ الأساسية، التي اتفق عليها: (النقاط الرئيسية للاتفاقية) ولم يوضّح ما كان يقصد بذلك، ولا ما سوف يحدث، إذا لم تعقد الاتفاقية خلال المدة التي حدّدها. ورفض إسماعيل اتفاقاً مؤقتاً، مثل الانسحاب من قناة السويس، ما لم يشكل جزءاً من مخطط كامل، يطبّق على مراحل، وفي أقصر مدة ممكنة، وإلاّ فإنه يستبعد التفكير فيه. وعلى وجه الخصوص، يجب على إسرائيل أن تقبل شرطاً لازماً، لا يقبل المفاوضة، بالعودة إلى حدود ١٩٦٧ مع جميع جاراتها، وربما رافق ذلك بعض تعديلات ثانوية على الضفّة الغربيّة. وعلى غير هذا الأساس، لن تشترك مصر في المفاوضات، التي ستبحث فقط الترتيبات الأمنية. وربما انبثق عن تلك الترتيبات، مناطق مجرّدة من السلاح، تقام على الجانبين من الحدود الدولية، لأسباب اعتبارية وأمنيّة. ويمكن إقامة مراكز مراقبة دولية، ينحصر عملها في أماكن استراتيجية، مثل شرم الشيخ على خليج العقبة. وستضع مصر لقاء ذلك، حداً لحالة الحرب مع إسرائيل، ولكن دون إبرام صلح كامل. وستفتح المسالك المائية الدولية أمام السفن الإسرائيلية، كما أنها ستضع حداً للدعاية المعادية،

ولمقاطعة الشركات الأجنبية، التي تتاجر مع إسرائيل. لكنّها (أي مصر) لن تقبل أبداً بإقامة علاقات دبلوماسية كاملة ولا فتح حدودها مع إسرائيل.

إن هذه الخطوة من "المصالحة الكاملة" أو "تطبيع العلاقات" تتوقف على تسوية شاملة مع كل الأطراف ذات العلاقة، بما فيها سورية وفلسطين.

وسيطبّق المبدأ نفسه من حيث الانسحاب والاحترازات الأمنية على هضبة الجولان. وأبدى إسماعيل مرونة زائدة، فيما يختص بالضفة الغربية: ويمكن أن تجرى حولها مفاوضات، سواء مع الملك حسين، أو فريق غير محدّد من زعماء فلسطينيين. وستقبل مصر بكل نتيجة يوافق عليها الفرقاء المعنيون، حتى فيما يتعلق أيضاً "بمشروع آلون" الذي كان يطالب بمراكز إسرائيلية مسلّحة متقدمة على نهر الأردن. غير أنه كان هناك عقبتان، أن الجزء الشرقي من أورشليم القدس، يجب أن يكون تحت سيطرة العرب. هذا وأن مصر تحتفظ بإبداء وجهة نظرها، حول من له أن يحكم، في نهاية المطاف، الضفة الغربية من نهر الأردن، في حال أن الأردن يرضى بإجراء مفاوضات حول هذا الموضوع، وفي هذا تلميح إلى النفوذ المتزايد لمنظمة التحرير الفلسطينية. وكان هذا التلميح فأل سوء بالنسبة لحسين ولإسرائيل معاً. وكان يعني في الوقت ذاته، استخدام حسين في استعادة أراضٍ من إسرائيل، دون أن يحتفظ بها لنفسه بالضرورة. كما أن القاهرة مستعدة لإبرام اتفاقية إسرائيلية مصرية بمثابة عربون حسن النيّة، ولكنها لن تقدم على توقيعها، طالما أن المحادثات مع سورية والأردن لم تبدأ، ولن يُبَت بصلح كامل، قبل الانتهاء من هذه المفاوضات.

إن هذا المخطط الرفيع المستوى، لم يكن بالفعل، ليختلف عما أدى بنا إلى الطريق المسدود. والثمن الواجب دفعه، لقاء العودة إلى حدود ما قبل الحرب، لن

يكون صلحاً، بل إنهاء حالة الحرب، وهذا مفهوم صعب تمييزه، عن وقف إطلاق النار القائم. ولن يكون صلحاً رسمياً، إلاّ عندما يتوصل السوريون والفلسطينيون إلى اتفاق، نتيجة إجراءات جدّ غامضة، تعطي فعلاً للأطراف المتمسكة بمواقفها، الحقّ في استخدام النقض على المشروع بكامله عند الاقتضاء.

❐ ❐ ❐

أدرج لقاء إسماعيل، بين لقائين اثنين أجريا مع حليفين قديمين لنا. جرى اللقاء الأول في السادس من شهر شباط، وكان مع الملك حسين.

كان الملك يحكم، إحدى تلك الدول، التي حدودها الإصطلاحية تعكس بصورة جزئية، حصيلة التاريخ، بل الضرورات الجغرافية، أكثر من عرضها لمناطق النفوذ التي أقامتها فرنسا وبريطانيا العظمى، في نهاية الحرب العالمية الأولى. لقد أوجد الأردن، وكأنه دولة حاجزة، بين الانتداب الفرنسي على سورية، والحماية البريطانية في العراق، وبين الانتداب البريطاني على فلسطين، وعلى الرغم من امتلاكها المصادر التاريخية للقومية العربية، فقد ألقي بها في صحراء قليلة العطاء، أشبه ببيضة القبّان، معرّضة دوماً للتأرجح والتغيير من قبل سلطات بعيدة. إن عاهلين اثنين فقط. عرفهما الأردن وهما: حسين وجدّه عبد الله، اللذين بفضل حكمتهما، توصلا إلى انتزاع الاستقلال والاعتبار، على الرغم من استخفاف القوميين العرب المبدئي، ومن بين أنياب التسلّط الإمبريالي. أضف إلى ذلك، أنهما توصلا إلى ما قاما به، في ظروف كانت التحركات القومية تناهض الملكية القائمة، وأحدث العاهلان الهاشميان توازناً مزعزعاً. فكانا بحاجة إلى مساندة خارجية، ضد الضغوط المتطرّفة، التي تشجعها أكثر فأكثر الدول العربية الأخرى، ومن قبل

الاتحاد السوفيتي الذي أخذ نفوذه بالازدياد، ولم يصدر عنهما ما يظهر أنهما شديدا الإخلاص للأجانب بل على العكس من ذلك، فقد سعيا وتوصلا إلى تنظيم عربي قومي، يؤكد هويتهما العربية، ويثبت في الوقت ذاته صداقتهما للغرب، ولم يكفا عن السعي في إظهار أن الأمنيات العربية قابلة للتحقيق بفضل الاعتدال.

إن خلق دولة إسرائيل، جلب عاملاً جديداً من عدم الاستقرار، لا سيما بالنسبة للأردن، الذي أخذ زعماؤه بتثبيت سيادتهم على الضفة الغربية من نهر الأردن، مجسدين بذلك تطلّعات الفلسطينيين، وكانوا يتصرّفون من مركز القوّة منطلقين من العرين الرئيسي للمجابهة العربية الإسرائيلية. ولما كانت هذه الدولة اليهودية الجديدة لا تقلقهم أسوة بأخوتهم العرب، فقد أدّى بهم الأمر إلى التأكّد من عدم قدرتهم على تقويض هذه الدولة الجديدة، وكانوا أول من أخذ في دراسة إمكانية التعايش معها، فكلّفت هذه الجهود الملك عبد الله حياته واغتيل عام ١٩٥١. وخلال الأعوام الخمسة عشر التالية، رفض حسين الاعتراف بإسرائيل وهكذا انضمّ إلى صفوف زعماء العرب الآخرين. وكانت فكرة تدور في ذهنه وتقلقه، في أن القوات المصرية، والسورية والعراقية، غايتها تقويض عرشه، مثله في ذلك، مثل تدمير إسرائيل، وربما أن هذه القوات تعتقد أن تقويض عرشه، هو المرحلة الأولى، نحو هدفها الأساسي وهو القضاء على إسرائيل. وباتخاذ الملك حسين، الغرب سنداً له، فقد صان استقلال بلاده بعناية قصوى. وهكذا، فقد أبعد عام ١٩٥٦ جميع الضباط البريطانيين، الذين كانوا يدرّبون وإلى حدّ ما يقومون بقيادة جيشه. غير أن موجة تطرّف ظهرت في الأفق وهدّدت بابتلاع الشرق الأوسط، على أثر الثورة العراقية التي حدثت عام ١٩٥٨، فنزلت القوات الأمريكية على السواحل اللبنانية، وتغلغلت القوات البريطانية في الأراضي الأردنية، لمدة بضع أسابيع.

وبعد ما يقرب من عشر سنوات، ألقى الأردن بنفسه في حرب الأيام الستّة. وعلى الرغم مما كان عبد الناصر يكنّه من ازدراء عظيم للمملكة، انطلق حسين من مبدأ التضامن العربي، وانضم إلى حرب، كان عبد الناصر قد خسرها. ونتيجة ذلك أجبر الأردن على التخلّي عن الضفة الغربية والقدس القديمة. ولم يعود عليه انضمامه إلى مشروع المصالحة، سوى تعقيد كيانه الحديث العهد، لأن حسين الذي كان مشدوداً إلى تطلعّات أخوته العرب، وواقعه الخاص به، تعرّض لعدة محاولات متشددة تهدف إلى وضع حدّ لحياته.

وكانت تؤلمه مفارقة أن لا مجال للشك في أنه الزعيم العربي الأكثر استعداداً لعقد صلح، لكن الأراضي الأردنية بين جميع الأراضي العربي، التي اغتصبتها إسرائيل، هي الوحيدة التي لاتفكر إسرائيل بالتخلي عنها، لارتباطها الوثيق بتقاليدها. وعلى الرغم من أن حسين، قبل بمطالب إسرائيل الاساسية، أي مفاوضات مباشرة فان هذا لن يعجل الخطى نحو ابرام تسوية. وبقي الأردن هكذا نهباً لقوات متخاصمة. وكان بمثابة تضحية كبرى للقومية العربية، وعانى الكثير من تهجمات المتشددين، الذين كانوا لا يزالون يسيطرون على تحركات التحرّر القومي. وأدّى به الأمر عام ١٩٧٠، الى وضع حدّ لتحركات الفدائيين الفلسطينيين، الذين كانوا يشكلون دولة ضمن دولته، تحت غاية أنه بعيد عن الصف العربي، ان للأردن تظلّما كبيراً ضد إسرائيل، لكنه يأبى جرّ المنطقة إلى نزاع جديد، يؤدي الى تدمير، ما بقي من اعتدال، يشكل أساساً للنظام الهاشمي.

إن رباطة الجأش التي كان يبديها حسين تجاه المكائد التي تحاك ضده، كانت تظهره شخصية عظيمة. ولياقته التي كان يراها البعيدون عنه، على أنها ضعف كانت الطريقة الفضلى، في إبعاد جميع القوى المعادية، المتواجدة في الأردن حينذاك. وكان حسين مهدداً من قبل عدوته إسرائيل، ومن مضايقة الغرب له، ومما

تعطيه مصر من شد أزر لقيام ثورة ضدّه في سورية والعراق فلقد أثبت مع ذلك أنه سيد الموقف. لم يوجه حسين لوماً لأمريكا إثر هزيمة عام ١٩٦٧. ولم يقطع علاقاته الدبلوماسية معنا، كما فعلت العديد من الدول العربية، لكنه ثابر على وضع حلول عادلة للقضية العربية، وقضية هؤلاء الذين كانوا يسعون لإسقاطه.

لم يبدِ حسين ارتياحه الكامل، لِما قامت به مصر من طرد العسكريين السوفيت، عندما زار واشنطن لأول مرة. إذ كان يخشى، كما ظهر بعدئذ واقعياً، أن أحد الأسباب التي دعت السادات إلى إبعاد السوفيت، رفضهم الدخول في أية عملية مساندة عسكرية إلى جانب المصريين.

ويقدّر حسين في الوقت ذاته، أن إبعاد السوفيت قد يجرّ وراءه ثلاث نتائج هامّة:

أولاً: سيضاعف السوفيت إرسال الأسلحة إلى القاهرة، بحجة الاحتفاظ بما تبقى لهم من نفوذ.

ثانياً: سيعلن السوفيت عن موقف متصلّب تجاه تسوية شاملة، معارضين بذلك، ما يبذل من جهود في سبيل عقد اتفاقيات منفردة، وهذا يفسّر معارضة غروميكو القوية لعقد اتفاقية مؤقتة، في خريف عام ١٩٧٢.

ثالثاً: سيتابعون إغراق سورية بالأسلحة، لمنعها من الاقتداء بالقاهرة.

إن حدس حسين التشاؤمي، لم يكن ليقف عند النزاع العربي الإسرائيلي. بل حذرنا من مطامع موسكو، في الخليج الفارسي، الممثّلة بالعراق، والذي تتكدس فيه الأسلحة السوفيتية بشكل مذهل، وستقاوم بدورها كل الحكومات المعتدلة في المنطقة، ولو أن لدى نظام بغداد بعض الاختلافات مع الكرملين. كما شاركت قواته الأردنية في استقرار إمارات الجنوب في شبه الجزيرة العربية. وأظهرت إدارتنا

ميلاً قليلاً، لتقديم عون بسيط لتنفيذ هذه السياسة، ولابدّ للبيت الأبيض من إصدار أوامره، للتمكن من حلّ هذا الارتباك البيروقراطي.

وأكد حسين على استعداده، لعقد صلح مع إسرائيل، لكنه على الرغم من جميع الاتصالات السرية، كان يجد نفسه دائماً في طريق مسدود. وكان واقع حال المعتدلين العرب كمن يقف بين فكي كماشة، فلا هو يتمكن من خوض حرب مع إسرائيل ولا هو يرفض المصالحة الشاملة. وكان يحبّذ حلاً دبلوماسياً لكن إسرائيل لا ترى جدوى في المفاوضات، طالما بقي حسين وحيداً. ولم يكن يستطيع استعادة الأراضي المحتلة، لكنها ستبقى في وضعها الراهن. أمّا الضفة الغربية، مع تراثها التاريخي، فإنها كانت تثير مشادّات داخلية في إسرائيل، لأن الحزب الوطني الديني، الذي بدونه لا يستطيع الائتلاف الحكومي أن يحكم، كان يعارض دائماً إعادة أي جزء من أراضي الضفة الغربية.

وطلبنا من حسين أن يقترح مشروعاً قابلاً للتفاوض. فوعد بوضع مشروع دقيق، لدى عودته إلى واشنطن، بعد أسبوعين من الاستجمام في فلوريدا.

عند لقائي بحسين، في السادس من شهر شباط، دخلت معه بالحديث مباشرة عما سيكون عليه مشروع الصلح في الشرق الأوسط: الذي تجسّده عدم الثقة بين حسين والسادات. وبكل صراحة، فإن السادات لم يكن يحب الملكية بالإضافة إلى عدم حبّه لحسين. وبناء على هذا الموقف المبدئي من دبلوماسيته المعقدّة، كان يظهر أنه في حاجة للفلسطينيين، وعلى الأقل، كما كان يفكر، حتى ينال رضا العرب. ربما أن المباشرة بمفاوضات مع حسين، تجلب له نقمة المتشددين العرب، ولا سيما سورية، التي لا تسانده سوى في ظرف واحد وهو

البقاء على حلّ الخيار العسكري. والسادات إذاً، كان يساند حسين من بعيد، ويحول دون أن يكون حسين هو الناطق بلسان العرب، فتغتنم إسرائيل الفرصة وتفاوضه حول الضفة الغربية. وحسين من جهته كان يرتاب كثيراً في مصر وكان يخشى أن عدم استقرار السادات يؤدي بالأردن إلى دفع الثمن غالياً، كما كانت الحال مع عبد الناصر.

لا أستطيع القول أن هذه المواقف المتعارضة، يجب أن تتلاحق في المستقبل. ولا أشعر بحاجة لحدّة الذهن وصفائه، لأكتشف أن جلالته، كان يرتاب كثيراً في التقارب المصري، بعد أن حدثّته عما دار بيني وبين إسماعيل من محادثات لدى عودته إلى واشنطن في السابع والعشرين من شهر شباط. لم يرّ حسين ومستشاره الخاص، زيد الرفاعي، الذي سيصبح قريباً رئيس وزرائه، جديداً في الاقتراحات المصرية، وأوصيا بمطالبة القاهرة بتقديم طروحات أوضح. وأظهر صديقانا الأردنيان رغبة في الإبقاء على السوفيت خارج المشروع. وحصلنا هكذا على تقاربين منفردين؛ من قبل زعيمين عربيّن، لكن ريبتهما المتبادلة بين بعضهما كانت تحول دون التوفيق بين آرائهما. فكان السادات يستخدم القضية الفلسطينية، ليتمكن من الاعتراض على ما يقوم به الأردن، بينما أن حسين كان يثير مخاوفنا من عناد السوفيت، في سبيل إعاقة عقد صلح منفرد مع مصر.

وبين كل الزعماء العرب، كان حسين وحده، يبدي استعداده في هذه الآونة، بتقديم اقتراحات صلح محدّده. فسلّمني وثيقة، ضمّنها ما يراه من مبادئ، كانت نيتّه أن يوجهها إلى نيكسون ولي قبل بضعة أسابيع.

وقد أكّد حسين على استعداد الاردن للدخول في مفاوضات مباشرة مع إسرائيل

حول الضفة الغربية. وسيكون هناك بعض التعديلات في الحدود، شريطة اعادة قطاع غزّة لقاء ذلك. وإذا أعيدت السيادة الأردنية عليه، سيكون هناك مراكز أمامية إسرائيلية على طول نهر الأردن، بل مستعمرات يهودية، شريطة استخدامها بمثابة أراضٍ معزولة على طول حدود الأراضي الأردنية، ولم يكن حسين ليقبل ان يضم وادي نهر الأردن الى إسرائيل. وأظهر الملك ما لحق بنفسه من مرارة، في ان اقتراحاته هذه، سلّمت مباشرة لإسرائيل، التي رفضتها بدورها. وما يجب عمله والحالة تلك، هو ان تقدم أمريكا اقتراحاتها، لا ان يتقدم حسين بعرض جديد. ثم أضاف، ربما بقي أمامنا عامان أو ثلاثة، لاجراء مفاوضات صلح، قبل ان تقدم المنطقة على الإنفجار. وهذا التأكيد، أظهرت الأيام صحته، لأننا أجبرنا، كما كنا ننوي سابقاً على انتظار نتيجة الانتخابات الإسرائيلية التي ستجري في الثلاثين من شهر تشرين الأول.

❐ ❐ ❐

كانت غولدا مائير، رئيسة وزراء إسرائيل، زائرتنا الثانية، وهي لا تشارك حسين قلقه. وصرّحت خلال محادثة أجرتها مع نيكسون في الأول من شهر آذار: "ما رأينا أحسن من الوضع الحاضر". ثم أكدّت أن مأزقاً ما، لا يجسدّ أي خطر، لأن العرب لا يستطيعون القيام بعمليات عسكرية. وغولدا مائير، غريبة الأطوار، ماهرة في محادثاتها، وتعتبر نفسها أمّاً لشعبها. وكانت تعتبر أن كل سنتمتر مربّع من الأراضي الإسرائيلية قد روّي بدماء أبنائها. وتظهر أنها مطلّعة جيداً على ما في الطبيعة البشرية، حتى تصدّق تأكيدات غير حسيّة ومتردّدة، أكثر من الاعتراف بوجود إسرائيل. ولم تكن تريد أن تعرف سوى أن الاعتراف بوجود إسرائيل، هي النقطة التي تنطلق منها ولا تنتهي، المشاكل الأمنية لجميع البلدان الأخرى.

استخدمت مائير، في مقابلتها لنيكسون، سلاح التملّق، الذي كان هو يريده. فشكرته أولاً، على قلبه أوضاع العالم، ووضعه الأمل ولأول مرّة، في قلوب الشعوب التي تنشد السلام، لم يغالط نيكسون مثل هذا الحكم. بل أضاف بكل هدوء وأدب: "إني أرى بكل واقعيّة الأخطار التي لا تزال موجودة. كثيرون هنا يقولون، ما دام العالم أصبح في سلام، صرنا قادرين على تقليص تسلحنا، لنخصص مواردنا للمجابر "جمع مجبر، وهو حيّ يجبر اليهود على الإقامة فيه" لكننا لا نزال بحاجة إلى سلاح أكثر، طالما أن أعداءنا، لا يزالون كما هم ولم يبدّلوا شيئاً". وافقت مائير، نيكسون على رأيه، وقالت: أنها قد أسدت نصيحة لنظيرها الاشتراكي، ويليّ براندت، بعدم الاستسلام لحساسيات زائفة، ولا يقلّل من استعداده. وكان نيكسون على اعتقاد، أن من لا يأمن جانب براندت، يجب أن يوافقه في طباعه. ثم أردف خارجاً عن الموضوع: أن طريقتي في الشؤون الدولية هي في "معاملة الغير بما يعاملونك به". وأتيح لي الكلام فقلت: وأضف إلى تلك المعاملة "عشرة في المائة"، لأنني قد استفدت من أربعة أعوام خبرة قضيتها إلى جانب رئيسي !!!

وانتهت المحادثات إلى المواضيع العملية. وكان لمائير هدفان:

- كسب الوقت، إذ ما دام الوضع الراهن قائماً، فإن إسرائيل تتثبّت في ملكيّة الأراضي التي احتلتها.
- والتأكد من إقرار نيكسون لهبة جديدة من العون العسكري الشامل لإسرائيل.

وكان موقف غولدا واضحاً، فيما يتعلّق بالمفاوضات. وكانت تعتبر إسرائيل منيعة عسكرياً. وهي توافق على إجراء محادثات، دون ضمانة الوصول إلى حلّ ما. وكان لديها انطباع، أن الشؤون الأردنية تسير حسناً، ما دامت هناك اتصالات

مباشرة (ولم يؤكد أي مراقب محايد، أن هذا يسارع الخطوات في مشروع التسوية). أما مصر فكانت تبدي استعدادها، لإبرام اتفاقية انسحاب مؤقت على طول قناة السويس. واعتبار ذلك مرحلة أولية في تسوية نهائية. لكنها لن تقبل أبداً بتثبيت حدود نهائية، قبل البدء بالمفاوضات. وكأني بها تسعى لمن يساعدها في الحصول على كل شيء، لقاء لا شيء. لقد جربت القاهرة السوفيت، والآن جاء دور الولايات المتحدة. "إن الذي يقلقنا من مصر، هو أنها تقلب الموضوع عند النهاية" وكانت قد وافقتنا على إجراء فيه بعض الغرابة، يقوم على مفاوضات عامة، تدور حول عقد اتفاقية مؤقتة، وفي الوقت نفسه الاستمرار في محادثاتي السرية مع حافظ إسماعيل، للوقوف على ما لديه من مبادئ عامّة لتسوية شاملة، ظهر كل هذا إيجابياً، لكنه لم يكن يدعو إلى التفاؤل، لأن التوقّعات بقيت على ما هي عليه.

إن المشكلة الدائمة، التي كانت تعقّد الوضع هي تزويد إسرائيل بالسلاح. وهذه المشكلة تبين ضعف تنظيمنا في تزويد إسرائيل بالسلاح، إذ كان علينا أن نعود إلى تحديد كّميته كل عام أو كل عامين. وكل إرسالية سلاح جديدة تصبح حتماً سبباً لضغينة العرب ضدنا. وتثير مشادّة حول الأولويّات ضمن حكومتنا. وبصورة منتظمة، فإنه بمقدار دعم الضغوط الداخلية للضرورات الاستراتيجية، إلا أن إصدار قرار يسمح بإرسالية جديدة من العتاد العسكري، كان يثير ضدنا هجمة من الغضب في العالم العربي.

وهذا ما كان يجري فعلاً. ففي الأول من شهر آذار، وبناء على إلحاح مائير، وافق نيكسون مبدئياً على توقيت جديد لتسليم طائرات، وليدة مشروع إنتاج مشترك في بين الولايات المتحدة وإسرائيل. وحاولنا التخفيف من تأثيره في أوساط العالم العربي، بعدم الإعلان عنه رسمياً. لكن الوضع يكشف نفسه، ورجال

السياسة كثيرون في الولايات المتحدة وإسرائيل، وأخذوا به علماً، ولذا فقد تسرّب خبر القرار، خلال خمسة عشر يوماً، وحدث ما جرى بعيد زيارة إسماعيل، فأثار انفجاراً وضجّة كبرى في القاهرة.

إن مهمتنا دقيقة. وكان علينا أن نستدرج مصر للتفاوض مباشرة حول برنامج واقعي، ونستدرج إسرائيل كذلك إلى تقديم تنازلات هامة لم تخطر يوماً ببالها، فإذا شجعنا العرب كثيراً، دون التمكن في النهاية من تلبية رغباتهم، تكون النتيجة ردّ فعل معادٍ لأمريكا. وإذا شددنا وثاق إسرائيل كثيراً، نخشى بأن تقوم بحرب وقائية، طالما أنها لا تزال تتمّتع بمزايا أقوى. كما كان علينا في الوقت ذاته المقارنة مع مطالب السوفيت حول اتفاقية مباشرة أمريكية سوفيتية، تتطلب شروطاً أكثر استحالة من تلك التي طالب بها إسماعيل. لم أعتقد أبداً أن هناك فائدة من عقد اتفاقية مع موسكو، طالما أن السوفيت لا يبدون استعداداً لممارسة بعض الضغوط على العرب، مثلما يطالبوننا بممارسة ذات الضغوط على إسرائيل. وفي الخامس من شهر آذار، أرسلت تقريراً إلى السيد توماس بريميلاو، من وزارة الشؤون الخارجية البريطانية، شرحت فيه جميع ما يراودني من شكوك نتيجة زيارة إسماعيل وقلت:

"إن عقد اتفاقية ثنائية الجانب، بين أمريكا والسوفيت، حول قضايا الشرق الأوسط، تبتدئ بممارسة ضغوط ضد إسرائيل، توصلنا حتماً إلى نتيجتين: أن مثل هذه الاتفاقية، تؤدي ربما إلى إثارة حرب في المنطقة، ومحاولة اشتراك ودخول السوفيت فيها متخذين من تلك الاتفاقية ذريعة لهم. والنتيجة الثانية، هي أنه يصبح من المؤكد أن المرحلة التي تلي إبرام التسوية بين العرب وإسرائيل، يأتي دور تسوية جميع الاختلافات بين الفلسطينيين وإسرائيل، حول مستقبل فلسطين. كما

أنه من المؤكد أيضاً (وهذا ما وضعته في اعتباري عند محادثتي مع إسماعيل) أن إبرام عقد صلح نهائي يتوقف في نهاية المطاف على الفلسطينيين، الذين لا يزالون يبدون عدم اهتمامهم بإنهاء الأمور.

"وستكون النتيجة بعكس ما جرى في فيتنام. أن الصلح الذي جرى في فيتنام أخرجنا منها، لكن تسوية الشرق الأوسط، تجذبنا لأخذ مكان فيه، للحفاظ على ما قمنا بتنظيمه".

كان علينا، حسب اعتقادي، تقليص دور السوفيت، كشرط أساسي لإحراز أي تقدم"

"ليس من مصلحة السوفيت أن يكونوا أكثر اعتدالاً من العرب، ولديهم ما يخوّلهم أن يظهروا قدرتهم، بنوع أن مسؤولية تسوية غير متكافئة، تقع علينا حتماً أو على السادات، لأن الجولة القادمة ستكون بين المتشددين والمعتدلين، في المنطقة بكاملها.

ولكل هذه الأسباب مجتمعة، كنت شديد التردّد في طرح أي مشروع تسوية مفصّل، يطالبنا به الجميع. فالالتزام بأمر لا تتوفر لديك القدرة على إنجازه يعتبر أسوأ الأوضاع الدبلوماسية. كما يقضي علينا الواجب أن نكون دقيقين، في استكشاف جميع الآراء، لنسلّم أنفسنا من كل انفجار يحدث حولنا.

❑ ❑ ❑

اجتاز الشرق الأوسط خلال تلك الفترة واحدة من إحدى هيجاناته الدورية العنيفة، إذ أقدم فدائيون فلسطينيون على أخذ كل من الدبلوماسيين الأمريكيين،

السفير كلاو. ا. نويل والقائم بالأعمال جورج مورتيس مور كرهائن، ثم قتلوهما في الخرطوم بتاريخ الثاني من شهر آذار.

وفي الحادي والعشرين من شهر آذار نفسه، أسقطت المطاردات الليبية طائرة استطلاع أمريكية، في أجواء البحر الأبيض المتوسط. وجرى على أثر ذلك سلسلة غارات وحملات انتقام على طول الحدود اللبنانيّة.

وفجأة توتّرت علاقتنا مع مصر. وأرسل إسماعيل حال عودته إلى القاهرة، رسالة يشكرنا فيها على ما قدمنا له من حسن الضيافة في الولايات المتحدة، وبيّن أن محادثاته السرّية التي أجريناها معاً، تجاوزت ما كان يؤمل لها، سواء الملفات التي طرحت فيها أو الصراحة التي امتازت بها، ويرجو في الوقت ذاته أن تكون أكثر وضوحاً في اللقاءات التالية. وأظهر استعداده لبحث الاقتراح الذي تقدمت به عند لقائنا وهو: "فصل السيادة عن الأمن"، محاولاً إيجاد توازن بين الاثنين. فلو استعادت مصر سيادتها على صحراء سيناء، فسوف تتخذ إجراءات أمن عمليّة، استجابة لمطالب إسرائيل، وفي التاسع من شهر آذار، أعلمت إسماعيل بنيّتي إجراء محادثات مع إسرائيل، لأقف جيداً على ما تضمره، وما تبديه من استعداد لقبول النقاط الأساسية التي جاء بها مشروعه الذي تقدّم به.

لكن الجو تغيّر بسرعة. وأبدت مصر حيرتها حول الموقف الذي يجب اتخاذه بشأن قتل الدبلوماسييّن في الخرطوم. فكان يتنازعها عاملان اثنان: استنكار الجريمة، وضرورة الحفاظ على مساندة المتشددين لها، فيما تعدّه للحرب في هذا الوقت بالذات. (وكنا نحن نجهله تماماً) ثم رغبتها في استدراجنا إلى وضع تثقلنا فيه في مشروع تسوية. وإذا فكّرنا مليّاً بهذه المشاكل يتضح لنا جيداً حساسيّة

مصر. ونبّهنا موظف مصري في القاهرة، عالي المقام، أن بعض أعضاء الحكومة، سيعارضون محاولات الصلح، وأن بيعنا طائرات لإسرائيل. الذي تسرّب أمره إلى الصحافة، "لن يسهّل أمامنا الأمور". وأجاب إسماعيل في العشرين من شهر آذار، على المذكرة التي أرسلت بها إليه في التاسع من شهر آذار نفسه، مؤكداً أن كميّة العتاد الحربي، التي نزوّد بها إسرائيل، كفيلة بإفشال محادثاتنا السرّية، فعدت وأجبته في الثالث والعشرين من شهر آذار، دون المجيء على ذكر تظلّماته، أني انتظر بفارغ الصبر، تفصيل ردود الفعل، التي وعدتني بها في لقائنا الذي تمّ مؤخراً.

وفي غضون ذلك، ساعد المصريون من جهتهم، على تعقيد أمور من كانوا ينظمون المفاوضات من الجانب الأمريكي. وإذا أخذنا الدبلوماسيّة العربية بعين الاعتبار، فهم لا يتمكنون من عمل غير ذلك بالطبع. وفي جوّ متلبّد مثل هذا في العالم العربي، فإن "حفظ السرّ" له مفهوم خاص. ولما كان الزعماء العرب مرتبطين بالتضامن مع أخوتهم العرب الآخرين، ولديهم ميل كبير لفردانية قويّة، لم يكن بينهم من يصدّق السادات إذا أكّد لهم عدم قيامه بأيّة إجراءات. فأخذ هؤلاء الزعماء يحكمون على نظرائهم من خلال ممارساتهم الخاصّة، علماً أن الزعماء العرب كانوا على اعتقاد في دخيلة نفوسهم، أن هناك محادثات تجري باستمرار ودون انقطاع، يسعى كل زعيم من خلالها، توطيد مركزه وموقفه، ويدافع جهاراً عن القضيّة العربية، وأحسن وسيلة لحفظ السرّ، في حومة من تنافر النغمات، هي في إغراق الفرقاء بطوفان من المحادثات، تنتهي ببلبلة كبرى وعدم التمييز بين قصيدة ملحميّة أو واقعية.

وعلمنا في السادس من شهر آذار، أن السعوديين، أعلموا بما دار من

محادثات سرّية بيني وبين إسماعيل، من قبل دبلوماسيين مصريين. ولما كان هم العالم الدبلوماسي تبادل المعلومات، فقد انتشر الخبر بسرعة. وأقدم الدبلوماسيون البريطانيون في القاهرة، على طلب زيادة في الايضاح من زملائهم الأمريكان. وكنت أعلمت المسؤولين البريطانيين بالواقع، عن طريق السيد توماس بريملاو، لكن ويتهول، قدرّ موقفنا وسرّية أمورنا، ولم يعلم ممثليهم في مصر، وعندها سمح السادات أن يلتقيه ارنود دي بورغراف، محرّر صحيفة نيويورك، بعد أن أورد فيها بعض التلميحات، حول تبادل وجهات نظر سابقة، كانت قد طرحت في زيارة إسماعيل إلى واشنطن. ولم ينشر هذا التحقيق إلاّ بعد نشره باللغة العربية والإعلان عن المقابلة في القاهرة. واكتفيت بهذا الحدّ لأبرهن لجيّري غريين، أن هناك أمراً يجري من وراء ظهره.

لا شيء يوازي غضب موظف ما في الشؤون الخارجية، بعد ان قطع الطريق عليه لا سيما عندما يكون قائما بمهمة دبلوماسيّة، حتى لو كانت مهمة صغيرة ترتبط بمصالح أمريكية، كما كانت عليه الحال في القاهرة. وإذا أهين دبلوماسي يحق له الخيار بين امكانيّتين، فاذا كان حكيماً وهذا واجبه عليه ان يعلم رؤساءه بما يجري، ويترك لواشنطن ان تعمل ما تراه مناسباً. لكنه يستطيع أيضاً استخدام بعد نظره ويوصل تلك المعلومات من خلال صُعُد نظامية فتذاع بالنتيجة في الادراة بكاملها، ضمن تنظيم التوزيع الاعلامي. وهناك أمثلة عديدة على إفشاء الأسرار، ولا تغيير في نتيجة تلك الاجراءات، فانها لا تضاعف مسؤولية الدبلوماسي فحسب، الذي سيصبح الضحيّة، بل تؤدي أيضاً إلى تقليص خيارات واشنطن.

وعلى كل حال، فقد اختار غريين موقفاً أكثر تهجّماً، ولربما دُفع إليه من قبل أحد موظفي واشنطن. فبعد أن نشرت مقابلة السادات، أخذ غريين يستفهم

وبصورة سريّة من وزير الخارجية، عمّا إذا كانت توجد اتصالات سرّية يجهلها (أي غريين). وسأل أيضاً الممثل المحلّي لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية C.I.A. وكان هذا رجلاً مقدّراً، حول ما يعزى إلى تلك الوكالة من مراوغة، وحرصاً منه على إعادة الهدوء إلى اللجنة الدبلوماسية، فقد أعلمهم أن هناك محادثات سرّية جرت فعلاً ولم يكشف عن فحواها. وغريين الذي كان مخيفاً في الحلبة الإدارية، صمد أمام التجربة، وأورد بطريقة تجاهليه، في برقية عادية لوزارة الخارجية، الترجمة السعودية لمحادثاتي مع إسماعيل، التي أوصلها إليه موظف سعودي في هذه الأثناء. وعلينا أن نعلم أن لا شيء يغري في الموقف الذي اتخذه غريين، وليست خطيئته بالأصل، إنما يعود السبب إلى طريقة تنظيمنا. وأصبح مستحيلاً علينا من الآن وصاعداً، إجراء مفاوضات حول الشرق الأوسط، دون إشراك الوزارات ذات العلاقة. ولذلك فقد أعلمت في التاسع من شهر نيسان، جوزيف سيسكو، مساعد وزير الخارجية، لشؤون الشرق الأدنى وجنوب اسيا. عن المحادثات التي دارت بيني وبين إسماعيل.

كان السادات، طوال هذا الوقت، يؤجّج نار الموقف، من خلال النتائج لأن ما من أحد كان يأخذ تهديداته مأخذ الجدّ. وعلمنا في الثالث والعشرين من شهر آذار، أنه يفكر بتسخين الموقف في القناة. وفي السادس والعشرين من آذار نفسه، أجرى تغييرات في وزارته، في ضوء الأهداف المتوخاة استعداداً لمعركة مواجهة عامة مع إسرائيل. وفي المقابلة التي نشرتها نيوزويك صرّح قائلاً: "أن الوقت قد حان لتوجيه ضربة، والعودة إلى القتال، أصبحت منذ الآن وصاعداً، لا يمكن اجتنابها".

وما من أحد أيضاً يعتقد أنه يملك الوسائل ليضع تهديده موضع التنفيذ. واعتُقد أن كل ما في الأمر، تلميح إلى القيام بغارات جوية، وإطلاق نيران المدفعيّة.

وأرسل لي حافظ إسماعيل رسالة في السابع من شهر نيسان، يبيّن فيها أن القاهرة ترتكز في مسيرتها على فرضيتيّن اثنتين:

١ ـ اعتزام البيت الأبيض، فعلاً، التدخل المباشر في شؤون الشرق الأوسط.

٢ ـ هل حصل الفريق الأمريكي، على أثر المحادثات الاستكشافية التي أجراها مع إسرائيل. على انطباع أن هناك مؤشّرات جدّ مشجّعة لجعل المحادثات الأمريكية ـ المصرية ذات جدوى. وبمقولة أخرى، هل أظهرت إسرائيل للفريق الأمريكي، أنها عازمة أن تكمل في الأشهر القريبة القادمة ما يثبت رغبتها في تسوية شاملة.

ولقاء اشتراك حافظ إسماعيل بسلسلة جديدة من المباحثات، كانت مصر تطالب، بأن نضمن لها تسوية شاملة لكافة مطالبها. وقبول ذلك لابدّ أن يؤدي بنا إلى خيبة أمل كبيرة. فأجبت بجواب مبهم في الحادي عشر من شهر نيسان مشيراً إلى ضرورة إجراء لقاء جديد. أما بالنسبة لفرضيّتي إسماعيل. فاقترحت أن تؤخذا بعين الاعتبار حالما تبدأ المباحثات، ويصبح ما يسمّيه "نقاطاً رئيسية للاتفاق" أو مبادئ عامة، ودعوت مجدّداً إلى سرّية المحادثات، واستنكرت بعض تأويلات انتشرت حديثاً في العالم العربي، وأكّدت أن الفريق الأمريكي يتفهّم جيداً، ما تعانيه مصر من قلق بالنسبة لتجارب الماضي. ولن يصار إلى إجراء اتصالات جديدة، إذا تكرّر ما جرى.

لكن السادات كان يسارع خطاه بقوّة نحو المواجهة. فوردتنا تقارير تدعو إلى القلق، مثل تنقّلات في الجيش والأسلحة العربية، داخل المنطقة، وإرسال طائرات ليبية وسعودية إلى مصر، وجنود مغاربة وسواهم إلى سورية. وكان جلّ تفكيرنا أن

المقصود بذلك ليس سوى حرب أعصاب، لا استعدادات لحرب حقيقية. وأشارت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية في تقريرها الذي تقدمت به في العشرين من شهر نيسان، إلى أن السادات أخذ يعطي خطاباته أهمية تختلف عن السابق، ولكنها لا تعتقد أنه توصل بعد إلى قرار. وبعد أن عددت ما قامت به الدول العربية من إجراءات عسكرية، خلصت الوكالة إلى القول، أن لا شيء يوحي أن هناك استعدادات عسكرية معيّنة لوقت محدّد.

وكما يظهر فإن السادات حزم أمره فعلاً على الحرب خلال صيف عام ١٩٧٢. وإن ما دعا السادات إلى هذه العملية، لم يكن فشل المفاوضات، بل كان موقف بقيّة الفرقاء الذي لم يشعر بأي تقدم في أي اتجاه. ولم يكن التفسير عسيراً حول استرداده جميع الأراضي المغتصبة دفعة واحدة. كما أنه لابدّ له بين فترة وأخرى، من تقديم تنازلات هامّة. لكن اختيار الوقت المناسب هو العامل الرئيسي في الأمر. فلو أبدى قبوله بمفاوضات تدريجيّة، تدعى بلغة الدبلوماسيين: "الخطوات الصغيرة"، فإنه سيجد نفسه مجرّداً من جميع الوسائل التي تعينه على إجراء مفاوضات بهذا الشأن.

عزم السادات على قطع العقدة الغورديّة (عقدة قطعها الإسكندر بسيفه) بالحرب. فظهر وكأنه يقوم بمداولات دبلوماسيّة، تاركاً لنفسه الوقت والحق بتعليقها، ومن ثم جعل نفسه في حلّ منها، وحدّد مواعيد لا يتمكن معها من استكشاف الإمكانات الحقيقية. وبالنسبة للسادات، فإن جدوى اللجوء المفاجئ لاستخدام الطرق الدبلوماسيّة، والقيام باستعدادات عسكرية، كانت تفيده في التعتيم على الوضع الراهن ليستطيع تدبير ما كان يتوقعه الجميع، أي هجوم موحدّ سوري مصري ضد إسرائيل. لكن السادات وحده، هو الذي كان يسيّر

أحداث هذه الثورة الدبلوماسيّة التي يُعدّها. ولقد حاولنا استدراجه إلى تغيير رأيه، وكنا غير مدركين بعد أنه يعتبر الحرب ضرورية بالنسبة له، ليقدّم مبادرات حاسمة، تؤدي إلى إحياء مشروع الصلح وتنفيذ مبدأ: أعطِ، تعطَ. إذ أن جو خيبة الأمل التي كانت سائدة في الأوساط العربية، منذ هزيمة حرب الأيام الستة، مع ما تبعها من تنازلات ظاهرية، يمكن أن تنسب إلى ضعف عسكري، أكثر من نسبتها إلى اللياقة الدبلوماسية.

ولم أكن أقدر، أن لقائي بإسماعيل، لن تكتب له الحياة في مثل هذه الظروف. وكان السادات يعلم جيداً، ضعف الوحدة العربية التي كان يتدبر أمرها، ليتمكن من تأجيل مشاريعه العسكرية بضعة أشهر. ولقد ألف تلك الارتيابيه المتبادلة بين الزعماء العرب، ليتاح له مسايرة قدره والحفاظ على خيار عسكري، على مدى مفاوضات طويلة. فلو كنت على مستوى القضية في أواسط عام ١٩٧٣، وأضمن له عودة حدود ١٩٦٧، دون إجباره على إبرام صلح، كان قبل ذلك، مع بعض التردد، كما أوضح لي ذلك مؤخراً.

والسادات يعلم جيداً، أنه بات عسيراً مجابهة مثل هذه الأمور، في ظروف تناسب التعايش الائتلافي، الذي سعى كثيراً لايجاده.

التقيت حافظ إسماعيل مرة ثانية. وجرى لقاؤنا في العشرين من شهر أيار لعام ١٩٧٣ في فرنسا، بين مدينتي باريس وشارتر، في مزرعة قديمة مضى عليها مئات السنين، رممّها مالكها الأمريكي ببساطة متناهية تظهر وكأنها بهرجة لدى الأغنياء، ويدللّ على بساطتها سقوف بارزة الجسور، وإطار رعوي يزيّنه بستان وشلاّل. وكان لنا اجتماع عمل في الطابق الأول، وبعد تناول الغداء، ذهبنا نتنزه معاً في البستان، تحت أشعة شمس الربيع. وأجرينا محادثات مثمرة، لكنها ظهرت

فيما بعد أنها قليلة الجدوى. لم يكن إسماعيل راغباً في إنقاص برنامجه الميداني، وكان عليه في الوقت ذاته، أن يعرف نيّة إسرائيل في قبوله كاملاً، وتظاهر بالاستياء من اقتراحي القائل أن على مصر اقتراح مواضيع جديدة، عند عرضها مشروع مفاوضات. ولا حاجة لنا بثقافة عليا لنتمكن من تفهم أوضاع مصر ورغائبها، التي طرحتها وأعادت طرحها عدّة مرات منذ شهر شباط عام ١٩٧١، وعلى الرغم من رفضها مراراً، فإنها في هذه الحال لا تسمح لنا ببدء مفاوضات جديدة مع إسرائيل، التي ترى وبكل بساطة عدم الحاجة إليها. انتقدت بعض المقاطع، المزعجة، مما كشفه المصريون للسعوديين، إذ تبيّن لي فيه تغيير في اللهجة والكلمات، وظهر فيه أيضاً عدوانية لم ألاحظها أثناء محادثاتنا. ولم يكذّب إسماعيل ما أوردته له، لكنّه قال، إن هذه الأمور مطروحة حسبما رأتها البسيكولوجية العربية.

فاقترحت صيغة جديدة، تصلح للربط بين اتفاق مؤقت وتسوية شاملة لكن الأمور أوضحت أن مصر لن تعرّض نفسها لعزلة دائمة، بسبب اتفاقية مؤقتة أو مفاوضات طويلة الأمد، تتطلبها تسوية عامة. وأصمّ إسماعيل أذنيه عن مشروعي حول فصل السيادة عن الاستقرار، ووصف ذلك بأنه سيادة مهلهلة ووعد أن يكلم السادات حول هذه الأمور، ويبلغني نتيجة ما سوف يصل إليه، لكنني لم استلم ما ينبئني عن أحواله.

وقال لي الموظف الأمريكي، الذي دبّر لنا مكان المقابلة، أنه رأى إسماعيل بعد مفارقتي له، بحالة إنهاك وكآبة، وبقي وقتاً طويلاً، على هذا المنوال في البستان، يتأمل الشلاّل الواقع وراء البيت، ورأسه بين يديه. إذ أن معاونيه تركوه لوحده، وأخيراً جاءَت حفيدته والتقته وكأني بها قد قوّت عزمه. ثم صرّح للأمريكي آنف

الذكر، أنه يأمل البقاء على اتصال معي، مهما تكن العقبات التي تقف حائلاً أمام الجهود المبذولة في سبيل السلام، ثم أردف قائلاً: أن لعلاقاتنا أهمية خاصّة، حتى ولو فرضنا حدوث مجابهة مسلّحة.

ولما كان إسماعيل مطلعاً على نيّة السادات في خوض غمار حرب، فإن الضمان الوحيد الذي تستطيعه الولايات المتحدة، هو الإبقاء على البرنامج العربي كاملاً غير منقوص، ولن يثني عزمها عنه شيء، ولو كان هذا مستحيلاً فعلاً.

وعلى الرغم من أن إسماعيل كان عسكرياً، فإنه يحمل في نفسه إنسانية فائقة يتّصف بها المصريون، ولا يُريبه شيء متوقع الحدوث ولا يمكن اجتنابه. واتجه الشرق الأوسط نحو الحرب، وكنا نحن نجهل ذلك، لكن إسماعيل كان مطلعاً عليه.

الفصل السادس

اتفاقية سالت (٢) الميتة

دفعتنا المشاكل الدفاعية التي كنا نمر بها، إلى النظر مرة أخرى في الخيارات التي نملكها، إلا أن الواقع كان دائماً يطغى على قراراتنا بمزيج من التصورات الشخصية والأنانية، من قبل الإدارة، ومساومات على مستوى حكومي، وضغوط من مجلس النواب، والرأي العام. وعلى الرغم مما تثيره من الدهشة هذه الحالة بالذات، فإن الصقور مثلهم مثل الحمائم، كانوا يترددون كثيراً في اتخاذ موقف تجاه فقداننا تفوقنا الاستراتيجي. إن برامج التصنيع التي كان يساندها البنتاغون، كانت في مجموعها، تعزز قدرة مقاومتنا، وكانت تشكل بالنسبة لنا ضماناً ضد هجوم سوفيتي مفاجئ. وهي لا تقيم وزناً لمعضلة معركتنا ضد التوسع السوفيتي، في الوقت، الذي كنا فيه لا نملك قدرة حقيقية، وكنّا متخلفين في مجال التسلح التقليدي. لم تكن وزارة الدفاع تجرؤ على إثارة قضيّة القوات التقليدية في فترة كانت سياسة البلاد القومية

تتجّه نحو إلغاء التجنيد. وكانت الحمائم بدورها تجد أن قواتنا الحالية كانت تزيد عن الحدّ اللازم لها. ولا تتوقع أي تهديد للأمن العالمي في المساواة بالأسلحة النووية، وتدني قدرتنا التقليدية.

كانت استعداداتنا لمفاوضات سالت (٢) في وضع خطر. فلم تكن مداولاتنا لترتفع إلى مستوى التحليل الحقيقي الواقعي لاستراتيجية طويلة الأمد، لا تستطيع معالجة قضيّة أساسيّة، تبيّن فيما إذا كانت مفاوضات سالت، الطريقة التي تصلح لتمكننا من مواجهة مشاكل أمنيّة جديدة. وكانت وزارة الدفاع. تدافع على وجه العموم، عن برامجها الموجودة حالياً، على الرغم من أن تأييدها أخذ بالتزعزع. وكانت تتنازعها فكرتان: الرغبة في مساندة السياسة الرئاسية (التي تحبّذ سلسلة جديدة من المباحثات بشأن سالت) وخشيتها من تخلّي مجلس الشيوخ، عن مساندته الضرورية لإقرار الأرصدة العسكرية، من قبل الكونغرس. إن وزارة الخارجية ووكالة مراقبة التسلّح ونزع السلاح التي يرمز إليها بـ (A. C. D. A) قبل أن يصبح فريد آيكل مديراً لها، كان اهتمامها ينصب على إمكانية التفاوض حول مشاريع معيّنة بعد أن يعلن السوفيت عن قبولهم على التفاوض بشأنها. وكانوا يعترضون وبطريقة موضوعية، على برامج استراتيجية نادرة، تكون قد اجتازت عوائق الكونغرس.

يعسر تحديد الطريقة، التي يستخدمها نيكسون، لمواجهة الضغوط التي تمارس ضدّه، في الظروف العادية، فهو قد انتخب نتيجة فوز ساحق في الانتخابات. ولقد حقّق أعمالاً، أصعب بكثير، من إقامة شبكة دفاع قويّة، وتحديد التسلّح، لكن المسألة أصبحت نظرية، أكثر ممّا هي واقعية، عندما لم تسمح له فضيحة واترغيت، ان يولي أهتمامه بسالت، ذاك الاهتمام المطلوب ليجعل منها تأثيراً معنوياً مطلوباً. وحتى

خلال ولايته الأولى، كنت أجد صعوبات جمّة في حمله على التركيز حول مشاكل سالت التقنية. وصارحني بكل وضوح في (الأول من شهر أ يار) غداة استقالة هالدمان وأهرليخمان، أنه سيعهد إليّ بموجب محاكمتي الخاصّة حول اختيار أسلم الخيارات. فلم أُقدم على ذلك، وبقيت كما كنت أطلعه على جميع الاحتمالات. ولم يكن في ذلك المطلب المرغوب فأضاف مرحلة إدارية إضافية، وأصبحت موافقته على توصيات معاونيه حول مفاوضات سالت، وكأنها تلقائية.

وفي التطبيق العملي، شكلت النتيجة مأزقاً حكومياً. وكان يستطيع مستشارو الرئيس، فرض نفوذهم عليه. لكنهم مع ذلك لا يستطيعون اتخاذ أي قرار، لا سيما عندما تكون معظم الوزارات لها تصميمها الخاص. خلال الولاية الأولى كان نفوذي هو الأقوى، في الشؤون، التي تحاول بقيّة الوزارات تلافي وطأة المنازعات العامة (مثل المفاوضات حول فيتنام)، أو في الأمور التي لا يقبل أحد تحمل مسؤولة تغيير اتجاهها (مثل قضيّة الصين).

خلال هذه الفترة، التي كنت فيها رئيساً للّجان الوزارية، سمحت لي الظروف بالتعرّف على آراء جميع الوزارات، كما شجعتني على اجراء تحاليل دقيقة، وتحديد الخيارات. ومن ثمّ كنت استطيع الانتفاع بهذه المعلومات في المفاوضات السرّية، التي كنت أكلّف بها، وما كان منها قادراً على إثارة متاعب. وأخذت الوزارات تبدي رغبتها في تحمّل مسؤولية نتيجة المفاوضات بما فيها فشلها أيضاً. لكن هذه الوزارات، عرفت في عام ١٩٧٣ ان المفاوضات الهامة والضرورية كانت تجري دون علمها، فأصبحت قادرة ان توجّه إليّ اللوم في حال فشلها، وتحميلي أيضاً مسؤولية إعاقة المباحثات. وأخذت كل وزارة بتوضيح أهدافها العامة، مهما تكن تفسيراتها. وإذا لم تصل الوزارات إلى اتخاذ مثل هذا الموقف، فهي في حلّ من المسؤولية. وأصبحت هذه

الوزارات قادرة أيضاً على الوقوف بوجه كل تسوية غيرموافقة، كما تستطيع التحذير من عدم أهلية المفاوضين في مشاريع عمومية هامّة. وبالاختصار. فقد أصبح موقفي الاداري مزعزعاً.

أخذت الاستعدادات لمفاوضات سالت ـ ٢ ـ دوراً مفاجئاً دقيقاً، فمنذ عشر سنوات. كنّا أعددنا نتيجة تروّ وتصميم قوّة، تختلف في أساسها اختلافاً تاماً عن قدرة السوفيت. إذ كانت صواريخنا نعم صغيرة، لكنها ذات تأثير عظيم فعلياً، أما صواريخهم فكانت ثقيلة وذات تأثير قوي وفعال. لقد اجتهد السوفيت في تصنيع صواريخ، تثبّت في الأرض ومفعولها كبير. أما نحن فكان لدينا قوة متنوعة، تضم قاذفات قنابل وصواريخ تطلق من الغواصات. وكان السوفيت متفوقين في عدد الصواريخ المثبتة على الأرض، وفي شحناتها المحمولة. ولقد سبقناهم نحن بالرؤوس النووية المتعدّدة. وهذا هو الترتيب النووي الذي ارتضيناه لأنفسنا. وخلال كل سنوات خدمتي في الدولة، لم يقدّم أيّ اقتراح، لا من مدنيين أو عسكريين في البنتاغون، يطالب بتغيير في توزيع قوّاتنا. وعندما بُدئ بمفاوضات سالت ـ ٢ ـ طلب الينا على الاقل التأكيد من خلال المفاوضات، على تناسق تام، لم يكن موضع اهتمام في قراراتهم أحادية الجانب، بل كانت قد حالت دون ذلك، ولم يحاولوا أبداً تحقيق مبدأ مسلّم به.

ولقد أجبرنا على إصدار قرار، بوقف مفاوضات سالت طول عام، حتى نتمكن من تنظيم أمورنا، لكن إندفاع الادارة وخوفها من أن يعزى التأخير الى فضيحة واترغيت، وخشية إضعاف موقف الرئيس، حملنا على تعليق ذلك القرار وعدم العمل به. وأخذنا نأمّل في إعادة ثقتنا بتجربة سالت، التي طالما أوضحنا عن نوايانا تجاهها. لكن معضلتنا الكامنة في الضغوط الداخلية التي تمارس ضدّنا، والتي كانت

تحول دون ارادتنا في القدرة على اختيار احد الخيارين الوحيدين، المتضمنين معنى إستراتيجياً خاصّاً، وهو تعزيز قدراتنا العامة للتمكن من احتواء توسّع السوفيت، أو تجميد الوضع الراهن، طالما نحن متقدمون في عدد الرؤوس النووية. وكان لوزارة الدفاع تصوّر خاص مختلف تماماً، فهي على استعداد لقبول اعداد الطائرات القاذفة والصواريخ، التي عزمنا على تصنيعها، ولو أوصلنا ذلك إلى عدم التساوي. وكانت تطالب في الوقت نفسه عدم تسجيل هذه الارقام كتابةً في الاتفاقيات. وتؤكد أيضاً، ان في حال ابرام أية اتفاقية، يجب ضمان «التساوي في التركيب» أو المساواة في كل تنظيم تسليحي مثل (قذائف باليستية بيقاري) أو (الصواريخ التي تقذف من الغواصات) وقاذفات القنابل الثقيلة. وكان هذا هدفاً رمزياً، يعكس ضغوطاً داخلية، لا تحليلاً سياسياً أو إستراتيجياً. ومن المحال ان نحصل عن طريق المفاوضات، على أشياء لسنا مستعدين لتحقيقها بجهودنا الخاصّة، ولقد أثبتت الوقائع العودة إلى تقديم اقتراح للسوفيت، حول تقليص القوات أحادي الجانب، دون اللجوء الى التضحية بأحد البرامج التي نحن عازمون على تصنيعها، ودون اللجوء أيضاً الى التهديد بتعزيز قوات أمريكية، في حال عدم القبول. وترك لي الامر لاتخاذ الوسائل الكفيلة بالوصول الى هذا الهدف، وهذا المشروع يعيد الى أذهاني قصة ذاك الأميرال، الذي زعم انه وجد خلال الحرب العالمية الثانية، حلاً لمشكلة الغواصات، فسئل عن ذاك الحل، فأجاب: اني اقترح تسخين ماء المحيط، حتى اذا سخن الماء واحترق العدو من جرّاء غليانه، يصعد الى سطح الماء. فسأله سامعه عن الطريقة التي تمكنه من إكمال هذه المأثرة فأجاب أيضاً: «انا أعطيتكم الفكرة، وعليكم ايجاد الحلّ التقني».

أما وزارة الخارجية فكانت تذهب إلى أبعد من ذلك، اذ اقترحت التوصل الى اتفاق حول اجراء تجارب وانتشار الصواريخ الموجّهة ذات الرؤوس المتعدّدة

(M. I. R. V.) وهذا حلّ لايمكن التفاوض حوله، لأنه يستثني السوفيت من الدخول في مجال الصواريخ الموجّهة آنفة الذكر. واستقبل البنتاغون هذا العرض بقليل من الحماس، لأن مضمونه يجبرنا على التخلّي عن تصنيع صواريخ Trident هذا الصاروخ الأمريكي الوحيد الجديد، الذي كنا عازمين على إظهاره الى حيّز الوجود. كما انه قد أثير أيضاً تحديد مشابه حول الصواريخ الموجّهة، فاستدعت عدة حلول وفرضت مراقبة شديدة. وبعد إعادة نظر وتدقيق، سمح بإكمال تصنيعها.

وكانت هذه هي المرة الأولى، منذ تعييني في خدمة الحكومة، أرى نفسي منزوياً عن الادارة، ومجبراً على مواجهة أمور صعبة.

وفيما كانت تتتابع هذه المنازعات، وعلى الرغم من تساويها لدى جميع الفرقاء، أكملت وزارة الدفاع خطّتها بتقليص قواتنا تحت ستار قرارات إدارية. ولم تكف عن ذلك طول السنوات السبع، التي كانت تجري فيها المفاوضات حول سالت ـ ٢ ـ . أعطي مثالاً على ذلك، فانها بموجب خطتها الخمسيّة المقرّرة منذ عام ١٩٧٣، ودون أخذ رأي البيت الأبيض أو مراقبته، ودون العودة الى ملّفات سالت، رأى البنتاغون إبطال استخدام الطائرات (100-B-52) وألا تصنع منذ الآن سوى طائرات (250-B-1) لتحل محل (B-52) الحالية، وهذا الاجراء يؤدي الى انقاص أعداد قواتنا الإستراتيجية بما يقارب مائتين وتسعين وحدة. فحصل السوفيت على مكاسب دون مقابل، كنا نؤمل الحصول على مثلها نتيجة مفاوضات طويلة.

وغرابة الأمر تبدو واضحة، في ان تتخذ قرارات بمثل هذه الأهمية من قبل وزارة، دون إعطاء الضوء الأخضر من قبل البيت الأبيض. وكانت الموافقة التقنية على تصنيع الأسلحة المعنية. ولم يبق على البيت الأبيض سوى تحديد أعدادها، وهذا قرار يصعب عليه اتخاذه، لأن قدرته محدودة أمام التدخل في مشروع الموازنة، التي كان يدور حولها نقاش حاد. اننا نعتبر ميزانية دفاعنا، أهم بكثير بالنسبة لنا من النفقات العامة

مجتمعة في أي بلد من بلدان أوروبا، وفي مثل هذه المراحل الدقيقة، يكون لمكتبي الادراة والموازنة تأثير كبير، ولكن على توزيع الكميات فقط. أما بالنسبة لمجلس الأمن القومي فقد تدخل لتفصيل ما ورد في القرارات، محدّداً برامج التسلح، التي كنا نريد الاحتفاظ بها، لنعوّض عنها في مجال اتفاقيات سالت، فوجب علينا مجابهة وزارة الدفاع والعسكريين الذين أبدوا تحمساً كبيراً لما كانوا يعتبرونه امتيازاً، من خلال التوصيات المبدئية، حول توزيع الأموال المقررة على الأجهزة المختلفة.

كان البنتاغون في ضيق، خلال الستّينات، إذ قد ظهر له ان هناك تدخلاً لتخطيط مدني في المجلس، تهيئة لمحاسبته على مستوى يعلو عن تخطيطه. وفي عام ١٩٧١، طالبت وزارة الدفاع ان توضح، لماذا تكلف الأسلحة السوفيتية أقل بكثير، مما تكلّفه مثيلاتها من الأسلحة الأمريكية. وطرحت القضيّة للدراسة بعد خمس سنوات، فيما كنت أنا أترك السلطة. وهذا ما جرى أيضاً للمطالبة بتحقيق دقيق، حول إستراتيجية واحتياجات البحرية. وعلى كل حال فان هيئة الأركان العامة المشتركة، ضمن هذه الطريقة البطيئة، التي لا تحتاج بعد للاختيار، كانت تعارض أيضاً باجراء تحقيقات، ما لم يقم بذلك مسؤولون أجانب موجودون في وزارة الدفاع، وأجبرنا ان ننتظر تعيين جيمس شليسنجر وزيرا للدفاع، لنتمكن من إجراء تفقيط دقيق لما صنّعته قواتنا الإستراتيجية وكنا قد طالبنا به منذ عام ١٩٦٩. لكن تقدم وازدياد القوات الإستراتيجية السوفيتية في هذا الظرف بالذات، لم يبق لنا أملاً لمساواته.

وفي بداية ولاية نيكسون، ظننت اننا خطونا خطوة ناجحة، بأن شكلنا لجنة مهمتها إعادة النظر ببرامج الدفاع، وهي تضم بالطبع وزارة الخارجية والوزارات الاقتصادية. وأبدى وزير الدفاع موافقته على تشكيلها، لأن نيّته كانت متجهة نحو إفهام هؤلاء الذين كانوا يطالبون بمضاعفة أرصدة الخدمات العامة، بالنتائج

الخطيرة التي تترتب على زيادة هذه المخصّصات في مشروع موازنة الدفاع. فوافقت بدوري أيضاً، لأني كنت أعتقد ان هذا الأمر سيتيح لي الفرصة لإقناع من يلزم بالفكرة الإستراتيجية ومستوى التسلح، الواجب العمل بها في مرحلة قريبة. وأوضح ليرد غاياته التي يهدف إليها أكثر مني. وعملياً فانه لم يكن يدعو اللجنة للاجتماع، إلاّ عند حاجته لاجراء تقليصات في مشروعات موازنته. أما البيت الأبيض فلم يكن يطّلع على الخطوط العريضة للبرنامج التفصيلي لوزارة الدفاع، إلاّ خلال فصل الصيف، أي قبل وضعه بصيغته النهائية في شهر تشرين الأول. حيث تكون جميع الأجهزة قد أنهت مداولاتها. فتلغى الأسلحة التي تعتبر بحكم المنسقة، وإلغاؤها يساعد في الدرجة الأولى مشاريع البرامج المقرّرة حديثاً، أما المشاكل التي لم تُحلّ فكانت قليلة جداً، وهي تقنية على وجه العموم، وكانت تفي بمتطلبات الرئيس، الذي كانت له كلمة الفصل، دون ان يسمح لمعاونيه باجراء اية اعادة نظر صحيحة. وهكذا وبسبب اجراءاتنا المالية، تابعنا إعطاء السوفيت، ما كنا نحن بحاجة لاستخدامه في سبيل مساومات تعود لمنفعتنا، وانذهالي الشديد ممّا كان يجري لم يُجد نفعاً. كما ان دورات الموازنة، ومراحل المفاوضات، كانت دائماً قابلة للتطوّر.

بدأت مفاوضات سالت (2) في تشرين الثاني من عام ١٩٧٢وسط فوضى عارمة من الأحداث التاريخية التي لم تترك لنا مجالاً مناسباً للتفكير وإيجاد تصور حقيقي لسياقات عمل تلك المفاوضات. واقترح السوفيت انسحاب الغواصات الأمريكية، حاملات الصواريخ الموجودة في قواعد متقدمة، ووقف متبادل في صنع أسلحة استراتيجية جديدة، ولما كانت حكومتنا، لم تتخذ بعد موقفاً صريحاً، ولا تزال منهمكة بالانتخابات الرئاسية، والمفاوضات الختامية حول حرب فيتنام، فلقد اقترحنا اجتماعاً استكشافياً. وكانت الغاية من هذا الاجتماع،

كما دلّت على ذلك التعليمات المرسلة إلى وفدنا المفاوض في مفاوضات سالت، بتاريخ الثامن من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٧٢، التعرّف على ردود الفعل السوفيتية، وأيضاً لوضع جدول أعمال، وبالاختصار، حتى لا نصطدم مستقبلاً بما يثير نزاعاً. وتقيد وفدنا بهذه التعليمات بدقة متناهية حسبما كانت تتطلبها فرقنا الداخلية. وأمضينا ستة أشهر في تبادل الوثائق والتعليمات، بينما كنّا نحن غارقين في نقاش شبه تقليدي، حول خيارات، فيما لو جرى اتفاق عليها فلن يكون لها أية علاقة في جوهر مفاوضاتنا.

واستعيدت المفاوضات حول سالت في بداية عام ١٩٧٣. وتواجد المفاوضون في جنيف، وقدم كل منهم وجهات النظر النهائية التي سيتقيدّ بها، لكن دون بذل أقل جهد لاحتواء الاختلاف الحاصل. ولأجل ذلك وجب علينا انتظار ما يتطلبه فريق كل حكومة بعد الوقوف على رأي حكومته. ولم أطلّع على ما أقرّه الزعماء السوفيت. وبالنسبة لنا، فقد أصبح واضحاً، أثناء اجتماع فريق التحقيق المشكل من أعضاء مجلس الأمن القومي وغيرهم في شهري شباط وآذار لعام ١٩٧٣، إن هناك حدوداً سياسية حول كل اقتراح يتعلق ببرنامج الصواريخ الموجهّة ذات الرؤوس المتعدّدة M. I. R. V. ـ وكانت وزارة الخارجية ميالة إلى إصدار قرار حول تجارب هذه الصواريخ ـM. I. R. V. ـ لكن نائب وزير الدفاع، وليم كليمانتس، ورئيس هيئة الأركان العامة المشتركة الأميرال توماس موورير، كانا معارضين بشدة. وكانا يؤكدان، أنه إذا ما استطعنا تصنيع صواريخ Trident جديدة مزودة برؤوس أحادية، فإن برنامج Trident، دون أن يرفق بالصواريخ الموجهّة ذات الرؤوس المتعدّدة، لن يكون له أدنى اعتبار، وسيحبط مشروع التصويت عليه في الكونغرس. وكان وزير الدفاع الجديد اليوت ريشاردسون، من هذا الرأي.

وفي الثامن من شهر آذار عام ١٩٧٣، اجتمع مجلس الأمن القومي، وأجبر الرئيس، أن يبيّن موقفه عما إذا كان هنالك رأي بتحديد تصنيع M. I. R. V. وإذا كان جواب الرئيس بالإيجاب، فأية نظرية يجب اتباعها؟ وهل هناك منع في تزويد الصواريخ السوفيتية الكبيرة برؤوس متعددة؟ وهل هناك تجميد في تصنيع الصواريخ M. I. R. V؟ وهل هناك تحريم لتجاربها خلال عامين أو ثلاثة أعوام، وأخيراً هل هناك تغيير في ما ننوي تصنيعه؟ وما هو الثمن الذي يجب أن نُعِدّ أنفسنا لتقديمه، ليقوم السوفيت بتحديد صواريخهم ذات الرؤوس المتعدّدة؟ ولم نستفيد من المناقشات المتفككة سوى في تعزيز ما هو لدى كل فريق من شكوك. في الوقت الذي كان فيه نيكسون منشغلاً بما أشيع حول فضيحة واترغيت. وما كان يزيد في قلقه واضطرابه، التحدّث عن الأشياء التقنية، والرؤوس النووية المحمولة أو مجموعات الصواريخ، أو الطائرات القاذفة، فكل هذا كان يزعجه ويزيد في امتعاضه. إن نظره الشارد، وتعليقاته الساخرة، التي كان يطلقها في مثل هذه المناسبات، كانت مؤشراً وحيداً، يدل على مطلب وحيد لديه وهو أن تنتهي مثل هذه الاجتماعات، دون اضطراره إلى اتخاذ قرار، يكون سبباً في إثارة المشادات السياسية الأجنبية، ويزيد في ارتباكاته الداخلية.

أضف إلى ذلك، فقد كان لدى نيكسون حدس خاص وأكيد بمعرفة الظرف الذي يتمكن فيه من العمل. ولم يصدر عن السوفيت أيّ مؤشّر، يدل على أنهم مستعدون لإجراء محادثات رسمية، وتصوراتنا الخاصة، لم تكن سوى استكشافية ونظرية. وليس هناك من أحد يفهم أكثر من نيكسون، المبدأ الذي يجب على رئيس ألاّ يضيع رأس ماله السياسي، طالما أن ظروف النجاح غير مؤكّدة. ولذلك فإن الاجتماع، انتهى إلى اتخاذ قرار يدل على حكمة وتعقل، وأوصى

بصياغة وثيقة وزارية جديدة، تختصر أو تبسّط، في حدود الإمكان الخيارات العديدة، الموجودة لدينا. مع الأخذ بعين الاعتبار التيارات المختلفة الموجودة، والغاية من ذلك تحديد موضع الاختلاف وهذا أمر شاق جداً. وحلّ جميع هذه المشاكل يتطلب عدة شهور، دون إشراك واترغيت معها. لكن فضيحة واترغيت، أرغمتنا والحق يقال، إلى تأجيل وضع حلول لهذه الأمور، إلى أن استلم جيرالد فورد الرئاسة.

إن انقساماتنا في واشنطن، لن تسلّم بشيء حيال تردّد موسكو. والنقاش الأمريكي الذي يدور حول عدم المساواة، يجب أن يكون له ما يماثله في الكرملين. وفي نهاية المطاف، فإن مفاوضات سالت (١) لن تجمد أي برنامج أمريكي، لكنها تبعث البطء في عدة مشاريع سوفيتية. لم يجرّب السوفيت بعد الصواريخ الموجهة ذات الرؤوس المتعدّدة، وفضلاً عن ذلك، فهم بكل تأكيد غير مستعدين لبدء مفاوضات رسمية حول تحديدها.

وكان يعزّز جميع هذه العوائق نفاد صبر بريجنيف، حول إبرام الاتفاقية، أكثر من الإعداد للوقاية من حرب نووية وكان يخشى أن متابعة المفاوضات المكثّفة حول الموضوعين في وقت واحد، ربما يؤدي إلى تأجيل مشروع يشغل باله. وكان يحاول أحياناً استخدام مفاوضات سالت لتسريع إبرام هذه الاتفاقية. وكانت هذه الأمور في صلب محادثتيّ الاثنتين اللتين أجريتهما مع دوبرينين في بداية شهر آذار من عام ١٩٧٣. وزعم دوبرينين أن العسكريين السوفيت، لا يرون أدنى فائدة في اتفاقية جديدة حول تحديد التسلّح الاستراتيجي، ما دامت المعاهدة الحالية لا تزال سارية المفعول لمدة أربعة أعوام. وعلينا أن نفهم كما قال دوبرينين، إذا تركنا هذه المشاريع لرعاية الإدارة السوفيتية، فإن أمام مفاوضات سالت ولا شك فرص

النجاح والتطوّر ولكن بتمهّل. وحول تدخله شخصياً، فإن بريجنيف سيتخذ من ذلك ذريعة لإبرام الاتفاقية بشكل حسن أفضل من الإعداد للوقاية من حرب نووية.

واذا زعمنا ان الأمين العام للحزب الشيوعي السوفيتي ، كان بحاجة لذريعة تحمله على الإسهام في قرارات الإدارة السوفيتية، فان هذا لا يبدو كلاماً ذا رصانة موضوعية. لكن دوبرينين عندما يفكّ عقال لسانه كان يبدو ثاقب الفكر في جميع ما يقول عمّا يحدث لبريجنيف من مضايقات خلال ادائه واجبه. واذا عادت وزارة الدفاع السوفيتية إلى ما يجول بخاطر دوبرينين، فانها ولا بد تتراجع أمام مفاوضات سالت. لأنه كان يرى ان رئيس وفد مفاوضات سالت، يبدى اهتماماً قليلاً، ويصدر تعلميات بتجميد كل مبادرة تقدّم، ترده من قبل وزراة الشؤون الخارجية، التي كانت تتحمل المسؤولية الكاملة للمفاوضات. واذا طلب رئيس الوفد السوفيتي المفاوض، فلادمير سيمينوف، من الجنرال تعليمات جديدة، فإنه كان يرفض زاعماً ان لو كانت الحاجة تدعو الى تعليمات جديدة، لزوّدته بها وزارة الدفاع. ونتمكن من ايجاز موقف وزارة الدفاع، في ملاحظة حول مفاوضات سالت، كان وزير الدفاع السوفيتي زوّد بها دوبرينين، وكان اذ ذاك المارشال غريتشكو فقال له :

«اذا رغبت في الاطلاع على رأيي الشخصي، فسوف أطلعك عليه، وإذا اردت رأيي الرسمي، فان الجواب الأساسي هو لا».

اذا لم تكن فكرة رئيس الوفد السوفيتي على طاولة المفاوضات مستوحاة من اللجنة التنفيذية في الحزب الشيوعي، فهي دون شك غامضة. واذا وُجد من يزعم أو يعتقد ان عناصر من الحكومة السوفيتية تختلف في الرأي حول طريقة التصرف مع الأجانب، فان القصد من هذا الاختلاف هو بكل تأكيد مُعَدّ لإقناع الأحكام الأمريكية المسبقة، حول حمائم الكرملين، التي تتظاهر بالعداء ضد من يسلكون المسلك

الخشن. ان الجنرال الذي كان يشارك بمفاوضات سالت في عام ١٩٧٣ هو نيكولاي اوغاركوف، وأصبح فيما بعد رئيس هيئة الأركان العامة السوفيتية، وهذا منصب لا يُسند الى رجل من الطبقة الثانية، مع العلم اني متأكد ان العسكريين السوفيت لا يؤمنون بالنظريات المستجدّة حول تحديد التسلّح، مثل زملائهم من جنرالات باقي العالم.

ان المفاوضات الشائكة التي كانت تجري في جنيف، كان ينعشها من حين الى آخر، ما يرد إليها من تقارير تنّم عن تفاؤل وفدنا، الذي كونه من أفضل المفاوضين التقليديين الأمريكان، عرف ان يخص نفسه بالمنفعة في حال نجاح تلك المفاوضات. وهكذا، ففي السابع والعشرين من شهر آذار، أعلمنا وفدنا ان أحد أعضاء الوفد السوفيتي صرّح قائلاً:

في حال موافقتنا نحن الأمريكان بالمحافظة على التباين الظاهر في مفاوضات سالت - ١ - بالنسبة لعدد الصواريخ العام، فان موسكو ستوافق على تحديد أعداد صورايخ لكل فريق بحدود ثلاثمائة الى خمسمائة صاروخ موحّد، تركّز على الأرض، وتحمّل قذائف مضادّة. وكان هذا الاقتراح يتضمن فائدة لنا حسب وجهة نظرنا. بالإضافة الى أنه أجّل ظهور صواريخ Minuteman ومنع السوفيت من تزويد صواريخهم بقذائف مضادّة. كما أننا لم نقرّر تزويد أكثر من خمسمائة وخمسين صاروخاً برؤوس نووية. ولقد أظهر هذا الاقتراح من جهة أخرى موقفاً انفتاحياً معقّداً من جهة السوفيت، اذ ان دوبرينين لم يصرّح به قط، وانما كان يشير إليه من خلال المحادثات التي كانت تشغل كثيراً بال السوفيت، وعندما سألت دوبرينين عن ذلك، لم يظهر ردّ فعل. ويمكن تفسير هذا بتحمس من قبل أحد المشاركين في المفاوضات.

ولقاء ذلك، فقد تلقينا رسمياً، اقتراحاً سوفيتياً متحيزاً، لا أزال اسائل نفسي، عن كيفية قبوله وتصديقه، وبالأحرى كيف بحث ونوقش. وبكل بساطة، كان السوفيت

يؤكدون منع كل سلاح جديد إستراتيجي طوال فترة الاتفاقية الجديدة. على الرغم من تسامحهم بمتابعة تحديث الأسلحة. واطلعنا مصادفة ان كل صاروخ سوفيتي، يصنّع ويوضع موضع العمل، كان حديث التصنيع، ولما كنا نحن قد صنّعنا خلال عشر سنوات، أول صاروخ إستراتيجي (Trident) لذا فان هذا الاقتراح لم يثر ايّ اهتمام لدى حكومتنا.

وفي أواخر شهر نيسان من عام ١٩٧٣، عندما كنت أعد نفسي لرحلة زافيدوفو، وقبل سفري، عقدت ثلاث اجتماعات مع فريق التحقيق بتاريخ الخامس والعشرين، والسابع والعشرين، والثلاثين منه. ولم يقترح أحد شيئاً جديداً. واتخذت وزارة الدفاع وهيئة الأركان المشتركة موقفاً موحداً، بحيث تتساوى مجموعات كل صنف مما يراد تصنعيه من أسلحتنا، مهما يكن وضع قواتنا، بالنسبة للقوات السوفيتية. لقد تكلم الناس كثيراً، خلال سنوات المصاعب، عن صواريخ السوفيت الثقيلة، وعما إذا كانت مجهزة برؤوس متعدّدة، لذا أصبحنا الآن نبدي اهتماماً قليلاً، إذا قيل لنا، أنهم يوقفون الآن تحديث أسلحتهم بل صواريخهم. وقلت إذا كان ذلك صحيحاً، فماذا يكون موضوع المفاوضات؟ فلطّف كليمانتس الموقف قائلاً: أن تجهيز الصاروخ السوفيتي SS-9 بقذائف مضادة لا يشكل خطراً، أما منع ذلك، فهو مرغوب، شريطة ألاّ ندفع ثمن هذا الاقتراح غالياً. وبمقولة أخرى، يجب ألاّ نوقف تصنيع صواريخ تلحّ عليها وزارة الدفاع، إذا فشلت مفاوضات حول الإبقاء على مجموعات صواريخ متساوية لدى الفريقين. كل هذا ولم يحدّد سقف لتصنيع القذائف المضادّة، طوال محادثات تحديد التسلّح. وعبّرت عن قلقي في اجتماع لفريق التحقيق عقد في الخامس والعشرين من شهر نيسان، فقلت:

"إن تساوي العدد في القذائف المضادة، وقاذفات القنابل، سيعطي للمهاجم

فرص النجاح. ولن يشكل هذا سوى تساوٍ ظاهري لا حقيقي، فيساعد على الهجوم. وربما لا نقدر على تفادي ذلك، فإذا كان لدينا من القنابل خمس مرات أكثر من الصواريخ، وإذا كانت الأهداف أقل من الصواريخ، فإن فرصة النجاح، لا تزال في يد المهاجم، وسيخلق هذا مبدأ صريحاً وقوياً لعدم توازن القوى".

وفيما كانت وزارة الدفاع راغبة، في أن تؤكد، أن مفاوضات سالت (٢) تشمل جميع البرامج المعروضة عليها حالياً، كانت كل من وزارة الخارجية، ووكالة تحديد التسلّح ونزع السلاح A. C. D. A يطالبان بالتخلّي عن جميع البرامج الجديدة المنوي تصنيعها، وأن نذهب إلى المفاوضات، ونيّتنا متجهّة لارتياد أرضيتها. واقتراح الاستكشاف، قبل اتخاذ موقف خاص، ولا سيما بعد أن فشلنا وبكل صراحة في الوصول إلى وفاق داخلي، إن مثل هذا الاقتراح لابدّ أن يثير سخريّتي.

ولما كانت أجهزتنا، غير قادرة على الاتفاق وتشكيل موقف موحد، ولما كانت قضية واترغيت، قد بعثت الشلل في موقف الرئيس، فإن التعليمات التي أرسلت في الثالث من شهر أيار، إلى وفدنا في مفاوضات سالت، كانت مزيجاً من إرادات جميع الوزارات. ولم يرفض أيّ من هذا الكوكتيل واعتبرت جميع الأفكار الواردة فيه وكأنها تمائم. وكان الاقتراح يطالب بمجموعات متساوية، مع تحديد سقف لألفين وثلاثمائة وخمسين صاروخاً، منها مائتان وخمسون، من جانب الأرقام السوفيتية الحالية، وقرابة مائة وخمسين زيادة عن أرقامنا. وكان الاقتراح يتضمن أيضاً تجميد تصنيع القذائف الصاروخية المضادة، ومنع إجراء تجارب جديدة. وهذا الإجراء يمنع السوفيت من تجهيز صواريخهم الأرضية بقذائف مضادة، وهي تمثّل ٨٥٪ من تجهيزاتهم، ولن يؤثر كثيراً في تقليص برامجنا. وبعبارة أخرى، كنا نعرض تبادل أربعمائة وخمسين رأساً نووياً، بمائة وخمسين صاروخاً

من نوع Minuteman كنا نرفض تصنيعها، ولقاء عدد تقريبي يساوي خمسة آلاف رأس نووي سوفيتي جُهزت بها صواريخهم الأرضية. وكما هي العادة، فقد اختفى هذا الاقتراح سريعاً، مع أمثاله من المشاريع أحادية الجانب، التي كان يرضي بها كل فريق بيروقراطيّته، ويترك لنفسه الحكم، عما إذا كانت هناك ضرورة تدعو لإصدار قرارات ملزمة.

وعندما وصلت إلى زافيدوفو، في شهر أيار من عام ١٩٧٣، كانت مفاوضات سالت، تتخبطّ في مأزق حاد. فأخذت رأي بريجنيف حول التعليمات الرئاسية، المتعلّقة بالقذائف المضادة M. I. R. V، والتي أرسلت إلى جنيف، لكنها لم تقدّم حتى الآن. (وفي طريقي إلى موسكو، في الرابع من شهر أيار، وفي مطار كوبنهاغن، التقيت رئيس وفدنا، في مفاوضات سالت، الكسيس جونسون، وطلبت إليه عدم تسجيل هذا العرض، لأتمكن من تقديمه لبريجنيف، بمثابة اقتراح خاص من قبل الرئيس).

قاسٍ ونابه معاً، هذا هو بريجنيف، الذي لن ينخدع بمناورات مماثلة. وهو لا يريد سماع مشاريع، تحول دون تجهيز السوفيت أحسن صواريخهم بقذائف مضادة. حينئذ قلت له: سأقترح على دوبرينين مخططاً آخر، لا أزال أفكر فيه، وهو كناية عن وعد سوفيتي، بعدم تجهيز الصواريخ الثقيلة بقذائف مضادة، لقاء تعهد أمريكي، بعدم تطوير أسلحة تطلق من بعد بقاذفات قنابل أو من البحر ويكون أكبر مدى لإصابتها ثلاثة آلاف كيلو متر. وكانت المشكلة متوقفة على ممانعة البنتاغون في تشغيل أو تصنيع سلاح كهذا، تكون إصابته بعيدة المدى. نقل دوبرينين كلامي إلى بريجنيف، فأظهر أن فيه بعض الفائدة، وبيّن أن عليه أولاً أخذ رأي حكومته، فلا يستطيع اتخاذ أي قرار بهذا الصدد، ما دمت في زافيدوفو. ولم نعد إلى

الحديث بهذا الموضوع أبداً. ومن الثابت أنه غير مستعد لمناقشة أي تحديد سلاح أو قذيفة، قبل إتمام البرنامج السوفيتي من حيث إجراء التجارب على مثل هذه الأسلحة.

عُدنا كثيراً إلى فكرة توقيع عددٍ من المبادئ العامة خلال مفاوضات سالت في مؤتمر قمة حزيران. وهذا هو الملجأ الطبيعي الذي يلجأ إليه الدبلوماسيون الذين لا يتمكنون من الوصول إلى اتفاق ما حول آرائهم، ويرفضون في قرارة نفوسهم، أن تؤدي بهم مفاوضاتهم إلى مأزق، وتكون لديهم اللياقة المطلوبة لإيجاد صيغة تمكن كل فريق من المحافظة على موقفه الأصلي. وفي السادس من شهر نيسان وفي جنيف، طرح السوفيت مشروعاً، يعيد ثقتهم بموقفهم على أن يعتبر بمثابة مبادئ عامة. فتجاهلناه، ورفضنا التفاوض حول أية وثيقة أو أي اقتراح يصاغ مجدداً. وفي الخامس والعشرين من شهر نيسان، عرض عليّ دوبرينين، صيغة مضاعفة للمشروع الذي قدّم في جنيف. ولا يزال السوفيت يحبّذونه. وكان هذا المشروع يتضمن وبوضوح، وجوب إدخال طائراتنا المتواجدة في أوروبا، مع مجموعات الأسلحة، المنوي التفاوض حولها، وهذا أمر يجبرنا على تقليص عدد أسلحتنا الاستراتيجية، حتى نعوضّ عن تلك الطائرات، أو أن نسحب بعض تلك الأسلحة المخصصة للدفاع عن حلف شمال الأطلسي (OTAN) ولا فائدة ترجى من هذا المشروع سوى إغاظة حلفائنا في حلف شمال الأطلسي، لأسباب استراتيجية، أو لعدم قناعتهم بأن ما لديهم من أسلحة أصبح موضوع تفاوض، لن يشتركوا فيها أبداً. وفيما كان يدور الجدل حول هذه المشاكل، جاء السوفيت برأي جديد يقضي بوضع حدّ لتعاوننا النووي مع بريطانيا العظمى، وطالبوا أيضاً بتثبيت مجاميع الأسلحة التي حدّدتها الاتفاقية المؤقتة، والتي كانت أعدادها غير متساوية، دون

أي تساهل أو تنازل من قبل السوفيت. ولم تكن لنا فائدة ما من دراسة هذا المشروع وإقراره !!

لكن اقتراحنا المعارض، لن يتيح للمؤرخين ذكر دقته ووضوحه. وكان يحتاج لأرضية محايدة، معطياً فرصة لكل فريق باستخدام خياراته. وفي الوقت ذاته، إبعاد فكرة السوفيت، في شمول تلك الأسلحة، بنفس الصيغة المستخدمة في اتفاقية سالت (١) والمتضمنة إشراف بلد ثالث على قواعد تلك الأسلحة لملاحقة أي زيارة تطرأ عليها، خاصة تلك القواعد التي تحوي أسلحة تصل مدياتها إلى أهداف في الاتحاد السوفيتي. لكنه لا يطالب، باعتبار الأسلحة الموجودة حالياً، بين مجموعات الأسلحة التي تجري المفاوضات حولها. كما أن المشروع الذي تقدمنا به، كان ينكر أيضاً وبصورة نهائية، الاقتراح القائل بتثبيت الأعداد غير المتساوية، التي تضمنتها الاتفاقية المؤقتة.

وظهر إعلان حول «المباديء العامة» ولم يكن انعطافاً حقيقياً في تاريخ الدبلوماسيّة أو تحدي الأسلحة. وكانت تتضمن الوثيقة، مبدأ «الأمن المتساوي» المقدّس. ويمكن تفسير هذه الوثيقة كما نريد، مجموعات أسلحة متساوية، وقذائف مضادّة متساوية، دون الأخذ بعين الاعتبار قواعدها فيما وراء البحار. وقذائف مضادّة غير متساوية، لقاء مجموعات أسلحة غير متساوية. أو كل مخطّط آخر، تتمكن كل دولة من إعداده. ان البند الذي يمكن لاتفاقية سالت ان تتضمنه، هو الحظر على تصنيع نوع خاص من الأسلحة، ولقد اعتبرنا هذا خدعة تستطيع اتفاقية سالت ـ ٢ ـ تحديد القذائف المضادة وغيرها من الأسلحة التي لم تحدّد بعد. وكنّا نتبيّن من خلال كل ما حدث سابقاً ويحدث حالياً، ان الفريقين يحاولان ابرام اتفاقية جديدة قبل نهاية عام ١٩٧٤. وكان عدم التقيدّ بالوعود والظروف، يقلق غروميكو، لأنه يخشى حدوث أسباب تقنية تؤدي الى أعتلال علاقاتنا. وكنا نعتقد ان تاريخاً محدداً

هو الطريقة الوحيدة في وضع حدّ لمغالطات داخلية ضمن حكومتنا كما جرى في جنيف (ووصلنا تماماً مع مرور الزمن الى اتفاقية فلاديفوستوك المبرمة في شهر تشرين الثاني لعام ١٩٧٤).

ولم تصب كبد الحقيقة، أية مناورة بارعة، من قبل مؤيدي سالت أو من معارضيهم. وخلال السبعينات، كدنا نفقد ما بقي لدينا من قدرة على تدمير الصواريخ السوفيتية التي تطلق من الارض الى الأرض والتي يرمز اليها ICBM وفي آخر الثمانينات، أصبحت صواريخنا التي تطلق من الأرض الى الأرض قوية جداً، على الرغم من تجهيز السوفيت صواريخهم برؤوس نووية متعدّدة، وبقدر ما سوف يدخلون عليها من تحسينات. ولو كان لدى كل فريق العدد المتساوي من القاذفات النووية، ولو وجدت حرية بتشكليها «مبدأ آخر لدى البنتاغون يسمح لكل فريق ان يعزّز قوته كما يرى». لأصبح من المؤكد ان السوفيت سيجهزون صواريخهم برؤوس نووية أكثر منا. ولما كانت صواريخهم أكبر وأثقل من التي نملك، فسوف تصبح أقوى وأقدر من صواريخ Minuteman ذوات الرؤوس الثلاثة. ولأخذ العلم، ان برنامجنا الجديد الوحيد هو Trident الذي يطلق من الغواصات، ولا يعطينا أي تفوق في إصابة الأهداف التي نحددها ونقصدها، كما ان اطلاقها يدعو الى عمليات تقنية.

فآجلاً أو عاجلاً، وعلى الرغم من تساوي الرؤوس النووية في العدد، فان السوفيت على استعداد لتنسيق قوتهم الضاربة المتكاثرة، مع تفوقهم التكتيكي التقليدي، ليستطيعوا إحداث تغيير في التوازن الجغرافي السياسي. وبعد مضي اسبوعين على مؤتمر قمة حزيران لعام ١٩٧٣، أنجز السوفيت أول تجربة إطلاق رؤوس نووية من الغواصات، والصاروخ الجديد الذي كان يجب ان يقوم مقام SS-11، أصبح خارج التأثير. وانقلاب استراتيجي متوقع مرهون بظروف مستجدة لن يطول الأمر في إدراكها.

وفي الثالث عشر من شهر تموز لعام ١٩٧٣، كتبت الى بيل كليمانتس، ليوصي بمتابعة تصنيع صاروخ يطلق من الغواصات بعيد المدى. وكان البنتاغون يفكر بعدم الموافقة على تصنيع هذا السلاح لأسباب مالية، وليتحاشى استخدامها كذريعة لالغاء السلاح الجوي، قاذفة القنابل الجديدة (B1). لكن الأحداث التي تلت ذلك، أثبتت ان المناورات التي قامت بها الأجهزة، لم تعطِ النتيجة المطلوبة، التي أمّلت منها، لكنها التجربة والخبرة هي التي أدّت الى المطلوب. لقد ألغيت قاذفة القنابل (B1) من قبل حكومة كارتر، معتبرة ان الصواريخ التي تجهّز بها قاذفة القنابل B52 تجعل قاذفة القنابل (B1) عديمة الجدوى. وشرحت في الوقت ذاته لكليمانتس، ان برنامج تصنيع صواريخ بعيدة المدى تطلق من قاذفة قنابل، تدافع عن ذاتها إستراتيجياً، ونتمكن من الانتفاع بها في تعزيز موقفنا في محادثات سالت. تحمّس كليمانتس، وأقدم على إتمام التصنيع، وأنقذ البرنامج من الالغاء ونفّذ.

وهكذا تتابعت مفاوضات سالت، في نفس الوقت الذي كان فيه الفريقان يصنّعان أسلحة جديدة، فكنا نصنّع نحن الصواريخ Trident التي تطلق من الغواصات وقاذفة القنابل (B1) وكان السوفيت يصنعون أربعة أنواع من القذائف الباليستية، والقذائف المضادة. إن اختلافاتنا الداخلية في أمريكا، حالت دون توضيح استراتيجيتنا، أو الفكرة الصحيحة حول تحديد التسلّح، وضمن هذا الفراغ الذي حدث، أصبحت كل قضية تأخذ منحاً أكاديمياً، أكثر مما يجب تقنياً، بينما أن حلّها كان خاضعاً لاعتبارات سياسية. ولم يفقه الكونغرس معنى التهديد السوفيتي، ولم يعره الاهتمام اللازم إلاّ عام ١٩٧٥. عندما ظهر في أفقنا كابوس استراتيجي حقيقي، فقد أصبح في متناول السوفيت استخدام الانفتاح الذي حصلوا عليه نتيجة تنسيق قدراتهم، والذي أدّى بهم وبكل بساطة إلى تعزيز ترسانتهم الاستراتيجية، وتفوقهم البري، فباتوا جراء ذلك يتمكنون من إثارة

الأزمات، وفرض تغييرات جغرافية سياسية تناسبهم. وقضية ربط الدفاع بتحديد التسلّح، والمحافظة على قوّتنا، فيما نحن نفاوض على إجراء تقليصات متبادلة، بقيت تأخذ حيزاً كبيراً ومهمّاً في السياسة الأمريكية.

❒ ❒ ❒

لم يعر العالم اهتماماً كافياً، لمفاوضات هامة كانت تجري بالتزامن مع مباحثات سالت (٢)، وكانت المفاجأة سارّة وتبعث الأمل في النفوس، إذ توصل المتفاوضون إلى اتفاقية للوقاية من حرب نووية. وكان فريقنا المفاوض ماهراً بإيقافه تحركات سوفيتية تهدف إلى حرماننا من استخدام الأسلحة النووية، بحجة الدفاع عن العالم الحر. إن موقفنا الجريء تجاه الدبلوماسية السوفيتية، أدّى بنا إلى الوصول إلى نتيجة طيبّة دون التضحية بشيء يذكر.

ففي نيسان من عام ١٩٧٢، وخلال زيارتي السرية لموسكو، أخذني بريجنيف على انفراد، ليطرح عليّ فكرة، سرّهُ أن يدعوها "القنبلة السلميّة". وهي كناية عن إبرام معاهدة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، يتعهد كل منهما بعدم استخدام الأسلحة النووية ضد الآخر. وجاءت فكرته هذه، في الوقت الذي كانت فيتنام الشمالية تقوم بهجومها الربيعي الساحق، وكانت حكومة نيكسون جازمة فعلاً على إلغاء مؤتمر القمّة في حال نجاح هجوم هانوي العسكري. وكنا كذلك مجبرين على استعادة قصف فيتنام الشمالية، إذا لم يتوقف الهجوم خلال الأيام القريبة القادمة.

وفي الثاني عشر من أيار، أكد دوبرينين، أن رؤساءه أرسلوا إليه بمشروع معاهدة، ويطالبون بتوقيعها حالما تسمح الظروف. وبعد الإطلاع عليها، تبينّ أن

الفقرة الأولى منها تتضمن ما يلي: امتناع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي من استخدام الأسلحة النووية ضد بعضهما. أمّا الفقرة الثانية فكان مضمونها إعلانا حازماً بأن كلا الفريقين، سيحولان دون الظروف والأسباب، التي تحدث في البلاد الأخرى وتؤدي ربمّا إلى حرب نووية. وكانت هذه فكرة ذات مقدّمات قويّة. إذ كان يطلب إلينا تدمير استراتيجية حلف شمال الأطلسي العسكرية، وتدعو إلى شبه تحالف عسكري أمريكي سوفيتي، كأني به مخصّص لعزل الصين أو غيرها من البلدان، التي أصبحت لديها تطلعات نحو أسلحة نووية، أو فرض أرادتنا عليها!!.

إن هذا المشروع الذي تقدّم به دوبرينين، على الرغم من أنه غير مألوف فإنه مع ذلك يطرح مشكلة تعبوية. كنّا نيكسون وأنا متفقين على إطالة أمد المحادثات، لنتمكن من إقناع السوفيت، بعدم إثارة مثل هذه الأمور طالما نحن في طريقنا، لوضع حدّ للهجوم الذي تقوم به فيتنام الشمالية. ولقاء ذلك كنا غير قادرين على قبول المشروع السوفيتي دون التعرّض لمخاطر جسيمة. وكأني بنا نقبل بالدخول في حلبة مبارزة جدّ معقدة، ونسعى في الوقت نفسه إلى مقابلة هجوم سوفيتي مركزّ بهزيمة مكشوفة. هذا بالإضافة إلى علمنا المسبق، بوجوب اتخاذ موقف أجلاً أو عاجلاً.

وكما كنّا نتوقع، فإن بريجنيف قد ألح كثيراً على نيكسون حول هذه المعاهدة، خلال مؤتمر قمة موسكو عام ١٩٧٢ . وكنا نيكسون وأنا، قد تدبرّنا أمرنا واتفقنا على أن يظهر الرئيس قبولاً غير محدّد، ويبين مغنماً من وراء المعاهدة. ولذا فقد تقدّم نيكسون بمشروع معاكس، يؤكدّ فكرتنا السابقة، على أن السلام الدائم، يتوقف في نهاية المطاف، على سلوكيّة معتدلة من كل من القوتين الأعظمين.

تدارسنا من ثمّ الاقتراح السوفيتي، الذي يطالب بمنع استخدام الأسلحة النووية أثناء الحروب، وأضفنا إليه بنداً جديداً، بعدم الالتجاء إلى القوة والتهديد بها في أوقات السلم. ولم تكن الضرورة ملحّة للتداول بشأن ما يدور بين أمريكا والاتحاد السوفيتي نحو البلدان الأخرى. فقبل بريجنيف كل ما تقدمنا به، دون تعليق. ولم يخف على غروميكو من خلال ما نعمل، وهو ذو الخبرة الواسعة، إننا نسعى فقط، في كل ما نقدم ونبحث، إلى كسب الوقت فقط. ولقد عرف نيكسون أن يخلّص نفسه من المأزق، بأن أكد وبكل طلاقة، أن دوبرينين وأنا، علينا حلّ جميع الأمور المعلّقة في الاقتراحات المقدّمة.

وفي الحادي والعشرين من تموز، بدا واضحاً أن السوفيت يعملون وفقاً لجدول أعمال خاص بهم، فمع عودة دوبرينين إلى واشنطن أعلمني بأن المشروع الذي كنا قد تقدمنا به قد رفض، أن موسكو تلطفت وحاولت إبداله بآخر قدمه لي أثناء حديثه. ويؤكد المشروع الجديد على الفريقين القبول بعدم اللجوء إلى استخدام الأسلحة النووية، ويسمح لنا في الوقت ذاته عدم التخلّي عن التزاماتنا نحو شمال الأطلسي، ويبيّن بند آخر فيه، أن لا شيء يحول دون الإبقاء على الالتزامات المتعلقة في بلدان أخرى، أو بحق الدفاع الجماعي. واعتبرنا هذا إنقاذاً لموقف حلفائنا، وتعريضاً بموقف البلدان غير المتحالفة كالصين، والتي سلامة حدودها وأراضيها، كانت من مستلزمات توازن القوى الدولي.

وعلى أمل تأجيل الأمور طرحت ثلاثة أسئلة على دوبرينين. ومنها، فيما إذا قبل المشروع السوفيتي فهل يحق للولايات المتحدة استخدام الأسلحة النووية للدفاع عن حلف شمال الأطلسي؟ وهل يحق لأي بلد آخر اللجوء إلى استعمال الأسلحة النووية في الدفاع عن أصدقائه التقليديين، والذين لا ترتبط معهم

بمعاهدات رسمية، وهل يحق لكل فريق استخدام الأسلحة النووية للدفاع عن بلد ما غير منتظم، وفقده استقلاله يؤثر بتوازن القوى الدولي؟ (وأعطيت مثالاً عن دولة الهند، لكن الزعماء السوفيت، كانوا يدركون أننا نتكلم عن الصين).

لم انتظر جواباً حول ذلك. وفي الحقيقة، لقد وجّهت أسئلة دقيقة، لأني كنت أعلم مسبقاً، أن تردّد السوفيت بالإجابة، سوف يهمل هذا المشروع الغريب والرهيب. ولا تسل عن دهشتي، عندما تلقينا في السابع من شهر أيلول لعام ١٩٧٢، جواباً كتابياً من السوفيت، يكشفون فيه عن نواياهم، دون أقل مواربة. وجواب أسئلتي الثلاثة آنفة الذكر كان التالي: أن الاتفاقية المقترحة، لا تنفي أبداً اللجوء إلى الأسلحة النووية في حرب تستهدف حلف شمال الأطلسي OTAN ومعاهدة فرسوفيا. غير أن استخدام هذه الأسلحة يجب أن يحدّد في أراضي الحلفاء، ويحرم قطعاً استخدام الأسلحة النووية، ضد أراضي الولايات المتحدة أو أراضي الاتحاد السوفيتي. وفي حال نشوب حرب في الشرق الأوسط، لا يجوز لأي فريق استعمال الأسلحة النووية، وهذا يطبّق أيضاً حال حدوث هجوم على بلد هام كالهند.

ويفسر تحديد مثل هذا الحكم الثنائي الوارد من خلال صيغة جواب الإتحاد السوفيتي ! ان مشروع هذه المعاهدة يتعهد بحماية القوّتين الأعظمين من تدميرهما نووياً حتى عند نشوب حرب أوروبية، ويعطي ضماناً لبلدان الحلفاء من قبل كل منهما. كان هذا الجواب موضوع بشكل يحبّذ الحياد الأوروبي، ويخفّض في الوقت نفسه من قيمة التحالفات. قد يتوقف الدفاع عن الشرق الأوسط على الأسلحة الاصطلاحية حيث كان مستوانا فيها متدنياً، كما يتوقف أيضاً على جلب تعزيزات تؤمّن الصمود في ساحات القتال البعيدة، وهذا بحدّ ذاته يشكل مشكلة أكبر. أما

بقية البلدان الأخرى، كان يجب ان تترك وشأنها. فيمكن ان تهاجم الصين مثلاً من قبل الجيوش السوفيتية، دون توجّس خيفة من ردّ نووي أمريكي. وبناء على تفسير هذه المعاهدة، ستصبح تحالفاتنا مهلهلة، وستفقد أيضاً البلدان الصديقة ثقتها فينا.

وعلى الرغم من حاجتنا لوقت نكسبه، فلقد أجبت في اليوم نفسه، أي في السابع من شهر أيلول، لكي لا يبقى مجال للشك في الأولويات التي نهدف إلى تطبيقها. فسلّمت دوبرينين وثيقة، نؤكد فيها على نيّتنا في استكشاف مبادئ عامة تساعد على تلطيف الأجواء الدولية. وأكدّت في الوقت نفسه، على حدود لا نسمح لأنفسنا أن نتجاوزها:

- نعتقد أن من الأهمية بمكان، تجنب أية صيغة يستشفّ منها فرض حكم ثنائي من قبل كلّ منا.
- كنا نعتقد أيضاً أن من الأهمية بمكان، أن إبرام اتفاقية بين بلدينا، توجب احتجاب حرب نووية بين بلدينا فقط، وتترك الباب مفتوحاً أمام إمكانية حدوث مثل هذه الحرب، ضد بلدان أخرى.
- ونعتقد كذلك، أننا عندما نؤكد على الابتعاد عن حرب نووية، نبقي لدى العالم انطباعاً بالتمكن من اللجوء إلى حرب عادية بوسائل تقليدية.
- كذلك نعتقد أيضاً، أن الاتفاقيات السابقة، المتعلقة بالتحالفات الهادفة أثر إحلال السلام وضمان الأمن، يجب تعزيزها باتفاقيات إضافية نجريها فيما بيننا، نحدد فيها عزمنا على اجتناب الحرب النووية.

ان المحادثات التي كنا أجريناها مع الحكومة البريطانية، لم تسهم كثيراً في مساعدتنا على الإجابة. ولقد أبلغنا خلال الصيف، أهم حلفائنا الأوروبيين عن

الخطوط العريضة للاقتراح السوفيتي. وفي آخر شهر تموز من عالم ١٩٧٢،اغتنمت فرصة زيارة السير بورك تراند الرسمية الى واشنطن، وكان في حينه رئيس الحكومة البريطانية، فأطلعته على المشروع السوفيتي ، وجرى ذلك في الواحد والعشرين من شهر تموز، وفيما أنا أطلب رأي بريطانيا العظمى، أعلمته اننا لن نتابع مثل هذه المفاوضات إلاّ بمشاركة لندن. وفي العاشر من شهر آب، أرسلت وزارة الخارجية البريطانية، الى واشنطن خبيرها المختص بالشؤون السوفيتية، السير توماس بريميلاو، مع فريق صغير من المستشارين، وكانت مهمتهم منحصرة في تدقيق تفاصيل هذا المشروع.

ولا توجد إمكانية لدى لندن ان تختار أفضل من بريميلاو لدراسة وبحث ذلك المشروع، وبرباطة جأشه، ووقاره، ورصانته، أصبح بريميلاو عنصراً لا يستغنى عنه في المفاوضات ولما كان متعمّقاً جداً بمعرفة تصرفات السوفيت، فقد كان يحلّل وضوح ما ترمي إليه موسكو. وهو يعتقد ان التهديد، بحرب شاملة، هو إحدى المخاوف الرئيسية للاتحاد السوفيتي ، وكل ما يطمئن موسكو بهذا الخصوص، يقلّل بالطبع من وطأة الردع. ان السوفيت حسب رأيه، راغبون في تقليص ما يعتريهم من قلق فيما هم يدخلون الرعب في قلوب الحلفاء، بفكرة اللجوء الى استخدام الأسلحة النووية. ولذلك فان سياستنا مدعوّة لإفشال هذه المخطّطات.

وكان بريميلاو يوافقنا على رأينا، من حيث عدم قبول المشاريع السوفيتية المعروضة. وكنت من جهتي أعدّ إستراتيجية مقبولة، تقوم مبدئيا على جعل التقرب يتحول الى إصدار بيان عن تحسن العلاقات والتقارب السياسي، ويسمح حين الاقتضاء باللجوء الى القوة النووية منها والتقليدية. أقرّ بريميلاو الخطّة وأشار باغتنام الفرصة، وهذا كان سهلاً لأننا نحن الذين استلمنا زمام المبادرة. وكنا على علم مسبق، اننا لن نصل الى موافقة السوفيت، ما لم نتوصل الى تأجيل المفاوضات

وتحديد تاريخ جديد، لعقد لقاء قمة مثلاً، وهذا سيكون بالطبع كافياً لتخفيف ما جاء به بريجنيف من اقتراحات. تباطأنا في مشيتنا، متذرّعين بضرورة وضع حدّ لحرب فيتنام أولاً.

لم يستطع صبر بريجنيف احتمالاً. والفرص سانحة أمامه لتسريع المفاوضات. وقد حاول، خلال زيارتي لموسكو، في شهر أيلول من عام ١٩٧٢، حملي على وضع مشروع، أوضح فيه جميع ملاحظاتي، على المشروع الذي تقدم به السوفيت. لكني لو قمت بهذا، لجعلت من المشروع السوفيتي وثيقة أساسية علماً اننا نعارض ذاك المشروع بصورة مبدئية لا تفصيلياً. فأجلت العمل بذلك وأوضحت جلياً موقفنا الذي كنت أطلعت عليه دوبرينين في السابع من شهر أيلول، واستطيع ايجازه بما يلي:

عدم القبول بحكم ثنائي، وعدم الموافقة على ان الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي ، يسعيان فقط لحماية أراضيهما، وعدم الرضى عن القبول بحرب تقليدية، طالما ان الحرب النووية مرفوضة أصلاً.

أظهر بريجنيف دهشته من مخاوف هيّنة يتذرّع بها السوفيت. ثم أضاف مؤكداً بهدوء، اذا كان الإتحاد السوفيتي يتنكر لاستخدام الأسلحة النووية، فنحن على ثقة كاملة بأنه يتحاشى أيضاً استعمال الأسلحة الاصطلاحية، ضد بعضنا، أو ضد حلفائنا (وهذا يبقي وبكل تأكيد الصين والشرق الأوسط، خارج قوس). وأكّد بريجنيف أقواله، على الرغم من أنها محدودة اقليمياً، بالعودة الى ما ينص عليه الدستور السوفيتي: «ان توقعات كهذه هي مخالفة تماماً، بل مرفوضه تجاه ما يحدّده كونغرس حزبنا». يعسر علينا تصوّر ما سوف يحدث، اذا عرضنا على حلف شمال الأطلسي - دون ذكر بكين - اتفاقية قبلنا بها على أساس ثقتنا بالتزام صادر عن كونغرس الحزب الشيوعي السوفيتي !!

فاقترحت أن نقوم بإجراءات مرحلية على دفعتين، كما سبق وعملنا في مفاوضات سالت: يصار إلى إصدار إعلان عن مبادئ عامة، يتبع باتفاقية اكثر تفصيلاً. لم ترق هذه الفكرة أبداً لبريجنيف، الذي حسب توجيهات غروميكو، كان يعلم أن لا حول للإعلان آنف الذكر، سوى تأكيد ما قد اتفق عليه ووّقع في قمة عام ١٩٧٢، وصياغته تتطلب شهوراً، وفي تقديرنا أنه سيلغي الموضوع وانقضت ساعات في مناقشة هذه النقطة، وكان هذا لصالحي. وانتهى بي الأمر إلى قبول صياغة مشروع آخر، ووعدت بتسليمه إلى غروميكو عند مجيئه إلى واشنطن في بداية شهر تشرين الأول. واستطعنا هكذا مغادرة موسكو، وتلافينا حدوث انفجار ما.

عندما قدم غروميكو إلى واشنطن، سلّمته في الثاني من شهر تشرين الأول، اقتراحاً، يستبعد الالتزام بعدم اللجوء على الأسلحة النووية، ويحدّد سلسلة من الشروط السياسية، تتعلق بتلطيف الأجواء الدولية، يجب العمل بها، قبل البحث في صرف النظر عن الأسلحة النووية. وكان غروميكو يتمتع بخبرة فائقة، ففهم مباشرة ما أقدمت عليه. فاحتج على ابتعادنا عن روح المحادثات المبدئية. وبأولى حجّة، فقد لاحظ، أنه لم يبق أي شيء من العرض السوفيتي الأصلي حول التخلّي عن استعمال الأسلحة النووية.

وللتدليل على الضغط، فقد قال غروميكو لنيكسون، أن بريجنيف لن يقوم بزيارته للرئيس الأمريكي عام ١٩٧٣، إذا لم يتحقّق بعض التقدم في المعاهدة النووية. لكن هذه المناورة، فقدت بعض تأثيرها. وأصبح لدينا انطباع أننا سنتخلّص من الحرب الفيتنامية عام ١٩٧٣، ولم تبقَ أهمية كبرى لعقد مؤتمر قمّة غايته فصل موسكو عن هانوي.

غير أننا في المرحلة النهائية، للمفاوضات الفيتنامية، لم تكن في غايتنا خلق

اختلافات إضافية. فحاولت مجدداً كسب الوقت. والتجأت إلى التقليد المبتذل، الذي يسلكه مستشارو الرئيس، واحتميت بنيكسون، لاعتقادي ويحق، إن القضايا النووية تشكل مجالاً لا أستطيع الخوض فيه مثل القضايا الأخرى. لكن حملة نيكسون الانتخابية، تحول دون إعطائي انتباهه قبل شهر تشرين الثاني، وعند ذاك سأستطيع صياغة مشروع جديد. ولدي شكوك في أن غروميكو قد وثق بما قلت وبما قدمت. وبعد كل هذا، فقد تحاشى نيكسون أن يتكلم في موسكو عن المعاهدة النووية، تاركاً تدبير الأمر لدوبرينين وغروميكو وأنا. وها أن الفرصة تسمح لي ثانية أن أعكس الاقتراح، لا سيما وأن غروميكو لا يمتلك أوراقاً رابحة، ولذلك فقد قبل مضطراً، كما هي العادة لدى السوفيت عند مواجهتهم حقائق ثابتة.

وفي أوج آخر أهوال مفاوضاتنا حول فيتنام، فهم مخطّطو الكرملين، أن لا وقت لدينا للاهتمام بمشروع نووي. وهذا لم يمنع دوبرينين، من محاولة ممارسة بعض الضغوط الصعبة، بمناسبة انعقاد القمة القادمة. واقترح في شهر كانون الأول تاريخين: حزيران وتشرين الثاني من عام ١٩٧٣، وكأني به يعني أن موسكو تميل إلى تحديد شهر تشرين الثاني، في حال عدم الاتفاق على معاهدة نووية. وطريقته في طرح هذا التاريخ كانت موزونة جيداً، إذ كنا نحن نفضّل هذا الموعد. وكانت نيتّنا إكمال ما أسميناه "عام أوروبا" وإحراز تقدمّ في علاقاتنا مع بكين. فتجاهلنا هذا التلميح.

وفي آخر شهر شباط من عام ١٩٧٣، وبعد عودتي من الصين، تقدم القائم بالأعمال السوفيتية، يولي فورونتزوف، بطلب لمقابلة نيكسون وتسليمه مذكرة من بريجنيف، مؤرخة في الحادي والعشرين من شهر شباط، وهي بمثابة جواب لما قدّمه نيكسون من شكر للجنة التنفيذية في الحزب، وترحب في الوقت ذاته، بالانتهاء

من الحرب الفيتنامية. وكان نيكسون قد تحاشى باعتناء، إيراد أيّ ذكر للاتفاقية النووية، في لائحة القضايا المنوي التباحث بها. وكان هذا تلميحاً مضمراً، لما سوف نوليه اهتمامنا الشديد، أي تلك القضايا، التي سلّمني إياها دوبرينين، ضمن لائحة أخرى من المواضيع، وبينها موضوع الشرق الأوسط.

لقد كان هذا مؤشّر انفتاح ضعيف، وهو كافٍ في الوقت نفسه، ليكمل بريجنيف مبادرته.

وكان الهمّ الأول، لمذكرة بريجنيف، تنظيم عقد مؤتمر قمة. وعن دعابة، يطرح شهر أيار موعداً رسمياً لتلك القمة، وهذا موعد مبكّر حقاً. وكان يؤجّل الزيارة، إلى تاريخ لم نحدّده، أي شهر حزيران. وكان نيكسون قد سبق فعدّد القضايا الرئيسية مثل: سالت، الأمن الأوروبي، تقليص القوات المتبادل، للاحتفاظ بتوازن القوى في أوروبا. وتعرّض بريجنيف في مذكرته إلى المعاهدة النووية، والشرق الأوسط، وكأنها أولويات اهتمامه، وأوضح بعض فوائد اتفاقات سالت، ولم يتطرّق إلى ذكر تقليص القوات في أوروبا. وكعادة الكرملين، عندما يريد إحراز بعض التقدّم، فقد ظهر دوبرينين فجأة في واشنطن، عائداً من الاتحاد السوفيتي بعد أن قام هناك باستشارات عديدة، والتقاني تماماً في الوقت الذي كنت أعدّ فيه نفسي للذهاب إلى العطلة الصيفية (وهذا أكسبنا عشرة أيام أخرى).

لكن أوضاع المساومة، كانت قد تغيّرت. أما وقد حدّد السوفيت الآن تاريخ عقد مؤتمر القمة، فان الوقت لا يعمل لصالحهم. والمشروع لا يهمنا عملياً، لكن بريجنيف حبسه بين اولويات اهتماماته. وعلى السوفيت التقرّب منّا اذا أرادوا إحراز تقدم لزيارة بريجنيف. وفي بداية شهر نيسان من عام ١٩٧٣، أقدم دوبرينين ودون استعداد، على بعض الاجراءات التي تتعلق بتحديد تاريخ انعقاد مؤتمر القمة، ثم

تراجع فجأة، عندما أبديت له ملاحظاتي، في اننا اذا لم نتفق على الموعد، يستحيل علينا القيام باستعدادات تقنيّة، الأمر الذي يجبرنا نهائياً على تأجيل الموعد الى شهر تشرين الثاني. لكني دعيت بعد مدّة قليلة الى زافيدوفو، لوضع اللمسات الأخيرة على ما يتخذ من استعدادات، وحدّد تاريخ انعقاد مؤتمر القمة، وبصورة قطعية في الثامن عشر من شهر حزيران.

وأزفت ساعة الحقيقة. وأخذنا نُعِدّ باهتمام لهذا المشروع، لا سيما بعد أن وضعت حرب فيتنام أوزارها، وحُدّد تاريخ انعقاد القمّة. وفي سبيل الحصول على ثمن لماطلتنا كان علينا ان نفاوض، لكن التخلّي عن المفاوضات في تلك الظروف يعتبر نجاح، وهو الأصح.

وفي الخامس من شهر آذار لعام ١٩٧٣، أوجزت لبريميلاو تحليلاً عن التحركات السوفيتة، وعن أهدافنا: «ان الأسباب غدت واضحة، في إحداث ضغوط في سبيل الانفراج، وإحداث ضغوط ملزمة لكل من القوتين الأعظمين، والتصرّف بحرّية المساومة، وفي الوقت ذاته، تُعزّز القوى الإستراتيجية بانتظام وبطريقة تبعث على القلق. ويسعون الآن لإفساح مجال أمام امكانية انفراج حقيقي، في نهاية الأمر. ولذلك فان أهدافنا تتطلب الاهتمام بالشكل، لا بالمبدأ».

وسألت بريميلاو، في حال ان حرب فيتنام قد انتهت، وحصلنا على موافقة السوفيت لعقد مؤتمر قمة، فهل نتمكن نهائياً من التخلي عن المشروع؟ بقي بريميلاو على ما كان عليه من تشكك في الأمر، وتبيّن له اننا سنجمدّ جميع قضايانا حول اتفاقيات سالت والشرق الأوسط ومؤتمر الأمن الأوروبي، بينما ان أهدافنا بعيدة المدى هي توريط السوفيت في علاقات، لا تتضارب مصالحنا فيها، وهذا لن نتوصّل إليه إذا أهملنا تقربنا الى بعضنا.

وفي الحال الطبيعية، فان نيكسون وأنا، نملك في آخر الأمر المسؤولية الكاملة لمتابعة الأمور أو عدمها. وبعد كل هذا فان عمل بريميلاو، لا يتعلّق بتسيير أمور السياسة الأمريكية، بل تسييرها في المسلك الصحيح. وعندما تحدّد الإستراتيجية يأتي دور ذكاء بريميلاو الخارق، فيجعل من الاقتراح السوفيتي ، بدلاً من التخلّي عن الأسلحة النووية، اتفاقية عدم لجوء الى التهديد بالقوّة دبلوماسياً. ومن هذا يستخلص شيئاً يشابه «الماتريوشكا» (لعبة روسية) ومن خلال سلسلة متشابكة علمياً، فان اجتناب حرب نووية، أصبح هدفنا أكثر مما هو التزام. وأصبح هذا الهدف يتوقف على عدم اللجوء الى استخدام، او التهديد بالقوة بين الفريقين الاثنين، ضد حلفاء الفريق الآخر، او ضد بلدان أخرى، لن يكون هناك تنكّر للأسلحة النووية، إلاّ بعد إزالة التهديد بالحرب دبلوماسياً. واذا لم ينفّذ هذا الشرط، فان المبدأ الأساسي للاتفاقية سيصبح لاغياً. وفي الحقيقة فان المعاهدة كانت تسير بصورة عكسية، لانها كانت تجعل الدفاع النووي شرعياً. وفي سبيل طمأنة الحلفاء، كنا نشيع ان المشروع يؤكد أن الاتفاقية لا تؤثر أبداً بالالتزامات القائمة حالياً، ولا بحقوق الدفاع الجماعي (أو الفردي).

وكان دور بريميلاو مثالاً للعلاقات الخاصة الانكليزية الأمريكية، في أعلى مستوياتها، في حين ان رئيس مجلس الوزراء لم يكن من الموالين لها. ولم تكن هناك أية حكومة أخرى، نجري معها اتصالات صريحة، وأجرينا معها تبادل أفكار حرّة، أو سمحنا لها أن تسهم فعلاً فيما نصمّمه. لقد اطلع البريطانيون على جميع الوثائق، ولو تأخرت أحياناً، لكن مبادراتنا الهامة، كانت دوماً مشتركة. وكان بريميلاو يطلعنا بدوره، على التحاليل البريطانية في حينها، لا سيما وانه قد كلّف بصياغتها. وتكفّل الخبراء البريطانيون وليس الأمريكان بإخراجها الى النور. ان سعة معرفة بريجنيف للدبلوماسية، كانت تقوم على معاملة الفريق الآخر بقسوة تؤدي به الى التسليم، او تحويلها الى طريقة مداعبة خشنة ومزاح ثقيل. إن طريقتي في العمل هي تحويل الأمر

الى دعابة خفيفة، لأجتنب المجابهات الشخصية، ولبيان مواطن القوّة في مطالبنا، كنت أعود فوراً فآخذ الأمور بصورة رسميّة. وأصبحت المفاوضات وكأنها مصارعة بين ثور ومصارعه، لا سيما عند الوصول الى آخر الحلبة، حيث يكون المصارع قد أصاب الثور، الذي يسقط مترّنحاً، ثم يأخذ باستجماع قواه لجولة جديدة.

وأثناء الاستراحة، فيما كان يغيب بريجنيف وفريقه، في قاعات أخرى، كنت أنا وزملائي نخرج الى إحدى شرف مكتب بريجنيف، ونأخذ بالتساؤل عمّا إذا كان النصّ المقدم، مهما تتغير طريقته، يفيد أو يسيء الى قدرتنا في حماية الصين وغيرها من البلدان الأخرى، ولم يكن أملنا كبيراً. وفي قاعة الاجتماعات، حاول هول سوننفيلدت، ان يطبّق في الإتحاد السوفيتي طرقاً كان يظن انه تفوّق فيها في واشنطن. وجرّب عكس قراءة وثيقة عمل بريجنيف، التي وضعها الأمين العام أمامه على الطاولة. وفي إحدى المرات أخفق سوننفيلدت.

بدأ بريجنيف أول يوم من المحادثات بخطاب طويل، وأطنب في مديح المذكرة التي تقدم بها في سبيل معاهدة نووية: «انها اتفاقية صريحة وواضحة» تتضمن اجراءات لا تسبّب قلقاً لأحد»، كما قال لي مطمئناً. فأجبته بخشونه «إني لا أراهن على ذلك». وكلمتي لم تغظ بريجنيف، بل استمرّ في خطابه حول الأهمية التاريخية بالنسبة للولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي ، قال كل هذا قبل ان يطلق إحدى أولى لذعاته، التي برهنت انه يعتبر الصين هدفه الحقيقي:

«وعلى الأقل هنا، في هذا الاجتماع، يجب ألاّ نصمت عن واقع فعلي بوجود قدرات نووية في العالم، ويجب ان نأتي في الاتفاقية على ذكر بنود تبيّن لمن يملك مثل هذه القدرات، انه يخطئ فيما اذا أقدم على اللعب بمثل هذه الحرب النووية».

ولم يكن مفهومنا للانفراج، عقد تحالف أمريكي سوفيتي ضد الصين وهذا غير

جائز ولن أسمح لنفسي بإضاعة الوقت، لا سيما ان كل ساعة تمرّ، كانت تقودنا الى بعض التحسن في المفاوضات.

وكنت اعتبر من خلال جوابي، مشروع الاتفاقية، كأنه عرض عادي، من جملة ما قُدم في المفاوضات التي تجري بين الولايات المتحدة والإتحاد السوفيتي ، لا بصفته حادثاً تاريخياً فريداً. وأعدت الى الأذهان ترابط الأحداث، مشيراً إلى حدوث تقدم مفاجئ في مفاوضات سالت ٢ من شأنه تنمية وتسريع جميع المفاوضات. وتملكني شيء من الخوف من جراء التمادي في الإقناع، إذ أن ما يصدر من تصريحات داخلية لدينا لا يهيئ الجو لمفاوضات قيّمة حول سالت. وتماديت في حديثي بلهجة لاتخلو من التهكم ان لو لا العلاقة الشخصيّة بين الرئيس وبريجنيف، لم يحصل أي تقدّم في مشروع الاتفاقية، لانها حسب وجهة نظرنا لا تحتل مكانة الأولويات الهامّة في مصلحتنا القوميّة. ونوّهت بضرورة إبلاغ حلفائنا بما قد وصلنا إليه، فأجاب بريجنيف انه لن يشير علينا عن كيفيّة معاملة حلفائنا، أما بالنسبة له، فسوف يتوجه إلى ألمانيا الشرقية وبولونيا، ولن يطلعهما على ما يجري حول المشروع. ولقد ورد حديثه هذا بقالب بعيد عن التصديق، من حيث عدم إعلام المانيا الشرقية بالموضوع ومثلها فرنسا، فان مثل هذا الكلام لن يؤخذ به في باريس حسب اعتقادي. وفعلاً فقد أكمل حديثه، وكأنه يريد مجاملتي، أن خطتنا في المحادثات، ربّما أقنعت الإتحاد السوفيتي ، وأصبحت لديه الرغبة في اتباعها، وأردف قائلاً: ان زملاءه في اللجنة السياسية فقط هم المطلعون على ما يجري. (وهنا يحق لي التساؤل في داخلي، عمّا أكده لي دوبرينين، من حيث ضعف موقف بريجنيف في اللجنة السياسية في حال عدم إبرام الاتفاقية. وكيف أن لزملائه الحق في توجيه اللوم إليه، لعدم قدرته على ادارة المفاوضات، في حين انهم يجهلون ما يجري).

أجّلت الجلسة الأولى، المجيء على ذكر المبادئ العامة التي يطالب بها. ومساء اليوم الخامس من شهر أيار، وكان يوم سبت، عقدت الجلسة الثانية التي افتتحها بريجنيف ببعض دعاباته، التي اعتبرناها بمثابة دخول في الموضوع، جئنا بعدها الى البحث في المشروع. ودارت المباحثات مباشرة حول النص الواجب صياغته. وربحنا ثلاثة أرباع المعركة، عندما صمّم المجتمعون على الأخذ بالنص الذي تقدمنا به نحن (أو بكلمة أصح النص الذي صاغه بريميلاو). ولكن سرعان ما أدّت بنا محادثاتنا الى مماحكة قويّة. ومن العسير علي الآن أن أتصوّر أناساً عاقلين، يتماحكون على تفاهات، والمشكلة التي طرأت تدور حول قراءة النص كاملاً أو قراءة جزء منه، المتضمن النقاط المختلف عليها، ومن يكلّف بذلك!!! وفضّلنا التوقف عند النقاط المختلف عليها، تلافياً للعودة الى مجادلات عقيمة لا سيما عند فكرة العدول عن استخدام الأسلحة النووية. وفي الختام، أجمعت الآراء على قراءة النص كاملاً وبصوت عالٍ. واستأثر بريجنيف بهذا الامتياز. وهكذا فقد أضعنا أكثر من ساعة في محادثات لا طائل منها، وتبيّن على الأثر، ان ضياع مثل ذاك الوقت، لم يؤثر على تحركات محادثينا الاساسيّة. وبعد ان تقبلّنا ذاك التوافق المبدئي في الأفكار، حاول بريجنيف قلبها الى مصلحته. فبدأ حديثاً طويلاً، حثّ من خلاله على اتخاذ بند يؤكد وضع الاتفاقية الثنائية. ومشروعنا الأمريكي يتضمن اقتراحاً، ان يتصرف كل من الولايات المتحدة و الإتحاد السوفيتي بطريقة تنأى بهما عن فكرة استخدام الحرب النووية بينهما، وبين كل من الفرقاء الآخرين. وهنا أصرّ بريجنيف على طمس الكلمات الثمانية الأخيرة، تاركاً ثغرة فسيحة تسمح باجراء هجوم نووي ضد الفرقاء الآخرين. وبعد مباحثات دقيقة انتهينا الى الاتفاق، ان نجعل من كلمة «العدول عن حرب نووية» هدفاً لا إلزاماً، يطبق على جميع البلدان، وليس فقط على القوتين الأعظمين، ويتوقف على سلسلة من الشروط السياسيّة، أخص بالذكر منها، عدم اللجوء الى التهديد بالحرب، أي كما كان أكد عليه بريميلاو.

ومباشرة تفجرت مماحكة أخرى، حول صياغة مادة، توصي بأن هذه الوثيقة لا تؤثر «على الالتزامات التي قطعتها على نفسها كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، نحو بلدان أخرى ضمن معاهدات واتفاقيات خاصّة». فحاولت تدعيم هذا البند بإضافة الكلمات التالية: «أو وسائل خاصّة أخرى». لأخذ بعين الاعتبار بلداناً أخرى مثل اسرائيل (التي لم يكن لنا معها تحالف ما) وللتأكيد على فكرة اساوم بها وهي ضمّ الصين أيضاً في هذا البند. فوافقني بريجنيف على رأيي وهو لا يخلو من بعض الامتعاض. ومحادثات من هذا النوع دارت حول كل مادة يراد صياغتها. ومنعاً لاي التباس، اتخذت مذكرة تتضمن النص النهائي للاتفاقية.

وفي السابع من شهر حزيران، أرسل نيكسون رسالة إلى بريجنيف تؤكد ما ورد في الاتفاقية، من حيث التزامات عامة يجب تطبيقها على جميع البلدان. وأنها لا تتضمن أي تنكّر للأسلحة النووية فحسب، بل إلى كل لجوء للقوّة دبلوماسياً، وأن المباحثات الأمريكية السوفيتية لا تتضمن فرض أية شروط ومن أي نوع على البلدان الأخرى.

"لقد بيّنا حسب رأيي، عن موضوع يهمّنا، يتضمن عدة صيغ، حول ما يتوجّب من سلوكية يمكن تطبيقها في سياسة كل من بلدينا في الأعوام القادمة. وفيما إذا تحقّق ذلك، فلم نتفق للأسف، على منع استخدام أي سلاح خاص، لكننا خطونا خطوة كبرى، نحو إيجاد شروط، نُزيل من خلالها خطر الحرب، ولا سيما الحرب النووية، ليس فقط بين بلدينا، بل أيضاً بين بلدينا وبلدان أخرى. وبالاختصار، فإن الالتزامات التي قبلها كل منا نحو الآخر، وافقنا أيضاً على تطبيقها في سياسة كل منا تجاه البلدان الأخرى. وفيما نقيدّ أنفسنا بهذه الاتفاقية، وعندما قبلنا خصوصاً بتبادل الآراء في بعض الأحيان، فقد ارتبط كل

منا بالتزامات نحو الآخر، لكننا لم نتفق أبداً على فرض بعض الالتزامات أو الحلول الخاصّة مهما تكن على بلدان أخرى. ولم نبدّل في الوقت نفسه حقوق أو التزامات بلدينا".

وبالاختصار، فإننا بعد عام من المفاوضات، توصلنا إلى إبدال الاقتراح السوفيتي الأساسي وهو العدول غير المشروط عن استخدام الأسلحة النووية، كل منا ضد الآخر، أبدلناه بإعلان عادي بأننا نهدف إلى السلام، وطالبنا بتطبيقه على الحلفاء وعلى البلدان الأخرى، وراعينا فيه ضرورة تلطيف الأجواء الدولية، ولا سيما في ما يختص بعدم اللجوء إلى استخدام أو التهديد بالقوة. وضمناه أيضاً بنداً آخر يلزم بإجراء مشاورات قبل أن يلجأ أحد الفريقين، إلى التهديد بالقوة في ظروف تعرض للخطر السلام والأمن الدوليين. وفي حال مبادرة أحد الفريقين بإجراء عسكري خطير، فإن المخالف يعتبر مخترقاً للاتفاقية. وكانت الوثيقة بكاملها تشكل منذ الآن وصاعداً مجموعة من الشروط، تحصر حرّية السوفيت، وتمنعهم من الاعتداء على حلف شمال الأطلسي، أو الشرق الأوسط، دون اعتبار ذلك خرقاً للاتفاقية. وكانت هذه الوثيقة نفسها تعطينا نوعاً من الحق الشرعي، في مقاومة أي هجوم سوفيتي ضد الصين.

وقع الاتفاقية كل من برينجنيف ونيكسون، في واشنطن، وبتاريخ الثاني والعشرين من شهر حزيران عام ١٩٧٣. وكان قلقنا شديداً، خوفاً من تفسيرات خاطئة حول الاتفاقية المبرمة، مما حدا بي لإصدار تصريح متزن جداً للصحافة كان التصريح يؤكد على نقطة هامة لكنّها أصبحت مبتذلة بالنسبة لنا، وهي أن الغاية من الاتفاقية لا تهدف إلى منع استخدام أي سلاح خاص في زمن الحرب، لكنّها توجه إلى المحافظة على السلام والامتناع عن التهديد. أو استخدام القوة.

"لقد أعلن الفريقان الآن وبصورة ثابتة، عن إرادتهما ليس فقط في تحسين العلاقات المتبادلة بينهما، بل علاقتهما مع البلدان الأخرى، ونتمكن من القول أيضا، في تصرفاتهما في الشؤون الدولية العامة. وإذا أقدم أي منهما على عمل شيء يعتبر مخلاً بالسلام، أو متضمناً تهديداً بالقوة أو حرباً، فسوف يعتبر ذلك إخلالاً صريحاً بالاتفاقية، لذلك، فلن يكون هناك حكم ثنائي، بل العكس.

وهكذا فقد قبلت القوتان النوويتان وبكل صراحة، مسؤولية كاملة في المحافظة على السلام، لا بالتدخل أو الضغوط، ولكن بالابتعاد عن التهديد أو استخدام القوّة".

"إذاً لقد كان التفسير الحقيقي لهذه الوثيقة، هو بعث الاطمئنان في كل البلدان". لقد امتعض بريجنيف، لأنني أظهرت الاتفاقية على غير ما كانت عليه في وضعها الحقيقي، وأعطيته حقاً في ذلك، لكنه لا يملك خياراً آخر سوى الموافقة على التصريح أنف الذكر.

لن تستطيع وثائق قضائية، من تقديم ضمان للسلام بين القوتين الأعظمين. وفي الواقع، فإن ردّ فعلنا، عن تهديد إحدى البلدان الأخرى، يتوقف على تفسير صحيح لمثل هذه الاتفاقية المعقدة، أكثر مما يكون حول اهتمامنا بالمصلحة القوميّة. لقد اقترح السوفيت الوثيقة لأسباب رمزية، وأعدنا صياغة مضمونها، لنجعل منها نصاً مقبولاً لدى الغرب، الذي أتخذ مبدئياً قالب الحكم الثنائي، بادر به السوفيت، ثم تطوّر إلى مشاركة في "مبادئ أساسية لتوطيد العلاقات الأمريكية السوفيتية"، جرى التوقيع عليها في موسكو عام ١٩٧٢.

إن اتفاقية الوقاية من حرب نووية، تعكس انطباعنا، من أن تحديد التسلّح يجبر على تحسين الظروف الدولية. وأن التعايش بين القوتين الأعظمين يتوقف وبشكل نهائي على قبولهما لبنود وشروط التعايش، التي تفرض عدم التهديد المتبادل حول مصالحهما الحيويّة.

لقد أصبح الاتفاق النهائي، وكأنه عربون لتقاربنا. أما تقنياً، فقد كان أفضل إنجازاتنا الدبلوماسية. وكان نتاج أعمالنا نصاً منفعته عادية. وصيغت نتائجه بحذق ونباهة، وكانت المفاوضات تجري بسرّية تامة، وطالت الجهود التي بذلت في سبيل ذلك، كما أن التفسيرات اللازمة لإبلاغها للحلفاء والصين، كانت معقدة جداً، ليكون لها التأثير المطلوب.

قبل الأوروبيون بما ورد في الاتفاقية، لأنهم كانوا على علم بالمشروع منذ شهور عدّة. وكنت أبلغت شخصياً بومبيدو وهيث وبراندت ولمرّات عدّة. لكن حلفاءنا، أخذوا ينسحبون على الرغم من مشاورات حثيثة. وعلماً ان هيث وبراندت وباهر، وافقوا مبدئيا على ما جاء في الاتفاقية، وشارك البريطانيون في صياغتها، اما بومبيدو، فكان دائماً متحفظاً. ولأسباب خاصّة بهم، لان الزعماء البريطانيين والألمان، لم يبلغوا إدارتهم بالأمر، وفي النهاية عندما قدم المشروع لمجلس الأطلسي الشمالي في شهر حزيران لعام ١٩٧٣، فإن ملابسات هذه الاتفاقية، أثارت تشويشاً كبيراً، حتى ان الممثل الدائم لبريطانيا العظمى، يُسانده زميله الألماني، انتقد وبشدّة، ما ورد في هذه الاتفاقية من صياغة انكليزية.

وأظهرت الصين التحفظات نفسها. وبموجب تفسيراتنا للاتفاقية، لا يستطيع الإتحاد السوفيتي ممارسة ضغوط قوية على الصين، لأن ذلك سيعتبر فعلاً خرقاً لبنود الاتفاقية، بما فيها وجوب اجراء مشاورات، قبل الإقدام على أعمال تهدّد

السلام والأمن الدوليين. اما عضو مجلس الشيوخ جاكسون الذي كان ينتقدنا في الكثير من تصرفاتنا نحو السوفيت، أقر الأتفاقية مباشرة ووعدنا بالمساندة.

ولا شيء يدعو للدهشة، في أن سرعان ما أهمل تطبيق اتفاقية الوقاية من الحرب النووية. ولم تدعُ الحاجة إلى العودة إليها، سوى مرّة واحدة، خلال السنوات العشر التي تلت توقيعها، إذ أننا حذرنا السوفيت، في حوادث الشرق الأوسط عام (١٩٧٣) أن تدخلهم الأحادي الجانب خرق لبنود تلك الاتفاقية، ولكن ما حدث بعدئذ، هو أن أخطار الحرب النووية، لم تستبعدها وثيقة بل القوة، والعزم والدبلوماسيّة المقرّرة.

وعود
منقوصة



الفصل السابع

زيارة بريجنيف إلى واشنطن

إن لقاءات القمّة أعمال دقيقة جداً. ولا يستطيع أي شخص الوصول الى القمّة ما لم تكن له ذاته الخاصة والثابتة والطموحة. كما ان مستقبل الزعماء السياسيين مرتبط بقدرتهم على الوصول إلى أهدافهم. ويعسر عليهم قبول تسويات، لا سيما عندما تجري مفاوضاتهم بصورة علنية. وليس لديهم عموماً وقت لإعادة الاهتمام الضروري لفوارق الآراء والحكم على الأصلح منها، هذا الانتباه الذي يعتبر بمثابة جوهر نجاح الدبلوماسية، فيصعب عليهم حينذاك الخروج من المآزق التي تعترضهم. ولن تنجز أية اتفاقية، إلا ضمن صيغ مبهمة، تفسح مجالاً لكل إنكار أو فك ارتباط لاحق.

ان لقاءات القمّة بين خصوم ايديولوجيين، قد تبدو معقدة إلى حد كبير، خاصة إذا ما جاءت بعد فترة توتّر، توشك ان تحدث تشويشاً شعبياً، وهي تزيد التوتّر إبّان الأزمات. وهي قادرة أيضاً على بعث الأمل في النفوس، وربما ترافقه خيبة أمل، كما انها تتذبذب فعلاً من أقصى حد الى اقصاه.

وإذا أعِدّ للأخطار إعداداً صحيحاً، فلا بدّ أن تصبح فرصاً سانحة لتلاقٍ مثمر. ونظام الحكومة السوفيتي ، يتقبل على وجه العموم مناقشة فرضياته الأساسية. ولا بدّ من القول ان كل تقلّب أو تغيير في المبادئ، سيفسّر في النهاية نقصاً في النشاط الايديولوجي، كما ان الامتثالية هي شرط جوهري للبقاء السياسي. يحتاج الزعماء السوفيت الى مناسبات دوريّة، لتكوين فكرة خاصة حول المحاكمة الأدبية والتصورية، لدى نظرائهم الغربيين، وإلاّ فإنهم يعرّضون أنفسهم للعيش في سلسلة من الأوهام على طريقة بوتيمكين، يرسل لها مرؤوسون لا همّ لهم سوى تشجيع أفكار تعصبيّة سابقة.

وفي إطار تباين المصالح القومية والايديولوجية الأمريكية ـ السوفيتية، التي تشجّع على التنافس، وربما تسبّب أحياناً المجابهة، ففي هذه الحال يمكن ان يتوقف السلام، على جدارة اللجنة السياسية التنفيذية في الحزب الشيوعي، من حيث تكوين رأي سليم، حول ردود فعل زعمائنا اذا دعت الحاجة. ان رئيساً امريكياً قوياً ذا ثقة بنفسه، يجب ان تكون لديه القدرة على اغتنام مناسبات اللقاءات في مؤتمرات القمّة، ليبيّن بصورة صحيحة تصوراته وافكاره، للزعماء السوفيت، بغية تقليص المخاطر المتوقعة، وللإبقاء على الباب مفتوحاً، أمام امكانية مهما تكن ضئيلة، للبدء بمحادثات بناءة. وعلى عكس ذلك وبكل تأكيد، اذا خلص السوفيت الى تبني فكرة من أن نظيرهم الأمريكي ضعيف، لا يثبت على رأي، فان هذا يشجعهم على اقتحام مخاطر إضافية.

ومن وجهة النظر هذه، فان قمّة موسكو لعام ١٩٧٢، جرت في ظروف ملائمة ومثالية. أعود هنا الى الحديث عن نيكسون فأقول، انه قبل لقاء القمة بأسبوعين، عاد فأصدر أوامره، بالعودة الى قصف فيتنام الشمالية، ولغم موانئها. وفيما لا يزال الكرملين محافظاً على دعوته، فقد أبدى استعداده لإلحاق بعض المتاعب لأصدقائه الذين كانوا يسعون لتوطيد العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية. لقد أكدّنا من جهتنا، اننا

على استعداد تام، لتحمل متاعب كثيرة في سبيل الانفراج، وفي سبيل مصالح نعتبرها حيوية جداً.

ومن خلال زاوية الرؤية نفسها، فان الدلائل كلها كانت غير مشجّعة لعقد مؤتمر قمّة عام ١٩٧٣. لكن الزعماء السوفيت، يظهرون تعلقاً شديداً في سبيل الإبقاء على توازن القوى سليماً. لقد أصابتهم في البداية حالة من البلبلة، من جرّاء حوادث فضيحة واترغيت، لكن الكثيرين منهم فسّروها وكأنها مكيدة دبّرها اليمين، ضد الانفراج. وقيل لي، عندما كنت في زافيدوفو انهم يرجون وضع حد لها قريباً، ويتمنّون ألاّ يقلق الأمين العام للحزب الشيوعي بسبب نزاعات عابرة، أحدثتها خلافات داخلية أمريكية، وان يهيمن الهدوء خلال زيارته لواشنطن، كما أن النظام السوفيتي يكنّ كل تقدير لشركائه في المحادثات المقبلة. وكانت قدرة الرئيس الأمريكي في تنفيذ تهديداته، أو المحافظة على عهوده، بمثابة عملة يجب عليه تداولها كثيراً. وهذا ما أثير فعلاً عام ١٩٧٣، ومهما تكن امكانات السلطة التنفيذية الأمريكية قد ضعفت فمع ذلك، كان يظهر وكأن السوفيت يتراجعون ومنذ عدة شهور أمام ما تطرحه السلطة التنفيذية من طروحات متقلّبة. كما لزمهم أيضاً ما يقرب من عامين، حتى تمكنوا من معرفة حقيقة ما نحن عليه من اختلافات داخلية مساندين في الوقت ذاته، وبطريقة غير مباشرة قوات ثورية في أفريقيا.

وفيما كانت معركة واترغيت في أوجها، أخذ السوفيت منذ ربيع عام (١٩٧٣) في اعادة النظر في أوضاعهم بطريقة دقيقة جداً. ففي زافيدوفو وحتماً في بداية شهر أيار، كان بريجنيف يبدي حماساً شديداً لعقد مؤتمر قمة. كما بيّن أيضاً انه سيصحب إليها امرأته وأولاده. وأبدى رغبة زائدة في زيارة عدة مدن أمريكية. وعلى الأقل هوستون ولوس انجلوس، هذا بالإضافة الى واشنطن. لكننا قد أُعلمنا خلال

شهر أيار، أن أطباء بريجنيف منعوا وبصورة مفاجئة سفر عقيلته، وفي هذه الحال ألغيت أيضاً زيارة الأولاد، دون إعطاء سبب. وفي وقت ما، اقترح السوفيت، اقتصار زيارة بريجنيف على واشنطن فقط. وعندما أظهرنا دهشتنا، من تقليص برنامج الزيارة، عدّلوا رأيهم وأقرّوا إطالة إقامته في سان كليمانت، بعد ان قدم بريجنيف تفسيراً لذلك في مذكرة قاسية قليلاً، يظهر فيها ان ما يوجّه الى نيكسون من لوم وانتقاد لا يتأثر هو شخصياً بهما.

وبموازاة ذلك، فان الجلسات المتلفزة للجنة عضو مجلس الشيوخ سام ارفين كانت تزداد حدّة فلم يكن ليمضي يوم دون الكشف عن حقائق ضارّة ومجحفة. ان الشاهد الذي يستقطب حوله جميع الاهتمامات في لجنة تحقيق مجلس الشيوخ، وهو المستشار القضائي السابق للبيت الأبيض المدعو جون دين، كان عليه ان يعتزل العمل، خلال نفس أسبوع زيارة بريجنيف المقررة. ان الإعلان العلني لمساوئ الرئيس، فيما يكون بريجنيف في البلد، يعتبر إهانة، كما أن عرض هذه الوقائع في التلفزيون خلال زيارة بريجنيف، قد أثار أيضاً الأشمئزاز، ممّا حدا باللجنة إلى تأجيل جلساتها، لأسبوع واحد فقط. وليس لدى اللجنة استعداد ان تضيف إلى الأسبوع سوى يوم واحد. وأخذت الأمور تستعيد مجراها في اليوم ذاته الذي غادر فيه بريجنيف البلاد.

ولقد حدت جميع هذه التطورات، بعضو مجلس الشيوخ جاكسون، ان يقترح، قبل أسبوع من وصول بريجنيف، تأجيل انعقاد مؤتمر القمّة. وفي الواقع كان جاكسون على حق في تفكيره. أما عملياً، فان الغاء مؤتمر القمة بعد مثل هذه الاستعدادات، ولمثل هذه الأسباب، ينقص بكل تأكيد بل يحدّ من نفوذ حكومة الولايات المتحدة، ويعطي مؤشراً واضحاً على فقداننا القدرة على التفاوض، بمعنى أنه لن تبقَ لدينا القدرة على حماية مصالحنا طوال مدة تحقيق طويلة الأمد وبعيدة عن التحديد.

ولو بادرنا الى إدراك هذا السبب بحضور السوفيت لوجب علينا تطبيقه على جميع علاقاتنا الأخرى. ولكنا أصبنا بشلل دولي قبل ان تفرض علينا أحداثنا وما يجرى لدينا، هذه الشروط.

وكنا لا نملك خياراً آخر، سوى الادّعاء، بان نفوذنا وتقديرنا لا يزالان سليمين، وفي سبيل ذلك، يجب علينا الاّ نغيّر شيئاً في سلوكيّتنا، كما انه لا يجوز ان يكون لدينا ما نحن فيه من تردّد. ويجب ان نزخر بالاطمئنان، الذي طالما اضطرتنا شؤوننا الى شعور الحاجة اليه. وفي الواقع، فان نيكسون كانت له تحركاته الشخصية الخاصة. فاذا سلّم ان قدرته على الحكم، قد اعتراها الوهن فان هذا سيسارع الخطى الى إسقاط رئاسته. ولن يراود فكره أبداً القبول بتفكك حكمه المتزايد، الأمر الذي كافح في سبيله كل حياته.

وهكذا انقضى مؤتمر قمة نيكسون ـ بريجنيف، تكتنفه آمال رديئة. ولحسن الحظ لم تبقَ لدينا مفاوضات لنجريها. علماً ان اتفاقية الوقاية من حرب نووية كانت قد أبرمت في زافيدوفو. ولم يكن علينا سوى الاتفاق على بعض التفصيلات من اتفاقية سالت، والاتفاق أيضاً على تحديد تاريخ للتوقيع على المعاهدة، وهذا بنظري شيء ثانوي. وهناك اتفاقيات احتياطية كانت فقط على أهبة التوقيع مثل: التعاون الزراعي، والخضامة (علم المحيطات أو الأوقيانوسات) والتبادل الثقافي. والفائدة التي جنيناها من مؤتمر القمّة لكل هذه القضايا، هي الإسراع في وضع تواريخ محددة لتوقيع اتفاقياتها.

لم يكن جدول الأعمال مكثّفاً، وكان مؤتمر قمة واشنطن لعام١٩٧٣، يتيح لرئيسي الدولتين، فرصة لم يكن متعارفاً عليها، من قبل، لمدارسة شؤونهما نفسياً. وهذا مكسب جديد للدبلوماسية في هذا المجال، لكن نيكسون كان قلق البال وشارد الأفكار، ومع

ذلك فقد أدار المحادثات بجدارة واتّزان، ولكنّه كان مفتقراً لسيطرة واطمئنان السنة السابقة. وبالنسبة لبريجنيف فان بهجته المفرطة، لم تؤدِ به أبداً الى القدرة على إخفاء قلقه. وان زيارة الى الولايات المتحدة، كانت ويحق حادثاً خطيراً بالنسبة له. لذا فانه كان يحاول إضفاء انطباع حسن. وكان يسعى لدى ظهوره أمام الجماهير لإخفاء ما هو عليه من اضطراب، بالإقدام على التلفّظ ببعض المزاح ليضحك من حوله. وكانت رغبته شديدة أن يرى أكثر انسانية وبشاشة من خروتشيف وإن تصرفاته، كانت تبدو في الظروف العادية وكأنها طبيعية، ومؤثرة إلى حد ما. ونتانة واترغيت، لم توجد لديه أي صدى. ومالت الصحافة فعلاً الى اعتبارها وكأنها عملية انقاذ من قبل بريجنيف تجاه نيكسون، مع أنها لم تُفِد لا هذا ولا ذاك. ومن غير المعقول، ان يكون بريجنيف لم يطّلع تماماً على مدى ما يعاني نيكسون من مصاعب.

وصل بريجنيف الى واشنطن في السادس عشر من شهر حزيران. ولما كان سوداوي الطبع قليلاً، لم يرَ ضرورة للتقيّد بالتوقيت الموضوع. فكان يحمل ساعتين، واحدة لتوقيت موسكو، والأخرى لتوقيت واشنطن. وعند التقائنا في سان كليمانت، ووجب حينئذ اضافة ثلاث ساعات، رفض اجراء حسابات مثل هذا الاختلاف في التوقيت، لكنه لم ينقطع عن التذمّر حول هذا الموضوع.

فوضع نيكسون منتجع كامب ديفيد تحت تصرّف بريجنيف والوفد الذي يرافقه، ليأخذوا قسطاً من الراحة، قبل افتتاح مؤتمر القمة. إن أكواخ امريكا الرأسمالية، كان مظهرها ريفياً، وهي أصغر، وأقل فخامة ممّا كانت عليه فيلاّت زافيدوفو. ولما كنت أنا ونيكسون في كاي بيسكاين في عطلة نهاية الأسبوع هذه، كلمت بريجنيف هاتفياً، لأطمئن على تمام راحته. ولقد كان، حتى في اطار الجلسات وما تستوجب من ترجمة واهتمام، يفيض حيوية وبشراً، وتمنى ان يجرى كل شيء دون عوائق. ولقد أكّد علينا انه يُسرّ فيما اذا أُتيح له الاطلاع على البرنامج قبل الاستقبالات الرسمية

المتوقّعة لليوم الثاني. استقلّيت الطائرة في السابع عشر من شهر حزيران متوجهاً نحو كامب ديفيد. كان بريجنيف مع وصولي مفرط الحيوية، فعانقني، وكان عناقه لي للمرة الأولى والأخيرة، وأراني مباشرة لعبته الجديدة، وهي كناية عن علبة توزع السكائر واحدة فواحدة، خلال فترات معيّنة. وكان بريجنيف يملك جميع الاستعدادات الفكرية لاحتواء كافة العوائق، وأول هذه الاستعدادات ان يحمل دون انقطاع علبتين من هذا النوع...

لقد كان نبهاً لقلق يتعذّر إبعاده عنه وهو السعي حول وسيلة تحول دون توقيع اتفاقية الوقاية من الحرب النووية؟ فأكدت له أن ليس هناك أي احتمال من هذا النوع! فهل يتوقّع إذاً قيام مظاهرات؟ وهل يستقبله أعضاء مجلس الشيوخ باحترام؟وهل هنالك احتمال تدخل أو تعرض للشؤون الداخلية السوفيتية؟ وكان جوابي: لديّ الثقة التامّة بقدرته على مواجهة كل وضع متوقّع. وبمسحة كآبة بسيطة بدت على وجهه، ومع ذلك هدأ باله قليلاً.

ان الاحتفاء بوصول الضيوف الرسميين الى البيت الأبيض، بسيط ومؤثر. وكان قد حُدّد في تمام الساعة العاشرة والنصف، على ان يقام على المروج الخضراء الواسعة في الجهة الجنوبية من البيت الأبيض. وقبل بضع دقائق، كانت موسيقى الجيش تعزف تحية الرئيس، ولم تمض بضع ثوانٍ حتى ظهر الرئيس نيكسون وعقيلته، قادمين من المدخل الجنوبي، من قاعة الاستقبالات الدبلوماسية، متوجهين الى الطابق الأرضي. حيّا نيكسون جميع الموظفين الذين كانوا بانتظاره، ويُدعى عادة لمثل هذه اللقاءات، وزير الخارجية، عميد السلك الدبلوماسي، سفير البلد الزائر، السفير الأميركي في بلد الضيف، وشخصيات أخرى. ونفخ في البوق مجدّداً معلناً ان عربة بريجنيف قد اجتازت البوابة الجنوبية الغربية وهي تتقدم ببطء نحو المكان الذي يقف فيه الرئيس، مارّة أمام حرس الشرف.

كل شيء يسير بانتظام حتى الآن. وقفت العربة أمام الرتاج الجنوبي، تقدم الرئيس نيكسون لاستقبال بريجنيف، وبعد تبادل التحية، صعد كلاهما الى المنصة الرئيسية لتصدح الموسيقى النشيد الوطني لكل من بلديهما. وهنا أخذت الأمور تنعكس. ثلّة من الجنود ببزّات المراسم، تمثل جميع القطع العسكرية، بالإضافة إلى مجموعة من الأعلام المختلفة الألوان، كانت تنتظر العرض، لكن حيويّة بريجنيف، تجاوزت ذلك. ففي حين كان متجهاً نحو الجنود لتقبّل تحيتهم، كما تقتضي تقاليد الاستقبالات الرسمية، لفت انتباهه جماعة تقف في الجهة المقابلة وتلوّح بأعلام أمريكية وسوفيتية. فسارع الخطى نحو هؤلاء المتسكعين وأخذ يصافحهم، وكأنه سياسي أمريكي في أوج حملة انتخابية. فبادر نيكسون إلى تلافي الأمر، وإبعاد نوبة عصبية عن ضابط المراسم، الذي كاد يفقد السيطرة على أعصابه، وحفظاً لهيبة مدير البروتوكولات، أخذ نيكسون يدفعه سراً بكوعه، ليعيده الى استعراض العساكر الذين لا يزالون في حالة استعداد. فعاد بريجنيف الى المنصّة، في ما كانت موسيقى الجيش تمر أمامه، صادحة ألحاناً عذبة. وما ان انتهى العرض، حتى ألقى كل من نيكسون وبريجنيف خطبة موجزة. وبعد ذلك، صعد الرئيسان الدرج المؤدّي الى المدخل الجنوبي. وقبل دخولهما قاعة الاستقبالات تقبلا تحية الجمهور الذي كان يزدحم حول موقف الاستقبال. ووقف الرئيسان في قاعة الاستقبالات، ليصافحهما كل من الموظفين المشتركين في الاحتفاء. وهنا أيضاً، خالف بريجنيف التنظيم المعدّ. فلم تكمل الشخصيات الموجودة تحيّتها التقليدية، لانشغال بريجنيف الطويل، بالتحدث الى بعض معارفه القدماء. ان عدم اهتمام الأمين العام للحزب الشيوعي، بالتنظيمات الرأسمالية، حال دون أن يدوم هذا اللقاء نصف ساعة فقط كما هو مقرّر، بل انه تأخر كثيراً، ولهذا السبب بعينه تأخر أيضاً افتتاح المحادثات الرسمية في المكتب البيضوي. ومع ذلك فان هذا لم يضع حداً لما كنّا نتوقّع.

تقرّر ان يعقد الاجتماع الأول في المكتب البيضوي، ويحضره من جانبنا كل من وزير الخارجية وليم روجرز، وهول سوننفيلدت مقرّراً وأنا، ومن الجانب السوفيتي، وزير الشؤون الخارجية أندريه غروميكو، والسفير دوبرينين، والمترجم الشهير فكتور سوخودريف (وبالنسبة لنا، كان سوننفيلدت يتفهم اللغة الروسية). أخذت أولاً صور تذكارية لنيكسون و بريجنيف. وبعد ان أطمئن كل من الرئيسين لجلسته وموقفه، أشارا لبقية المشاركين الى اللحاق بهما، لكننا انتظرنا فعلاً اكثر من ساعة في قاعة الإنتظار ولم نحظّ بذلك.

وبعد تقرير ما جرى من محادثات، ينتظر ان يعطي الرئيس نيكسون أوامره لإعلانه. ولم يخبرني الرئيس بما حدث. ومن المحتمل ان يكون بريجنيف، قد أعاد قسماً كبيراً مما دار بيننا من أحاديث في زافيدوفو. وهكذا بقيت المحادثات عامّة، لان دوبرينين، الذي اطلع دون شك، على ما دوّنه سوخودريف، لم يلمّح لي بشيء ولم يطلعني على الاستنتاجات التي كونّها حول ما جرى من محادثات (لكن سوخودريف كان قد وعدني باطلاعي على ما يدوّن من تقارير، فحالت الظروف دون أمنيته أيضاً).

والخلاصة، أننا نحن الذين بقينا في الخارج، أتيح لنا الدخول في تمام الساعة الثانية عشر وخمس وثلاثين دقيقة. لكن بريجنيف الذي أراد أن يبيّن وجهة نظره حول العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية، أخذ بالكلام عنها في خطاب طويل جداً، حول تاريخ العلاقات بين البلدين، ودام هذا الخطاب وترجمته زهاء خمس وأربعون دقيقة. ومن خلال هذه الممارسات، وصفت قمة موسكو لعام ١٩٧٢، بأنها منعطف في العلاقات بين الشرق والغرب. وأكد بريجنيف أيضاً، انه يمكن لكل المشاكل ان تُحل، ما دام الفريقان يستبعدان كل سيادة أحاديّة الجانب، وهما على استعداد لتقديم كل تسوية وتساهل وأضاف قائلاً:

«ان كل ما أنجز في موسكو، وما سوف نقوم به وننجزه هنا، يجب ان يتخذ تفسيراً وأهمية غير عادية. ولدينا نحن الروس، توازن ومبدأ خاص: «في ان الحياة هي أفضل مرب». وأعتقد ان حياة شعبينا الكبيرين وزعماءَنا، هي التي تحملنا على الإستنتاج بوجوب إقامة علاقة جديدة بيننا ليس الآن فحسب بل في المستقبل أيضاً. والخلاصة، أني أؤكد وبتمام الرضا، أن السبب الإنساني، الذي حملنا على معرفة ذلك، في الوقت ذاته، والذي أوصلنا الى هذا اللقاء الناجح، هو ما قمنا به في موسكو السنة الماضية. اني أعتقد جازماً، وسأثبت على الإعتقاد، إن ما أنجز في موسكو، كان نتيجة تفاهم عميق، وتفهّم لأهمية مبادراتنا المشتركة، في سبيل المستقبل والسلام. لقد التقينا العام الماضي في موسكو، لا للتباهي بقدراتنا، ولا للمناقشة، لكن لاتخاذ قرارات هامّة لها قيمتها وفائدتها. واني على اطلاع انها حصلت على مساندة إجماعية من قبل شعبنا وشعبكم.

ولما كان موعد تقديم شهادة جون دين محدّداً بعد أسبوع، أخذت تفوح، رائحة عدم الإجماع، على مساندة نيكسون، وقلّما يكون بالنسبة للأمريكان الحاضرين، والذين هم على اطلاع، بما ينتظرنا من كوارث. غير ان الجوع أخذ يؤثّر علينا ويجعلنا أقلّ تفكيراً، في أمور تُطرح في جلسة تمتد الى ما بعد الظهيرة، ودون ان تبدو أقل إشارة بقرب انتهائها. وفعلاً، لم يتوقع انتهاؤها، لأن الرئيس نيكسون لم يجب بعد على خطاب الرئيس الضيف. وما كان من بريجنيف بعد ملاحظته بعض التعب بادياً على وجوه الفريق الأمريكي، إلاّ انه أخذ يدقّق في الساعتين اللتين يحملهما على يده. وكان يعمل ذلك كما قال، حتى لا يضيع عليه وقته ومواعيده، ومعرفة الوقت المحدّد للتكلم هاتفياً بزملائه في موسكو. وللمرّة العاشرة وأمامي، نبّهه غروميكو ودوبرينين ان الوقت في موسكو، يختلف بمقدار سبع ساعات عمّا هو عليه في واشنطن، علماً انهما كانا على اقتناع، ان ذلك التنبيه لن يثمر. وغالباً ما كان

بريجنيف يقطع حديثه ليسأل الرئيس وروجرز وأنا، عمّا اذا كنّا متعبين، فكنّا ننكر ذلك بقوّة في سبيل حفظ المصلحة القومية، علماً اننا كنا متألمين داخلياً، ولا نستطيع البوح به، بمقدار ما كان يطول الوقت ويقربنا من بعد الظهيرة.

أخذ نيكسون بالجواب، ولحسن حظّنا، كان يوجز أكثر من بريجنيف. إذ انه لم يُعدّ نفسه لاجتماع طويل. وأكدت التقارير التي صدرت عن أجهزتي، ان بريجنيف ونيكسون كانا متفقين حول ما ورد في برنامج القمّة، وان نيكسون ينكر على الأمين العام كل فكرة يطرقها بشأن حكم ثنائي. وردّ نيكسون على بريجنيف حول هذا الموضوع بطريقة فلسفيّة، كما أوضح الفرق الشاسع بين جوّ لقاء ايزنهاور وخروتشيف عام ١٩٥٩، في البيت الأبيض، واللقاء الحالي. كنت أقدّر انه سيقول: ليس من تهديد هذه المرة لبرلين، تلك المشلكة التي أوجبت الدعوة على سلفه. ومن ثم أشاد نيكسون بالتكافؤ النووي الذي ثبت منذ ذلك الحين. انها المرّة الأولى، خلال سنوات تعاوننا، تخونه ليقاقته اثناء تحدّثه مع زعيم سوفيتي. لا يزال الباب مفتوحاً أمام التكافؤ الإستراتيجي، ليصبح آجلاً أم عاجلا، كابوساً مخيفاً بالنسبة لنا متيحاً الفرصة لتفوق سوفيتي في مجال التسلّح التقليدي، وحريّة التدخل في النزاعات الإقليمية، هذا اذا لم تضاعف الدول الديمقراطية قواتها التقليدية.

تراجع نيكسون بسرعة وأكد اننا لن نسهم أبداً في حكم ثنائي بين القوتين الأعظم، ثم قال: «ما دمنا رجال خبرة، علينا معرفة قدرتنا، ونستطيع كذلك ان نسمح لأنفسنا بل يجب علينا، طالما ان بليدنا مقتدران، اتباع سياسة نحترم من خلالها حقوق بقية بلدان العالم، ». وتأكداً من نيكسون ان بريجنيف لن يستاء من تفسير ما ورد في اتفاقية الوقاية من الحرب النووية، قال: ان معرفة حقوق جميع البلدان، وبالتالي مسؤوليتنا، لايضاح الطرق، التي تجنّبنا الهجوم النووي وغيره».

وختم نيكسون كلمته، معدّداً لائحة طويلة من القضايا لطرحها في الاجتماعات اللاحقة، ومنها الأمن الأوروبي، واتفاقيات سالت، فيتنام، كمبوديا، والعلاقات الاقتصادية. فتقبلّها بريجنيف قبولاً حسناً. وبعد ان انتهى نيكسون من المجيء على ذكر جميعها، قال بريجنيف «كأني سمعت كلمة فيتنام» ولم استوعب الموضوع واذا أردت، فسوف نناقش الموضوع، واذكر أننا تخاطبنا حوله فيما سلف في جناح ضيافته.

انتهى الاجتماع في مكتب البيت الأبيض، في تمام الساعة الخامسة عشر والنصف، فهرع الوفد الأمريكي، الذي مسّه الجوع، الى مطعم البيت الأبيض. ولم تظهر على بريجنيف حاجة للأكل، على الرغم من أن يكون لديه سبع ساعات تأخير أو تقديم على توقيتنا.

وتابع المؤتمرون، ما بقي من جلسات القمّة، ضمن تنظيم هش تتصف به المفاوضات مع السوفيت. فكانت الاجتماعات تلغى، دون إعطاء السبب، أو ان نظراءنا من السوفيت وبكل بساطة لا يحضرون. وتحدّد فجأة ساعة للاجتماع دون علم أحد. وفي نهاية المطاف، كان السوفيت يراقبون تحركات الجميع ولكن في الولايات المتحدة!!! وفي كامب ديفيد، حيث دارت مفاوضات جلستين في العشرين من شهر حزيران ولمدة يومين، كان مقرّ بريجنيف قبالة مقرّ الرئيس. وفي إحدى المناسبات، بقى بريجنيف ومعاونوه جالسين في شرفة الجناح المخصّص لضيافتهم، يتحدّثون وبصوت عالٍ ولمدة ساعتين، بدل الاشتراك في اجتماع محدّد بحسب البرنامج، دون ان يكلّفوا أنفسهم إرسال خبر يبيّن سبب تأخيرهم، على الرغم من إمكانية مشاهدتهم من مقرّ الرئيس. وفجأة، وكأني بهم في موسكو، أعلمونا انهم على استعداد لحضور الجلسة. عمداً أو لأنهم لا يريدون التقيّد بتوقيتنا الأمريكي، غيّروا ساعة الغداء. وأظهر نيكسون أناة أكثر مني. لأنه كان يدرك انه يجب على السوفيت

إعطاءَه بعض الحرّية، فوافق على الإجتماع، الذي بحث فيه الأمن الأوروبي، والذي خلص فيه بريجنيف الى تعداد زعماء أوروبا الغربية، وكيف انهم قبلوا بالاقتراح السوفيتي باختتام المحادثات بمؤتمر قمّة ولم نكن نحن على اطلاع على القسم الأكبر ممّا قاله.

ومضى ما بقي من الأسبوع في محادثات بين رئيسي الدولتين، واحتفالات توقيع وعشاءات رسميّة. وخصّص اجتماع لأهداف تنمية التجارة بين امريكا وروسيا. وتخلله إسهاب طويل حول أجواء الفترة الحاضرة، وبيّن بريجنيف رغبة الإتحاد السوفيتي في ان يشتري من الولايات المتحدة الأمريكية مواد استهلاكية بمبلغ عشرين مليار من دولار. فإذا كان هذا المبلغ حقيقياً، فانه يبيّن وبطريقة لا لُبس فيها إلى مدى توجيه الاقتصاد السوفيتي نحو تصنيع الأسلحة، وكم هو دون جدوى. وفي اجتماع آخر، حضر جون كونللي، مستشار الرئيس ومحامٍ، وقد جاء ليؤكد على الفريقين، الاهتمام بتقييم غاز سيبريا الطبيعي.

وبعد تناول عشاء فخم مملوء كياسة، أقيم في الحادي والعشرين من شهر حزيران في السفارة السوفيتية، استقلّ الوفدان الطائرة يوم الثاني والعشرين متجهين نحو سان كليمانت، وكان سفرهما في طائرة الرئيس. ويعد مثل هذا السفر في طائرة وثيرة جداً مقارنة بما هي عليه طائرة بريجنيف عام ١٩٧٢، اخذت أسأل نفسي عمّا اذا كانت بساطة كامب ديفيد النسبية، وطائرة سلاح الجو الرئاسية، لم تقنعا ضيوفنا السوفيت بأن الطبقية، تضفي مكاسب أكبر على مجتمع دون طبقات، غير ما هي عليه في بلاد رأسمالية. ولقد تركنا لبريجنيف قبّعة كابوي، رعاة بقر، مع مسدّس أطفال في حجرته في الطائرة، فلم يعط اهتماماً للقبّعة، لكنه وجد النطاق مضحكاً.

وعندما ارتفعنا بطائرتنا في أعالي كانيون الكبير، خلق بريجنيف جوّاً مرحاً امتاز به، فقلد نجمه السينمائي المفضّل، جون واين، حتى كدنا نصدّقه، ومن ثم أطلق الرصاصات الست.

ألحّ بريجنيف في سان كليمانت، على بقائه في مجموعة البنايات ذاتها التي يقطنها الرئيس، ولما كان لا يوجد سوى شقة سكن واحدة لائقة ويسكنها الرئيس، فقد خصّ بريجنيف بمقصورة صغيرة، يحتفظ بها عادة لتريسيا ابنة نيكسون، وكانت هذه المقصورة تشتمل على قاعة استقبال صغيرة، وغرفتين صغيريتين للنوم تزدان جدرانهما بأوراق بلون الزهور. وخُصّ غروميكر ببيت صغير، يحتفظ به أيضاً لجوليا ايزنهاور. وبصورة طبيعية، أعادت سان كليمانت الى بريجنيف، ما قد أصبح لديه طبعاً من حيث تبديل الساعات، لكنه في هذه المرة، اختلى في مقصورته منذ وصوله نحو الساعة الثامنة عشرة.

ولقد جرت المحادثتان الأكثر أهمية في مؤتمر القمّة، في الثالث والعشرين من شهر حزيران، خلال اليوم الأخير بكامله، الذي أمضيناه في سان كليمانت. ان المحادثتين، لم يرد لهما ذكر في البرنامج، بل فرضتا علينا دون سابق إنذار. وعند الظهيرة وأثناء حديث جرى بين نيكسون و بريجنيف ولم يحضره سواي والمترجم سوخودريف، صرّح الأمين العام عن الحقد العظيم الذي يكنه للصين. وكأني بالذي سمعته إعادة لما دار بيننا في احدى جلسات زافيدوفو. ولم يجرّد غضبه من تقديرات عنصرية. ان الصينيين مخادعون بطباعهم، ويخفون بكثير من المراوغة أهدافهم الحقيقية. ان الثورة الثقافية الصينية، كما يراها، هي مثال على الانحطاط الأخلاقي، ثم أخذ يتساءل عن زعماء يضطهدون شعوبهم ويدعون انهم يدافعون عن الحرية في العالم أجمع. وكأنهم لم يسمعوا ما ورد من أحاديث عن أرخبيل الغولاق ومعسكرات اعتقاله، ومعسكرات الإبادة في وطن الإشتراكية. وأستمر بحديثه مؤكداً ان الأطباء

السوفيت يعتقدون ان ماو مصاب باضطرابات عقليّة. و على كل حال، اذا كان سليماً أو لا «فان لماو طبعه المخادع».

لكن بريجنيف غير راغب في إصدار تصريحات نظرية. وغايته في هذا المجال عملية وغاية في الكمال. وزد على ذلك فقد اقترح اجراء تبادل وجهات نظر سرّية عن طريق الاتصالات الرئاسية. وحذرنا من أن البرنامج النووي الصيني سيصبح مأساوياً لما لدى الإتحاد السوفيتي عام ١٩٧٣. ولن تقبل موسكو أبداً بذلك، لكنه لم يوضح عمّا سيقوم به الكرملين في هذا السبيل. وفي المستقبل القريب، سيكشف للعالم أجمع عدوانية الصين، وسيطرح بعد ذلك مشروع توقيع معاهدة عدم اعتداء مع الصين، لن تقبل به بكين بكل تأكيد (وجاءت الأحداث مصدّقة لما يقول). ثم أضاف بريجنيف، انه لا اعتراض له على إقامة علاقات بين دولة ودولة أي بين وشنطن وبكين، لكن الاتفاقيات العسكرية ستصبح أمراً آخر، وأردف قائلاً: «ان شعوب العالم ستفقد ثقتها فينا، وأبدى اهتماماً خاصاً غير عادي، عند تلفظه بهذه العبارة، حول الرأي العام العالمي، ليس للاتحاد السوفيتي أية نيّة في مهاجمة الصين، لكن اتفاقاً عسكرياً مع الولايات المتحدة سيزرع بذور الشك حيال هذا العمل، هذا ما قاله بريجنيف بحذق ومهارة يُستشف من خلالها انها من أقوال غروميكو».

فأجاب نيكسون بلا مبالاة، انه مستعد دائماً للبقاء على اتصال دائم «وحول أي موضوع كان» عن طريق الاتصالات الرئيسية، ولم يجر تحليلاً شخصياً لتحركات وأهداف الصين. ثم بيّنت اننا لم نقم بأية محادثات عسكرية مع الصين. ولم يتقدم نيكسون ولا أنا بضمانات مستقبلية. ثم ظهر ان بريجنيف يلمّح الى مساومة، عندما صرّح فجأة، ان الإتحاد السوفيتي ، قد أنهى تسليم فيتنام الشمالية أعتدة عسكرية، بعد توقيع اتفاقية باريس. » وربما اننا نرسل اليها بنادق ولكنها لاتستحق الاهتمام. وسوف نحثّهم على احترام اتفاقية باريس».

وبعد ظهيرة اليوم نفسه، وتماماً قبل حفلة الاستقبال التي أجريت على جانب المسبح، أخذني غروميكو على انفراد. وكان يخشى بكل صراحة ان بريجنيف لم يكن واضحاً تماماً والله وحده يعلم أن ألدّ أعداء بريجنيف يعتبرون أكبر معايبه نقص صراحته. ومهما يكن من أمر، كان وزير الشؤون الخارجية، يؤكد بوضوح وللمرة الثالثة خلال ستة اسابيع، ان كل اتفاق عسكري بين الصين و الولايات المتحدة سيجرّ العالم الى الحرب. فأجبته على الفور، اني استوعبت ما كان يهدف إليه، ولكني لم أدل له بشيء جديد بالنسبة لما ننوي عمله. ولم يكن هناك ما يدعو الى إعطاء ضمانات مسبقة تجاه تهديدات كهذه، كما اني كنت على قناعة، وقد بيّنت ذلك سابقاً، وجوب الاحتراس من تعريض الصين لأي هجوم سوفيتي، وهذا اذا حدث لن يبقينا في موقف اللامبالاة في هذه الحال، وتأثير ذلك على توازن القوى العالمي، يصبح مفعول هجوم ناجح ضد اوروبا الغربية.

وبدأت المفاجأة الثانية، في آخر يوم من المحادثات، بشكل مساومة تقليدية بيني وبين غروميكو، حول مقطع في البيان الأخير، المتعلق بالشرق الأوسط. اذ كان غروميكو غير واثق لوضعه، لأن مؤتمر القمة السابق والبيان الصادر عنه دار حول إبعاد مصر للمستشارين السوفيت، ورفض غروميكو هذه المرة، تضمين البيان الحالي أي تلميح يتعلق بالقرار (٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن، لأن جميع ما يمكن تفسيره منه يصيب كبد حقيقة المفاوضات حول الشرق الأوسط، ولأننا كنا نرفض الموافقة على النص السوفيتي ـ العربي. وحاول غروميكو عام ١٩٧٢، تحاشي أي اختلاف يحدث بيننا حول الشرق الأوسط. وأكد أيضاً عام ١٩٧٣ على الموضوع نفسه. ولم يكن ما ورد بهذا الشأن سوى جملة قصيرة، أبعدت كارثة العام الماضي، لا سيما بعد ان فسّرها السادات بأن السوفيت رخّصوا قيمة المصالح العربية.

وكانت المباحثات مع غروميكو تشبه وإلى حد ما مباراة وديّة. والمفاوضات الجارية حالياً لم تكن لتقلق بريجنيف، أكثر من تطوّر وتفاقم الأحداث في الشرق الأوسط. وعندما كنت في زافيدوفو في شهر أيار، أوجزت لبريجنيف تقويمنا للوضع من حيث المساندة السوفيتية، لما يطالب به العرب على وجه العموم: «يصعب علينا إقناع إسرائيل، بوجوب التخلّي عن أراضٍ احتلّتها لقاء بعض الأشياء الحاصلة عليها، (مثل وقف إطلاق النار) لكي تجتنب حرباً هي المنتصرة فيها، وهذا يدعو وبصورة طبيعية إلى إجراء مفاوضات مع العناصر العربية الأكثر عناداً (أعني الفلسطينيين).

وفي هذه الأثناء كنا نعد أنفسنا لطرح مبادرة دبلوماسية كبيرة، بعد الانتهاء من الإنتخابات الإسرائيلية. التي سوف تجري في نهاية شهر تشرين الأول، وبإنتظارها نحاول كسب الوقت. لكن بريجنيف في زافيدوفو، دعا الى التهديد بشن حرب، ولوّح الى أنه أصبح في حالة صعبة، من حيث القدرة على ردع حلفائه من العرب. وأوضح لنا في الوقت ذاته، ان تقديراتنا تستند إلى أمور غير ثابتة: «فلا يجوز الإبقاء على هذه الحال، دون اتخاذ قرارات تساعد على حلّها، وإلاّ فان الرئيس نيكسون وأنا سوف نجد أنفسنا في وضع لا يريح». وبعد كل هذا، فليس هناك شيء سرمدي في هذا الكونّ وحتى ان الأفضلية العسكرية التي تتمتع بها إسرائيل حالياً، ليست بالسرمديّة». ومن الممكن القول، ان بريجنيف لم يعرض أي برنامج، ولذا فقد تبادر الى ذهني، ان هذا التهديد المقنّع، لم يكن سوى مناورة، وحسب اعتقادنا، ان الحرب التي يهدّد بها سوف تنتهي بهزيمة العرب، ولا يستطيع السوفيت مساندة حلفائهم. كنت تدارست أنا وغروميكو، بعض المبادئ في زافيدوفو، لكن جميعها كانت لصالح العرب. ولما كان بريجنيف، لم يتراجع قيد أنملة في محادثاته معي. لذا فقد أرجأنا بقيّة المحادثات الى مؤتمر قمة شهر حزيران.

أما الآن وقد أشرف مؤتمر القمّة على الختام، فقد ذهلت من عدم رغبة السوفيت، في تقرير شيء بالنسبة للشرق الأوسط. ولقد حصل دون ريب، بعض الخلاف مع غروميكو حول البيان الختامي، لكني لا أذكر أبداً ان بريجنيف أبدى رغبة في التكلم مع نيكسون حول شؤون الشرق الأوسط، لا في واشنطن، ولا في الطائرة الرئاسية، ولا في سان كليمانت.

كنت أعتقد، اننا نستطيع أخيراً، ان نعطي أنفسنا بعض الانفراج، بعد الأعمال الجليلة التي قمنا بها، وكأني بنيكسون لا يفكر بذلك، اذ انه قرّر إقامة حفل كوكتيل في الساعة السادسة عشر والنصف من يوم الثالث والعشرين من شهر حزيران، حول المسبح في مقرّة الرئاسي، لأعضاء جمعية هوليود، الذين قبلوا المجئ الى سان كليمانت، في أوج ما نعاني من فضيحة واترغيت. ولم يكن عدد الحضور كبيراً. وظهر على وجه بريجنيف السرور. وتبع الحفل في الساعة التاسعة عشر، عشاء عائلي ضمّ عشرة مدعوين فقط، وأقيم في قاعة الطعام الصغيرة الخاصة بنيكسون. وفاتني القول، ان بريجنيف طلب تقديم العشاء ساعة، كونه يشكو من بعض الإرهاق، وكان الكوكتيل لم يبدأ بعد. فقبل نيكسون مرغماً، وتألم لتلك الشرذمة القليلة من شجعان أمناء عرّضوا نفوسهم للخزي والعار، وتحملوا ساعتين من تعب الطريق من لوس انجلوس، لحضور حفلة، دامت بالكاد ساعة واحدة فقط.

وهيمن الفرح على حفل العشاء أيضا. وشعر بريجنيف بالدفء والسرور في هذا الجو العائلي. وتبادل نيكسون وبريجنيف الأنخاب، وألقى نيكسون بالمناسبة كلمة مؤثرة حول مسؤولية الزعيمين في إسعاد أطفال العالم، هذه المسؤولية التي يجب ان يتحملها هذان الرجلان، بقدر ما يكنان من حبّ وتعلّق بأولادهما. وعندما ختم نيكسون كلمته، وقف بريجنيف، ودار حول الطاولة لمعانقته. وما ان أزفت الساعة التاسعة عشر

والربع، حتى قدم الوفد السوفيتي اعتذاره عن إكمال الحفل، كان بريجنيف بحاجة قصوى للراحة، قبل إقدامه على تغيير آخر من التوقيت المضني المجبر على اتباعه. فعاد الى واشنطن في صباح اليوم التالي، ليأخذ قسطاً من الراحة في منتجع كامب ديفيد، قبل ان يسافر الى باريس في الخامس والعشرين من شهر حزيران. وبعد مضي عشر دقائق، كان نيكسون قد اختلى في غرفته، وأويت أنا إلى بيتي.



قرع جرس هاتفي في تمام الساعة الثانية والعشرين، وكان المتكلم أحد أفراد الجهاز السرّي، الذي كان مكلفاً بحراسة بريجنيف والوفد السوفيتي، وهو يعلمني ان بريجنيف جهّز نفسه، وهو يطلب بإلحاح مقابلة الرئيس نيكسون الذي كان لايزال نائماً، وإيقاظه في مثل هذا الوقت يشكل مخالفة للبروتوكول. ولم يسبق لزعيم أجنبي في ضيافة البيت الأبيض، أن طلب في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، الالتقاء بالرئيس دون موعد سابق، وحول موضوع غير مقرّر. فكان القصد إذا مفاجأة نيكسون بمحاولة جديدة، فيما يكون وحده دون وجود مستشاريه. ولقاء من هذا النوع يدعى في عرف الدبلوماسية، نوعاً من المناورة تُفقد الثقة أكثر مما تفيد في نتيجة المحادثات. وربما كانت التساهلات التي حصل عليها بالحيلة، مربكة، ولا يؤمل لها البقاء بين شعبين من قوّتين أعظمين ولن يحافظ عليها.

فأجبت محدّثي من الجهاز السرّي، ان يبلغ السوفيت، ان اللقاء المطلوب لن يتّم قبل إعلام الرئيس بالواقع. فأيقظت نيكسون بعد ربع ساعة، وخرج من غفلته، عندما حدّثته بما جرى. فتساءَل عما يريدون؟ فأجبته: من يعرف؟ لكني أخشى ألاّ ينتهي مؤتمر القمّة، دون حضور حلبة مبارزة. بعد ذلك طلب نيكسون الى خادمه ، إيقاد

مدفأة القاعة التي تطل على المحيط الهادي. وفي غضون ذلك، كنت أسأل عن غروميكو، لأفهم منه ما يحدث، ولأعلمه عن جاهزيتي للقاء المطلوب. فاتضح من خلال المحادثات، ان رغبة جامحة تولّدت لدى بريجنيف للتحدث عن شؤون الشرق الأوسط. وبنوع من اللامبالاة، أجبت، وأعلمت غروميكو أني سأطلع الرئيس على ما يرغبون، وسأخبره بالوقت الذي سيحدّده الرئيس للقاء.

وهكذا ونحو الساعة الثانية والعشرين وخمس واربعين دقيقة، وفي الليلة الأخيرة من لقاء نيكسون ـ بريجنيف في مؤتمر القمّة. قدّم رئيس الدولة السوفيتية أهم اقتراح من جميع ما قدّم في رحلته هذه، لقد أقترح ان تتفق الولايات المتحدة و الإتحاد السوفيتي، على اجراء تسوية في الشرق الأوسط، تستند على أساس انسحاب إ سرائيلي شامل الى حدود عام ١٩٦٧، ويكون ذلك لقاء انهاء حالة الحرب، ولا يعني صلحاً. ويتوقف الصلح النهائي على اجراء مفاوضات فيما بعد مع الفلسطينيين، وتأتي القوتان الأعظم في نهاية المطاف وتضمنان الاتفاقية. وهذا بدون شك، هو مطلب العرب الحقيقي. وكان على بريجنيف ان يعلم، فيما اذا كان يجهل ذلك، ان غروميكو كان على اطلاع جيّد، ان مثل هذا الاقتراح لن تكتب له الحياة، وليس هناك مجال للتباحث به، لا سيما انه لم يبقَ لإنتهاء مؤتمر القمّة سوى بضع ساعات. كما ان بريجنيف لن يتوقف عند هذا الحد، ولن يكتفي بتعميم بيان كما قال، وسيجري هذا ضمن تسوية سرية لن يعلم بها سوى الموجودين هنا في مباحثاتها. ولم يذهب بعيداً في تعريفنا كيف ان مثل هذا المشروع الثوري تضعه الولايات المتحدة و الإتحاد السوفيتي، حول صلح في الشرق الأوسط، ويبقى طيّ الكتمان، في مجال تنفيذ بنوده.

فأجاب نيكسون ، الذي كان يتظاهر بهدوء أعصابه إبان حدوث عاصفة، أن لن يجري شيء من ذلك هذا المساء. ونحن غير قادرين أبداً على قبول المبادئ العملية

العامة، التي طرح موضوعها في زافيدوفو. ووعدت من جهتي أن أعود إليها وأضعها في نصّ جديد أسلمه لبريجنيف قبل مغادرته كامب ديفيد في الخامس والعشرين من شهر حزيران. ولم تحظَ هذه الفكرة بالقبول لدى الأمين العام. وكعادته عاد الى التنهيد.

«إذا لم تكن تلك المبادئ التي اتفقنا عليها غير واضحة، فستعترضنا صعوبات جمّة في منع انفجار الوضع العسكري.... ولا نعرف طريقة عمل جديدة في حال عدم الاتفاق على المبادئ العامة التي طُرحت سابقاً.... وبالنسبة لي فاني أعارض وبكل تأكيد العودة الى الحرب. ولكن دون ان نتفق على تلك المبادئ آنفة الذكر، لن نستطيع منع مثل هذه الحرب».

وبمقولة أخرى، فاننا بعد ان تخلّينا عن التهديد باللجوء الى القوة، بالإتفاقية التي أبرمت حول الوقاية من الحرب النووية، جاء بريجنيف الآن يهدّدنا فعلاً بحرب في الشرق الأوسط، اذا لم نقتنع، ونتفق معه على افكاره.

كان بريجنيف يطرح ذلك بحدّة وعنف. ولقد قال لي دوبرينين مؤخّراً أنه طلب من المترجم سوخودريف، ألاّ يترجم بعض المقاطع الخشنة الواردة في ملاحظات بريجنيف، لكن ما سمعناه منها كان كافياً تماماً. و كان بريجنيف راغباً في تسوية نزاع الشرق الأوسط خلال هذا الصيف، والشروط التي يقترحها لم تكن لتختلف عن مطالب العرب. ومن خلال وقائع الأمور، فاننا لم نتوصل إلاّ الى تقديم اقتراح بمشروع صلح شامل، قبل الانتخابات الاسرائيلية، التي سوف تجري في شهر تشرين الأول، وعلى كل حال فان هذا لن يرضي ما يطمح إليه بريجنيف. أمّا بالنسبة لنيكسون، فان فرض تسوية، وفضيحة واترغيت لا تزال في أوجها، سيعرضه للاتهام ليس بخيانة حليف فحسب، بل بالقيام بمناورة لتحويل أنظار الناس عمّا يدور في

الداخل. ومهما يكن من أمر، فان البرنامج الذي اقترحه بريجنيف كان في حد ذاته غير مقبول عندنا.

وليس هناك من شك، في أن بريجنيف كان يلجأ دوماً الى التهديد، لا عن اقتناع، بل بسبب ما يراه من حرمان حق. ولقد سمع مثلنا التهديدات المصرية، وكان يشاركنا الرأي، في التقدير، من أن مثل هذه المحاولات ستنتهي دون ريب الى هزيمة العرب. وكان بريجنيف يعلم أيضاً ان حليفنا مجهّز عسكرياً، أكثر من قدرتنا على امتلاك مفاتيح حلّ دبلوماسي. وكان يريد استدراجنا، ودفعنا إلى حلّ ما لديه من مشاكل دون ان يدفع شيئاً لقاء ذلك. وكان يسعى كحد أدنى، الى حملنا على التصديق أننا المسؤولون عن المأزق الذي يعانيه، وحذّرنا في الوقت نفسه من تعاظم الموقف السوفيتي في العالم العربي.

ان كل هذه الايضاحات لا تنقص شيئاً من أهمية محاولة بريجنيف، الذي كان يحاول وبقوة استغلال، الوضع المربك الذي يلف نيكسون بسبب فضيحة واترغيت وعلى الرغم من خيبة أمل دوبرينين الواضحة، الذي كان يعلم حق العلم انه من العسير علينا قبولها وتنفيذها بسبب ما يدور لدينا من سياسة داخلية، اضافة إلى كونها مرفوضة دبلوماسياً. كما ان هذا يفسّر تحفّظ غروميكو الشديد. وهذا لا يمنع ان نبدي استعدادنا لاجراء مباحثات مع موسكو حول مبادئ عامة، مع أخذ رأي حليفتنا إسرائيل، والتي دخلنا للتو معها بمحادثات تمهيدية. و لا يفوتنا ان نوضح عدم استعدادنا للتضحية بموقفنا الجغرافي السياسي في سبيل الانفراج. وبعد ان تحدّث بريجنيف طوال مدة ساعة ونصف، قاطعه نيكسون بثقة وتقدير، وأوضح له انه سيدقّق تقرير هذه المباحثات في صباح اليوم التالي، لم تكن القضية سهلة على قدر الصورة التي قدمها بريجنيف. والأفضل لنيكسون ان يطلب صياغة مشروع معاكس لتلك المبادئ التي سلّمت إليّ من قبل غروميكو في زافيدوفو، ثمّ قال نيكسون:

«سأدقّق غداً هذه المباحثات، ولن نتكلم بعد عن اتفاقيات ضمنية. وأرجو ألا تغادرونا دون إنجاز شيء. وعلينا ان نتوقّف حالياً عند هذا، ويسهل عليّ القول، ان على إسرائيل الانسحاب من كافة الأراضي المحتلّة، على أن يدعى هذا في حال التوصل إليه اتفاقاً مبدئياً. وهذا هو جوهر القضية. وأعلن قبولي لجميع المبادئ التي تقود الى تسوية. وهذا هو مشروعنا الذي سنتقدم به هذا العام. ان الشرق الأوسط قضية ملحّة جداً».

وتوقف بنا الأمر هنا. وهدأ روع بريجنيف، كما حدث معنا في محادثات عام ١٩٧٢ ثم أسمعنا ملخصاً، عما ينوي التحدث به مع بومبيدو خلال توقفه في باريس في طريق عودته الى موسكو. لكن الكآبة لا تزال مهيمنة على الوضع، ولم نستطع نسيان تلك المحادثات التي أجريت في مكتب نيكسون، عندما اشتعل الوضع في الشرق الأوسط بعد قرابة ثلاثة أشهر من هذا التاريخ.

وفي اليوم الأخير، الذي صادف الرابع والعشرين من شهر حزيران، انقشعت تلك الغيوم، التي كانت تغطي اللقاءات مع الزعماء السوفيت. ثم ودّع نيكسون ضيفه الكبير بريجنيف بحرارة، على الحديقة الخضراء الكائنة أمام مقر سان كليمانت. شكر بريجنيف مضيفه نيكسون على حسن ضيافته، وأكد له انه يفارقه بانطباع حسن. وأبدى رغبة حسنة في استقبال نيكسون في الإتحاد السوفيتي، في العام القادم، مؤجلاً تحقيق انجازات أخرى كثيرة منذ الآن وصاعداً. فردّ عليه نيكسون قائلاً ان تحسن العلاقات بين الولايات المتحدة و الإتحاد السوفيتي، هو بمثابة أساس ليس فقط، لسلام بين دولتينا الكبيرتين، بل لافتتاح عهد، تستطيع جميع شعوب الأرض العيش فيه بسلام.

رافق نيكسون ضيفه الكبير بريجنيف في تنقله القصير بطائرة مروحية، إلى الـ تورو (القاعدة الجوية). فاغتنم بريجنيف هذه الفرصة ليؤكد لنيكسون ان المحادثات

التي دارت حول تقليص القوات في اوروبا، ستكون ذات فائدة بموجب الغاية التي وضعت لأجلها، اذا أظهر كل من الولايات المتحدة و الإتحاد السوفيتي حسن نيّة. وفاجأ العالم، بإنقاص رمزي في قواتهما بحدود عشرة آلاف رجل!!!

ولم تثمر هذه الفكرة وكأنها لم تكن. وعندما ودّع نيكسون ضيفه الكبير بريجنيف في القاعدة الجوية، كانت هذه المرّة الأخيرة، التي التقيا فيها على قدم المساواة.

أما في مؤتمر القمّة التالي، الذي جرى بعد عام في موسكو، وكان توقيته غير متفق مع ما كان نيكسون من سوء حال وتعب بال، اذ قد استقال بعد اللقاء بنحو شهر تقريباً.



ان مؤتمر عام ١٩٧٣، أوضح بجلاء الغموض الحاصل في العلاقات بين الشرق والغرب بالنسبة لعهد نووي. وكان الفريقان يخشيان بحذر مخاطر حرب من هذا النوع. ولا أزال أعتقد حتى الآن، أن نيّة بريجنيف كانت متوجهة بصدق، لالتزام متبادل في سبيل فترة طويلة من الاستقرار. وما من زعيم سوفيتي يستطيع التخلّص مما هو عالق لديه من مبادئ، ويهمل المبادئ اللينينية، التي في نهاية المطاف، يعود إليها تحديد نفوذ دولة، بقدر قوّتها. ربما كان للنشاط الطبيعي بعض الحدود، لدى الزعماء السوفيت المتقدّمين في السن. كما ان قدرتهم على مجابهة الأخطار، قد وهنت، من جرّاء حياة قضوها في الكفاح. وهم في الوقت نفسه، لا يملكون ما يسمح لهم باجراء تعديلات في الأوضاع، اذا كان توازن القوى في صالحهم. ولن تمرّ فرصة إستراتيجية دون استغلال، نتيجة عوائق برجوازية، أو علاقات شخصية مع زعماء غربيين.

ومن وجهة النظر هذه، فان نتيجة مؤتمر قمّة عام ١٩٧٣، لم تكن في الحقيقة سلبية، لا بنتيجة أسباب سياسية أجنبية، ولكن بسبب تلك المظاهرات العارمة، التي تكشف عن اضطرابات أمريكا الداخلية. ولقد عرف الوفد السوفيتي في آخر الزيارة، ان فضيحة واترغييت، قد تفوّقت على مؤتمر القمة، وهذا ما قاله لي دوبرينين، وبلهجة ساخرة بعد خمسة عشر يوماً. وما هو أشدّ خطراً فان مؤتمر القمّة أخذ يقنع الزعماء السوفيت، ان نيكسون سينوء تحت أعباء المشاكل التي تحيق به. وما كان اعتقادهم هذا يحملهم على القيام بمغامرات تزيل مكتسباتهم، بل دفعهم الى التحرّك ضمن مبادئهم و خططهم، ليتمكنوا من إفشال كل مبادرة تبعث الى المخاطرة من قبل بلد صديق، وحسب اعتقادي ان مؤتمر القمّة أسهم وبكل تأكيد في إشعال نار حرب الشرق الأوسط.

الفصل الثامن

اتفاقية باريس

وقّعت في باريس، في السابع والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣، اتفاقية وقف القتال واستئناف السلام في فيتنام، وكانت هذه الاتفاقية محققّة لآمال الشعب الأمريكي بكامله، الذي كان يتطلع لإيقاف القتال، لكن آلاف الناس، الذي تعذبّوا وقاتلوا في تلك المناطق، كانوا يؤكدون، أن حريّتهم وأمنهم لا يزالان عابرين.

ولم يفت زعماء فيتنام الشمالية، أن يعلنوا وبما أوتوا من قوّة، وبصورة سريعة جداً، أن وقف إطلاق النار، الذي اتفق عليه، لم يكن سوى عملية تعبوية، بل مرحلة تؤدي بهم إلى ما يهدفون، وهو الاستيلاء على كل البلاد بالقوّة. وما كاد يجف حبر اتفاقية باريس، حتى بدؤوا باختراق تعهداتهم الرسمية، وفعلاً فإنهم لم ينقطعوا عن القتال. وقد أوضحت في رحلتي التي قمت بها الى هانوي في عام ١٩٧٣ ما وقعت فيه الأخيرة من مخالفات صريحة للاتفاقية، وبيّنت كذلك عن رغبتنا الملحة في التقيّد بها بعد عشر سنوات من القتال ولكننا أصبحنا على ثقة في

شهر آذار، أن وقف إطلاق النار، لم يكن سوى قناع يتسترون وراءه، لتجنيد قواهم، وتعزيز أسلحتهم، وجعل الجميع في وضع استعداد للمباشرة بهجوم جديد. ولم يكن القصد القيام بتعدّيات تقنية، بل تهيئة لمرحلة جديدة للحرب، وبوسائل تحرّمها الاتفاقية بوضوح.

وكان كل ذلك يجري بطريقة مذهلة. ولقد بينّا في احتجاج تقدمنا به للسوفيت، في بداية شهر أيار، أن ثلاثين ألف رجل، تسلّلوا إلى فيتنام الجنوبية، عن طريق لاوس، خلال ثلاثة أشهر فقط. أما بشأن الأعتدة الحربية فلم يكونوا قادرين على إدخالها، إلاّ عن طريق تبادل التجهيزات وقطعة وراء قطعة وبواسطة نقاط المراقبة الدولية. لقد حافظت الولايات المتحدة على العهود التي قطعتها على نفسها، في حين أن فيتنام الشمالية، أرسلت بأكثر من ثلاثين ألف طن من التجهيزات العسكرية، ضمن آلاف من الشاحنات، لم تمرّ إحداها بنقطة من نقاط المراقبة الدولية. وكانت هانوي بدورها تحول دون إثبات ذلك. وأضافوا إلى ما سبق أربعمائة دبّابة، وثلاثمائة مدفع ثقيل، وركّزوا شبكة مضادّات جويّة، واستطاعوا بطريقتهم التنظيمية، تجميد عمل لجنة المراقبة الدولية ولجنة تطبيق وقف إطلاق النار. ولما كان اثنان من الأعضاء الأربعة، شيوعيين (بولونيا وهنغاريا) فإن اللجنة وجدت نفسها وقد شلّت عن القيام بواجبها لأن هذين كانا يرفضان إثبات مخالفات حزبهما، فأبطلا بذلك مفعول ما يسجلّه من ملاحظات كل من الكندي والأندونيسي المتمركزين بقربهما.

أمّا فيتنام الجنوبية، فلم تكن أكثر نقاءً من غيرها. ولقد قامت ببعض الانتهاكات، خاصة ما يتعلق بمراقبة الحدود، خلال الأشهر الأولى، وضايقت عن قصد، ضباط الارتباط الفيت كونغ، المعيّنين في لجنة عسكرية مشتركة. وتجاهلت

الأمر، عندما طلب إليها تشكيل مجلس وطني للمصالحة والوفاق، لأن هانوي لم تقبل بمبدأ إجراء انتخابات عامة. وفي النهاية، فإن هذا النزاع لم يؤثر على الجهود المنظمة والحازمة، التي كانت تبذلها هانوي في سبيل تغيير توازن القوى في تلك المنطقة، رأساً على عقب.

وهكذا ففي شهر آذار من عام ١٩٧٣، قبل مضي شهرين على توقيع الاتفاقية وإنهاء الحرب، وجدنا أنفسنا أمام تحدٍّ قاسٍ، كان يهزأ بجميع الأوضاع الأساسية، التي حدّدتها هذه الاتفاقية. ولابدّ لنا من طرح السؤالين التاليين:

هل يجب علينا أن نتدخل في سبيل احترام هذه الاتفاقية؟

وهل يحق لنا ذلك؟

بدت التسوية وكأنها غير ملزمة، ولذلك فقد خالفها هؤلاء الذين كانوا يشككون بحقنا في الدفاع عنها بعمل عسكري نقوم به، أو ألزام أنفسنا بالإقدام على ذلك عند الضرورة. والرئيس من جهته كان قادراً شرعاً، على متابعة العمليات الجوية، حتى بعد توقيع الاتفاقية، كما ينصّ على ذلك وبكل تأكيد، قرار قدمه وزير الخارجية وليم روجرز، إلى لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ، في شهر نيسان من عام ١٩٧٣. وخلصت هذه اللجنة، بعد الانتهاء من الدراسة التي قامت بها:

"لا شيء يتعارض مع عودة حالة الحرب، في فيتنام أو لاوس، كما أن للرئيس الحق باستخدام سلطاته الشرعية، المخولة إليه قبل توقيع اتفاقية باريس، بشأن متابعة الحرب".

غير أن عدة استدلالات قُدمت تؤكد أن الضمانات التي وعد بها تيو من قبل نيكسون، تقوم على استعداد أمريكا للدفاع عن اتفاقية باريس، بأعمال عسكرية، إذا اقتضت الحاجة إليها، إن تلك الضمانات مغلوطة، وهذا تفكير تعتريه عدة أخطاء. إن الضمانات التي أعطاها نيكسون للرئيس تيو، لم تكن على شيء من السرّية. وسياسته مثل نيّاته، كانت معروفة لدى الجميع، وهذه هي الصفة العامة في ضماناته، التي ساعدت على اقناع تيو، وحملته على توقيع الاتفاقية. ولقد أكد نيكسون. ووزير دفاعه، وغيرهما من الشخصيات الرسمية، أن نيّة الحكومة متجهة إلى فرض احترام الاتفاقية ولقد اتخذت هذه النية شكل رفض لاستخدام القوّة، كما أوضحت ذلك في مؤتمري الصحفي الذي أقمته في الرابع والعشرين من كانون الثاني لعام ١٩٧٣، وشرحت فيه نصوص الاتفاقية، كما بيّنها أيضاً بوضوح وزير الدفاع: ايليوت ريشاردسون، في مقابلة تلفزيونية في الأول من شهر نيسان، ومن ثم في تعليقات أملاها على الصحفيين في الثالث منه، وكما نؤكد أحياناً، أن لا شيء يمنعنا من استخدام قواتنا الجوية، ولقد أكد ذلك أيضاً معاون وزير الخارجية وليم سيلّيفان، في مقابلة تلفزيونية أجراها في الثامن من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣، وكما أكدته أنا بنفسي في التلفزيون أيضاً في الأول من شهر شباط. وكنا نذكر أحياناً، أننا لجأنا في السابق إلى القوّة، ونحن قادرون على ذلك الآن، ولقد أشار نيكسون إلى ذلك في المؤتمر الصحفي الذي عقدهُ في الخامس عشر من شهر آذار عام ١٩٧٣، "أني راغب فقط أن أبيّن، لدى العودة إلى ما قمت به من أعمال، خلال السنوات الأربع الأخيرة. فإني أحذّر الفيتناميين الشماليين، من الاستخفاف بذلك القلق الذي يسببونه لنا لا سيما إذا كان يتعلق بخرق الاتفاقية". ومهما تكن صيغة هذه البيانات، المتفاوتة في تواريخها، جمعت كلها

باختصار، في تقرير الرئيس السنوي الذي أصدره في الثالث من شهر أيار من عام ١٩٧٣، حول السياسة الخارجية. "إن خطّة كهذه (من حيث خرق عظيم للاتفاقية) ستعرض للخطر، تلك المكاسب، التي تمكنا من الوصول إليها في سبيل السلام في الهند الصينية، وإني أخشى أن تسبّب لنا مجابهات جديدة . . . لقد بيّنا لهانوي، في السرّ والعلن، أننا لن نتساهل أبداً في أي خرق للاتفاقية".

وفي بداية عام ١٩٧٣، كان القرار الرئاسي بالعودة إلى القصف الجوي لا يزال ساري المفعول، وحق استخدامه لا يزال معمولاً به. وإن الموضوع المطروح فعلاً للمناقشة ليس قانونياً. وهو يتهم ما اتخذ من إجراءات حول المصلحة القومية، ورغبتنا في تطبيق الاتفاقية، كانت تصطدم بعقبات عديدة أوجدتها الحرب الفيتنامية. وهؤلاء الذين كانوا ينادون بالتخلي عن شعب الهند الصينية غير الشيوعي، هم أنفسهم يحاولون تعديل موقفهم ذاك بمناسبة انتهاء الحرب، وترك الهند الصينية وشأنها. نتيجة تسوية، لا يغيظهم أكثر من انسحاب أحادي الجانب، طالما نادوا به في السابق. وهم أنفسهم كانوا يعتبرون اتفاقية باريس، وكأنها تسوية مشرفة بحد ذاتها، بل تحقيق لما كانوا ييسعون لتحقيقه، وهو التخلي عن التزاماتنا دون مقابل. وكانوا يريدون تطبيق اتفاقية ضمن حدود بعيدة عما جرى، وبالنسبة لنا، كنا على حق برفض ما يطلبون. وطوال أمد الحرب كنا نعارض الاستسلام دون شروط، وجميع الأسباب التي كانت تدعونا إلى إطالة الحرب، حتى الوصول إلى تسوية مشرفة، ونفس هذه الأسباب كانت تحملنا أيضاً على احترام اشتراطاتها. لم تكن نيّتنا أبداً أن نخسر وبسبب إهمالنا، قضية مات في سبيلها خمسون ألف أمريكي ولا التخلي عن ملايين الرجال الذين وضعوا ثقتهم فينا، وقاتلوا ومات منهم الآلاف خلال عشر سنوات. وكنا معتقدين أن آثار ذلك على

الاستقرار الدولي والعزم الأمريكي على الدفاع عن الشعوب الحرة، ستجلب مصائب وكوارث، فيما إذا اعتبرنا هذه الاتفاقية الرسمية وكأنها استسلام ونفضنا أيدينا منها، لكن الأحداث القادمة ستبرهن عن صحّة تصرّفنا. إذاً ما هي الطريقة لتطبيق اتفاقية باريس؟.

هناك جواب مقبول من منتقدينا "بالدبلوماسية، وهو لا يعني شيئاً. وبعد سنوات عدة ومضجرة من الدبلوماسية، توصلنا إلى الاتفاقية، والتي نحن الآن في طريقنا إلى خرق بنودها. لكننا لن نرضى بدبلوماسية تعمل دون هدف. ولقد مارسنا ضغوطاً عسكرية على هانوي. أن نجاعة الدبلوماسية لا تتوقف على فصاحة فرد ما، لكن على الاعتبار الذي توليه البلدان الأخرى لحسنات وسيئات هذه الدبلوماسية. وكل تفكير مخالف، يضر بالقضية ويفشلها.

ليس هناك أحد، ممن عايشوا ولاية نيكسون الأولى، وما رافقها من رعب وآلام، تحمل الانتفاضات الداخلية، التي يثيرها لجوء جديد الى القوة، فيما اذا لم يدُم سوى بضعة أيام، ان أعظم منتقدينا، وبكل تأكيد، سيسارعون الى إغراقنا في بحر من الاتهامات التي لا طائل تحتها. كالتعطش لسفك الدماء، ونظريات بسيكولوجية ساخنة، بسبب الانعطاف نحو استعمال الشدّة الذي يلصقونها بنا، وهم بذلك يحولون نزاعنا الداخلي الى مأساة، ولا يقدّمون تحليلاً بنّاءً. وانظم الى هؤلاء الأعداء التقليديين، في هذه المرحلة، فريق مغاير، كان يعتبر سابقاً من المعاضدين للحكومة طوال مدة الحرب، لكنهم اليوم يأخذون عليها إطالة أمد الحرب.

لقد قمنا بواجبنا حسب رأيهم، عندما توصلنا الى تخلٍّ مشرّف عن التزامنا و الاستمرار في المطالبة بحلّ لن يخدم المصلحة القومية بشيء. وتبيّن من اعتراضاتهم عدم اتفاق آرائهم، لأنهم يرفضون التهديد باللجوء الى استخدام القوّة، ويأملون في

الوقت ذاته، ان هذا التهديد يبعد الظروف التي دعت إليه. وتوضح هذا في مقال لصحيفة نيوزويك الصادر في السادس والعشرين من شهر آذار عام ١٩٧٣، كتبه سيتوارت ألسوب، وقد جاء فيه:

«كثير من الناس (وعليّ ان أبدأ بنفسي) قبلوا وبامتعاض سياسة الرئيس تجاه فيتنام، لأن خيار ماك غافرن كان مخجلاً. ولكن اذا ارسل الرئيس من جديد قاذفات قنابل تقصف هانوي، فان هؤلاء الناس أنفسهم، سيأخذون بالتساؤل وبمرارة.

«ان البيت الأبيض يقدّر ان الفيتناميين الشماليين، لن يستطيعوا القيام بهجوم كبير ضد فيتنام الجنوبية، قبل مضي عدة أشهر، أي ربما في الخريف القادم. ألا يستطيع الفيتناميون الجنوبيون، خلال هذه الأشهر الكثيرة، الدفاع عن أراضي بلادهم؟ واذا كان الجوب بالنفي فلماذا؟ وهل من الواجب حقاً ان نرسل مجدداً قاذفات قنابل لقصف الشمال، لنبرهن على صواب نظريات الرئيس، واذا فرضنا اننا قمنا بذلك، فهل ينجح؟ ان مجلس الشيوخ لن ينقذ هانوي، كما كان استعداده في شهر كانون الأول، قبل توقيع معاهدة باريس.

❏ ❏ ❏

كنا قد قطعنا وعداً لحليفنا، رئيس جمهورية فيتنام الجنوبية، نغويان فان تيو، أن بإمكانه القيام بزيارة رسمية للولايات المتحدة ولقاء الرئيس نيكسون. وهذه بمثابة رعاية اضافية لاستدارجه وحثّه على القبول بوقف إطلاق النار، كونه هو الوحيد الذي كان يعارض طيلة شهور اتفاقية السلام، التي بين بنودها تقسيم بلاده. وبالحقيقة، فان الشروط التي حصلنا عليها في باريس، كانت أفضل من التي كان يؤمّلها من دأبهم انتقادنا، بل كانت كما يبتغيها أنصارنا، وتيو ذاته رضي بها أساساً

للمفاوضات، فيما كان الفيتناميون الشماليون لا يبدون استعداداً لقبولها. وعند رفضهم تلك الشروط، أخذ يعمل وكأنه يحملنا مسؤولية هذه التسوية. ولقد تأكد لدينا، ان مطلبه الحقيقي، هو إكمال القتال، إلى أن يطرد الغزاة. ولم تكن هذه غلطته، ما دام الرأي العام الأمريكي لا يريد التساهل بهذا الشأن.

وحاربنا تيو بطرق فيتنامية، عناد وثبات لا يعرفان الكلل، ترافقهما روح ازدواجية. كنا نريد نحن وهم الوصول الى الغاية ذاتها وهي استقلال فيتنام الجنوبية، وان تنعم بأمن دائم في حدودها. ومن كان منا يفاوض في اتفاقية باريس لم يكن لا صلفاً ولا سانجاً. وكنا على علم مسبق ان فيتنام الشمالية لا بدّ انها ستكمل ممارسة ضغوطها، لكننا توصلنا الى توازن قوى، وكان الكونغرس وبكل تأكيد يوافق على انسحابنا غير المشروط من الحرب، فيما لو أظهرنا رغبةً في استمرارها. وكانت الولايات المتحدة تأمل، في ان تجميد الوضع في ساحات القتال، حيث يتسطيع أي فريق إلحاق الهزيمة بالفريق الآخر، سيؤدي الى بعض الاستقرار، ولربما أوصل يوماً الى إجراء محادثات سياسية بين الفيتناميين.

وكان تيو ينظر الى الأمور من زاويته الخاصة. فلم يكن يتطلّع الى سلم قريب، بل إلى عدوّ مباشر. فبعد وقف إطلاق النار، وتراجع قواتنا فإن شعبه سيجد نفسه ، في مقابل جيش مستعد بل قادر على تدمير استقلال الهند الصينية منذ انطلاق شرارة المجابهة الأولى. وكنا على ثقة وبمحض ارادتنا بوجوب وضع حد لمطامع هانوي. أما هو فكان يتطلع الى مستقبل طويل الأمد من عدم الاستقرار. وهو على حقّ في ذلك، لأن إدارة نيكسون كشفت عن نواياها في مساندته فقط في المجال الداخلي، فيما اذا قدرت على ذلك، لأن تقديراتنا لمسؤولياتنا العظيمة نحو ما نهدف إليه كانت خاطئة، ولا بدّ لها أن تبقي هلعاً مروّعاً للإدارة التي ستخلفها . لقد إغتاظ تيو مني غيظاً شديداً، كوني مدبّر اتفاقية باريس، علماً اني كنت أشاركه آلامه، ولصدق القول، لم يكن لدينا خيار

آخر. وكانت الولايات المتحدة غير قادرة على رفض ما كانت تقبله هانوي من شروط تعرض عليها منذ ثلاثة أعوام، وتيو موافق عليها ضمنياً أيضاً. ولا أزال حتى اليوم، أكنّ كل تقدير لهذا الرجل الشجاع، الذي استمات في القتال، في سبيل حرّية وكرامة شعبه وخسر في النهاية بسبب ظروف خارجة عن ارادته، وارادة شعبه وارادتنا.

مكث تيو في الولايات المتحدة من الثامن حتى الخامس عشر من شهر نيسان من عام ١٩٧٣ ولا فخر لنا بذلك. لأننا طول مدة الحرب، وفيما كان مواطنوه يقاتلون إلى جانبنا، لم نستطع استقباله في أمريكا، لأن وجوده فيها، ربما يعرضنا الى قلاقل. لقد التقى الرؤساء الأمريكان بصورة سرّية في غوام، وهاواي، وميدواي، لكنّه لم يسمح له مرّة ان تطأ قدماه أرض قارّتنا.

كانت زيارة عام ١٩٧٣، تعويضاً يُدلّل على علاقات جديدة وجيّدة في زمن السِلم وتطلعّ الى فيتنام حرّة. وفعلاً فقد جرى العكس تماماً. ان نهاية الحرب لم تكن قادرة على إخفاء ما يتوقع حدوثه من قلاقل عامّة، لذلك فقد عزمنا على استقبال رئيس بلد صديق، والذي في سبيل حرّية واستقلال بلاده، قدّم عشرات الآلاف من الأمريكيين وحلفائهم، ومئات الآلاف من الفيتناميين، حياتهم لأجل تحقيق ذلك، وفي الجهة الغربية من البيت الأبيض، وفي سانت كليمانت، أقيمت حفلات الاستقبال والوداع، داخل سور محروس جيداً، كما ان العشاء الرسمي قد أُلغي واستبدل باجتماع عائلي صغير وكانت الحجّة في ذلك ان قاعة الطعام لا تتسع لأكثر من اثنتي عشرة شخصية. لكن الحقيقة هو اننا غير قادرين على تنظيم لائحة بالمدعوّين الاعتباريين خشية قيام مظاهرات معادية.

وحفظاً منّا لوعود قطعناها على أنفسنا، حول زيارته لواشنطن، فان نائب الرئيس سبيرو أغنيو، سمّي مديراً لاستقباله في العاصمة والاحتفاء به. لكن الجوّ

الذي سيطر على الاستقبال كان مخيّباً للآمال، كما ظهر بعد ئذ من خلال محادثة أجريتها مع أغنيو، قبل أن تحط طائرة تيو بقليل. كان ألم أغنيو بادياً، لأن واحداً فقط من أعضاء الحكومة، الذي هو بتر برينّان ـ وزير العمل ـ قبل مرافقته لاستقبال الضيف. ونادرة جداً هي الشخصيات، التي أبدت استعدادها لحضور حفلة العشاء، الذي سيقيمه نائب الرئيس على شرف الضيف. ولقد أوجد معظم أهم أعضاء الحكومة حججاً لأن يغيبوا في اليوم المحدّد. ويمكن اعتبار ذلك ظروفاً عصيبة ومخجلة. وطوال مدّة عملي، عديدون هم الرؤساء الشيوعيون، الذين استقبلوا وبكل حفاوة في واشنطن، كما ان أهم الموظفين في البيت الأبيض كانوا يتزاحمون حول إقامة حفلات عشاء رسميّة على شرف زعماء حياديين حسب راي الولايات المتحدة. أما هذا الرئيس الشجاع لشعب صديق فقد اعتبر منبوذاً. لقد اتخِذَ تعطشه للديمقراطية، مدة عشر سنوات ضعفاً، من قبل هؤلاء الذين يطالبوننا بالتخلّي عن شعبه وتسليمه لأعداء الديمقراطية. غير ان سفينة شعب فيتنام لن تغرق، ما دام تيو محتلاً مكانه فيها. ان وجوده ، ثبّت أقدام الآلاف من مواطنيه، الذين كانوا يهربون من المناطق التي يحتلّها الشيوعيون، ليعزّزوا تلك المناطق التي كان يديرها ويشرف عليها. ان هذه الروح الطيّبة والاندفاع الشديد، لهما نصيبهما الكبير في العدول عن القصف وإذا كان هذا الشعب قد استمّر في مقاومته، بعد انقطاع القصف، فان هذا يدلّ على ثقل وقسوة العبودية الشيوعية. لقد اتخذ تيو الاستعدادات اللازمة، لكنها دون شك، لا تفي بالمطلوب، لتحرير حكومته، من الإرهاب الشيوعي، الذي كان يعتبر أحسن معاونيه، أهدافاً مفضّلة. لكن هذا لم يُفِد شيئاً لدى مغتابيه.

ومما لاشك فيه، ان فيتنام الجنوبية، لم تكن حقاً تلك الديمقراطية بالمعنى الذي نفهمه، فكانت تنبثق عنها شكايات قسوة وفساد تجري فيها. ولكن عندما كان أعداء تيو في السياسة العالمية الصاخبة في سايغون، يتهمونه لدى صحفيينا ومراسلينا، لم

يكن هناك تشبيه مع ما هي عليه هانوي، حيث كانت المعارضة تُسحَق، والصحافة تكمم، والاتصال بالأجنبي يُمنع. وبالاختصار، ليست هي الاعتبارات في طرق استخدام الديمقراطية، هي التي تثير عواطف الأمريكيين. لقد كان تيو ضحيّة إرباك عميق، وأكثر غدراً، تبيّن في النهاية نتيجة تقدير مزدوج لمفهوم الديمقراطية. عندما أخذنا في استفتاء أصدقائنا الأوروبيين حول موضوع زياة الرئيس الفيتنامي المتوقّعة، سواء بالنسبة لسفره الى واشنطن، أو بالنسبة له شخصياً، فكان الجواب صمتاً، وصمتاً مربكاً. فلم يُستقبَل لا هو ولا وزيره للشؤون الخارجية في عواصم أجنبية، سوى في باريس، التي كانت مقرّاً للمفاوضات، وكان مشروع عدم الاعتراف بحكومة تيو، الخطوة الأولى في سبيل التخلّي عن التزاماتنا نحوها والغائها، كان هذا المشروع قد سارع الخطى. وفي غضون ذلك ، فان السيدة ن –غويان تي بين، التي هي بمثابة وزيرة الشؤون الخارجية في الحكومة الثورية الشيوعية المؤقتة، (وحكومة الظلّ هذه لم يكن لها عاصمة) لقد استقبلت هذه السيدة بصخب كبير في أوروبا الشرقية.

إنها لظاهرة غريبة، هذا الاستهتار، الذي يدفع الناس الشرفاء الأفاضل، لتسليط احتقارهم الأدبي، ضد كل ما هو متعارف عليه انه محافظ، وكانت هذه الظاهرة تتفشى في أوروبا، بواسطة لشعارات ما بين الحربين، كشعار، لا عداء لليسار، وكانت الصحف الغربية، بعد الحرب، تفيض صفحاتها بانتهاك القوانين، التي تمارسها كل من الأنظمة الاسبانية، وكوريا الجنوبية، واليونان، وفيتنام الجنوبية وغيرها. ثم تتناول هذه الصحف وبصورة ضمنيّة. وكأنها تعطي عذراً، لما يجري من قسوة من قبل الديمقراطيات الشعبية، في أوروبا الشرقية، والمظالم التي يقوم بها اليسار في العالم الثالث، وبطبيعة الحال في فيتنام الشمالية الشيوعيّة.

وإذا حافظت النظم التقدّمية، على أمن بلادها الداخلي، الذي هو بمثابة امتحان لصدق نيّاتها، فهذا يعود إلى مصداقية الشعوب الخاضعة لها، ولأنها شمولية أيضاً، وإذا جوبهت بعض النظم المحافظة بالبلبلة، والسبب الوحيد لذلك، انها لاتملك النظريات اللازمة، والأجهزة الضرورية، التي تمكنها من ردع فعّال، فليس لهذا أدنى أهمية. وإذا سالمت النظم المحافظة جوارها، وعاشت معهم بهدوء وسلام، وطوّرت طريقة حكمها نحو الديمقراطية مثل (اسبانيا، اليونان والبرتغال)، فإن السلطات العسكرية السوفيتية، سارعت إلى فرض ارادتها في كل مكان تحت مسمّى «فكرة التعميم». وأضف إلى ما سلف، فان فترة ما بد الحرب، لم تسجّل أيّ تعديل في نظم الكثير من البلدان المتشددة في العالم الثالث. وان ما يجري في وقتنا. من هجرات هائلة، هي هروب من البلاد الشيوعية، ولم تكن أبداً عكسيّة. والملاحظ أنه سنة بعد سنة، يُحتفظ بعدم الاهتمام والإهانة، وبنسب متفاوتة لأصدقاء الغرب، كما جرى لتيو عام ١٩٧٣، والشاه خلال النصف الثاني من السبعينيات.

ان مبادئنا الديمقراطية، وحاجتنا الملحّة للاستقرار، تتلاقيان في عالم مثالي. لكن الحقيقة تختلف ان الديمقراطية الدستورية، التي نعتبرها عادية وطبيعيّة هي في الواقع نادرة، على مدى سنوات التاريخ. ولم يأتِ هذا بطريق المصادفة. وفعلاً فان الديمقراطية، تجعل من السلطة أوهاماً، ولنأخذ مثالاً على ذلك، ان إطاعة القانون، لن تعطي مردودها، ما لم يعمل بها لأجل ان تعكس الحقيقة المطلقة، أو للتدليل على انها تنبثق عن حكومة سياسية مقبولة عموماً. وفي معظم أقسام العالم، وفي معظم العهود، قلما نجد آثاراً لمثل هذه الظروف والشروط. ومن المعلوم ان القانون هو دوماً حكم السلطة، ولم يكن أبداً بمثابة تطوّر تشريعي. ودور السياسة الدائم، هو تعريف من له الحق بإصدار الأوامر. وكان النفوذ الشخصي مقبولاً، وفي حال وجود مبدأ القبول المتبادل، كما جرى سابقاً في المجتمعات الإقطاعية، أو كما كانت تحدّده التقاليد،

بالنسبة لملوك الحقّ الألهي في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وعلى كل حال، فان التقليد، كان بمثابة عامل تحديدي، وكانت التجاوزات مستحيلة، لا لأنها كانت ممنوعة، بل لأن ليس لها سوابق. وفي أوروبا القرن الثامن عشر، لم يحق لأي سيّد ان يجبي الضرائب، أو يُجندّ مرؤوسيه. وبالاختصار فان الاستبداديّة كانت محدّدة تماماً.

ولقاء ذلك، فان ظهور حكومات شعبيّة، هو الذي أتاح الفرصة لمنح سلطات كان العالم ينتظر منحه إياها. ولما كان الشعب غير قادر، وبالتحديد على تملّك رغباته التي يُنادي بها، أو باسمه مجتمعات أو زعماء، كانت دون جدوى. ولقد نمت سلطة الدولة تماماً مع اتّساع المتطلّبات الشعبيّة.

ومن خلال هذه القرائن، فان الشمولية الحديثة، ليست سوى تشويه، بل إحالة الديمقراطيّة إلى المحال. كما ان الاستبدادية، استطاعت أن تصبح ديمقراطية، ولم يحصل العكس أبداً. ان للتسلّط الشخصي حدوداً لازمة، ومن يدّعي التعبير عن الإرادة العامة، فلن يتوصّل إلى شيء منها.

وهذا هو السبب الذي يجعل الحكومات الاستبدادية، أكثر تعرّضاً للانقلابات الداخلية، أكثر من الحكومات ذات الحكم الفردي الشمولي. عندما تُقطَع العلاقات الشخصيّة في الالتزامات المتبادلة، فان الارتباك يسود الزعماء والشعب، أما الزعماء لأن ليس هناك شرعيّة تسمح لهم بالحكم وعلى الدوام بقسوة عظمى، وأمّا الشعب فانه عندما يزيل أحد مبادىء الخضوع، فانه يشعر وكأن كل توجيه هو بمثابة إهانة له. والمشلكة الماثلة أمامنا الآن، هي ان كل البلاد السائرة في طريق التطوّر على هذه الأرض، تشعر أن السلطة فيها لا تزال شخصيّة. وان التحوّل المؤدي الى الدستوريّة ليس هو سوى مشروع كثير التعقيد، لأن مخالفته، تتيح له الفرصة ان يتغيّر إلى الشمولية، أكثر ممّا هو إلى الديمقراطيّة.

ان أول شرط لتطوّر ديمقراطي، هو ان يقبل المهزوم بهزيمته، وتتكون لديه الثقة مقابل ذلك، وان تتاح له مستقبلاً امكانية الغلبة في فرصة أخرى. ولا بدّ من وجود نقطة اعتدال. ان تطوراً كهذا ، تعترضه دون شك عوائق، لا سيّما في بلد في طريقها الى التطوّر، وعندما تتوصل مبادىء الشمولية فيها إلى تنظيم حرب عصابات. وهذه بدورها، ستجبر الحكومة على اتباع طريقة الزجر، فتخلق هكذا حلقة مفرغة ينضمّ اليها ليس الزعماء فحسب بل المعارضون، وتهدم ما كان يتوخّى ان يصبح نقطة اعتدال وتكمل الهدف الذي تنشده من العصيان. أضف إلى ذلك، فان ضحايا الهجوم الإرهابي، هم بما لا يقبل الشك من الشخصيّات الرسميّه، الأكثر جدارة والأكثر تضحية. وبذا تخلي المكان وتتركه حرّاً لأناس فاسدين، تتضاعف تعدّياتهم بقدر ما يحاولون التعويض عن متاعب وضعهم، بتجميع تعويضاتهم المادّية.

ان ردّ الفعل الأمريكي تجاه هذه الظاهرة، يمكن ترجمته على وجه العموم وباعتقاد راسخ، في ان أحسن وسيلة لحكومة محاصرة من هذا النوع، هي تسريع الإصلاح الديقراطي، وتوسيع قاعدته، ولن يتم ذلك إلاّ بتقاسم السلطة. لكن الأسباب الأساسيّة الداعية إلى حروب أهلية (وحرب العصابات جزء هام منها) التي هي كناية عن تفكيك الإجماع القومي، فتصبح التسوية، التي هي جوهر السياسة الداخلية الضحيّة الأولى. وقد تنتهي وبدون استثناء تقريباً بانتصار أو هزيمة ولن تؤدّي إلى حكومة ائتلافية، مطلب الأمريكان المحبّب. ان التنازلات التي نعزوها إلى ضعف في من يستولي على الحكم، بدلاً من أن ننسبها لشهامته تسارع في إنحلال السلطة، أكثر من إيقافها عند حدّ ما. وأحسن فرصة يمكن اعتبارها مؤاتية لإجراء إصلاحات، هي قبل اندلاع الحروب الأهلية، ومحاولة وضع حدّ لأسبابها ولو أن هذا لا يكتب له النجاح بصورة دائمة، لا سيما عندما يوحى بالفتنة وتموّل وتعبّأ من الخارج، ان المناسبة التالية تتمثل بعد الغلبة (كما كان لنكولن يستبق الأحداث المكنة الحدوث في

أمريكا، أو كما جرى في نيجيريا بعد عام ١٩٧٠) لكن الحدّ الذي يضعه الغرب، تجاه القوة وعدم الكفاءة الاستبدادية، يتحّدان على وجه العموم ليمنعا وضع هذه النظرية موضع الاختبار. أما بالنسبة للحل الذي يقال له «سياسة» فان المفاوضات التي لها المقام الأول بين الفرقاء، ستنفيها التجربة التاريخية. وكم من تنظيمات، تقاتلت فيما بينها، عادت وأخذت تحكم معاً بعكس كل الاحتمالات. ولهذه الأسباب مجتمعة، فمن المستحيل تقريباً، ان نجد حرباً أهلية تنتهي إلى حكم ائتلافي، ولا يمكن اعتبار الائتلاف عند حصوله سوى وسيلة وقتيّة لمنع فريق من العودة إلى القتال في شروط أفضل. لأجل هذا فان المشاركين في حرب عصابات يرفضون في الغالب اجراء مفاوضات سياسية، عندما يتأكدون من الغلبة. وجرت العادة ان يستدرج هؤلاء خصومهم بطريقة تكسبهم الوقت، بقصد القيام بهجوم جديد.

ولأجل هذا فان ما تقوم به الحكومة الأمريكية من ضغوط دائمة في سبيل الوصول إلى مفاوضات، كادت تربك موقف الحكومات المشتركة معها. وفي حين ان الحاجة ماسّة لتوطيد نفوذنا، يأتي دور مجالسنا فتضعفها، والحكومات التي أتعبها عدو داخلي عنيد، قد شُلّت نتيجة اتباعها آراء تعرف أ نها خطيرة بل مفجعة لكنّها لا تجرؤ على رفّضها. هذا هو قدَر نغويان فان تيو، وهذا أيضاً ما آل إليه أمر شاه إيران.

لقد هوجمت كل حدود بلاد الأول (أي تيو) من قبل قوّات مهمّتها الرئيسية القتال، والتمهيد لحرب عصابات، كانت هانوي تجنّدها وتجهزها، ثم من قبل جيش فيتنام الشمالية القدير. غير ان حكومتنا كانت تكمل دعايتها لاجراء الانتخابات، وتظهر ليونة أكثر في المفاوضات. جزء من تصرّفها عن قناعة أما الجزء الآخر لتهدئة انتقادات لاذعة تطلق في الولايات المتحدة. وتوصّل تيو بفضل قدرته المعنوية، إلى اجتياز هذا المأزق الحرج، فقاتل ضد عدوّ عنيد، ومراعياً جانب حليف لايدرك،

وتوصّل عام ١٩٧٣ إلى اتفاقية، من بنودها ان تتخلّى هانوي عن مطالبتها السياسيّة، التي كانت تطالب بها منذ سنوات لقاء وقف اطلاق نار، أكثر نفعاً ممّا كنّا نتوقّع، لكنه كان وقتياً أكثر مما كنا نأمل.

لم تكن تربطني بتيو صداقة شخصية قوية، لكني عندما رأيته يتابع القتال وحيداً، بعد الانسحاب الأمريكي، أصبحت أقدّره كثيراً. ما رأيته متذمّراً أبداً، لا ولا مرتبكاً، لكن هذا لا يمسّ كرامته بشيء. انه رئيس الدولة الوحيد، الذي يرى حفلة استقباله تجرى دون جمهور، فتصرّف وكأن الأمر أكثر من عادي. عند وصوله إلى سان كليمانت، ألقى نيكسون كلمة مهذّبة، الح فيها إلى الكفاءة التي أظهرتها فيتنام الجنوبية في الدفاع عن نفسها، وهذا موقف يثير الشكوك فيما إذا قامت هانوي بهجوم ساحق وبأسلحة سوفيتية. أمّا تيو الذي قد أعياه التعب، فقد تقبّل هذه الحكاية قبولاً حسناً.

وبعد الانتهاء من الاحتفال، انفرد الرئيسان، لاجراء محادثات خاصّة. وفي الواقع، لم يكن هناك ما يستحق المباحثات. ولم يبدِ تيو أقّل تذمّر حول المهمّة التي خلّفناها له بعد انسحابنا، ولم يأتِ على ذكر عدوانيّة هانوي، لكنّه قدّم عرضاً موجزاً عن المخالفات التي يرتكبها الفيتناميون الشماليون. فطمأنه نيكسون على انفراد، كما صرّح بذلك علانية في الخامس عشر من شهر آذار وفي غير تلك المناسبة أيضاً، مؤكداً الوقوف إلى جانبه في حال الاعتداءات إذا اقتضت الحال، وطلب إليه بإلحاح بذل إمكانياته لإتمام الالتزامات التي نصّت عليها الاتفاقية. وإذا حدث وفسخت اتفاقية باريس، فتعود مسؤولية ذلك دون جدال على هانوي. فأوضح تيو، ان المانع الرئيسي الذي يحول دون اجتماع المجلس الوطني للمصالحة، والوفاق، الذي نصّت عليه الاتفاقية، ان المانع هو رفض هانوي الإعداد لانتخابات يشرف عليها ذاك المجلس. ان المعركة السياسية، التي كان يلحّ عليها بعضهم في الولايات المتحدة خلال

الحرب، لن تجريها هانوي أبداً في زمن السلم، ولن تخاطر أبداً باجراء انتخابات لا تقبل بها في بلادها.

وفي اليوم الثاني من المباحثات، وكان مخصصاً لبحث تقديم عون لفيتنام الجنوبية، جرت فيه الأمور على غير حقيقتها، لأن المشتركين في المباحثات من الأمريكان كانوا على علم ان الكونغرس، لم يكن مستعداً لمنح أيّة معونة حتى ولو خصّصت لتنمية اقتصادية. ومع ذلك فقد بيّن تيو في البيان الختامي الذي صدر في نهاية الاجتماعات، انه حصل على وعود تُلزِم الحليفين بالبقاء في يقظة تامّة تخوّفاً من امكانية استعادة الاعتداءات الشيوعية، لا سيما بعد رحيل القوات البّرية الأمريكية من فيتنام الجنوبية. أضف إلى ذلك، فان الأعمال التي تعرّض بنود الاتفاقية للخطر، تستدعي ردود فعل من قسوة خاصّة، تبيّن نيّة نيكسون الأكيدة على تنفيذ بنود الاتفاقية.

وعندما غادر تيو سان كليمانت، لم تؤثر على بشاشته بشيء تلك الأجوبة الغامضة على أسئلة طُرحت حول الاقتصاد. وبعد إقلاع طائرته، عبّ الشمبانيا ليدلّل على سروره وارتياحه للمباحثات التي أجراها مع نيكسون. وعلى الرغم ممّا ألفه من عدم الثقة، ومن حدسه بتجميع صعوبات قادمة مستقبلاً، وعلى الرغم من تردّدنا أمام ما تقوم به هانوي من مخالفات، وعدم تقريرنا لعون اقتصادي لبلاده، على الرغم من كل ذلك، كان على ثقة لا تتزعزع، بأننا سوف نقوم بنصرته ونصرة بلاده فيتنام الجنوبية، في وقت الأزمات. ثقة دعمها حلفاء الولايات المتحدة، هذه الثقة التي شكلت ولا تزال ورقتنا الرابحة في العالم، وعزمنا على عدم إضاعتها.

❑ ❑ ❑

كانت إحدى أهم اهتماماتنا في تلك الفترة، إيجاد طريقة ناجحة للردّ وبقوّة على مخالفات هانوي دون تدمير المعاهدة بكاملها. وكنا على استعداد لزعزعة هانوي، لكننا كنا لا نحبّذ حرباً معلنة. وحسب رأينا، كل ردّ فعل سريع، يؤدي حتماً إلى توقّف طويل الأمد، يُجبّر الفريقان أثناءه على الدخول في معركة سياسية، أكثر ممّا هي عسكرية. وهناك سبب آخر يدعو إلى سرعة العمل. كنت علمت أن البنتاغون يعدّ العدّة لسحب قواتنا الجوّية من الجنوب الشرقي لآسيا، بوقت أسرع ممّا كنت أتوقّعه. وكما بيّنت ذلك في السابق، كانت وزارة الدفاع، تحتفظ بسرّية قراراتها التي تتخذها حول الموازنة وباستقلالية رهيبة، فلا ننتبه إلاّ وقد انتهى الأمر.

وجاءت الأيام اللاحقة لتؤكد وتثبت تحليلاتنا حول موضوع خروقات هانوي لاتفاقية، باريس، ففي أواخر شهر شباط. وعلى الرغم ممّا جرى الاتفاق عليه خلال زيارتي القصيرة لهانوي، من حيث شمولها بوقف إطلاق النار فإن الباتيت لاو، العميل اللاوسي لهانوي، كان يتابع ما أسماه رئيس مجلس الوزراء سوفانا فوما "هجوماً عاماً". ففي اليوم الأول من الهدنة، قام الشيوعيون بخرقها تسعة وعشرين مّرة على الأقل. فطلب منا سوفانا أن نتدخل فنرسل قاذفاتنا (B52) لمهاجمتهم. ولم يحادثني الرئيس بذلك إلاّ في الثاني والعشرين من شهر شباط، وكان متردّداً وفي الوقت ذاته، كان يخشى أن تتخذ ذلك هانوي ذريعة لتأجيل الإفراج عن أسرى الحرب من الأمريكان. وأبديت رأيي، في أن هذا الإفراج، الذي نطالب به بإلحاح، لا يمكن رفض قبوله، إلا إذا عزمت فيتنام الشمالية على المجابهة لأسباب أخرى. فأصدر نيكسون أمراً فورياً بالقصف، من قبل القاذفات (B52) فانصاعت لاوس وقبلت بوقف إطلاق النار، خلال ثمان وأربعين ساعة.

وكانت المواجهة الثانية قد جرت بشأن أسرى الحرب من الأمريكان، عندما لم

تقدم هانوي في السادس والعشرين من شباط لائحة اسمية بمن كان يجب الإفراج عنهم في اليوم التالي. ولم تعطِ تفسيراً لما أقدمت عليه، لكننا بدورنا، أوّ لنا ذلك بأن هذا الإفراج له علاقة بإطلاق سراح موقوفيها السياسييّن لدى سايغون، علماً بأننا قد أمضينا عدة أسابيع من المحادثات لتلافي هذه العلاقة. وجرى هذا الشيء تقريباً فيما كانت واشنطن وسايغون تعترضان على إقامة ثلاث قواعد صواريخ أرض جو /سام ٢٠/ في كي ـ سان، وفي إقامتها خرق لوقف إطلاق النار.

لقد كان ردّنا قاسياً جداً: وقف انسحاب القوات الأمريكية، والعودة إلى لغم موانئ فيتنام الشمالية. ورفض وزير الخارجية روجرز، حضور اجتماعات المؤتمر الدولي في باريس، وإرسال مذكرة جافة جداً إلى هانوي لإبلاغها ما ننوي عمله، أضف إلى ذلك، فإن المكلف بالشؤون الصحافية في البيت الأبيض، رونالد زيغلر، كُلّف أن يقرأ، خلال مؤتمره الإعلامي، بياناً قوياً، يؤكد أن الإفراج عن الأسرى الأمريكان، هو التزام من قبل فيتنام الشمالية، غير مشروط، ولا علاقة له بغيره من الأوضاع، مهما يكن أمرها. وفي اليوم التالي بيّنت لزييغلر ثقتي التامّة بجدوى هذه الضغوط (خلال محادثة صريحة معه، أوضحت له فيها وبجلاء عن نيتيّ بترك الحكومة).

"خلال عام يمضي، حيث لن أكون هنا، سيلزموننا على التأهب للعمل. ولا قيمة الآن لما يجري، لكنهم سيصبحون خلال عام نموراً، أنهم غير مستعدّين حالياً". فأفرج عن الأسرى، كما كان متوقعاً.

غير أن هذا لم يكن سوى حلقة جزئية، من حلقات أزمة حقيقية، أعني تسلّلاً ضخماً من الرجال والعتاد الحربي، خلال لاوس وكمبوديا والمنطقة المجرّدة من السلاح، خرقاً تقريبياً لكافة أوضاع الهدنة. فقدّر شليسنجر، أن هانوي بهذه

الطريقة ستصبح في الخريف، قويّة في الجنوب، أكثر ممّا كانت عليه، عند بدء هجوم عام ١٩٧٢. وخصّص فريق عمل واشنطن الخاص W. S. A. G. عدة اجتماعات لهذا الموضوع، وقررّ كتدبير أوّلي، تصعيد الاعتراضات، ضدّ هانوي، مع التهديد بانتقام قاسٍ. وأرسلت مذكرات في الرابع، والسادس، والرابع عشر، والخامس عشر من شهر آذار لعام ١٩٧٣.

وفي الثامن من شهر آذار، حذّرت سفير الاتحاد السوفيتي، أناتولي دوبرينين، وأكدّت له أن متابعة السوفيت لتوريد العتاد العسكري، ستعتبر عملاً غير ودّي، وسيكون لأي هجوم من قبل هانوي، نتائج خطيرة بالنسبة للعلاقات الأمريكية السوفيتية.

وظهر دوبرينين على مستوى القضيّة. ولم يَنسُب شيئاً من كل هذا إلى الاتحاد السوفيتي. مؤكداً معلوماتنا إماً غير صحيحة أو زائدة عن حدّها. أضف إلى ذلك فقد لمحّ وبلباقته المعهودة، إلى أن هؤلاء الصينيين المخادعين هم بالطبع مسؤولون عن تدفق العتاد العسكري المتتابع إلى فيتنام الشمالية. وأكّد لي، بلهجة جادّة أن عدّة مئات من الدبّابات، وبعض قطارات التموين، قد اختفت جميعها أثناء الحرب عند مرورها بالأراضي الصينيّة. إن الكرملين كان على اقتناع، أن العتاد الحربي السوفيتي، الذي يشار إلى وجوده في فيتنام الشمالية، قد أدخلته بكين، من خلال ما تبذله من جهود مستميته، لإعاقة كلِ تقليص لسياقات التوتر الموجود بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. ثم أضاف أنه سيبحث الموضوع مع بريجنيف أثناء الزيارة التي يجب عليه القيام بها إلى موسكو (بعد ثمانية أسابيع) وعلى كل حال، لم نكن لنأمل مساعدة قيّمة من قبل السوفيت. فقمنا بدورنا بإرسال تحذير إلى الصينيين وكان جوابهم غامضاً.

وفي الثالث عشر من شهر آذار، عقد فريق عمل واشنطن الخاص اجتماعاً لدراسة هذا الموضوع، وتوصل إلى الآتي:

"أننا لن نسمح للعدو، مهما تكن الظروف، أن يقوم بهجوم كاسح هذا العام. وسنتخذ جميع الاحتياطات في سبيل تطبيق بنود الاتفاقية، وسنعلن للملأ عن المخالفات المستمرة. ولن تصدر الصحافة أيّ بيان ينتقص من قيمتها.

"إن الخيار العسكري المفضّل، هو استعادة قصف طريق لاوس، حالما تسمح الظروف ولا سيما بعد المرحلة الثالثة من الإفراج عن أسرى الحرب، وربما أتبعت بقضيّة المنطقة المجردّة من السلاح، والمنطقة الواقعة بين هذه وبين خطوط تموين فيتنام الجنوبية، إذا اقتضت الحال. وسيتخذ الرئيس القرار الأخير حول جميع هذه الأمور.

لكن هذا الأخير، أي الرئيس، كان في وضع مربك، لم يشاهد مثله قط. ويصعب عليه فعلاً اتخاذ قرار له أهميّته وهو مغتاظ. وطريقته العادية، هي أن يعود بذاكرته إلى الوراء، مستعيداً حلقة كبيرة من المعضلات التي واجهها خلال ولايته الأولى، فكانت تؤدي به جميع هذه التطوّرات وبكل تأكيد إلى الجزم بأمره. أن كل واحدة من المحادثات الضرورية، ومهما تظهر طويلة، كانت تقوده تدريجياً، وربما بشكل خفي، إلى توضيح المشاكل الماثلة أمامه. وكان يتحمّس تدريجياً، ثم يتأثر كلياً إلى حدّ تتلاقى فيه استعداداته الفكرية والنفسّية فتتعاون على إبراز الفرار المطلوب. كنت أحياناً ألم بالقضيّة أسرع منه، لكنه كان مطبوعاً على الثقة بنفسه في سبيل إيجاد طريقة أدق وقراره الأخير يضع حداً لكل تردّد، لكي يتمكن من الوصول إلى لبّ القضية.

لكني لاحظت في شهر آذار من عام ١٩٧٣، أني أمام نيكسون آخر، إذ أنه

أخذ يعالج الأمور بطريقة مفككة وغريبة. فكان يعالجها سطحياً، دون التدقيق بحقائقها كما تميّز به من ذي قبل، أنه لا يزال كما كان عليه، زد على ذلك، فإنه هذه المرة ينتحل الأعذار لعدم إقدامه على حلحلة الأمور، ونحن على إطلاع أن فضيحة واترغيت تقترب من الانفجار في شهر آذار، ونحو أواخر شهر شباط، اختلى ساعات طويلة مع مجلس البيت الأبيض القضائي، في حين أن جون دين، كان يسعى لإيجاد استراتيجية، تمكن من مواجهة لجنة مجلس الشيوخ المعينة حديثاً لإجراء تحقيقات، برئاسة سام ايروين، والتي كانت تبدي اهتماماً شديداً لشهادات اللجنة القضائية حول تعيين باتريك غراي مديراً دائماً لمكتب المباحث الاتحادي ـ FBI ـ وفي السابع والعشرين من شهر شباط، أعلمه دين، أن القضية مربكة وليس لها من حلّ نهائي. وهذا الخبر بالإضافة إلى ما سبقه أوقع نيكسون في ضيق شديد. فأمر في السادس من شهر آذار بقصف طريق هو شي مين طيلة يوم كامل في نهاية الأسبوع التالي. وكانت الشاحنات العسكرية تتلاحق على هذه الطريق، ممّا يشير إلى وقوع أضرار كبيرة فيما إذا جرى القصف. لكنه ألغى أمره هذا في اليوم التالي الموافق للسابع من آذار، وذريعته في ذلك، عدم السماح لفيتنام الشمالية، باتخاذ القصف حجّة حتى لا تخلي عن مجموعة جديدة من أسرى الحرب الأمريكان. وأنا من جهتي أشك في أن يكون هذا هو السبب الحقيقي وراء ذلك الإلغاء. لكن غراي الذي ضايقه تحقيق مكتب المباحث الاتحادي حول فضيحة واترغيت، أخذ يحرج موقف دين والبيت الأبيض أكثر من ذي قبل. وكانت اللجنة القضائية تطالب بمثول دين أمامها، على الرغم من أن الرئيس كان يستثنيه من التنفيذ، وعلى كل حال كان رأي الرئيس نيكسون عدم إضافة متاعب على قضية الهند الصينية، بالإضافة إلى ما يعصف بالبلاد من مضيقات تراكمية.

فقدمت له مذكرة في الرابع عشر من شهر آذار، مؤكداً عليه بقبول توصيات فريق عمل واشنطن الخاص ـ Wsag ـ حول غارة جوية. وأوجزت له في هذه المذكرة، ما سوف تكون عليه تحركات زعماء فيتنام الشمالية:

"إنهم مطمئنون إلى عدم قيامنا بأي هجوم ضدّهم، طالما يحتجزون أسرى حرب أمريكيين، وهم يتدارسون مدى صبرنا وتحملنا، فيما إذا استعادوا عملياتهم الهجومية، حالما تنتهي تشكيلات قواتهم مجدداً. ومهما تكن أهدافهم علينا استنفاد جميع إمكاناتنا الدبلوماسية غير مهملين، إعداد المخططات العسكرية اللازمة، لتدارك جميع الأخطار المتوقّع حدوثها.

"إن خطوط تموين الفيتناميين الشماليين مكشوفة على طول طريق هو شي مين، في الضواحي القريبة من لاوس، وفي المناطق التي تطالها أسلحة فيتنام الجنوبية. وفي الحالتين فإنهم على استعداد دائم وضخم، وكثافة تسيير سياراتهم يبطيء سيرها، وهم مطمئنون إلى عدم مهاجمتهم جواً. هذا وأن سلسلة من الهجمات الجوية المكثفة، على فترة يومين أو ثلاثة، في هذه المنطقة أو تلك من المناطق آنفة الذكر، سوف تكلفّهم غالياً في الرجال والعتاد".

إن مستقبل اتفاقية باريس، يتوقف فعلاً، على تأثير مفاجأة مثل هذه، لإجبارهم على احترامها.

"إن غارة جوية توضح بجلاء عدم تساهلنا في متابعة خرق بنود الاتفاقية، وإننا عازمون وبشكل قاطع على مقاومة كل مخالفة مهما يكن نوعها. وإن ردّ فعل أمريكي من هذا النوع، هو الذي حمل دون شك، الفيتناميين الشماليين، في الثامن من شهر أيّار عام ١٩٧٢، ومرة ثانية في شهر كانون الأول لعام ١٩٧٢، على إعادة النظر في

الخطة التي كانوا يعتزمون سلوكها حينذاك. وإذا اعتقدوا أننا لن نتصدّى لهم، وأننا غير حازمين أمرنا على إيقاف مخالفاتهم، فإن هذا يعني تشجيعهم على ارتكاب مخالفات أكثر بل أخطر. وإذا أقدمنا على ردود فعل زاجرة، فإننا نظهر لهم الثمن الباهظ الذي يعرّضون أنفسهم لتحمله حال اقتراف أيّة مخالفة لتلك الاتفاقية، وإني معتقد، إذا لم نقم بردود فعل، فإن الاتفاقية ستنهار، لعدم قيامنا بردود الفعل هذه، وفي هذه الحال، ستكون الاحتجاجات شديدة".

وفي سبيل الردّ، على قلق نيكسون حول أسرى الحرب، فقد رجوته إصدار أمر بالهجوم من الرابع حتى السادس والعشرين من شهر آذار، بعد الإفراج عن المجموعة الثالثة، وقبل الإفراج عن المجموعة الرابعة حتماً.

كانت أجوبة هانوي على احتجاجاتنا، لا تخلو من الغطرسة، وكانت تتطلب حسب رأيي ردّاً عنيفاً، وإلاّ فإن اتفاقية باريس معرضة للتفكك، كان الفيتناميون الشماليون، يكررون تفسيرهم القديم للمادة العشرين من الاتفاقية:

إن انسحاب قواتهم من لاوس وكمبوديا. يخضع لتسوية سياسية، تقابل بحد ذاتها، إشرافاً شيوعياً. وكانوا ينكرون، ويرفضون كل دليل نقدمه على تسلل شرذمات من جيشهم، مبرهنين بطريقتهم العنيدة، إلى عدم وجود شيء من هذا، طالما أن نقاط المراقبة التي حددتها الاتفاقية، لم تضبط مرور أي عتاد عسكري. وعلى أية حال، فإن الولايات المتحدة، لم تكن تملك حق إثارة مثل هذه المشكلة، التي كانت من اختصاص لجنة المراقبة الدولية.

وفي معظم الأزمات، تكون الغلبة دوماً إلى جانب من يستخدم الجرأة. ولقد برهنت لي التجارب، أن تصعيد الأعداء للمخاطر باستمرار، يوصلهم أحياناً، إلى وضع لا يستطيعون معه تمالك خطواتهم، التي ربما توصلهم إلى مهالك لم

يقدروها. وأن هانوي كانت تعتبر التوقف عن الإفراج عن أسرى الحرب الأمريكيين، لابدّ وأن يوقف تنفيذنا لكل البنود الأخرى من الاتفاقية، مثل الكف عن لغم الموانئ، وسحب القوات، والمعونة الاقتصادية، وربما أدى ذلك إلى إجراءات انتقامية أشد عنفاً، وهذه المرة ضد فيتنام الشمالية، كما أشرت في مذكرتي.

"إذا قمنا بإجراءات انتقامية مباشرة بعد الإفراج الثالث عن أسرى الحرب الذي سينتهي في نهاية هذا الأسبوع، فإن هذا سيقلل من مدّة ما يتبعه في المرات القادمة، وسيمضي أسبوعان قبل أن يتم الإفراج الأخير، ولدينا الوقت الكافي بعد القيام بغارات انتقامية، لتسوية أمورنا من حيث إخلاء سبيل أسرانا وتحديد وقت لانسحاب جيوشنا. وفي غضون ذلك، سنعلق كل الإنسحابات لتكون وسيلة ضغط للتمكن من الوصول إلى الإفراج الأخير".

وعلى الرغم من كل هذا، فقد أجل الرئيس كل هذه الشؤون، متذرعاً بإعداد خطط جديدة، وكان في الوقت ذاته يردّد على مسامعي، أنه شديد الاهتمام بالإفراج عن أسرى الحرب. ووجّه إنذاراً إلى هانوي في الخامس عشر من شهر آذار، أثناء المؤتمر الصحفي الذي كان يعقده، ومكثت في أكابلكو، من السابع عشر حتى السادس والعشرين من شهر آذار، لأخذ قسط من الاستجمام، وخلال هذه الفترة، أخذ القناع الذي كانت تتستر من ورائه، فضيحة واترغيت، بالتمزق شيئاً فشيئاً، وازداد نيكسون في تردّده، لاسيما في التاسع عشر من شهر آذار، عندما قدم السفير ماك مورتري غودلاي، من فيانتيان إلى البيت الأبيض، ملاحظاته حول التاريخ المحدّد للقصف المقترح لأراضي فيتنام الشمالية. إن القصف سيعرض دون شك للخطر تشكيل حكومة الائتلاف المنتظرة في لاوس، (والتي لم تظهر لحيز الوجود إلاّ في السنة التالية). وواجه رئيس الوزراء، سوفانا فوما بعض

الصعوبات، لإقرار ما كنا ننوي عمله. وعندما أبلغت هذه المذكرة، كلفت معاوني، الجنرال برانت سكاوكروفت، الذي عيّن بديلاً لهيغ، بإيصال ملاحظات غودلاي إلى الرئيس، وقد أبلغته ذلك برقياً وبصورة رسمية، مبيناً، له:

"أريد أن تبحث مع الرئيس، قضيّة القيام، بغارات جويّة على لاوس. إني اعتقد أن ملاحظات غودلاي صحيحة، من حيث تعريض المفاوضات مع لاوس إلى الخطر. علماً أن التقديرات التي اتفقنا عليها في الأسبوع الأخير، لم يتغيّر منها شيء، ولا اعتقد أبداً، أن ما تنوي فيتنام الشمالية اتخاذه من قرارات، له علاقة بسلسلة واحدة من الغارات. وهناك خطر آخر يعترض طريقنا، وهو إمكانية تأجيلهم الإفراج عن أسرى الحرب، وهناك أيضاً رأي معاكس ومحتمل، أنهم سوف يكشرون عن أنيابهم في الخريف المقبل".

"أطلب إليك أن تناقش شخصياً هذه القضيّة مع الرئيس، الذي يعود إليه الرأي الأخير في اتخاذ القرار المناسب. وأؤكد وجوب إطلاعه على ما جاء في ملاحظات غودلاي، ومهما تكن الحال، علينا ألاّ نقدم على أي إجراء قبل مساء الخميس الواقع في الثاني والعشرين من شهر آذار. وأوصي وبكل ثقة أن نبادر بالهجوم في هذا الوقت".

ونقل إليّ سكاوكروفت، في العشرين من شهر آذار، انطباعاته عن الغموض الذي يلفّ الرئيس. لقد تحاشى نيكسون اتخاذ قرار، بل عكف على التفكير بالنتائج السياسية السيّئة، التي ربّما تنتج عنه. ثم بيّن في الحادي والعشرين منه أنه يفضّل تأجيل انسحاب قواتنا، على قصف المواقع، وأتبع بيانه هذا بأن أصدر أمراً بغارة جويّة، شريطة أن تكون نتائجها حسنة ولصالحنا، شرط لا يمكن تحقيقه في غارة جويّة واحدة.

وفي اليوم ذاته، جاء جون دين، وباحث الرئيس، كاشفاً له أن جون ميتشيل وشارل كولسون، وجيب ستيوارت ما غرادار، وهربرت كالمباش، وآخرون غيرهم، لم يكونوا الوحيدين المشتركين في هذه المشكلة. ثم صارحه بصدق أن الرئيس له مشكلته أيضاً: "أن سرطاناً أخذ بالانتشار والعبث بشؤون الرئاسة". فتجاهلت كل ما كان يجري حولي، وجميع هذه الضغوط، وبيّنت موقفي في الحادي والعشرين من شهر آذار، فقلت:

"هناك رأي أساسي، تجاه البدء بغارات في هذه الفترة، وهو إفهام فيتنام الشمالية، فيا إذا أجبرنا أن ندافع عن الاتفاقية، أننا نستطيع الإقدام على إجراءات غير منتظرة. وإذا كانت فيتنام الشمالية تعتقد أننا لن نقوم بشيء، إذا أفرجت عن أسرى الحرب، فإننا نتوقع دون ريب أن تقوم هي بهجوم عنيف حتى آخر هذا العام. وفي حال نجاح هذا الهجوم، فإن كل الذين عارضوا الرئيس في مبادراته، تجب محاسبتهم، وتصبح قواعد سياسته متاكلة. وإني لا أزال على رأيي، من أن أحد الأهداف الأساسية لسياستنا الخارجية هو كسب أكبر وقت ممكن، قبل أن تستعيد فيتنام الشمالية أعمالها العدوانية".

وفي اليوم ذاته، ناقش نيكسون سكاوكروفت مرّة أخرى، حول منفعة وتوقيت مخطّطنا، وكلّفه، مباحثتي بالموضوع مجدداً. ولا مجال للشك في أني لم أستطع إعطاءه الجواب الذي يتوخّاه. غير أني بينّت رأيي في الثاني والعشرين من شهر آذار فقلت:

"إن للعمليّة فرصة إحداث أضرار عظيمة، ولو كنّا لا نستطيع البتّ في ذلك وإذا لم يُرد على قصفنا، يعتبر ذلك دليل ضعف من جانبهم، لكني لا أستطيع

الجزم بالمبادرة التي سيردون بها. ولا أزال أصرّ على رأيي الأساسي، الذي يشابه إلى حدّ ما لموقفي تجاه الوضع الكوري في بداية عام ١٩٦٩. ليست هناك حاجة ملحة تدعونا إلى البدء بالقصف، لكن تقصيرنا برد الفعل اليوم، سيكلفنّا غالياً في المستقبل".

أصيب نيكسون في الصميم وتأثّر كثيراً، من التلميح إلى حادث إسقاط قاذفة القنابل Ec-121 الأمر الذي أعاده إلى وضعه الطبيعي: في الظهور بمظهر القوّة أكثر من مستشاريه. فأصدر أمراً بغارة جويّة طوال يوم كامل على طريق هو شي مين، وهذا حسب رأيه يعوّضنا عن كلّ إجحاف لحق بنا. كانت العمليّة جد قصيرة، لضمان جدواها، وواضحة جداً، وسريعة ومفاجئة، لتعطي ما نتوقعه من تأثير نفسي على هانوي. لكني فوجئت بهذا الأمر الصادر عن نيكسون، وأوصيت بتأجيل العمل به، ريثما تتاح لنا مناقشته لدى عودتي من أكابلكو، وبمقولة أخرى، بعد الإفراج الكامل عن أسرانا.

وتلاحقت تحذيراتنا، لأننا كنا على ثقة، في أن ما سوف نقدم عليه من إجراءات انتقامية، لن تؤثر كثيراً على علاقاتنا مع الاتحاد السوفيتي. وفي الثالث والعشرين من شهر آذار، قدّم لي دوبرينين تأكيدات لها قيمتها الرسمية، أن موسكو قد أوقفت إرسال الأسلحة إلى هانوي بعد التوقيع على اتفاقية باريس، وأوضح مجدداً أن التجهيزات السوفيتية، الواردة إلى فيتنام الشمالية، هي تلك التي تخلف إرسالها سابقاً، عندما أرسلت عن طريق الصين. وبالنسبة للعمليات الانتقامية، فإن الكرملين يأمل وبكل بساطة، ألا تتجه الأمور بهذا الاتجاه. وهذه صيغة ملطّفة، حتى لا تُثير لدينا أدنى اهتمام.

وعندما خاطب نيكسون الشعب في التاسع والعشرين من شهر آذار، لإعلامه

عن عودة ما بقي لنا من أسرى حرب، وجّه في الوقت ذاته، تحذيراً قويا، إلى زعماء فيتنام الشمالية، وبيّن لهم وجوب عدم التشكّك بما يتوجّب من نتائج، في حال عدم تقيدهم ببنود الاتفاقية".

وأعاد هذا التحذير، ناطقون بلسان الحكومة آخرون. وجرى في الثالث من شهر نيسان الحديث التالي، بين وزير الدفاع ، اليوت ريشاردسون، وصحفيين، بدؤوا بسؤاله قبل مثوله أمام لجنة إضافية من مجلس النواب حول موازنة الدفاع:

سؤال: السيد الوزير، ما هي الشروط، التي نستطيع بموجبها البدء بالقصف ومن ثم الأعمال الانتقامية، لنتمكن من مساندة فيتنام الجنوبية؟

ريشاردسون: ان هذا هو أحد الأسئلة، التي يستحيل الإجابة عليها بعبارات عادية. علينا انتظار ما سوف يحدث، ونرجو على الأقل ما سوف يحدث، من حيث التقيّد التام وتطبيق بنود اتفاقية وقف إطلاق النار.

سؤال: هل هناك إمكانية، للعودة الى قصف مجدّد لفيتنام الشمالية، بطريقة مباشرة، أو مساندة لجيش فيتنام الجنوبية؟

ريشاردسون: ان هذا بالحقيقة توقّع، لا نستطيع البتّ فيه حالياً.

وأرسلت الى نيكسون في الثاني من شهر نيسان، مذكرة أعرض فيها بعض ردود الفعل الممكنة، وهي «دبلوماسية وعسكرية» في آن واحد، واعطيتها عنواناً «للإطلاع» ولم تكن تستوجب اتخاذ قرار. وكان الرئيس حينئذ في سان كليمانت، يرافقه هالدمان و اهرليخمان، وهم ملاحقون من قبل لجنة إيرفن، التي كان رئيسها يهدّد بتوقيف كل العاملين في البيت الأبيض، الذين يرفضون الإدلاء بشهاداتهم علانية، فاكتفى نيكسون بالتأشير على مذكرتي هذه، ليدلّل انه قد اطّلع عليها،

وأعادها إلي دون أي تعليق على هوامشها، أو وضع خطوط تحت بعض مقاطعها، لتثبت وبشكل عادي ان وثيقة مثل هذه دُرست بعناية من قبله.

في غضون ذلك، كانت دراسات فريق عمل واشنطن WSAG، تكشف أن الفيتناميين الشماليين، وقصدهم خرق الاتفاقية، قاموا بإنشاء قاعدة كبيرة لصواريخ أرض جو، في الناحية الجنوبية من المنطقة المجرّدة من السلاح، وتحديداً في ضواحي كي سان، حيث كانوا يمارسون بعض أنشطتهم في السابق، وفي وادي آكاو، حيث كانوا يهدّدون حاضرة إمبراطورية هوّي القديمة. وكانت هيئة الأركان المشتركة، تطالب بعمليات قصف ولمدة ثلاثة أيام، لاستبعاد خطر أي هجوم جوّي، قبل أن نتمكن من مهاجمة قاعدة إمداد فيتنام في لاوس، التي كنا نعتبرها بمثابة هدفنا الأساسي والحقيقي.

وهذا ما حملنا على التأجيل مرّة أخرى. أن القيام بالقصف، خلال الجزء الأكبر من الأسبوع، يلزمنا أن نُعِدّ له أرضيته الدبلوماسية وباعتناء. وفي هذه الأثناء كانت هانوي تتابع خداعها، لتتحاشى تدخّلنا، فتظاهرت بما يمكن اعتباره مناسبة لإجراء مباحثات، لأننا استطعنا أن نفهم من خلال جواب لها على احتجاجاتنا أنها على استعداد للتباحث حول خرق الاتفاقية. وتلقّينا في السابع والعشرين من شهر آذار تلميحاً فيه بعض الغموض، بقبولها لقاءات خاصة، لإعادة النظر في الاتفاقية. وتلقينا أيضاً مذكرة أكثر وضوحاً في الثلاثين منه، تبيّن أن محادثات تجري بين الدوق تو وبيني، قادرة على وضع حلول للصعوبات القائمة، والتغلب على عوائق ربما تعترضنا في المستقبل، في سبيل تنفيذ الاتفاقية. كانت جميع المخالفات المرتكبة تُعزى إلى الولايات المتحدة وسايغون. أضف إلى ذلك، فإن هانوي كانت ترفض كل ما من شأنه أن يوصي باحترام الاتفاقية، مدّعية أنه عند انتهاء انسحاب قواتنا فإن الفيتناميين

على اختلاف طوائفهم، هم وحدهم القادرون على بحث هذه المشاكل ووضع الحلول المناسبة لها. ولقد اطلع تيو على جميع هذه المذكرات، لكن جوابنا لم يرسل إلاّ بعد مغادرته الولايات المتحدة. وكان يوضح بدون شك أن صبرنا كاد أن ينفذ:

"إن مذكرات جمهورية فيتنام الديمقراطية، تشكل إهانة، بالنسبة للحكومة الأمريكية، والشعب الأمريكي، بعد الأخذ في الحسبان، ما تقوم به هذه الجمهورية من أعمال عدائية ومخالفات، لا يستطيع أي تفسير، إيفاءها حقّها، ومجّرد إعادتها، يمنع إعادة تطبيع العلاقات، الذي تسعى إليه حكومة الولايات المتحدة".

"إن الفريق الأمريكي، يرفض وبشدّة، تأكيد هانوي، الذي تسند بموجبه كامل مسؤولية، تطبيق المادة السابعة من اتفاقية باريس (التي تبحث بتسلل الجيش) إلى الفريقين الفيتناميين. ولا مجال للشك في أن الفرقاء الأربعة، الذين وقّعوا على تلك الاتفاقية، هم جميعهم مسؤولون عن تطبيقها. أن الفريق الأمريكي يعتبر فيتنام الشمالية، المسؤولة الوحيدة، عن المخالفات المستمرة للمادة السابعة، ويشدّد على فيتنام الشمالية لتحمّل كامل المسؤولية، فتوقف تسلّل الرجال والعتاد، إلى فيتنام الجنوبية، لأنها أي فيتنام الشمالية، بعملها هذا تخالف المادة: السابعة والمادة العشرين من الاتفاقية آنفة الذكر. وبالإضافة إلى ذلك، فإن الفريق الأمريكي يطالب بإلحاح فيتنام الشمالية بحسب قواتها وبدون شروط، من لاوس وكمبوديا، كما تنص على ذلك المادة العشرون من الاتفاقية المنوّه بها. ولابدّ للفريق الأمريكي، إلاّ أن يحذّر، من أن متابعة هذه المخالفات، سيكون لها نتائج خطيرة جداً".

وكانت نهاية المذكرة، تتضمن إعلاناً آخر، باقتراح لقاء مع الدوق تو:

"ولكي نتمكن من احتواء أي عمل تخريبي جديد، يقترح الدكتور كيسنجر،

إجراء لقاء في باريس، مع المستشار الخاص، الدوق تو، في تاريخ يوافق عليه الاثنان خلال الأسبوع الأول من شهر أيار".

وكانت تعبويتنا متجهة في هذا الظرف، إلى القيام بهجوم جوي في هذا الشهر يستمّر ثلاثة أو أربعة أيام، على قواعد تموين وطريق فيتنام الشمالية في لاوس، وإذا اقتضى الأمر في المنطقة المنزوعة السلاح. وكنا نعتقد من خلال هذه القرائن، أن المفاوضات التي نتوقّع إجراءها في شهر أيار مع الدوق تو، ربما تساعدنا في تخفيف حدّة النزاعات القائمة في الولايات المتحدة، وتحمل هانوي على إظهار تعقّل أكثر في تصرّفاتها.

لكن فيتنام الشمالية، كما هي عادتها، أظهرت أن أعصابها لا تزال قادرة على الاحتمال وأنها ستغْلق طريق هو شي مين في نهاية شهر نيسان بسبب فصل الأمطار الذي يحيلها إلى مستنقع. فكانت والحالة هذه تؤجل الأمور، لمتابعة تسلّل جنودها بصورة غير شرعية. ولم تجب على مذكرتنا، إلاّ بعد مضي عشرة أيام، ثم قبلت في الخامس عشر من شهر نيسان، تحديد لقاء، في الوقت الذي نحدده، شريطة أن يعقب الخامس عشر من شهر أيار. وكان الدوق تو، يحاول تأجيل اللقاء إلى أطول وقت ممكن، لاعتقاده أننا لن نقوم بأي هجوم قبل المفاوضات. وتقديراته بهذا الشأن كانت خاطئة، لكنه استفاد مع ذلك، لا من خلال دبلوماسيته، بل لأسباب ذات ارتباط بفضيحة واترغيت، ولولا واترغيت، كنا قمنا بالإجراءات التي نريد في شهر نيسان.

ونحو أواسط شهر نيسان، كان أكثر من خمسة وثلاثين ألف فيتنامي، قد تسلّلوا إلى فيتنام الجنوبية، أو إلى المعاقل القريبة منها، كما أن الأعتدة الحربية

والتجهيزات أصبحت فائضة وأكثر أهمية عما كانت عليه قبل هجوم فصح عام ١٩٧٢. فأصبح نيكسون العادي غير قادر على احتواء غيظه، بعد أن رأى ما يحيق به من خداع، لكن نيكسون واترغيت، تابع تردّد مسيرته. إذ كان قد أرسل هيغ في الثامن من شهر نيسان، بعد أن أصبح هذا مديراً معاوناً لهيئة أركان الجيش، بمهمة استطلاعية إلى الهند الصينية لمدة خمسة أيام، وكنا قد مهّدنا في السابق لمثل هذه المهمة من خلال قرارات حازمة. ولدى عودة هيغ وتقديمه تقريره في الخامس عشر من الشهر ذاته، أي اليوم الذي وصلت فيه مذكرة هانوي" ورّط الرئيس نفسه مجدّداً، بمحاولات لا فائدة ترجى منها، سوى جعل الهجوم المنتظر دون موضوعية، لأن طريق هو شي مين أصبح غير مسلوك في فصل الأمطار. وصدر إلينا الأمر بعقد اجتماع لفريق عمل واشنطن لنتدارس معاً خياراتنا.

وأصبح نيكسون غير قادر، على تركيز نشاطه، واهتمامه نحو فيتنام، ولقد أظهرته الوثائق أنه منهمك بالاجتماعات، والمكالمات الهاتفية باستمرار، وكلها تدور حول فضيحة واترغيت. ففي الرابع عشر من شهر نيسان مثلاً، ولم نطلّع على هذا إلا الآن، أسرّ الرئيس إلى هالدمان واهرليخمان، أن صديقه القديم جون ميتشيل، سيصبح مهما يكلّف الأمر، مسؤولاً أدبياً وشرعياً عن فضيحة واترغيت.

وفي الخامس عشر من شهر نيسان ذاته، وفيما كنا نتباحث حول فيتنام، علمنا أن هنري بيترسون، الذي كان يحقّق في فضيحة واترغيت، من قبل وزارة العدل، أصرّ على نيكسون بإبعاد هالدمان واهرليخمان.

وفي حينه كنت مقتنعاً، وبينّت رأيي لإيليوت ريشاردسون، بعد بضعة أيام، أن التردّد يجعل موقفنا خطراً جداً: "والفرصة الوحيدة الماثلة أمامنا، والواجب

اغتنامها، هي منع الآخرين من تحديد الثمن الواجب دفعه في كل مرحلة". وكانت مهمتنا في اليوم التالي، إعادة النظر في الخيارات، خلال اجتماع فريق عمل واشنطن الخاص.

بالإضافة إلى التعزيزات التي كانت ترد عن طريق هو شي مين، وجدنا أنفسنا أمام هجوم جديد من قبل فيتنام الشمالية في شمال لاوس. فأوصى فريق عملنا بمهاجمة فيتنام الشمالية جواً والعودة إلى لغم موانئها، الأمر الذي نُفذ في الحال. لكن هذه القرارات المحدودة، كانت تعرّض للخطر حلّ المشكلة الأساسية، وهي الاعتداءات التي تنفّذ فعلاً على مسرح العمليات، ألا وهو فيتنام الجنوبية نفسها.

هاجمت قاذفات القنابل (B52) والطائرات المطاردة الأمريكية، أهدافاً في لاوس، بتاريخ السادس عشر من شهر نيسان، رداً على استيلاء فيتنام الشمالية على تافينغ، الواقعة في جنوب سهل الجرار. وتتابعت الغارات الجوية أيضاً في السابع عشر منه، وفي مؤتمر صحفي عقده وزير الدفاع ريشاردسون، وصف ما نقوم به أنه ردود فعل، على "خرق فاضح لوقف إطلاق النار في لاوس". ولم يتخّذ أيّ إجراء ضد التسلل الفيتنامي الذي يجري على طول طريق هو شي مين، ولا ضد التسلل الذي يجري خلال المنطقة المنزوعة السلاح، وهذا أصبح في نهاية المطاف بيت القصيد.

وتابعنا الأمور بالطرق الدبلوماسية، فأبرقنا في السابع عشر من شهر نيسان مذكرة ذات لهجة قاسية إلى الفيتناميين الشماليين، جواباً على مذكرتهم التي كانت تتصّف بالغيظ والوجوم، وردتنا في الخامس عشر منه. ووافقنا على إجراء لقاء

بيني وبين الدوق تو، على أن تسبقها جلسة تضمّ كلاً من نائب وزير الشؤون الخارجية في هانوي، نغويان كوتاش، ومعاون وزير الخارجية وليم سولّيفان.

وعقد اجتماع آخر لفريق عمل واشنطن الخاص في السابع عشر من شهر نيسان. وكانت هيئة الأركان المشتركة، تؤكد عدم إمكانية مهاجمة طريق هو شي مين، في الجهة الجنوبية من لاوس وهو الجزء الوحيد المستخدم كثيراً، بسبب اقتراب فصل الأمطار، إذا لم تكن قد دمّرت سلفاً قواعد الصواريخ أرض جو الشيوعية الموضوعة في جنوب المنطقة المنزوعة السلاح.

مدّد الجيش إذاً، وللمرة الثانية، مدة العمليات، لأنها تتطلّب سبعة أيام كاملة من القصف المستمر، وكان هذا منعطفاً جديداً. ولقد أصبت بخيبة أمل شديدة قبل ثلاثة أيام، عندما أعلمني ليونارد غارمات، أن فضيحة واترغيت، ربما شملت الرئيس نفسه، ولقد صُعقت، عندما تكشّف لي وبكل جلاء ولأول مرة، أن موجة هذه الصدمات، قد تتضاعف وتنفذ إلى قلب مؤسّستنا وتدمرّ كل نفوذها.

أخذت استراتيجيتنا تتعسّر، فقد اتضح لنا، أننا لم نكن بمستوى تنفيذ الجزء العسكري من مخطّطنا المبدئي، ومن خلال هذه الشروط، فإن الالتقاء بالدوق تو، سيكون له تفسير مختلف جداً. أطلعت نيكسون في الحادي والعشرين من شهر نيسان على مذكرة هانوي، ومجلس الأمن القومي، الذي كان مدعواً للاجتماع في السادس والعشرين من شهر نيسان، لم تبق هناك حاجة لاجتماعه. وعلى كل حال، فإن النتيجة معروفة سلفاً، ما دامت مشكلة واترغيت قائمة. وأوضحت لنيكسون مع قليل من الامتعاض، بأن لا قدرة لنا على وضع مخططاتنا موضع التنفيذ، وأردفت قائلاً: "لولا ما نحن فيه من وضع داخلي مربك، فإن أسبوع قصف كافٍ، لحمل هانوي على تنفيذ بنود الاتفاقية. وأكدت له أن النقص

في إجراء الاتصالات، قد وصل إلى حد الكمال. ثم قلت "إذا كانت هناك ثمة حسنات لواترغيت فهي أنها ترفض القيام بقصف لاوس. فأجاب نيكسون بعد أن استجمع قواه وعاد إلى ذكرياته، وأنا أرفض حتى عشرة في المائة من التضخم بالإضافة إلى ما سبق. وفي الثالث والعشرين من شهر نيسان، أصبح الرئيس على غير استعداد لإصدار أوامر بالقيام، بأي إجراء انتقامي، فقلت حينئذ لهيغ:

"إن مشكلتي، هي عدم معرفتي العمل مهما تكن الحال، وفي مثل هذا الجو. وما أريد قوله: لنفرض أننا بدأنا بالقصف، فإن هذا سوف يبلور كل المعارضة البرلمانية. وإني لواثق، أن لولا هذا الارتباك السياسي، لأعدناهم إلى النقطة التي انطلقوا منها.

وتهلهلت إذاً استراتيجيتنا تجاه فيتنام، في أواخر عام ١٩٧٣. ونظراً لمخالفات فيتنام الشمالية الفظيعة، ونظراً لما أورده أسرى الحرب العائدون، من أخبار رهيبة، فقد ألغى الكونغرس جميع الوعود التي قطعت بتقديم عون اقتصادي إلى هانوي، وهذا الإجراء كان معقولاً. والتعديل الذي كان يطالب به بيرد، يمنع أية معونة، مباشرة كانت أو غير مباشرة، دون مصادقة الكونغرس الفعلية. وبعد طرح التعديل المطلوب على التصويت، فاز بثمانٍ وثمانين صوتاً مقابل ثلاثة أصوات. وبالنتيجة فإن شللنا الداخلي أضاع من أيدينا فرصة كنا نتمكن فيها من قصف هانوي. والكونغرس عازم وبكل تأكيد على إصدار قانون في شهر حزيران، يمنع أي إجراء انتقامي عسكري. والضعف الذي أحدثته واترغيت داخل الحكومة، سدّ بوجهنا تلك الفتحة التي استخدمناها، طوال بضعة شهور في بداية عام ١٩٧٣.

❑ ❑ ❑

ذهبت الى باريس، وأنا عازم على إجراء مفاوضات منظمة مع الدوق تو، استمرّت مدة طويلة، وكانت تجري في أوقات متفاوتة، من السابع عشر من شهر أيار، حتى الثالث عشر من شهر حزيران. تضاعف التشاؤم خلالها، لا سيما عندما استلمت وأنا في طريقي إلى باريس، وثيقة صادرة عن الأجهزة السرّية، وهي عبارة عن تقرير صادر عن فيتنام الشمالية، يعيد إلى الأذهان، تلك التعليمات التي أعطاها زعماء الفيت كونغ إلى تابعيهم، وهو يؤكد في الوقت ذاته، ما كنّا نُلّم به من حيث استعدادات هانوي بشأن القيام بهجوم عام.

لكن التقرير يؤكد ان هذا الهجوم قد أجّل، لإتاحة الفرصة لواترغيت، لإنجاز ما يدور بخلد منشئيها من شلّ الرئاسة، وإرباك حليفتنا فيتنام الجنوبية. وكان يستبق الحوادث فيتوقّع وبشكل حتمي ان الرئيس الجريح، لن يملك بعد السلطة، التي تخوّله إصدار أوامر باجراءات انتقامية، عند خرق الاتفاقية.

(لقد أثبتت التحقيقات الدائرة، حول فضيحة واترغيت، ان الانتخابات الرئاسية الأمريكية الأخيرة، كانت احتيالية، وهناك العديد من ملاك موظفي البيت الأبيض، تقدموا بإستقالاتهم. وفي الحالة الطبيعية، يجب على الرئيس نيكسون، تقديم استقالته أيضاً، لأنه لم تبق له هيئة اعتبارية تمكنّه من حكم وادراة دفّة سياسة الولايات المتحدة. ان إضعاف هيبته ونفوذه على الحكومة الأمريكية، يؤثر كثيراً على معنويات جبهة التحرير القوميّة F. N. L ويؤدي إلى اتباع سياسة أمريكيّة جديدة في الهند الصينيّة. وفيما إذا بقي الرئيس نيكسون في وضعه، فلن يتمكن بعد من إتخاذ إجراءات قمعيّة، مثل غارات جويّة، وقصف مواقع فيتنام الشمالية أو الجنوبية، لأن الكونغرس والشعب الامريكي بكامله، سوف يعارضانه وبعنف).

وكما هو دأبها، فان هانوي كانت تزامن ما تنوي عمله مع سياستنا الداخلية،

تماماً كما كانت تفعل، طول سنوات المفاوضات بشأن الصلح. وأثبتت الأحداث صحّة ما كانت ترمي إليه. ان الاجراءات المنوي اتخاذها ضد الحرب، والتي اعتاد مجلس النواب على تجميدها، عادت إلى الظهور، بدءاً من أول شهر أيّار. ففي العاشر منه مثلاً، صوّت مجلس النواب بمائتين وتسعة عشر صوتاً، ضدّ مائة وثمانية وثمانين، على إلغاء الأموال المرصودة لقصف كمبوديا. وفي الحادي والثلاثين منه، تبعه مجلس الشيوخ، فصوّت بثلاثة وستّين صوتا ضد تسعة عشر. ولم يساند الرئيس، سوى ثلاثة أعضاء ديمقراطيين من مجلس الشيوخ وهم، جيمس ايستلاند، هارّي جاكسون وروسّل لونغ، واقتدى بهم فقط ستة عشر عضواً جمهورياً. وانضم عشرون من الأعضاء الجمهوريين، إلى ثلاثة وأربعين من الديمقراطيين، في التصويت إلى جانب الإلغاء.

فلماذا بدأت حكومة نيكسون، في خسارة، ما كانت فازت به من تصويت خلال السنوات الأربع السابقة؟ إلى حدّ ما، لأن معظم الأمريكيين كانوا يعتبرون اتفاقية باريس مرادفة لكلمة «سلام». فكانت تدلّل على وجوب التخلّي عن الالتزامات التي قطعناها على نفوسنا تجاه هذا النزاع. وبعبارة أوضح، فان حجّة الرئيس في ذلك، والتي استخدمت حتى الآن وكانت نافذة، أخذت تفقد مفعولها بعد انسحاب قواتنا، لأنها كانت توصي باتخاذ اجراءات عسكرية لحماية قواتنا، ما دامت قواتنا قد عادت، فلم تبقَ حاجة بعد لتلك الاجراءات. غير ان نيكسون كان يستطيع فقط عرض هذه الأمور على الشعب الأمريكي، وإقناعه بعدم التخلّي عن مبادئ، حافظ على بقائها خمسون ألف أمريكي بدمائهم.

ان نيكسون الذي أعيد انتخابه، بأكثرية ساحقة تاريخية، كان قادراً على ربح المعركة، كما جرى سابقاً، لكن الرئيس الذي وقع في الشرك، وغاص في أوحال واترغيت لم تبقَ لديه القدرة السياسية اللازمة، وهذه الإمكانية غير واردة.

لو استطاعت هانوي أن تتسلّل إلى قلب اجتماعاتنا في مؤتمر القمّة، لاكتشفت مأزقاً إدارياً، لا يستطيع رئيس موهن القوى ومستضعف من الخروج منه، ان البيت الأبيض، وهيئة الأركان المشتركة، ومدير المخابرات المركزية الأمريكية شليسنجر، جميع هؤلاء كانوا يناصرون عملاً وقائياً سريعاً ضدّ ما يحدث من تسلّل. لكن بعض خبراء المخابرات الأمريكية المركزيّة، وبعض موظفي البنتاغون المدنيين، كانوا يشيرون بالتخلّي لفيتنام الجنوبية، عن مهمّة فرض احترام هذه الاتفاقية، وما هذه سوى طريقة تعدّ الرأي العام لقبول انهيارها، لأن كامل جيش سايغون، كان في ذلك الوقت في حالة دفاع، ولا يملك طائرات، يسمح مدى عملها بقطع طرق تموين فيتنام الشمالية. وكانت وزارة الخارجية، راغبة في التخلّي عن القضيّة بكاملها، ويطيب لها ان أصبح المسؤول الرئيسي فيها. وكانت الآراء متفرقة داخل المخابرات المركزية الأمريكية، حول ما سوف تقوم به هانوي. وبصورة مبدئية، فانها ستقوم بعمل سريع، معارضة للمكتسبات السياسية، التي يعتقد ان تيو في طريقه إلى كسبها. ومن جهة أخرى، فانها كانت تنظم قواعد انطلاق آمنة، تشن منها هجوماً في المستقبل البعيد الذي تحدّده. وكل شيء طبيعي، لأن دور أجهزة الاستخبارات، تقديم وبصورة دقيقة، الموافق والمعاكس في قضيّة ما، ومن عادتها أيضاً عرض مختلف الآراء، دون البتّ بأفضلية سياسيّة.

والمعارضة موجودة، وبصورة تقريبية، إبان الأزمات، حول إيجاد أسباب تدعو إلى التأجيل، فيغلّف التردد برداء الدبلوماسيّة، التي في حال عدم استنادها إلى شيء فلن تكون إلاّ تسويفية، وغير مجدية، ويدعو معارضوها إلى عمل وقائي سريع. وعلى وجه العموم، فان المدافعين عن السلبيّة، هم الرابحون في بدء الأزمات، لأن ما يتّخذ من قرارات، قد يؤدّي إلى الخسارة، بينما الذين يطالبون بعدم اتخاذ قرارات يبتعدون عن المعركة. ويستحيل إثبات ضرورة التدخل الوقائي، ومَن هو من رأي التدخل

التدريجي، يصبح أسير الأحداث. ومحاولة التوفيق بين الأمرين شبه مستحيلة، وممثلها السعي وراء تسوية ادارية، وتفضيلها على الحلول الحقيقية، ولذا فقد أصبح من المستحيل الجمع بين هذه وتلك، ان سياسة سلبيّة، ربّما تأتلف مع وسائل سياسة مسالمة، فتحرمها من تأثيرها (كما جرى في خليج الخنازير) أو بعكس ذلك، فان السياسة المسالمة، يستولي عليها عنف السياسة السلبية (كما جرى في حال رهائن إيران). أما بالنسبة للمخالفات التي ترتكب ضد اتفاقية باريس، فاننا بعد أن استخدمنا سياسة سلبيّة، أجبرنا على تغيير خطّنا وانتهاج سياسة مسالمة. ولأول مرّة لم يكن لتهديداتنا أيّ تأثير.

وكان من الدوق تيو، أن جعل من فظاظته العادية، طريقة فنيّة جديدة في المحادثات. وعرف اني كنت أخادعه، وأظهر لي ذلك. ومنذ بداية محادثاتنا. فان الأمر واضح، وسهل عليه وهو الذكي ان تتكشّف له انقساماتنا الداخلية.

الدوق تو: لقد قمتم بمساندة جوية، لقوّات حكومة فيانتيان، وقمتم أيضاً بتعدّيات على المناطق التي يسطير عليها الباتيت لاو، مخترقين بذلك الاتفاقية ضد لاوس.

«وفيما يتعلّق بكمبوديا، فقد قمتم بهجمات جويّة عنيفة جداً على هذه البلاد، في حين ان مجلس الشيوخ ومجلس النواب، كانا يعارضان الهجمات الجويّة ضد كمبوديا، من قبل حكومة نيكسون. . . . ».

كيسنجر: «هل سمح لي المستشار الخاص، تذكريه بقاعدة، بحثناها منذ سنوات ثلاث، وكان من الواجب تطبيقها؟ لقد انخدعتم ولا مجال للشك في تحليلاتكم. ولا زلتم تنخدعون حتى الآن، وأرى من المستحسن ألاّ نسترسل في هذه المباحثة».

الدوق تو: اسمح لي ان انهي جملة كلامي الأولى، معتبراً ان قصف كمبوديا

عمل غير شرعي. ولذا فقد رفض مجلس الشيوخ ومجلس النواب التصويت على الأموال المرصودة لتنفيذه. واني اؤكد وبكل بساطة ان تعزيز القصف هو عمل سيء. ولسنا الوحيدين اللذين نعارضه، بل هناك الشعب الأمريكي أيضاً. وهذا ما كنت أريد التدليل والتأكيد عليه».

كيسنجر: «إن الشعب الأمريكي هو مشكلتنا، ولم يكن في يوم من الأيام مشكلة المستشار الخاص. واذا كنتم تتمتّعون بذاكرة جيدة، عليكم ان تتذكروا ان حكمكم غير صحيح».

الدوق تو: «اذا كنت على حق أو على خطأ. انك تعرف ماهو عليه الواقع».

كيسنجر: «لا فائدة ترجى من توقّفنا عند هذا الأمر، دعنا نبحث غيره من المواضيع».

كان هذا إعادة شبه حرفيّة، لما جرى من مبادلة أحاديث، خلال السنوات السابقة. ان ما يقلقني، هو ان الدوق تو، وإن كنت أنا نفسي أقر ذلك في أعماق داخلي، لم يكن على خطأ، هذه المرّة. ولن يستطيع نيكسون بعد عمل أي شيء جديد، لأن الاجراءات العسكرية، التي كنّا لانزال نتبعها (في كمبوديا) كان الكونغرس يهاجمها بشدّة لا سابقة لها. وقواتنا التي لاتزال أيضاً قادرة على التدخل في «تايلند و في البحر» قد قلّصت وبكل أسف بطريقة تعسفيّة. ومن جهتي فقد كنت أقاتل في المؤخرة، والقتال كان مستميتاً ولكن دون فائدة ترجى. وقتالي هذا كان ضدّ رغبة البنتاغون في إعادة تشكيل قواتنا الجويّة والبحريّة خارج الجنوب الشرقي من آسيا، لرصد أرصدة هزيلة في سبيل شراء أسلحة جديدة.

ولقد وفّقت ربما في إيقاف المفاوضات، عندما أيقنت اننا لن نقدم على عمليّات

جويّة، كان مفروضاً ان تسبقها. ولسوء الحظ فان انقساماتنا الداخلية أوصلتنا إلى حافّة الإفلاس. ولم نعد نستطيع عمل أي شيء سوى ان نفاوض آملين نجاح ضغوطنا في سبيل الدعوة إلى السلام، علماً اننا قد عدنا فيها إلى الدبلوماسيّة المجرّدة، كما كانت تطالب فئة منتقدينا. وان إلغاء المحادثات غير المتبعة بأعمال عسكرية، أتاح للرأي العالمي أن يتفهم ما كان نيكسون غير راضٍ عنه حتى بينه وبين نفسه، وانه أصبح لايملك النفوذ اللازم، لإدارة سياسة خارجية مترابطة. ولا يفيدنا بشيء جعل هذه المأساة واقعية، لانه يسارع في إضعافنا في القمّة، ويدعو إلى إثارة تحدّيات دولية أخرى.

ثابرت إذاً على حلّ لغزي في لقاء الدوق تو، وانسحبت منه دون نجاح يُذكَر أو خلفياّت قيّمة. وخلال ثلاث جلسات من ١٧-٢٣ أيار - ومن ٦-٩ ، و ١٢ - ١٣ حزيران، دققنا في جميع بنود اتفاقية باريس، محاولين تحديد الوقت المناسب لتنفيذ تلك الاشتراطات التي اتفق عليها ولم تؤخذ بعين الاعتبار.

وصدر بيان في الثالث عشر من شهر حزيران، يوضح بعض الالتزامات، وبكل أسف، كان كغيره جهداً ضائعاً. وليس هناك ما يدعو إلى إبرام اتفاقية جديدة، تحظى بالاحترام أكثر من سابقتها، ما دامت وسيلة تطبيقها غير متوفرة. وكان للمباحثات تأثيرا أسوأ مما كان يتوقّع.

«انها مشاركة تاريخيّة للعلاقات بين الدول، هذا ما قلته له: لقد وجدنا ثلاثمائة وخمسين دبّابة، وثلاثمائة مدفع من العيار الثقيل، بعيد المدى ، وعدة فرق مدفعية، وصواريخ مضادة للطيران، صنّفت وكأنها تجهيزات مدنية، وغير خاضعة لما ورد من محظورات في المادة السابعة»، كان لدى الفيتناميين الشماليين تفكير ماكر في ان كل ما كان يدخل إلى فيتنام الجنوبية دون مروره بنقاط المراقبة الدولية كا يعتبر مدنياً،

مهما يكن تفكيرنا حياله. عندئذ أخذ الدوق تو يحدّثني: «لقد خُدع جهاز استخباراتكم» ويطيب لي أن أبين لك، ان ذاك الجهاز آنف الذكر، يعتبر الفيل أحياناً بمثابة دبّابة. «فسألته حينئذ، عمّا إذا كان يضخّ الماء في خط أنابيب أنشئ حديثاً، لإرواء فيلة فيتنام الجنوبية، ولم يقلقه هذا الامر. وبعد فترة صمت ليست طويلة قال: لقد كانت نظرتك خاطئة، وأعتقد انك تتفهم جيّداً، عند التكلم عسكرياً، يجب ان يكون لدى حكومة ثورية مؤقتة G. R. P احتياطيّ تستخدمه في عمليّاتها. وهكذا، فإن حكومة سايغون، إذاً أرادت متابعة عملياتها العسكرية، فان الاحتياطي المخزون لديها يكفيها ولا بد للمقاومة».

وسألته، عمّا إذا كان على استعداد لبذل جهوده في سبيل الاحتفاظ بكل الفيلة في فيتنام الشمالية. «فأجابني ضاحكاً: عندما تجوع هذه الفيلة وتعطش، عليها أن تسعى لتأكل وتشرب». ولما كان ينكر ، ما أتهمته به من حيث خرق هانوي المتعمّد لاتفاقية باريس، فلقد أردفت له القول:فاذا لم يكن متعمّداً، فاني اطالب بعمل متعمّد، وإذا كان ذلك عرضياً، فأني اطالب بعمل انتم تقدرن عليه. وبقي الدوق تو على إصراره، في ان مخالفات وقف إطلاق النار، هي أمور ثانوية، لأن الفريقين برهنا على تطبيقه لا عند الاحتفال بالأعياد، أو إقامة الحفلات القومية» (هدنة عيد الميلاد مثلاً) وجئت على ذكر الهجوم الذي جرى في عيد رأس السنة.

وبعد هذا، بحث الدوق تو، قضيّة منع التسلّل، المتعلّق بتطبيق وقف إطلاق النار، والذي كانت هانوي تقف عائقاً حياله. وانتهى الحديث بموافقته على تحديد نقاط ثلاث، يحتفظ بها لإدخال قطع الغيار، في الأيام الخمسة عشر القادمة. ولم يحافظ أبداً على هذا الوعد.

ان المفاوضات لا يمكن ان تنتهي عند الاقتصار على نقاط أو ملاحظات تهكميّة

كالتي تبادلناها خلال مباحثاتنا. ويجب ان تتساوى فيها المكاسب والأضرار. ولقد توصّلنا عام ١٩٧٢، إلى هدف كنا نسعى إليه جادّين، وهو الإبقاء على حكومة حليفة في سايغون، لأن هانوي أصبحت غير قادرة على إجبارنا على سحب قواتنا من فيتنام الجنوبيّة لأن تلغيمنا موانئها، كان يفقدها مواردها، كما ان قصفنا أراضيها كان ينقِص كثيراً من قدرتها على القيام بهجوم واسع النطاق. ولم يبقَ لدينا أية وسلية ضغط في عام ١٩٧٣، فلجأت إلى طريقة الخداع على طاولة المفاوضات.

وتمنّيت مرّات عديدة، ان يشهد ما أعاني هؤلاء الذين يطالبون بل يضغطون في سبيل العودة إلى الدبلوماسية، إذ عندما كنت أحاول إحراج الدوق تو، كان يلجأ إلى التأكيد أن بلاده، لم تحتجز أي أسير مدني من فيتنام الجنوبية، والمحادثة التالية تظهر مواقفه المتصلبة، عندما يطمئن إلى عدم قيامنا بردود فعل عسكرية:

الدوق تو: تّدعي سايغون اننا نحتجز عدداً كبيراً من الأسرى المدنيين، والواقع ان هذا ليس بصحيح. لان المنطقة التي تسيطر عليها الحكومة الثورية المؤقتة G. R. P لا تسمح لها ظروفها الحالية باحتجازعدد كبيرمثل هذا. علىأننا نؤكد، اننا كنا نخلي سبيلهم بعد احتجازهم حالاً.

كيسنجر: إذا كنتم تخلون سبيلهم، فلماذا تأسرونهم أساساً؟

الدوق تو: ليست لدينا منشآت كافية للإبقاء عليهم محتجزين، كما أن قضيّة تغذيتهم تسبّب لنا مشاكل.

كيسنجر: لماذا تربكون نفوسكم باحتجازهم إذاً؟

الدوق تو:يجب توقيفهم، لارتكابهم أخطاء تستحق ذلك. ومشكلة تغذيتهم ليست سهلة، بالاضافة إلى قلّة السجون، لإبقائهم فيها. واننا نبذل جهداً كبيراً لتموين جيوشنا. وليست هذه سوى ذريعة نستعين بها لتأجيل عودة الأسرى المدنيين.

كيسنجر: وعليّ أن أصدق القول، ان المستشار الخاص، لا يزال يذهلني، لكن التجربة تفيدني، وتوقيف أناس ارتكبوا أخطاء، بنيّة إخلاء سبيلهم ليس إلاّ، فهذه طريقة جديدة لممارسة قانون العقوبات!!

الدوق تو: ان أمامنا عدالتين اجتماعيّتين، وتطبيق أحكام عدالتكم مختلف تماماً عمّا نطبّقه نحن. اننا نأسرهم، ثم نؤدّبهم، وبعد ذلك نفرج عنهم. أما أنتم فانكم تأسرون الأبرياء، ويعذّبون معنوياً وطبيعياً. إذا يوجد عدالتان اجتماعيّتان، وانتم لا توليانهما أقل اهتمام».

كيسنجر: لقد مرّ بنا، في الواقع، بعض من أسرتم، وشهدوا أمامنا بعدالتكم!

ان أطماع فيتنام الشمالية الامبريالية، والتي لايؤتى على ذكرها أبداً في مناقشاتنا الداخلية، أصبحت بادية للعيان. ان مضمون المادة العشرين من اتفاقية باريس، يقضي بانسحاب جميع القوات الأجنبية من لاوس وكمبوديا. لكن الدوق تو، تجنّب هذا الالتزام، وأعاد على مسامعي ما كان قد أعلمني به في هانوي في شهر شباط في ذلك الوقت، ان البدء بتنفيذ هذا البند، يتوقف علىاجراء تسوية سياسية في البلدين. وليست هذه سوى حجّة رفضناها، فيما كنا نجري مفاوضات السلام، لأن اتفاقية من هذا النوع، لا اعتبار ولا تقّيد بها في هذا البلد أو ذاك. ولقد توصّلنا بالنسبة للاوس، إلى انتزاع تصريح خطّي جديد، يبيّن ان تسوية سياسية، سوف تتّم في الأول من شهر تموز من عام ١٩٧٣ كحد أقصى. فوجب علينا ان ننتظر فعلاً، يوم التاسع والعشرين من ذلك الشهر، حيث توصّلنا إلى اتفاق مبدئي، وقبلنا في الرابع عشر من شهر أيلول مبدأ تشكيل حكومة ائتلافية، ونفّذت في الخامس من شهر نيسان لعام ١٩٧٤، دون ان يكون لها أدنى تأثير على انسحاب قوات فيتنام الشماليّة. وبقي في لاوس أكثر من خمسين ألف رجل.

وتجاوز الدوق تو، قضيّة كمبوديا. وكما كان أمره بشأن لون نول، فهو يطالب بتسوية سياسية، قبل انسحاب قواته، والشيء الوحيد الذي قبل التحدّث فيه هو إقصاء لون نول، ونصر شيوعي كامل. فأجبته بعد نفاد صبر، يمكن إيجاز ما تقوله: ان نقتل نحن لون نول، او عليه أن يقتل نفسه؟ ولم تربك هذه الملاحظة محدّثي أبداً، الذي كان قد تجرّأ وطالب قبل عامين، بقتل تيو بمساعدته.

فأجابني بصفاء قائلاً: لقد طرحت عليّ سؤالاً، وأنا صادق في كلامي، وبيّنت لك رأيي الشخصي، وأرجو الوقوف على الوضع الراهن فقط.

وبالاختصار، فان الاستيلاء الكامل على السلطة من قبل الشيوعيين، يمكن اعتباره تسوية سياسية. وليس هناك أي أمل باجراء مفاوضات، طالما ان الخمير الحمر، والشيوعيين الكمبوديين، يعارضون ذلك بعنف. واقتراحي بإجراء محادثات مع سيهانوك لم يرضِ الدوق تو، لأنه يرتاب من جهة بقدرة الخمير الحمر على المشاركة في هذه المحادثات، ومن جهة أخرى، لثقته الوطيدة ان الأمير كان خاضعاً للنفوذ الصيني. وكان على المستشار الخاص ان ينظر جيداً إلى المستقبل، وعناد حلفائه من الخمير الحمر، وإبقاء منفذ لهانوي، تتمكن من خلاله القيام بدور في كمبوديا، حتى بعد انتصار هؤلاء. وفي سبيل ضمان ذلك، فقد أدلى بتصريح، بوجود قوات فيتناميّة في كمبوديا، لكنها غير آتية من جمهورية فيتنام الديمقراطية R. D. V. فكان يرمز بكلامه إلى مواطنين كمبوديين من أصل فيتنامي، تطوعوا هناك. فليسوا هم أجانب، حسب منطوق المادة العشرين من اتفاقية باريس، فلا يجبرون والحالة هذه على مغادرة البلاد، فيما لو انتصر الشيوعيّون.

وكل ما استطعت الحصول عليه بخصوص كمبوديا، هو التأكيد على مضمون المادة العشرين الذي يقضي بمغادرة القوات، التي لاتزال هانوي تفسر جنسيّتها وتطالب ببقائها بتفسير كيفي. غير ان فيتنام الشمالية و الولايات المتحدة، أخذت كلّ

منهما وبصورة رسمية، ببذل أقصى الجهود، للوصول ألى تسوية سلميّة للمشكلة الكمبودية. وهذا يقف فعلاً، عند ماكانت هانوي قد قبلت والتزمت به، حال إبرام اتفاقية باريس، وكان الدوق تو أكدّ في حينه، عدم تمتعه بنفوذ يستطيع به التأثر على حليفته كمبوديا. ورفض كذلك اقتراح القيام بعمل مشترك، يمكن التوصل من خلاله الىوقف إطلاق النار في كمبوديا.

وبالنسبة لهانوي، فإن أقصى الجهود المبذولة، يمكن تفسيرها بالإبقاء على أربعين ألف رجل فيها، وتزويدهم بالسلاح وتدريبهم عليه ومساندة سوقيات الخمير الحمر. أما فيما يتعلق بما نقوم به من أعمال، فاني مورد إيّاه في المقطع التالي:

ان المفاوضات التي جرت في باريس، خلال شهري أيّار وحزيران، لم تمض دون نتيجة. واني اعتقد، كما برهنت الحقائق، انها أسهمت ولو بصورة هامشيّة في تثبيط همّة سايغون. ومن جوانب عديدة، فان محادثاتنا مع فيتنام الجنوبية حول ما أبرم من اتفاقيات، لم تكن سوى إعادة لخلافات عام ١٩٧٢. ومثلما جرى في الماضي فان سايغون كانت على علم، باننا نأمُل الالتقاء بالدوق تو، فمنحت موافقتها على ذلك، دون إبداء أيّة ملاحظة، (ربما انها كانت تعتقد ان هذا اللقاء لن يتم إلاّ بعد قيام أمريكا بإجراء انتقامي على هانوي، لقاء ما تقوم به من خرق للاتفاقية)، ولقد طرح موضوع مثل هذا الإجراء، لكنه لم يبتّ به. وكنت عازماً على ألاّ يتجدّد سوء التفاهم، الذي ساد في مباحثات العام الماضي. وأطلعنا سايغون على كل ما كنا ننوي القيام به من مشاريع. وفريق المفاوضين من فيتنام الجنوبية، كان يلتقيني كل مساء في باريس في مقرّ سفيرنا، ولقد تقدمت سايغون بعدّة اقتراحات بنّاءة، خلال المراحل الأولى من المحادثات، فلم ألمح أي ظلّ لخلاف. ومن ثمّ أخذنا نتفهم تكتيك فيتنام الجنوبية. وكان فريق مفاوضيها يبدو وكأنه يجهل ما يتعلق بالمواضيع الدائرة، ويتظاهر احياناً بعدم

الاهتمام، لكنه سريع التأثر. وأعطي مثالاً لذلك: طرحت سايغون في وقت ما، ترقيم فقرات الوثائق لا على التعيين، وكانت جميع تعهدات فيتنام الشمالية مرقمة أولاً، ويتبعها ما يتعلق بفيتنام الجنوبية. ومثل هذا التنظيم يظهر غريباً، لأن أرقام الفقرات في الوثائق الجديدة، يجب ان يُلحق فيتبع ترقيم ما سبقه في اتفاقية باريس، وهذا لايثير أي إرباك عند وضعه موضع العمل.

لقد طرحت الاقتراح للتدارس، وأخذت درساً جديداً حول تعرج الفكر الفيتنامي ولم يجد الدوق تو، غرابة في الطلب، فأقرّه وقبل العمل به، لكنه اقترح معاكسة الموضوع، قاصداً وضع ما تتقدم به سايغون أولاً، ومن ثم يأتي دور هانوي. وفيما كنت أجهد نفسي، لتنفيذ ما طالب به محدّثيّ، خلافاً لجميع الأعراف الحقوقية، والإجراءات الدولية، فان الفريقين الفيتناميين، وكأني بهما يعتقدان ان تنظيم الفقرات يحدّد تنفيذها، ولو بسيكولوجياً، فكان كل منهما يطالب الآخر بتنفيذ التزاماته، قبل إقدامه هو نفسه على تنفيذ التزام واحد. وانتقلت سايغون من الإرباك، الى طروحات واضحة ودقيقة، ومنها ما ليس له مثيل في بساطته، وكانت تعدّل مواقفها كل مرّة نكون على أهبة قبول ما تتقدّم به. وبالمناسبة، فان ماتقوم به كان يغيظنا، وكانت مخاوفها من المستقبل تتوضح في طريقة طروحاتها. كانت بلادها في خطر مميت، وخرق عدوها جميع التوصيات الجوهرية في الاتفاقية، دون أدنى عقوبة، في حين ان المفاوضات كانت تجري بين هانوي والولايات المتحدة، وكأن قراراتها تهدف الى إضعاف موقف سايغون، دون الاهتمام بروح مقاومتها. وما كان يخطط في الخفاء، كان يتجاوز مدى الكبرياء الجريح.

ان الخلافات الدائمة حول موضوع معاملة، ضباط الارتباط الفيت كونغ، المعينين في اللجنة العسكرية المشتركة الثنائية، المتمركزين في مدن مختلفة، ومحدّدة إقامتهم الفعلية من قبل فيتنام الجنوبية. حملتنا على اقتراح نقلهم أسوة باللجنة

ذاتها، الى إحدى الغابات الكائنة، بين منطقتي المراقبة، حيث يتمكنون من تنفيذ ما يطلب منهم. فاتضح لنا أن المطلوب هو إبعادهم عن المناطق الآهلة بالسكان، لكن هذا كان يؤثر تأثيراً فعّالاً على سايغون، لان فصلها وبصراحة الى منطقتي مراقبة، ومهما تكن صغيرة ، يعني معاكسة ما كانت ترمي إليه من سيادة غير مجزّأة. ولأجل هذا فقد قبل الدوق تو هذه الفكرة دون أية صعوبة.

وتوصلت سايغون فعلاً الى العمل بوجهة نظرها، وحصلت على اجراء بعض التعديلات في البنود التي أقرّت سابقاً، والتي تتعلق بمركز اللجنة العسكرية الثنائية، وأوضحت عن عزمها الثابت على توقيع الوثيقة النهائية. لكن التعديلات التي حصلت لا تقدر على تغيير حقيقة راسخة، أوجزها وليم سولّيفان، وكنت أرسلتها لأخذ رأي تيو في سايغون اثناء انقطاع المحادثات.

«إن ما أخذ يتأثر به المفاوضون وبصورة جوهرية، هو تقسيم أراضي سايغون، ولو يفهم من خلاله، انسحاب الحكومة الثورية المؤقتة، من المعركة السياسيّة، وهذا شيء نهائي. واذا رافق هذا كما يتوقعون، سيطرة الشيوعيين علىكمبوديا، فان ذلك يعرض توازن القوى العسكري للخطر، فيجبرون على البقاء فيه، مع ما ورثوه من ضيق، تهدّدهم القواعد العسكرية، المنشأة في سلسلة جبال حصينة».

لم يكن تيو على خطأ ابداً، عندما كتب الى نيكسون في السادس من شهر حزيران، بدلاً من معاقبتها لخرقها اتفاقية عامة، فان هانوي مرجوة بتوقيع واحدة أخرى.

«نحن ضحيّة اعتداء. والمعتدون الشيوعيون، خرقوا وبإنتظام الاتفاقية التي وقعت، وحيث انهم لم يعانوا من أي انتقام عنيف من جانبنا، كما سلف وحذّرناهم، فانهم يُطالبون الآن بالاستفادة من البلاغات الصادرة».



الفصل التاسع

كمبوديا الماكرة

منذ أن استردّت كمبوديا استقلالها عام ١٩٥٤، سار الأمير نوردوم سيهانوك ضمن خطّة متقنة ضمنت له توازن قوى، من خلال مسايرته للقوى المتنافسة، التي كانت تهدّد بلاده، وحافظ بهذه الطريقة على عمل سلامة وحياد وأمن بلاده. ولما كان أميراً وريث تاجٍ، فإنه كان شغوفاً، يحبّ شعبه وحريصاً جداً على مصالحه. وطراز معيشته الغربية، ما كان ليتوافق مع طريقة جيرانه الشيوعيين، لذا فهو ينفّذ كافة المطالب الممكنة متحاشياً أطماعهم الكثيرة والخطيرة. وتسوية لاوس التي جرت عام ١٩٦٢، حملته على الاعتقاد، أن الولايات المتحدة، لن تستطيع على المدى البعيد، منع هانوي من السيطرة على الهند الصينية. فحاول أن يتحاشى الخطر المحتوم وأخذ يخفّف من علاقاته معنا، ولا يبدي في الوقت ذاته، الاهتمام المطلوب، لما تقوم به فيتنام الشمالية من تعدّيات على أراضي بلاده، وتحرّ لسيادتها. وبعد أن أقامت هانوي في عام ١٩٦٥، قواعد على الأراضي الكمبودية، بدا واضحاً انه اسقط نفوذه عن رقعة أرض محاذية لحدود فيتنام الجنوبية.

لكنه كان يتقبّل وبكل رضا، دون التمكن من البوح به، الجهود التي كان يبذلها الأمريكان، لوضع حدّ للمدّ الشيوعي في فيتنام الجنوبية. واعتباراً من بداية عام ١٩٦٨، أخذ يطالب وبصورة سرّية، أن نقوم بمهاجمة القواعد التي أنشئت في بلاده، متوخياً من وراء ذلك، قدرتنا على طرد الفيتناميين الشماليين من بلاده. وعندما أدركت حكومة نيكسون، ما كان يرمي إليه، أخذت تقصف تلك المعاقل، فأقدم سيهانوك حالاً، على اتخاذ موقف، لا يدل على ما يتصّف به من ذكاء. فأخذ يدلي بتصريحات تغاير ما كان يطالب به، إذ قال: ما دامت استعدادات هانوي لا تحلق الأذى بالكمبوديين، فلن يبقى على أمريكا والحالة هذه، سوى تدبير شأنها مع فيتنام الشمالية. أضف إلى ذلك، أنه لم يكن يعلم ما كان يجري في رقعة الأرض، التي أخذت هانوي تستخدمها، والتي لم يبق له أي نفوذ عليها. ولما تتالت هجماتنا على تلك المعاقل على أرض بلاده، فقد أعاد عام ١٩٦٩، علاقات بلاده الدبلوماسية مع واشنطن، ودعا الرئيس بحرارة لزيارة فنوم بين.

وفي شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٠، توجّه إلى جنوب فرنسا، للعلاج وأعلن أنه في طريق عودته، سيزور موسكو وبكين، ليدعو العملاقين الكبيرين الشيوعيين، إلى استخدام نفوذهما لدى هانوي، لتقليص تواجدها في كمبوديا. وعندما كان يستعدّ للعودة، ثارت اضطرابات في فنوم بين، موجهّة ضد الفيتناميين الشماليين، وإذ كان حينئذ في موسكو، أُعلم وهو متوجّه إلى المطار، أنه عُزل من قبل مجلس نوابه. فتأثّر كثيراً، واعتبر الأمر خيانة من المقرّبين منه. فتوجّه من موسكو إلى بكين، حيث استقبله شو ان لاي بالترحاب، معترفاً به زعيماً شرعياً لكمبوديا. واتهّم الولايات المتحدة بعنف، بأنها السبب في نزع يده عن السلطة، وفيما كان الألم ينهش فؤاده، استدار نحو الخمير الحمر مسترضياً إياهم، وتعهد أن يشن

حرباً دون هوادة، ضدّ من كانوا شركاءَه بالأمس في فنوم بين. وهكذا فقد الغى إلى غير رجعة، الدور الذي كان يقوم به كوسيط متّزن بين أحزاب بلاده المختلفة.

ولما كنّا ندرك موقنين، أن هناك اعتبارات كثيرة، تحول دون حلّ عسكري، فقد أخذت الولايات المتحدة ببذل جهود مضنية، في سبيل الوصول إلى تسوية سياسية سليمة، واقترحت وقف إطلاق النار، على الأقل اثنتي عشرة مرة بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٣. وبعد تسوية فيتنام، أبدينا استعدادنا التام، لمفاوضة الأمير سيهانوك، لاعتقادنا بقدرته على القيام بدور فعّال في تنظيم بلاده سياسياً. وليستطيع إيجاد دوره كحاكم وزعيم حيادي.

ومنذ بداية عام ١٩٧٣ أخذت الولايات المتحدة، تهتم بصورة جدية، في تثبيت وقف إطلاق النار في كمبوديا، إلحاقاً بما قد اتفق عليه في فيتنام ولاوس، وفي السابع والعشرين من شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٣، تاريخ توقيع اتفاقية باريس، أقدمت حكومة فنوم بين، بناء على رغبتنا، على بادرة طيبّة نحو السلام، فأوقفت جميع العمليات الهجومية، وأعلنت عن وقف إطلاق نار أحادي الجانب. ومن جانبنا أوقفنا في الوقت ذاته كافة غاراتنا الجوية. لكن الخمير الحمر، رفضوا كل هذه الاقتراحات، وقاموا بهجوم جديد. ولما كانت هناك وثيقة تُعد على اثر زيارتي للصين في شهر شباط، كانت تتضمن تحليلاً لتصريحات كثيرة، قام بها سيهانوك، وزعماء الخمير الحمر، وهانوي والصين أيضاً، تقوم على أن سلسلة مبادرات جديدة، تقوّي ثقتنا بأن الجانب الآخر. سيبدي استعداده لاجراء مفاوضات في كمبوديا، تتجاوب مع رغباتنا ولو بطريقة غير مباشرة، استجابة لطلبات لون نول، لوقف الاعمال الهجومية.

وهذا كان يعني أخذ رغباته بمثابة حقائق، كما ستتكشّف عنه الأحداث التالية. والتمعّن بتصريحاته وتفحصها يثبت ذلك، وإلحاحه في طلب المصالحة وبحرارة، كان يدل على كبت حرّيته من قبل الخمير الحمر، وتقيّده التام بالتصريح الذي أدلى به من حيث محاربة الحكومة الكمبودية عام ١٩٧٠، وتصريحه هذا الأخير كان بتاريخ الثالث والعشرين من شهر آذار، بأقلّ من أسبوع علىعزله. وقد شكّل قاعدة للوضع، الذي أخذ يسير بموجبه الخمير الحمر. إذ كان قد طالب حينذاك حَلّ نظام لون نول، وكذلك حل تشكيل حكومة الوحدة الوطنية، وطالب بانشاء جيش تحرير وطني، وجبهة وطنيّة موحدة، تكون مهمّتها الأساسية مقاتلة الامبريالية الأمريكية، إلى جانب الشيوعيين الفيتناميين واللاوسيّين. واعتبر هذا التصريح مؤثراً وفعالاً يطالب باستيلاء الشيوعيين على الهند الصينيّة بكاملها.

وخلال الفترة التي سبقت التوقيع على اتفاقية باريس، جدّد سيهانوك تصريحاته المبالغ بها. وعلى أثرها، تبخّرت جميع الآمال، التي كنا نعقدها عليه، وكأنها ضباب أنقشع نتيجة تأثير أشعة الشمس عليها ففي مقابلة أجراها لوكالة الصحافة الفرنسيّة، في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣، أكد أن أصدقاءه (هانوي والصين) كانا يضغطان على حكومته في المنفى، حول عدم البقاء على ما هي عليه من وضع متصلّب، وتبدي استعدادها لإجراء محادثات مع الولايات المتحدة، وعدم التفاوض أبداً مع لون نول، وعدم قبولها بمثل الحلول التي جرت في فيتنام الجنوبية وعلى كل حال، فإن ملاحظته كانت ذات معنى، لأن الحلّ الأخير، لن يقوم به هو في نهاية الأمر، بل تقوم به "المقاومة الكمبودية" التي تعمل في الداخل، والمقصود بها: الخمير الحمر. والبيان الرسمي المؤلف من أربع نقاط، المنشور في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني لعام ١٩٧٣ باسم سيهانوك، ورئيس وزرائه بين ناوت، وزعيم الخمير الحمر كيو سامفان، كان يؤكد

وبتصلّب، أن حلّ المشكلة الكمبوديّة، لن يتحقق، إلاّ على أساس التصريح الصادر عن الأمير سيهانوك في الثالث والعشرين من شهر آذار عام ١٩٧٠، واعني بذلك، اطلاق يد الشيوعيين الكامل.

وفي حديث للصحفيين في الحادي والثلاثين من شهر كانون الثاني في هانوي، أبدى سيهانوك استعدادً لفتح صفحة جديدة، باتجاه الولايات المتحدة، مؤكداً من جديد أنه لا يملك الرأي الأول، لأنه لم يستقبل بعد الضوء الأخضر النهائي الذي يمكنه من تجديد تقويم سياسة غرونك "حكومة الوحدة الوطنية الملكية في كامبوتشا" من قبل زعماء المقاومة الداخلية، الخمير الحمر، والتي يرأسها نائب رئيس الوزراء، وزير دفاع غرونك، كيو سامفان، الذي يملك الكلمة الأخيرة، ولم يكن باستطاعته أن يوضح بجلاء أكثر تبعيّته للشيوعييّن.

وفي الثاني من شهر شباط، أذاع راديو الخمير الحمر، بياناً رسمياً، صادراً من زعماء الحركة، كيو سامفان - هويون - وهونيم. أكد على أن القتال سيستمرّ، وكل تفاوض. أو تسوية مع الحكومة الكمبودية، غير وارد أبداً، وعلى سيهانوك عدم إجراء مباحثات، لا مع الأمريكان ولا مع أي شخص آخر. وبالاختصار، ففي الوقت الذي كنت أقوم فيه برحلة إلى آسيا في شهر شباط لعام ١٩٧٣، كان الشيوعيون الكمبوديون، قد اختاروا حرب الإبادة.

وهذا ما كان يدفع، منتقدينا الذين تتملكهم الماسوشيّة، ان يحمّلونا مسؤوليته لعدم تمكننا من اجراء مفاوضات.

وفي الفترة التي كنت أقيم فيها في بكين، أي نحو أواخر شهر شباط، ظهر تقارب بين الأوضاع الأمريكية والصينيّة. ان استيلاء هانوي على الهند الصينيّة، ربّما يعتبر انتصاراً إيديولوجياً، لكنه وبكل تأكيد هزيمة جغرافية سياسيّة بالنسبة للصين. لأن

هانوي، ستضع على حدود الصين الجنوبية، قوّة تابعة لموسكو، بالإضافة إلى ماضيها التاريخي المعادي. وكان هذا، دون شك يثير قلقها واهتمامها، وهي في الوقت نفسه تعتقد كغيرها من الشعوب الأخرى، ان الولايات المتحدة لن ترضى بذلك، لاسيما أن تصاب بهزيمة عسكرية. وعلى كل حال، فاننا كلنا واياهم، نتمنى ان تكون كمبوديا محايدة ومستقلّة، ونحن وهم أيضاً نتطلّع إلى عودة سيهانوك، وموقف أمريكا تجاه ذلك يمكن وصفه بالتردّد، لانها لا تملك غيره عاملاً يوحّد بلاده، أما الصين فكانت على ثقة وطيدة به، وتعتبره صديقها الوفي في فنوم بين. كما ان بكين وواشنطن كانتا على إعتقاد ان أفضل حلّ بالنسبة لكمبوديا، هو حكومة ائتلافية، برئاسة سيهانوك، الذي يستمد نفوذه، بل يتوقف هذا النفوذ على بقاء بعض القوّات غير الشيوعيّة، الممثلة بحكومة لون نول.

وبعد ان فكّر شوان لاي مليّاً بالموضوع، خلص إلى القول، بأنه إذا أصبحت كمبوديا كلّها حمراء «فسوف تتمخّض بعد ذلك عن مشاكل أكبر، وكان يقصد بذلك ان سيهانوك سيحكم عليه بالموت، وتصبح سيطرة هانوي على الهند الصينية أكيدة. وكان جوابي له ان اقترحت لقاءً سريعاً، بين رئيس وزراء سيهانوك، بين ناوث، وممثّل للون نول، ولم يفتني ان ابيّن اننا لا نؤكد على وجود هذا الأخير، في حكومة ربّما تتشكل بنتيجة المفاوضات التي ستجرى، على الرغم من أن القوات التي يمثلها مشتركة في المباحثات. فقبل شو بنقل هذا الاقتراح إلى الكمبوديين، حسب الصيغة التي وضعتها، وكأني به يقصد أخذه على مسؤوليته مع بعض التحفّظ.

وكان الوضع غامضاً. لأن سيهانوك بالنسبة للصينيين، كان خير ضامن لاستقلال كمبوديا، لكن الإتحاد السوفيتي، لايزال على اعترافه بلون نول، فينقل بذلك العداء الصيني ـ السوفيتي إلى كمبوديا. وما يدعو إلى التهكم، هو ان كل فريق مخدوع بما يحلّل. وكان كل واحد من المتنافسين الشيوعيين الكبار، يراهن على

حصان غير رابح لأن كلا الفريقين يبالغان في تقدير ما نهدف إليه من مساندة الحكم القائم في فنوم بين وبدون ذلك، فان وضع لون نول، ومثله وضع سيهانوك، هما معّرضان للانهيار. ان ابتعاد أمريكا عن الميدان، جعل من الخمير الحمر قوّة أساسيّة، تساندها هانوي فعلياً، تنتفع بوجود سيهانوك لبعض الوقت. لتمكّن موقفها. ومن ثم فإن هذه القوة وأعني بها الخمير الحمر، كانوا على استعداد لإسقاطه، بعد ان يصبحوا قادرين على الحكم وحدهم.

وكان تقديرنا ان الخمير الحمر، لن يقبلوا صلحاً نتيجة مفاوضات تجري، إلاّ بقطع الأمل من إحراز نصر عسكري، وهذا ما توضّح للعيان في شهر تموز. ولقد علمنا ان اللجنة التنفيذية، لقيادة الخمير الشيوعية، قد اتخذت قراراً أساسياً في ربيع عام ١٩٧٣، بسلوك طريقين لا ثالث لهما، انتصار حاسم أو تسوية. وسوف يُبَتّ بالخيار، من خلال الوضع العسكري في كمبوديا وما يطرأ عليه في هذه السنة. وعندما يصبح الانتصار العسكري بعيداً عن متناول أيديهم، والوضع مجّمداً، فلا بُدّ عندئذ من إجراء مفاوضات، يصلون في نهايتها إلى أفضل الشروط الممكنة. وإذا عكس الأمر، وتحسّن وضعهم العسكري ميدانياً، فلن تبقى هناك حاجة تدعو إلى المفاوضات، بل يواصلون المعركة لإحراز النصر الكامل. فكانت المعركة إذاً بين السعي لإيجاد توازن قوى، وبين الظفر به.

عند عودتي من آسيا، نحو أواخر شهر شباط، دعوت فريق العمل الخاص لاجتماعات عدّة، واتمكن من إيجاز الوضع بما قلته للفريق في الثامن والعشرين من شهر آذار: «اننا نوالي اجتماعاتنا هنا، منذ أربعة أعوام، ولقد مرّ بنا كل شيء، وتحمّلنا أيضاً كل شيء. ولا أسعى لسماع أيّ عذر من قبلكم، لأننا خسرنا القضيّة برّمتها. لا تزال أمامنا آلاف الطرق لحفظ ماء وجهنا، لا سيّما إذا مددنا يدنا إلى

الشيوعيّين، لكنّنا لانجتمع هنا بهذا الخصوص». وفيما إذا كان هناك موالون رسميّون، لانهيار أكيد للكمبوديين الأحرار، فانهم لم يتفوهوا بكلمة خلال هذه الاجتماعات. وكان أحد المشتركين في فريق العمل الخاص، قد أرسل لي في السابع والعشرين من شهر شباط، تحليلاً دقيقاً عن الوضع وكان معقولاً جداً:

«إن معضلتنا تكمن في معالجتنا موضوعين، يتعلّق أحدهما بالآخر في كمبوديا. الموضوع الأول يتعلق بتعزيز الحكومة القائمة حالياً في فنوم بين. أما الموضوع الآخر، فهو بحثنا المتواصل إلى إيجاد وقف إطلاق نار. وحسبما أرى، أن حكومة قادرة، تتمكن من تحقيقه. غير أننا، تجاه ما مرّ بنا، أبت نفوسنا أن نكرّر في هذه البلاد تلك التجارب التي استخدمت في فيتنام ولاوس، وصممّنا على البقاء بعيدين، ونمدّهم في الوقت ذاته بمعونة عسكرية واقتصادية، تاركين للكمبوديين أنفسهم حسن استخدامها. أضف إلى ذلك، فإن التقييدات التي فرضها الكونغرس، تحدّ من رؤوس الأموال، وتقلّل أعداد المقاتلين، وتحول أيضاً دون إرسال مستشارين عسكريين أمريكان. وهكذا فقد أصبحنا ندور ضمن حلقة مفرغة. وكنّا في وضع لا يمكننا من الوصول إلى وقف إطلاق نار، دون وجود حكومة أقوى في فنوم بين، ولا يمكن مساندة هذه الحكومة وتعزيزها إلاّ بسياسة أمريكية أكثر نشاطاً، وهذا ما كانت تحرّمه التقييدات التشريعيّة».

وبصورة طبيعية، فقد بدأت الضغوط تمارس ضد كمبوديا. وأخذ الخمير الحمر وبمساندة ناشطة من فيتنام الشماليّة، يقومون بحرب عصابات شرسة، ويهاجمون الأرياف، ويدفعون بالسكان نحو المدن وخصوصاً فنوم بين، قالبين بذلك الأوضاع الاجتماعية في البلاد، وفارضين حرباً على جيش، أبقي ضعيفاً ودون سلطة، بناء على رغبة سيهانوك، تفادياً منه لأية محاولة انقلابية وهوجم

الكمبوديون، من قبل الفيتناميين الشماليين المدّربين كثيراً على الحروب، كما هوجموا أيضاً من قبل مواطنين شيوعيين أشدّاء.

تقبّل لون نول قَدَره التعيس بكل صبر وأناة، وأظهر استعداداً لأخذ رأينا وسماع توصياتنا، معاكساً بذلك رأي تيو، لكن حكومته، كانت تبدو عليها علائم فقد العزيمة، وما هو أشدّ من ذلك، من حيث تشتيت الوحدة السياسية، والفساد، وعدم الفعاليّة.

وفعلاً فقد كانت تمثِّل حكومة سيهانوك، دون وجوده على رأسها. ان مؤسّساتها وهيئاتها، هي نفسها التي أدارت دفّة الحكم في البلاد منذ استقلالها. وكما هي الحال، في كثير من التنظيمات الاستبداديّة، فلا بُدّ ان يعتريها فساد، سواءً في، من زمن سيهانوك وعائلته، أو في زمن من خلفه. ويعود قسم من ذلك إلى ان التمييز بين القطاعين العام والخاص غير واضح في المجتمعات التقليدية. أمّا القسم الآخر، فيعود إلى عدم الكفاءة بفرض ضرائب وافية، وهذا يدعو إلى الفساد كوسيلة لإرباك الحكومة. فأصبح لزاماً على لون نول، ان يعتمد على شخصيات نادرة يمنحها ثقته، وهي على وجه العموم من عائلته، ولا سيّما أخاه الأصغر لون نون. ولسوء الحظ فإن هذا الأخير، قد جلب الفساد والمحسوبيّة، إلى مستويات، تتجاوز كثيراً ما يستطع تفسيره تحليل اجتماعي. وجاءت الصحافة الدولية على وصف لون نول فقالت عنه انه تعسفّي متحجر، وأن أخاه هو «القدوة السيّئة». وكانت المأساة مشابهة تماماً، لتلك التي جرت في سايغون منذ عشر سنوات، عندما بدأت حكومة نغودين دييم بالتفكّك، بتأثير ضربات حرب العصابات الشيوعية، وعلى الرغم من المطالبات الأمريكية بالإصلاح، واستخدامها القسوة أحياناً، ومع ذلك، جعل نغو دين نو، الأخ الشقيق لدييم، من نفسه مسؤولاً عما كان يجري. وقُتِل الرجلان (نتيجة سطو شجّعت عليه أمريكا). فاستقرّت الفوضى.

وفي واشنطن، اقترح أعضاء من فريق العمل الخاص، بتهيئة السبيل أمام مفاوضات لإعادة سيهانوك، والتأكيد على لون نول بتوسيع حكومته، أو بتقديم استقالته. وسبق أن سمعت شو ان لاي وعلى انفراد، يقول أن هناك إمكانية للتباحث على هذا الأساس (فيما أنا لا أزال اعتبر، خلافاً لزملائي، أن الفساد الذي يلفّ الحكومة الكمبودية، هو بمثابة ظاهرة عارضة، وليس هو السبب الداعي إلى وجود الأزمة). وعولج الموضوع، على أساس إرسال لون نون إلى مدرسة حربيّة في الولايات المتحدة، وإرسال لون نول إلى البلاد الأجنبيّة، لمعالجة مرضيّة وأثناء غياب هذا الأخير، يصبح الأمير سيزوات سيريك ماتاك، الزعيم الكمبودي الأكثر كفاءة (وقد كان في السابق نائب رئيس وزراء سيهانوك، حتى انقلاب ١٩٧٠) ليكون نائب رئيس، ويقوم بأعباء الرئاسة. وفي بداية شهر نيسان، توجه هيغ إلى فنوم بين، لطرح هذا الاقتراح، فقبل لون نول بإبعاد أخيه، وإدخال سيريك ماتاك في حكومته. وعزمنا من جهتنا على تأجيل مغادرة لون نول نفسه لنحصل على ورقة رابحة، لمفاوضات نتوقّعها.

لم يقدم لنا سيهانوك أية معونة، ويعسر علينا أن نصدّق، أن الصينيين لم يبيّنوا له، أنه في حال تهيئة الظروف، سيتمكن من العودة إلى بلاده، كرئيس دولة. وفي سبيل قبوله من قبل الخمير الحمر، سيواظب على تقليد إرادتهم في حرب الإبادة. وعلى الرغم من الفائدة الأكيدة، التي يقدمها له الحلّ المقترح من قبل بكين، كان يأخذ في حساباته أن الخمير الحمر ومعهم هانوي، على استعداد، لاغلاق هذا السبيل أمامه، وأنه هو بالذات ضعيف جداً للتخلّي عن قاعدته الوحيدة، مهما تكن العروض التي تقدّم إليه. وأعلن مرّات عديدة أن "المقاومة الداخلية" وكان يقصد بها الخمير الحمر يعارضون كل تسوية، ففي تصريح له من هانوي في التاسع عشر

من شهر نيسان قال: "إني أصرّح علناً، أن الزعماء في داخل البلاد، لن يقبلوا أبداً بتسوية مع فنوم بين، ولن أرضى أبداً لبلاد كالولايات المتحدة، وفرنسا والاتحاد السوفيتي أن تنخدع وتتكل على حلّ من هذا النوع".

وأكدّ مجدداً، في الثامن والعشرين من شهر نيسان، عدم اهتمامه، في برقية نشرتها وكالة الأنباء الفرنسيّة، وقد جاء فيها:

"لقد عبّأ كيو سامفان، نائب رئيس وزراء، حكومة كمبوديا الملكية، القوات الشعبية استراتيجياً وتعبوياً، وكذلك هيئة أركانه، ولم يشرك بها أحداً.

"أما بالنسبة لمفاوضات متوقعّة بينه وبين الولايات المتحدة، فإن الأمير سيهانوك، قد تشدد في موقفه، مبيّناً أن القرار يعود للمقاومة الداخلية، حتى في إجراء الاتصالات الأولية، قبل أية مفاوضات".

وكان مصيباً في رأيه، في التحليل الذي تقدّم به حول رجحان كفّة الشيوعيين، وما عتمت الأيام أن كشفت عن ذلك. ولقد قام في شهر آيار من عام ١٩٧٣، بزيارة قصيرة، إلى المنطقة المحرّرة من كمبوديا، قوبلت بتقدير ودعاية كبيرتين، ولكنها جاءت بعد فوات الأوان، لأن الخمير الحمر، الذين كانوا يحاولون الحدّ من نفوذه في البلاد، أخذوا ينشرون في خارج البلاد، ما كان قد صرّح به في داخلها. وهناك تقارير أخرى تؤكد أنهم كانوا يطهُرون وبترتيب دقيق، جميع منظماتهم، من جميع العناصر المقربّة من سيهانوك، ويعلنون حملة دعائية، لإفقاده ثقة الجميع، وإبطال ما له من شعبيّة في الأرياف.

وفي هذه الحال، لم تبقى في أيدينا سوى ورقة واحدة، الا وهي تجميد الوضع الراهن. وللتمكن من الوصول إلى ذلك، لن نستخدم سوى القوة الجوية الأمريكية،

لأن التوصيات والتدريبات، التي من شأنها تخفيف نفوذ القوات الكمبودية، بالإضافة إلى زيادة المعونة الأمريكية، كل هذه استبعدها القائمون على التشريع عندنا. والطريقة الجديدة المعدة لتغيير وجهة مسؤوليات هذه القضيّة هي في الإعلان أن القصف قد جرى دون تمييز، وقد سببّ أضراراً فادحة بين المدنيّن، وأن العقاب الممكن فرضه على الخمير الحمر، يمكن أن يحولهم من محاربي عصابات عاديين إلى مقاومين ألدّاء، يدفعهم إلى تقتيل البشرية خلافاً لما طلب. لكن الحقيقة جدّ مختلفة.

تواجدت جميع الشروط الممكنة لهذا الخيار، وللأسف الشديد في بداية شهر شباط من عام ١٩٧٣. فإن الخمير الحمر أجابوا على اقتراح وقف إطلاق النار، بأن شنوّا هجوماً واسعاً، وفيما كان الفيتناميون الشماليون، يرفضون سحب قواتهم، ويستمرون في مساندة حلفائهم، وإعداد الجيوش، وتجهيزها بالصواريخ والمدفعية وإجبار الولايات المتحدة على الخيار بين أمرين: أما المقاومة، أو مواجهة خطر سقوط حكومة كمبوديا الحرة، وفي طبيعة الحال، سقوط حكومة فيتنام الجنوبية أيضاً.

في ضوء ذلك استعيدت العمليات الجوية الأمريكية، كما كشف عن ذلك سوانك وأنديرز، أعيدت حسب النظم القانونية، كما يتخيلها بعضهم بخيالهم الخصب المستفيض، أعيدت ضمن إجراءات سرّية، نفذت من قبلي، عندما التقيت سوانك في شهر شباط، بمعزل عن وزير الخارجية روجرز.

لقد نفذت عمليات (B52) دون احتياط أو تحفظ بموجب خرائط في سفارة الولايات المتحدة، وتمت مراقبة تحديد الأهداف فرقة القوة الجوية السابعة، بواسطة صور حديثة، ورادارات دقيقة، وكاشفات تحت الأشعة الحمراء تسبق كل

غارة وتتبع بطيران استطلاع. وكانت عملياتنا الجوية خاضعة لقواعد دقيقة جداً، تحرم استخدام قاذفات القنابل (B52) ضد أهداف تكون على بعد أقل من كيلو متر من القوات الصديقة، ومن القرى، والمزارع، والبيوت، والبنايات، والمعابد أو الأماكن المقدسة. ولقد حوفظ على هذه القواعد. وحدث بالطبع حادثان مفجعان اثنان خطيران، كما يثبت ذلك سوانك وانديرز، لكنهما لا يمكن أن يقارنا بقصف كثيف منظم على المدنيين.

اننا اليوم على ثقة، انهم هم الخمير الحمر، وليس الأمريكان، أو سيهانوك، الذين وقفوا عائقاً في سبيل السلام في كمبوديا. وكرّرت جهودي، لكنها ذهبت سدى، خلال الأعوام ١٩٧٠ و ١٩٧٣، لأتمكن ان انتزع من الدوق تو وعداً بوقف إطلاق النار، أو تسوية سياسية، تثبت ان حجة هانوي صادقة، من حيث عدم نفوذها لدى الخمير الحمر. غير ان هؤلاء الاخيرين، قد وجهوا انتقاداً لاذعاً لفيتنام الشمالية، لأنها قامت بتوقيع اتفاقية باريس، لاعتبارهم إياها خيانة. اضافة الى انها، حسب رأيهم تحملنا وزر ما نقوم به من عمليات عسكرية في كمبوديا. وفي وثيقة نشرت بعد وصولهم الى الحكم، تثبت انهم كانوا يقاومون جميع الضغوط التي تدفعهم بقوة الى قبول وقف إطلاق النار، وحجتهم في ذلك أن لو قبلت به ثورة كامبوتشا لسقطت دون شك. وجمدوا على أثر ذلك، كل بحث يؤول الى تسوية، لأنهم يريدون إحراز نصر حاسم.

ان الأسطورة التي يشيعونها، هي ان ضراوتهم نتيجة طبيعية لما قمنا به من قصف لمواقعهم تتمكن هذه الأسطورة أن تفي بحاجات ماشوشية والى حين، لكنها سرعان ما تتبدّد إذا وضعت أمام مجهر الحقيقة. ولن يجدوا ما يؤيد ادّعاءاتهم وتأتي الإثباتات التي نقدمها فتدحض ما يدّعون وتبرز للعيان حقيقة مختلفة. ومنذ عامي ١٩٧١ و ١٩٧٢، كان الخمير الحمر، يقومون وعن قصد وتصميم

بممارسات شمولية، وفي جميع المناطق التي يسيطرون عليها، ممارسات سترعب العالم، بعد الانتصار الذي أحرزوه عام ١٩٧٥ ومنها:

تهجير وتشتيت سكان الأرياف بالقوّة، الغاء التنظيمات الاجتماعية التقليدية، والممارسات الدينية والبنية العائلية، تأميم الزراعة الإجباري، تصفية تنظيم الطبقة المتوسطة، إعاقة تكوين مجتمع جديد، وارهاب منظم في قلب الدولة البوليسية الشيوعية.

هناك مراسل فرنسي، لم يغادر تلك البلاد أبداً، وأظن انه كتب افضل ما يمكن قراءته حول المأساة الكمبودية، التي دعاها «المثال الأكمل لتطبيق ايديولوجية يستغلّها منطقها الداخلي حتى النهاية». يعلن فيه بصراحة، ان ما كان يجري لم يكن سوى ممارسات ثورية تقليدية، تعود على الأقل الى عام ١٩٧٢.

واختصاصي آخر، سأل مئات اللاجئين الى فيتنام الجنوبية، بين عامي ١٩٧٣ و ١٩٧٤، يرسم وبأسلوب منطقي، أطر نظام عنيف لتغيير اجتماعي. ويبين ان ما سبق مكروه تجب إزالته. ولم يفته ان يؤكد، ان بدء العمل الفعلي بهذا المشروع، في بعض مناطق كمبوديا. كان منذ نهاية عام ١٩٧١. فلم يكن السبب إذاً القصف الأمريكي الذي سمح بتدفّق اللاجئين إلى الخارج، أو إحلال الرعب في قلوب سكان كمبوديا، لكنها الايديولوجية الشيطانية المطبقة بضراوة لا تحتمل.

كانت رغبتنا ملحة، خلال صيف عام ١٩٧٣، في وضع حدّ لهذه الحرب، لكن الوسائل الوحيدة، التي تمكننا من الوصول إلى ذلك، هو توسيع حكومة فنوم بين وتعزيز قصف مواقع العدو. ولسوء الحظ، فإن البيانات العلنيّة التي كان يدلي بها سيهانوك، كانت دائماً سلبيّة. وعندما كان عائداً من زيارة للمنطقة المحرّرة في الثالث عشر من شهر نيسان، ومستعيداً في ذاكرته، ما قيل له من قبل الخمير

الحمر، فقد صرّح في مؤتمر صحفي عقده في بكين: أنه لن يقبل أبداً بوقف إطلاق النار، ولا بأية تسوية.

إن ترديده صدى نوايا الخمير الحمر، لم يحظ بقبول لدى مضيفي سيهانوك من الصينيين، الذين كانوا على ثقة، بأن انتصار أولئك الثوار يلغي قيمة ورقة سيهانوك، التي كانوا يحتفظون بها بعناية في سبيل مساوماتهم، وهذا النصر نفسه يؤكد سيطرة هانوي على كامل الهند الصينية. وكانوا يؤكدون، بأننا لن نسمح بهزيمة كاملة، لتلك القوات التي كنا فيما مضى شركاء لها. ومتابعتهم الحرب تؤزّم مشاكلهم من حيث السياسة الخارجية، دون التدليل على مخرج لها، وهي على أقل تقدير، تباعد التقرّب من الولايات المتحدة، كأحد أهدافهم الأساسية، كما أكدّت ذلك زيارتي التي قمت بها في شهر شباط لعام ١٩٧٣.

حاول شو ان لاي، وضع حدّ لهذه التعقيدات، وبطريقة غير مباشرة في بداية الأمر، في سبيل تسامحنا. واتخذ عودة سيهانوك إلى بكين، ذريعة للتدليل على رغبات الصينيين. وفي حفل عشاء أقيم على شرف الأمير، في الحادي عشر من شهر نيسان، جرّم شو الولايات المتحدة، لمتابعتها قصفها غير العادل لكمبوديا، وأبدى رغبته في مساندة لون نول الخائن. ثم ظهر مقال افتتاحي في صحيفة الشعب اليومية، كان ينبّه الأفكار إلى نقطة معينّة. أن زيارة الأمير للمنطقة المحرّرة تظهر بوضوح، أنه لا يزال الرئيس الشرعي لكمبوديا. وصعقنا لهذا التنديد، الذي يندر جداً وروده في خطابات شو العامة، وفاتنا تفهم أهم ملاحظاته حول مساندة الصين لسيهانوك، بصفته رئيس حكومة كمبوديا. وحسب رأي شو، فإن زيارة الأمير إلى بلاده كشفت ما كان الخمير الحمر يحاولون إنكاره وهو أن الشعب يحب الأمير ويسانده.

إن ما أغاظنا، هو التهجّم على الولايات المتحدة، ولقد كان فعلاً، إحدى دعايات ماو المجحفة، أكثر مما هو مناورة دقيقة، لفصل الصين عن هانوي والخمير الحمر. ولذا أرسلنا في الثالث عشر من شهر نيسان، مذكرة خاصة شديدة اللهجة إلى بكين، لندلّل على ما لحقنا من خيبة أمل كبرى، من جرّاء تصريحات شو. ونلفت في الوقت ذاته الانتباه، إلى المخالفات القوية، المرتكبة ضد اتفاقية باريس، ولا سيما المادة العشرين منها، المتضمنة وجوب انسحاب لاوس وكمبوديا. وهذه المذكرة، أدّت بالصينيين إلى التساؤل، عما إذا كنا استطعنا فهم دقائق ما كان يهدف إليه شو، وخلصت إلى التأكيد على الاستعداد لبدء مفاوضات على أساس تسوية: "إن الفريق الأمريكي، راغب في تجديد نواياه، من حيث التقيدّ بمضمون ما نصّت عليه اتفاقية فيتنام، ووضع حد لجميع العمليات العسكرية في كمبوديا، والسعي نحو حلّ سياسي، قادر على إيجاد حياد حقيقي واستقلال لهذا البلد. ويقدّر الفريق الأمريكي، بالإضافة إلى ما سلف، ان مسؤولية السعي في سبيل وضع حلول لجميع هذه المشاكل، تقع على كل البلدان ذات العلاقة".

كان تأثّر بكين عميقاً، كما ظهر ذلك من سرعة ردّ فعلها. فإن هوانغ هوا الذي كان حينئذ سفيراً للصين لدى الأمم المتحدة، كلّمني باسمه الشخصي في السادس عشر من شهر نيسان، وهذا أمر غير عادي من قبل دبلوماسي صيني، ما لم يكن على معرفة سابقة، أن البيانات الرسمية، سوف تنكر، ما قال. وأظهر غيظه لعدم إدراكنا حقيقة ما ورد في خطاب شو. وليس على بلاده سوى تأكيد مواقفها السابقة. وطالبنا في الوقت نفسه، بوضع حدّ وبصورة مباشرة لمساندتنا للون نول، وبيّن أن المطالبة بإدخال عناصر جديدة في حكومة ائتلافية، دون رئيسها الحالي لا يزال الخيار الذي طالبت به بكين في شهر شباط.

وجئت في جوابي على النص التالي:

"نحن مستعدون فيما يتعلق بكمبوديا، أن نتعاون معكم، لتحقيق تنظيم ائتلافي بموجب الأسس التي ناقشتها مع رئيس الوزراء في بكين. ليس لنا أي التزام مع شخصية أخرى. ونحن نحبّذ قيام مفاوضات بين ممثلين عن الأمير سيهانوك، والقوات الأخرى.

"إن ما نهدف إلى إجرائه، في الجنوب الشرقي من آسيا، لا يختلف أبداً عمّا تهدفون إليه أنتم. نحن راغبون في منع تشكيل تنظيم أمنيّ يمتد إلى آسيا الجنوبية. والجنوب الشرقي، التي سيسيطر عليها كيان واحد وسلطة واحدة خارجية. إننا حازمون في أن أحسن وسيلة للوصول إلى ذلك، هي في أن كل دولة في المنطقة تستطيع تنمية هويّتها القومية".

وفي الرابع والعشرين من شهر نيسان، عدت إلى الموضوع نفسه، في مذكرة أُرسلت إلى شو ان لاي:

"فيما يتعلّق بالوضع في كمبوديا، أن الفريق الأمريكي، يكرّر استعداده، لإقامة تنظيم يضم جميع القوى السياسية، بما فيها القوة التابعة لسيهانوك. ويبدي الفريق الأمريكي استعداده أيضاً، للبدء بمباحثات بهذا الخصوص مع الفريق الصيني، سواء في واشنطن أو في بكين، بعد وصول السفير بروس".

تأخر الصينيون في الردّ، لكن شو، في أول مقابلة له، في الثامن عشر من شهر أيار لعام ١٩٧٣، مع دافيد بروس، الذي عُين حديثاً، مديراً لمكتب الارتباط في بكين، قال: أن الطريقة الوحيدة لإيجاد حل للقضية الكمبودية، هي في أن يضع جميع الفرقاء ذوي العلاقة، موضع العمل، جميع البنود التي تضمنّتها المادة العشرون.

وهكذا، فإن الصين التي كانت توافقنا على رأينا، كانت ترى أنه يجب على قوات فيتنام الشمالية، إخلاء الأراضي الكمبودية. وعاد شو إلى هذه النقطة فقال: أن لبلاده والولايات المتحدة رأياً مشتركاً، على الرغم من أن وجهات نظرهما مختلفة، ويتلخص رأيهما في أن تكون كمبوديا في سلام، وحيادية ومستقلة، وأن تصبح فعلاً: أكثر سلاماً، وحياداً واستقلالاً عما كانت عليه من قبل. وهذا يعني بالضرورة، استبعاد قواعد فيتنام الشمالية. ثم أضاف: أن هوانغ شين، الذي عيّن حديثاً مديراً لمكتب الارتباط الصيني في واشنطن، والذي سيسافر إليها في الخامس والعشرين من شهر أيار، سيفوّض بمتابعة هذه الشؤون. وكان يؤكد شو على تلقي جوابنا حال وصول هوانغ شين إلى عاصمتنا.

وفي غضون ذلك، كنت منهمكاً في مفاوضات باريس، مع الدوق تو، الذي كان يعتبر حياد واستقلال كمبوديا، مرادفين لتسلّط فيتنام الشمالية. وينفر في الوقت ذاته، من سماع أي حديث حول تطبيق بنود المادة العشرين قبل التسوية السياسية. وهو لا يقبل أيضاً مناقشة أي حلّ سياسي احتراماً لسيادة حلفائه الكمبوديين. إن هذا الاهتمام الزائد باستقلال بلاد اجتاحها عام ١٩٦٥، وسيجتاحها ثانية عام ١٩٧٨، كان مغيظاً، دعا محدّثي إلى عدم الرغبة في سماعه، فبيّنت له في الحال، أن كلينا نطالب، بوقف إطلاق النار. وانتهت مفاوضاتي معه، التي دامت شهري أيار وحزيران، إلى نتيجة سلبية لا تذكر.

انقطعت محادثاتي مع الدوق تو فترة وجيزة، فاقترحت حينئذ على الصينيين متابعة تبادل الآراء رسمياً مع شو ان لاي. ويوم الأحد الموافق السابع والعشرين من شهر أيار، بينت لهوانغ هوا في نيويورك، أن المصالح الأمريكية والصينية، هي حسب رأيي منسجمة. وكلنا نسعى نحو إبعاد شبح تشكيل تكتل يستطيع مساندة

أهداف تسلّط قوات أجنبية. وبعبارة أخرى، أننا نرفض أن نرى الهند الصينية تحت وصاية هانوي ومحسوبة على الاتحاد السوفيتي. وللتمكن من الوصول إلى هذه الغاية، طرحت الاقتراح التالي:

"نحن على استعداد لوقف قصف كمبوديا، وسحب المجموعة الصغيرة من مستشارينا فيها. ونحن على استعداد أيضاً لأخذ الإجراءات اللازمة، لمجيء لون نول إلى الولايات المتحدة. ولقاء ذلك، فإننا نطالب بوقف إطلاق نار. يدوم تسعين يوماً، إذا اقتضت الحال. وإجراء مفاوضات بين فريق سيهانوك، وما يتبقى من فريق لون نول. وخلال القيام بهذه المفاوضات في كمبوديا، سنوعز بإجراء بعض المحادثات بين مساعدي السفير بروس، والأمير سيهانوك في بكين. وحال انتهاء هذا المشروع خلال بضعة أشهر، فلن نعارض أبداً عودة الأمير سيهانوك إلى بلاده.

ولما كان هوانغ هوا، موظفاً محترفاً ومحنّكاً، بادر إلى طلب بعض الإيضاحات فأجبته إني وضعت كامل فكرتي الأساسية بين يدي الدوق تو. لكنه كان يعلم سلفاً، أن هانوي لا توافق على مشروع كهذا، وهي ربما غير قادرة على تأجيله أو تجميده.

أبدى الصينيون استعدادهم للمشاركة في العمل. ففي الرابع من شهر حزيران بعد مضي ثمانية أيام على تقديمي اقتراحي، سلمني هوانغ هوا، الذي كان حينذاك في نيويورك، مذكرة، كانت تتضمن ما يلي:

تقدير ما نبذل من جهود في سبيل إيجاد تسوية للقضية الكمبودية، وهي تؤكد في الوقت ذاته، على جميع الفرقاء ذوي العلاقة، بما فيهم هانوي أيضاً، احترام سيادة فنوم بين. ولما كانت الصين غير قادرة على إجراء محادثات مع الولايات

المتحدة باسم كمبوديا، فإن محادثات مباشرة مع سيهانوك ستصبح ضرورية، آجلاً أو عاجلاً، غير أنها (أي الصين) على أتم الاستعداد ودون إبطاء إلى:

"إيصال اقتراحات الولايات المتحدة إلى الفريق الكمبودي، ولما كان سيهانوك، لا يزال في سفر إلى إفريقيا وأوروبا، فلا يستحسن أن نتصل به بالطرق الدبلوماسية. وزيادة في الحيطة، فإن الفريق الصيني، يرغب صادقاً في إعادة الاقتراحات الأمريكية . . .

وبناء على هذا الواقع غير العادي، فإن المذكرة، كانت تستغلّ حرفياً الاقتراح الذي تقدّمت به إلى هوانغ هوا، وخلصت إلى التالي:

إذا كان هذا المحتوى، يتضمن بعض الخطأ، فنحن ننتظر من الفريق الأمريكي إجراء الإصلاحات اللازمة عليه.

وهكذا فإن الصينيين، كانوا يقدمون أنفسهم وسطاء حقيقيين، وإيصال الفريقين، إلى مفاوضات جادّة حول كمبوديا. ولا يستطيع من يعرف شو، أن يشّك في نواياه. ولو لم يتدخل شخصياً، لما صدرت تلك الايضاحات الدقيقة ولما قام الصينيون بدور الوساطة. إن حكمة الصينيين تحول دون إظهارهم أمام الملأ، أنهم لا تأثير لهم على أحداث جنوب شرقي آسيا. ولم يقدموا على نقل مذكرة أو اقتراح لا يثقون بقبوله.

لقد أوضح شو بجلاء التزام بلاده، بقبول تسوية، تبقي على العناصر الأساسية في جهاز لون نول، وهذا هو هدفنا من جميع محادثاتنا، منذ ما يقرب من عام. إن اقتراح توازن القوى العسكرية في ميادين القتال، أصبح لا يعني النصر الشامل الذي كان يتغّنى به الخمير الحمر، ووقف إطلاق النار سيصون تنظيم

كمبوديا الحرّة. وسيعود سيهانوك بمساندة من الولايات المتحدة والصين، وليس حسب الصورة المؤقتة، التي كان يتمنّاها الشيوعيون، بل بسلطات ضرورية لإرضاء الأحزاب.

ولقبول مثل هذا الاقتراح من قبل اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي في بكين، ولا سيما الرئيس ماو، كان يجب على شو ان لاي، ان يكون في المستوى الذي يمكنه من إقناعه، انه يستحيل على الخمير الحمر، إحراز نصر كامل، لأن واشنطن لن تتساهل في هذا الأمر، بالإضافة إلى انه يخدم تطلّعات هانوي التسلّطية. ويعسر علينا أيضاً حمل الخمير الحمر على قبوله، ما لم يقتنعوا، انه لا يوجد طريق، سوى هذا الاقتراح، لوضع حدّ للقصف الأمريكي. ومن جانبهم فان الخمير الحمر لن يوافقوا، ما لم يقتنعوا انهم لا يستطيعون احراز النصر، ما دام القصف لم ينقطع، وعلى الرغم من عدم تصريح شو بالواقع، فانه لا يزال مثلنا يرى ان ما نقوم به من عمل عسكري في كمبوديا، ضروري لإنجاح سياسته. وقصفنا للمواقع المعادية، هو بمثابة مقايضة للفريقين، فيما لو أن أحدهما لا يقرّه.

ولكن سرعان ما تبيّن لنا ان وضعنا الداخلي، لايدعم كثيراً سياستنا، التي أوشكت ان تصل الى غايتها. كان الرئيس في ضيق نفس شديد، قاضياً وقته، كما أصبحنا نعرفه الآن، يستمع الى تسجيلات محادثاته في مكتبه في البيت الأبيض. ليتأكد مما إذا كانت تعّرض موقفه للخطر. وفي الخامس من شهر حزيران، شكّل مجلس للبت في الاتهامات، وبدأ بتحقيقاته في لوس انجلوس حول السطو المرتكب ضد طبيب الأمراض النفسية دانيال البرغ. وفي السادس منه قبل نيكسون، نتيجة ضغوط لجنة واترغيت، ان يتراجع عن رفضه الذي صرّح به قبل يومين حول اذاعة تسجيلات محادثاته مع جون دين، وفي الثامن منه، تقدم أحد المتهمين بالسطو على

واترغيت، طالباً إعادة النظر في دعوته، لدى القاضي جون سيريمكا، وحجته في ذلك ان الحكومة تحتفظ بوثائق لم يقم بافشاء أسرارها وان بعض الشهود أدّوا شهادات زور ضدّه.

فلم يكن شو ان لاي، ولا أنا بنفسي، نقيم وزناً، لما يحدث من انتكال في النفوذ الرئاسي، بل عزمنا على المضي في مسيرتنا وبكل حيوية. وفي الثالث عشر من شهر حزيران، أثناء لقائي في باريس، بنائب وزير الشؤون الخارجية الصيني جي بينغفي، أثبتّ مجدّداً صحّة ما كان ينوي شو نقله الى سيهانوك مؤكداً على أهمية الفترة الانتقالية، اذ لايزال بحاجة الىعدة أشهر ليتمكن من العودة الىبلاده، ولم يطرأ أي خلاف بيننا، حول الدور الذي يجب عليه ان يقوم به كرئيس دولة. واتفقنا ان يحترم كل منا مصالح الآخر. ووعدت بأن أبدأ حالما يثبت وقف إطلاق النار، بأخذ رأي الأمير نفسه كما كان يطالبنا بذلك. وافق جي علىهذه الفترة الانتقالية (ولمدة ظرف من الزمن) وأبدى ملاحظة قيمّة، اذ بيّن ان العائق الوحيد، الذي يحول دون الوصول إلى تقدّم جديد حالياً، هو تنقل سيهانوك المستمر، عبر العالم، فهو لايتمكن من إيصال الوثائق السرّية والخاصة إليه (ولم يأتِ علىذكر ردود الفعل التي ستظهر على المسرح في المدى البعيد). واذا طاب له التجوال في افريقيا وأوروبا فعلية حينذاك إطالة سفره، وتأجيل تلك المفاوضات، التي كان يسعى الى البدء بها.

وهذا أيضاً كان موضوع الحديث، الذي أجريته في اليوم التالي، الموافق للرابع عشر من شهر حزيران، مع هوانغ شين في واشنطن. وأطلعته على ما قمت به من مباحثات مع الدوق تو، ثم اتفقت آراؤنا حول ضرورة عودة سيهانوك الى بكين. ثمّ قمنا بوضع الأسس، لسفر يجب أن يقوم به، والغاية منه إطلاع شو، على نتائج الزيارة، التي سيقوم بها بريجنيف قريباً إلى الولايات المتحدة، والأمل معقود، ان تكون مناسبة لاجراء اتصالات بالامير سيهانوك.

بيّنت لهوانغ شين في التاسع عشر من شهر حزيران، انه اذا ثبت وقف إطلاق النار في كمبوديا، خلال فترة وجودي في الصين، والمتوقعة في السادس من شهر آب، فاني على استعداد منذ الآن، للقاء الأمير والتباحث معه. وكنا نتحادث في حدود الواقع، وفي غضون ذلك، كان سيهانوك، يكمل أسفاره، دون أن يعير أقل اهتمام للمحادثات التي تدور مع الصينيين. وكأنه يتوجس خيفة من أن الدوق تو وأنا، سوف نتمكن من تسوية القضية الكمبودية بشكل لا يطيقه.

وفي شهر حزيران، بينما كان يقوم بزيارة يوغسلافيا، أدلى بحديث لصديقتي الصحافية القديمة، نيميسيس اوريانا فلاّشي، واستطاع أكثر مني التخلص من مجابهة مع هذه الصحافية الايطالية الرهيبة، مما دلّ على براعته. وأكدّ ان هانوي لا تملك حقّ التكلّم باسم الثوّار من الخمير الحمر، ثم عرض مجدداً موقف الشيوعيين القاسي، ولكن بصيغة حاذقة وغير مباشرة، وكأنه ينقل وجهة نظر حلفائه وليس ما كان يرى هو نفسه «ان الخمير الحمر لن يقبلوا أبداً بوقف إطلاق النار. ولن يستجيبوا أبداً لأيّة تسوية».

تذمّر سيهانوك من القصف الأمريكي قائلاً: «إنه الشيء الوحيد الذي يحول دون دخولنا المباشر الى فنوم بين». لكنه تأثّر مما يحدث في واترغيت، ومن الجهود التي يبذلها الكونغرس لوضع حدّ للنشاط العسكري الأمريكي. ثم أردف: « ان نيكسون في وضع صعب جداً، وفضيحة واترغيت خذلته كثيراً، وفي آخر الأمر، فان مجلس الشيوخ، وكذلك الكونغرس سيعارضان تصريف نفقاته». أما بالنسبة لعلاقاته (أي سيهانوك) مع الخمير الحمر، فهم غير قادرين على خداعه، ولديه حدس كبيرتجاههم. ثم أضاف: «انهم لايريدونني أبداً، وأنا أعرف ذلك. . . على الرغم من اني نافع لهم . . . أنا على ثقة تامّة، بأنه في اليوم الذي أصبح فيه غير نافع

بالنسبة لهم، فانهم سوف يبعدوني . وحسب رأيه، فان كمبوديا، ستصبح في النهاية شيوعية. وبالنسبة له، فليس له مطامع شخصية، ويتمنى الاّ يصبح أبداً مشرّفاً، مثل الملكة اليزابيت أو هيروهيتو.

ولم نطلّع على هذا الحديث، إلاّ في الثاني عشر من شهر آب، وبعد أن قذف زهر النرد وقضي الأمر. وعلى كل حال. لم نعره اهتماماً كبيراً واعتقدنا ان سيهانوك، لابدّ انه نسى الاتصالات الجارية، من جرّاء أسفاره الطويلة. وان شو كان على علم بما يعمل، ولا يسلك طريقاً لايثق من الوصول إلى نهايته وتوصلنا الى انتهاج المسلك الصحيح نحو أواسط شهر حزيران. وأصبحنا قادرين على التباحث بشأن وقف إطلاق النار، وعودة سيهانوك، ومحاولته لقاء القوى السياسية المتواجدة على الساحة السياسية، ليعطي نفسه مجالاً للتحرك بينها وبين الشيوعيين. وكدنا ننجح، على الرغم من كل ما حدث بالنسبة لمستقبل كمبوديا. لكن انهيار المساندة الداخلية، أدّى إلى إفشال اقتراحاتنا بخصوص كمبوديا، كما تزعزع وضع شو في الصين نفسها.



ساهمت عوامل كثيرة، في سلسلة الأحداث الأخيرة، التي أدّت بنا إلى التخلّي عن قضيّة كمبوديا. قبل كل شيء، كانت الحرب قد أنهكت الولايات المتحدة. ومن ثمّ، فان فئة من المشرّعين، كانت تعتقد وبصدق انها تقوم بعمل جيد، تجاه شعوب الهند الصينيّة، من حيث عدم القيام فيها بأي عمل عسكري من قبل أمريكا، وهناك أسباب أخرى، إذ ان الاعتبارات الانسانية كانت تأتي في المحل الثاني، بعد اغتنام ظروف تمكن من تسجيل انتصارات ضد عدو ممقوت، والرئيس أصبح في ضيق نفس شديد، والليبراليون أنفسهم كانوا يسعون إلى تحسين الأوضاع المعادية لحرب مضى على خوضها أربعة أعوام. وتوماس أونيّل، الذي كان زعيم الأغلبية الديمقراطيّة، كان

يصرّح أمام مجلس النواب ان كمبوديا، لا توازي حياة طيّار أمريكي واحد. أما المحافظون الذين ساءهم الاستمرار في حرب نتخبّط بها منذ عشر سنوات، وأضاع صوابهم، ما حلّ من آلام بحامل لوائهم، نيكسون. وفي الختام، أقدم الكونغرس على تحطيم الوفاق الوطني بضربة قاضية، وانتشل الولايات المتحدة، من مسرح عمليات الهند الصينيّة. وهكذا فقد تخلّيا عن شعوب كمبوديا، وتركناها تحت رحمة القدَر.

أخذت التحركات البرلمانية، ضد أعمال القصف، ، بالغليان في شهري نيسان وأيّار. واستنكر العالم عملياتنا الجويّة، واعتبرت غير شرعيّة، في حين ان قاعدتها الدستورية، المستندة إليها كانت متينة. وسلسلة التعديلات القانونية، المعادية للحرب، صوّت عليها الكونغرس في شهر أيّار. ولا يفوتني ان أذكر، ان الدوق تو، أظهر ابتهاجه بحضوري، في شهر أيّار، ممّا يجري علينا من ضغوط، وانها المرّة الأولى، التي لم أتمالك فيها أعصابي فأجبته ان الوضع الداخلي هو من اختصاصنا. وكنت أخشى ان الكونغرس، لن يعتقد إلا بأعجوبة، بتلك الحقيقة المبدئية التي كنت أتفوّه بها في مؤتمر صحفي عقد في الثاني عشر من شهر أيّار:

«علينا جميعنا الاّ ننتظر العمل باتفاق وقف اطلاق النار، بمجّرد كتابته والتوقيع عليه، ويحسن بالكونغرس وغيره من الهيئات الرسمية، التساؤل عن الطريقة، التي تمكن من المحافظة على أيّ اتفاق، دون فرض عقوبات أو تعاون».

كنت أقوم ببذل جهود قصوى، للوصول إلى وقف الأعمال العدوانيّة، قبل تدخّل الجهات البرلمانية. وفي الوقت ذاته تقريباً، أي حوالي نصف شهر أيار، أرسل لي جون ليهمان، المكلف بعلاقات الكونغرس في مجلس الأمن القومي، بتقرير وثيق الصلة بالموضوع، ينبهني فيه إلى ان هناك حملة لإجراء تصويت، ومحاولة وقف القصف. والبيت الأبيض من جهته، كان يحاول جاهداً، في سبيل تجميع أو تأجيل هذه

المحاولات. وحسب رأي ليهمان، ان واترغيت هي العامل الحاسم في التصويت المعادي. ومع ذلك، فهو يرى بكثير من التفاؤل، انها ظاهرة عابرة.

وفي بداية شهر حزيران، ساء الوضع كثيراً من حيث الإطار التشريعي. وفي الرابع منه، صدّق مجلس الشيوخ التعديل الذي كان يطالب به شيرش، فألغيت جميع الأموال التي كانت مخصّصة للعمليات العسكرية في الهند الصينيّة. وكان ليهمان، يعلمني بمذكرة أرسلها إلي في الخامس منه، انه يمكن تأجيل وقف القصف حتّى نهاية الشهر« وبعد هذا التاريخ، سنصبح عرضة لمخاطر كبيرة، ويبقى أمامنا أمل ضئيل». وسجّلت بعض الانتصارات، وتأكّد عدد من مجلس الشيوخ بوجوب الانتظار على الاقل، إلى أن انهي محادثاتي في باريس مع الدوق تو. وأخذنا نؤمّل تعزيز موقفنا، إذا أحرزنا نتائج إيجابيّة.

وتملّكني اليأس، إذ ان وقف القصف، سينتزع من ايدينا، الورقة الوحيدة الرابحة، التي تمكننا من المقايضة، والمحرّض الوحيد الذي يحمل الصينيين على الالتزام بما تعهّدوا به. ان شو كان بحاجة إلى ما يمكّنه من القول للخمير الحمر، انه توصّل إلى وقف غاراتنا الجويّة، لقاء تسوية، تضم سيهانوك، وبعض العناصر من التنظيمات القائمة حالياً. ان المفوضات الجارية، وباتجاه حسن، هي آخر ضربات زهر النرد. وفي حال فشلها، فان كمبوديا، متبوعة قريباً بفيتنام الجنوبيّة وتلحق بهما لاوس، تسير نحو الوقيعة والدمار. وفي الثامن عشر من شهر حزيران، أستدعيت ميلفن ليرد، الذي أعيد إلى الحكومة وبصورة مؤقتة، على أثر فضيحة واترغيت بصفة مستشار للرئيس للشؤون الداخلية. وأعلمته ان الصينيين قد وعدوا بالتوسّط: «ولا اتمكن من القول انهم يعزمون على التوسّط، إذا لم يقدّروا نجاحهم في مهمّتهم». وأقترحت التوصّل إلى مهادنة مع رئيس مجلس النواب، كارل ألبرت. وجورج ماهون،

رئيس لجنة موازنة مجلس النواب، وأتعهّد بأننا سنوقف القصف في الأول من شهر أيلول، مهما تكن نتيجة المفاوضات، وعليهما من جهتهما ان يصرّحا لنا، بعدم الكشف عن هذا التوقيت، لنتمكن من استخدامه في المجال الدبلوماسي، وينتظر الخمير الحمر تجاوزه. وافق ليرد على نقل اقتراحي، غير مؤمّل له النجاح. انه وهو المحرّك لجميع اللجان البرلمانية، كان على ثقة بأننا استنفدنا جميع وسائلنا.

ولكل يوم يمضي قيمة وتقدير، وكنا قد علمنا ان سيهانوك يعود إلى بكين في الخامس من شهر تموز، وأننا نستطيع السير ضمن مخطّطنا. لكن الكونغرس لاينوي الإنتظار. وفي الخامس والعشرين من شهر حزيران، في اليوم ذاته الذي كان بريجنيف يغادر الولايات المتحدة، وفيما كان جون دين قد بدأ بالإدلاء بشهادته أمام مجلس الشيوخ، جرى تصويت نهائي في مجلس النواب، حول التعديل القانوني الذي كان يطالب به إيغلتون، وهو البند الذي تذرّع به مجلس الشيوخ لإلغاء الأرصدة المخصّصة لقصف كمبوديا. وإذا ضُمت هذه مع ملحق إلى مشروع قانون مالي لتمويل أنشطة الحكومة، بعد انتهاء السنة المالية، فكيف يمكن تجميدها في حال اعتراض الرئيس عليها؟ وفي الحقيقة، إذا لم يطّبق القانون، فان جميع الاجهزة الحكومية ستصاب بالشلل، لنقص الاموال. ومن سان كليمانت اتصلت بعدة أعضاء في الكونغرس، وبيّنت لهم، انه مهما تكن الأسباب، فسنوقف القصف في الأول من شهر أيلول، وأرجو ان يبقى هذا الالتزام سرّاً، حتى لاتسوء الفرص التي نمنّي بها نفوسنا في الوصول إلى وقف إطلاق نار في كمبوديا. وليس لدي إيضاحات عن المبادرة الصينيّة، ولكني على اطلاع ان هناك عدة تلميحات حول إجراء مفاوضات.

ولسوء الحظ فان توقيت الأول من شهر أيلول قد أفشي سرّه. ولم يبقَ أمامنا سوى تسوية عامة، وهي وحدها الكفيلة بوضع حدّ للحالة الراهنة، مع إعادة بعض

الثقة إلى الحكومة، عساها تتمكن من تخفيف الضغوط، في سبيل الحصول على وقف اطلاق نار عاجل للقصف. وإذا أفشي التوقيت، فلن يكون لإستراتيجيتنا أيّ صدى، ولا يبقى أمام الخمير إلاّ الانتظار. ومن ثمّ، تعادلت الأصوات في تصويت أجري لهذا الغرض وكانت مائتين وأربعة أصوات مقابل مائتين وأربعة، فحُرمنا من جرّائه بعض التخفيف مما يُعاني وضعنا. وصوّت مجلس النواب، على شطب التعديل الذي يطالب به ايغلتون حول إلغاء النفقات مباشرة.

وفي اليوم التالي، أي في السادس والعشرين منه، ألحقت تعديلات معادية للحرب، بأحد القرارات المكمّلة، والتي تسمح بتمديد الموازنة الحالية، ريثما يُقر مجلس النواب أرصدة جديدة. وبانتظار صدور قانون يرفع سقف النفقات العامة. وبالاختصار، كان خصومنا على استعداد لتجميد كل تحركات الحكومة، لإضعاف العمليات الحربية في الهند الصينيّة، وهي تكاد تكون سيلتنا الوحيدة للمحافظة على حرّية حلفائنا.

أما الكونغرس وقد صمّم على إقرار الإنسحاب، الذي تحاشته السلطة التنفيذية، منذ ما يقرب من خمس سنوات خلت، فإنه عزم على عدم الأخذ بكل تلك الأسباب التي تؤدّي إلى تعقيد الدبلوماسيّة. وكذلك لم يكن المشرّعون ينتظرون قيام معارضة عارمة من قبل الجمهور، لمنع التسلّط الشيوعي، على اجزاء من الهند الصينيّة. ونهجنا السياسي لا يستطيع العمل، إلاّ من خلال انفراج تسانده الثقة المتبادلة لمنظمات متساوية بينها، لكن هذه الثقة قد زُعزعت بل دُمّرت، بعراك مستميت استمرّ طوال دوام بقائنا في فيتنام، لا سيّما بعد ان أضيفت اليها فضيحة واترغيت. وسيطرت على هذا النزاع رغبة تصفية الحسابات، أكثر من السعي في الوصول إلى هدف عام. ومعاناة الحكومة لم تكن على العموم مفهومة. ونحن نعلم ان الرأي العام مربك، والكونغرس مغاير لرغباتنا، ومع ذلك كنا نقدّر أن في حال تخلّي السلطة

التنفيذية عن أصدقائنا القدامى، للتسلّط الشيوعي، فلا شك في أن الثقة التي يهبنا إياها العالم، ستندثر، ومن ثمّ ستكلّفنا غالياً.

كنّا إذاً نهتم وباستمرار، في الحصول على وقف إطلاق نار مشرّف، وفي غمرة هذا القلق، استدعاني ميل ليرد إلى سان كليمانت، وكنت إذ ذاك في واشنطن، وكان ذلك بتاريخ السادس والعشرين من شهر حزيران. وغايته من استدعائي هي إطلاعي على مايدور من نوايا مظلمة في جوّ سياستنا، (ليطلب إليّ ضمنياً عدم معارضة التعديلات الراهنة) وكان جون دين قد أخذ بالظهور منذ ليلة أمس على شاشة التلفزيون، وكان ليرد يعزو إلى شهادته هذه غير الملائمة، التصويت السلبي الذي جرى في اليومين الأخيرين. ففهمت من ذلك وبكل وضوح بأن كل آمالنا في كمبوديا ستنهار إذا أوقفنا القصف. وإني اعتقد جازماً، اننا نستطيع انهاء مهمتنا خلال شهرين. وسألته عمّا إذا كان قادراً على مساعدتنا. ولكن يا للأسف، فليس هناك من عون، لا في الأموال، ولا استكانة في الدعاية. وقمنا بمحاولة جديدة للوصول إلى تسوية، لنتمكن من تأجيل وقف القصف، حتى الأول من شهر ايلول ففشلنا أيضاً. وهذه المرّة بأربعة وعشرين صوتاً، كنا إذاً ندور في حلقة مفرغة كاملة، ومع ذلك، لايزال أمامنا متّسع من الوقت لكسب التأجيل، هذا إذا ساندتنا الحكومة، وعلى أيّة حال فهو يتطلّب نقض مفاوضاتنا.

وحسب رأي ليرد، فان مصير أمرنا يتوقّف على قبول الحكومة توقيتاً بحدّد بخمسة وأربعين يوماً، وهذا يعيدنا حتماً إلى النقطة التي انطلقنا منها. وهذا يُفضّل على وقف قصف مباشر، لكنّه قادر دون شك على قطع كل أمل لنا بوقف إطلاق نار. وهذا بالطبع لا يعكّر صفاء ليرد الذي قال: ان وضعكم السياسي سيتحسّن، ولا أعتقد ان كمبوديا تقدّم شيئاً يعود بالنفع علينا، دون مقابل، ورغبتي الشخصيّة تحميلها مسؤولية ما يجري. أما بالنسبة لي، كان يهمّني الحل أكثر من الحجج

الواهية، وتضايقت نفسياً، لانهيار جميع الفرص، التي كنت أنتظر ان تؤدي بنا إلى سلام ولو كان هشّاً في كمبوديا.

وفي السابع والعشرين من شهر حزيران، استخدم الرئيس حق النقض للملحق الميزانية الثاني المتضمن «بند كمبوديا» وأعلن بكل صراحة ان وقف القصف سيعرّض للخطر ليس كمبوديا فحسب بل التوازن الهشّ في الاتفاقيات التي تفاوضنا بشأنها، وتوحيد صفوفنا سياسياً، ومواردنا العسكرية، التي يتوقف عليها السلام في الجنوب الشرقي من آسيا، وهذه كنت ابني عليها شخصياً تقديراتي، لأهمية الاتفاقيات الفيتنامية. فجمع مجلس النواب في السابع والعشرين من شهر حزيران أكبر عدد من الأصوات، الصادرة ضد الحرب حتى الآن، فكانت مائتين وواحداً وأربعين صوتاً ضد مائة وثلاثة وسبعين، وهكذا فقد نقص خمسة وثلاثون صوتاً للحصول على أغلبيّة الثلثين، التي تسمح بصرف النظر عن الفيتو الرئاسي. غير ان العائق لم يكن سوى اجراءات برلمانية، وليس بمقدورنا تحاشي الضغوط إلى أجل طويل. واتفق مجلسا النواب والشيوخ، على تعديل مماثل في إطار اتخاذ القرار اللازم، الذي يسمح لجميع التنظيمات الاتحادية بالعمل بعد تاريخ الثلاثين من شهر حزيران، وقرار آخر يرفع سقف الدين العام. والزمن كفيل بتنفيذه.

ولم تهن فقط عزيمة حلفائنا في الكونغرس، بل شاركتهم في ذلك أجهزتنا الحكومية، وهيغ وحده، كان يساند بجدّية سياستنا. وماكان أحد يجرؤ على العودة إلى مناقشة قضيّة فيتنام، ونحن في أوج فضيحة واترغيت وهذا بالطبع كان غير مألوف. وكان الأخصّائيون البرلمانيون في البيت الابيض يعتقدون ان علينا مجابهة تعديل إثر تعديل، إلى ان يرفض الفيتو، لكن ميل ليرد لم يفتأ يطالب بتسوية، أي ان يقبل الرئيس بتحديد الخامس عشر من شهر آب موعداً لايقاف القصف، ومازلتُ أنا

أبيّن له ان هذا ليس سوى إجراء يبطل تلقائيا: «سيطرحون بكل شيء في مجرى الماء. ودون أي مقابل». أما من جهة الرئيس فكان يرى، اننا لانملك الخيار، إذا أردنا ان تكمل الحكومة تدابيرها. وهذا بعث المرارة في نفسي:

«انه أحد القرارات الأكثر دناءة والأكثر حقداً، ذلك الذي استطاع الكونغرس إصداره. والذي سيسبّب لنا أضراراً قاتلة، لدى الصينيين لانهم سيقولون بينهم وبين أنفسهم: إذا كان الكونغرس يقدم على أمور كهذه بالنسبة لكمبوديا، فما عساه يفعل بالنسبة لنا؟ ».

وفي التاسع والعشرين من شهر حزيران، وافق الكونغرس على تسوية تحديد تاريخ الخامس عشر من شهر آب موعداً لايقاف القصف، حسبما تقدّمت به لجنة الشؤون الخارجية في مجلس الشيوخ، ولقاء هذا التمديد، الذي لايجدي، فان خصومنا طالبوا بمنع أي عمل عسكري، بعد هذا التاريخ في جميع أراضي الهند الصينيّة، وبقي ميل لير محافظاً على مناصرتنا، فأعطى الضوء الأخضر لزعيم الأقلية الجمهورية، جيرالد فورد، لقبول التسوية. على كل حال، فقد اتصل فورد بالرئيس، الذي ثبّت القرار بنفسه. وعندما التقيت الرئيس، وبيّنت له احتجاجي، أجابني ان الوقت قد فات، لانه أجبر على عمله نتيجة ضغط قوّة عظمى. انه تراجع غير مقبول، لاسيّما إذا كانت الشهادات التي أدلى بها جون دين، قد جرّدته تماماً من جميع إمكاناته الداخلية.

وابتهجت أكبر الصحف. وأعلنت في الثلاثين من شهر حزيران، عن قبول الرئيس نيكسون، بإيقاف قَصف كمبوديا، بعد تاريخ الخامس عشر من شهر آب. وزعمت النيويورك تايمس، ان هذه التسوية، ستسمح بمتابعة «مفاوضات دقيقة» . يالها من فكرة وهمية، بل خداع!!! لقد اغتيلت المفاوضات!!! غيّر نيكسون رأيه، لكن

القطار قد فاته. ففي الثالث من شهر آب، قبل ان يصبح وقف القصف نافذاً بقليل، كتب إلى رئيس مجلس النواب، كارل ألبرت، وأيضاً إلى زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ مايك مانسفيلد:

«سيكون لتخلّينا عن صديقنا، أكبر الأثر في بلدان أخرى، ومنها تايلند، وراهنت جميعها على وفاء وعزم الولايات المتحدة. واني أؤكد على الكونغرس بتحمل جميع النتائج الناتجة عن أعماله. . . وأؤكد خصوصاً على اطلاع الشعب الكمبودي الشجاع، المطوُق والمحاصر، ان إيقاف قصف بلاده، لايعني أبداً تنحّي الإدارة الأمريكية، عن بذل جهودها، في سبيل إيجاد سلم دائم في الهند الصينيّة. . .

«أني آمل فقط، ألا يفسر الفيتناميون الشماليون خطأ، حسن نية مجلس نوابنا، ويعطون لنفسهم حرية القيام بهجوم عسكري في مناطق أخرى من الهند الصينية».

ولم يكن التهديد سوى خداع. وفيما كان أكبر عدد يصفّق حدّد القانون، نهاية العمليات الحربيّة. ولم تبقَ لدينا وسيلة في فيتنام نتمكن بها من مواجهة هجوم تقوم به هانوي. أما بالنسبة لكمبوديا، فإن ماتقوله العامّة كان معروفاً، لقد فسَدَ لون نول، وليس هناك من خيار، بينه وبين الشيوعيّين، وأصبح القصف عملاً اجرامياً، وإيقاف نشاطنا العسكري، هو إذاً عمل انساني تجاه الشعب. ان نتائج الأمور بالنسبة لباقي أراضي الهند الصينيّة، أو السلطة الرئاسية، وكيفيّة اعتبارها لدى الأجيال المقبلة، وسمعة أمريكا كحليف موثوق، اعتبر جميع هذا مكراً. أما القصف، فبدلاً من ان يحث على إجراء مفاوضات، اتخذه لون نول حجّة لتلافيها، وإثارة لمعاداة الخمير الحمر. وأجتمعت جميع هذه الأقاويل في مقال افتتاحي لصحيفة واشنطن بوست، عبّرت من خلاله، عن وجهات نظر قسم كبيرمن الرأي العام:

«يبدي الرئيس تخوّفه، من قيام«حكومة في فنوم بين، تأتمر بإمرة هانوي»، دون

تساؤل، عمّا يراود هانوي من أفكار حول قيام حكومة تسيطر عليها واشنطن. ولا شيء يدعو للمناقشة، فمهما يكن من أمر من يستولي على السيادة في فنوم بين، فان هانوي قادرة على اكمال مسيرتها من حيث استخدام كمبوديا، قاعدة لتموينها، ومعقلاً في فيتنام الجنوبيّة. وكل هذا معروف لدى نيكسون تماماً، ولدى جميع الناس، منذ شهر كانون الثاني، علماً أنه قام بتوقيع اتفاقية وقف إطلاق النار، لسبب بسيط، وهو تقديره ان فيتنام الجنوبية ستكون في وضع يمكنها من تخليص ذاتها، على الرغم من وجود مشكلة كمبوديا على حدودها. اما ان نزعم الآن، كما يفعل نيكسون، ان إيقاف القصف يسبّب انهيار التوازن في جنوب شرق آسيا، يمكننا اعتبار هذا مغالاة بلا حدود، وإذا احتوت على بعض الحقيقة، فإنها تبعث الشك في ديمومة كل تسويات شهر كانون الثاني.

«غير ان نيكسون عندما يقول، يمكن اعتبار إيقاف القصف، بمثابة ضربة قاصمة لمصداقية أمريكا الدوليّة، فهذا كلام لا معنى له، وإذا لجأنا إلى حسن فهم وتقدير الشؤون الدولية، فاننا نتمكن ولا بدّ من تقدير النجاح الذي أحرزه نيكسون نفسه، من حيث تحسين العلاقات مع روسيا والصين. ولا يجوز للرئيس أن يفكر، بل ليس من صالحه، أن يؤكد على ان ما يقيمه من بناء جديد للسلام سيتزعزع، إذا لم يسمح له بالاستمرار في قصف الكمبوديين التعساء بالقنابل. وهذا يحملنا على الإعتقاد ان سياسته الخارجية بكاملها ليست سوى تضليل، وهذا رأي لا نسمح لأنفسنا المشاركة فيه.

وفي الواقع، كثيرون هم الذين يعتقدون، ان نصراً شيوعياً، يمكن ان يكون مفيداً، ويؤدّي إلى حكومة حيادية، ومن ثمّ إلى عودة سيهانوك، ويغيب عن بالهم، ان هذا الأخير، لم يبقَ لديه ما يفاوض على أساسه، وان العناصر غير الشيوعية اللازمة

لائتلاف كهذا، حكم عليها بالإبادة بقوّة السلاح. ونشرت النيويورك تايمس مقالاً، في الرابع عشر من شهر آب، أعادت فيه ما كانت قد قالته سابقاً، من أن التدخل العسكري الأمريكي، قد جمّد مشروع السلام، لكن الكونغرس أتاح الفرصة لإجراء مفاوضات، فيما كان يعتقد انه يحرّمها، وهذه نغمة معروفة:

«هناك دلائل تشير، إلى ان فريقي النزاع الكمبودي يسعيان لحل سلمي، لا سيما الآن، والنيّة تتّجه نحو سحب المعونة العسكرية الأمريكية لنظام لون نول، بأمر من الكونغرس، وسرت بعض الشائعات من فنوم بين وكذّبتها واشنطن، من أن هناك هيئات رسمية كمبودية، تقدمت بطلبات تحث فيها حكومة الولايات المتحدة، على صرف لون نول عن حكم البلاد وإعادة الأمير سيهانوك. ومن كوريا الشمالية حيث كان يُقيم، تحاشيا لالتقاء يتوقعه مع هنري كيسنجر في بكين، فقد أبرق الأمير إلى صديقه القديم مايك مانسفيلد، زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، بأن يقترح على الولايات المتحدة «حلاً مشرفاً» إذا قبلت بالتخلّي عن لون نول وعن مساندته.

«لن تصيب حكوّمتنا شرفاً كبيراً، عندما تحاول إعادة تنصيب حاكم هجر بلاده ثلاث سنوات، لكننا عند تدقيق الأمور، نجد ان اقتراح الأمير هو المفضّل، وتمكن معالجته حالياً، لا سيّما إذا حظي بمساندة من قبل النظام الكمبودي الحاكم. أن سيهانوك ربط مصيره وبصراحة بشيوعيي بلاده، في معركته في سبيل العودة إلى الحكم، ولنأخذ بعين الاعتبار ما يتمتع به من صفات الحكم كقومي متحمس. قادر على مقاومة كل تبعيّة لسلطة خارجية مهما تكن، لا حاجة لمناقشتها».

وورد النص نفسه في صحيفة الواشنطن بوست الصادرة في الثامن والعشرين من شهر آب إذ جاء فيه:

لقد اتفقت آراؤنا، على ان كمبوديا محايدة، ويحكمها سيهانوك، هو الحلّ

المنشود، ومنذ ستة أشهر ودبلوماسيّتنا تسعى جاهدة لإيجاد عناصر محلية، تساعدها على تحقيق ذلك. وضغوطنا العسكرية التي كنّا نمارسها، هي من ضمن تلك التدابير. لكن المنع الذي فرضه الكونغرس، أزال كل إمكانيّة في إيجاد كمبوديا حرّة ومحايدة.

يمكن ان يكون نصر الشيوعيين الحاسم، شبه مضمون من الآن فصاعداً، وأصبح أمر سيهانوك ثانوياً تقريباً، مثل لون نول، ويتساهل الخمير الحمر بطرحه للاستهلاك الخارجي، وسيوضع جانباً بأقصى سرعة، عند الوصول إلى الحكم كليّاً. وهكذا نرى ان الكونغرس يستبعد موضوعه وبكل ثقة، أسوة بحكومة فنوم بين.

❐ ❐ ❐

بقينا سائرين ضمن المخطّط الذي انتهجناه، في غضون بضعة أسابيع، ولما كان المفاوضون الشيوعيون يخشون نصب شرك لهم، لذا أخذوا بعضاً من الوقت للتأكد من أن قوة عظمى، تتخلّى ودون إكراه عن جميع التزاماتها. وفي السادس من شهر تموز، يوم عودة سيهانوك إلى بكين، اقترحت حكومة فنوم بين وبصورة رسميّة، إجراء مفاوضات مع الفريق الآخر. وهذا مؤشر على وجود إطار دبلوماسي للمبادرة الصينيّة، التي كنا ننتظرها. وكتب موريّ ماردر في الحادي عشر من شهر تموز معتذراً عن التأخير.

"لو صدرت هذه المبادرة منذ شهر شباط، حين كان سيهانوك يبدي استعداده لمحادثة كيسنجر في هانوي أو بكين، لتمكن الفرقاء المتخاصمون من الوصول إلى اتفاقية، أو كادوا يتوصّلون إليها".

وهذا التعليق يوضح مخاطر وثمن الدبلوماسيّة السرّية. إن الخمير الحمر

كانوا معارضين لإجراء أية مفاوضات بيني وبين سيهانوك في شهر شباط، ومن ثم فإن تسوية من هذا النوع، كانت قد اقترحت ليس مرّة واحدة فحسب، بل عدة مرّات، منذ بداية العام، وكانت ترفض في كل مرّة. وإذا ظهرت الآن قابلة للتحقيق، فإن سبب ذلك هو نجاحنا في إبطال مفعول خصمنا ميدانياً، لكن هذه الورقة الرابحة التي نتمتع بها حالياً، سوف تنزع من أيدينا من الآن فصاعداً.

وأصدق برهان على ذلك هو تصرّف سيهانوك نفسه، لأنه كان قد اتهمني طوال عدّة شهور، بنكث وعودي في مفاوضته، وتذمر في الوقت ذاته، من وضع مؤيديه المتصلّب، في سعيهم لإحراز نصر حاسم بواسطة الخمير الحمر. ولدى عودته (أي سيهانوك) إلى بكين، علم أننا اقترحنا إيقاف القصف، وإجراء مفاوضات، بيني وبينه في بداية شهر آب. وبديهياً، فإن شو ان لاي يؤيد هذا الحل. غير أن الأمير بعد اطلاعه على ما اتخذ الكونغرس من قرارات، انقلبت أفكاره. لأن الخمير الحمر، بعد تفحصّهم للوضع العسكري حسب تقديرهم وكيف يجب أن يكون في بداية الصيف وصلوا إلى نتيجة تقول، ما دام القصف قد أوقف، فليس ثمة حاجة إلى تسوية. وتحاشى سيهانوك في الخامس من شهر تموز، التصريح عن رغبته في إجراء مفاوضات، مبيّناً أن الكلام لا يجدي والوقت قد فات. حتى أنه تكلم بصراحة. عن عزم الثوار من الخمير الحمر، على متابعة القتال حتى النهاية.

حافظنا على رباطة جأشنا، وحاولنا مع ذلك متابعة المحادثات بوساطة الصينيين. وفي السادس من شهر تموز لعام ١٩٧٣، سلمني السفير هوانغ شين، الذي كنت استقبلته في سان كليمانت، مذكرة تتضمن أن صبر شو ان لاي قد نفذ، وهو في طريقه لإيجاد مخرج. وكان الصينيون يتذمرون من إشاعات وأفكار، تصدر

عن صحافة الولايات المتحدة، حول مفاوضات بين لون نول وسيهانوك، وهذا الخطأ تعززه المذكرة إلى حكومة الأول، على الرغم من أن مسؤولين أمريكيين، أصدروا تصريحات حول هذا الموضوع وقد أظهرت المذكرة أن هذه التصريحات تربك إيجاد تسوية للقضية الكمبودية، "لاسيما أنها بين تلك الجهود المستميتة التي تبذلها الحكومة حتى أن الكونغرس لا يحرمّ القصف".

فأجبت على المذكرة بعرض جديد لموقفنا. وأكد هوانغ شين، أن بكين لا تزال ثابتة على وعدها، من حيث إبلاغ سيهانوك، جميع اقتراحاتنا بعد أن عاد من الخارج. وأكد لي هوانغ شين أيضاً، أن بكين ترحب بزيارتي لها في بداية شهر آب. وكان شو ان لاي، لا يخفي سروره من مشروعنا المشترك، وهذا دليل واضح على أن الصينيين لا يخلفون الوعد في عهد يقطعونه على أنفسهم.

إن اللقاء الذي جرى في اليوم نفسه، بين رئيس الوزراء الصيني، ووفد من الكونغرس يرأسه عضو مجلس الشيوخ وارّن مانيوزون كان مناسبة للكشف عما تعانيه بكين من ضغوط بسبب مجرى الأحداث غير المنتظرة في واشنطن. وصرّح شو أن لاي، عن رأيه الأخير، حول سياستنا في كمبوديا، بما فيها القصف. وبكل تأكيد، كي يتمكن من إيصال المخطط المتفق عليه إلى نهايته، اضطر أن يقول أنه هو الذي حمل واشنطن، على إيقاف القصف، مساهمة منه في مساندة مشروع السلام. فطمأنه عضو مجلس الشيوخ مانيوزون بطريقة لائقة وفخمة، بعدم الاهتمام بعد بالقصف، وعليه أن يطيل باله قليلاً، فالقصف سينتهي وبكل تأكيد في الخامس عشر من أب، وهذا بفضل الكونغرس. واغتاظ شو كثيراً، وهو الذي كان يسعى للمحافظة على ورقته الرابحة، وأجاب أنه لا يستطيع الصبر بينما كانت القنابل تمطر كمبوديا. فكرر مانيوزون كلامه وقال: لا شيء يدعو إلى الخوف، فإن

الكونغرس جاد في وضع حدّ لكل هذه الأمور. فظهر الارتباك الشديد على الوفد، كما حدثني بعدئذٍ دافيد بروس لاسيما عندما غضب شو، ولم يستطيع تمالك روعه، فيما كان مانيوزون يكمل همهمته: "لقد أوقف القصف".

وكما كنا نتوقع، فقد تضاعفت دلائل التردّد في لقاء شو بمانيوزون وفي الحادي عشر من شهر تموز، سلمني دافيد بروس، تحليلاً عن الدبلوماسيّة الكمبوديّة في ضوء زيارتي المتوقعة للصين. وقد ظهر أن بكين تباطئ خطاها وأخذت تتنصل شيئاً فشيئاً من المفاوضات المرتقبة حول كمبوديا. وأخذ بروس يتجه إلى خلوّ يديه من ورقة رابحة يديرها في هذا السبيل:

"يعتقد الصينيّون، أن كمبوديا ستسقط شبه ثمرة كاملة النضج بين يدي سيهانوك، وشكوك تساورهم في داخلهم، حول قدرته في السيطرة على الخمير الحمر وغيرهم من الثوّار. ولا بدّ من الانتظار في هذه الأثناء".

ونفخت رياح غير مؤاتية في اليوم ذاته. ووافق الصينيون على استقبالي في الاسبوع الأول من شهر آب. وكانوا سابقاً قد سمحوا لي باختيار الوقت. وعندما اقترحنا في نهاية حزيران، ان يكون الموعد في السادس من شهر آب، سمح للصحافة الصينية بالإعلان عن هذا التاريخ. وأعلنا نحن عن هذا الموعد في صحفنا في السادس عشر من شهر تموز، وفي الحادي عشر من هذا الشهر، أعلمونا ان هوانغ شين قد استدعي الى بكين، وهذا شيء غير منتظر، والإعلان عن الزيارة يحتاج الى أخذ رأيه، وهذا يعتبر بمثابة دليل واضح على تعديل رأيهم.

قصدت ان أدفع بالأمور الى الأمام، فكلّفت الجنرال سكاوكروفت، بزيارة معاون مدير مكتب الارتباط الصيني، السفير هان كسو، وتذكيره، اننا خُيّرنا في اختيار أي

يوم من الاسبوع الأول في شهر آب، ونقل له، اختيار اليوم السادس من شهر آب المذكور، مقترحاً عليه اصدار اعلان باختيار هذا اليوم بتاريخ التاسع عشر أو الثالث والعشرين من شهر تموز، ثم بينت له: حسب معلوماتي أذا عدت فارغ اليدين بالنسبة لموضوع كمبوديا، ستعترضني صعوبات جمّة من حيث التمكن من متابعة سياسة واقعية، تهدف الى المصلحة القومية. وكان سكاوكروفت يأمل ان يعلمنا الصينيون بما يجب اصطحابه بالنسبة لوَضع كمبوديا.

ان الوقاحة سلاح الضعيف. فوجهّت أنظاري نحو أوراق، تفقد قيمتها من يوم الى يوم. وربط العلاقات الصينية الأمريكية، بحل قضية كمبوديا، يعني تأزيم المعضلة الصينية، دون اعطائها أوراقاً اضافية رابحة. والواقع المؤلم، هو ان شو، فقد إمكانية التأثير على الأحداث، ومردّ ذلك الى أخطاء التدخل الأمريكي. ولقد دمّرنا بأيدينا إطار المفاوضات، التي كنا نحن بأنفسنا قد اقترحناها. والزعيم الصيني الأكثر اقتداراً، لا يملك بعد وسيلة يطالب بها الخمير الحمر بالتراجع عن نصر حاسم، قدّمناه لهم بتصرّفاتنا.

وأعلن سيهانوك في السادس عشر من شهر تموز، انه لايزال يبدي اهتمامه لتوازن القوى الجديد. وفي تصريح له مسبق الإعداد، عرض بكل دقة ووضوح، سياسة الخمير الحمر، واذاعت وكالة الأنباء الصينية كسينهوا، رسالة سيهانوك الثالثة والأربعين الى شعب الخمير الحمر. واستبعد كل تدخل ومحاولة في سبيل تحريك المفاوضات. وبيّن أيضاً ان الشروط الوحيدة للحل هي انتصار شيوعي كاسح. وفي اليوم التالي، كان يشوب تحدّيه هذا بعض اليأس، لأن ما يصممه الخمير نحو كمبوديا، يهدم جميع آماله، ثم قال لأحد مراسلي رويتر: انه يعدّ نفسه غير مسؤول، عما سوف يجري بعد تحرير فنوم بين. وان على الخمير الحمر تحملّ كامل مسؤولية البلاد.

وفي مساء يوم الثامن عشر من شهر تموز سقطت شفرة المقصلة على مساعينا لحل قضية كمبوديا. إذ سلم هان كسو، الجنرال سكاوكروف، مذكرة تبيّن أنه ولأسباب مختلفة وشديدة التعقيد، فإن الصين ليست بعد على استعداد لإبلاغ سيهانوك اقتراح أمريكا، حول إجراء مفاوضات. وتتوقف المذكرة، عند التذكير بالعودة إلى الإجراءات القصوى، التي يستخدمها الخمير الحمر، وهي معروفة بالطبع، منذ الأشهر التي تعهدت فيها بكين أن تسعى لإيجاد تسوية. وها أن الصين تسارع الخطى في حملنا على قبول تلك الإجراءات، ومهملة إلى غير رجعة موقفها السابق الذي يقول: إذا أصبحت كمبوديا حمراء بكاملها، فإن هذا يعقّد جميع مشاكل العالم.

ولما كان الصينيون لا يثقون أبداً، بأن الفكر الغربي، لا يتعمّق في حقائق الأمور والأوضاع مهما تكن، فقد بعث شو ان لاي بمذكرة جديدة شديدة الوضوح. لقد أبلغونا في اليوم التالي، الموافق التاسع عشر من شهر تموز، أن زيارتي بتاريخ السادس من شهر آب، أصبحت غير موافقة وغير موضوعية وأنسب تاريخ للقيام بها هو في السادس عشر من شهر آب. وعلينا أن نظهر أنفسنا قادرين على تفهم ما كانوا يقصدون، إن هذا التاريخ يقع في اليوم التالي لإيقاف القصف. وإذا تبيّن أن من الواجب بحث القضية الكمبودية في مثل هذه الظروف، فلن تكون لغتنا سوى الرجاء. والنتيجة محتومة، لقد أصبحنا عديمي النفع، بالنسبة لسياسة بكين في الهند الصينية، والحالة نفسها بالنسبة لسيهانوك. وهم قادرون فعلاً على ترتيب الأمور معه، وسوف يوجُهون أنظارهم من الان وصاعداً نحو الخمير الحمر. وهكذا فقد انتهت الوساطة الصينية.

وتهلهل ذاك المشروع، الذي أضنينا النفس في وضعه. ومن الواضح انه اذا اريد الوصول الى الحل الذي يطرحه الصينيون، فلم يبق بعد حاجة لإجراء مفاوضات ولا سيما معهم. و لا نتمكن من إظهار استسلامنا أمام الهلع. وعلينا ان نردد الآن، ما كان دي غول قد أجاب به تشرشل وهو يلومه على عناده، اذ قال له: «اني ضعيف جدّاً لأكون متساهلاً». ومذكرتنا التي كانت تنتظرها بكين منذ ثمانية أيام، كانت لهجتها جافّة:

«على الفريق الصيني، ألاّ يستغرب كيف ان الفريق الأمريكي، رفض حل موضوع المذكرة الصينية المؤرخة في الثامن عشر من شهر تموز، لأن الحل الوارد فيها كان تعسفياً. وهو مخالف لشروط المعاملة بالمثل والمساواة. ان المطالبة بالتفاوض عندما يكون الفريق الآخر، رافضاً لها، لا يدل على منطق سليم. وفي مثل هذه الأحوال يتخلى الفريق الأمريكي عن المفاوضات للكمبوديين أنفسهم».

وفي الوقت ذاته، قرأ الجنرال سكاوكروفت لهان كسو، المذكرة التالية ولهجتها لا تختلف عن سابقتها:

«يؤسف حكومتي ان تلاحظ، انها المرة الأولى، التي لم تحافظ فيها الصين على كلامها، من خلال علاقاتنا الجديدة معها.

كثيراً ما يظهر الفريق الصيني تمسّكه بالمبادئ، وضاهاه الفريق الأمريكي بذلك. وأحد مبادئه التي يتمسك بها، عدم خيانة من يوليه ثقته. ولا يزال الفريق الأمريكي على اعتقاده من أن الفريق الصيني يؤيده في المحافظة على هذا المبدأ، وفي كل المجالات».

على أثر تبادل هذه المذكرات، انتظرنا يوماً واحداً، قبل التعليق على الاقتراح الصيني من حيث تحديد يوم السادس عشر من شهر آب موعداً لزيارتي لبكين.

وقصدنا تأجيلها أربعة أسابيع، فتصبح هكذا بين الثالث عشر والسادس عشر من شهر أيلول. فوجد الصينيون حجّة للرفض، ولم أقم بزيارتي تلك إلاّ في شهر تشرين الثاني.

وبطبيعة الحال، لا يجوز أن نوجّه إليهم أي انتقاد، لأنهم لا يدخلون في مفاوضات، نكون قد انقطعنا عنها بسبب شؤوننا الداخلية. ليسوا هم الذين غيرّوا موقفهم، لكننا نحن الذين غيرنا موقفنا، وأسقطنا المحاولات السابقة. وفي التاسع عشر من شهر تموز، وفي اجتماع ضمّ أقرب معاونيّ إليّ مثل الجنرال سكاوكروفت، لارّي ايغلبرغر، ونستون لورد، جوناتان هاو، ريتشارد سولومون، وبيتر رودمان، قدمّت التحليل الموجز التالي:

"لقد عدّل إيقاف القصف، الوضع في كمبوديا، بصورة كليّة. كان الخمير الحمر يفتقرون سابقاً لوجود سيهانوك، ليضفي عليهم الشرعية التي إليها هم مضطرون. أما الآن، فهم ليسوا بحاجة للشرعية، لأنهم ضمنوا اقتدارهم على انتزاع النصر. ونفعُ سيهانوك بالنسبة للصينيين، أنه يمكنهم من استخدام نفوذهم على الخمير الحمر، والصمود بوجه النفوذ الخارجي. ونفعُ الصينيين بالنسبة لنا، هي السيطرة التي كانوا يمارسونها على سيهانوك. أما نفع سيهانوك بالنسبة لنا، هو أملنا فيما إذا عاد إلى كمبوديا، أن يتمكن من المحافظة على توازن ما. ومن سخريّة القدر فإن الصينيين كانوا بحاجة لزمرة لون نول، التي كانت تشكل رادعاً ليس لسيهانوك فقط بل للخمير الحمر أيضاً. وأعضاء الكونغرس لم يحاولوا تفهم دقائق الوضع. لكننا الآن قد خسرنا كل شيء. لأن سيهانوك لم يستطع تسليم بضاعته "الخمير الحمر" وكذلك الصينيون، فإنهم لم يستطيعوا تسليم بضاعتهم "سيهانوك".

وعدت الى الموضوع ذاته في الرابع من شهر آب، مع صديقي لاي كوان يو، رئيس وزراء سنغافورة.

عندما التقينا (في بداية شهر نيسان) كنا في طريقنا الى قصف فيتنام الشمالية مدة أسبوع، ثم الذهاب الى روسيا، ومنها الى لقاء الدوق تو. لكن الكونغرس جعل كل ذلك مستحيلاً.

«اقترح الصينيون تقديم وساطتهم. ويمكن اعتبارهم الآن خاسرين، اذا ربح الخمير الحمر، لأن سيهانوك سيخسر. ان الوضع المفضّل الذي ينشده الصينيون هو في جعل الخمير الحمر يحتاجون سيهانوك ، يظل الصينيون قادرين على التوسّط بين الفريقين ولكن اذا ربح الخمير الحمر في كل الجهات. . . . ».

ان بلاغة سيهانوك، التي كانت ترجّع أصداءها الاجواء، بمقدار ما كانت تصف أهمية صاحبها، ومع ذلك فانها كانت تلقي الضوء على أبعاد معتمة. فقد أثبت سيهانوك، في مقابلة أجرتها معه وكالة الأنباء الفرنسية، في الثاني عشر من شهر آب، ان الخمير الحمر صامدون في موقفهم، الذي أقرّوه من ذي قبل. واجراء مفاوضات، يبدو أمراً مستحيلاً. وعزم الثوار وبصورة نهائية على متابعة الكفاح المسلّح، حتى الانهيار الكامل لحكومة لون نول. وكرّر القول في الخامس عشر من شهر آب، في بيونغ يانغ في كوريا الشمالية، اذا أراد الخمير الحمر، تقاسم السلطة مع أية فئة إخرى، فهذه رغبة غير مقبولة. ولم يبقَ لنا ما نفاوض بشأنه من خلال هذه الشروط. وفي مؤتمر صحفي عقد في الثالث والعشرين من شهر آب، أظهرتُ أني قدَريّ فقلت:

«لما كان القصف قد انتهى، فسوف تنطلق المفاوضات الكمبودية، بناء على القرار الذي تتخذه الفئات الكمبودية لا بناء على قرارات أمريكية، واذا كان

الكونغرس لايزال يهدف الى شيء ما، فيمكن تفسيره بان الولايات المتحدة، لا تقوم بدورها الأساسي في هذه الفعاليات».

وكرّرت كلاماً بنفس هذا المعنى، عندما دعوت للعشاء في الثالث من شهر تشرين الأول، نائب وزير الشؤون الخارجية الصينية، كياو غوانهوا، الذي جاء كعادته في كل عام، لحضور اجتماعات الجمعية العمومية للأمم المتحدة. وتكلمنا بخبرة عن معركة قمنا بها في المنحى نفسه، قبل ان يغلبنا حادث مضلّل لم نكن نتوقعه. فأجابني كياو بمرارة ان الشيء بدا واضحاً الآن، فلن نتدخل منذ الآن، لا بهذه القضية ولا بتلك، وما يمكن اعتباره إقراراً بالخطأ، نادراً ما يحصل لدى الصينيين، وأكمل حديثه زاعماً ان ليس لكمبوديا تلك الأهمية. ولم تكن قضيتها، سوى قضية ملحقة.

ان الطريقة المفضلة لمعالجة خسارة ما، هي الانتقاص من قيمتها. واجتهد كياو بتبرئة ساحة الصين مما كان يجري في كمبوديا، مبدياً كل نباهته في سبيل عدم تعريض العلاقات الصينية ـ الأمريكية للخطر، بسبب قضية، لم نعد نملك كلانا أي نفوذ فيها. ثم كلمني قليلاً عن سيهانوك، ولم يخالفني في رأيي عندما بينت له ان مصالح بكين وهانوي ليست متماثلة حول هذه النقطة. ولم يكن يملك حيلة أخرى، سوى «ترك اللهب الذي يحرق كمبوديا، يخمد من ذاته».

وبطبيعة الحال، لم تجرِ الأمور كما توقعنا. إذ بعد أن أمر الكونغرس بإيقاف القصف، تعاقبت سلسلة من المآسي. فتبخرت الإجراءات المنوي القيام بها لإكمال اتفاقية باريس، وسيهانوك لم يعد إلى بلاده، إلاّ لتحملّ الإذلال، والإقامة الإجبارية، ومقتل عدد من أولاده. ولا يملك إمكانية القيام بدوره الأساسي في رئاسة الدولة، ودون قوى مستقلّة لا يستطيع إعادة التوازن. وكان يكرّر في أحاديثه، أنه ميّال لإجراء مفاوضات، لكن زعماء الخمير الحمر لا يوافقون.

وبما أن شو ان لاي هو الذي أصيب أكثر من غيره، من جراء ما قام به مجلس نوابنا، فقد بنى تقديره على مخطط معقد، أول شرط فيه هو، حلما تضع الولايات المتحدة حداً للقتال في كمبوديا، لا بدّ وأن يفرض الحل. وفضّل مشروعنا وقدّر له التحقيق، لأننا كنا مصمّمين على عدم الخضوع للعنف. واذا تقصينا الأمور. نجد ان الخمير الحمر كانوا غير راضين عن هذا السلوك، حسبما كانوا يعلنون في اغلب الأحيان. لكن الصينيين كانوا لا يزالون على تقديرهم السابق من حيث ان شهر حزيران سيكون الفرصة المؤاتية، وان الخمير الحمر قد استدرجوا بل نتمكن من القول انهم قبلوا ضمنياً هذا المخطط.

لكن جهود شون كانت تصطدم أيضاً بضغوط الحزب الصيني المتطرّف، الذي كان يعتبر ان الكفاح المسلّح هو الوسيلة الفضلى للدفاع عن البلاد. ومن منهم سيصبح مع الأيام مشهوراً، تحت إسم «زمرة الأربعة» أخذوا منذ هذه اللحظة بممارسة نفوذهم على ماو، اذا لم نقل انهم سيطروا عليه. ولذلك فان الميول المعتدلة، المالية للغرب، والتي برزت منذ انفتاحها على واشنطن، أصبحت الفئة الثانية تظهر لها ريبة وتردّداً. وربما أن كل شيء عاد بالضرر على شو، الذي أصبح في الدرجة الثانية في البلاد، ولا حاجة للنقاش، ان نصيبه سيكون أسوة بمن سبقه في هذا المنصب. لكن لدي أسباب عديدة تحملني على التصديق، ان أحد الأحداث الهامّة الحاسمة، في وصول زمرة الأربعة الى السطح خلال صيف عام ١٩٧٣، كان انهيار المفاوضات حول كمبوديا. أضف الى ذلك، فان الاستسلام الذي فرضه الكونغرس حطّ من شأن شو أيضاً.

لقد ركّز رأس مال ايديولوجياً ونحن لم نستطع إمداده وتعزيز رأس ماله بعملة جغرافية سياسية. وبعد كل هذا، فانه لن يستطيع استرداد وضعه وهيبته في الصين، فيما لو أن المرض لم يضع حداً لمدة عمل صديقي العجيب.

ليست هناك من ضمانة، لنجاح جهود المفاوضات، وعندما أعود اليوم الى التنقيب والتدقيق في سجلاّتي وملفّاتي، لجميع ما قمنا به من محاولات بين عامي ١٩٧٠ و ١٩٧٥، أشاهد العكس تماماً ، ويبدو طبيعياً ان الخمير الحمر، قد خرقوا كل اتفاق، لم يستطيعوا منع حدوثه. وعلى الرغم من ذلك، فاننا نصطدم بالواقع، لنفرض ان المشروع أو أي مشروع طرح ثم بحث وانتهى الى الفشل، فلا بدّ ان يحدث ردّة فعل، وتكون له فترة انتقالية، تحمي بعض مصالح الشعب الكمبودي، وربما جنبته تلك الإبادة الجماعية، التي سبّبها له، في نهاية المطاف، استسلام أصدقائه وضراوة غزاته. لقد كانت المفاوضات الهدف الأكثر ثقة، اذا لم نقل الوحيد، وكنّا مع الصينيين، نهتم جادّين في سبيل انجاحها، لكنها ويا للأسف فُشّلت بل نُسِفت، من قبل كونغرس الولايات المتحدة، وساعده في ذلك اضطراباتنا الداخلية.

ولكي نكون منصفين، يجب ان نقول، ان خطأ الفريقين كان مشتركاً بالنسبة لنزاعاتنا الداخلية، ألا وهو نقص عظيم في تفهم الأمور. وكانا غير قادرين على إدراك الخبث الشيطاني المتجسّد في الخمير الحمر. ولم يكن يعرف من كان السبب، حتى ولا الأتباع المتطرفين، الذين سعوا لوضع حدّ للحرب، فسحقوا لون نول وجعلوا منه ضحيّة، علماً انهم هم الذين ساعدوه على اقتراف الجرائم. وكان الفريقان أيضاً عاجزين عن تصوّر حكومة تقدم على قتل ثلاثة ملايين من مواطنيها، وكانا يعتبران ان لا شيء أسوأ من متابعة الحرب، حتى لو كان ثمن ذلك نصراً شيوعياً كاملاً.

ومَن عادتهم انتقادنا، أخذوا يستخدمون مهارتهم بالتنديد بالذين حاولوا ان يقاتلوا ضد قدر كمبوديا المشؤوم، وصار لهم حق المطالبة بتجنيبهم العار، واعتقدوا ان ما يقومون به فيه منفعة. لكنهم نسوا وجوب التحلّي باللباقة وعدم تحريف الحقيقة، بتوجيههم اللوم، للذين حاولوا منذ البداية، منع تسلّط الخمير الحمر. واذا

كانوا لا يقدرون على الاعتراف بالخطأ، فليتساءلوا في أعماق قلوبهم، كيف ان الرضا الذاتي يجلب متاعب خطيرة لتابعيه.

❐ ❐ ❐

كنت على علم، بعد صيف عام ١٩٧٣، أن كمبوديا قد انهارت، وليس هناك من أمل، سوى ان أعجوبة تتمكن من إنقاذ فيتنام الجنوبية. وكانت الاتصالات التي تردنا من الفيتناميين الشماليين لا تخلو من السفه. ولا تحتوي على تلميح ولو كان بسيطاً بشأن اتفاقية باريس. وما نحن عليه من ضعف وعدم قدرة، لتحمّل مثل تلك السخافات. وعلى الرغم من كل ذلك، كنا نجهد أنفسنا لتوفير المعونة التي نستطيع الحصول عليها من الكونغرس، لفيتنام الجنوبية وكمبوديا، لكن نوع التفكير الجديد الذي أدّى إلى إيقاف القصف، دعانا إلى إنقاص تدريجي للمعونة. وفي ربيع عام ١٩٧٥، أخذ الكونغرس يخطّط لمنح هبة نهائية، كما لو أن سايغون وفنوم بين كانا بحاجة للإحسان، فازدحمت عليهما الضغوط وسببّت انهيارهما، وأُنقذنا من فضيحة محتومة. ومن جهتي كنت معتقداً منذ عام ١٩٧٣، أن هذا الانهيار لا بدّ آتٍ، ووقوعه ليس سوى قضيّة وقت.

هذا ما كنا نعاني منه، عندما جاء ضابط من غرفة العمليات، قبل الساعة الحادية عشرة بقليل. من صباح السادس عشر من شهر تشرين الأول لعام ١٩٧٣، مقاطعاً اجتماع فريق العمل الخاص في واشنطن، الذي كان يبحث شؤون الشرق الأوسط، ليسلّم برنت سكاوكروفت، برقية من الاسوّشيتدبريس، تتضمن أن الدوق تو، وأنا، قد منحنا جائزة نوبل للسلام. فأوصلها إليّ دون تعليق.

لم أكن على علم، أنني كنت مرشحاً. فألقيت البرقية على الطاولة، وتناولها

زملائي وقرؤوها بدهشة، لا بفرح، وباركوا لي دون اكتراث، وكنّا جميعنا مستائين.

لم تمضِ فترة وجيزة، حتى تلقّيت برقية من السيدة آز ليونين، رئيسة لجنة جائزة نوبل، في مجلس النواب النرويجي، تؤكد أن الدوق تو وأنا، سنتقاسم الجائزة، التي تقدّر بخمسمائة وعشرة آلاف كورون سويدي أي (حوالي مائة وثلاثين ألفاً من الدولارات) وإنني مدعو إلى أوسلو، لتقبلّ الميدالية الذهبيّة من يد الملك أولاف الخامس. في العاشر من شهر كانون الأول، ولألقي فيها محاضرة سواء في هذا التاريخ، أو خلال الشهور الستة القادمة.

كان هذا الظرف قاسياً بالنسبة لنيكسون. أنه في الواقع، كان يرغب وبلهفة أن يوجه له لقب صانع السلام، وأنه هو الذي اتخذ القرارات النهائية التي وضعت حداً للحرب في فيتنام، مهما يكن دوري، من حيث الإعداد لها، أو تنفيذها ضمن استراتيجية هادفة. والحقيقة أنه كان قادراً على إحراز النصر، لإحلاله السلام في فيتنام، وإنجازات أخرى، مثل الثورة الدبلوماسيّة التي توصلنا من خلالها إلى تحسين علاقاتنا مع الصين والاتحاد السوفيتي، هذا فيما لو لم تأت فضيحة واترغيت، وتطغى مهدّمة جميع أحلامه وطموحاته، التي توصل نتيجة تنظيمها إلى الذروة.

وفي التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني لعام ١٩٧٣، وجهّت رجاء إلى كل من السيدة ليونيز، ولجنة جائزة نوبل، بدفع المبلغ المقرّر، إلى مؤسسة لتثقيف أولاد العسكريين الأمريكان، الذين قتلوا، أو اختفوا خلال الأعمال الحربية التي جرت في الهند الصينيّة، ودعوت تلك المؤسسة باسم باولا ولويس كيسنجر، إكراماً لوالديّ. (وفي الثلاثين من شهر نيسان من عام ١٩٧٥، حين أخذت نيران الحرب تلتهم سايغون، كتبت للسيدّة ليونيز، لأردّ لها الجائزة والمبلغ الممنوح. لكن اللجنة رفضت

قبولها مبيّنة، أن الأحداث التي وقعت في هذه الأثناء، لا تنقص تقديرها لجهود صادقة قام بها، السيد كسينجر. حتى تمكن من الوصول إلى وقف إطلاق نار عام ١٩٧٣).

وكنت قد علمت، أن حضوريّ حفل تسليم الجوائز، سيكون مدعاة لمظاهرات عارمة، تقوم بها جماعات معادية لفيتنام في أوسلو. ولذلك فإن حكومة النرويج، بتصرّف مقبول من قبلها وبلباقتها المعهودة، ارتأت إلى تحديد اجتماع وزراء حلف شمال الأطلسي فيها، فيكون سبباً لحضوري، لكنني عزمت على إنابة سفيرنا في النرويج، توماس بيرن، الذي تسلّل إلى مدرج الجامعة من الباب الخلفي، ليجتنب مظاهر العظمة، والمظاهرات المعادية لأمريكا، وقرأ بياني:

"إن السلام، الواقعي، يمثل تسوية دائمة بين الدول. وإذا أخذناه من كونه مثاليًا، فهو بلا شك هدف سامٍ، على الرغم ممّا يخفي من صعوبات في إيجاد الرسائل، المؤديّة إليه. ولكن في عهدنا الحاضر، عهد التكنولوجيا والقوة النووية، فلا هذه ولا تلك من مداركنا تستطيع حفظ الإنسان. فيجب إذاً وضع السلام المثالي، موضع العمل. ويجب أن يكون التدهور بالمسؤولية والمصالحة، موجّهاً لكافة الشعوب. ومبدأ عدالة عامة، يمكن بل يجب إيجاده. وفي حال فقدانه، ستظهر على الساحة، حروب جديدة.

"أعقب حرباً حقيقية في فيتنام، سلام غير حقيقي، وحيث لم يكن بالأمس سوى اليأس والفوضى، ولد اليوم الأمل، مهما يكن هشّاً. أن العودة إلى نزاع متسع المدى، يدغدغ وقف إطلاق النار الهش. وفي الهند الصينيّة وفي الشرق الأوسط، وغيرهما من العالم، لن نتوصل إلى سلام دائم، إلاّ إذا عرفت الشعوب المتخاصمة، أن من التافه تكوين جبهة مسلّحة في وجه التنافس السياسي.

"وإذا كنا نرى أن السلام المثالي، يجب أن يكون هدفنا الحقيقي العام، فيجب حينئذ أن يكون السلام عن خبرة، هو ما يجب تطبيقه. ولكي نتمكن من الوصول إلى هذا، يجدر بكل زعماء العالم أن يتذكروا عند اتخاذهم قرارات سياسية، وعند اختيارهم الحرب أو السلام، أن قراراتهم تلك آيلة إلى آلام شعوبهم أو سعادتها.

"والسلام كما فهمه "الفريد نوبل" لا يمكن أن يتوصل إليه رجل واحد، أو بلاد واحدة. إنما هو حصيلة جهود متكاملة بذلها رجال فكر، أصحاب قلوب كبيرة في العالم أجمع. ولا يجدينا نفعاً تخليد ذكرى أعمال فرديّة، لأنه إذا تحقّق سلام دائم، فسوف يكون نتيجة أعمال اشتركت بها البشرية جمعاء.

"ومن خلال هذه الأفكار، اعبرّ لكم، عن صادق امتناني لتخصيصي بالجائزة" ولم يؤت على ذكر كلمتي، ولم تذكر الحفلة بكلمة ما، في الأوساط الأمريكية.

الفصل العاشر

منصب وزير الخارجية

أصبحت في بداية ولاية نيكسون الثانية، رجلاً يتمتع بنوع من الشهرة. ولما كان نيكسون غير راغب في وجود وزير خارجية شديد المراس، فلم يكن يخطر بباله أن يكون لديه مستشار لشؤون الأمن، له جمهور كبير بسبب جدارته التي أثبتها في مواقف عديدة. وفي الأحوال العادية، كنت أرى أن التفوق الذي أصبحت أتمتّع به مجّدداً يكاد يؤدي بي. وأي رئيس عادي، لن يقبل طبعاً بهذا الوضع، ولا سيما رجلاً مثل نيكسون لا يبالي بالصورة التي رسمها في أذهان الشعب الأمريكي. وفي غضون عام ١٩٧٢، اغتنم كل من الرئيس وهالدمان، جميع الفرص تقريباً للتعتيم عليّ، حتى والابتعاد عنّي، قاصدين من وراء ذلك تقويم تعلّقي بالسلطة الرئاسية. وكان هذا أحد الأسباب الرئيسية التي بسببها صمّمت، في بداية ولاية نيكسون الثانية، على الاستقالة من منصبي في أواخر عام ١٩٧٣.

وطرأ تغير على جميع هذه الأمور إبّان فضيحة واترغيت. فقد كنت أرى، عندما بدأ التآكل داخل السلطة التنفيذية، أن استقالتي ليس لها إلاّ أن تضاعف الأمر سوءاً، وتزيد من هذه الفوضى التي كانت الحكومة تسببها. وهكذا فلن أبرهن على قبولي بتحمل المسؤولية، إذا هجرت السفينة، فيما كان الناس يلوّحون وينتظرون في المرفأ. غير أن البيت الأبيض لم يكن ليطلب مني عملاً مثل هذا. وفي الواقع، فقد تحسنّت العلاقات بيني وبين نيكسون وبصورة دقيقة. وتراجع الرئيس عما كان يرى من عوامل القلق، التي توهّم وجودها لديّ بما لي من مهام كبيرة. وكان لا يرغب الدخول شخصياً في مهاترات بذيئة لا تجديه نفعاً في اتخاذ استراتيجيّة حكيمة، وكما هي الحال مع ألكسندر هيغ الذي تسلّم وظائفه. لذا لم يبقّ لدى الرئيس أي موظف خاضع لأوامره، ويستطيع أن يضايق الآخرين. غير أن نيكسون لم تبق أمامه الفرص التي تسمح له القيام بأدوار تفرحه، وكانت غايته منها استغلالها عند الحاجة، لخلق توتّرات بيني وبين روجرز، بعد أن صممنا معاً على الوقوف بوجه هالدمان، والذي يعني بمعنى آخر مواجهة الرئيس نفسه، والفائدة الكبرى التي كان يأملها نيكسون من وراء السياسة الخارجية أخذت هي أيضاً تتدنّى. وأخذ يوقع ما أقدم له من أوراق مهما تتضمن دون تدقيق، كما كان يعمل سابقاً، وكنت قد تعودت على ملاحظاته التعريفية والتفسيرية، إبان ولايته الأولى. كما انقطع أيضاً عن مباحثتي حتّى بشؤون تزعجني أنا. وأخذ يهمل شؤوناً حكومية، هي ذاتها كانت تهمّه، وكان يتابعها أحياناً بشكل جنوني، حتى يتوصل إلى حلّ لها ولو كان جزئياً.

ومن خلال ظروف نيكسون هذه أخذ، بتعديل مواقفه تجاه شهرتي الآخذة بالازدياد. ولم يعد يبدي أقل انزعاج، مما يوليني إياه الرأي العام من انتباه وكان يتقبل ذلك بطريقة سياسية متخذاً منها دعماً لبعض ما بقي في ذهنه من أهداف

كبرى، كادت فضيحة واترغيت تفقده إياها. لكن وضعه، على الرغم من كل هذا قد تضعضع، وكل ما يحيط به يسهم في إضعافه. أضف إلى ذلك، فإن ما كان يحرزه الرئيس من نجاحات بشق النفس، كان معارضوه، ينسبون إليّ ذلك الفوز.

كنت أجد نفسي في وضع غير طبيعي. فمن جهة، عينّت من قبل الرئيس لأكون بين الذين يعملون معه، ومجلس الشيوخ، لم يبتّ حتى الآن بهذا التعيين، ذي العلاقة المباشرة بموافقة وإرادة الرئيس، وفي وسط التهجمات العامة التي أثيرت ضد الحكومة، لاحظت أن معظم المعارضين، كانوا يرغبون كثيراً في تحاشيّ، بل حمايتي من الحقد المتصاعد، كأني بهم يريدون الإبقاء، ولو على مسؤول على الأقل، يستطيع الوصول بالقضيّة إلى نهايتها. ولا مجال للشك في أن هذا يثير في نفسي بعض الغطرسة، لكن انطباعي الداخلي والحقيقي كان يؤكد اقتراب الكارثة. كان واضحاً أن ضعفاً مثل الذي يلفّ جميع شؤون الحكومة، لابد أن يؤدي بسياستنا الخارجية إلى الفشل أجلاً أو عاجلاً. وأخذت أحاول إقامة واجهة من الجرأة والثقة، لأتمكن من تثبيت بعض المواقف. وكنت اكتفي بإيقاف الاندثار، ولم تكن لديّ القدرة على القضاء عليه.

كانت خبرة نيكسون الكبيرة تحمله على تجاهل الخطر الذي تقترب منه سياستنا الخارجية. وكان يجهد نفسه ان يحميني من نتائج تجربته الخاصّة. ومن خلال اتفاق ملزم، أبعدت عما يتخذ من قرارات في البيت الأبيض، فيما يختص بفضيحة واترغيت. وكان نيكسون وهيغ يعملان بنوع، يستطيعان معه إبعاد السياسة الخارجية عن تلك القضيّة. وكان هيغ يطلعني أحياناً ، على معلومات موجزة حول بعض التفجيرات التي ربما تؤثر على دبلوماسيتنا. ولكني على وجه العموم، لم اشترك بتلك المحادثات التي دارت، حول ما يجب اتخاذه من اجراءات إستراتيجية أو

تعبوية. وكل مرة، تهاجم فيها سياستنا الخارجية، بسبب تصريح يدلي به الرئيس حول فضيحة واترغيت، كنت بدوري أقوم بدفاع مستميت عنها.

وكان رأيي كما سبق وبيّنت، ان أمل نيكسون الوحيد، هو في بيان كل شيء وفي وقت واحد وبسرعة تامة، ولم اترك فرصة، إلاّ وعرضت بوضوح جميع هذه الشؤون على لين غارمات، وعلى هيغ أيضاً عند سنوح الفرصة. وكنا كلنا غير قادرين على وضع حد لتلك الأمواج الثائرة. وكان غارمات وهيغ يؤيداني نظرياً، لكنهما لا يمتلكان القدرة على التطبيق، وهما غير مطلعين على حقائق الأحداث التي تسبب الكارثة. وبعد مغادرة جميع المساعدين الرئيسيين البيت الابيض باستثناء رون زيغلر، لم تبق هناك شخصيّة واحدة قاردة على تذكر صحيح لكل ما جرى. وفي هذا المجال، لم يبقى لدى نيكسون نفسه، فكرة واضحة، عن تلك الأحداث التي تفجرت، وتجمعت تحت لواء، فضيحة واترغيت. فكان يبّين وبكل صراحة عن صعوبة في التمييز بين التعليمات الرسمية التي كان يصدرها، وتداولها بلهجات مختلفة يجب ألاّ تخذ بحرفيتها. كانت أمنيّته القدرة على عمل كل شيء، وألاّ تمتزج أحلام تهرّبه عن الحقيقة، بل يرغب جداً أن تكون جميع أمانيه حقيقة لا خيالاً.

وكان شعار صيف عام ١٩٧٣، ترديد التصريحات الصادرة عن البيت الأبيض حول فضيحة واترغيت، وتلحقها عادة بعض البيانات حول الأحداث. وهذا لم يكن إلاّ ليزيد في رغبة الأمة، في الاطلاع على خفايا جديدة. لأن نيكسون كان قد وعد ان يكشف علناً، ادوار القضيّة كاملة، نحو أواسط شهر آب. وكان يفكر في الوقت ذاته، مناشدة الشعب، لوضع حد لجميع هذه التحقيقات آملاً تخفيف الأخطار التي كانت تهدّد سياستنا الخارجية. وكان هذا الرأي قيّما نظرياً، لكن نيكسون من وجهة حقيقية، لم يستفد سوى استدراج دبلوماسيتنا إلى تيّار أشد حرارة، ولم يحصل على أي تخفيف للضغوط التي تمارس على الرئاسة. ولا شيء في هذه الحال، يمكن ان

يضع حداً للتحقيقات، فلا الكونغرس، ولا الصحافة ولا الرأي العام، توافق على ذلك، فناشدت هيغ، وغارمات، ومجلس نيكسون للقضايا الخاصّة، وشارل الان ورايت، ان يفصلوا بين السياسة الخارجية وفضيحة واترغيت. فوافقني جميعهم على رأيي. وفي آخر المطاف، وافقنا الرئيس على رأينا الجماعي دون معارضة. وعلى ضوء سلّم تقديرات نيكسون، وفي أوج آلامه الشخصيّة، فان وضع الولايات المتحدة الدولي، كان هو المفضّل حتى على مصيره.

وكان الإعلان، الذي صدر أخيراً في الخامس عشر من شهر آب ١٩٧٣، مثل حظّ غيره، من الإعلانات التي سبق الرئيس وأعلنها، وكان الإعلان موجزاً ومتأخراً. بالإضافة ، إلى انه لم يأتِ بشيء جديد، حول ما وعد به في خطابه الرئيسي في الثلاثين من شهر نيسان، من حيث عدم اطلاعه على كثير من المساوئ التي حدثت، إلاّ بعد أن أمر باجراء تحقيقات، بعد الحادي والعشرين من شهر آذار. وكما جرت العادة، فإنه كان محتاراً بإلصاق التهمة بموظفيه، الذين يخشى ان يتجمعوا ضده في النهاية.

بالايجاز، فان طرق حكومة نيكسون في شهر آب، بالإضافة إلى المستشارين المسخّرين، أصبحت تلك الطرق متعذّرة التنفيذ. ان نفوذ مستشار رئيس يستمد إذا إقتضى الأمر من سلطة رئيسه. وإذا أراد الرئيس وضع ثقته بمعاونيه يجب ان يظهر لهم كل عون، ويصارحهم بكل شيء دون غموض. وسبق للرئيس ايزنهاور ان كتب بهذا المعنى إلى مدير الموازنة، عام ١٩٥٣، وكان إذ ذاك جوزيف دودج، فقال:

«اني اعتمدك وأفوضك، وانطلاقاً من هذه الصفة، يجب ان تتصرّف عند اصطدامك ببعض المشاكل، ولاشك، في ان كل مسؤول في إحدى الوزارات له خطوة مباشرة عندي، لكني أرى على جانب من الأهمية، ان تكون حاضراً ويقظاً عند

مناقشة قراراتك، وعندما تدعو الحاجة، أفضل دراستها من وجة نظرواحدة، وتكون الحاجة إلى تدقيقها ومناقشتها قد تقلّصت إلى أدنى حد».

ان هذا يعني في المرحلة الأخيرة، عدم الأخذ بنفوذ المستشار، وكل ما يؤخذ عنه انه يتكلم بإسم الرئيس. (وهنا ينشأ الخطر الحقيقي، في أن يلجأ معاون مسنود، يقوم بأعمال استبدادية، لأننّا إذا انطلقنا من خلال ذلك وأردنا التحقّق من صدق قيامه وتنفيذه لأوامر رئيسه، أو إذا كان ينفّذ رغباته باسم الرئيس).

بالحقيقة، كان هذا وضعنا، وتصريفنا لأمورنا، نحو أواخر عام ١٩٧١، كنت معتبراً أكثر من أي شخص آخر، لدى الرئيس. وكان الجميع على اختلاف درجاتهم راضين عن خدماتي، وفيما يتعلق بالسياسة، فانها كانت ناشطة من حيث إصدار التعليمات لدبلوماسينا في الخارج. وكانت هذه التصرّفات تجعل وزير الخارجية وليم روجرز في وضع محرج. وإذا أقدم على إقرار برقية وإرسالها، أو ابداء رأي، دون إطلاع البيت الأبيض، فقد يرى برقيته ورأيه عائدين إليه، وأحياناً على مرأى من موظفيه. وإذا خطر له الوقوف على رأيي، يجد نفسه مجبراً على إغفال ما أوردت، والعودة إلى ما أشار به الرئيس أو أقرَه (وهذا يعني ان أي مستشار لدى الرئيس، لديه بعض الفطنة أو المعرفة بما يدور بين جميع الأجهزة، يجب عليه مبدئياً ان يناقش الرئيس بكل ما يمكن التنازع فيه).

ومن جهة نظرية، يمكن تحاشي هذه القضيّة، فيما إذا كان مستشار الرئيس لقضايا الأمن القومي، ووزير الخارجية، متقاربين ومتفاهمين الواحد مع الآخر، ليتمكنا من الوصول إلى تبادل أفكار ثابت، وبذلك يستبعدان خطر المجابهة، وأتمكن من تشبيهه بما حدث في النهاية بيني وبين برانت سكاوكروفت، ولكن فيما يختص بروجرز، فكأن النزاع بين وزير الخارجية، ومستشار القضايا الأمنية، واقع لا محالة، بل يمكن اعتباره من صلب الوظيفة.

كان نيكسون دائم التخّوف من وزارة الخارجية، ويعتبرها وكأنها ملجأ لأفكار ضبابية غامضة، ومخبأ يلجأ إليه ديمقراطيو اليسار. غير أني لا أزال معتقداً، أن نيكسون كان يسعى لتخصيص نفسه، بوضع متعالي على صديقه القديم المخلص بيل روجرز، الذي كثيراً ما كان نيكسون يلتجئ إليه في أحرج أوقاته (ومنها الأزمة العنيفة، التي سبّبها خطابه حول "الكلب شيكيرز الصغير". أو في أول أزمة قلبيّة ألّمت بايزنهاور).

ورغبة نيكسون كبيرة في إظهار كفاءته، في كثير من المجالات، أكثر من روجرز، لا سيما وأنه قد قضى حياته في ممارسة شؤون السياسة الخارجية. في حين أن روجرز كان مبتدئاً، لكنه أمضى فترة ليست باليسيرة في حقل القانون. وبالنظر لكل هذه الأمور، كنت للرئيس بمثابة أداة طيعّة ونافعة لا غنى له عنها. وهذا كله لا يعني إني بعيد عن مرمى مناوراته المعقدة، والخطرة أحياناً. أن نيكسون ليس بالرئيس الأول في البيت الأبيض، الذي يثير التنافس بين مرؤوسيه، متجاهلاً هذه الأمور، ولا يأبه بها ولا يتدخل فيما يحدث من اختلافات إلاّ عند الضرورة القصوى. وكان هالدمان وميتشيل وأحياناً اهرليخمان، يحاصرون الحريق لكنهم لا يهتمون بإطفائه. وإذا كان نيكسون رغب في الإبقاء على هذا الوضع، أو انه سمح بتطوّره، فإن المطلوب مزج نظريتين، ويقصد بهما دوماً العلاقات بيني وبين روجرز التي ضعفت ولا علاج يشفيها.

فأخذنا نتنادى كما هي عادتنا، إلى عدم الكشف وإيقاظ امتعاضات داخلية جرت إبّان سيادة الحكومة السابقة، لكنّنا للأسف، سرعان ما اصطدمنا بمشادّات أقوى.

وبكثيرمن العجرفة استطيع القول ان معرفتي بالأمور كانت، وكان روجرز بدوره

مصمّماً على امتيازاته من حيث التدرج الوظيفي، لكي نتمكن من القيام بمرونة، تحمل كلاً منا على التناسي والابتعاد عن بيوت العنكبوت (أي التسلسل الوظيفي) لنخدم بلادنا بطريقة أفضل.

ولم يذوب الجليد، في بداية ولاية نيكسون الثانية، وقطعنا روجرز وأنا جميع علاقاتنا الخارجية، ما عدا الوظيفيّة منها، وكانت سلوكيتنا الرسميّة في تحسن، دون البحث في أمور صداقات شخصيّة. وكنت أنا المستشار الرئيسي للرئيس، وكان روجرز يملك جميع الوسائل، التي نستطيع بها تسيير سياستنا الخارجيّة. بقي المأزق، ومن جهتي كنت أرى ان الوضع مزعزع، وفي شهر تشرين الثاني، من عام ١٩٧٢، أعلم روجرز، انه سيبدّل خلال صيف عام ١٩٧٣. لكنه كان يعتقد في نفسه، أن رئيسه كما هي عادته، سوف يتراجع في اللحظة الأخيرة، أضف إلى ذلك، فان مغادرته المتوقعة، أبعدت عنه كل ارتباك.

وعلى كل حال، فان روجرز، اخذ بمعارضة المبدأ الأساسي لطلبات الاعتماد الخاضعة للبيت الأبيض، وبموجب هذا المبدأ يحق للبيت الأبيض السيطرة على جميع الشؤون. ومثالاً على ذلك، ففي بداية شهر كانون الأول من عام ١٩٧٢، عزمت وزارة الخارجية، على أجراء محادثات مع كوبا، حول انحراف بعض الطائرات عن توجّهها الحقيقي. وبصراحة فان كل مفاوضة مع كوبا، وفي أي موضوع كانت من إختصاص وزارة الخارجية، التي تقوم بسياستنا الخارجية، لا سيما إبان استلام رئيس، له حساسيته الخاصة في هذا المجال وربما تؤدي به إلى عصاب نفسي. غير ان البيت الأبيض، أبلغ بعد ظهر أحد أيام السبت، ان وزير الخارجية فوّض البدء بإجراء محادثات، يوم الإثنين القادم، ولم يبقِ هذا الموعد لمجلس الامن القومي، سوى ست وثلاثين ساعة، لتدقيق هذه المبادرة الجريئة، وذات الأهمية السياسيّة العظيمة. وهكذا فقد وضع روجرز، من خلال إقدامه الشجاع مستشار الرئيس، في موقف لا يستطيع

فيه معارضة محادثات سجّلت تواريخها والبدء بها في جدول الأعمال. وصدف أيضاً، أن طلبت دراسة طلبات التمثيّل السياسي خلال ست وثلاثين ساعة، وبنوع ان الإجراءات المطلوبة تكن قد جهزت ضمن هذا الوقت. وكذلك الأمر، فان في اللحظة التي اوعز بها البيت الأبيض، بجعل بعض الفتور في علاقاتنا مع الهند. أقدمت وزارة الخارجية، وبدون موافقة مسبقة، كما كان يقتضي الأمر، على ارسال جواب مشجّع، حول ارسال قمر صناعي هندي تجريبي، مؤملة من وراء ذلك تحسين العلاقات بين البلدين. ولقد أسلفت القول، كيف ان وزارة الخارجية، قامت بمبادرة نحو مصر في نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٩٧٣، ولا علم للبيت الأبيض بشيء البتّة.

جرى كل هذا، قبل أن تسلبني فضيحة واترغيت مساندة الرئيس القويّة. ولم تبقِ الفضيحة أيّ ريب في الأذهان، ولم يكن بالإمكان تسيير دفة الحكم كما كان عليه في السابق. وفي وقت ما، من ربيع عام ١٩٧٣، استدعي ملفن ليرد ولبعض الوقت، إلى استلام مهام مستشار الرئيس، فبيّن لي في هذه الأثناء، ان وضعي كمعاون للرئيس، سيصبح عمّا قريب مزعزعاً. وسيضيّق عليّ بين الكونغرس والادارة، وضمن الوظيفة التي أتمكن الانغماس فيها وبكل ثقة. ولقد فرض عليّ أن أصبح وزير خارجية، أو استقيل (ولا أدري، إذا كان ليرد ينقل نفس الأفكار إلى نيكسون، وإذا كانت الأمور تجري كما أمّلت، فان لا هذا ولا ذاك أعلمني بشيء أبداً) ولم تمضِ سوى فترة وجيزة حتى أعلمني هيغ أنه قد توصّل إلى النتيجة نفسها، وإذا كانت رغبتي في البقاء حقيقية، عليّ مغادرة البيت الأبيض وتكليفي بوزارة الخارجيّة. ثم أكّد لي أنه سيبحث الأمر مع نيكسون، مع علمه المسبق، انه يعسر عليه إزعاجه في استماع حديث مثل هذا، يعتبره بمثابة دواء. وأمر كهذا يتطلب تبادل وجهات نظر. ومحادثات شاقة وربما طويلة.

لم أكن أسعى مطلقاً للحصول على منصب ضمن الحكومة. وكان بوب هالدمان قد وصف وضعي، نحو أواخر عام ١٩٧٢، في كتاب يتضمن الكثير من تعليقات غير مشوّقة حول شخصيّتي. وإذا بقيت سلطة نيكسون كما هي عليه الآن ولم تنتقص، فلا مندوحة من شغلي منصب مستشار للقضايا الأمنية، ولن تبقى ثمة حاجة لنقلي إلى وزارة الخارجية.

ولا أعتقد أن نيكسون يعيّن جون كونلّلي وزيراً للخارجية، خوفاً من أن يفقدني، حسبما قيل لي. وعلى كل حال فإنه (نيكسون) كان على علم مسبق برغبتي في ترك الوظيفة نحو أواخر عام ١٩٧٣، وليكن من يكون وزيراً للخارجية. ولولا فضيحة واترغيت وما أعقبها من تداعيات لكان كنيت روش، معاون وزير الخارجية في ذلك الوقت. قد عيّن حتماً في منصب وزير الخارجية، خلال صيف عام ١٩٧٣، لا سيما وأنه قد قام بدور رئيسي في تصديق اتفاقية برلين عام ١٩٧١.

مبدئياً كان على روجرز أن يترك، وروش بدوره، لم يكن معروفاً على مستوى ترقيته لمثل هذا المنصب وبكل تأكيد، إذا أصرّ نيكسون على تعيين روش وزيراً للخارجية، فلا محالة أني باقٍ في منصبي كمستشار لقضايا الأمن القومي. ويحسن بي القول أني لم ابتعد أبداً عن النهج الذي ارتضيته لنفسي، بعد أن كشف النقاب عن فضيحة واترغيت في البلاد وصمّمت على خدمة بلادي دون شروط، ما دامت الأزمة قائمة.

وللتوصل إلى القرار المتعلق بتعييني، وجب علي اجتياز كل تلك الصعوبات التي توقّع هيغ حدوثها. ويؤلم نيكسون حقاً، إسناد منصب أساسي في الحكومة إلى شخصية شهد لها ألدّ أعدائه، وهذا دليل حسّي على التمكن من تجاوز ما يفكر به الرئيس. وكانت الشهادات التي يدلي بها لصالح تعييني، هي نفسها تكشف عن

الهوة العميقة التي يتخبّط بها الحكم الرئاسي. لذلك كان نيكسون يلوذ بالصمت، بدل الاستجابة لتوصيات هيغ. وحسبما أورد هيغ فإن الرئيس كان يتقبلها جميعها، ولا يهمل أقلّ كلمة منها. وعند التقائنا فإنه لم يكن يلّمح بها. وهذا الصمت كان يبعث توتراً شديداً لدى الجميع، للرئيس أولاً الذي صمّم على عدم تغيير رأيه، ولهيغ الذي أصبح في خشية من أمره بإحداث إساءة للرئيس بتصدّيه للموضوع، ولي في النهاية، إذ كنت في وضع مزعزع تقريباً، من أمر واحد وهو بقاء نيكسون صامتاً.

واشنطن خائفة من الفراغ الذي تعيش فيه. ونحو منتصف شهر تموّز سارع خصومي في انتزاع قرار، لم يكن الموالون لي في وضع يمكنّهم من الحصول عليه. وأثناء وجود روجرز في الشرق الأقصى، بتاريخ الثالث عشر من شهر تموز، صرّح دان راثر، في إذاعة مسائية، نقلتها هوائيات CBS، إن هناك دراسة جادّة، حول تعييني في منصب وزير الخارجية. وتبع ذلك تعليقات كثيرة على هذا النبأ، رجا مروّجوها، أن يكون ردّ فعل البيت الأبيض حول هذا الموضوع بالذات مؤشراً على تبدّل هام وجوهري.

وإزاء هذا الوضع، أصبح الانتظار عديم الاحتمال. وهذا القلق هو الثمن الذي يريد نيكسون تحميلي إياه، حتّى لا يحمّل نفسه عناء التدقيق في واقع الأمور، وأصبح هيغ بعيداً عن هذه المواضيع، ورأى نيكسون ضرورة إنهاء ما يتعلّق بفضيحة واترغيت، وانسحب إلى كامب ديفيد. وكما هي عادته عند إعداد خطاب ما، كان يرفض الإجابة على هواتفه طوال أيام بكاملها، ولو كانت هذه الاتصالات تتعلّق بتسوية شؤون سياستنا الخارجية.

وأخيراً ففي السادس عشر من شهر آب، وبعد بضع ساعات من إعلام هيغ بالأمر، ودون التحدّث عني بكلمة ما، استدعي روجرز من قبل نيكسون، لمطالبته بتقديم استقالته. ففاجأ روجرز الجميع، ونيّته في ذلك إراحة بال نيكسون صديقه القديم، الذي لم ينطق بكلمة واحدة، بتقديم كتاب استقالته، دون الحاجة إلى تقديم اعتراض أو البدء بمحادثات. وكان هذا عملاً رائعاً.

وعلى الرغم من كل هذا، فإن نيكسون لم يحدثني بالأمر، حتى بعد تقديم روجرز استقالته، ولم يكلمني خلال عدة أيام. وللحقيقة، كنت أطلعت وبطريقتي الخاصّة، على ما دار خلال اللقاء الذي جرى مع وزير الخارجية المستقيل (روجرز)، أضف إلى ذلك أن هيغ أعلمني أن الرئيس عازم على الإعلان عن تعييني وزيراً للخارجية، في مؤتمره الصحفي القادم، لكن الرئيس بقي مع ذلك صامتاً. ولم يحدّثني بشيء إلاّ في نهاية اليوم الحادي والعشرين من شهر آب، حيث كنّا في سان كليمانت، قبل ثماني عشرة ساعة من إعلان تعييني. إذ استدرجني نيكسون نحو زاوية من مسبحه بحجة دراسة بعض ما يتوقع من أسئلة وأجوبة تتعلّق بمؤتمره الصحفي الذي سيعقد في اليوم التالي. وقال لي حينئذ، مربتاً على كتفي، دون تحمسّ أو كلمة أمل في تعاون ودّي بيننا، أنه سيفتتح مؤتمره الصحفي بالإعلان عن ترقيتي لوظيفة وزير الخارجية. فأجبته بعبارات، كاد يتغلّب عليها التهكم، فيما لو كنت غير متأثر: "أرجو أن أكون أهلاً لثقتك". وكنا على ثقة (أنا وهو) إن هذا القرار لم يكن النتيجة المرجوّة من خلال خياراته، التي يأمل أن تكون سبباً في تخفيف وقع كارثة واترغيت.

وفي الثاني والعشرين من شهر آب، وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً، أعلن نيكسون عن تعييني أثناء مؤتمر صحفي متلفز في الهواء

الطلق، وألحقه بالتعليق المقتضب التالي: "إن الدكتور كيسنجر، يملك الصفات اللازمة لشغل هذا المنصب". ولم يضف أي إيضاح.

❒ ❒ ❒

وجدت نفسي وكأني معلّق في الفضاء، خلال الساعات القليلة التي أعقبت تعييني. لقد شلّت همتي طوال أسابيع عديدة، ممّا اعتراني من شكوك وارتياب ثم ذهلت لما قد حدث. لقد أبحرت إلى أمريكا بصفة لاجئ، قبل خمسة وثلاثين عاماً، هرباً من الاضطهاد. وأخذت أعمل في مصنع فراشي حلاقة. وتمّ سوقي كجندي عادي في الجيش الأمريكي. وأصبحت مواطناً أمريكياً عن طريق التجنّس. كانت أمريكا بالنسبة لي حلماً بعيداً، وقاسيت الكثير في شبابي من تعصب وحقد نظام شمولي. وها أنا الآن تسند إليّ مسؤولية المساهمة في إدارة بلاد تبنتنّي، في إحدى أزماتها الدستوريّة الخطيرة في تاريخها. لقد تأثرت كثيراً وأصابتني قشعريرة.

تدفقت التهاني بالهاتف، وتلك التي وصلتني من احترابيين مجرّبين كانت تحمل تقديرهم لمواقفي. وتهنئة دين رأسك مثلاً، هذا الذي تحمّل بصمت وكرامة الإبعاد، الذي كوفيء به، لكونه أميناً نحو رئيسه، أثناء أزمات مرّة، وقد بيّن لي خلال تهنئته، إن وزراء الخارجية السابقين الذين لا يزالون على قيد الحياة، عليهم واجب تجاه أمتّهم، بمساعدة الوزارة التي أداروا سياستها، دون النظر إلى اختصاصاتهم السياسيّة ذات العلاقة. وآمال روبيرت ماك نمارا، التي دمرّها هؤلاء الذين طرحوا أنفسهم، كمدافعين عن حرب فيتنام، وخلّفوه وحيداً يعاني أزمات ذاك النزاع، متقيّداً بتلك المهّمة، وعلى الرغم من شكوكه الداخلية ومتاعبه في

تأدية واجبة نحو رئيسه وبلاده، وأنا بدوري لم يبقَ من يساندني في ولاية نيكسون الأولى، سوى ماك نمارا، ولو أنه أبدى عدم ارتياحه لعدة قرارات اتخذت، كنّا نراها ضرورية، وعوناً لنا في حفظ كرامتنا الوطنيّة. وبكل تأكيد وصلتني العديد من المكالمات الهاتفية، وجاءت إحداها من اليوت ريشاردسون، الذي ساعدني كثيراً عندما كان معاوناً لوزير الخارجية، أما الآن فإنه يشغل وعلى مضض، منصب النائب العام في قضيّة واترغيت.

وتقدّم مني أعضاء السلك الدبلوماسي بأصدق تمنياتهم، ولم أعلّق أي أمل على هذه التمنيات، لأن المهمة الرئيسية لرؤساء البعثات الخارجيّة، أن يكونوا في تفاهم تام مع وزير الخارجية. وكأني شعرت أن الكل ينتظرون وبفارغ الصبر وضع حد للاختلافات الدائرة في قلب الحكومة. ولا مجال للشك، في أن بعضهم اغتنم النزاع الموجود بين وزارة الخارجيّة والبيت الأبيض، واستغلّوه جيداً. إن الخلاف بين البيت الأبيض ووزارة الخارجية، لم يكن في نظر الدبلوماسيين المعتمدين في واشنطن، سوى أضغاث أحلام، تضاف إلى التعقيد المطرّد في سلوكيتنا السياسية.

ووردتني أيضاً تهاني من موظفي وزارة الخارجية نفسها، وكان كنيّت روش، على إطلاع، أنه ليس وحده فقط يستحق التهاني بل أيضاً فضيحة واترغيت. ولقد وعدني من خلال مكالمته الودّية بتقديم كل عون، فدعوته إلى مقابلتي في سان كليمانت.

كما تكلم وليم روجرز هاتفياً معي من واشنطن. وبيّن لي أنه سيبذل جهداً ممتازاً لإنجاح استلام وتسليم الوزارة، في سبيل مصلحة الأمّة، ثم أضاف قائلاً: ستكشف لك الأيام أن وزارة الخارجيّة مدهشة. فأكدت له من جهتي أن أعضاء

مكتبه الخاص، سيحظون بوظائف هامّة، وإني سأتمم قدر الإمكان توصياته، فيما يتعلّق بمستقبل معاونيه. ووعدنا بعضنا بتبادل الآراء. ولم يكن لهذه التأكيدات أي أساس. وفي الوقت ذاته لم نتبادل الثقة أثناء وظائفنا، فكيف يتصرّف روجرز الآن بعد إبعاده عن جميع مهامّه. والواقع أن علاقاتنا بدأت بعد هذه المكالمة.

❐ ❐ ❐

سرعان ما تبدّد سروري. إذ كان يجب عليّ، في الأيام المقبلة، أن أواجه اجتماعات مجلس الشيوخ بنيّة تصديقه القرار المتخذ بشأني. وهذا كان يشكل بالنسبة لي عقبة معقّدة، لا سيما من خلال الجو الذي يسود الوضع بسبب فضيحة واترغيت. إذ كنت أول وزير خارجيّة منذ سنوات عدّة، يعيّن خلال ولاية رئاسية، وأول من يشغل مثل هذه الوظيفة، بعد أن أصبح في اعتقاد الجميع، ضرورة تعييني لهذا المنصب لتسيير دفة سياسة حكيمة.

كان أعضاء مجلس الشيوخ، الذين يشكلون لجنة الشؤون الخارجية، يجدون أنفسهم أمام معضلة، ونفوذ لجنتهم يوازي ما يتمتع به وزير الخارجية من نفوذ، فهو وسيط اللجنة لدى السلطة التنفيذية، وهو المطالب أمامها بتنفيذ نظرياتها، وهو الذي تشركه معها بتوجهاتها السياسية. وفي نجاحه بمهمته يصبح لها تقدير أكبر لدى مجلس الشيوخ. وعند فشله بعمله، فإن تقديرها يتضاءل. وأتمكن من القول أن اللجنة ووزير الخارجية يتنافسان في العمل. وعند تعاون اللجنة ووزير الخارجية، فإن الأمور ولا شك تؤول إلى النجاح وبث الطمأنينة في النفوس. وعند اختلافهما تُشلّ السياسة الخارجية.

واتّضح مما تقدّم أنه لابد من سماع شهادات طويلة، ليست لها سابقة حول تعيين وزير خارجية، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. فتتابع سماع الشهادات طيلة أسبوعين، من السابع حتى الحادي والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٧٣، واعتبر هذا نهجاً جديداً غريباً، لأن جميع أعضاء اللجنة أبدوا استعدادهم للتصديق على تعييني، وبتفويض من الرئيس استطعت التقاء اللجنة، فاعتبر هذا وكأنه شهادات برلمانية. فالتقينا مرّتين: لدى رئيس اللجنة، وليم فولبرايت، ثم في مكتب من مكاتب مجلس الشيوخ. وكان معظمهم أصدقائي ولا سيما فولبرايت، على الرغم من اختلاف تفكيرنا السياسي، ولا سيما حول قضية فيتنام، أمّا وقد انتهت هذه الآن فإن اللجنة متجهة نحو المستقبل وتُعِدّ لعهد جديد، يسود فيه التفاهم بين السلطة التنفيذية والتشريعية. وأصبحت على ثقة من تصديق تعييني.

غير أن اللجنة، بدا لها أن تثبت للجميع، أنها بالمرصاد لكل إساءة تصدر عن السلطة التنفيذية. فصرفت أكثر من نصف وقتها بتدقيق مشكلة أدوات التنصّت، وعلى الرغم من دقّة تصرفاتها، اتهّمت أنها تساهلت معي. علماً أن كثرة تلك الشهادات لم تكن مستساغة في مستهل انتهاج سياسة خارجية جديدة.

وبعد نقاشات طويلة توصلت لجنة الشؤون الخارجية، تقيداً منها بتوصيات عضوي مجلس الشيوخ سباركمان وكاز، إلى نتيجة بإجماع الأصوات، وقررت أن مشكلة أدوات التنصّت، يجب ألاّ تقف عائقاً في وجه تعييني.

وفي الثامن عشر من شهر أيلول، صوّتت اللجنة بستّة عشر صوتاً ضد صوت واحد، حول تعييني. وهذا الصوت الوحيد كان لعضو مجلس الشيوخ جورج ماك غافرن، الذي كلمني هاتفياً في الليلة السابقة للتصويت وأطلعني على اعتباراته الخاصة تجاهي. وبيّن عن اعتقاده إن مجلس الشيوخ مدعو للتصديق

على تعييني. وأن تصويته السلبي ضدّي يعود إلى حملته الرئاسية السابقة، وهذا لا يمنع أنه يكنّ لي كل تقدير، يحمله على التعاون معي بعد التصديق على قرار تعييني، ولم يدهشني أن أرى ماك غافرين يلعب على الحبلين، لأن الظروف تقضي على كل شخصية هامّة أن يكون مراوغاً أحياناً. ويرضيه أن يرى يوماً الأمور التي اختلف حولها قد عادت إلى مجاريها.

وفي الحادي والعشرين من شهر أيلول، وفي جلسة علنيّة، صوّت مجلس الشيوخ على تصديق تعييني، وكانت النتيجة ثمانية وسبعين صوتاً مقابل سبعة أصوات. وفي الثاني والعشرين منه، أقسمت اليمين أمام رئيس المحكمة العليا، وارّين بارغر، في القاعة الشرقية من البيت الأبيض، بحضور أهلي وأولادي، وتحت رعاية الرئيس نيكسون. إن القاعة الشرقية ليست بالكبيرة، ولا تتسع لأكثر من مائة وخمسين شخصاً، هذا في الحفلات الرسمية، وربّما كان العدد أقل، لأن لابدّ من الاحتفاظ بقسم منها لممثّلي الصحافة، كما أن مقرأ ومنبراً أعدّا مقابل مقاعد وضعت على شكل نصف دائرة وعساكر بقفازاتهم البيضاء كانوا يوصلون المدعوين إلى أماكنهم. وحضر بعض زعماء الكونغرس ومن كلا الحزبين، كما حضر روبرت ستروس رئيس اللجنة القومية للحزب الديمقراطي، والذي احتفظ بصداقتي طوال هذه المدة كلها انطلاقاً من أن سياسة الولايات المتحدة الخارجية، سوف تسير ضمن مبادئ لا تتأثر بالترجرج الذي يطرأ على الأحزاب.

كان نيكسون الوحيد، الذي بدا عليه استسلامه لرؤاه الشيطانية. ولم ينضم إلى الاجتماع العائلي الذي جرى قبل حلف اليمين في الصالة الحمراء بحضور رئيس المحكمة العليا. والمواضيع التي تحدث بها خلال الاحتفال انتقلت من التفاهة إلى البلادة. إذ بدأ حديثه مؤكداً تغلّبي على معارضة الكونغرس حتى

تمكنت من التوصل على تصديق تعييني، وقصد بذلك أنه ليس الوحيد الذي يعاني من تصدّي السلطة التشريعية. واستفاض في الحديث مدلّلاً على أن تعييني كان الأول من نوعه لأسباب ثلاثة:

- إذ كنت أول مواطن أمريكي متجنّس يصبح وزير خارجيّة.
- وأول وزير خارجية يزور بكين وموسكو قبل تعيينه.
- وأول وزير خارجية، منذ الحرب العالمية الثانية، ليس له مفرق في شعره.

وعاد بسرعة إلى السببين الأولين، وأكد بقلق على الثالث، متسائلاً عن الصنف الذي ينتمي إليه دين رأسك الأصلع، ثم أردف قائلاً: لقد سألت حلاّقي، الذي كان رجلاً عاقلاً، ويخدع نادراً، في أيّ صنف تُلحق رأسك؟ فأجابني الحلاّق، يا سيّدي الرئيس، ليس لرأسك شعر غزير، لكن مفرق شعره فيما كان يملك. وجئت في جوابي على هذا الموضوع المؤثّر، لأسطّر ما يمليه قلبي:

"سيدي الرئيس، لقد لمّحت في حديثك إلى من سبقني في هذا المنصب، أنه والحق يقال، ليس هناك بلد آخر في العالم، يقبل بوجود شخص مثلي إلى جانبك ولا سيما أنه مرّ بظروف مشابهة لظروفي. وإذا كان لماضيّ بعض التأثير على مسيرة سياستنا، فإن السبب يعود إلى كوني منذ صغري قد أدركت ما سوف يحدث لمجتمع أُسّس على القوة وقلّة الثقة والحقد، وفهمت في الوقت نفسه ما تعني أمريكا بالنسبة للشعوب الأخرى، من خلال تطلّعاتها ومثاليتها ولهذا السبب، وفيما أنا أسعى لإعداد إطار سلام ضمن توجيهكم، يا سيدي الرئيس، فإن هذا لا يعني فقط إيجاد حلول واقعية، تدعونا صعوباتها إلى الاقتتال، لكن هذا يعني أن أمريكا لم تكن أمينة نحو ذاتها، إلاّ عندما توجد هذه الثقة لدى الغير".

وإن التقدير الذي أبدته عائلة نيكسون، كان يختلف عمّا أظهره هو نفسه. وغاب عن الأنظار ولم يختلط بالمدعوين في قاعة الطعام الكبرى، كما تقضي التقاليد بعد الاحتفال بحلف اليمين.

وأبرقت البرقية التالية من قبل وزارة الخارجية إلى جميع المقار والمؤسسات الدبلوماسية وكافة القنصليات:

"أقسم الدكتور هنري كيسنجر اليمين، قبل تسلمه وظائفه، بصفته وزير الخارجية السادس والخمسين، وكان ذلك في الساعة الحادية عشرة والدقيقة السادسة من التوقيت المحلي في الثاني والعشرين من شهر أيلول عام ١٩٧٣".

❒ ❒ ❒

إن المهمة الكبرى، التي مثلت أمامي، بعد استلامي مهام وظيفتي، هي ملء الفراغ الذي عيّنت لشغله، إذ عليّ أن أسلك سياسة خارجية نشطة على الرغم من الضعف الواضح الذي يلّم بالسلطة التنفيذية. وأن أستخدم هذه الوزارة، التي هي الأولى بحق، لأبعث الأمل في نفوس الجميع بمستقبل يستحقّه شعبنا، في وسط أزمة سياسية لا مثيل لها في تاريخنا المعاصر. والكلمة الوجيزة، التي كنت قد ألقيتها بعد قسم اليمين، تتضمن الخطوط العريضة، الواجب علي إتباعها خلال عملي، وكان عليّ أن أعطي انطباعاً سليماً هادئاً، أمام التفكك الذي يفتّت حكومتنا، فأحبط بذلك، ما يوجهه إلينا خصومنا من ضغوط، باعثاً الأمل أيضاً في قلوب الواثقين بنا.

وإذا عدت لأمثلة التاريخ، فهي عديدة، وتثبت أن لابدّ للأزمات من أن تتلاحق. ولن نكون أهلاً للوقوف أمامها، ما لم يتأكد الشعب الأمريكي، أن سياستنا الخارجية هي أداة سلام وسكينة في العالم، وأنها ليست فقط سوى ردّ تلقائي لتلك العواصف التي تثور علينا من جرّاء ضعف سلطتنا التنفيذية، وعلينا أن نعطي الصورة الحقيقية عن أمريكا بدلاً من تلك الصورة المشوّهة في أولى صفحات الصحف، أو كما تظهرها شاشة التلفاز أنها أداة تهديم ليس إلاّ. ويدعونا الواجب في هذا الظرف بالذات، وأكثر من أي وقت آخر، أن نثبت للأمريكان وأيضاً لأصدقائنا في العالم أجمع، أن حكومتنا ستكمل طريقها أمينة لمبادئها وسيّدة مواقفها. وفي سبيل ذلك فقد أعددت ثلاثة خطابات، خلال الأسبوعين الأولين اللذين عقبا استلامي الوظيفة. وعليّ أن أتحدّث أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة، بعد ثماني وأربعين ساعة، من تأدية اليمين، ولم استعِن بموظفي الوزارة في إعداد الخطاب الذي سألقيه أمام الجمعية.

وخلاصة ما وجهّته من كلام للأمم المتحدة، أني طالبت جميع بلدان العالم، أن تتجاوز الانفراج إلى التعاون معنا، ومن التعايش السلمي إلى تشكيل مجتمع واحد. ثم بيّنت الأهداف الرئيسية لدبلوماسيّة بلادي وأظهرت دقّة في الجمل التي ناشدت بها جميع الدول بالابتعاد عن العنف واتباع طرق الاطمئنان والسكينة والسلام. وإذا طولبت بتحديد دولة ما، فإن هذا يثير عارضاً دبلوماسياً، ومن شدة تأثري ممّا لحق بي من جرّاء تهيئة الخطاب فقد نسيت المجيء على ذكر أوروبا، وهو ما كلفني غالياً وسجّل عليّ في سجل أغلاطي، وقد قلت في ذلك الخطاب:

"إننا نشكّل فعلاً مجتمعاً متماسكاً، نتيجة وسائل المواصلات الجديدة، والتكنولوجيا، والعلوم الحديثة، إلى درجة أننا نشعر وللأسف أننا غير مهيئين لذلك في المجال السياسي. إن التكنولوجيا، تثبت لنا كل يوم عدم كمال منشآتنا، لأنها لا تستطيع الاستفادة منها كلياً. وتصوراتنا السياسية، هي السبب في تخلّف تطلّعاتنا العلمية".

وفي الثامن من شهر تشرين الأول، ألقيت خطاباً معداً منذ مدّة طويلة، أمام مؤتمر "السلام في الأرض" الذي عقد في واشنطن، وأوردت فيه موجزاً عن العلاقات بين أمريكا والسوفيت. لكن ما كنت أهدف إليه، هو تفاهم دولي بالنسبة لدور أمريكا في العالم. وكان هناك بعض الخلاف في وجهات نظر الحكومة، بالنسبة لتوازن القوى، والطرق التي أنوي اتّباعها لدراسة الشؤون العالمية. فحاولت إيضاح العلاقة بين الأخلاق، والنفعيّة، من خلال رؤية فلسفية:

"لقد هضمت بلادنا، وبصورة دائمة مؤدّى مهمّتها. أن الأمريكان لا يزالون يعتقدون أن أمريكا بالنسبة لهم هي أفضل ما تتوصل إليه من نجاحات عابرة. والسياسة النفعيّة، لن تبرهن للأمم الأخرى ما نصبو إليه من إنجازات خيّرة، ولا تعطي للأمريكان دليلاً على مثل عليا يجدر بهم الالتفاف حولها.

"ولكن عندما تصبح السياسة أخلاقية، فلقد تصبح مفيدة أو قد تجرّ وراءها أخطاراً. إن سياسة الاستئثار بالحقيقة، تقف عائقاً في وجه المفاوضات والتسويات. وقد تتخلّى السياسة عن نتائج مرضية متذرّعة بالسعي نحو حلول مثالية وواقعيّة. وقد يضحّى بالسياسّة على مذبح مواقف مذهلة، أو عداوات مفاجئة.

وفي الرابع من شهر تشرين الأول، وخلال حفل عشاء أقيم في متحف الفنون

في العاصمة، للوفود المشاركة في اجتماعات الجمعية العمومية للأمم المتحدة في نيويورك، ألقيت الكلمة التالية:

"إن الإنسانية وحدها، بين كافة موجودات البسيطة، عانت من آلامها.

"علينا أن نسعى لإيجاد مجتمع عالمي مؤسّس على العدالة، لا على القوّة، فإن هذه ضرورة عصرنا الملحة ....

"إني أتعهّد أمامكم، أن الولايات المتحدة على استعداد، للبدء والمشاركة في كل ما من شأنه أن يؤدّي بنا إلى هذا المجتمع العالمي. لنرنو إلى الأعلى، ونزن خطانا. لا نفرط في مواعيدنا ونعدّدها، بل علينا المحافظة وإنجاز ما نعد به. لنتخذ من الثبات جسراً يوصلنا إلى تحقيق أماني الإنسانية، إننا على ثقة تامة، أنه يجب علينا جميعاً الصغار والكبار أن نعمل في سبيل إقرار السلام. ويجب أن تكون مصلحة الضعفاء والأقوياء في إبقائه والمحافظة عليه".

وبعد يومين من هذا التاريخ، أعلنت الحرب في الشرق الأوسط.

حرب

في

الشرق الأوسط

الفصل الحادي عشر

استيقاظ مزعج
على طبول الحرب

استيقظت صباح يوم السبت السادس من شهر تشرين الأول لعام ١٩٧٣، على صراخ معاوني النشيط لشؤون الشرق الأوسط وأسيا الجنوبية جوزيف سيسكو، المشوب بالهلع، وهو يقول أن "إسرائيل ودولتين عربيتين (مصر وسوريا) على أهبة الدخول في حرب".

وكان سيسكو قد بادر بإيقاظي وبهذا الشكل بعد استلامه برقية عاجلة من سفيرنا في إسرائيل، كنيت كيتنغ، ينقل فيها ما قالته له غولد مائير قبل ساعتين من إرسال البرقية، "لابد لنا من الوقوع في مصاعب".

عندما أيقظني سيسكو، لم يكن باقياً لما كان يدعى بالسلام في الشرق الأوسط سوى تسعين دقيقة. لقد استطاعت كل من مصر وسورية وبمهارة غريبة

إخفاء استعداداتها الحربية، حتى بات شبه مؤكد لدى الإسرائيليين، أن الهجوم لن يبدأ قبل أربع ساعات. وأني متأكد من جهتي أن الدبلوماسيّة فاشلة بل عاجزة، إذا كان الهجوم العربي مهيّأ له بحساب. ورأيي كان لا يزال مغلوطاً نتيجة التقارير الواردة من إسرائيل، ومعلوماتنا الخاصّة. والتي بموجبها أتمكن من القول أن الهجوم ربما كان مستحيلاً. فأخذت أدقّ بهالة من الأنشطة الدبلوماسيّة العاجلة، آملاً اجتناب الصدام، فيما كنت لا أزال على بعض اعتقادي، أن تصرفات المصريين والسوريين، ناتجة عن خطأ تقديرهم للنوايا الإسرائيلية.

وفي تمام الساعة السادسة والدقيقة الأربعين. اتّصلت بسفير الاتحاد السوفيتي، أناتولي دوبرينين، في مقّر السفارة في واشنطن. فسحب نفسه من سريره، وبدا عليه الذهول (أو تظاهر بذلك) فرجوته أن يعلم حالاً موسكو، ومثلها القاهرة ودمشق، أن إسرائيل قد أبلغتنا عدم نيّتها القيام بأي هجوم.

فأخذ دوبرينين، يحلّل الأمور قائلاً، أن جلّ ما هنالك ليس سوى مناورة إسرائيلية، ترمي إلى القيام بهجوم وقائي. فأكدت له أني استدعيه، لأبيّن له أمراً مُغايراً تماماً. وبعد أن تبادلنا بعض الحذلقة الدبلوماسيّة، سألني عمّن أرسل البرقيات وإلى مَن. وهل قامت إسرائيل بإعطاء هذه الضمانات إلى الدول العربية؟ أو كانت بواسطة الولايات المتحدة إلى الاتحاد السوفيتي؟ فقاطعته بعد نفاذ صبري: "إذا استمّر الحديث بيننا على هذا الشكل، فقدّ تبدأ الحرب، قبل معرفتك ما أريد" وجد دوبرينين ذريعة أخرى لإضاعة الوقت، وكان يشك في دقة المواصلات بين واشنطن وموسكو للتمكن من القيام بأمر ناجح في الوقت المناسب. عرضت عليه حينذاك استخدام "هاتفنا الأحمر" (أي الخط الأحمر المباشر) فأجاب قائلاً، إن مركز هذا الهاتف في موسكو، بعيد جداً عن وزارة الشؤون الخارجيّة. فأخذت أسائل

نفسي، عن مدى نفع مثل هذا الخط، في مثل هذه الظروف الطارئة بين القوتّين الأعظمين. وحينئذ دعوته إلى استخدام المقسم الهاتفي للبيت الأبيض فقبل شاكراً.

وفي تمام الساعة السادسة والدقيقة الخامسة والخمسين، كلمت مردخاي شاليف، القائم بالأعمال في السفارة الإسرائيلية، وهو دبلوماسي قديم موضحا له أن تأكيدات مائير، بعدم القيام بهجوم وقائي قد أبلغت إلى السوفيت. وأصبح من واجبه إيصال كلامي هذا برقياً إلى حكومته مع توصية شخصيّة من قبلي باجتناب أي عمل طائش.

وفي الساعة السابعة صباحاً، كلمت هاتفياً، وزير مصر للشؤون الخارجيّة، محمد الزيّات، الذي كان موجوداً في نيويورك، للاشتراك بأعمال الجمعية العمومية للأمم المتحدة. ولتوفير الوقت وعدم إضاعته بإعطاء تفسيرات لا تفيد، قرأت له البرقية الإسرائيلية حرفياً. علماً بأنني كنت أحادثه مصادفة، الليلة الفائتة، عن إمكانية البدء بمفاوضات حول السلام في الشرق الأوسط، وهذا ما كانت تنوي الولايات المتحدة القيام به مباشرة بعد الانتخابات الإسرائيلية المتوقع إجراؤها في الثلاثين من شهر تشرين الأول. وأني واثق أن الزيّات لم يكن مخطئاً بتكتّمه، لأن السادات بدوره لم يطلع أحداً على مخطّطاته.

ومن ثمّ، حاولت عبثاً، الاتصال، بنائب الوزير السوري للشؤون الخارجية، محمد زكريا إسماعيل، الذي كان موجوداً في نيويورك، وطلبت مكالمة الوفد السوري إلى الأمم المتحدة، فلم أحظّ بجواب.

ونحو الساعة السابعة والربع، أكدّ لي شاليف: أن إسرائيل لن تقوم بهجوم وقائي. وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والعشرين، كلمت السفارة

السوفيتية، مستعلماً، عما إذا كان دوبرينين عازماً على مكالمة موسكو عن طريق البيت الأبيض. وطلبت في الوقت ذاته إلى أحد مساعديه: أوليغ بيدانوف، أن يلفت انتباه السفير إلى عدم قطع المكالمة، دون ذكر أن الإسرائيليين جددوا تأكيداتهم السابقة.

وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين، كلمت الزيّات ثانية لأعلمه بتجديد الإسرائيليين لتأكيداتهم السالفة، وأن أمريكا كافلة لها. وفي الساعة السابعة والدقيقة السابعة والأربعين، أردت التأكد مما توصل إليه دوبرينين فأجابني أنه نقل البرقية إلى موسكو. ورويت له الحديث الذي أجريته مع الزيّات، ورجوته المساعدة للتمكن من الاتصال بالسوريين. وأكدت له أثناء محادثتي وإياه، أننا لن نقوم بدور مزدوج. وسنطلع موسكو على ما نجري من محادثات مع الفرقاء.

وفي غضون ذلك، أصدرت تعليمات إلى الجنرال برانت سكاوكروفت، نائبي في مجلس الأمن القومي في واشنطن، لدعوة فريق العمل الخاص في واشنطن لعقد اجتماع في تمام الساعة الثامنة، لتبادل وجهات النظر حول الموضوع.

وفي تمام الساعة الثامنة والربع، كلمني الزيّات لإبلاغي بلاغاً مصريا أكد أن وحدات من البحرية الإسرائيلية مدعمة بالطيران، قامت بمهاجمة المواقع المصرية في خليج السويس، وتحاول مصر ردّها على أعقابها. أنه لشيء غامض، وأمر بعيد الاحتمال أن تكون إسرائيل قد نقضت تعهداً قطعته للولايات المتحدة منذ بضع ساعات ولا يعقل أن تشنّ هذه الدولة حرباً في يوم الغفران. ومن النادر أن تخوض دولة حرباً، دون تعبئة مسبقة. ولا يمكن أن تبدأ إسرائيل العدوان بمعركة بحرية، ضد أبعد هدف من حدودها. فعدت لمحادثة الزيّات ورجوته أن تضع مصر حداً

لدفاعها في النقطة التي جرى عليها الهجوم، وأني سأتصل مباشرة بإسرائيل للوقوف على حقيقة الأمر. ووضعت مقسم هاتف البيت الأبيض تحت تصرّف الزّيات ليقوم بالاتصالات اللازمة مع القاهرة. وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والعشرين، كلّمت وزير إسرائيل للشؤون الخارجية، آبا آيبان، الموجود أيضاً في نيويورك، وأطلعته على ما تتهم به مصر إسرائيل، حول هجومها على قناة السويس، فوافقني على رأيي من حيث عدم إمكانية حدوث ذلك، في أقدس يوم لدى إسرائيل. ووعدني باستفسار عاجل من دولته.

وفي الساعة الثامنة والنصف، أرسلت برقية عاجلة إلى كل من ملك الأردن وملك المملكة العربية السعودية، راجياً إياهما، استخدام نفوذها في سبيل وضع حد للأحداث الحربية وكان أملي ضعيفاً بتدخلهما، لأن الهجوم إذا كان متفقاً عليه، فلن تقبل أية دولة عربية وضع حدّ له.

وأجوبتهما التي وصلت متأخرة مساءً، أثبتت صدق حدسي ووقوفهما على الحياد. وأعرب حسين عن قلقه إزاء هذه الأحداث، وبيّن فيصل أنه مع التضامن العربي. وبقي الاثنان خارج النزاع العسكري.

وفي الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والثلاثين، تكلمت مع هيغ الأمين العام للرئاسة، وكان إذ ذاك مع نيكسون في فلوريدا، في كاي بسكاين. وطلبت إليه إبلاغ الرئيس باندلاع الحرب. وقمت أنا وهيغ ببعض التخمينات، حول دور السوفيت، ولم نتوصّل إلى شيء. واقترحت في الوقت ذاته، على الناطق بلسان البيت الأبيض في فلوريدا، الملحق الصحفي المعاون جيرالد وارّن، أن يعلن وبكل بساطة: لقد اطلع الرئيس على الأحداث بشكل طبيعي، وهو يراقبها.

وفي تمام الساعة الثامنة والدقيقة الخمسين، كلمني آيبان ليؤكد لي من جديد، كما أعلمني شاليف، عن تأكيدات إسرائيل عدم القيام من جهتها بأي هجوم وقائي وأكد لي أيضاً أنه لا يعلم شيئاً عن هجوم على خليج السويس أو في أي مكان آخر.

خلال هذه الأوقات كنت أفكر إذا ما كنا في بداية حرب في الشرق الأوسط (وهذا مازلنا نشكّك فيه) فإن أمامنا أمرين يجدر بنا تدبّرهما: ماذا علينا أن نعمل؟ وماذا يجب أن نقول؟ وككل الناس، كنت انتظر نصراً إسرائيلياً سريعاً. لكن التاريخ قد علّمنا أن كل حرب في الشرق الأوسط تعود فتصبح أزمة عالمية بين وقت وآخر. هذا وأن حرمان العرب من حقوقهم، سيحمل السوفيت على الوقوف موقف التهديد. ولا شك أيضاً أن أوروبا ستبتعد عمّا ندبّره في هذا الوقت بالذات، إذ أنها لم توافقنا قط على مساعدتنا إسرائيل.

طلبت من سكاوكروفت، أن تكون حصيلة اجتماع ما قبل الظهيرة، أولاً مشروع تحويل الأسطول السادس الأمريكي، المتوزّع بين موانئ إسبانية ويونانية مختلفة، إلى شرق البحر الأبيض المتوسط.

وثانياً مشاريع لتعزيز تواجدنا البحري في البحر الأبيض المتوسط، إذا اقتضت الحال. وعدم تحريك أية قوة أخرى، لكن تعبئتها يجب أن يسبق كل ذلك. وعلى كل وزير في وزارته عدم إصدار أي تصريح. وإذا كان هناك شيء يجدر بنا قوله، فأنا وهيغ وحدنا قادران على إجراء اللازم. كما أن الرئيس أو هيغ عليهما أن يقررا ما إذا كان البيت الأبيض أو هيئة أخرى لها الحق في إذاعة كل حادث خطير جديد.

أعلمني شاليف في الساعة التاسعة، أن هناك قوات مصرية تحاول اجتياز

قناة السويس. وأن قصّة القتال البحري، لم يكن سوى تورية من قبل المصريين. وشغل الخط الهاتفي الثاني في تمام الساعة التاسعة والدقيقة السابعة، وكان هذا دور آيبان ليطلعني على ما قاله شاليف. لكنه تفذلك قليلاً ليبيّن سبب تأخره في الاتصال بي فقال: لقد كلفتني رئيسة الوزراء إبلاغكم أن قصّة المعركة البحرية لا أساس لها. ولهجته العبرية سمحت له بالإفراط في الحديث. فأردف قائلاً: سيكون ردّ إسرائيل باتخاذ تدابير دفاعية. وأثناء المكالمة هذه، كان فريق العمل الخاص في واشنطن WSAG قد بدأ اجتماعه، في إحدى قاعات البيت الأبيض. وكانت أجهزة مخابراتنا لا تزال تجهل ما أطلعت عليه من أخبار. وعلى الرغم من أن هناك عمليات عسكرية قد بحثت فإن الرأي العام، لا يزال يردّد منذ أسبوع، أن أخطار حرب حقيقية تبعث بها أسباب مقصودة، لا تزال ضعيفة وبعيدة:

"نحن (أجهزة الاستخبارات) لم نجد أيّ مؤشر لهجوم مصري سوري مخطّط له، خلال القناة، أو هضبة الجولان. لكن الدلائل هناك تثبت أن لابد من وقوع سلسلة من الاعتداءات، والتهديدات العنيفة، يغلب الظن أنها تؤدي إلى مواجهة خطرة. وما يحدث حالياً من مواجهات ليس سوى النتيجة الفعلية لهذا الوضع. ولا نملك ما نستطيع إيضاحه حول الأحداث القائمة. ومن المحتمل أن المصريين أو السوريين، لا سيما هؤلاء، قد أعدّوا هجوماً على نطاق ضيّق".

ونحو الساعة التاسعة والدقيقة العشرين في نيويورك، وإذ لم يكن لديّ أيّ حدس للدفاع عنه، وطالما غالبت شكوكي حول ما يجري. اتصلت بـ دوبرينين هاتفياً وأكدت له أن مصر وسورية قامتا بهجوم مفاجئ. وعندما اعترض دوبرينين مبيّناً أن الزيّات يدّعي العكس، فأجبته عندئذ بجفاف:

"أنت وأنا، نعلم أن هذه خدعة، فلو كانت نيّة الإسرائيليين القيام بهجوم، لما هاجموا خليج السويس . . . فكيف يبدأ المصريون والسوريون هجومهم وفي الدقيقة ذاتها على جميع خطوط الجبهة؟ إذا كان ثمة هجوم بحري إسرائيلي؟".

ثم حذّرت دوبرينين قائلاً: أن كل ما نُفذ في سبيل تحسين العلاقات بين الشرق والغرب، يمكن طيّه في حال احتدام الوضع في الشرق الأوسط. وكان هذا بداية مبارزة طويلة الأمد بين موسكو وواشنطن، ورفض أيّة فكرة تعاون وسعي كل منهما لإضعاف موقف الآخر، دون التوصّل إلى مجابهة علنيّة . . . .

❐ ❐ ❐

وهكذا اندلعت الحرب في الشرق الأوسط، وأصبحنا في مواجهة عدد من المسؤوليات، تبدو لأول وهلة وكأنها متناقضة، فعلينا تأمين بقاء إسرائيل والمحافظة على أمنها، وعلينا في الوقت ذاته الحفاظ على علاقاتنا مع الدول العربية المعتدلة، كالأردن والعربية السعودية. إننا نعلم مسبقا أن أوروبا واليابان ستكونان قلقتين، فيما لو طال أمد الأزمة، وأنهما سوف تتبعان مسلكاً يختلف عما نسلك في حال فشلنا. أما بالنسبة للسوفيت، فهم يتصرّفون بحكمة ومهارة، وعلينا أن نتوقع منهم مدّ يد العون لنا لإنقاذنا من ورطاتنا، وربما كان العكس، فهم سوف يلجئون إلى تصعيدها.

إن هذه المهمة ليست باليسيرة، لا سيما في وقت تكون فيه رئاسة الولايات المتحدة معرّضة لصدمة نفسيّة. لا أخال أن نيكسون قد احتفظ بقليل من الاعتبار يمكنه من السيطرة على تلك الضغوط المتعددة، التي سوف تمارس ضدّه. لكننا لا نستطيع البقاء على الحياد، والنار تلتهم الشرق الأوسط، وليس عليها من سلطان. أن العالم كله سيشاهد انهيار نفوذ الولايات المتحدة، مهما تكن حججنا.

إذن حان الوقت، لنضع موضع الاختبار تلك الاستراتيجية، التي كنا نود تطبيقها في الشرق الأوسط، منذ تسلم نيكسون سدّة الحكم. لم تتح لنا فرصة إجراء مفاوضات جادّة، طالما أن تطلّعات المتشددين تؤكد أن ضغوط السوفيت ومساومة العرب لابدُ أنها آيلة إلى الحصول على تنازلات. وإظهار عدم جدوى مساومة يساندها السوفيت، هذا هو جوهر دبلوماسيتّنا. أما الآن وقد حدث ظرف قاهر، فعلى كل منّا إعادة النظر في شؤونه وأوراقه. وفي النهاية إذا أحسنّا استعمال جميع وسائلنا، فلا بدّ للعرب من ترك الاتحاد السوفيتي، وعدم الضغط على خصمهم، والسعي للوصول إلى أهدافهم من خلال التعاون معنا.

عزمت منذ البداية، على الانتفاع من حالة الحرب، لرفع مرساة مشروع للسلام. وقد قلت ذلك لهيغ، في صباح السادس من شهر تشرين الأول، عندما تحدثنا طويلا حول الاستراتيجية الواجب علينا اتباعها، وقد أكّدت له: "لا عذر لنا في التأجيل، ومنذ توصّلنا إلى إيقاف القتال، لابّد من اغتنام الفرصة، لوضع الدبلوماسية موضع العمل". أما من جهة نيكسون فقد أقرّ الفكرة بحماسة غريبة، واستكمل البيان عنها في الأيام التالية، إذ قال لي في الثامن من شهر تشرين الأول:

"لن نرضى بأيّة حال، السماح للإسرائيليين، بعد إحرازهم الغلبة أن يبقوا على ما هم عليه من غطرسة، وترك الأمور معلّقة فوق رؤوسنا طوال أربعة أعوام، وتحملينا الهموم العربية، سوف لا نقبل بهذا أبداً".

ستبقى نوايا السوفيت أحد الأدوار الرئيسية في لعبة ورق مربكة. فهل كانوا على علم باندلاع الحرب؟ وهل يحبّذون إطالة مدتها بما يقدمون من عتاد، ويبذلون من مساندة دبلوماسية؟ وهل سينضمون لنا لوضع حدّ لها؟

ليس في مقدورنا وبكل تأكيد الإجابة عن هذه الأسئلة، لقد كان ما حدث، إظهار حسن النيّة بين متخاصمين، ولم يقصد به إظهار صداقة ولم يكن بين الزعماء العرب الذين التقيتهم بعد الحرب مباشرة، من كان يقول عن وجود تواطؤ بين العرب والسوفيت.

إن بعض الرؤساء العرب مهما يكن التباعد بينهم واختلاف وجهات نظرهم، أجمعوا على القول، أن موسكو كانت تبخل بمساعدتها القضيّة العربية، وتتباطأ في تسليم الأسلحة، وتبدي استعدادها لطلب وقف إطلاق النار، منذ أول يوم اندلعت فيه الحرب. وللحقيقة، فإن السادات يؤكد في مذكراته الشخصيّة ما يأتي:

لو كان السوفيت على إطلاّع على حقائق مخططاته، لمنعوا كل مبادرة مصرية، بتأجيل تسليم شحنات السلاح، وتشجيع الرأي العام في سورية ضدّه. ومن جهة أخرى، بعد وصول حافظ إسماعيل إلى موسكو، في شهر شباط من عام ١٩٧٣، تأكدت مصر من حرّيتها بالدفاع عن ذاتها وعن مصالحها، شريطة ألاّ تقدم على شيء يؤدّي إلى مجابهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي.

وحسب العرف الدبلوماسي، يعتبر ذلك دعوة لشن حرب قصيرة الأمد. ثم جاء دور ذلك الحادث الغريب: مهاجمة القطار الذي يقلّ يهوداً مهاجرين قادمين من الاتحاد السوفيتي، وهو في طريقه إلى النمسا. وحدوثه قبل أسبوع من بداية الحرب، يعتبر تزامناً، أو مناورة إلهاء. وفي هذه الحال، هل أطلع السوفيت على الموضوع ووافقوا عليه؟ لقد علم في الفترة الأخيرة أن رجالاً مسلحين استقلّوا القطار في تشيكوسلوفاكيا، وأخذوا الرهائن عند اقترابهم من الحدود النمساوية. الأمر الذي لا يمكن إدراكه، كيف أن رجالاً مسلّحين استطاعوا أخذ أمكنتهم في

قطار وفي بلد بوليسي مثل تشيكوسلوفاكيا، دون تواطؤ من قبل السلطات، التي لا تتسامح في إجراءات كهذه دون موافقة السوفيت.

في السادس من شهر تشرين الأول، لم أكن قد توصلت بعد إلى قناعة عما إذا كان الروس على اطلاع بالأمر مسبقاً. وعلى كل حال، رغم أن الوقائع كانت تبدّد أي شكوك للوصول إلى تلك القناعة. وبعدما يقرب من تسعين دقيقة على إطلاعنا على بدء القتال، وفي حين كنا نتوقع انتصاراً إسرائيلياً سريعاً كلفت هيغ بحمل مذكرة إلى نيكسون:

"اعتقد أن أسوأ الأمور هي اتخاذ موقف الحياد، طالما أن المعارك قد دارت، ما لم يكن السوفيت قد عزموا أيضاً على اتخاذ جانب الحياد مثلنا. وفي حال انخراط السوفيت كلياً في المعسكر الثاني، يثبت لنا التواطؤ. ويصبح الوضع أمامنا كما كان في أيلول ١٩٧٠، فيجدر بنا التمسك بموقفنا، والبقاء أقوياء".

أطلعت دوبرينين على موقفنا في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من صباح السادس من تشرين الأول. ولفتّ انتباهه، إلى أن على السوفيت تحمل مسؤولياتهم، وإلاّ لن يكون لدينا أي خيار. وسنترك للطبيعة أن تعمل ما يحلو لها. وكنت أعني بذلك، أننا سننتظر فقط غلبة إسرائيل. وهذا أمر يوطّد علاقاتنا. وبيّنت لدوبرينين أننا نؤكد عرض الواقع على مجلس الأمن، قبل إجابة موسكو على اقتراحنا، أملين في الوقت ذاته، ألاّ تقدم موسكو على اتخاذ موقف أحادي الجانب.

كانت لهجة دوبرينين طبيعية ورسمية، وأبدى رغبة في تفهم ما نهدف إليه. ثم تطرقّنا إلى بحث الوسائل الكفيلة بتسريع وصول الإجابة، فاقترح استخدام "الهاتف الأحمر". وألحّ عليّ قراءة المذكرة التي ينوي إرسالها ليظهر حسن نيّته.

وأفقته على استخدام "الهاتف الأحمر"، فلم يستخدمه. وفي هذه الحال لم يبق أمامي سوى العودة إلى استعمال المقتضيات الرسمية.

وهكذا، كان علينا كسب الوقت. ومع تقديرنا أن المستقبل إلى جانبنا، فإن الخيارات الأمريكية متعدّدة، ولكن بعد أن تكون إسرائيل قد أتمّت تعبئتها (وهذا أمر يتطلّب يومين) ونحو الساعة العاشرة والدقيقة العشرين، اتصلت بكورت فالدهايم، مبيناً له كل ما يجول في بالنا من أفكار، وأكدت له أننا سنعارض طرح القضية للنقاش أمام الجمعية العمومية، ونحن بانتظار جواب السوفيت، قبل عرض الأمر على مجلس الأمن القومي، فوافقني على ما قلت. وخلال النهار، أطلعت عدداً من حلفائنا في حلف شمال الأطلسي على ما اتخذته من خطط. فهمت من أجوبتهم أنهم ميّالون لوقف إطلاق النار، وهذا ما كنت أخشاه – وبعبارة أخرى، فقد أكّدوا ميلهم لتثبيت مكاسب العرب، والتخلّي عنّا، منذ الساعات الأولى للنزاع، الذي يقع عبؤه الرئيسي علينا، في سبيل المصلحة المشتركة، وعلى كل حال فهذا وليد المستقبل.

وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، اتّصلت مجدداً بدوبرينين، وبيّنت له أن هناك إشاعات تقول، أن مصر ستلجأ إلى الجمعية العمومية. وعلينا أن نقف بوجه هذه المحاولة المتعبة. وعلى موسكو ألاّ تهدم آمالاً بنيناها طوال سنوات ثلاث. ولقد قدّرت أن عرضنا في اتخاذ قرار مشترك، حول وقف إطلاق النار، والعودة إلى الوضع الراهن ما قبل هذه الأمور، لابدّ أن يشكل منعطفاً في صالحنا كلينا، وقلت:

"إني اعتقد أن الأمر لا يطول أكثر من اثنتين وسبعين ساعة، ومن ثم لا بدّ من إعادة الإسرائيليين إلى خط وقف إطلاق النار السابق. وإذا اتفق على هذا النوع

من الإجراءات، ومهما يكن الوضع العسكري، ومهما يكن النجاح الإسرائيلي، فإن الفريقين سوف يقفان في حدود اتفاقهما، ويكونان على استعداد لمعارضة إسرائيل".

ورجوت دوبرينين جواباً عاجلاً. وكان موقفنا حسناً في هذا الظرف بالذات كما بيّنت ذلك لهيغ. وإذا وافقنا السوفيت على اقتراحنا آنف الذكر، فلا بدّ أن تنتهي الحرب في مدة قصيرة. وفي حال رفضهم، سنسمح للإسرائيليين، بضرب العرب خلال يوم أو يومين، الأمر الذي ينهي الوضع. فعلينا أن نثبت في مواقفنا والامتناع عن أيّ تحرّك. والشيء الوحيد الذي بدا خاطئاً ومضللاً في هذه الفترة، هو توقّعاتنا غير المبنيّة على واقع. إذ لزم الإسرائيليين أكثر من يوم، لاستعادة الموقف العسكري، ووجدوا أنفسهم خلال هذا الوقت على شفير الهاوية.

وكنت خلال هذا الوقت أتلقّف أقل الأخبار وأحقرها في سبيل الاطلاع على حقيقة الواقع. كانت القوات الجوية والبرية الإسرائيلية، تصارع لتتمكن من الوقوف في وجه الهجوم المشترك الذي يقوم به العرب، في هضبة الجولان، وعلى طول قناة السويس، التي اخترقتها المصفّحات المصرية وفي عدة نقاط.

وفي تمام الساعة الرابعة عشرة والدقيقة الثلاثين، غادرت نيويورك متجهاً نحو واشنطن وفيما أنا في الطائرة، أرسل دوبرينين أول مذكرة إلى البيت الأبيض، جاء فيها:

"تلقّى القادة السوفيت النبأ المتضمن بدء أعمال عسكرية في الشرق الأوسط، في الوقت ذاته الذي أنبئتم به. أننا نتدبّر جميع أمورنا في استيضاح واقع الحال في هذا الجزء من العالم. علماً أن الأنباء التي ترشح من تلك المنطقة متناقضة. ونحن

نشاطركم قلقكم بالنسبة لانفجار الوضع في الشرق الأوسط، ولقد بيّنا مراراً عدّة أن الوضع كان خطيراً في هذا الجزء من العالم.

ونحن وإيّاكم ندقّق في ما يجب اتخاذه من الإجراءات الممكنة، أملين الاتصال بكم في وقت قريب، في سبيل تنسيق مواقفنا".

لم تكن تحركات موسكو متطابقة مع استراتيجيتنا الخاصة، انتظار إسرائيل لاستعادة وضعها العسكري.

وخلال الوقت الطويل الذي كانت تلمح فيه موسكو إلى تنسيق أمورها معنا في هذا السبيل، كنت أنا في خشية دائمة من إقدامها على عملية سياسية ضدنا في الأمم المتحدة. ورأيت أن من الحكمة مواصلة الضغط.

واتصلت من واشنطن بدوبرينين، وأوقفته على رأيي حول المذكرة وقلت: "أناتولي، تلقيّت مذكرتكم، ولا أستطيع إلاّ أن أقول أنها تدعيم لحجّتكم، وهذا مؤشر إلى أنكم إمّا في تجاهل للوضع، أو أنكم تتعاونون مع الفريق الآخر".

فاعترض دوبرينين وبتأكيد. لأن موسكو كانت بحاجة فقط لبعض ساعات من الوقت لرسم خطّتها. وكانت اجتماعات تدور في هذا الوقت بالذات، فلفت انتباهه إلى أننا نعتبر مناقشة الأمر أمام الجمعية العمومية، ليس سوى عمل طائش. ثم أكدت مجدداً على ما يلي:

"إذا كانت القضيّة تعرض في النهاية لمناقشتها أمام الجمعية العمومية، فنحن لابدّ تاركون الأمور تجري في مجراها الطبيعي. ونحن على ثقة أن كل شيء سينتهي بانتصار أكيد للإسرائيليين، وحينئذ سيلتف كل الناس حولنا. وعند حدوث صخب سنتوقف عن الكلام إلى حين".

وفي مساء اليوم ذاته، كنّا نهباً لضغوط وأخبار متناقضة. وفي نيويورك، كان آيبان يعطي رأيه بوجوب الانتظار بعض الوقت، لتتمكن إسرائيل من إتمام تعبئتها ووقف تقدم السوريين والمصريين. أما نيكسون فقد نفذ صبره ويريد الإدلاء بتصريح ما، حتى يقال أن الأمور صادرة عنه، حول عرض القضية على مجلس الأمن. وكان على حق.

وأخيراً تلقيت جواب السوفيت، وكانت الساعة تقارب الثامنة عشرة، وكان يشير إلى لزوم بعض التأجيل في اتخاذ أي موقف. فلم تكن موسكو قد اطلعت على واقع الأمور لدى العرب، وليس لديها استعداد لقبول اقتراحنا. ولم يطلب أيّ من الفريقين المتحاربين اجتماع مجلس الأمن. ويشعر الاتحاد السوفيتي بحرج، عند عرض الأمر على مجلس الأمن الدولي ويستخدم هو الفيتو، لذا اضطر إلى الانتظار بعض الوقت لمعرفة مصير المعركة.

فحاولت شقّ طريق من خلال هذه الأدغال، فبيّنت لهيغ أننا سنوقف مجلس الأمن على جليّة الأمر، دون طلب عقد جلسة. وفي هذه الحال، أوعزت إلى ممثلنا في الأمم المتحدة، البدء حالاً بالمشاورات، وهذا ما يقال له باللغة الدبلوماسيّة: اجتماعات رسمية بين المندوبين، ولا مجال لإعطاء مجلس الأمن رأي، أو عقد جلسة أو استخدام حق الفيتو.

وفي تمام الساعة التاسعة عشرة والدقيقة العشرين، أطلعت دوبرينين على ما قرّرت وعدّدت له مجدّداً الخيارات التي سنتخذها، ولن نتقدم بتوسّل فإن الظرف كان إلى جانبنا:

"إن الطريقة التي تجسّد بها الوضع هي التالية: لقد أوقف هجوم العرب في كل مكان. وأصبحوا الآن عرضة للتراجع حال إكمال إسرائيل تعبئتها، وهذا لن يتأخر عن صباح يوم الاثنين، وبعد ذلك سنعيد النظر في ما اتخذنا من قرارات".

وقلت له: لقد قام العرب بما استطاعوا، واخترقوا قناة السويس. إن الظرف غير مؤاتٍ لوضع حد للحرب، والعودة إلى الشؤون الدبلوماسية التي نظمناها قبل الاعتداء.

فأجاب دوبرينين موضحاً ما يدور بخلد موسكو: "هذا هو موقفنا والصعوبة التي علينا أن نتغلّب عليها، هي في أن العرب يحاولون الآن استعادة الأراضي التي احتلتها إسرائيل وهذه هي الحجّة التي عليها يستندون. وبالنسبة لنا، يصعب علينا الوقوف دون استعادتهم أراضيهم وتحريرها".

وفي آخر هذا اليوم العاصف، كنا لا نزال في السادس من شهر تشرين الأول. دعوت إلى اجتماع فريق العمل الخاص برئاستي. والتقارير التي بحوزتنا، كانت كلها تشير إلى أن الإسرائيليين قد احتووا الهجوم على هضبة الجولان، ويستعدون للقيام بهجوم ثانٍ واسع المدى في اليوم التالي، لكن المصريين، كانوا يقيمون مواقع لهم في الشرق من قناة السويس، ويستعدون لاختراقها ثانية من نقاط عبور عدّة كانوا قد أعدّوها لهذا الغرض. وتتجه الأنظار إلى أن إسرائيل، ستقبض على زمام الموقف، بعد يومين أو ثلاثة. ولذلك فإن اهتماماتنا جميعا كانت متركزّة، حول الصعوبات التي ستخلقها لنا الحرب، بالنسبة لعلاقاتنا مع البلدان العربية وعلى المدى الطويل، ونتيجة لتبادل الآراء، توصلنا إلى تقريب الأسطول السادس من مواقع القتال. ولم يكن الأمر ليؤخذ بالسخريّة في عطلة نهاية الأسبوع؛ لأن إحدى حاملتي الطائرات كانت راسية في اليونان، وكانت الأخرى في إسبانيا، أما بحارتها

والطيارون فكانوا في إجازة. وكان يلزمنا يومان للتمكن من الوصول إلى ساحل جزيرة كريت، شريطة أن يستوعب السوفيت ما نهدف إليه، فيسمح لنا بالإقدام على اتخاذ موقف ما، عند الضرورة. وباقي الأسطول كان بعيداً جداً نحو الغرب، ولا يجوز لنا جلبه إلى ساحل جزيرة كريت، خوفاً من اتهامنا بمغامرة لحساب إسرائيل، ولابدّ هنا من التنويه أن وحدات الأسطول السوفيتي، بعد مغادرتها الموانئ المصرية في الخامس من شهر تشرين الأول، أخذت تتجه مجدداً نحو الغرب. وهكذا فقد أظهرت موسكو أنها راغبة في البقاء على الحياد، مع الاحتفاظ بالوسائل التي تسمح لها بالعمل عند الحاجة.

وكانت الساعة تقارب الحادية والعشرين، عندما اتصلت وللمرة الثانية، بالزيّات، وزير مصر للشؤون الخارجية، فلم يستوعب مبدئياً ما كنت أهدف إليه من حيث إعادة الوضع إلى سابق عهده، ولم يتقبّل كلامي عندما بيّنت له أن إسرائيل ستتقدم قريباً، وعلى مصر في هذه الحال مساعدتنا في ما نحن بصدده، واعتبر حديثي غريباً جداً، ثم تحمّس فوصفه بالجنون والحمق. وكان اعتقاد الزيّات، دون حذلقة أو تفاخر، أن مشكلة الشرق الأوسط، لن تُحل إلاّ بالوسائل العسكرية، وعلى حد قوله: إن أهداف مصر لا تحدّدها إلا مصر، وهدفها أن تظهر لإسرائيل أن خطها الدفاعي الذي أقامته على طول قناة السويس، لا يشكل أي ضمان حقيقي لها، وأن أمنها وضمانه تجاه بلد كمصر، لا يمكن أن ينشأ ويحافظ عليه إلاّ من خلال الاحترام المتبادل.

فهمت أن الموضوع قد استكمل أبعاده، ويجب العمل من الآن فصاعداً في سبيل السلام. وأردف الزيات قائلاً: لست أبداً من هواة الحرب، فتأكدت حينئذ من وجوب اجتماع الولايات المتحدة ومصر، على الرغم من التناقضات التي جرّتها

الحرب. كما يجب التعاون مع الفرقاء المعارضين عند الاقتضاء للتمكن من الوصول إلى السلام الذي ننشده. واستطرد الزيّات في حديثه قائلاً: أن أمريكا لا تبدي الاهتمام المطلوب، على أن الظرف مؤاتٍ للتقدم باقتراحات مفيدة ومجدية لكلا الفريقين مصر وإسرائيل، لأن هذه قد فقدت الثقة التي كانت تتمتع بها، كما أن مصر قد فقدت الثقة بنفسها.

الفصل الثاني عشر

يوميات الحرب

■ الأحد/٧ تشرين الأول ١٩٧٣

كان الطقس في واشنطن غائماً ولطيفاً، تتابعت حدة المواجهات طوال الليل على الجبهتين، وكأني بالجيش المصري، قد ثبّت أقدامه في خط متواصل، يقارب سبعة كيلو مترات ونصفاً في شرق قناة السويس. أما سورية فقد تجاوزت هضبة الجولان. وقد أكد ملحقنا العسكري في تل أبيب، الكولونيل بيلّي فورسمان، أن القوات الإسرائيلية، لا تزال في حالة دفاع، وتعمل جاهدة لكسب الوقت، بانتظار الانتهاء من التعبئة. غير أن إسرائيل، اعترفت مساء هذا اليوم بفقدان خمس وثلاثين طائرة مطوّرة. عديدون في واشنطن ارتابوا في تقدير هذا العدد، واعتبروه سابقة لطلب تجهيز إسرائيل بالسلاح. لكن هذا العدد كان في الواقع دقيقاً وصحيحاً، ويوضح دقّة تأثير الصواريخ الروسية أرض جو، التي يملكها العرب، وخصوصاً في الجبهة المصرية. ولم يكن لدينا أي دليل بعد يمكّننا من تقدير

انتصار سريع لإسرائيل، ولا نستطيع تأكيد قيام إسرائيل بهجوم مضاد قبل اليوم التالي. كما أعلمتنا إسرائيل، أن تسعة جسور من أحد عشر جسراً ركّبت على القناة دمرّت (وهذا خبر لا يخلو من المبالغة) لأن الجسور تضرّرت فقط ولبعض الوقت.

وفي تمام الساعة التاسعة والنصف من صباح الأحد، نقل لي شاليف القائم بالأعمال الإسرائيلية، مذكرة شخصية من غولدا مائير، تؤكد وجهة نظرنا: حسب تقدير جنودنا، فإن إسرائيل مدعوّة لمجابهة معارك كبيرة وقاسية، باحتياطنا من الرجال والعتاد، ويأملون أن تنقلب هذه المعارك لصالحنا. ولم يفت غولدا، أن تبعث بملاحظة تثير اهتمامنا بها، والعطف على الوضع الذي تمرّ به:

"إنكم تقدّرون الظروف، التي حالت دون رغبتنا في القيام بأي عمل وقائي. وإذا كنّا لا نزال كما نحن عليه، فهو عدم تمكننا من اللجوء إليه في الظرف الحاضر، ولو سمحت لرئيس الأركان العامة، الذي كان يطالب به، أن يهاجم قبل بضع ساعات من بدء هجوم الأعداء لكان وضعنا وبكل تأكيد غير ما هو عليه حالياً".

كما طلبت مائير في مذكرتها، تأجيل انعقاد مجلس الأمن الدولي حتى يوم الأربعاء أو الخميس (العاشر والحادي عشر من تشرين الأول). لأن إسرائيل حسب تقديرها تكون في وضع أفضل وأقوى. ثم أضافت قائلة: "إني لا أكلمكم إلاّ لإعلامكم أن الوضع سيتغيّر خلال بضعة أيام قريبة" وفي سبيل الاطمئنان إلى فرص النجاح هذه، طالبت بإمدادها ببعض العتاد العسكري الخاص، وخصوصاً صواريخ سيدواندر المضادة للطيران، ذات الرؤوس المتتّبعة الحرارية. وإن طائرة بوينغ (٧٤٧) في طريقها إلى نيويورك، لنقل هذا العتاد. وجاء شاليف فسلّمنا طلباً آخر، حول استعجال تسليم العتاد الحربي، المقرّر في الأسبوع الماضي، ضمن إطار

المساعدات. وسهل عليّ وعد شاليف بتأجيل دعوة انعقاد مجلس الأمن الدولي، وأوضحت له وجوب دعوة المجلس للمطالبة بالعودة إلى أوضاع ما قبل الحرب وقلت:

"إذا طالبنا بانعقاد مجلس الأمن، وتقدّمنا باقتراحنا منذ الآن، فسوف نكون في مقدّمة من تطرح قراراتهم على التصويت".

"وعلى العكس من ذلك، إذا أجبرنا على استخدام حق الفيتو، حول قرار لوقف إطلاق النار، فلن يصدّقنا أحد.

"علينا أن نحاول السير بأناة، ولسنا في عجلة من أمرنا للمطالبة بالتصويت. وبكل تأكيد إذا كان هناك مجال للنقاش، فسوف يدعى الكثيرون للكلام، وبينهم آبا إيبان وزير الشؤون الخارجية. وإني على ثقة، أنه سيتكلم ساعتين قبل الدخول في الموضوع الذي يريده. واعتقد أن هذه هي الطريقة المفضّلة في مثل هذه الظروف، وسأوعز إلى ممثلنا في نيويورك بعدم الإسراع".

وقد بينّت في صبيحة هذا اليوم لهيغ، أنه إذا لم يتجاوب معنا السوفيت في طرح اقتراح موحّد لدى الأمم المتحدة، يجب علينا مساندة إسرائيل بأسلحة محدودة العدد. وبينّت لشاليف في اليوم ذاته:

"سنقرّ غداً وبكل تأكيد، العتاد العسكري الذي أنتم بحاجته، ولكن ضمن حدود معقولة. وفي حال اشتراك السوفيت مع العرب، سنجتهد في تقديم كل ما يلزم".

وفي صباح السابع من تشرين الأول، وبعد لقائي بشاليف مباشرة، صرّحت لهيغ بما يلي: "إذا انتصر العرب، سيظهرون عناداً، ولن يقبلوا بأي مفاوضات" وافقني هيغ على رأيي قائلاً: "سنرسل العتاد الذي وعدنا به، أملين أن يهدأ الوضع سريعاً خلال يومين أو ثلاثة".

وهكذا اتفقنا على مبدأ المساعدة، ضمن الحدود التي تقرّها وزارة الدفاع، ولا حاجة للاستعجال.

وفي تمام الساعة العاشرة والربع، جاءني دوبرينين بذريعة تأجيل يراها موافقة الآن في المجال الدبلوماسي، وكان يرى أنها تعود بالمنفعة على الجميع. وأردف قائلاً أنه يتوقع ورود مذكرة من موسكو خلال ساعتين.

أبلغت نيكسون بذلك مباشرة وطلبت منه تأجيل انعقاد مجلس الأمن الدولي. ثم ظهر أن انتظارنا وصول مذكرة موسكو، أشغل كامل يومنا، وهذا ما كان يتجاوب مع متطلبات استراتيجيتنا، من حيث إنهاء التعبئة الإسرائيلية.

وتلقينا في غضون ذلك تقارير متناقضة حول موقف السادات. ويقال إنه صرّح لسفير إحدى دول أوروبا الغربية، عدم موافقته على انعقاد مجلس الأمن الدولي. ولا يقبل بوقف إطلاق النار، قبل أن تستعيد القوات المصرية، جميع الأراضي التي احتلّتها إسرائيل عام ١٩٦٧.

وإذا كان ذلك صحيحاً، فإن كل مبادرة لوقف إطلاق النار، آيلة للفشل. لكن الخبر كان يتناقض مع وضع الجيش المصري، الذي لم يتقدّم عن الخط الذي كان قد وصله على بضعة كيلو مترات من حافة القناة. ولقاء ذلك، فقد ورد على لسان سفير أوروبي آخر في القاهرة، أن السادات لن يطالب بانعقاد مجلس الأمن الدولي، لكنه سيقبل بوقف إطلاق النار، إذا صدر قرار بهذا الشأن وبمبادرة بلد آخر. واتخاذ قرار بوقف إطلاق النار في مثل هذه الحال، يؤكد المكاسب التي أحرزها المهاجم، وهذا ما كنّا نريد تجنبّه.

وهكذا، ففي اليوم الثاني على اندلاع الحرب، فإن مجلس الأمن الدولي، تلك

المنشأة التي خصّصت فقط للاهتمام بما يلحق بالسلام من أذى، قد شلّ عمله بعرقلة أعماله من قبل هذا أو ذاك. أما السوفيت فقد أطالوا أناتهم، ومصر آخذة في تجميد الموقف، أو أنها تستعد لوقف إطلاق النار، حيث وصلت، وإسرائيل كانت لا تزال بحاجة لإكمال تعبئتها، وسورية كانت غير مبالية. وكانت الولايات المتحدة وحدها هي التي تتهيّأ لدعوة انعقاد مجلس الأمن الدولي، والقرار الذي ننشده ليس سوى أداة تسويف، لأننا لا نؤمل عون أحد من أعضاء المجلس.

ولما كان الجميع يطالبون بكسب الوقت، ونحن عازمون على مساندة الموقف، خارج أروقة الجمعية العمومية، فقد دعونا مجلس الأمن إلى الاجتماع في مساء اليوم نفسه، على أن تبدأ المناقشات في اليوم التالي، وطرح الاقتراحات الحاصلة على التصويت، يوم الثلاثاء أو الأربعاء. وإذا كانت تقديرات أجهزة استخباراتنا دقيقة، تكون إسرائيل في هذا الوقت على أهبة هجوم مضاد. فيكون العالم مهيّأ لقبول وقف إطلاق النار على الفور.

إن مذكرة بريجنيف المنتظر وصولها قبل ساعة، لم تصل، وأصبحت الساعة تشير إلى الساعة الثالثة عشرة. فقلت لدوبرينين، أننا امتنعنا، عن اتخاذ أية مبادرة لدى الأمم المتحدة بانتظار مذكرتكم. وكان مرناً كعادته، وأبدى شكايته ممّا يجري. ولما لم يؤازرنا السوفيت بوضع حد للحرب، قرّرنا إرسال شحنة محدودة العدد من العتاد العسكري لإسرائيل. فاستدعيت شليسنجر في تمام الساعة الثالثة عشرة والنصف ورجوته أخذ الاحتياطات اللازمة لإرسال ذخيرة وبعض العتاد المتطوّر، ولا سيما صواريخ سيدوندر، وشحنها من قاعدة بحرية منعزلة في فرجينيا، على طائرات العال التجارية، دون وضع علامات مميّزة. وسأبلغه تأكيد ذلك بعد مفاتحة الرئيس بذلك.

أشارت الساعة إلى الخامسة عشرة وعشر دقائق، ولم يبلغني دوبرينين شيئاً، حينئذ بيّنت لهيغ بوجوب اتخاذ زمام المبادرة، وتلبية بعض طلبات إسرائيل لأسباب نفسية وعسكرية معاً. ومن الموافق أن نظهر للسوفيت أن تأجيل بحث الأمور لن يعدّل شيئاً من مواقف أتباعهم. كما أني أرى، أنه لا يجوز أن ينتصر العرب بفضل التسلّح السوفيتي، لأنهم سيتخذون موقفاً لا يلين.

وافقني هيغ على رأيي وقال: أن الرئيس يتبنّى الأفكار ذاتها. وفي الساعة الخامسة عشرة وخمس وأربعين دقيقة أعطيت الضوء الأخضر لشليسنجر.

واتخاذ مثل هذا القرار، كان أسهل عليّ وقعاً، من تلك المذكرة التي تلقّيتها من بريجنيف في تمام الساعة الخامسة عشرة والنصف. وللحقيقة فقد كانت شديدة اللهجة، وهذا كان يعني بالنسبة لي، أما أن تكون موسكو قد غلبت على أمرها ولا تدري ما تفعل، أو أنها ترتكز على اعتبارات تختلف عما لدينا. وإذا كانت التطلعات العربية غامضة إلى الحدّ الذي نقدّر، فعلى الزعماء السوفيت القبول معنا في العودة إلى الوضع الراهن. وهذا سيتيح لهم الوسيلة لمنع إسرائيل من التوسّع في الأراضي العربية.

ولكن وياللأسف، فإن مذكرة بريجنيف تحترس من إبداء أية إشارة لاتخاذ رأي موحّد لدى مجلس الأمن. ولا تأتي على ذكر طريقة ما لوضع حدّ للحرب، لكنّها تبحث في ما يراه بريجنيف موافقاً بالنسبة للشرق الأوسط، من مبادرات دبلوماسية سوفيتية وأمريكية موحدة، للتمكن من فرض سلام في الشرق الأوسط، ضمن الشروط التي يحدّدها العرب، وعلى أساس انسحاب إسرائيلي شامل، وهذه صيغة أصبحت مألوفة، وهذا كله يتم لقاء ضمانات أمن غير محدّد نوعها. ومن المهم جداً، أن تعلن إسرائيل خلال ذلك، عن رغبتها في الانسحاب من جميع الأراضي العربية.

كان يعتقد بريجنيف أن هذا يؤدي إلى تقصير أمد الحرب، لكنه تغاضى عما سيقوم به العرب، تحت شعار تبادل إجراءات تغري الفريق الآخر. وتكلفنا المذكرة نفسها وبطيبة نفس، أن نقوم بمهمة التوسط لدى إسرائيل، مستخدمين نفوذنا، للحصول منها على موافقة لقبول البنود آنفة الذكر. كان السوفيت يريدون وبكل صراحة، إطالة أمد الحرب، بعض الوقت. وربما وهذا ممكن، أن نفوذهم لدى أصدقائهم العرب، لم يكن كما كنا نتوقّع.

❐ ❐ ❐

حصلنا في هذا اليوم على أول اتصال مباشر مع القاهرة (وبالمناسبة أذكر أني لم اتصل بسورية مباشرة طوال الحرب) لقد كانت اللهجة ودّية، وكانت الفحوى دليل عقل لا سياسة. فلقد أبلغني حافظ إسماعيل، مستشار الرئيس السادات للأمن القومي، بمذكرة وصلتني عن طريق الأجهزة السرّية، بالشروط التي تضعها مصر، في سبيل إيقاف الأعمال العسكرية والتي تماثل لتلك الشروط التي وضعت في شهر أيار الماضي، ولم يسمح لها الظرف أن تصبح واقعية:

على إسرائيل أن تنسحب من جميع الأراضي التي احتلتها. وبعد هذا الانسحاب، يمكن إجراء مداولات في سبيل السلام، وبحث القضايا الأخرى المعلّقة، مثل حريّة إبحار السفن في مضيق تيران، وضمان تواجد قوات دولية مؤقتة في شرم الشيخ. وبالطبع فإن المذكرة ترفض وبوضوح كل اتفاقية جزئية أو مؤقتة.

إن هذه الشروط، لا تمثّل سوى نقطة انطلاق. والسادات يعرف من خلال ما جرى بيننا في السابق من اتصالات ومحادثات، أن لديه أفكاراً لا يمكن تحقيقها.

فلم يخالجني شك البتّة، أنه ليس الآن بصدد اتفاقية، بل أنه يسعى إلى إجراء محادثات. والاتصال بنا في حد ذاته، في الظروف الحالية، يشكل له خطراً. وهو لا يستطيع أن يسمح للخطر بالتفاقم، من حيث تخلّيه عن سورية، أو الابتعاد عن الاتحاد السوفيتي، الذي لا غنى له عن مساندته، لإكمال مسيرة الحرب. وفي حال قبوله بتقديم تنازلات وتساهلات، ربما تشمل سورية، فإن هذا يعني حمل سورية على التخلّي عن الحرب التي تشاركه فيها، أو حمل الاتحاد السوفيتي على تقليص إمداده بالعتاد.

المثير في الأمر هو وصول المذكرة، لا مضمونها. وكان السادات يدعونا للإسهام في مشروع السلام، أن لم نقل أنه يكلفنا بذلك، في حين كنّا نطالب الأمم المتحدة أن يتخلّى عن تلك الأراضي التي يدّعي ملكيّتها، والتي احتلّتها جيوشه. ولا يفوتني أن أذكر أن المذكرة تتضمن مؤشراً يوضح أن السادات متفهّم جداً لتلك الحدود التي يتمكن من الوصول إليها. "ليست نيّتنا التعمّق في أراضي الغير، أو توسيع جبهة القتال". إن هذه الجملة الواردة في المذكرة، لا تخلو من التنويه بأن مصر غير راغبة في متابعة العمليات العسكرية ضد إسرائيل، بعد الأراضي التي كسبتها. أو تحميل أمريكا كامل مسؤولية ما يحدث كما فعل عبد الناصر عام ١٩٦٧. وإذا تعمقّنا جيداً في ما يهدف إليه السادات من خوضه هذه الحرب، يتبينّ لنا فارق كبير جداً بين الإجراءات العسكرية التي اتخذها المصريون وأهدافهم السياسية، ويؤدي أجلاً أو عاجلاً إلى مفاوضات سياسية.

إن مذكرة إسماعيل أعطت الدليل على إمكانية إجراء محادثات مع بلاد هاجمت حليفنا وربما لن يكتب لها النصر بسبب الأسلحة الأمريكية. ولم يمض يوم طوال مدة الحرب، لم نتلّق فيه مذكرة من القاهرة، أو دون إرسال مذكرة إليها.

وعلى الرغم من إقامتنا جسراً جوياً لإيصال السلاح المطلوب لإسرائيل، وميلان الحرب لغير صالح مصر، لم نشعر بوجود حفيظة أو ضغينة في مصر ضد أمريكا، وكان هذا حسن تصرّف من قبلها حتى لا تستميلنا إلى جانب إسرائيل، في الأدوار الدبلوماسية المقبلة. كان مشروع السادات أن يقيم معنا علاقات، تجعلنا نقوم بدور الوسيط، ليس فقط على أرض الوقائع، بل في معاملته على قدم المساواة، في مطالبه أسوة بإسرائيل، ويمكن اعتبار هذا تفهّماً رائعاً للأمور من وريث عبد الناصر، بعد مرور عشرين عاماً من العداوة.

أصبح الآن بين أيدينا، مذكرة سوفيتية وأخرى مصرية، وسلوكيتّنا مرسومة. ولأسباب يصعب إدراكها، في ضوء تلك الأفكار التي كنّا تخيّلناها، فإن السوفيت ومعهم السادات، كانوا يتكلمون وكأن مصير الحرب مرتبط بالسلاح وهو الذي يضع لها حداً. ولنفترض أننا كنا معتقدين بانتصار إسرائيل، فإن هذا سيكون لصالحنا. وسنكتفي عند الاقتضاء بتنفيذ ما أطلعنا عليه دوبرينين يوم أمس: سنتصرف ضمن مقتضيات الحال، ونترك الأمور في مسيرتها إلى أن تصل إلى الأمم المتحدة، وبذا نكون قد تجاوزنا، تلك الفكرة التي يحملها العرب ضدنا. وفي أمسية الأحد المصادف السابع من تشرين الأول، طالبنا بانعقاد مجلس الأمن حسب الأصول. واجتمع فريق العمل الخاص في الساعة الثامنة عشرة، فأوجزت أمامه إستراتيجيتنا بهذه الكلمات:

"إن مصر غير راغبة في مجابهتنا في الأمم المتحدة، وبالنسبة للسوفيت فهم لا يريدون أيضاً الوقوف ضدنا، سنطالب بالعودة إلى خطوط وقف إطلاق النار السابقة. سيعارضنا العرب بحجة أننا ننتزع منهم تراثهم، لكنهم سيتوسّلون بوقف إطلاق النار. سنحاول قدر الإمكان الإقلال من الاتصال بالعرب أو

السوفيت، ولا بأس من تركيز بعض أسس محادثات مع إسرائيل منذ الآن، تفيدنا في المفاوضات المقبلة".

في تمام الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الأربعين، من السابع من تشرين الأول، التقيت وللمرة الأولى منذ بداية الحرب بدينيتز، الذي نقل إليّ أخباراً مشجعّة من القدس، فقال: أننا نجهد أنفسنا في نشر قواتنا وبنوع مطمئن على الجبهتين. ثم أعاد على مسامعي ما كان قد حدثني به الليلة الفائتة أن تسعة من أحد عشر جسراً. ركبها المصريون على قناة السويس، قد دمّرت. ولا تزال إسرائيل بحاجة إلى ثمان وأربعين ساعة، من ظهر غد الاثنين (وتكون التعبئة قد نفّذت) لتستطيع تنفيذ العمليات العسكرية المقرّرة. وكنت على ثقة من تمكني تأجيل طلب وقف إطلاق نار، بإشراف الأمم المتحدة، حتى يوم الثلاثاء. وأمضينا معاً بعض الوقت لمناقشة الإمداد العسكري. وفي ضوء تقديرات رئاسة الأركان، لم تكن إسرائيل مضطرة إلى عتاد حيوي وسريع. فأبلغت دينيتز، أن بإمكان إحدى طائرات العال دون وضع إشارتها المميّزة، الهبوط في قاعدة فرجينيا البحرية وفي الليل، لتنقل ثمانين صاروخ سيدوندر مع قاذفاتها. وأن أجهزة وزارة الدفاع مسؤولة في تنفيذ تعليماتنا، وبسرّية تامّة، ولا تسمح في الوقت ذاته لأية طائرة إسرائيلية أخرى ولو بدون إشارة مميزة من الهبوط في تلك القاعدة. لكن سكاوكروفت وعلى علم منّي نفّذ هذه المهمّة الجزئية، بتأخير يقدّر بأربع وعشرين ساعة. ولم يؤثّر ذلك كثيراً لأن الكل كان على اعتقاد أن الحرب مشرفة على الانتهاء وبسرعة. وكانت إرسالية صواريخ سيدوندر بمثابة تشجيع، وحسب إدعاء إسرائيل أنها لن تصل في الوقت الذي يؤثر على سير المعركة.

■ الاثنين/٨ تشرين الأول ١٩٧٣

نحو ظهر هذا اليوم، بدت إستراتيجيتنا، وكأنها في مسارها الصحيح. فإن مجلس الأمن كان قد اجتمع، أخذاً بتوجيهاتنا، ولم يتجاوز مجال المشاورات، وستُعقد الجلسة الرسمية، نحو أواخر بعد الظهر، على الأغلب. ولن يطرح أي قرار على التصويت، قبل مضي الفترة المتفق عليها. وكان تقرير أجهزة المخابرات الصباحي يؤكد توقعاتنا، حيث أكد على أن موقف إسرائيل في هضبة الجولان سيتبدّل ليل الثلاثاء. لكن القيام بهجوم مضاد ضد السوريين، لا يزال بحاجة إلى يوم أو يومين، وفي هذا التأخير تفسير في شلّ الهجوم السوري. أما على الجبهة المصرية، فيتحدث التقرير مبينًا أن الوضع سيتغيّر يوم الأربعاء على الأكثر. ويرافق هذا التقرير تعليق لا يدعو مجالاً للشك، حول التوقعات المنتظرة. استمرار المعارك الضارية ولعدّة أيام تستخدمها إسرائيل، في بعثرة أكبر جزء ممكن من الجيش المصري.

وفي ظروف كهذه، فإن كل مماطلة على الصعيد الدبلوماسي، هي في صالحنا. وكل ساعة تمر، تقربنا من اللحظة، التي نتغلب فيها على وجهات النظر المتفاوتة في مجلس الأمن الدولي، حول ما ينوي إصداره من قرارات حول وقف إطلاق النار فيبقى كل جيش في مكانه، أو العودة إلى الوضع الراهن الذي كان سائداً سابقاً، وهذا ما كنّا نتمنّاه.

ووصلتنا مذكرة من بريجنيف، صبيحة الاثنين يقول فيها:

"لقد قمنا باتصالات مع الزعماء العرب، حول موضوع وقف إطلاق النار، ونأمل أن يصلنا جوابهم، وعلينا أن نتعاون معاً، وهدفنا المصلحة العامة،

والمحافظة على السلام والعلاقات السوفيتية الأمريكية، أملاً أن يسلك الرئيس نيكسون المسلك ذاته".

عندما قرأ لي دوبرينين المذكرة على الهاتف، تراءى لي أنها تخدم أيضاً أغراضنا المرسومة. وحيث لم تكن نيّتنا في تقديم قرار، وحيث أن الاتحاد السوفيتي يطالب بتنسيق مواقفه معنا، فنحن مطمئنون إلى انقضاء يومنا دون مجابهة، ولا تكون هناك حاجة لاستبعاد قرارات مربكة. وأصبحنا في اليوم التالي، وكأننا على ثقة أن الهجوم الإسرائيلي واقع، وأن مجلس الأمن سيطالب لا محالة بوقف إطلاق النار، وتكون حليفتنا قد ردّت الهجوم، الذي شنّ ضدّها بأسلحة سوفيتية. ويصبح بإمكاننا طرح مشروع سلام مع العرب، لنتمكن من وقف التقدم الإسرائيلي، ونطمئن الإسرائيليين أننا كنا إلى جانبهم وقت الأزمة.

طلبت دوبرينين هاتفياً، لأطمئنه أننا نسير وفق ما جاءت به مذكرة بريجنيف، فلن نتقدم بأي قرار هذا اليوم، ولا في المستقبل، دون إعلامكم بالأمر، وقبل عدّة ساعات، وسنصدر تعليماتنا إلى سفيرنا، سكالي، في الأمم المتحدة، بالاكتفاء بآراء فلسفية أمام مجلس الأمن. وسنجتنب إذكاء نار الفتنة والحرب. راجين أن يقتدي بنا الاتحاد السوفيتي فيتخذ موقفاً مماثلاً، فوافقني دوبرينين على رأيي.

إن الفرقاء الذين كنا على اتصال بهم، السوفيت ومصر وإسرائيل، كانوا على اتفاق تام من حيث الاطار العام، على عدم تقديم أي بلد، بصيغة قرار، يناقض مضمونة ما يهدف إليه المجموع. وطالبت إيبان بتسخير بلاغته إلى طول أناة، وهذا أمر يصعب على وزير خارجية إسرائيل الانصياع إليه. ورجوت في الوقت ذاته السيد الزيّات، أن يبقي على مجريات النقاش هادئة. وأصبح ظاهراً منذ هذه اللحظة أننا الدولة الوحيدة، التي يمكنها البقاء على صلة مع الفريقين. وفي حال

استطاعتنا الحفاظ على موقفنا هذا، فإننا ولا شك سنلعب دوراً كبيراً في تقرير مشروع السلام.

وفي سبيل تعزيز مواقفنا هذه، أرسلت في تمام الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين صباحاً، إلى حافظ إسماعيل، جوابنا على البرقية التي وصلتنا الليلة الماضية. وعلى أية حال، فإن الشروط التي وضعها السادات، ونقلها إلينا إسماعيل، لا تصلح أن تكون أساساً للمناقشة، لكنها بلا ريب، لا تمثل آخر كلمة من قبل المصريين. ورأيت من الأفضل الإبقاء على الاتصالات، دون المجيء على ذكر الشروط التي ستنبثق عن نتيجة المعارك الدائرة الآن. فطرحت إذا سؤالين، وتقدمت بضمانات.

وتضمن سؤالي الأول التالي: هل يقصد المصريون من خلال مطالبهم انسحاب إسرائيل، عن جميع الأراضي المحتلّة، قبل انعقاد أي مؤتمر سلام، وهل سيقبلون بمبدأ الانسحاب؟ وهذا سؤال، يحتفظ به للخبراء، القادرين على وضع مبادئ التفاوض في الشرق الأوسط، وسيصرف الوقت الكثير على مثل هذه المفاوضات دون الوصول إلى أية نتيجة.

أما سؤالي الثاني فقد طرحته على إسماعيل، عمّا إذا كان يستطيع إيضاح بعض الغموض الوارد في مذكرة شاه إيران، التي تؤكد أن مصر على استعداد لقبول تواجد قوات الأمم المتحدة في الأراضي التي ستنسحب إسرائيل منها؟

إن الغاية من طرح هذين السؤالين، هو تأكيد لما ننويه من حيث القبول بانسحاب إسرائيلي، فنستدرج هكذا مصر إلى المفاوضات، دون إلزام أنفسنا بتنفيذ جميع الشروط التي يمليها إسماعيل. وكنا لا نزال في تقديرنا أن الجيش

المصري لن يثبت طويلاً. وأنهيت مذكرتي معيداً إلى الأذهان أننا إلى جانب المفاوضات. فلقد أظهرت مصر ما كانت تريد إظهاره، ولن تحصل بعد على شيء نتيجة وسائل عسكرية. ولا نطالبها بأكثر من القبول ببدء محادثات دبلوماسية:

"إنني راغب في تذكيركم، أن الولايات المتحدة، ستبذل قصارى جهدها لمساعدة الفرقاء المتخاصمين على وضع حد للأعمال العدوانية. إن الولايات المتحدة وأنا شخصياً سنسهم وبشكل جدّي في كل مبادرة تؤدي إلى حلّ عادل للمشاكل القائمة، والتي طالما كانت مبعثاً لآلام الشرق الأوسط".

أعود الآن إلى الكلام عن جهودنا الخاصّة داخل الحكومة. فإن عضوي مجلس الشيوخ مايك مانسفيلد وهوغ سكوت، وهما بالطبع زعيمان للأغلبية والأقلية، طلبا مني الحصول على قرار من مجلس الشيوخ يؤيد سياستنا. فطالبت بألاّ يندّد القرار المتخذ بمن بدأ بالأعمال العدوانية، وليبدي مجلس الشيوخ موافقته على ما قامت به الحكومة في سبيل احتواء الأزمة، كما أن عليه أيضاً، إبداء رغبته في الإعلان عن وقف لإطلاق النار على أساس الوضع الراهن. واتخذ مجلس الشيوخ القرار المتضمن لكل ما سلف في اليوم ذاته، وكان بالإجماع، وانتصاراً بالنسبة لدبلوماسيّتنا (ولم يخلّ الأمر من بعض دمدمات لأني أكدت على عدم التنديد بالدول العربيّة، وكان القرار أيضاً تلبية لرغباتي، ومثيراً لاهتمامي في الوقت ذاته، لاعتقادي أن هزيمة العرب وشيكة الوقوع، ولا أرى هناك سبباً لإثارة الأحقاد ضدّنا وهي لابد آتية).

وردت خلال نهار الاثنين تقارير جديدة، من أجهزة المخابرات، وجميعها تدعّم ما يدور من تخمينات. ونحو الظهيرة أشارت وكالة المخابرات إلى وقوع هجوم عنيف إسرائيلي على الجبهتين المصرية والسورية. وتورد إشاعات لم تؤكد بعد،

حول زعم إسرائيل، باجتياز قناة السويس، في نهايتيها الشمالية والجنوبية. وتبدي وكالة المخابرات رأيها حول الموضوع فتقول: أن هناك نشاطاً كبيراً للطيران الإسرائيلي قرب بورسعيد، مما يدل على اجتياز الإسرائيليين منفذ القناة الشمالي. وفي هذا برهان جديد على ما كان يدور في خلدنا ولكن لم يكن هناك مؤشّر واحد على أن القوات الإسرائيلية تتجمع للقيام بهجوم لاختراق القناة. وربما أن ما تقوم به تلك القوات هو بمثابة أمر دفاعي بحت، كقصفها لبور سعيد.

استدعاني دينيتز هاتفياً، نحو الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الرابعة عشرة، مؤكداً تفاؤلنا السابق فقال:

"يبدو أن الوضع على الجبهة، يميل جداً إلى التحسّن. لقد اجتزنا المقاومة إلى الهجوم، سواء في صحراء سيناء، أو في أعالي هضبة الجولان. وفي تقدير جنودنا أن هناك إمكانية كبرى، في ردّ السوريين، إلى ما وراء خطوط وقف إطلاق النار. ونحن في طريقنا أيضاً إلى دحر القوات المصرية إلى خارج صحراء سيناء".

إن مكتب رئيسة الوزراء، لم يكن بعد على ثقة من تأكيد اجتياز القوات الإسرائيلية قناة السويس، هذا ما قاله دينيتز، مشيراً إلى أن القضية لم تكن سوى مسألة وقت. وكان يعتقد أن مثل هذا الأمر وشيك الوقوع، والسبب الداعي إلى ذلك هو، عزم إسرائيل على تجاوز تلك التحصينات التي أقامها العرب، فتدخل أراضيهم، وهذا يكفل لها عدم مهاجمتها على حين غرّة. فاتخذنا قراراً بيننا وبين أنفسنا أن ننطلق من وجهة النظر هذه، وقد يصعب علينا دعم هذه النظرية. وسنطالب إسرائيل بمثل ما سوف نطالب به العرب. ويجب على إسرائيل أن تقف عند حدود ما قبل الحرب.

وكأني بالأمور تسير ضمن ما حددّنا، ونجحنا في إلغاء المناقشات أمام الجمعية العمومية، التي طالما أقلقت بالنا. وتوصلت بمعاونة رئيس الجمعية العمومية، الذي كان في ذلك الوقت من دولة الأكوادور ويدعي ليوبولدو بينتز، إلى اتخاذ توجيه، في أن الأطراف ذات العلاقة في النزاع، هي التي تأخذ دورها في الكلام أمام الجمعية العمومية، التي بدورها ستحيل القضية إلى مجلس الأمن.

وكانت تعليماتنا قد وجهّت إلى جون سكالي، ممثلنا في مجلس الأمن، أن يدلي بتصريحات هشّة، ويطالب بالعودة إلى نقطة انطلاق ما قبل الحرب، ويمتنع عن عرض أي قرار. وفي هذه الحال لن يكون للنقاش أية صفة هامة.

وحصر الزيات تنديده بإسرائيل، بأمور غير ذات بال، متحاشياً كل مجابهة مع الولايات المتحدة. وأقدم إيبان بفصاحته المعهودة، على تفسير الأمور تفسيراً تاريخياً، يناقض الأحداث الراهنة. وظهر أن غاية الاثنين من الإقدام على الحرب، ليريا ما سوف يكتب عنهما التاريخ مستقبلاً وبحروف بارزة.

وفي تمام الساعة السابعة عشرة والدقيقة الأربعين، كلمني دوبرينين هاتفياً "ليؤكد لي رسمياً، أن الاتحاد السوفيتي، لن يقدم على أي أمر في مجلس الأمن. ولن يتخذ أي قرار مهما يكن نوعه. وأردف قائلاً: أن ممثلنا في مجلس الأمن، قد تلقّى تعليمات لتحاشي كل مشادة كلامية مع ممثل الولايات المتحدة، وسنتابع في غضون ذلك وبكل تأكيد مشاوراتنا مع المعسكر العربي". قال هذا وهو يأمل ألاّ تقدم الولايات المتحدة أي قرار لمجلس الأمن، قبل إنهاء الاتحاد السوفيتي مشاوراته مع العرب. فسارعت إلى إعطائه وعداً بتبنّي هذا الموقف، الذي نفضله ونفكر به.

وبعد هذه المحادثة انضمت مباشرة، إلى اجتماع فريق العمل الخاص اليومي، الذي كان مجتمعاً في القاعة المخصصّة لمثل هذه الاجتماعات. وحال وصولي علمت أن وكالة المخابرات المركزية، أبلغت المجتمعين أن الإسرائيليين يقومون بهجوم مضاد على الجبهتين، وقد استعادوا هضبة الجولان فعلاً. فأصبح لدينا شبه مؤكد، أن إسرائيل ستحرز نصراً حاسماً، خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. ولذلك، فقد تولد وضع جديد تجب معالجته لمنع حدوث انفجار عام في العالم العربي، بالإضافة إلى حظر تصدير النفط. وكأني بوضع الاتحاد السوفيتي المتساهل، مصدره اقتناعه أن أصدقاءه العرب هم في طريقهم إلى خسارة الحرب.

غير أني طرحت وللمرة الثانية، ذاك السؤال الذي أخذ يقلقني: إذا كان كل ما أسمعه صحيحاً، فلماذا لا يرضى العرب ويطالبون بوقف إطلاق النار؟

وهل لديهم سرّ نجهله؟ لكني كنت أعود بعد جولة خيالي هذه إلى إجماع آراء زملائي القائل: أن دهشة العرب من اختراقهم التحصينات الإسرائيلية في بداية الحرب، أفقدهم رشدهم. وخداعهم لأنفسهم هذا، سيحول دون القتال عندما تدحرهم إسرائيل وهذا يساعد بالطبع على الانكسار.

والتقيت دينيتز في الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الأربعين، فتذاكرنا حول ما كانت عليه جلسة مجلس الأمن الدولي، وكان على اعتقاد أن التلويح بالعودة إلى خطوط ما قبل الحرب، سيحظى بقبول كل من مصر وسورية (خلال يوم أو اثنين) ثم تقدّم إليّ بتقرير كله تفاؤل:

"هجومنا هذا الصباح، كلّل بالنجاح، على كلا الجبهتين. لقد أقصي السوريون عن هضبة الجولان، باستثناء قطاع جبل حرمون. وعاد الأهالي إلى مساكنهم ومزارعهم. ورددنا هجوماً جديداً في القنيطرة، ولا يزال هجومنا المضاد

قائماً. وسيطرتنا تامة في المجال الجوي، على الرغم من وجود قواعد صواريخ (SA 6). أما على الجبهة المصرية، فقد نجحنا في تدمير جزء من القوات المصرية. وقواتنا الجويّة والمصفحة، منعت المصريين من جلب تعزيزات إلى القناة. وأستطيع أن أعرض عليك غداً خططنا المستقبلية".

فقلت له، أن المشكلة الجوهرية، هي أن يمضي هذا الأسبوع، دون انقطاع الإمدادات النفطية. أهمل كلامي هذا، وأخذ يفكر بالشروط التي تستطيع إسرائيل المطالبة بها، عند وقف إطلاق النار. يجب أن يطلق سراح جميع أسرى الحرب الذين أسرتهم مصر وسورية، بما فيهم أولئك الذين أسروا أثناء حرب الاستنزاف أو قبل إعلان الحرب. فأجبته إني لا أرى في ذلك أية موضوعية الآن، ونحن ننتظر أخباراً جديدة، وبموجبها نخطّط، وعلى أيّة حال، فإن الشيء الهام الذي أهدف إليه منذ الآن هو العودة إلى خطوط ما قبل الحرب.

سنسارع في تسليم بعض طائرات الفانتوم من طراز (F4) التي تمت الموافقة على بيعها لإسرائيل قبل وقوع الحرب، وسنلبي الطلبات السابقة من العتاد الخاص: "وكل ما تستطيعون تحميله في طائرة العال، ستحصلون عليه في هذه الليلة بالذات"!!

وخلال حديث المجاملة هذا، كانت هناك نقطة خلاف تبعث القلق، وهي أن السادات، والأسد، والملك فيصل، يضغطون على حسين لدخول الحرب. وهذا يعطي الدليل على سوء الوضع، أو أنهم لم يعلموا حتى الآن أنهم خاسرون. ولم نتعمقّ كثيراً باستقصاء الخبر.

وفي المحادثة التي أجريتها مع نيكسون بعد قليل ، أخذنا نبحث بالإجراءات الدبلوماسية، الواجب علينا اتخاذها حال انتهاء النزاع، ومما قلته: إذا كانت

الخواتم حسنة، وإذا انتهى كل شيء، دون ظهور أية معوقات من قبل العرب أو السوفيت، فسيكون هذا عجيبة بل نصراً". فوافقني نيكسون على رأيي، واتجه بأفكاره إلى ما بعد الحرب وقال:

"هذا صحيح، وهناك شيء يجب أن نوليه اهتمامنا، أنا وأنت، ونعرف كيف نتصرّف في ما نحن نهدف إليه، فعندما ينتصر الإسرائيليون على المصريين والسوريين وهم بلا شك على ذلك قادرون، يصبح تليينهم صعباً، لذا يجب علينا أن نضع نصب عيوننا منذ الآن حلاً دبلوماسياً لهذه المشكلة.

وانتهزت فرصة انعقاد، مؤتمر "السلام في العالم" المنعقد في واشنطن مساء يوم الاثنين، الثامن من تشرين الأول، فألقيت خطاباً طال إعداده. أدخلت فيه بعض الجمل التحذيرية للاتحاد السوفيتي: إن سياستنا بخصوص الانفراج السياسي واضحة. وسنعارض كل سياسة خارجية معادية. لن يكون هناك انفراج إذا أحدث أحد الفريقين خللاً ما في إحدى بقاع الأرض، بما فيها الشرق الأوسط. ولم يكن هذا التحذير بقالب التهديد، بل بمثابة لمسة فنان أخيرة على لوحة كادت تصل إلى نهايتها.

ذهبنا لننام، مساء اليوم الثالث للحرب، آملين أن تنتهي كسابقتها حرب الأيام الستّة لعام ١٩٦٧.

لكن الآلهة تلقي بظلال شكوكها، على الناس الذين يدّعون الاكتفاء. كما يغاظون عندما يُعتقد أن قد وُضع حدّ للأحداث. إن التبدلات التاريخية التي نسعى إليها، ليست نتيجة المهارة وحدها، وهي دائماً تعكس حقيقة غامضة. وهذه الحقيقة فاجأتنا كضرب السياط في منتصف الليل.

■ الثلاثاء و الأربعاء/ ٩ و ١٠ تشرين الأول ١٩٧٣

نحو الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحاً في الوقت الذي كنت استعد فيه للنوم. أيقظني دينيتز وألقى عليّ سؤالاً مذهلاً: ما الذي نستطيع عمله في مسألة إعادة التموين؟ لقد أدهشني السؤال، ومن خلال تقديراته التي حدثني بها منذ بضع ساعات، أن المعركة آيلة وفي هذا الوقت بالذات إلى نصر شامل. فما هي المشكلة إذن؟ وما هو العتاد المطلوب وبهذه السرعة؟ إن الطلبات التي تقدّم بها الإسرائيليون حتى يومنا هذا، كان معظمها محدداً بأعتدة خاصّة وأجهزة إلكترونية. وأرسلت جميعها على عجل بالإضافة إلى إرسال صواريخ سيدوندر.

وهناك بعض طلبات لم نستطع تلبيتها، كطائرات فانتوم جديدة من طراز (F4) غير التي هي في طريقها إليهم، والمشكلة هي أنه لم يبق لدينا طائرات نتمكن من تزويدهم بها حالياً، وعلينا أن نوازي بينهم وبين قواتنا المقاتلة. وإذا استطعنا وضاعفنا العدد، فإن ذلك يثير حفيظة العرب، ويسمعنا صراخ جيشنا.

عندئذ خطرت لي فكرة شيطانية، أفهمتني أن الإسرائيليين يقصدون من خلال هذا التحريض حملنا على إغداق الوعود بتسليمهم ما يحتاجون وما لا يحتاجون قبل ظهور نتيجة المعركة الحقيقية، فيطالبون وبصورة ملحة. فأجبت دينيتز، سنتكلم حول الموضوع عند استيقاظي صباح الغد، وعدت إلى النوم.

وما أن أزفت الساعة الثالثة صباحاً، حتى عاد دينيتز ليستدعيني ويعلمني الشيء ذاته، وأعطيته نفس جوابي السابق، أننا سنتدارس الأمر في الصباح.

التقيته في تمام الساعة الثامنة والدقيقة العشرين من صباح يوم الثلاثاء التاسع من شهر تشرين الأول، في قاعة فخمة، لا تستخدم كثيراً، تدعى قاعة الخرائط، في الطابق الأسفل من البيت الأبيض. كنت قد التقيت فيها عدة مرات بدينيتز نفسه وسلفه رابين (ودوبرينين أيضاً) عندما كنت مستشار الرئيس لقضايا الأمن القومي، وغايتي أن تبقى هذه اللقاءات سريّة. والقاعة كانت معتمة قليلاً، لأن نباتات الغار الوردي، كانت تظلل جزءاً كبيراً من نوافذها. أما جدرانها فكانت مغطّاة بخرائط ساحات القتال. كان برفقة دينيتز الملحق العسكري، الجنرال مردخاي "موتّا" غور وجاء ليرسم لي لوحة حقيقة عن المعركة. وبطبيعة الحال كان معي سكاوكروفت ورودمان.

فأخذ كل من دينيتز وغور بالحديث، وبيّنا أن الخسائر التي تكبدتها إسرائيل حتى هذه اللحظة، كانت مرعبة، وغير منتظرة. فقد فقدت تسعاً وأربعين طائرة. إن الرقم مرتفع، ولكنه لا يستدعي الدهشة إذا أخذنا بعين الاعتبار، أن سورية ومصر، يملك كل منهما، أعداداً كبيرة من صواريخ أرض جو السوفيتية. وكانت صدمتي كبيرة عندما أطلعت على خسارة خمسمائة دبابة، منها أربعمائة على الجبهة المصرية وحدها. ورجاني دينيتز الاحتفاظ بسريّة هذه الأرقام، وعدم اطلاع أحد عليها سوى الرئيس.

وفي حال إفشاء هذه الأرقام، فإن العرب الذين لا يزالون على الحياد، لابدّ من انضمامهم إلى الحرب، لإلحاق الضربة القاضية بإسرائيل. وعندئذ جالت بفكري جملة من المتناقضات، وقلت: "أن هذا ما يدعو المصريين إلى التفاخر". وكيف يمكن أن يكون قد حصل ذلك؟ فشرح لنا غور، كيف أن عدداً كبيراً من الدبابات، فقدت في طريقها إلى ساحة القتال، نتيجة سرعة قيادتها، وعدم صيانتها في مستودعاتها.

فاضطربت إلى حد إني ذكرت دينيتز بما كان يرويه في الليلة الفائتة، حول الانتصار المنتظر ليوم الأربعاء. تقبّل قسوتي وأجاب: ربّما حدث شيء لم يكن بالحسبان، ولم يستطع تحديده.

وعلى كل حال، فإن هذا، لن يبدّل شيئاً، وكل ما أعلمنا به دينيتز يوجب علينا إعادة النظر بالأسس التي وضعناها بناءً على استراتيجيتنا. لأن كل إجراءاتنا الدبلوماسية، وسياستنا في إعادة تسليح إسرائيل، كانت مرتكزة على انتصار إسرائيلي سريع. وقد تجاوزنا جميع هذه الادعاءات. وحدث شيء خلال ذلك ما كنّا ننتظره، لأن الجيش السوري على الرغم ممّا تكبّد من خسائر، فإنه لم يُهزم، وصعب على إسرائيل نقل قواتها من هضبة الجولان إلى صحراء سيناء. غير أن خسائر إسرائيل الفادحة في العتاد، ربما كانت تتساوى مع الخسائر المصرية، هذا وأن إسرائيل ترى نفسها منذ الآن في بداية حرب استنزاف قاسية، لن تتمكن من التغلّب فيها، طالما أنها فقدت معظم عتادها. وعليها أن تضرب الآن ضربتها القاضية. وكانت وجهة نظر غور المفضّلة إلحاق الهزيمة بالجيش السوري. وهجوم إسرائيلي على سيناء سيكلّف كثيراً. لكن تفكير غور كان مختلفاً تماماً، لأنه كان يعتقد أن مصر ستحاول الاستيلاء على ممرّي المتلا والجدي، هذا إذا نشط السوريون في مساعدتهم.

إن ما تخطط له إسرائيل، لا يتفق وآراء دينيتز وغور، لأنّهما يجهلان حقيقة الواقع، أن الدبابات التي تفتقر إليها إسرائيل، يصعب إرسالها بالسرعة المطلوبة، فاقترح غور تأمينها من عتادنا الموجود في أوروبا، وحتى في هذه الحال، يلزمنا عدة أسابيع، وجرى الاتفاق بيننا، أن تبدأ طائرات العال حالاً بنقل قطع الغيار والأعتده الإلكترونية، لكن هذا الأسطول الذي لا يتجاوز سبع طائرات، لا يستطيع نقل

العتاد الثقيل، أما بالنسبة للمواد التي تحتاج للتشاور، فقد وعدت بعقد اجتماع لفريق العمل الخاص، وإيصال الجواب إلى دينيتز قبل نهاية النهار.

طلب إليّ غور الإطلاع على ما نصدره من تعليمات خاصة. فأوعزت إلى سكاوكروفت أن يحمل له نصيباً في ذلك. هذا ولم يخالجني الشك أبداً، أن هزيمة إسرائيل بفضل التسلّح السوفيتي، ستكون كارثة جغرافية وسياسيّة، بالنسبة للولايات المتحدة. ومن جراء ذلك، حرّضت إسرائيل على الحصول على انتصار في إحدى الجبهتين، قبل أن يتخذ دبلوماسيو الأمم المتحدة مكاسب العرب حقاً يثبتونه في اجتماعاتهم القادمة. وأخذنا نركزّ جهودنا على انتزاع نصر من السوريين، أما على المصريين فهذا أمر يطول، كما قال دينيتز.

عندما اقترب الحديث من النهاية، طلب دينيتز أن يقابلني لوحدي ولبضع دقائق. وعندما اختلينا قال لي: أن غولدا مائير رئيسة الوزراء، مستعدة للحضور شخصياً إلى الولايات المتحدة، ولمدة ساعة من الزمن، لعرض قضيّتها على نيكسون والحصول على المساعدات اللازمة من السلاح. وستكون هذه الزيارة سريّة، فرفضت حالاً هذه الإمكانية دفعة واحدة، دون أخذ رأي نيكسون. ولن يقدم أحد على مثل هذا الاقتراح، إلاّ في أزمة هستيريّة، أو محاولة ابتزاز بالتهديد. وسفرة كهذه تبعد غولدا عن إسرائيل لمدة ست وثلاثين ساعة على الأقل. ومغادرة البلاد، ورحى معركة ضاربة تدور، ستوضح ما هي عليه إسرائيل من هلع، وتشجع بقية العرب، الذين يتربصون، للانضمام إلى المعركة. زد على ذلك أن سفرها يحرم إسرائيل من شجاعة غولدا غير المتناهية، وسيكون لغيابها تأثير، اكثر من تلك القرارات الجانبيّة التي تظن الوصول إليها. وعلمت في اللحظة نفسها أن دايان كان يأمر بتراجع عام، على مشارف سيناء. وحيث ليست هناك إمكانية

لحفظ سرّية زيارة غولدا، سنجبر على الإعلان عن إرسال أسلحة ثقيلة لإسرائيل، وهذا بدوره يفقدنا إمكانية التوسط، ويحمل العرب على نفث نار غضبهم علينا، ويصبح الجوّ حراً أمام الاتحاد السوفيتي.

وفي الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين من يوم الثلاثاء ذاته، دعوت فريق العمل الخاص إلى الاجتماع، واقتصر على حضور أكبر ممثلي الوزارات. واستبعد المعاونون للتمكن من حفظ سرّية الحديث. فأوردت لهم ما دار بيني وبين دينيتز وغور ولم آت على ذكر أعداد الدبابات المفقودة. فارتاب الزملاء في حديثي، وقال كولبسي: إن إسرائيل تقوم بأعمال مذهلة على الجبهة السورية، ومركزها ثابت في سيناء. وأن إسرائيل تحاول حملنا على تزويدها بكل ما تريده من السلاح قبل الانتصار. وسيفسر هذا وكأنّه مساندة دون تحفّظ من قبلنا، وليس فقط في أيام الحرب، بل في الفترة التي ستعقبها. وحيث كنت أرأس الجلسة بصفتي مستشار الرئيس، فقد تكلم كينيت روس باسم وزارة الخارجية، ولابد هنا من التنويه، أنني لم استطع إصدار تعليماتي إلى روس قبل بدء الجلسة، ووافق كولبسي على رأيه. لكن شليسنجر لا يرى غضاضة في إرسال أسلحة لا توجب تواجد تقنيين أمريكان. ثم تابع كلامه فقال: تنفيذ طلبات إسرائيل، وقلب ميزان المعارك، حيث العرب هم على أهبة الانتصار، فإن هذا يعني نفث السمّ في جوّ علاقاتنا مع العرب، ثم أوضح الفارق بين ضمان بقاء إسرائيل في حدودها السابقة لعام ١٩٦٧، ومساعدة إسرائيل على المحافظة على توسعاتها عام ١٩٦٧ ومشتركون آخرون في الجلسة، كانوا يفكرون كذلك.

إني أرى، أن الأحداث تجاوزت ما كنا نتوقع. أن الحلّ الأفضل نظرياً، هو أن تطرد إسرائيل العرب، فلا تعرّض نفسها لكارثة. لكن الأمر أصبح بعيداً، "لقد

عانت إسرائيل هزيمة استراتيجيّة، فلا تسمح لنفسها أن تكون خسائرها ضعف خسائر خصمها".

وفي غضون ذلك، أخذت الشكوك تتسرّب على نفسي من مسلك السوفيت، إنهم قبلوا بجميع مواقفنا وكأني بهم يتظاهرون بذلك، لأنهم على إطلاع تام على مجرى القتال. وإذا لم يكونوا هكذا في السابق، فهم الآن بلا شك واقفون على حقائق الأمور. وهم يسعون للاصطياد في الماء العكر. وبعد الانتهاء من المحادثات التي جرت في اجتماع فريق العمل الخاص، أعلمني دين براون، سفيرنا في عمّان، أن القائم بالأعمال السوفيتي في عمان، يضغط في هذه الآونة على الملك حسين، ليرمي بجيشه في المعركة ويعده بمساندة دبلوماسية من قبل الاتحاد السوفيتي. وقبل أن يمضي النهار، كان نداء من بريجينيف، وبالمعنى ذاته يوجّه إلى الرئيس الجزائري، هواري بومدين، ثم أعلن ذلك رسمياً.

كنت أفكر أن هناك قضيّتان، يجهد الاتحاد السوفيتي أن يستميل العرب بهما وهما، التجهيزات والإثبات بالقرائن، وعلينا ألاّ نسمح له بذلك. وكم الفارق عظيم، بين تطلّعاتنا في هذه الساعة وبين الليلة السابقة. ولم أتباطأ أن أطلب ممن كانوا في اجتماع فريق العمل الخاص، أن يقدموا لي لاحقاً لائحة بالخيارات التي يرونها بالنسبة لإعادة إمداد إسرائيل. ورجوت شليسنجر أن يسرع فيرسل لإسرائيل مباشرة ومن المعمل كل طائرة فانتوم، لم تختص بها وحدة أمريكية عسكرية.

وسعيت خلال ذلك لأتفهم جيداً نوايا السوفيت، الذين يحاولون تبديل النزاع إلى جهاد مقدّس، من جهة العرب. لكن الملك حسين رفض حتى هذه الساعة دخول

الحرب، ولقد رفض أيضاً طلب الملك فيصل، بإدخال فرقة سعودية متمركزة في الأردن. فأرسلت مذكرة إلى حسين، ناشدته عدم خوض غمار الحرب، ووعدته ببذل جهود مستميتة في سبيل إحلال السلام، حالما تضع الحرب أوزارها. فأجاب أنه متضامن مع أخوانه العرب، بالنسبة لأهدافهم الموضوعية، ويندّد بإسرائيل ورفضها السلام منذ عام ١٩٦٧، وأنه سيمتنع عن التدخل، إلى أقصى حد ممكن، شريطة إعداد وقف إطلاق نار بسرعة تامة، وإلاّ فإنه عازم على التدخل. ومن المعلوم أن تمديد أمد الحرب، يعزّز موقف الاتحاد السوفيتي في العالم العربي.

من الواضح بالنسبة لي، أنه لن يكون هناك وقف إطلاق نار، إلاّ في حالة نجاح إسرائيل، التي عليها أن تتماسك، لتتغلّب على ما أخذ يظهر لديها وكأنه تفكّك. ولإعادة الثقة إليها، يجب أن نبرهن لها عن إعانة أمريكية ملموسة. وعلينا في الوقت ذاته أن نمنع السوفيت من استغلال هذا التبدّل الفجائي (وعلى الأقل بالنسبة لنا) في الوضع العسكري. ولم أفتر طوال اليوم، من تحذير دوبرينين ضد كل محاولة يقدمون عليها بتشجيع بلاد أخرى لدخول الحرب، فزعم أن الأخبار التي وردت عن الأردن، لابد أن تكون نتيجة مغالطة، والنداء الذي وجّه إلى بومدين من قبل بريجنيف، ليس سوى كلام سوفيتي منمق. وعندما تجري مغالطة لدى قوّة عظمى، ومن هذا النوع، وفي عواصم متباعدة جداً، فهذا يدعى في التطبيق العملي: نية مصمّمة ومدروسة.

سبق أن قلت أني طالبت فريق العمل الخاص، بتقديم ما يستجد لديهم من خيارات حول هذا الموضوع وغيره. وعندما عاد الاجتماع، في ظهيرة يوم الثلاثاء التاسع من شهر تشرين الأول، قدّمت ستة خيارات تتعلق بتجهيز إسرائيل بالأسلحة، وهي منسّقة حسب الأهمية وتميل إلى متابعة مساندتها السرّية، وإذا

قضت الحاجة، تسخّر طائرات أمريكية لهذه الغاية. لكن إجماعهم هذا لا يخلو من بعض الشكوك حول استعجال الإرسال. ومن ثم أكّد كولبسي، أن لدى إسرائيل ما يكفيها أسبوعين على الأقل.

ثم تبيّن من خلال الأحاديث التي تتابعت أن القضيّة تجاوزت قضية التجهيزات، إلى ترك غولدا بلادها في وسط أتون المعركة، ساعية لإنقاذها، فإن هذا دليل ثابت على أن إسرائيل على شفير خطر مخيف (غير أني لم أشاركهم بهذا الرأي). وأشرت عليهم بتدارس الأمور بشكل موضوعي، من نواحيها العسكرية، وحتى النفسيّة. إن مصلحتنا تقضي، لكنها لا ترضي إسرائيل، أن نجد وسيلة إرسال السلاح، لا التفاخر بإرساله. وأعلمت المجتمعين، أني سأطلع الرئيس نيكسون، على كافة الأحاديث التي دارت والخيارات التي قدُمت، ولن يطّلع عليها قبل انتهاء زيارة رئيس ساحل العاج فيليكس هوفويت بوانيي، والتي ستبدأ قبل نهاية هذا اليوم.

لم يبقَ دينيتز هادئاً، فيما كنا نحن مجتمعين. فأخذ يمطرني بمكالمات هاتفية لا تعرف الحدود، ليحذرني من عدم إضاعة الوقت وتفويت الفرصة في تجهيز إسرائيل بالعتاد. ومن الطبيعي أن يكون دينيتز يقوم بدورين ولا يكتفي بمراجعتي بهذا الشأن بل ذهب إلى أبعد من ذلك، وأخذ يؤلّب ضدّي العديد من أعضاء مجلس الشيوخ، وجميعهم وافقوه على رأيه، وانهالوا عليّ بتأكيداتهم، وبدأت بالغليان، خاصة عندما كلمني عضو مجلس الشيوخ، فرانك شيرش، وهو منتقدنا بل عدونا اللدود في سياسة الحرب الفيتنامية، والذي كان ينتقدنا بافتقارنا للصّراحة، مطالباً بإرسال بعض طائرات الفانتوم إلى إسرائيل وبصورة سرّية، ودون معرفة أحد فأجبته أني لا أمانعه في جعل هذه المطالبة علنيّة، لأن تنفيذها

يعتبر بمثابة انقلاب في سياسة وخطط قرّرنا اتباعها. وإذا ثابر الكونغرس بإجراء ضغوط علينا في سبيل مساعدة إسرائيل، فقد يكون سبباً لتخفيف ضغينة العرب ضدنا.

حظيت بمقابلة نيكسون، في تمام الساعة السادسة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين وكان معي سكاوكروفت وزيغلر. فعرضت عليه معطيات القضيّة العامة. فكان وضعنا لا بأس به في المجال الدبلوماسي. إذ كنا البلد الوحيد، الذي يستطيع إجراء اتصالات مع معظم الفرقاء، بما فيهم الاتحاد السوفيتي. وإذ احتاج الوضع إلى استخدام الدبلوماسيّة، فإن موقفنا منها موثوق. لكن هذا التقدم النظري لن يفيد شيئاً إذا كانت إسرائيل في طريقها إلى الانهيار. وإذا تمكن العرب من معرفة أن خسائر إسرائيل ضعف خسائرهم، فلا بدّ من التصميم على دكّها.

كان نيكسون، لا هياً بمشاكله الداخلية، وأمضى القسم الأكبر من يومه في تنسيق استقالة أغنيو، التي يجب إعلانها خلال أربع وعشرين ساعة. وعلى الرغم من أن هذا أقلق باله، إلا أنه لم يبتعد عن الأمور الأساسية فقد أكدت: "علينا ألاّ نسمح بانكسار إسرائيل" مبيّناً نتائج ذلك. وقرّر تسريع إرسال قطع الغيار والطائرات لأن العتاد الثقيل لن يصل إسرائيل قبل نهاية الحرب. ونحن نضمن لإسرائيل تعويضها ما تخسره من سلاح. وهذا يمنع تكديس الأسلحة في زمن الحرب.

وفي تمام الساعة الثامنة عشرة والدقيقة العاشرة، من يوم الثلاثاء ذاته، نقلت إلى دينيتز قرار نيكسون:

" فيما يتعلّق بالطلبات الخاصّة، فقد أقرّ الرئيس إرسال كافة قطع الغيار

والعتاد، المتضمنة في اللائحة، أعني تجهيزات وأعتدة إلكترونية، ما عدا قنابل الليزر. لقد وافق الرئيس. (واسمحوا لي أن أعيد ذلك رسمياً) على تعويض جميع ما يفقد من طائرات ودبابات".

سنرسل عدداً مّما تتلقون من مصفّحات، من طراز (M60) وهي أحدث ما لدينا. وستصلكم طائرات حديثة أيضاً. أما بقيّة الأشياء، فيجب وضع توقيت ينظم الإرسال والوصول. وفيما يتعلق بقطع الغيار والأسلحة المضادة للدبابات، فقد كلّف شليسنجر وهو مستعد لتلبية ذلك. وأنتم تعرفون بمن تتصلون بوزارة الدفاع، وإذا طرأت أية مشكلة، فعليكم باستدعاء سكاوكروفت. ويجب وضع توقيت أيضاً للمصفّحات، وموضوعها لا يهمّ الآن أثناء القتال، لكنّنا لا نعلم ما سوف تكون عليه الحال بعد الحرب. ونحن نؤكد لكم أن جميع خسائركم ستعوّض وإذا اضطررتم إلى الدبابات، فستصلكم ولو على طائرات أمريكية".

ولقد بينّت لشليسنجر، أنه هو المسؤول عن التقدير الصحيح لاحتياجات إسرائيل، ما دامت الحرب قائمة، وفي حال تأكّده من حاجة إسرائيل لدبابات أو مصفّحات فعليه إرسالها حالاً، واقترح دينيتز، إعداد طائرات العال، ودون وضع إشارات مميّزة لنقل هذا العتاد، والحاجة لا تدعو الآن لبحث جسر جوي أمريكي، ما لم تطلب المصفحات بصورة سريعة.

وهذا ما أطلق الإشاعات ضد حكومة نيكسون واعتزامها بل تصميمها على تسليح إسرائيل، وغايتها من وراء ذلك حملها (أي إسرائيل) على المرونة في المفاوضات. وعندما انقطع كل أمل بانتصار إسرائيلي سريع أصبحنا في مواجهة خطرين: مأزق عسكري طويل الأمد. واقتراح بوقف إطلاق نار في الحالة الراهنة، في حين أن إسرائيل، لم تستعد في أي من الجبهتين، مواقعها قبل اندلاع الحرب.

أجبت في اليوم نفسه ولو متأخراً، على مذكرة حافظ إسماعيل الأخيرة، متوخياً المحافظة على اتصالاتنا بمصر، وكنت تلقيت تلك المذكرة في صباح اليوم نفسه، وهو يحيّي حسن نوايا حكومتنا. وبجوابي بيّنت لإسماعيل، ولو بصورة غامضة، أن ما نعمله هو أقل قدر ممكن ممّا لدينا من نوايا طيبة لوضع حد للحرب. وفي هذا باعث لمصر أن تحفظ ماء وجهها في حال خسارتها. وأكدت له قائلاً: أن الولايات المتحدة تتفهّم الآن وبوضوح الموقف المصري بالنسبة لتسوية سلمية. وتحاشيت كل تعليق في هذا الموضوع. وهذا يعني بموجب العرف الدبلوماسي، أن ليس هناك نقطة إنطلاق.

ولقاء ذلك، اتخذت من تبادل العواطف هذا، خطوة جديدة نحو حقائق ملموسة، وبيّنت لإسماعيل الاستراتيجية التي اتبعناها في تأجيل عرض الأمر رسمياً على مجلس الأمن الدولي، على أمل الحصول على وجهة نظر مصر في هذا الشأن. فكتبت له:

ليس لدى الولايات المتحدة، سوى القليل عن وجهات النظر المصرية، وعن الطريقة التي تتمكن بموجبها وضع حد للقتال الدائر الآن. إن الإطلاع على مثل هذا يفيد الجانب الأمريكي، في اتخاذ موقف، أثناء النقاش الذي سيجرى في مجلس الأمن الدولي. وآملاً تلقّي جواب يبيّن وجهات النظر المصرية، فإننا سنمتنع على قدر الإمكان من اتخاذ موقف نهائي في مجلس الأمن.

ويبدى الجانب الأمريكي رغبته الصادقة، في بدء مشاورات عاجلة، مع الفرقاء ذوي العلاقة، للتمكن من الوصول إلى تسوية سلمية مقبولة في الشرق الأوسط. ويهمنا في هذه الظروف الحرجة، الاحتفاظ برغباتكم، للتمكن من المداولة فيها وفي

غيرها ممّا يعرض على مجلس الأمن ويجري حوله نقاش عنيف، على أمل الوصول إلى حلّ ينهي الأزمة الحالية.

كان صباح يوم الأربعاء العاشر من شهر تشرين الأول، صباح شؤم علينا، إذ وردنا خبر يفيد أن هناك جسراً جوّياً بين الاتحاد السوفيتي وسورية، وأن عشرين طائرة نقل كانت في طريقها إلى سورية، مروراً بهنغاريا ويوغسلافيا. وعملية في مثل هذه الضخامة، لا يقدم عليها دون استعداد، ولا بدّ أنها قد أعدّت ونظمت قبل عدة أيام. وهذه الحمولة هي أدوات غيار، فكان هذا الخبر بمثابة ترديد صدى للقرار الذي اتخذناه يوم الأحد الماضي تجاه إسرائيل، غير أن الجهد السوفيتي نظر فيه ونفّذ على مستوى أكبر. فما هي الغاية من وراء ذلك؟ هل هي إذكاء نار النزاع، أو مساندة صديق يحفظ للسوفيت ورقة، لاستخدامها في مفاوضات ما بعد الحرب؟ وهل المقصود دفع العرب إلى العناد أو إظهار حسن نيّة السوفيت، قبل طرح تسوية سلمية؟ وهل يساعد السوفيت أحد شركائه الأكثر اضطراراً إلى المساعدة قبل الانهيار، أو أنهم يعدّون لمجزرة جديدة؟

لم تتوضّح هذه التساؤلات. فمن الممكن أن الزعماء السوفيت يحاولون الاحتفاظ بعدة خيارات تحت تصرّفهم، ويجهدون لتأكيد متابعة القتال، لكنهم في الوقت ذاته لا يلحظون منفذاً لها. وربما أنهم يسعون لفرض وقف إطلاق نار، كما عرفناه من قبل العرب بعد الانتهاء من الحرب. لكنهم أقدموا على ذلك متردّدين، مما حمل الناس على الظن بالسادات أنه هو الذي يقوم بذلك، وسرعان ما انقلب الأمر ضدّهم وأخذ الشك يخالج نفوس المصريين بهم.

كتب السادات، أن موسكو بدأت منذ بدء الأعمال القتالية، في الساعة العشرين والدقيقة الثلاثين، بتوقيت القاهرة، في السادس من تشرين الأول، أي بعد

ست ساعات ونصف على بدء القتال، تحثّه على قبول وقف إطلاق النار. لكن السادات، أكّد لهم أنه سيتابع الحرب، حتى تدمير ما يسمّى "بنظرية الأمن الإسرائيلي".

إن ما عرضه السادات، والذي يدلّل على عدم ثقة بالزعماء السوفيت، يتوافق مع ما كان يخبرنا به هؤلاء وفي الوقت ذاته. وبعد الساعة الثامنة صباحاً بقليل من يوم الأربعاء العاشر من شهر تشرين الأول. طلبني دوبرينين هاتفياً، لإبلاغي بمذكرة يعتبرها ذات أهمية: لقد تأجلت المشاورات السوفيتية مع كل من مصر وسورية، وظهرت أنها غير مرضية. وتستطيع موسكو، أن تثبت لنيكسون أن الاتحاد السوفيتي مستعد الآن، إلى عدم الوقوف في وجه قرار لوقف إطلاق النار، يتخذ في مجلس الأمن الدولي. وبعبارة أخرى، سيمتنع السوفيت عن اتخاذ أي قرار بوقف إطلاق النار، ولن يساندوا أية مطالبة بالعودة الى حدود ما قبل الحرب، وهذا يعني أنهم سيستخدمون حقّ النقض ضدّه. غير أن المذكرة السوفيتية تضيف إلى ذلك وتبيّن الرغبة في التعاون والعمل في سبيل تسوية مفاوض عليها، وعلى أساس تحرير جميع الأراضي العربية، التي تحتلّها إسرائيل.

إن المبادرة السوفيتية في سبيل إيقاف إطلاق النار، أصبحت أمراً عادياً بالنسبة لنا، وتأتي في أوقات حرجة بالنسبة لاستراتيجيتنا. ولو تقدم الاتحاد السوفيتي باقتراح من هذا النوع، وفي مثل هذه الظروف، لتوصل إلى مساندة شبه إجماعية حتى من قبل حلفائنا الأوروبيين. ومن جهة أخرى، فإن إسرائيل، التي لم تستعيد بعد مواقعها لما قبل الحرب، سوف ترفض القبول بمثل هذا القرار.

وفي الواقع، لو قبلنا بوجهات نظر الاتحاد السوفيتي، وضغطنا على إسرائيل لإجبارها على القبول بالقرار، لكانت انتهت الحرب بانتصار واضح للعرب،

المسلّحين من قبل الاتحاد السوفيتي. ويصبح موقف الولايات المتحدة حول حلّ دبلوماسي بعد الحرب صعب التطبيق. وفي الوقت نفسه، فإن النظرية التي كنا نرى أنفسنا من خلالها، أننا القوة العظمى الوحيدة، القادرة على طرح حلول للقضيّة، فإن هذه النظرية تكون قد تبخّرت. إن الأسلحة السوفيتية قادرة على كسب المعركة، كما أن الدبلوماسية السوفيتية قادرة أيضاً، على تثبيت المكاسب المتوخاة، وهكذا فإن إمكانية اندلاع حرب جديدة تصبح عالية المستوى، لأن إسرائيل تصبح في وضع تتمنى فيه العودة إلى هيمنتها، بينما يصبح العرب على اقتناع بالاكتفاء بهجوم جديد، حالما تعترضهم أية أزمة دبلوماسية.

لو اتخذ السوفيت سياسة معتدلة ومقبولة، ولو لم يؤخذ العرب بغبطتهم، لتمكنوا من الحفاظ على مكاسبهم، وكان يكفيهم الضغط للحصول على وقف إطلاق النار في العاشر من شهر تشرين الأول، وكان يعسر علينا وبكل تأكيد الوقوف في وجه مثل هذا الطلب. لكن مصر وسورية لم يحسنا تقدير إمكانية استعادة إسرائيل قوتها، أو أنهما لم يتمكنا من وضع حدّ لشكوكيتهما المتبادلة، وربما أن الفريقين اشتركا في ذلك. وما كان يأمل السوفيت الحصول عليه، لم يسهل تحديده. وازدواجية جميع هذه المواضيع كانت تفسح أمامنا المجال، وتعطينا فرصة التحرّك. لأنهم إذا أرادوا إبطاء تنسيق إعادة إمداد إسرائيل، فهم مخدوعون. وجاءنا الجسر الجوي السوفيتي باتجاه دمشق فسوّى مشكلتنا دفعة واحدة.

عزمت إذاً على قبول الاقتراح السوفيتي، بصورة مبدئية، في محاولة، لإيقاف أي هجوم دبلوماسي من قبل موسكو في الأمم المتحدة، ومنعاً لتأخير القضية مدة أطول، أملين أن إسرائيل تحقّق تطلعاتها السابقة وتنتصر على الجبهة السورية، خلال ثمانٍ وأربعين ساعة.

فبيّنت لدوبرينين، أن باستطاعته إبلاغ موسكو، أننا نعتبر اقتراح وقف إطلاق النار، اقتراحاً بنّاء، وليفسح لنا مجالاً لتدارسه. وبعد فترة وجيزة، اتصلت بدوبرينين وأكدت له أن الرئيس لن يستطيع أن يعطي جواباً بصورة أكيدة ومضمونة، طبقاً للأصول، قبل أن يسافر الزائر الإفريقي الآخر، الرئيس زايروس موبوتي سيسي سيكو، نحو الساعة الحادية عشرة والنصف. لكن غايتي الحقيقية هي تعريف دوبرينين أننا قد علمنا بالجسر الجوي الكبير، الذي بادر السوفيت إلى إقامته، وأنه لا يفيدنا بشيء. فعظمت لدى دوبرينين المفاجأة فأجبته، لابد أن وزير الدفاع السوفيتي غرتيشكو قد أطلع على ذلك، زد على ذلك فإن الطائرات تمر ببودابست، وربما هي الآن في محط رحالها. علماً أن شكليات الإدارة السوفيتية المتبعة، لا يمكن أن تبقي على دوبرينين بهذا الجهل المطبق. غير أنه صارحني باستعلامه عن ذلك لدى موسكو. فأجبته على قوله هذا: مهما يحدث منذ الآن فصاعداً، فإن إقامة هذا الجسر الجوي السوفيتي، يساعدنا على إقامة مثيله.

إن فضيحة واترغيت أوجدت لنا مناسبة تأجيل نستغلّها. ويجب الإعلان في هذا اليوم وفي تمام الساعة الرابعة عشرة، عن استقالة أغنيو نائب الرئيس. ففي تمام الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين، عدت فطلبت دوبرينين مرة أخرى، لإبلاغه أن الحادث الطارئ، سيحول دون رغبة الرئيس في إعطائه رأيه بالاقتراح السوفيتي قبل عدة ساعات. وأكدت له كذلك، أن الضرورة لا تدعونا إلى معارضة قرارات سابقة لأوانها. وأكّد لي هو بدوره وبصدق أن السوفيت لن يعرضوا أي قرار في مجلس الأمن.

وبين المحادثتين اللتين أجريتهما هذا اليوم مع دوبرينين، حاولت الوقوف على الوضع العام، فسألت دينيتز عن ذلك، فقرأ لي مذكرة وردته من غولدا مائير،

وموجهة لنيكسون، تظهر له فيها امتنانها للقرار الحيوي الذي اتخذه من حيث إعادة إمداد إسرائيل. مؤكدة أن هذا الأمر كان له تأثيراً كبيراً وهو ذو فائدة. ثم تضيف: أننا نواجه مصاعب جسيمة لكننا واثقون من الانتصار. وعند حاجتنا نفكر بكم.

فأجبت دينيتز بدوري قائلاً: طالما أن إسرائيل قد اطمأنت لإعادة إمدادها، فليست هي بعد بحاجة إلى الاحتفاظ باحتياطها. وليست هي في الوقت نفسه مضطرة إلى إجراء مناورات معقّدة، وكل ما يهم إسرائيل الآن، العودة إلى قواعدها قبل الحرب بأسرع ما يمكن، أو أن تتجاوزها في إحدى الجبهتين. فنحن لا نستطيع تأجيل تقديم الاقتراح إلى مجلس الأمن بوقف إطلاق النار أمداً طويلاً.

لقد فهمنا من خلال محادثتنا مع مصر، أنه لا يزال أمامنا بعض الوقت، قبل اتخاذ أي إجراء من مجلس الأمن. وتلقيت في الساعة الثالثة عشرة والنصف من هذا اليوم الأربعاء جواب إسماعيل على سؤالي، الذي طرحته عليه الليلة الماضية، المتعلق بشروط وقف إطلاق النار. ولقد ورد فيه بوضوح، أن القاهرة ليست على استعداد حتى الآن، للملمة مكاسب انتصاراتها، وهي لا تزال تدعو إلى وضع مشروع سلام شامل، ولو بطريقة مبدئية وقد جاء فيه:

"يسر إسماعيل أن يبيّن ما يلي: إذا كانت هناك أسباب تدعو حكومة الولايات المتحدة إلى اتخاذ موقف إلى جانب الحكومة المصرية، فإني أؤكد أن كيسنجر مطلع على هذه العوامل وغيرها، ذات العلاقة بالموقف المصري، وتبيّن جميعها أن لا غنى عن الأخذ بعين الاعتبار، وجوب وضع مشروع شامل لإقامة سلام دائم في الشرق الأوسط".

إن مثل هذه الصيغة الكلامية اللطيفة، تدل على أن رغبة مصر الحقيقية في

السلام تنطلق من مصلحتها القومية. وتطالب في حال تهيئة الظروف مناقشة مشروع سلام شامل. ومن يتتبع قراءة الرسالة، يرى كيف أن إسماعيل يبيّن موقفه حيال وقف إطلاق النار، ويعطيه صيغة جديدة من خمس نقاط وأهمها التالية:

"إن مصر لا تطالب بعودة إسرائيل سلفاً إلى حدودها السابقة لعام ١٩٦٧" وتقبل وعداً إسرائيلياً بهذا الخصوص، شريطة تنفيذ هذا الوعد في توقيت يحدّد بدقة. وعلى أن تنتهي حالة الحرب، وما ينبثق عنها من أعمال عدوانية، حالما ينتهي الانسحاب، الذي يُتبع بمؤتمر سلام.

ولا يخفى أن إسماعيل، كان يشك بإمكانية موافقة إسرائيل على أحد هذه الشروط، إلاّ في حال هزيمتها هزيمة كاملة. وإذا تغيّرت الظروف وجرت مفاوضات، لن تعود الفرضيات مقبولة، بل هو الواقع الذي يفرض نفسه، ولا سيما في حالة الأخذ به أو تركه. وكان إسماعيل يترك جميع هذه الاعتبارات "خاضعة لما يبديه كيسنجر"، الأمر الذي حملني على اتخاذ موقف مغاير.

على الرغم مما لمسته في الموقف المصري الجديد، كنت على ثقة، بأن لن تجري محادثات رسميّة، طالما أن الموقف العسكري لم يتغيّر. فسارعت في الحال لإجراء ما يلزم حول عدم امتداد القتال. وعلمت أثناء النهار، أن السادات يحث الملك حسين، أن يزجّ بنفسه في المعركة، فأضاف دين براون الذي أخبرني، أن الملك حسين يدرس إمكانية إرسال فرقة مِصفّحة إلى سورية، متحاشياً بذلك اتخاذ قرار أخطر، مثل فتح جبهة جديدة، يهاجم بها على طول شواطئ نهر الأردن. علماً أن كل مبادرة أردنية قادرة على حمل دول عربية على دخول المعركة، وإطالة أمد الخيار العسكري. فناشدت في الحال الملك حسين تأجيل اتخاذ قراره يومين على

الأقل، ونوّهت له في الوقت ذاته، أني سأبذل قصارى جهدي في دبلوماسية سرّية لوضع حدّ للقتال، وأنا لا زلت بحاجة لبعض الوقت لعونه. وكان حسين عاقلاً فلم يجب، لكنه اتبع توصيتي.

أما حكومتنا، فكانت منقسمة على نفسها، حول ضرورة الإسراع في المشاورات حول إعادة إمداد إسرائيل (علماً لا توجد معارضة حول التعويض عن العتاد المفقود) وكنا جميعنا على ثقة، باحتمال اتخاذ قرار ما بالحال، قبل أن يصل العتاد الثقيل إلى أرض المعركة، ويغير وجه معادلة الحرب. كما أن البعض كان يراوده القلق في فصم عرى الصداقة، مع العرب المعتدلين، دون نفع حقيقي لإسرائيل، وبعد أن وردنا صبيحة هذا اليوم العاشر من شهر تشرين الأول، خبر مفاده: أن الملك فيصل قد اتفق مع الملك حسين، على إرسال الفرقة السعودية إلى سورية، والتي كانت تعسكر في الأراضي الأردنية ويطالب الملك فيصل منذ بعض الوقت بإرسالها لتشترك في القتال، وأرسل بالإضافة إليها فرقة أخرى سعودية. وشليسنجر الذي استدعاني في تمام الساعة الثامنة والنصف صباحاً، لإبلاغي هذا النبأ، طالبني باتخاذ إجراءات سريعة في سبيل وقف إطلاق النار. وكان القلق والارتياب بادين على لهجته حتى أنه اندفع وتمتم ببضع كلمات حول إرسال قوات أمريكية، فرفضت هذه الفكرة في الحال وقلت له:

"فيما يتعلق بالسعوديين، أرجو أن يبقى كل منا محافظاً على رباطة جأشه. فلو توجهت فرقة سعودية للاشتراك في المعركة، فلن تصلها قبل يومين. ومن الممكن أيضاً أن يرسل الأردن فرقة عسكرية، للاشتراك في المعركة، وهذا ما يمكن أن يعمله الأردن على أقل تقدير. ولكن علينا المحافظة على موقفنا قرابة يوم واحد، إذ ربما نتوصل إلى النتيجة التي نريد. وأعتقد بأنه ليس هناك حاجة البتة بالإعداد

لاشتراك فعلي من قبلنا. وخلال غداء كنت أقيمه في وزارة الخارجية، على شرف رينات فان السلاند، وزير الخارجية البلجيكية، استدعيت بموجب اتفاق سابق، إلى البيت الأبيض لتلقّي استقالة نائب الرئيس أغنيو.

لأسباب غامضة قضائية، فإن استقالة الرئيس، أو نائب الرئيس، يجب تسليمها لوزير الخارجية، وهذا موضوع لم يطبّق في السابق. وإني أراهن منذ الآن، أن وزيراً للخارجية لن يتسلّم خلال عشرة أشهر استقالة أكبر منتخبين اثنين في أمريكا في غضون فترة طويلة.

عندما كنت مشغول الخاطر بسبب استقالة أغنيو، ذهب سكاوكروفت لمقابلة دينيتز وإطلاعه على رغبة السوفيت في امتناعنا معاً (حول تقديم اقتراح بشأن وقف إطلاق النار) وليبحث معه قضية تسريع إعادة إمداد إسرائيل. لم تكن قابلية دينيتز للمطالبة بوقف إطلاق النار أكثر مما هي لديّ لاسيما في الظروف الراهنة. وأن سكاوكروفت، وكما أشير عليه، طالب إسرائيل ببذل جهد عسكري كبير في الثماني والأربعين ساعة القادمة، لأننا لا نستطيع تأجيل الإجراءات القانونية إلى الأبد، كما أننا لسنا في وضع يساعدنا على إقناع الدول العربية الأخرى أن ترد لإسرائيل الأراضي التي لم تستطع استعادتها. لكن دينيتز كان غير قادر على إعطاء سكاوكروفت أي دليل على التوقيت والمخطط اللذين تسير بموجبهما إسرائيل، وهذا واضح، لأنه ليس هي فقط بل نحن أيضاً، لا نقبل إشراك أحد في نوايانا.

وظهر من خلال المحادثة نفسها، إن إسرائيل لن يصلها جميع العتاد المقرّر، الذي تنقله طائرات العال، في رحلاتها السبع. وبعد استشارة الأعضاء الهامين في فريق العمل الخاص أُقر لجوء إسرائيل إلى استئجار وسائل نقل لنقل باقي العتاد.

لم يؤخذ برأي لجوء إسرائيل إلى شركات خاصّة لإتمام نقل باقي العتاد المخصّص لها، لأن الدوائر العسكرية الأمريكية، شكلت جسراً جوياً بعد ثمانٍ وأربعين ساعة. وأشيع على الأثر أن العملية أجّلت خصّيصاً للتمكن من الضغط على الحكومة الإسرائيلية وحملها على القبول بوقف إطلاق النار. إن ما أقدمه من وصف دقيق لاستراتيجيتنا يجب أن يزيل كل ريب، ولم تكن تلك فكرتنا. وعندما أطلّعت وبصورة نهائية صباح الثالث عشر من تشرين الأول، على سوء نيّة الإدارة. وتأجيل مخطط الإرسال عن طريق الشركات الخاصّة، جمعت فريق العمل الخاص، وعرضت استراتيجيتنا مجدداً، وطالبت باسم الرئيس، باستقالة جميع المسؤولين، الذين ليسوا على استعداد لمساندتها. وقلت: كان يجب أن يصل العتاد، عندما كانت إسرائيل بحاجة للقيام بهجوم. أما الآن وبعد أن وصل متأخراً، فقد جاء دور الدبلوماسية.

فإذا اعتقدت إسرائيل أننا أهملناها، وسببنا خسارتها، وإذا اعتقد العرب أننا كنا السبب في غلبتهم، فهذا يعني فشلنا.

إن أسباب فوات الوقت، كانت عديدة ومختلفة. ولم تكن أية شركة استئجار على استعداد أن تتعرّض لمقاطعة العرب، ولا المخاطرة بطائراتها أو بواخرها، بزجّها في مناطق القتال. كان باستطاعة وزارة الدفاع أن تضغط على الشركات المتعاقدة مع الجيش، لكنها لم ترّ الحاجة ملحة لذلك، وحسب تقديرها، كان لدى إسرائيل ما يكفيها لمدة أسبوعين أو أكثر. أما وزارة النقل، الممكن اللجوء إليها في مثل هذه الحالة (وهذا تفكير آخر) فقد أظهرت أنها تنوي البقاء على الحياد في كل مجابهة عسكرية. وتمكنت الوزارتان وبكل مهارة، من قذف الكرة من معسكر إلى آخر وهكذا ضاع الوقت.

وهذا هو السبب الذي حدا بسكاوكروفت وسيسكو، اللذين بذلا جهداً كبيراً في استئجار وسائل نقل، وأجبرا أخيراً على الدوران في حلقة مفرغة. وكان من واجبنا تدبير كل شيء، قبل الموافقة واتخاذ القرار، وفي حال عدم قبول الشركات التجارية، يجب حينذاك تسيير جسر جوي لنقل العتاد المطلوب.ولا زلت على ثقة من أن هذا التأخير، شكل مشكلة، حتى إذا أقيم جسر جوي أمريكي واستخدم، لما غيّر شيئاً في عمليات إسرائيل العسكرية، قبل عرض أول محاولة لوقف إطلاق النار في يومي الثاني عشر والثالث عشر من شهر تشرين الأول.

كان علينا، مهما تكن استعداداتنا لتدبير أمر نقل العتاد، وتأجيل أي عمل دبلوماسي، إلى أن يحصل تغيير على الجبهة. وحسب تقديرنا أن أحسن وضع عسكري مؤاتٍ للتحرك الدبلوماسي، الذي نفكر به لما بعد الحرب لا يمكن البدء به، ما لم تسترجع إسرائيل جميع ما فقدت حالياً من أراضي، وتتقدم قليلاً إلى الأمام. وإذا تمّ ذلك، فسيظهر أن الخيار العسكري، المستند إلى الأسلحة السوفيتية، لم يكن إلاّ سراباً، وأن كل تقدم دبلوماسي يتوقف على مساندة أمريكية. وإذا لم يحصل ذلك، يجب أن تجرى مفاوضات، على أساس تقدم إسرائيلي في إحدى الجبهتين ولو كانت مغلوبة في إحداهما، لكن هذا سيكون أكثر تعقيداً.

ولأخذ العلم، فإن العاشر من تشرين الأول، لم يأت بأحد هذين الشرطين. لأن إسرائيل كانت قد انتهت من استعادة هضبة الجولان، باستثناء بعض المواقع المتقدمة في منطقة جبل حرمون. كما أن جيشين مصريين كانا لا يزالان ثابتين في الجهة الثانية من قناة السويس. ولم تكن هناك فكرة هجوم باتجاه صحراء سيناء. والخيار العسكري الذي يدور في خلد إسرائيل هو الهجوم المنتظر ضد سورية في صباح اليوم التالي. ولن نقدم على شيء في أروقة الأمم المتحدة، ما لم تظهر نتيجة

هذه العملية. ولا بد لي أن أذكر هنا، أننا علمنا هذا اليوم، أن المصريين لم يتخلوا أبداً على المطالبة بانسحاب إسرائيلي شامل.

وفي سبيل كسب الوقت، اتصلت بدوبرينين في العاشر من تشرين الأول، في تمام الساعة السابعة عشرة والدقيقة الأربعين، وبينّت له أنه لم يُتح لنا دراسة طلبه حول امتناعنا جميعاً عن معارضة وقف إطلاق النار، إذا طلب ذلك. وأضفت قائلاً أننا من جهتنا راغبون بل نرحب بفكرة وقف إطلاق النار، حتى ولو كان موضوعها معقّداً. وهذا عرض سهل ومستساغ، وعلينا تحاشي أي اعتراض، ومساء هذا اليوم استدعاني كورت فالدهايم، ليعلمني عدم وجود أكثرية في مجلس الأمن، حول أي قرار. وأن البيرو، وكينيا وغينيا فقط هي التي طلبت الكلام لليوم التالي. وعلى ما يبدو، فليس العرب ولا إسرائيل، راغبين في وقف إطلاق نار، مهما يكن نوعه. وهذا أمر يهمنا جداً، لكن فالدهايم كان قلقاً، بسبب ما يسمع من تساؤلات كثيرة، عما يفعل الأمين العام في سبيل وقف القتال. وهذا سؤال هام، لأنه قد مضى قرابة أسبوع على بدء القتال، دون مبادرة من الأمم المتحدة طبق الأصول.

وفي تمام الساعة الحادية والعشرين. وخمس وأربعين دقيقة، طلبت دوبرينين مرة ثانية وقلت له: "يا أناتولي، لن نستطيع إجابتك قبل اليوم التالي". ودوبرينين الذي كان يدرك ما كنت أعمل، أجابني بتهديد لطيف: "أنك تحسن التحرّك، فلا تشدّد على عدم مسؤولية الروس". فذكرته مجدداً بوجود جسر جوّي سوفيتي عظيم.

وفي ساعة متأخرة من هذا اليوم، تلقينا مذكرة أخرى، عن طريق بيروت، ومن مصدر غير منتظر، وكانت المذكرة صادرة عن ياسر عرفات، رئيس منظمة التحرير الفلسطينية لا نستطيع أن نتذكر اليوم أن منظمة التحرير الفلسطينية، قد قامت

بدور هامشي نسبياً، حتى في حرب تشرين الأول. إن قرار عام ١٩٦٧، الذي يحمل الرقم (٢٤٢) لم يأت على ذكر منظمة التحرير الفلسطينية، ولم يذكر الفلسطينيين سوى كونهم لاجئين. وعندما جاء "أيلول الأسود" أبعد الملك حسين هذه المنظمة خارج الأراضي الأردنية، وكان هذا سبب أزمة بين بلاده وسورية.

وفي بداية عام ١٩٧٤، كان الرأي العام يدلّل أن الأردن وحده، ولا علاقة للمنظمة، يقوم بمطالبة التفاوض مع إسرائيل بشأن الضفّة الغربية. ولم تكن لنا اتصالات البتّة مع عرفات، وعليّ أن أذكر في المناسبة أنه قد جرت اتصالات لم تسفر عن نتيجة، لكن على مستويات دنيا.

إن مذكرة عرفات تبين التالي:

"يمكن تقدير حظ إسرائيل بتسعة وتسعين من مائة، بإلحاق الهزيمة بالسوريين والمصريين، في الأيام القريبة القادمة. فعلى الولايات المتحدة إذاً عدم التدخل، أو تقديم أي عون لإسرائيل، قبل انتهاء الأعمال العدوانية. وعلى الولايات المتحدة أيضاً، أن تسعى وبالسرعة المكنة، لإحلال وقف إطلاق نار، دون شروط".

وهذا يتيح لنا التفكير، بأن العرب الذين أنقذوا كرامتهم باجتيازهم مواقع ما قبل الحرب، دون أية مساندة، هم على استعداد لبدء مفاوضات حقيقيّة، حتى في حال خسارتهم المعركة، كما يرى عرفات. وعلى حسب قول عرفات أيضاً، فإن منظمة التحرير الفلسطينية، راغبة في الاشتراك بهذه المحادثات، محتفظة بحق تسوية حساباتها مع الأردن عن عام ١٩٧٠. وإذا أخذنا الأمر بعين الاعتبار فإن هذا يعني، أن منظمة التحرير الفلسطينية، توافق على مصالحة إسرائيل ولا ترضى بالسلام من الأردن. وهنا يعد عرفات بعدم القيام بأية أعمال عدوانية ضد الشخصيات أو المنشآت الأمريكية، ما لم تُقدم الولايات المتحدة، وقبل نهاية

الحرب، على عمل كبير في إعادة تسليح إسرائيل. فهل كان عرفات مؤمناً بما يقول، أو أنه كان يسعى فقط للاشتراك في المفاوضات؟ أو أنه يقوم مثل غيره في العالم لتجميد الوضع؟ وفي مثل هذه الحال، تذهب إعادة تسليح إسرائيل إدراج الرياح وتصبح سبباً في تسريع انتصار حلفائه. ولم يكن لهذا الأمر أي تأثير، لأنني لم أعطه جواباً قبل نهاية الحرب.

وفي المساء، دققت أحداث النهار، وما حصل لدينا من تقدّم، وقررت الإبقاء على الاتصالات بجميع الأطراف. وكانت غايتنا الإبطاء في الإجراءات الدبلوماسية دون عرقلة، وتسريع العمليات العسكرية دون تدخل، ومن ثم فرض وقف إطلاق نار، قبل أن ينفذ صبر الأطراف ذات العلاقة، وخشية وقوع أحداث غير منتظرة تهلهل قماشاً نسجناه بأيدينا وباعتناء.

■ الخميس/ ١١ تشرين الأول ١٩٧٣

بات واضحاً مع بزوغ فجر الخميس الحادي عشر من شهر تشرين الأول أن دوبرينين لم يكن ليطلق تهديداته جزافاً. ففي صباح هذا اليوم، كانت عشر طائرات سوفيتية جديدة تصل سورية. وللحقيقة فإن جسر موسكو الجوي. أخذ يمتد الآن إلى مصر، وحتى إلى العراق. ثم علمنا أثناء النهار، أن ثلاث فرق من الجيش الأحمر، ستنقل جواً، وضعت في حالة التأهب.

كما أن استراتيجية إسرائيل توضحت أيضاً صباح هذا اليوم. لأن إسرائيل قد اجتازت خطوط ما قبل الحرب، على الجبهة السورية، كما أن الطلعات الجوية أخذت تتقدم في الأراضي السورية. ونقل على لسان مراسلي الصحف أن وزير الدفاع، موشيه دايان، صرّح أن الجيش الإسرائيلي يتجه الآن نحو دمشق. وهذه المكاسب تعتبر بمثابة دعم لاستراتيجيتنا المرسومة، شريطة أن يكون الإسرائيليون صادقين في إيرادها.

وعلى كل حال، كنا أوقفنا الإجراءات السوفيتية، منذ أكثر من أربع وعشرين ساعة بشأن وقف إطلاق النار، وهذا موقف يعسر علينا السير فيه، إذا أعلنت إسرائيل أنها تتّجه نحو عاصمة بلد حليف للاتحاد السوفيتي. فأوضحت الأمر لشاليف في الساعة الحادية عشرة والنصف، قائلاً له:

"لا يليق بكم أن تطالبوني من جهة، بالإبطاء في إجراءات الأمم المتحدة، ومن جهة أخرى، تسمحون لدايان أن يعلن في الإذاعة والتلفزيون أنكم متجهون نحو دمشق، فكيف أستطيع والحالة هذه، إيقاف عمل الأمم المتحدة، عندما يعلن

وزير دفاعكم إعلاناً من هذا النوع؟ فإن هذا يثير الارتياب بشكل واضح، ومن ثمّ عدم الثقة".

أما أنا فأكملت مماطلة دوبرينين، واستنبطت هذه المرة عذراً، بوجوب أخذ رأي إسرائيل والأطراف الأخرى، قبل تقديم اقتراح وقف إطلاق النار. وفعلاً فقد كنت أقوم بمحادثات عاجلة مع إسرائيل، ولكن ليس بشأن وقف إطلاق النار، لأننا كنا معرّضين إلى احتجاجات الرأي العام، التي تتعالى يوماً بعد يوم، ويقوم بها عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون. والكثير من كتّاب افتتاحيات الصحف، الذين كانوا يزعمون أننا نؤجل وعن قصد إعادة تسليح إسرائيل، وأن السوفيت يستخدمون الانفراج السياسي لإلهائنا. وهذه التهمة الأخيرة تفتقر إلى الحقيقة، لأننا نحن الذين نماطل السوفيت لإفساح المجال لإسرائيل بترميم أوضاعها، فهي تهمة جد مغلوطة. لأني أنا وهيغ، وسكاوكروفت وسيسكو كنا نعمل المستحيل لتأمين إيصال العتاد لإسرائيل، وتوجهنا إلى جميع الشركات العالمية، والتي لا ارتباط لها معنا، لإقامة جسر جوي، متجاوزين ما كانت تدعيه إسرائيل، أنها ستستعيد سيطرتها على الجبهة السورية قبل وصول العتاد إليها.

وفي الوقت ذاته كنا ندرس حماية إسرائيل من أي هجوم خارجي. ولقد تشوّشت الأفكار إلى درجة دفعت بنيكسون أن يحذّر دينيتز ويعتبره مسؤولاً شخصياً، عن تلك المقالات التي لا تزال تزدهر في الصحف، على مدى الأيام. فاعتبرته تحذيراً فارغاً لا يمكن تصوّره.

وفي وقت متأخر من هذا اليوم، الحادي عشر من شهر تشرين الأول، استدعاني ادوارد هيث، رئيس وزراء بريطانيا، وأعلمني أن هناك ضغوطاً تزداد يومياً وتمارس ضد الملك حسين، ليقدم على شيء تجاه اخوته العرب، ففكر حسين

بإرسال فرقة مدرّعة إلى سورية بنوع لا يغيظنا، ويتمنى إطلاع إسرائيل على ذلك، حتى لا تقوم بهجوم ضدّ الأردن.

ليس هناك مكان في العالم، خارج الشرق الأوسط، يمكنه أن يتصور أن محارباً يطالب خصمّه أن يأذن بمهاجمته. وهذا ما سخر منه دينيتز، عندما أبلغته هذا الاقتراح، وحمله على القول: "هذا يعني دخول الحرب، حسب الرغبة". ولابد من التنويه أن جواب إسرائيل الذي ورد في اليوم التالي كان بالنفي.

لا يستطيع أحدنا التصوّر أن شعباً يقاتل في سبيل بقائه، يمكنه الموافقة على دعم وتعزيز عدوّه. لكن إسرائيل في جوابها لا تهدّد بالانتقام من الأردن، ولا بتوسيع الحرب إلى حدوده، وصدف أني تلقيت جواب إسرائيل في الوقت الذي كان فيه حسين يتصل بي، لإعلامي بما سبق، قائلاً: أن مهلة الثماني والأربعين ساعة، التي كنت قد طلبتها يوم الأربعاء الماضي قد انتهت، وعلى الأردن أن يقوم بأي عمل، قليل الإثارة، فيرسل فرقة إلى سورية. وعليّ الآن موازنة الأهداف العراقية السوفيتية، واحتواء الكارثة، في أضيق حدودها الممكنة. فأجبته ودعوته إلى متابعة جهوده لاحتواء النزاع وتحجيم تداعياته. وعلينا أن نعمل جميعنا في سبيل وضع حد لحالة صعبة وخطيرة. ولا يخالجني شك البتّة، أننا برباطة جأشنا وشجاعتنا، لابدّ أن نتوصل إلى عمل بعض الخير للشرق الأوسط، وقلت له أيضاً أني طلبت من إسرائيل التحلّي بضبط النفس، ومن المفروض أن قواته أيضاً تسلك طريق الحذر والتبصّر.

وفي أمسية اليوم الحادي عشر من تشرين الأول، تلقّيت مذكرة أخرى من حافظ إسماعيل يطالبنا بتحذير إسرائيل من قصف أهداف مدنية مصرية في دلتا النيل. ويذكر فيها أن أكثر من خمسمائة مصري، قتلوا أو جرحوا في هذا القطاع.

وأعلمته في جوابي الذي بعثت به إليه في اليوم التالي: أننا سنؤكد على إسرائيل بعدم قصف أهداف مدنية، واغتنمت الفرصة للفت انتباهه إلى نقطتين أخريين فقلت أن هناك مقالات كاذبة تصدر في الصحافة المصرية، من حيث وجود وحدات أمريكية، مشتركة في القتال، وحذّرته من أية محاولة تفسح المجال أمام السوفيت وتسوّغ لهم الدخول في المعركة. وسيكون لمثل هذه المبادرة نتائج خطيرة، لا نقبل بفرضها علينا أبداً، وليست هي بصالح مصر. كما أنني ذكرت السادات وللمرة الثانية وبوساطة إسماعيل، أن مصر لابدّ أن تكون في نهاية الأمر بحاجة الولايات المتحدة إذا أرادت القيام بمفاوضات جادة بعد الحرب، تكلّل بالنجاح:

"ليس هناك أية قوات أمريكية مشتركة في العمليات الحربية، ولن تشترك في المستقبل، ما لم تتدخل قوات أجنبية على الصعيد العسكري. إن الولايات المتحدة لا تزال على استعداد وبطيب خاطر، لدراسة كل اقتراح مصري يهدف إلى وقف الأعمال العدوانية. سنحاول أن نكون عند حسن ظنكم حالما تضع الحرب أوزارها. ومهما تكن الضغوط الحالية والتي لابدّ منها، فإن الولايات المتحدة ترجو ألاّ يغيب ذلك عن فكر أي من المعسكرين".

■ الجمعة والسبت/ ١٢ و١٣ تشرين الأول ١٩٧٣

يجدر بنا أن نتفهم جيداً ما هي عليه العلاقات بين الشرق والغرب الآن، إذا أردنا فهم أول مؤتمر صحفي، أقمته خلال الحرب، يوم الجمعة الموافق للثاني عشر من تشرين الأول. والذي تعرّضت فيه لانتقادات. وخضعت أقوالي لمغالطات عديدة، بسبب عدم تسليمي بزوال الانفراج السياسي الدولي، فيما كنت ألفت نظر السوفيت إلى أنهم وصلوا إلى حدود يجب ألا يتجاوزوها. وهجوم شفهي ضد موسكو، ربما سارع في حدة الأحداث، في حين أننا نهدف إلى إيقافها. وموقف كهذا ربما قادنا إلى مواجهة عسكرية، غير واردة في خطّة استراتيجيتنا. ولهذا السبب فقد انتقيت من العبارات ألطفها:

"لم نقم وزناً لنداء السوفيت إلى الرئيس الجزائري، كما أننا لم نقم وزناً للجسر الجوي، لكن لم يخطر ببالنا أبداً، عدم تقدير مسؤولية السوفيت لما يقومون به، وهذا ما بيّنته يوم الاثنين الماضي، أن ما يعملون ربما يعرّض الانفراج السياسي إلى الخطر. وعندما نبقى نحن وهم مصرّين على الانفراج، فإننا في هذه الأزمة الحالية، وغيرها من الأزمات، سنتحلّى برباطة الجأش، ولا نزال حالياً نسعى إلى تضييق شقّة الخلاف. ويجب وضعنا، وفي هذا الوقت بالذات، في إحدى كفتي الميزان مع ما نحاول عمله بهذا الشأن، ووضع ما واجهنا من صحافة الاتحاد السوفيتي، وسلوك ممثليه في مجلس الأمن الدّولي، في الكفة الثانية".

وفيما يتعلّق بالجسر الجوي، أكملت كلامي بحكمة ولوّحت بالتهديد:

"لا يزال الجسر الجوي السوفيتي في وضع معتدل، وليس هو بقليل، بل هو

عمل فيه خطورة. ويمكن الحكم عليه، من خلال نتائجه المباشرة، في سير العمليات الحربيّة. "وفيما يتعلّق بنا، فإنكم تعلمون أننا نحتفظ بعلاقات عسكرية مع إسرائيل، ولا نزال، كما أننا نتبادل وجهات النظر معها، حول المستجدّات في الأحداث الطارئة".

وهنا تساءل صحفي، عما يحدث، إذا هدّد العرب بقطع النفط، وهل سيكون لهذا التهديد تأثير، على القرار الذي اتخذتموه حول إعادة تسليح إسرائيل؟ فأجبته:

"لقد قمنا بجهود كبيرة، أثناء الأزمة الحاضرة، للتعرّف على نوايا العرب الحقيقية، ووجهات نظرهم. ومن جهة أخرى، علينا إكمال مساعينا في طرق أمينة وثابتة ونتحمل النتائج".

وعندما سئلت، عمّا إذا كانت الولايات المتحدة على استعداد أن تظهر بمظهر القوّة في هذه المناسبة، كما فعلت عندما حدثت الأزمة الأردنية عام ١٩٧٠، فأجبت بإنذار يكاد يكون مكشوفاً: أن الأوضاع غير متماثلة أبداً، لكن المبادئ الأساسية والسياسية التي سلكناها في ظل حكومتنا الحاضرة، ستبقى ثابتة.

ومن ثمّ عرضت علناً الاستراتيجية التي أطلعت عليها زملائي سرياً في السابق: "بكل تأكيد، لم نركض في عدة ميادين، ولم نفتّش على شيء يجرّنا إلى المجابهة، ويقّوي أسباب النفور، ويباعد إمكانية التسوية. لا يزال هدفنا هو في وضع حد للأعمال العدوانية، بنوع يسمح لنا بالبقاء على اتصال بجميع الفرقاء، ومعهم الأعضاء الدائمون في مجلس الأمن الدولي، ولا سيما بعد انتهاء الأعمال العدائية. ونعتقد فعلاً التوصل إلى تقديم معظم خدماتنا لإحلال سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط".

حاورت نيكسون في صباح هذا اليوم الجمعة، حول انتهاء الأسبوع الأول للحرب. وكان مشغول البال باختيار نائب رئيس جديد، وهذه أول مرة يسعى رئيس إلى تعيين خلفه الخاص. ثم بينّت له ما وصلنا إليه، من حيث استئجار وسائل نقل لإقامة جسر جوي، يوصل العتاد الحربي لإسرائيل، في حين أننا نجمد الاقتراح السوفيتي حول وقف إطلاق النار، منذ أكثر من ثمان وأربعين ساعة.

وفي غضون ذلك، أخذ دوبرينين يتململ، وأظهر عناداً قبل أن يقبل دعوتي لتناول غداء دعوته إليه، وعند حضوره، حمل معه مذكرة غير موقعة، تظهر انذهال زعمائه، ممّا أبديته من تذمّر حيال تصريحات السوفيت العلنيّة تجاه العرب. فقال: وأنتم ألا تصدرون تصريحات تجاه إسرائيل؟ (لم يخلّ سؤاله من اللغو، لكنه أوجز ما كان يدور على ألسنة الناس، عند اندلاع الحرب). وتتضمن المذكرة أيضاً تساؤلات حول تسيير الأسطول السادس باتجاه الشرق، وعليه أن يلتقي بالأسطول الروسي قرب سواحل جزيرة كريت، ثم ينفصلان كل في وجهته. ولم تكن هذه سوى ملاحظات بسيطة، وكاد صبر السوفيت أن ينفذ. وقطّب دوبرينين حاجبيه، عندما بيّنت له، أن الاتحاد السوفيتي، وضع فرقاً من تلك التي تُحْمل جواً في حالة تأهب. ولا شيء يغيظ الموظفين السوفيت، سوى قوة إطّلاع أجهزة مخابراتنا، ويحدث هذا للدبلوماسيين الذين لا تطلعهم بلادهم على ما تجريه، حين تُعد فرقها العسكرية. فتحمّس عندئذ دوبرينين وأجاب: لن يبقى الاتحاد السوفيتي مكتوف اليدين، أمام تهديدات تهدّد دمشق. وإذا تابعت إسرائيل تقدمّها، ربما يكون ذلك سبباً في أن تفلت الأمور من يد الجميع. فحذّرته قائلاً أن كل تدخل سوفيتي، سوف يصطدم برد فعل يدمّر لحمة العلاقات الأمريكية ـ السوفيتية.

كانت إسرائيل قد أبلغتنا، قبل المؤتمر الصحفي الذي عقدته، أنها على اتفاق

بالرأي معنا، منذ الآن فصاعداً، بتقديم اقتراح لوقف إطلاق نار مكاني. فوثقت بهذا الوعد، لكني رغبت في التأكد من عدم وجود عائق في المستقبل، فسألت عن التوقيت. فأجابني شاليف في الساعة الخامسة عشرة والربع، أن إسرائيل تفضّل ولا تؤكد على طرح القرار على التصويت، قبل ظهيرة بعد غد السبت. وأصبحنا قادرين على طرح القرار وبدء المشاورات حسب إرادتنا. وكلمت إيبان الساعة السابعة عشرة والدقيقة الخمسين في نيويورك، أننا نهدف إلى تأجيل التصويت إلى ما بعد الظهر، وليس قبله. ولضمان نجاح عملنا، دعونا إلى اجتماع في واشنطن، في الساعة التاسعة، بعد غد السبت المصادف للثالث عشر من شهر تشرين الأول، اليوم الثامن لبدء الحرب، واتصلت في الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الخمسين، بسفير بريطانيا العظمى. اللورد كرومر، لأطلب إليه، أن تقدم بلاده، بعد غد القرار المتعلق بوقف إطلاق النار، لمجلس الأمن الدولي. فأجاب كرومر أن تلك فكرة حسنة، لكنه لم يتلقّ أيّة تعليمات بهذا الخصوص. وعلينا أن ننتظر ما سوف يقوله رئيس وزرائه أدوارد هيث، ووزير شؤون خارجيته، السير آليك دوغلاس ـ هوم.

وكان السفير السوفيتي يولي فورونستوف، قد كلمني في الساعة التاسعة عشرة طالباً الموافقة على مقابلة عاجلة لدوبرينين، الذي على حد قوله يحمل مذكرة عاجلة، ويريد إبلاغي إياها. ولما كان نيكسون عازماً على إعلان من اختاره ليكون نائبه الجديد، بعد ساعتين أي في الساعة الحادية والعشرين وكان علي الوصول إلى البيت الأبيض في الساعة العشرين والنصف (علماً أن هيغ أبلغني فيما بعد الظهر، أن اختيار الرئيس نيكسون قد وقع على جيرالد فورد) وفي هذه الحال كنت أستطيع مقابلة دوبرينين في وزارة الخارجية ولمدة خمس عشرة دقيقة، أي في الساعة العشرين.

أعلمت دينيتز في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الخامسة والأربعين، أن قد وردت مذكرة من الاتحاد السوفيتي. فأجابني أن إسرائيل قلقة جداً من التهديدات السوفيتية، التي كان دوبرينين قد نقلها إليّ خلال الغداء. وأكمل دينيتز حديثه قائلاً: أن غولدا كلّفته إبلاغي أن باستطاعتي تقديم قرار وقف إطلاق النار هذا المساء، إذا رأيت ذلك موافقاً. ترددت لأن ما من أحد قادر على تنفيذ مثل هذه الإجراءات في فترة قصيرة كهذه. وكل استعجال من قبل الأمريكان يثير ضغوطاً. وقلت له أخيراً، يفضل عدم المبالاة بالتهديدات وكأن شيئاً لم يكن.

لقد أصبح الوضع حرجاً، إذ أن السوفيت، ربما أخذوا يلمسون بعض بوادر الانتصار. أو أنهم كانوا يخشون تثبيط همّة أصدقائهم. وسبق وصول دوبرينين إلى مكتبي تصريح علني، صادر عن موسكو، كان شديد اللهجة ويحمل بين طياته تهديداً. كانت تاس الوكالة السوفيتية للأنباء، تؤكد التصرفات الإجرامية، التي قام بها الجنود الإسرائيليون، من حيث قصف أهداف مدنية سورية ومصرية، كما صرّحت (تاس)، أن الاتحاد السوفيتي، لا يستطيع من الوقوف موقف "عدم المبالاة" إزاء ذلك. ووصل دوبرينين بوقاره المعتاد، وكان ينقل إلي لا مذكرة واحدة بل اثنتين، وهذه وتلك تتضمنان المعنى نفسه. وكانت المذكرة الأولى تولي اهتمامها للقصف الوحشي من قبل الطيران الإسرائيلي ضد مراكز آهلة بسكان عزّل، في مصر وسورية، بما فيها دمشق. وجاء بها: أن مواطن الشعب الإسرائيلي، لن يكون في مأمن إلى الأبد.

وكانت هذه المذكرة تحتج كذلك وبعنف، ضد مهاجمة باخرة تجارية سوفيتية من قبل طربيد إسرائيلي في مرفأ سوري. وختمت بتهديد آخر: "سيأخذ الاتحاد السوفيتي وفي حال طبيعية، كافة الإجراءات الضرورية، للدفاع عن منشآته ووسائل نقله الأخرى".

أما المذكرة الثانية فلم تكن تخلو من الصلف. كان الاتحاد السوفيتي قد أقام جسراً جوياً، باتجاه سورية ومصر، واستخدم لهذا العمل أربعاً وثمانين طائرة خلال ثلاثة أيام واعترضت على هذا الإجراء منذ اليوم العاشر لشهر تشرين الأول. وهذا لم يمنع السوفيت عن إجابتنا واتهامنا في الوقت ذاته بإمداد إسرائيل بالسلاح، ملمّحين بذلك، كما يظهر، إلى طائرات العال السبع، التي قامت برحلات مكوكية لنقل العتاد.

رفضت هذا الاحتجاج بقوّة. أما بالنسبة للقصف، فقد أعدت على مسامع دوبرينين ما كنت قد أبلغته لحافظ إسماعيل، في أننا لا نشجّع أبداً مهاجمة الأهداف المدنية. ولفت انتباه دوبرينين، إلى أن كل تدخل سوفيتي، مهما تكن دوافعه، ستردّه قوة أمريكية (ومفعول هذا التهديد يكون أقوى، لو قيل في تاريخ آخر) وفعلاً، فان الكونغرس صوّت هذا اليوم بالذات على قانون يقال له (سلطات الحرب)، وغايته تقليص السلطات التقديرية المخولة لرئيس الجمهورية، من حيث إرسال جيوش أمريكية للتدخل. كما بيّن دوبرينين أن مذكرة موسكو، تؤكد رغبتها في توجيه مجرى الأحداث، نحو وقف إطلاق النار في الشرق الأوسط، كما نوّهت به المذكرة التي تلقيناها قبل يومين. فأجبته أني طلبت من بريطانيا العظمى دراسة إمكانية تقديم قرار حول وقف إطلاق النار، بعد غد.

وما كاد دوبرينين يخرج، حتى استدعاني كرومر، ليبلغني موافقة لندن، على تقديم قرار من هذا النوع، على أن يكون نجاحه مضموناً. وبصراحة، كان الشك مستحوذاً على الجميع من عدم مصداقية القرار الذي نحن بصدد طرحه في مجلس الأمن. وكان الانطباع السائد أن مصر لن تقبل بوقف إطلاق النار، ما لم تتعهد إسرائيل بالعودة إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧، (وهذا ما أكّده لنا حافظ

إسماعيل أيضاً). ولندن كانت في شك من نيّة إسرائيل. ومعلوماتي الخاصّة أن إسرائيل غير راغبة في التقدم.

ولما كنت اعتقد بوثوق العلاقات بين موسكو والقاهرة، لذا طمأنت كرومر أن دوبرينين لا يستطيع التقدم بطلبه هذا دون موافقة مصر، وأني سأتأكد من ذلك، بعد عودتي إلى البيت الأبيض، حيث من الممكن الالتقاء بدوبرينين، في احتفال الإعلان عن تعيين نائب الرئيس الجديد.

ولم يبق لدي سوى وقت بسيط، أتمكن فيه من إطلاع دينيتز على المذكرتين السوفيتين. وإعلامه في الوقت ذاته، أننا عازمون على تسيير حاملة طائرات أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط، وعليه أن يعتبر هذا الأمر صادراً عني شخصياً، إذا لم أحصل بعد على موافقة الرئيس. وأردفت قائلاً: أننا سنتدخل حال ظهور قوات سوفيتية من طيران وفرق عسكرية في ميادين القتال. وضربت له موعد لقاء في الساعة الثالثة والعشرين.

جرى الاحتفال في القاعة الشرقية من البيت الأبيض، وكانت مشاهده وما يجري فيه غير حقيقية وغير طبيعية، في وسط جو مرارة يسيطر على الجميع، مبعثه فضيحة واترغيت. وكان الحفل شاملاً زعماء الكونغرس، والحكومة، وأرفع موظفي البيت الأبيض، وعمداء الهيئات الدبلوماسية (ومنهم دوبرينين، الذي يشغل المرتبة الثانية من حيث القدم بين السفراء المعتمدين في واشنطن).

ساد الاحتفال جوّ من الترقّب، فكان الحضور وكأن على رؤوسهم الطير، وكلهم يعتقدون أن هذا التعيين، لن يحل الأزمة الدستورية القائمة، وربما نصل بسببها إلى الأسوأ. وأن الانتخاب الذي وقع على رجل شعبي مثل جيرالد فورد،

أضفى جّواً من الحماسة، أبعد ولوقت بسيط ذاك القلق المهيمن حول مصير البلاد، حيث السلطة التنفيذية، لا تزال في طريقها إلى التبعثر والتفكّك. ولا يجوز لي أن أنكر أن كل واحد من الحضور استطاع تناسي ما فيه من خواطر القلق عند سماعه لتلك العواطف الصادقة الصادرة عن شخصيّة نائب الرئيس، والتي كانت بمثابة خلاصة العواطف الأمريكية. وكأني بجميع الحاضرين قد استبقوا الأمور، ومن خلال حدسهم، أكدّوا أن هذا الرجل سوف يصبح رئيس بلادنا. ولسوء الحظ فإن الغبطة فارقت النفوس حال انتهاء الاحتفال.

وفيما نحن خارجون من قاعة الاحتفال، تبادلت بعض الكلمات مع دوبرينين، وقلت له: لدى لندن انطباع أن السادات لن يرضى بوقف إطلاق نار مكاني. فأجاب وهو دائماً على مستوى الظروف، أني لا أستطيع بل ليس لي حق بإغداق الوعود بقبول مصر وقف إطلاق النار. ولكنه قادر على التأكيد، بل على المراهنة بقبول مصر بقرار من هذا النوع حال طرحه. وبالنسبة لي فإن هذا لم يزدني سوى قناعة، بأن السوفيت كانوا على علم بقبول مصر بقرار وقف إطلاق النار، دون اشتراكها في وضعه.

ذاك كان موقفي الذّي اتخذته، عندما نقلت لكرومر الحديث الذي دار بيني وبين دوبرينين، وأعلمني أن هوم سيتصل به في بداية اليوم التالي، فبقيت أمامه فرصة ثماني ساعات لأخذ رأي عدة عواصم. ورجوته أن يؤكد على عبارة "وقف إطلاق النار" قبل أن يتبادر لأحدهم تغيير رأيه.

وإذا تمكن الفرقاء من تغيير رأيهم، فلابدّ أن يبقى لديهم رأي آخر، وهذا سيكون حتماً غامضاً غموض أجوبتهم، بل استعداداتهم العسكرية. أما مصر فبدل السعي وراء وقف إطلاق النار، أخذت تستعد للقيام بهجوم واسع في جبهة

سيناء، لتصبح سيدة الموقف على طول الساحل الشرقي لقناة السويس. واجتازت المدفعية القناة، وحسب المعلومات التي وردتنا، لحقت بها فرقتان مصفحتان. ولم أكن اعتقد من جهتي أن المصريين يخاطرون بدباباتهم بعيداً عن منطقة تحميها مظلة من المضادات الجوية من صواريخ أرض جو. وبهذا فإني على ثقة أن مشروع قرار وقف إطلاق النار، قد دُفن قبل أن يولد. وفي الوقت ذاته، كان الجسر الجوي السوفيتي يزداد خطورة. ويمكننا أن نحصي سبعاً وستين طائرة، قامت بطلعاتها، حتى الثالث عشر من تشرين الأول متوجهة نحو مصر. فهل كانت غايتها تلطيف مرارة قرار وقف إطلاق النار، أو لتشجيع المصريين على تنفيذ مخططاتهم؟ ولقد علمنا فيما بعد أن السوفيت طلبوا من إيران السماح لطيرانهم المتوجه نحو العراق وسورية، بالمرور فوق الأراضي الايرانية. لكن الشاه رفض ذلك ما لم تكن تلك الطائرات تحمل قطع غيار لمعسكر الطائرات الروسية الموجود في سورية.

وفيما إذا احتاجت هذه الرواية إلى الصحّة، فإن الشاه وقف إلى جانبنا، في الوقت الذي كنا نحتاج إليه فيه، لكننا لم نردّ له هذا الجميل.

فيما كنت انتظر جواب هوم من حيث المشاورات التي يجريها، وإذا بدينيتز يدخل إلى مكتبي في البيت الأبيض، في الساعة الثالثة والعشرين والدقيقة الثلاثين من مساء يوم الجمعة، ويغوص في محادثة إجمالية تشمل جميع مواضيع الأسبوع. توصلنا خلالها إلى إقامة جسر جوّي يحمل الطابع العسكري.

إن مكتب مستشار الرئيس للقضايا الأمنية، كان قد نقل قبل ثلاثة أعوام من القبو إلى الطابق الأرضي، إلى شقّة ذات جدران عالية، ونوافذها غريبة الصنع إذ هي تبدأ من الأرض حتى السقف، وهذا يوهم الناظر أن المكتب أكبر من حقيقته.

ويظهر وكأنه امتداد لذلك البساط الأخضر السندسي الممتد على طوال الأروقة باتجاه شارع بنسلفانيا، فترى أنوار السيارات دون سماع ضجيجها.

ومن خلال هذا الجو الهادئ المريح، أخذ دينيتز يبيّن لي ما هو عليه الوضع العسكري الإسرائيلي، مستعرضاً الإجراءات التي اتخذناها في هذا السبيل، ووصل أخيراً إلى المطالبة باتخاذ ما يلزم حول وقف إطلاق نار مكاني. وأمضى بضع دقائق في وصف مواقع القتال على الخرائط الموضوعة أمامنا. وفهمت من خلال ذلك أن القوات الإسرائيلية لم تتقدم خطوة واحدة طيلة ذلك اليوم، وأني كنت على خطأ عندما جمُدت النشاط الدبلوماسي، ثم أجرينا الحوار التالي:

كيسنجر: هل تريد أن نبدأ العمل الدبلوماسي هذه الليلة ؟ وهل قمتم بهجوم ما هذا اليوم؟ لديّ انطباع بعدم القيام بشيء ما؟

دينيتز: لا.

كيسنجر: عندما ندقّق في تحركاتكم، اعتقد أن حالة الاستعجال تختفي، لا سيما إذا لم يكن هناك أي نشاط عسكري جديد ليوم غد.

دينيتز: لابد لي أن أبيّن لكم، أن اتخاذ قرار بالهجوم أو عدمه يتوقف، على استطاعتنا العسكرية. إذ كنا نفكر في إسرائيل بإمكانية استخدام وسائل هجومية جديدة كالقذائف والصواريخ وغيرها ......

كيسنجر: هذا ما خطر ببالي، ولكن ما الذي يتعارض مع هذا ؟؟

عندئذ بيّن لي دينيتز، أن محادثة صعبة جرت بينه وبين شليسنجر في الساعة الثامنة عشرة. ولم يستطع الحصول على فكرة واضحة من وزير الدفاع حول العون، الذي وعدنا به من حيث تسليح إسرائيل.

أدهشني ما سمعت، إذ أن شليسنجر، كان قد أعلمني سلفاً في الساعة السابعة عشرة والدقيقة الأربعين، انه سيقدم لإسرائيل عن طريق دينيتز ترسانة أسلحة يقدر ثمنها بخمسمائة مليون دولار، متضمنة ست عشرة طائرة فانتوم من طراز (F4) وثلاثين طائرة سكايهوك من طراز (A4) ومائة وخمس وعشرين دبّابة (بما فيها خمس وستون من طراز (M60) وثلاث بطاريات صواريخ هوك مع مجموعة من الأسلحة الأخرى).

عندما سمعت هذا التعداد، قلت لشليسنجر بلهجة المازح، لا تنسّ من اعطائها (أي إسرائيل) استحقاقات البيت الأبيض!!

ويذهلني دينيتز ببث شكواه من تأخير وصول هذه الأسلحة وأن الشركات المنوي استئجار وسائل نقلها ستتأخر ثلاثة أيام. وبسبب عدم وصول هذه الأسلحة في حينها، فإن إسرائيل ستفقد ما لديها من احتياطي، حتى يومين أو ثلاثة، ولذا فإن الهجوم ضد سورية سيؤجّل.

تبيّن لي أن هناك عدة نقاط تلفّ هذا الغموض. لأن دينيتز كان قد طالب وبإلحاح بالعمل على وقف إطلاق النار ومنذ بداية اليوم دون إيقافي على أية نقاط توضيحية حول الحاجة والضرورة إلى العتاد (وفعلاً فإن تقريراً من مكتب المباحث ورد في صباح اليوم التالي، جاء فيه أن إسرائيل قادرة على القيام بعملياتها العسكرية المعتادة، لمدة عشرة أيام). ومن جهة أخرى فقد كشفت تقديرات سابقة أن إسرائيل تعاني نقصاً حقيقياً في اعتدتها العسكرية، ولا يجوز لها بعد أن تخاطر.

استدعيت شليسنجر على الفور، فأبدى استغرابه، وعدم تصديقه أن جيشاً يفتقر إلى التسليح بين عشيّة وضحاها. (ولقد صارح هيغ بعد فترة من الزمن أن هناك مناورة من إسرائيل ورجالها، ترمي إلى التسلّط علينا أكثر مما هي حاجة

ملحة للسلاح). وليس ثمة ما يدعو الآن إلى الإسراع. وتصريح واحد عن عزمنا على تسليح إسرائيل كافٍ لردع السوفيت وإيقاف جسرهم الجوي، وإقناع العرب، بعدم توسيع رقعة الحرب إلى دول أخرى.

وفي تمام الساعة الثانية عشرة والدقيقة الخمسين من الليلة ذاتها، وبعد أن تشاورت مع هيغ وشليسنجر، صممّنا على اتخاذ ثلاث قرارات احتياطية. الإسراع في إرسال العتاد الذي وعدت به إسرائيل على متن عشر طائرات نقل، على أن ينقل هذا العتاد إلى جزر الآسور، حيث يسارع الإسرائيليون إيصاله إلى بلادهم بطريقتهم. فتكون المسافة قد تقلصت بهذه الحال، وزاد حجم الحمولة، وقلّ استهلاك المحروقات. وتابعنا السعي للحصول على وسائل نقل مستأجرة، وإذا حدث ووجد ما يخشى من ردّ الفعل العربي تجاه ما نقوم به، فجوابنا واحد، أن إطالة أمد الحرب هو السيف المصلت فوق رأس مصالحنا، بالإضافة إلى النجاحات التي يحرزها فريق المتشددين في المنطقة. ووافقني شليسنجر على فكرتي. وبعد الساعة الواحدة صباحاً بقليل أطلعت دينيتز على ما اتخذنا من قرارات.

أما بشأن وسائل النقل، فكان أمرها يحتاج إلى الحل، فمن هو الذي سيدفع الأجرة هل هي إسرائيل أو أمريكا. لأننا ربّما اضطررنا إلى استخدام عدد من طائرات النقل العسكرية مثل طائرات الجامبو (س ـ ٥أ) ذات الطيران البعيد المدى. وبعد بضع ساعات رقاد حتى صباح السبت الثالث عشر من شهر تشرين الأول، عقدت اجتماعاً قصيراً مع ايبان. لأن القدس لم تعلمه بالتفصيل بما حدث في الليلة السابقة (في حين أن دينيتز كان معه) فأعدنا الحديث عن إقامة الجسر الجوي. فاستغرب حينئذ ايبان كيف أن العرب سيغضون أبصارهم عن طائرات نقل تستأجرها أمريكا، أو طائرات نقل عسكرية خاصّة بالجيش الأمريكي !!!

ومثل هذه القضيّة تجب دراستها عند اجتماع فريق العمل الخاص، الذي سينعقد في الساعة العاشرة والنصف، في قاعة لوبوانت في البيت الأبيض.

أجريت حديثاً مقتضباً مع نيكسون قبل الجلسة، فكان وضعه جيداً وكان لا يزال سعيداً، بتأثير المفاجأة التي أحدثها بتعيينه فورد، الذي سيكون حسب رأيه، مؤهلاً للنجاح، ولو لبعض الوقت، تجاه الكونغرس، وإن هذا الاختيار قادر على تهدئة خواطر هؤلاء الذين كانوا يريدون عزله، لأن الكونغرس لن يخاطر بإعطاء الشؤون الخارجية لرجل لا يزال قليل الخبرة، وهذا يظهر اهتمام نيكسون الكبير بمن قاموا ضدّه، ومدى الخسارة الكبيرة التي سببّها هو وبسابق تصميم. وعلى أية حال فإن فورد، حسب رأي نيكسون، لن يكون عقبة أمام هدفٍ يعتبره رئيسياً بالنسبة له وهو تعيين جون كونللي خلفاً له عام ١٩٧٦.

كان نيكسون لا يزال يتمتع بالحيوية، على أثر ظهوره أمام الجمهور الليلة الماضية، ولا يزال تصفيق الجماهير يرنّ في أذنه، عند إلقائه خطابه القصير. ولم يدر بخلده أن الترحيب والتصفيق كانا موجهين لفورد. وهو غير عالم أيضاً أن أية مناورات يقوم بها، لن تحسّن من وضعه. وللحقيقة فإن ما يظهره نيكسون ومثله فورد، لن يكون له اعتبار وتقدير، لأن تعيين نائب رئيس سيكون سبباً في تسريع سقوط الرئيس لا تأجيله. وهذا ما سوف يحدو بالديمقراطيين إلى التخلّص من نيكسون، لا سيما إذا كان خلفه الجديد فورد شخصيّة يمكنها إحراز نصر في انتخابات عام ١٩٧٦. ولدى دراسة مشكلة إقامة جسر جوّي، برهن نيكسون ومرّة أخرى عن شجاعته لأن البنتاغون، في الوقت ذاته، سمح بثلاث رحلات جبارة لطائرات (س ـ ٥أ) تستطيع أن تنقل كل منها ستين إلى ثمانين طناً من العتاد، وبصورة مباشرة إلى إسرائيل. فوافق نيكسون وألحّ على تنفيذ ذلك في الحال !!!

وانطلاقاً من هذه الإجراءات، تقرّر في اجتماع فريق العمل الخاص، التوجّه نحو اتخاذ قرار حاسم. فحضرت الاجتماع أنا وشليسنجر ونائبه بيل كليماتز، والاميرال موورير، وكين روش، وبيل كولبسي.

افتتحت الجلسة باسم نيكسون، وحذّرت أيضاً باسمه، أن كل مخالفة عمل عن سبق تصميم تدعو إلى طرد المسؤول عنها. وكنا بحاجة إلى إجماع الآراء حول نقطة ما، لأن الطريقة الفضلى والأمينة هي استخدام الطائرات التي تستأجرها إسرائيل. وعلينا في الوقت ذاته، استئجار هذه الطائرات باسم حكومة الولايات المتحدة. والتفريق بين هاتين الصيغتين: الاستئجار أو اللجوء المباشر للطائرات الأمريكية، قد يظهر أكاديمياً، ولن يجمع عليه رأي، والمهم العاجل هو تسليم إسرائيل طائرات الفانتوم (F4) وستتلقى منها عشراً اعتباراً من يوم الأحد، والأربع الباقية يوم الاثنين على أقل تقدير. حينئذ بادر شليسنجر إلى إعلام فريق العمل الخاص أن طلائع هذه الطائرات في طريقها الآن إلى إسرائيل.

وفي الساعة الثانية عشرة والنصف، كنت أعلم دينيتز، أننا عزمنا على إرسال طائرات النقل (C-5A) مباشرة إلى إسرائيل، بانتظار حل مشكلة الطائرات المستأجرة، ونقل طائرات العال لشحنات العتاد التي وصلت إلى جزر الأسور. وكل ما لا تستطيعه طائرات العال، فسوف ينقل على متن طائرات نقل أمريكية من طراز (C141) وأكدت له أيضاً أن إسرائيل ستتلقّى أربع عشرة طائرة فانتوم من طراز (F4).

صباح الأحد، وبعد أن مضى أربع وعشرون ساعة على بدء إقامة الجسر الجوي طالبنا نيكسون أن تتحمل الولايات المتحدة كامل مسؤولية هذه العملية العسكرية. وكعادة نيكسون. الذي تثيره الأزمات وتهزّه، قال: سوف يوجّه إلينا

اللوم بسبب فقد ثلاث طائرات، أكثر من ثلاثمائة، وهو على حق بما يقول، بالنسبة لطائرات (C-5A).

إن حكاية الجهود المبذولة في سبيل إعادة إمداد إسرائيل بالسلاح، اصطدمت بقضايا داخلية أمريكية واستراتيجية غامضة، لفّها ضباب من الاتهامات والإشاعات الكاذبة، فيجدر بي والحالة هذه أن أوجز تسلسل الأحداث، بدءاً من النداء العاجل الذي وجهته إلينا غولدا مائير، في صبيحة يوم الثلاثاء المصادف التاسع من شهر تشرين الأول. وتلقت إسرائيل مساء هذا اليوم ضمانات بتعويضها خسائرها. وانطلاقاً من هذا الضمان، أخذت تبدي عدم اهتمام في ما تستهلكه من عتاد حربي، ولا يظنّ أحد أن ذلك غاب عن بالنا.

لقد حملتنا التقديرات الإسرائيلية على الاعتقاد أن المعركة النهائية ستنجز يوم الأربعاء. ثم طرأ تقدير آخر إسرائيلي، فاعتبرها يوم السبت. وفي هذه الأثناء كنا استطعنا المطالبة بوقف إطلاق نار، كما اقترح دوبرينين الأربعاء صباحاً، ولم تقبل إسرائيل إلاّ يوم الجمعة.

أما هذه وقد تمّ، فلا شيء هناك يمنعنا، من تدبير حاجات إسرائيل الضرورية، من خلال الطريقة التي لا تعرّض للخطر مصالحنا القائمة مع الدول العربية، ولا سيما موارد البترول. إن الواجب يدعو المسؤولين عن أمن شعبنا، إلى تدارس جميع الاعتبارات الحيوية أسوة بالمصلحة العامة.

وإذا كان قد صدر عني أيّ إلحاح أكثر من زملائي، حول التسريع في إيصال حاجيّات إسرائيل، هو لأجعل تكافؤاً بين ما نعمل من حيث مساندة إسرائيل وتقريب أجل انتهاء المعارك، مع ما يقوم به السوفيت من إقامة جسر جوي لمساندة العرب.

في الواقع، أن كل ما كان يعترض إسرائيل، لم يكن ناتجاً عن بطء وصول الإمدادات التي لم تتأخر حسب معرفتنا، بل كان مبعثه العُجب الذي خلّفته لها ذكريات انتصاراتها السابقة. لقد أسست الاستراتيجية الإسرائيلية، على الهجمات الخاطفة التي قامت بها عام ١٩٦٧.

وعرف العرب، في غضون ذلك، أنهم يستطيعون الثبات، وتحسين مواقفهم ومواقعهم باتباع حرب استنزاف. فقد انكفأت جبهاتهم لكنّها لم تدمر كما كانت تظن إسرائيل وأوقعوا بخصمهم خسائر جسيمة لا يستطيع بلد كإسرائيل، لا يتجاوز عدد سكانها ثلاثة ملايين، تحملها برضا. ولذا فقد اضطرّت إسرائيل، إلى تعديل طريقتها الحربية، خلال الأسبوع الثاني للحرب، ساعدها على ذلك خطأ فادح ارتكبه المصريون، وبفعل التأثير النفسي، الذي حدث لدى الإسرائيليين أكثر مما هو لدى العرب، من جرّاء إرسال عتاد بالجملة من قبل أمريكا، تحوّل مجرى القتال وبصورة نهائية لصالح إسرائيل.

والحاصل، أن إقامة الجسر الجوي الأمريكي، جعل من تسلسل الأحداث، يؤثر على المسار الدبلوماسي، ويؤديّ إلى استشاطة غضب العرب. وبعد مضي يوم السبت الثالث عشر من شهر تشرين الأول، كان باستطاعتنا اتخاذ قرار تزويد الإسرائيليين بالسلاح، بمثابة رد حقيقي على الجسر الجوي الذي أقامه السوفيت، وكنا قادرين أيضاً أن نعزو ذلك إلى عدم قدرة موسكو بمتابعة مبادرتها في سبيل اتخاذ قرار لوقف إطلاق النار.

وفي الواقع عندما بدأنا بوضع اقتراح دوبرينين موضع العمل، يوم الأربعاء العاشر من شهر تشرين الأول، ظهر بوضوح أن ذلك الاقتراح كان وهماً.

بعد الحديث الذي أجريته مع البريطانيين، مساء الجمعة، رجوت الحصول يوم السبت الثالث عشر من شهر تشرين الأول، على جواب ناجع حول ما طالب به السوفيت من تقديم اقتراح وقف إطلاق النار. وكان تخطيطنا في أن يطلب البريطانيون، بعد ظهيرة هذا اليوم، مشروع اقتراح وقف إطلاق نار مكاني. وبعد أن أصبحت الساعة التاسعة والنصف، أخذ القلق يساورني، لأني لم أطلع على شيء جديد بهذا الخصوص. وفعلاً لقد خصّص ما بعد الظهر لقضيّة الشرق الأوسط ويجب أن يكون السير أليك قد أنهى مشاوراته.

فاستدعيت دوبرينين لأقول له: في حال عدم استلامنا جواباً إيجابياً من قبل البريطانيين حتى الظهر، سنحاول الطلب من استراليا، بتقديم قرار حول وقف إطلاق النار. فأجاب دوبرينين أنه ينوي الاستفسار من موسكو حول الموضوع وهو في الوقت ذاته لا يرى مجالاً للاختلاف. فأجبته أن لدينا مؤشّرات مقلقة، حول اعتزام المصريين على القيام بهجوم في سيناء، وحذّرته من أن خداعنا قد يكون سبباً حقيقياً لخلخلة علاقاتنا، لكن دوبرينين أردف قائلاً: أن علينا الاحتفاظ بمواقفنا وبما اتفقنا عليه، مهما تكن ردود الفعل غير المتوقّعة من قبل الفرقاء، ولا يعتقد أن باستطاعة أي عائق الحؤول دون ما اتفقنا عليه، عند عرض مجلس الأمن الدولي قرار وقف إطلاق النار.

وما كدت انتهي من التحدّث إلى دوبرينين، حتى كان السير أليك يستدعيني. وللتمكن من تفهم تأثير هذا الرجل، وما يحمل بين ضلوعه من نفس كبيرة، يجدر بي أن أقول كلمة عن رأينا فيه:

على الرغم من عدم تألق نجمه في المجتمع، فقد كان أعقل رجل دولة، وكان رجل دولة من طراز نادر، شخصيّة تسكت الخصم بصدق حديثها وثقة دعواها.

وكانت مصداقيته بادية للعيان، دونما حاجة لدليل. ولما كان رجلاً موثوقاً فكلامه مقبول ولو كان قاسياً. وحيث أن محاكمته كانت تصدر من تعقلّ، فإن آراءه الصادقة، كانت تشكّل جوهر المشكلة التي يشترك فيها. ومبعث احترام رجل الدولة مواهبة لا وظيفته، إذاً كان هوم يتمتع بالثقة التامة بل المطلقة. لم تكن فصاحته وتشدقّه عنوان محادثته، لكن تواضعه ولياقته هما ما يستدرج بهما محادثه إلى أحسن الحلول وأصدقها، من خلال حديث سقراطي مؤثر لا مجال لردّه. فهو صديق الولايات المتحدة الدائم. وهو المناضل الحقيقي في كل قضايا الحريّات المشتركة. ولم نهب مثل هذه الثقة لغيره.

أما عن رأي هوم في هذا المجال فقد قال: إن فكرة وقف إطلاق نار مكاني ليست سوى ضرب من الخداع. لأن السادات لن يقبل إلا أن تتعهد إسرائيل بالعودة إلى حدود عام ١٩٦٧. ولن يقبل اقتراحنا ويصبح نافذاً، ما لم يقبل السوفيت بالضغط على السادات ويقطعون عنه الإمدادات العسكرية، وهنا لابد من التشكّك بنوايا السوفيت في هذا المجال.

لكن هوم كان يفضل اقتراح تسوية من حيث وقف إطلاق نار مكاني، وتواجد وحدات دولية في الأراضي المحتلّة، وعقد مؤتمر دولي. وليس هناك أي أمل أن تقبل إسرائيل بمثل هذه الصيغة، التي هي على كل حال ليست في صالحها، كما هو مشروع السادات. ومن ثم تواجد القوى الدولية، لابد من إتباعه بانسحاب إسرائيلي مباشر حتى حدود ١٩٦٧، في حين أن القاهرة تطالب بتعهد مبدئي من هذا القبيل.

عندئذ بيّنت لهوم، أن هذا المشروع معقّد جداً ولن يحظى بمساندتنا، وفي الوقت ذاته، كلفت كرومر أن يوضح لهوم أننا سنستخدم حق الفيتو لدى تقديم مثل هذا الاقتراح.

ثم قابلت هوم وأقنعته أن مطالبة دوبرينين بتقديم اقتراح، كانت تستند إلى فرضية عدم رضى السادات بوقف إطلاق نار سابق لأوانه، لكنه يفضل قراراً يتخذه مجلس الأمن الدولي، مدعماً من قبل القوتين الأعظمين. ولا أعتقد حالياً أن السوفيت أخذوا يخاطرون بالابتعاد عنا وخسارة ثقتنا والإقدام على أي أمر غير ما كنا اتفقنا عليه، ما لم يكونوا قد قرّروا إماطة اللثام عن نوايا مدفونة لديهم.

فأي مغنم سوف يكسبون؟ لابد من القول أني حتى الآن لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال. والخلاصة فإن البريطانيين يتوقعون خسارة سياسية ولذا لن يقوموا بتقديم اقتراح وقف إطلاق النار. وكان هوم يعلّل ذلك بأن بريطانيا العظمى تتصرف هكذا، دون موافقة مسبقة من السادات، وليست هي على استعداد لتحمل مسؤولية ذلك تجاه العرب، دون تحقيق أية فائدة. وسيتأكد من ذلك لدى القاهرة.

فأطلعت دوبرينين مباشرة على وجهات نظر هوم، فانذهل. وأكد لي مجدداً أن الاتحاد السوفيتي لن يتقدم بأي قرار وقف إطلاق نار، مهما تكن أفكار السادات، والحل الوحيد والجديد للمشكلة، ألاّ تُقدم بريطانيا على تقديم أي قرار لا ترضى مصر عنه، وأردف دوبرينين قائلاً: علينا الآن مسايرة استراليا فأجبته بالموافقة على رأيه، وعلينا الآن انتظار أخبار جديدة من هوم.

وفي تمام الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الأربعين، استدعاني دوبرينين مجدداً ليقول لي: أن استراليا المتقلّبة ليست هي كما كنا نظن، فأخذني العجب. ولم يكن لهذا أي تأثير. لو أن موسكو راغبة بوقف إطلاق النار، وعازمة أن تضم إليها صوت السادات، لاستطاعت، ولا يهم حينذاك من يقدم الاقتراح. أن ابتعاد استراليا عن طرح الاقتراح، كان أشبه بمؤازرة لما جاء به هوم من حيث موقف

السادات، وليس السوفيت على استعداد، لتقديم ما سوف يكلفهم عدم رضى السادات (ما لم تكن كل هذه القضيّة تمثيلية وضعت بحنكة وقابليّة).

فأجبت دوبرينين، أن النصر ليس بسهل في الشؤون الدولية.

وفيما كنت انتظر جواب البريطانيين النهائي، أوعزت إلى سكاوكروفت أن يستعد لزيادة الإمدادات. فإذا فشلت مبادرة وقف إطلاق النار، بسبب تآزر السوفيت معنا، فيحسن بنا أن نشكك في أن تآزرهم لابدّ أن يهدف إلى انتصار عربي قريب، وهم على غير استعداد لدفع ثمن تسوية. وعلى أية حال فإن طريقنا لا تزال مرسومة وواضحة. وعلينا تحريض الفرقاء ذوي العلاقة أن يتبينوا صحة مواقفهم. فنحن لا نستطيع السماح بخسارة إسرائيل الحرب، وإذا ظفر بها المعسكر السوفيتي، فإن هذا سيؤدّي بنا إلى موقف سيئ جداً.

عندئذ بيّنت لهيغ، أن في حال فشل محاولة وقف إطلاق النار، يجب علينا تعزيز جسرنا الجوي، إلى أعلى حد من قدراتنا، مستخدمين جميع الطائرات الممكن استخدامها، دون الاهتمام لأي خطر مواجهة. ولن نعود فنجري أية محادثات إلاّ بعد حدوث تغيّر جديد في سير المعارك.

وفي الساعة الخامسة عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين من يوم الثالث عشر من شهر تشرين الأول. طلب هوم مكالمتي، ليطلعني على جوابه النهائي، فقال أن السادات يرفض وقف إطلاق النار بجميع أشكاله. وإذا اتخذ قرار بهذا المعنى، يخالف رغباته، وأصبح على وشك الإقرار، لعدم معارضة القوتين الأعظمين، السوفيت والأمريكان، فإنه سيطالب الصين أن تستخدم حق الفيتو ضدّ هذا القرار. وكان لدى سفير فرنسا الفكرة ذاتها عن موقف السادات. وسألني هوم، عمّا إذا كان الانفراج الدولي لا يزال الهدف الأول الذي تتمحور حوله سياستنا؟

فأجبته أن الانفراج الدولي ليس غاية في حدّ ذاته، وأعتقد أن الأحداث المتلاحقة لابدّ لها من استدارجنا نحو مجابهة!!

كل المعلومات الواردة إلينا تثبت ذلك. لأن الفرقة المصفحة المصرية الحادية والعشرين، التي لا يزال محتفظاً بها سالمة حتى الآن، اجتازت قناة السويس، وعلى الأقل فرقة دبابات أخرى تستعدّ للحاق بها.

لقد انطلق المارد من القمقم، ولقد وصلت الأمور إلى درجة، يصبح فيها كل تحرّك انتحاراً، وكل تردّد كارثة، ولا جدوى بعد من استدراج الفرقاء لوضع حد للحرب، وعبثاً بدفع السوفيت لحملهم على ذلك، مع الاحتفاظ بمصالحهم.

سنرسل السلاح بغزارة، مع تقدير خطر مجابهة، ولن ننبس بنبت شفة حتى يتضح لنا جيداً، أن السلاح لن يفرض التسوية.

لن يكون للمصالحة أي معنى، ما لم يفرض حلّ متكافئ. وفي الوقت الذي كنا فيه نتهيأ لإمداد إسرائيل بالسلاح وبشكل كثيف، كنا لا ندرك بالضبط ما يقابلنا به العرب من كبت وعداء، يماثل على الأقل ما نالهم من مرارة الخسران. بالإضافة إلى أن السوفيت سيتحركون ضدنا ويشكلون كتلة من البلاد المعارضة لمصالحنا في كل المنطقة. على أية حال، لا نملك الخيار. وإذا ربحت الدول، التي سلحها السوفيت، فستتفوق بوضع شروط التسوية التي تلي كل حرب. وإذا لم تفرض إسرائيل القرار فإنها سوف تجد نفسها تستدرج إلى حرب استنزاف، حيث لا تفيدها شجاعة أو مهارة مهما تكن، أمام الشعوب العربية، التي تفوقها ثلاثين مرّة بعددها وتحاربها حالياً.

وأحداث الأسبوع الذي مضى، أوضحت لنا سرعة دبلوماسيتنا التي قمنا بها خلاله. وإذا فكّر كلّ بوضعه ومصيره، فسوف نجد أنفسنا وحيدين مع

إسرائيل، بالإضافة إلى عزلتنا التي لا محيد عنها في الأمم المتحدة، ومهما يكن حكمنا على مداهنة ومواربة السوفيت، ولم يكن حكمنا قطّ بريئاً، فيجب أن نعرف أنهم لم يسعوا قط لارباكنا. ولم يعتمدوا الفكرة المصرية بربط وقف إطلاق النار، بانسحاب إسرائيل حتى حدود عام ١٩٦٧. الأمر الذي لو حصل لأجبرنا على استخدام حق الفيتو ضد أغلى أمنيّة للعرب. وعلى أية حال فقد اضطررنا إلى مواجهة مجموعة من العوامل:

الضغوط العربية ـ مخاوف الأوروبيين ـ عدم المبالاة بما يقوم به السوفيت الذين طمأنوا العرب الراغبين في خوض غمار الحرب.

أصبحت مصر وسورية قادرتين على إيجاد أغلبية تطالب بوقف إطلاق نار مكاني، إذا تبدّى الوضع بالنسبة لهما حرجاً. ولن نستطيع تجميد مثل هذه المبادرة أمداً طويلاً، دون تعرّضنا لخسارات جسيمة على الصعيد السياسي.

وفيما كنت أخبر دينيتز عن القرار الذي اتخذناه حول تعزيز الجسر الجوي ضمن أعلى حدّ من قدراتنا، ونقل العتاد على طائرات نقل أمريكية، كنت أحثه في الوقت ذاته، على أن تسارع إسرائيل في هجماتها العسكرية وبطريقة مربحة خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة، وحسب الوضع الذي سيعرض على مجلس الأمن. حيث لم يعد بإمكاننا تأجيل مناقشة القضية مدة أطول، كما أننا لن نجد سبباً يسوّغ لنا استخدام حق النقض ضد قرار، تبنيّاه نحن قبل مدة قريبة، تحت سمع وبصر شعوب عدّة.

إن موقف السوفيت لا يزال مبهماً، لقد خدعونا مدة طويلة، ولا تحدوهم الرغبة أبداً باقتراح وقف لإطلاق النار. فهل يعملون في سبيل إطالة أمد الحرب؟ هذا السؤال طرحته على دوبرينين عندما كنت أبلغه رفض البريطانيين. اعترض

عليه وأخذ يتساءل عن غاية السوفيت في ذلك. وهذا كان يشككني أيضاً، حتى أني طوعاً أو كرهاً، حدثته عن الهجوم المصري المنتظر لليوم التالي، علماً أن لا حقّ لي بذلك. وأجّلنا القضية أيضاً لمدة اثنتين وسبعين ساعة، بانتظار نجاح الهجوم الإسرائيلي على سورية، لأن السوفيت أعلمونا عن رغبتهم ببحث القضية لدى مجلس الأمن بدءاً من يوم الأربعاء، لكن دوبرينين لا تفوته معرفة أية من حيلنا، فقد فهم استراتيجيتنا. فسألني عمّا إذا كنت أشك في أن السوفيت سعوا إلى كسب بعض الوقت أيضاً، ليتيحوا لإسرائيل ردّ السوريين؟ إن هذه فرضّية غريبة في نوعها.

يزعم السادات في مذكراته، أن السوفيت كانوا يحثّونه للقبول بوقف إطلاق نار مكاني، منذ اليوم الأول للحرب. ولم يبدؤوا بإمداد المصريين بالسلاح إلاّ يوم الخميس المصادف الحادي عشر من شهر تشرين الأول، ولم يشحنوا إليهم عتاداً وغيارات ذات أهمية، سوى صباح هذا اليوم السبت، الثالث عشر من شهر تشرين الأول، أي بعد أسبوع من بدء الحرب.

إن ما حدث هو أن السوفيت، كانوا يسعون في ذات الوقت للتوفيق بين جميع مواقفهم ونجاحاتهم سواءً في الإبقاء على الانفراج السياسي معنا، أو في مساندة البلدان العربية الصديقة. وكانوا جد حريصين في المحافظة على مواقفهم هذه، لا سيما عندما تدور الدائرة، لكنهم لا يشدّدون على تحاشي خطر المواجهة مع الولايات المتحدة.

ولقد تأكد الكرملين أيضاً، أن موقف السوفيت سوف يعزّز في الشرق الأوسط إذا استطاعوا حملنا على الموافقة على وقف إطلاق النار، والعرب قادرون على إحراز بعض المكاسب الحقيقية، نتيجة تسلّحهم بأسلحة سوفيتية. وحتى في الثالث

عشر من شهر تشرين الأول، وبعد نجاح إسرائيل في حربها مع السوريين، فإن وقف إطلاق النار، يبقي على مصر وحدها قوية في المجال العسكري.

لكن الأمور جرت خلافاً لما كان يؤمّل، فإن السادات قد أخذته نشوة النصر بما أحرزه من نجاح، أو أن ولاءه لحليفته سورية حمله على رفع الضغوط عنها. فلم نعد نسمع شيئاً عن سورية، لكنها أبدت بدورها عناداً أكثر من حليفتها في القاهرة. وكان الأوروبيين يتزاحمون بل يتسابقون للتقرب من العرب، أما السوفيت فلم يكونوا على استعداد لممارسة ضغوطهم على السادات لقبول اقتراح وقف إطلاق النار.

في بداية الأمر، رغب كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، تطبيق استراتيجيات متماثلة، فسعى كل منهما لمساعدة أصدقائه، للتقدم في ميادين القتال. وعندما وصلا إلى المعضلة، أخذ كل معسكر بتجهيز أصحابه بما يلزمهم من معدات وإغداق العتاد عليهم. نحن من جهتنا بدأنا يوم الأحد، وأوعزنا إلى طائرات العال بالبدء بنقل العتاد. وعمل السوفيت مثلنا بدءاً من يوم الأربعاء، وبأعداد أضخم، إذ أقاموا جسراً جوياً. استطعنا اللحاق بهم يوم الخميس مساءً أو الجمعة صباحاً، بواسطة الناقلات المستأجرة.

على كل حال كنا نملك جميع مؤهلات النجاح، وكان حليفنا، آخر الأمر أقوى وأكثر استعداداً ليستفيد من إمدادنا له: غير أننا نحن كنا مستعدين لتحمل المصاعب الطارئة أكثر من موسكو. لقد تعلّمت من خلال السنوات الأربع لولاية نيكسون الأولى، أن أية أمة كبرى، تتخذ مشروعاً، يجب أن تخطّط له بحذق وتنجح فيه. ولن تنتصر أبداً إذا ترجمت شكها الداخلي إلى تردّد. ومهما يكن التناقض في حال اتخاذ قرارها، يجب عليها اتباع الطريق التي اختطّته لنفسها، وإلاّ فإن

مصيرها الفشل بالإضافة إلى وصفها بعدم الكفاءة والمضايقات الداخلية التي تحدث لها من جرّاء إقدامها على ذلك القرار.

وهكذا تصرّفنا، منذ أن رفضت بريطانيا تقديم اقتراح وقف إطلاق النار، واستبعدت موسكو الاستعانة باستراليا. وفي الحال لفت انتباه دوبرينين قائلاً: من الآن فصاعداً، يمكن اعتبارنا أبرياء من القضية، وليكن بعد ذلك ما يكون. وما كنت أرمي إليه من وراء ذلك، صارحت به سكاوكروفت: أن توجهنا واضح وربما أوصلنا إلى مجابهة، لنسير بهذا الاتجاه، وبصراحة. وأصدرت إليه تعليمات بإرسال العتاد ليس على متن طائرات النقل فحسب، بل في السفن أيضاً، فإذا تمت الموافقة على وقف إطلاق النار، وامتنعنا عن إقامة الجسر الجوي، يبقى لدينا ما يمكننا من إرسال ما نريد للمحافظة على بقاء إسرائيل. وأخبرت كرومر عن إقامتنا الجسر الجوي باتجاه إسرائيل. ولمحت إلى ما سوف تكون النتيجة عند فشل مبادرة وقف إطلاق النار. عندئذ سألني كرومر:

- ما هو موقفكم، عندما يأخذ العرب بالتلويح لاستخدام سلاح البترول ضدّكم ؟

- أجبته: التحدّي، متخذاً لهجة تشرشل.

- قلق كرومر وأجاب: لا شيء سوى التحدّي، ودون تعقّل. وهذا يدعو إلى تأزّم الوضع، ألا تعتقد؟

- ليس لدينا خيار آخر.

وفي غضون ذلك، حصلنا من البرتغال على سماح باستخدام مطار لاجس في جزر الآسور، حيث كانت طائراتنا تتمكن من التزوّد بالوقود. وعندما هبطت

طائراتنا في ذلك المطار وللمّرة الأولى، يوم الجمعة الثاني عشر من تشرين الأول، تراجعت الحكومة البرتغالية وألغت ما وعدت، بحجة أن ليس لها أية مصلحة بمناهضة العرب. ثم أخذت تداولنا بمدّها بالعتاد الحربي، لتتمكن من إكمال حروبها الاستعمارية في موزابيق وانغولا. ولم نكن على استعداد للموافقة على ذلك. حينئذ كتبت رسالة وبلهجة قاسية غير عادية وبتوقيع الرئيس، ووجّهتها إلى رئيس وزراء البرتغال مرسيلو سيتانو، بيّنت فيها أننا نرفض تسليم البرتغال عتاداً حربياً، ونهدّد بالتخلّي عن هذه البلاد، لتواجه مصيرها المحتوم في أحضان عالم معاٍد. وما كدنا نصل بعد ظهيرة يوم السبت، حتى فوجئنا بسماح البرتغال لنا، بالمرور في القاعدة الجوية، والتزوّد بالوقود، دون شروط.

وفي تمام الساعة السابعة عشرة والدقيقة الثلاثين من يوم الثالث عشر من تشرين الأول، جلست مع نيكسون جلسة طويلة، وأتينا على ذكر كل ما يدور في الحلبة الدولية وساحات القتال. ورأينا خلال هذه الجلسة، أن الحرب ستأخذ اتجاهاً حاسماً خلال الأربع وعشرين ساعة القادمة، في حال نجاح الهجوم المصري، وهذا التحول لن يكون في صالحنا. وسبقته إلى القول: أن الطائرات الإسرائيلية ستدمّر المصفحات المصرية، حال ابتعادها عن مظلّتها من صواريخ أرض جو، وإذا حدث هذا فإنه يعتبر تحطيماً للعمود الفقري للهجوم. وإذا انتصر العرب في مثل هذه الظروف، فإن انتصارهم يكون عظيماً، ويلزمنا حينذاك شدّ البطون. لكن نيكسون خالفني في الرأي قائلاً: لا يعقل أن القوات المسلحة الإسرائيلية، تكون قد دمّرت بمثل هذه السرعة وتخسر معركة مخطط لها.

ووافقني على أننا قادمون على ظروف صعبة تستوجب الحذر واليقظة. وأردف قائلاً: أننا هنا لمثل هذه الظروف القادمة.

مهما تكن الأهوال والآلام التي يعاني منها نيكسون فإنه كان يقوم بكامل واجبه، ولم يُرَ يوماً مقصّراً، وأن الآلام النفسيّة لم تنزع منه رباطة جأشه، بل أوصلته إلى قوّة غير عادية أطلقته من عقال المصاعب التي ابتلى بها، وكان يصرّح دائماً أنه لن يبالي بعد بالمصاعب بعد أن قاسى أعظمها. وللحقيقة، فإني كنت أجد لديه تقبّلاً لتركيز مستقبله، من خلال دفاعه المستميت عن الشعوب الحرة، والتي يتفهم مصالحها على طريقته هو، لا على أساس خلق مخارج للأحداث، وهذا ما كان يدعوه أن يبقى حائراً في حل المشاكل ونيل رضا المجتمع.

ولما كان السوفيت يعلمون حقيقة واقعه، لذا كانوا يحاربون مبادراته خفية، ولا يسلّمون بما يقدّم من مبادرات. واستلمنا قبيْل آخر النهار مذكرة من بريجنيف يقول فيها: أن موسكو، كانت على استعداد منذ ثمان وأربعين ساعة، لتقديم قرار وقف إطلاق النار، لكنها رأت أن الأمريكان كانوا يؤجلون، لذا فإن العرب غيّروا رأيهم. فأجبت دوبرينين ببعض التهكم، أن الجسر الجوي المتزايد، يوماً بعد يوم (والذي أصبح عدد طائرات نقله المائة والأربعين) ويقوده السوفيت، ربما يؤخذ على محمل البساطة، وربما اتخذ به بموجب قرار عربي.

فقال دوبرينين بدوره: يرجو رؤساؤه ألاّ تنعكس الاتفاقات الطيبّة بيننا والتي وقعت سابقاً. فبيّنت له أن الظرف غير مؤاتٍ على وجه العموم.

إذا كان حل القضية يجب أن يكون مُرضياً للجميع، يجب أن نظهر أنفسنا قادرين على إجراء عمل ما، فلا رجعة من جهتنا، لا في سبيل إنقاذ الانفراج الدولي، ولا خوفاً من ردود فعل عربية. ولن نقبل استغلال الانفراج الدولي لجني مكاسب خاصّة مهما تكن الذرائع، ثم وجهت الكلام لدوبرينين قائلاً: إلا تعتقد أننا نسلّم بفشل عسكري في الشرق الأوسط. ولما كانت الإدارة لم تتخذ قرارها بعد

حول استئجار طائرات نقل لإيصال الإمدادات العسكرية لإسرائيل، بيّنت له أننا أفسحنا المجال أمام الدبلوماسية لتعمل في حلّ ما يعترضنا من مشاكل، لكن المصريين فاجؤونا وطالبوا أن تكون العودة إلى حدود ١٩٦٧ هي الشرط المسبق لأية مبادرة حول وقف إطلاق النار، وهذه وجهة نظر كانت وستبقى غير مقبولة. وكل ما نستطيع عمله هو العودة إلى القرار رقم (٢٤٢) الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي بشأن وقف إطلاق النار، هذا ما نستطيعه، وسنرفض بكل تأكيد تحديد كلمات "حدود آمنة".

ثم أردفت: للحقيقة سوف نترك الأمور تسير كما هي لمدة ثلاثة أو أربعة أيام، وننتظر ما سيكون عليه الوضع، وكنا ولا نزال مستعدين لمناقشة تسوية في الشرق الأوسط، ولكن بعد التوصل إلى وقف إطلاق النار. ولا يخطر في بال موسكو أنها قادرة على ممارسة ضغوط علينا بوسائل عسكرية. وجدت أن دوبرينين غير راغب في النقاش، وأكد لي أنه سيبحث كل ما قلته مع قادة موسكو.

لابدّ عند حدوث كل أزمة، من استغلال فرصة مهما تكن عابرة تحمل بين طيّاتها أملاً أن الخصم ليس في نيته دفع الأمور إلى حدّ المجابهة. ولذا فإن مذكرة بريجنيف، ولهجة دوبرينين اللطيفة، كانتا مؤشراً إلى أن أمريكا وموسكو قادرتان على السير حتى النهاية، لإيجاد حل مُرضٍ للقضيّة بكاملها.

■ الأحد/ ١٤ تشرين الأول ١٩٧٣

يجب علينا منذ الآن، أن نزيد في رباطة جأشنا وحذرنا، فإن كل الأمور ترتكز عليهما.

لقد بدأت مصر كما كان متوقعاً، هجومها الجديد، يوم الأحد الرابع عشر من شهر تشرين الأول، والغاية منه تخفيف الضغط الذي كان يمارس على السوريين. ومصير هذه المعركة لم يكن في متناول يدنا. وفيما كانت تستعر كنا نحن نعيد النظر في مخططات وضعناها، ونحاول تقليص تأثير القرارات المتخذة عن العالم العربي إلى الحد الأدنى.

تحادثت صباح هذا اليوم مع نيكسون، واتفقت آراؤنا على أن مثل هذه المعركة لن تطول، لأن إمدادات الفريقين تأتي من البعيد، ولابدّ لها أن تنتهي. وأن الصحارى عادة، لا تكون مسرحاً لعمليات حربية طويلة الأمد.

وكانت جلسة فريق العمل الخاص، التي بدأت في تمام الساعة التاسعة والدقيقة السادسة عشرة، حاسمة في إكمال جميع مشاكل الجسر الجوي التقنيّة، فتجاوزنا، قضية استئجار طائرات نقل، ولم يبق أمامنا سوى التعامل مع سلاح الجو الأمريكي. تلك كانت المهمة الرئيسية الشاقة، وأمضينا بقيّة يومنا في التداول عن الفريقين المتخاصمين ووجوب عدم ابتعادهما عمّا يؤول إليه مصير مثل هذه المعارك، لا سيما وأن الهوّة آخذه بالاتساع.

تكلمت مع دوبرينين عند الظهيرة مبيناً له أن تصرّفات السوفيت حملتنا على إقامة جسر جوي كبير، وحذّرته خلال المحادثة، عن خطورة اللجوء إلى المزايدة،

لأننا كنا على استعداد لرفع مستوى هذا الجسر، للرد به على كل تصعيد سوفيتي، ونحن على استعداد للتعاون في وضع حدّ للنزاع، شريطة التوصل مسبقاً إلى وقف إطلاق النار. فأجابني دوبرينين وبصراحته المعهودة أنه سيطلع الزعماء السوفيت على جميع ما أوردت مباشرة. ويهمني من جهتي أن يتعرفوا على موقفنا.

أرسلت مساء اليوم ذاته، مذكرة إلى السادات في القاهرة، عن طريق حافظ إسماعيل، وكما قلت سابقاً، ليس هناك سوى مثيري القلاقل وباعثي الإشاعات يصدّقون أن الدبلوماسية ترتكز على سرد قصّة واختلاق أخرى. وفي الواقع يمكننا دون خوف، إيجاز الأوضاع في الشرق الأوسط، بأن جميع الفرقاء المتخاصمين والمتحابين، يتبادلون المعلومات بصورة فنية رائعة. وجئت على ذكر جهودنا الكبيرة التي ذهبت سدي في سبيل إقرار وقف إطلاق النار، تلك الجهود التي كانت مرتكزة على تأكيدات الكرملين في أن مصر كانت على استعداد للاشتراك فيها. وأكدت أن الولايات المتحدة، ما استطاعت أن تبقى مكتوفة اليدين أمام الجسر الجوي الذي أقامه السوفيت في الشرق الأوسط، وأمل أن يعطينا السادات حقاً في ذلك، وفي الوقت ذاته، نعطي الحق لأنفسنا بتسليح إسرائيل لأن الاتحاد السوفيتي سلّح بدوره مصر، وهذا الأمر مقروناً بمعارضتنا القويّة للجهود العسكرية المصريّة المبذولة، سيمكننا من التوسط لأجل السلام مستقبلاً:

"إن الفريق الأمريكي يرجو إبلاغ الفريق المصري، أن أمريكا على استعداد لوقف إعادة تسليح إسرائيل جواً، حال التوصل إلى وقف إطلاق النار.

"وتؤكد الولايات المتحدة مجدداً، أنها تعترف أن جميع الشروط التي كانت قبل الحرب الحالية، غير مقبولة بالنسبة للفريق المصري. ونحن الأمريكان سنبذل

جهودنا حال انتهاء الأعمال العدوانية، للتعاون في سبيل إقامة سلام عادل وثابت في الشرق الأوسط. ونرجو استمرار علاقاتنا بمصر، ولو بدت صعبة، على الرغم من جميع الأحداث".

"هذا أمل أمريكا وهي تعمل في سبيله".

كان هناك دولة أخرى تساعدنا في المطالبة بالاعتدال، وهي العربية السعودية، كان نيكسون يقدّر ويحترم الملك فيصل، الذي كان ثابتاً في ميله نحو الغرب، دونما حاجة تدعو لمعرفة المبادئ الاجتماعية السائدة في ذلك البلد، والمتجسدة في ذاك العاهل. ولم تكن لي معرفة، في ذلك الوقت بالعربية السعودية، ولا الطريقة المرنة التي تتعامل بها، والتي تطوّرت خلال غنى فاحش، وأقدمت على نقلات نوعية، بين الإقطاعية ومستقبل لم تقرّر حدوده بعد. إن المملكة العربية السعودية تحاول جاهدة تحاشي جميع المجابهات، والمحافظة على أمنها دون التعرّض لاستشارات خارجية. ويسعى زعماؤها إلى إضفاء سياسة تنطلق من تأمين مصالح الآخرين. ولهم طرقهم الخاصّة في إدارة سياسة بلادهم، ويفضلون عدم تكليفهم بقضايا لا يستطيعون حلّها.

لم أكن على إطلاع، على صغائر الأمور ودقائقها. وعلى الرغم من ذلك فقد أرسلت مذكرتين للملك فيصل في الرابع عشر من شهر تشرين الأول. وكانت الأولى بمثابة رسالة من نيكسون، وكانت الثانية من قبلي. وعلى الرغم مما يجري حولنا، وما عليه نيكسون من قلق واهتمام بسبب فضيحة واترغيت، فلقد أملي نص الرسالة والمذكرة تحت إشرافي وفي وزارة الخارجية. وبالعودة إلى الوراء، يصعب عليّ التأكيد من محتواهما، لأني رضخت لإرادة غيري، فكانت لهجة الأولى رئاسية ولهجة الأخرى عادية، وهذا شيء لم أفهمه حتى كتابة هذه السطور. وكانت رسالة

الرئيس نيكسون ما يجب أن تكون، ولم تجئ على ذكر الجسر الجوي. بل كانت تطالب السعوديين بتفهم الجهود التي نبذلها في سبيل وضع حد للحرب الدائرة، وكيف أننا نلزم أنفسنا بالسعي لإيجاد سلام عادل ودائم. وتعيد إلى ذاكرتهم ما كان نيكسون قد قاله في مؤتمره الصحفي في الخامس من شهر أيلول: أنه ليس إلى جانب إسرائيل، ولا إلى جانب العرب، بل إلى جانب السلام. وتشير (المذكرة) إلى رغبة نيكسون الملحة إلى التعاون الوثيق للوصول إلى الأهداف المشتركة. ولم تكن تطالب فيصل باتخاذ قرار لا يستطيع تنفيذه.

إن جميع مكتسباتنا المعنوية، التي نؤمل ربحها من خلال الرسالة التي وقّعها نيكسون، كأني بها قد أضيعت بل هُدرت في المذكرة المرسلة بتوقيعي، لأني استعملت صراحتي لأؤكد للسعودية، بإقامتنا جسراً جوياً باتجاه إسرائيل، على اعتقاد أن هذا سيحملها على اتخاذ موقف ما. ثم تماديت في شرح وتفصيل محتويات بعض المذكرات الرسمية التي تبادلتها مع حافظ إسماعيل، لإيصالها إلى سمع السادات. ومصر التي كانت المدبر الأول للحرب، تتمكن من تفهم نوايانا والسير في طريق يوصلها إلى بعض أهدافها. أما العربية السعودية وهي بصفة متفرّج لا تستطيع السير على منوالها، بل يجب عليها مساندة جميع العرب.

واقتربت أخيراً من شاه إيران، الذي كانت بلاده بمثابة مرساة شرقية لسياستنا الشرق أوسطية. وتسليحنا قواته، كان يحول دون مطامع العراق، باتجاه الخليج "الفارسي"، وتضع حداً لقوات هذا البلد المتشدد، من استخدامها في حرب الشرق الأوسط. (في شهر نيسان عام ١٩٧٢، إبرم العراق اتفاقاً أشبه بمعاهدة مع الاتحاد السوفيتي، وهي لا تتضمن في جميع بنودها سوى تزويده بالسلاح، وتزامن خطوات الفريقين في السياسة الخارجية). غير أن إيران تملك حدوداً طويلة مع

الاتحاد السوفيتي. ويتوقف دور إيران في الاستراتجيية الغربية، على منع توسّع السوفيت، ويجعل من البلاد حاجزاً لا يمكن اختراقه إلاّ من خلال غزو نظامي. بالإضافة إلى مساهمته في حماية جميع الأنظمة القائمة على طول الخليج الفارسي من جميع الانقلابات التي تتعرّض لها، لأن ثبات أنظمة الحكم القائم فيها حيوي بالنسبة لنا. وكانت مصالحنا متبادلة، وهو بدفاعه عن استقلاله يقف بوجه جميع الأهداف العدائية، والتي تعرّض كيانه ومصالحنا للخطر، وليس هذا فحسب بل أيضاً مصالح الديمقراطيات المصنّعة المتحالفة مع الولايات المتحدة.

إن الكابوس الدائم الجاثم على الخليج "الفارسي" منذ سقوط الشاه، يوضح بجلاء شجاعة المساهمة التي كان يقدمها لأمن العالم الحر. وبدا البرهان واضحاً خلال حرب تشرين الأول لأن العراق، لم يجرؤ على إرسال سوى فرقة واحدة إلى سورية، ولم يتمكن من تهديد جيرانه الآخرين، كالأردن والعربية السعودية. وكانت إيران البلد الوحيد الذي استطاع رفض تحليق الطيران الروسي فوق أراضيه، وهناك قلّة من حلفائنا في حلف شمال الأطلسي ما جرؤوا على مثل هذا العمل. وأسطولنا في المحيط الهندي من كان يزوّده بالوقود؟ إنها إيران. وعلى الرغم من كل ذلك فقد بقي الشاه على صلة وثيقة بالسادات. وعندما أراد السادات القيام بخطواته الجبّارة في سبيل السلام، كان الشاه إلى جانبه، يمدّه مادياً وسياسياً ومعنوياً.

لكن الشاه الذي كان يتبع سياسة مماثلة لسياستنا، أراد إظهار أن مواقفه أحياناً تهدف إلى تعزيز ومساندة الأنظمة المعتدلة في المنطقة. ويرغب في استقصاء قراراتنا التي نريد تنفيذها. وانطلاقاً من هذه الأفكار والرؤى، وجهت إليه في الرابع عشر من شهر تشرين الأول، مذكرة توضح الفرق بين حليف ودمية:

"تحاول الولايات المتحدة أن توفّق بين مساعيها ونزاع الشرق الأوسط، بطريقة تجد نفسها معها قادرة على التعاون وإيجاد الحل المناسب للمشاكل القائمة في هذا القسم من العالم، من خلال إيقاف الأعمال العدوانية الدائرة، وإحلال سلام دائم يرتكز على العدل.

"وهناك عامل، يجب أن يبقى دائماً حاضراً في ذهن الجميع، ونرجو أن يتفهمّه الشاه جيداً: أن انتصاراً عربياً في النزاع القائم حالياً، يحقق بفضل التسلّح السوفيتي، بالإضافة إلى النصر الذي أحرز سابقاً بواسطة الأسلحة السوفيتية، فيالنزاع الذي كان قائماً بين الهند والباكستان في عام ١٩٧١، يدفع بالعالم نحو التطرّف، لا سيما الأنظمة السياسية في المنطقة، وربما جرّ العالم بأجمعه إلى ذلك التطرف.

"على الشاه أن يعلم، أننا نبذل جهوداً مستميتة في وضع حد للحرب، دون أن تغيب عن بالنا الاعتبارات آنفة الذكر. ونأمل صادقين إلاّ يستدرج الشاه نفسه ولاعتبارات تعبوية قصيرة الأمد، فيسيء إلى أهداف استراتيجية عليا. يسعى بلدانا للوصول إليها.

"إن الرئيس يقدّر وبشكل عظيم، الشجاعة والمناقب التي برهن عنها الشاه برفضه السماح للسوفيت حق استخدام طائراته الحربية، الأجواء الإيرانية".

سنتوصل إلى الخروج من المأساة، عندما تأخذ المعركة انعطافاً آخر مختلفاً، أو عندما يعيد أحد أبطال هذه المعارك، نظره في أوضاعه ومواقفه. وجاء صباح الاثنين الخامس عشر من تشرين الأول، ليثبت وبجلاء الرأيان الأول والثاني من هذه الأحداث المتوقعة. فقد فشل الهجوم المصري في سيناء، علماً أنه اجتمع في

أرض المعركة نحو ألفي دبابة، اشتركت في أعظم معركة دبابات في التاريخ. وبعد أن اجتازت سياج مظلّتها الواقية من الصواريخ المضادة للطيران، أصبحت الدبابات المصرية عرضة لضربات الطيران الإسرائيلي. وأن قرابة مائتين وخمسين منها، دمّرت، من قبل توحيد هجوم الدبابات والمدرعات، والأسلحة المعادية للدبابات والطيران الإسرائيلي. وجاء هذا مناقضاً تماماً لما حدث للإسرائيليين في الأسبوع الماضي. وأن الدبابة لابدّ وأن تخسر تفوقها، على ساحة القتال، إذا لم تكن هناك مدفعية تساندها، مع أسلحة مضادة للطيران.

ومن الآن وصاعداً يستطيع الإسرائيليون التقدم بقواتهم نحو الجبهة الجنوبيّة. وفي الوقت ذاته، أخذ السوفيت يعلقون في فخّنا، من خلال ما كنّا قد عرضناه سابقاً من طروحات. لأن دوبرينين أعلمني هذا اليوم أن موسكو كانت على أهبة دراسة اقتراحنا، من حيث ربط وقف إطلاق النار، ليس بانسحاب إسرائيلي إلى حدود حرب الأيام الستة لعام ١٩٦٧، ولكن لتثبيت العمل بقرار مجلس الأمن الدولي ذي الرقم (٢٤٢). والذي يدعي الإسرائيليون ونحن نرفض ادّعاءَهم، أنه جاء غامضاً حول هذه النقطة.

وإذا قبلت صيغة القرار المذكور وبصورة نهائية، فلا بدّ من ترجمة ذلك، إلى إنجازات سريعة، وتقدم أكيد في مجلس الأمن الدولي.

■ الاثنين و الثلاثاء/ ١٥ و ١٦ تشرين الأول ١٩٧٣

صرّح الأميرال موورير، في صباح اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الأول. أمام اجتماع فريق العمل الخاص، أن إسرائيل بعد أن هزمت وبصورة نهائية الجيش المصري، في هجومه الأخير، فإنها لا تزال بحاجة إلى ثلاثة أو أربعة أيام لشقّ الجبهة المصرية، فظهر من ثم أنه كان مخطئاً في تقديره، لأن الجبهة المصرية لم تشق بل رُدّت على أعقابها.

أما جسرنا الجوي الذي أقمناه، فإن ما يقوم به أضحى مذهلاً، إذ أن وزارة الدفاع، بعد أن تجاوزت عقبات شكلياتها، أصبحت وكأنها في سباق لم يجرؤ أي بلد آخر أن يسمح لنفسه بعمل ما قامت به:

لقد بدأت رحلات طائرات (س ــ ٥آ) بمعدل أربع رحلات يومية، ثم تزايد العدد، ومعه تزايد نوع الطائرات، لأن (س ــ ٥آ) و (س ــ ١٣٠) و (س ــ ١٤١)، كانت تقوم جميعها بتسليم عشرين شحنة يومياً، أي ما يساوي ألف طن من العتاد، قرابة خمسين طناً في الساعة. فنكون قد أرسلنا في اليوم الأول تجهيزات تفوق ما قام بإرساله السوفيت طوال أربعة أيام إلى البلدان العربية (مصر وسورية والعراق مجتمعة) لأننا كنا مصممين أن نعمل أكثر وأفضل مما يعمل الاتحاد السوفيتي. أوصلنا ثمانية عشر ألف طن من الإمدادات العسكرية، بالإضافة إلى ثلاثة آلاف طن كانت في طريقها أيضاً إلى إسرائيل.

فقلت لشليسنجر، ولم تخلُ مصارحتي من بعض الدعابة: يجب أن أقول أنك مذهل إذا أردت العمل، وأنت كذلك عندما ترفض. وهذا حكم غير مبالغ فيه، ولم

يجد نفعاً، بل أثار بعض الخلافات إبّان ولاية فورد، عندما ردّ لي ما وصفته به. وأعود إلى موضوع شحناتنا العسكرية فأقول أن كولبسي أعطى رأياً حكيماً بالامتناع عن ذكر أرقام ما نرسل بواسطة جسرنا الجوي، تاركين للسوفيت تقدير ما يُرسَل.

كنت قد تعلّمت خلال ولاية نيكسون الأولى، أن الواجب يدعو إلى استمرارية الضغط على الخصم ولو ضعف. وتقضي الاستراتيجية بالتوفيق بين موقفين متناقضين ظاهرياً، ازدياد الضغط على الخصم، وإفساح المجال أمامه للخروج من معضلة تزداد حدّة وهو فيها. فعرضت هذين الموقفين على مجلس فريق العمل الخاص، أمّا بشأن إجراء الضغوط فقد قلت:

"إن الطريقة الوحيدة بالنسبة لنا هي الانتهاء من الضغط على النابض، وإفهام السوفيت في آن واحد، أننا لن نتخلّى عن أهدافنا، ولا شيء يرعبنا. ونفهم الأوروبيين كذلك أنهم صاروا في موقف حرج، فيجب عليهم والحالة هذه إما التخلّي عن مكاسب حلف شمال الأطلسي، أو موافقتنا على إقامة جبهة مشتركة، وهذا سيكون عوناً لنا تجاه جمهورية الصين الشعبية، ويكون عاملاً في احتواء التوسع السوفيتي. وعندما يصل الأوروبيون إلى الاستقرار الذي ينشدون، سيدركون أننا سنساعد أصدقاءنا".

وأصدرت في الوقت ذاته تعليمات إلى كافة المراكز الحكومية، لاجتناب كل موضوع يثير، وعدم التحدّث في موضوع الجسر الجوّي. وهكذا سنحمل السوفيت على عدم القيام بمزايدات في الإرساليات، ونحصل على تهدئة نسبية للنفوس قبل أن يقدم مجلس الأمن الدولي على إصدار قراره.

بمبادرة خاصة من نيكسون، فقد أصدر تعليقاً، حول ما يدور من أحداث

ربما اتخذه العرب بمثابة تهديد. فقد أعلن فجأة، في احتفال أقيم بمناسبة تقليد تسعة أعضاء من قواتنا المسلّحة، وسام الكونغرس:

إن سياستنا الحالية، هي نسخة طبق الأصل، لتلك السياسة التي اتبعناها عام ١٩٥٨ في لبنان، وعام ١٩٧٠ في الأردن، وترتكز على مبدأ الدفاع عن حقوق كل شعب في الشرق الأوسط، ليتمكن من العيش مستقلاً وآمناً. ويمكن تأويل التشبيه إلى عدة تفسيرات: إن العرب عام ١٩٥٨، اعتبروا تدخلنا في لبنان بمثابة ضمان رئيسي لأمنهم. أما في عام ١٩٧٣، فإننا ننشد أمن إسرائيل، الذي نبذل في سبيل الحفاظ عليه كل جهودنا، الأمر الذي لا يمكن اعتباره جزءاً من مصالحنا الخاصّة، فلا يجوز والحالة هذه، التشبيه مع الحالة السابقة. والعودة إلى الكلام عن تدخلنا في لبنان في الماضي لا تنفي أبداً تدخلنا الآن إلى جانب إسرائيل.

وعندما أمطرنا الصحفيون بأسئلتهم، ابتعدت في أجوبتي بل تحاشيت الإجابة عن هذا التهديد المضمر، علمّا أننا لم نتحادث حول هذا التصريح قبل إقامة الاحتفال. وأوعزت إلى روبيرت ماك كلوسكي، الناطق بلسان وزارة الخارجية أن يقول، أن الرئيس كان يتكلم فقط عن المبادئ الواجب تطبيقها، ولما سمعته فهمت أنه تعليق لا يزال غامضاً في ذهني حتى الآن ولا أدري له كنهاً.

وعلى الرغم من موقفنا الثابت. فإن أجوبتنا التي أرسلناها الليلة الماضية على المذكرات التي وردتنا، سببت لي بعض القلق المقرون بالذهول. إن مختلف البلاد العربية، لم تطلع بعد على سعة إرسالياتنا التي نبعث بها في جسرنا الجوي الذي أقمناه لكنهم في حدس ممّا نعمل وحدسهم صادق، لأنهم يعتقدون بينهم وبين أنفسهم أننا لا بد عاملون. ومع ذلك فإن ردّ الفعل الأولي كان ضعيفاً، أكثر ممّا

كنت أتوقّع. وأخذ الشاه بمراسلتنا بدءاً من الخامس عشر من شهر تشرين الأول. وتعليقه الوحيد الذي لم يتبدّل، هو تحذيرنا من العواقب، فيما إذا كان الانتصار الذي سيحدث في المنطقة، هو بفضل التسلّح السوفيتي. أما في الأمور الأخرى فهو على العموم إلى جانبنا.

وفي أمسيّة اليوم الخامس عشر من تشرين الأول، كان حافظ إسماعيل يرسل لي جواب مذكرتي، وبلهجة تعتبر غريبة في مثل هذه الأوضاع. فكان يجدّد تأكيده لتصميم مصر على متابعة سلسلة هذه الاتصالات محافظة منها على حسن العلاقات. وأكّد أيضاً بعدم السماح لأي فريق آخر غير مصر أن يتكلم باسمها. وبمقولة أخرى: على الولايات المتحدة إلاّ تعير انتباهها لتفسيرات موسكو، إذا كانت لا تتوافق مع ما تعلمنا به القاهرة مباشرة.

وينكر إسماعيل تصميم مصر على إذلال إسرائيل، لأن الذّل صعب المذاق، ثم يأتي على ذكر ما قمنا به من جهود لاتخاذ قرار بوقف إطلاق النار، قبل أية تسوية سياسية، معاكسة لوجهات نظر مصر. ويردف قائلاً: أن التجارب علمت مصر أن فصل هذا عن تلك قلّما يأتي بفائدة حقيقية تذكر عند التطبيق العملي.

وبعد كل ما تقدّم، يأتي على ذكر الجسر الجوي الذي أقمناه ويبيّن أنه لا يمكن القبول به. وانتقدنا أيضاً على مبيعاتنا من الأسلحة السابقة لإسرائيل. لكنه لم يطل الحديث حول هذا الموضوع، ولم يشعرنا بأي تهديد خفي أو ظاهر. بل على العكس من ذلك، كان يطالب بمضاعفة الجهود، للربط بين الحل العسكري والحل السياسي.

ثم ولدهشتي الكبرى، كان يدعوني لزيارة بلاده فيقول:

ستكون مصر سعيدة باستقبال الدكتور كيسنجر، لشكره على الجهود التي يبذلها. إن الفريق المصري على استعداد لمناقشة جميع المواضيع، الاقتراحات

منها والمشاريع في إطار مبدأين اثنين، واعتقادنا أن الدكتور كيسنجر لا يرفضهما ولا يتمكن غيره من رفضهما، وهما:

لن تتنازل مصر عن شبر أرض. ولن تتنازل عن درهم من كرامتها وسيادتها.

تلك كانت رسالة رجل دولة، لأنه ما من شك، في أن إسماعيل كان يتحدّث باسم السادات.

إنه من السهل السير مع الأحداث، ولكن الكشف عن نهاية المطاف صعب. ومع ذلك، يبقى في مقدور القادة النهابين وحدهم، النظر إلى الأفق البعيد، بغية استيضاح ما يهدفون إليه. والسعي إلى تحدّي جميع الضغوط التي تحول دون الوصول إليه.

إن السادات كان على علم بأننا نعمل كل شيء لإفشال مخططّاته العسكرية، وكان باستطاعته أن يتخذ من الجسر الجوي الذي نقيمه، ذريعة يبرّر بها الهزيمة التي وصل إليها هجومه في سيناء. أضف إلى ذلك إمكانية تأليبه ضدنا، كافة جماهير العالم العربي، مثلما فعل قبله عبد الناصر عام ١٩٦٧ ولأسباب أقل أهمية. غير أن إراقة الدماء ولأسباب تافهة قد أتعبت السادات، وأخذت الرغبة تحدو به إلى التخلّي عن المواقف المسرحية، مستعيضاً عنها بإنجازات واقعيّة. وخلافاً لعبد الناصر، لم يكن يرى أية فائدة في أن يكون زعيم العرب المتشددين. وكان يقدرّ بحذق مدى المساعدة التي يستطيع السوفيت إسداءها إليه، في سبيل الإبقاء على التوتّر في أعلى درجاته، وليس بغية الوصول إلى تسوية.

لا يمكن اعتبار السادات رجلاً عاطفياً، فهو ماهر في الدفاع عن مصالح بلاده. وعلى الرغم من تحفّظه العلني ومرونته، كان حريصاً في إعلامنا أن لديه

عدّة خيارات. ولا مجال للشك أنه كان صاحب الرأي في حظر البترول، الذي سنشعر قريباً بثقل وطأته. ومن خلال طرقه المعقّدة، وهو الذي عرف استغلال إحداها بأن أخذ بإبعاد السوفيت عن بلاده، وهم الذين يساندونه ويجهزون جيشه، وهو الذي تقدّم منا بشكل خفي، في حين كنا نحاول نسف جميع أهدافه وبأقصر مدة ممكنة. وفيما كانت الحرب في أشدّ أوارها، أخذ يسير في طريق السلام.

إن ردّ فعل السعوديين، على مذكرتي كان أشد تعقيداً. فلقد أعلمنا الأمير فهد، رئيس الوزراء المفوّض، أن الوضع أخذ بالتدهور. وأن أصدقاء أمريكا على رأيه، أصبحوا في حرج لا يأملون له حلاً. فإذا انتصر العرب، لا مشاحة في ان يسلّم الشرق الأوسط الى الإتحاد السوفيتي. واذا خسروا ، يجب الاعتماد أيضاً على الإتحاد السوفيتي، لينشيئ من جديد الجيوش العربية ، ولا بدّ من دعوة مستشارين سوفيت للعودة الى مصر. ويصبح عسيراً على عربي المجاهرة بصداقة الأمريكان.

لم يكن تحليل فهد ليسؤونا، وكنا على اتفاق معه، فيما يراه بالنسبة له ولنا. ولكن حكمنا على النتائج كان مختلفاً تماماً عن حكمه. ان خطر رؤية الروس ينشؤون الجيوش العربية من جديد، بعد هزيمتها، يبدو لنا صغيراً لدى مقارنته بانتصارها بفضل اسلحة سوفيتية. ان السلام الذي ننشده ونسعى الى الوصول إليه، لا نخاله يغيّر شيئاً من موقف السوفيت. وللحقيقة، فأن إستراتيجيتنا بكاملها تهدف إلى غير ذلك. ولا بدّ من التنويه ان كل المذكرات التي تردنا من مصر، تشعر بأن مصر تتمنى التحرّر من الوصاية السوفيتية. ونحدّد بدورنا عزمنا على استغلال هذه النافذة.

وفي اليوم التالي، الثلاثاء السادس عشر من تشرين الأول، أجابني على رسالتي المؤرخة في الرابع عشر من تشرين الأول، وكان يعبّر عن ألمه وقلقه، أكثر من لومه. وكان يعزو مضمون رسالتي إلى جهلي بحقيقة الواقع السعودي. وكان الألم جلياً في

ثنايا الرسالة، بسبب هذا النزاع المر بين القوّتين الأعظمين، والذي يهدّد بالدمار كل بلدان المنطقة.

وكان فيصل يمتنع في جوابه عن مؤاخذتنا أو الاحتجاج ضدنا، وأبى كذلك تحميل الولايات المتحدة مسؤولية الوضع المتدهور. وكان يذكرنا بمطالبة السادات بعودة إسرائيل الى حدود ما قبل حرب الأيام الستة لعام ١٩٦٧. ويطالبنا بدوره بإيقاف ارسال الأسلحة إلى إسرائيل. وأما بشأن العقوبات التي يهدّدنا بها فقد كانت غامضة وغير صريحة. وفي حال عدم انقطاعنا عن مساعدة إسرائيل فإن العلاقات السعودية ـ الأمريكية سيعتريها بعض الفتور. واعتقدنا نحن اننا سوف نمرّ بمثل هذه المحنة اذا أردنا احلال توازن قوى في المنطقة، يسمح للدول العربية المعتدلة بالإسهام في خلق جوّ السلام، ولا بدّ من معارضتهم والحؤول دون الوصول إليه.

وكانت بادرة سوء الطالع هي تلك التي وصلتنا، من معاون الوزير السعودي للشؤون الخارجية، أبراهيم مسعود، الذي استدعى سفراء دول المجموعة الأوروبية، ليحذّرهم من ان العربية السعودية سوف تقلص انتاج بترولها، اذا لم يضغطوا على الولايات المتحدة حول تغيير سياستها. وكنا على علم مسبق، ان وزير النفط، الشيخ أحمد زكي اليماني، هو في طريقه الى الكويت، للالتقاء بزملائه العرب. ودعي الى هذا الاجتماع قبل البدء بتسيير جسرنا الجوّي. ولم اكن أعلم ان العربية السعودية صرّحت انها ليست على استعداد لمجابهة المتشددين العرب، وهذا بالنسبة لها أفضل من تدبير شؤونها معنا. ورأت المملكة ان دوام أمنها واستقرارها لا يكتملان إلاّ اذا جعلت من نفسها المنفّذ لما يتخذه غيرها من قرارات. على الرغم من ذلك لم يكن لنا خيار سوى البقاء في الطريق التي نسير فيه، فليس لدينا خيار آخر. وكل تردّد يزيد في أمد الحرب، ويعرّض العالم لخطر أكبر. ان موقف العربية السعودية في المستقبل القريب، يتوقف على حسن تدبيرنا لمشروع سلام ما بعد الحرب، ولا ننسى ان مصر

هو محوره. ومن مصر يجب أن تنطلق مخاوف السعودية، من حيث إعادة السوفيت الى الشرق الأوسط، وعمّا اذا كانت مقرّرة؟

وهذه الاعتبارات جميعها، دعتنا الى سرعة ارسال جواب مذكرة اسماعيل اعتباراً من مساء هذا اليوم، ففي الساعة التاسعة والدقيقة الثامنة من اليوم السادس عشر من تشرين الأول، أرسلت اليه مؤكداً على ضرورة استمرار الاتصالات بيننا سواء أكان من قبلهم أو من قبلنا. وبتقديري، لو ان الأمور سائرة نحو الحل كما يتبادر الى ذهننا، فلا بدّ من ازالة الضنك النفسي المهيمن على النفوس، واستدراج مصر لتفهّم ما هو ممكن تنفيذه وما هو غير ممكن. كما انه يجب علينا ان نعطي للسادات ذريعة تمكّنه من التخلي عن شروطه المستحيلة التي بات يطلقها علانية، كما فعل قبل وقت قليل، ضمن خطاب وجّهه الى مجلس النواب، بصفة «كتاب مفتوح » الى الرئيس نيكسون:

وقف اطلاق نار، مع انسحاب اسرائيلي سريع الى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧ وأردف السادات قائلاً : لسنا على استعداد لتنفيذ قرار مجلس الأمن ذي الرقم (٢٤٢) والقبول بوعود غامضة وكلمات مطّاطة، لا تزال بحاجة الى التفسير، الشيء الذي يضيع وقتنا ويعيدينا الى المآزق السابقة.

يجب إذاً اقناع السادات بالحدود التي يتمكن من الوصول اليها، وكيف نتمكن نحن من إيصاله إليها. ولانزال عند رأينا بإناطة حلّ هذه المشاكل المستعصية الى شخصيّة مرموقة، تمتلك صفات على مستوى الصعوبات. وليس هناك مكان في العالم يصلح لذلك أكثر من الشرق الأوسط، الذي هو بمثابة منجم الشخصيّات الروائية. ان النتائج الدبلوماسية العظيمة، التي أسهمت فيها وتوصلت إليها، من خلال رحلاتي السرّية الى الصين، وتمكني من اجراء مفاوضات حول فيتنام. ان هذه النجاحات التي اعتبرت مذهلة، لأنها جاءت إثر مآزق لم تكن لتجد حلاً، ولّدت فكرة في أذهان زعماء الشرق الأوسط، أن بإمكاني القيام بهذا الدور.ولو أن هذا الأمر أتاح

لنا جميع أسباب النجاح فإنه لايزال يرسم صور أخطار كثيرة، لأن كلاً من الفريقين سوف يضع على كاهلي اتخاذ قرارات صعبة، ربما تغيظ الفريق الآخر. وهذه طريقة تقودنا بلا شك الى مأساة. ان كل مفاوض يعتقد ان أفكاره الخاصّة كافية لقطع العقدة الغورديّة سيجد نفسه في وقت ما، في جحيم خاص احتفظ به التاريخ ، لهؤلاء الذين يبنون آراءهم الشخصية على تصفيق الجماهير، وليس على إنجاح أمورها وهنا يبدأ خداعهم أنفسهم، ثم ينتهون بخداع الآخرين.

عندما أخذّت أُطلع القاهرة على الخطوات التي تقوم بها الولايات المتحدة تجاهها، بيّنت الفارق الكبير بين وقف إطلاق النار، والمفاوضات التي تليه، مؤكداً ان مصر قد صانت كرامتها وطوّرت الوضع الإستراتيجي، وكانت تستطيع المغامرة فتقبل وقف إطلاق النار مبدئياً، معتمدة على ما يليه من مفاوضات. ان التبادل الدبلوماسي اللاحق، أضفى ثقة أكثر، على ما أوردت في المذكرة التي أرسلتها الى اسماعيل في السادس عشر من تشرين الاول:

«يتشرف الدكتور كيسنجر ان يعرض وبصدق الوضع الحاضر كما يراه.

«ان هدف أمريكا الدائم هو وضع حد للمعارك الدائرة ضمن شروط تسهّل الوصول الى تسوية نهائية. لقد قامت القوات المصرية بواجبها وعملت الكثير. ولقد ولّت تلك الهزيمة التي شعر بها ليس المصريون فحسب بل العالم العربي في عام ١٩٦٧ . ولقد أقيم بدلاً منها وضع إستراتيجي جديد، يجعل من السهل على كل بلد ان يأمل بتفوّق عسكري دائم. ومن هنا تنبثق فكرة ضرورة ايجاد تسوية سياسية، لدى جميع الفرقاء.

«فما الذي تستطيع عمله الولايات المتحدة في مثل هذه الحال؟

«كرّر الدكتور كيسنجر مراراً، انه لا يعد إلاّ بما يستطيع ، ويحافظ على ما قطع به وعداً.

«ان مذكرة اسماعيل التي وردت بتاريخ العاشر من تشرين الأول، تتضمن اقتراحاً من نقاط خمس، ان الجانب المصري يطالب بالحقيقة أن تتعهد إسرائيل في اطار وقف إطلاق النار بتنفيذ جميع الشروط التي تضعها مصر في سبيل تسوية نهائية.

«ويرى الدكتور كيسنجر، ان هذا غير قابل للتحقيق إلاّ من خلال حرب طويلة الأمد. والنفوذ الأمريكي لا يسمح بالوصول الى مثل هذه الغاية في الظروف الراهنة.

«ان ما يستطيع الجانب الأمريكي الوعد به والمحافظة عليه، هو وضع كافة امكاناته مساهمة منه في إحلال تسوية عادلة ونهائية، بعد ان يكون وقف اطلاق النار وضع موضع العمل. ويقدّر الدكتور كيسنجر ان الأحداث الطارئة قادرة على حمل الجانب الأمريكي على استخدام نفوذه البنّاء، في سبيل هذه التسوية.

« ان على الجانب المصري اتخاذ قراره بهذا الصّدد. وعدم الموافقة على اتخاذ مثل هذا القرار يطيل أمد الحرب، ويصبح كل ما يحدث من مشاكل مدعاة للتساؤل. وهذا يعني أيضاً إفساح المجال أمام الوسائل العسكرية لحل المشاكل. ويمتنع الجانب الأمريكي منذ الآن عن استباق الأحداث. لكنه يشك في سهولة الحل. وعلى كل حال فلن تكون الظروف مؤاتية لبذل جهود أمريكية دبلوماسية.

«اذا أُريد للنشاط الدبلوماسي النجاح، يجب ان يسبق بوقف اطلاق نار. وهذا هو الجهد الدبلوماسي الذي وعد به الجانب الأمريكي ولا يزال مستعداً لتنفيذه. سترى مصر دقة كبيرة في المحافظة على هذا الوعد من قبل الجانب الأمريكي، الذي سيكرّس جميع جهوده لإنجاحه.

«ان هدفنا الآن، الوصول الى وقف اطلاق نار، يتحوّل بسرعة الى سلام عادل وحقيقي، يتكافأ مع مبادئ الأمن والسيادة.

«يعتقد الجانب الأمريكي بالوصول الى نجاحات كثيرة وكبيرة، بعد تنفيذ وقف اطلاق نار مكاني، تتعهد فيه جميع الأطراف، بالبدء في محادثات تحت إشراف الأمين العام للأمم المتحدة، هدفها إحلال السلام من خلال تسوية، تتوافق والقرار رقم (٢٤٢) الصادر عن مجلس الأمن الدولي، في جميع بنوده، بما فيها انسحاب القوات المعنيّة بهذا القرار.

«يشكر الدكتور كيسنجر وبحرارة الحكومة المصرية التي دعته لزيارة مصر ويسعده القيام بمثل هذه الزيارة، بعد إحلال وقف اطلاق النار، وستكون بمثابة بذل جهود مثمرة، في سبيل إحلال سلام دائم في الشرق الأوسط.

واجتمع فريق العمل الخاص، بعيد الساعة العاشرة صباحاً. من الممكن القول بأن الأجواء تغيرت تماماً منذ اتخاذ قرار تسيير الجسر الجوي، واستبعدت التردّدات نهائياً، وأخذ الجميع يفكرون بإمكانية توجيه اللوم الى الإتحاد السوفيتي، الذي حملنا على اتخاذ مثل هذا القرار.

ان الدور الأساسي لرئيس دولة، هو ان يحمل على كاهله مسؤولية قرارات تتخذ في حال وجود خيارات صعبة. واذا استطاع ذلك، فلا يبقى على مرؤوسيه سوى تنفيذها والانصياع الى ما يقول. ونيكسون قام بدوره الحقيقي في حرب الشرق الأوسط عندما اتخذ قراراً بتسيير الجسر الجوي. وقمت أنا في ذلك الوقت بالدور المطلوب في وضع مبادئ تطبيق الإمداد بالسلاح. والشيء الوحيد الذي يهمنا في هذا الأمر، هو التغلّب على السوفيت. والسعي الحثيث لحملهم على إيجاد فرص تسوية. وعلينا ان نسلّم يومياً أسلحة أكثر مما يسلّمون. والخطوط العريضة التي وضعتها،

كانت تقضي ان يتجاوز حجم التسليم ٢٥٪ مما يسلّم السوفيت. وصمّمنا كذلك على إكمال جسرنا الجوي، في حال الضرورة، ببواخر بحريّة، أسوة بالسوفيت، الذين حمّلوا سفناً راسية في البحر الأسود كميات كبيرة من العتاد، تشمل أجهزة متطورة.

وكان علينا القيام بهذه المغامرات الصعبة، وسط أزمات جديدة تُحدثها كل يوم فضيحة واترغيت، التي وصلت اتهاماتها إلى نيكسون والوكيل الخاص ارشيبالد كوكس، وتجاه معارضات كبيرة من قبل النواب والصحافة، والذين يوجهون إلينا اللوم بالتساهل في قضايا الشرق الأوسط، في سبيل الانفراج الدولي. كما ان عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون، اتهمنا علناً في الرابع عشر من شهر تشرين الأول بإستحواذ الروس علينا. وأكد كاتب الافتتاحيات جورج ويلّ في السادس عشر منه ان قصور نظري الايديولوجي يمنعني عن التعرّف على ما هيّة الانفراج الدولي، وعندما التقيت بجوزيف كرافت في الثامن عشر منه، أكّد لي انني حوصرت من قبل السوفيت. ونشرت صحيفة النيويورك تايمس، الصادرة في السابع عشر منه، عن قطيعة تتزايد يوماً بعد يوم، بيني وبين مستشار الرئيس ملفن ليرد بسبب ما يقوم به السوفيت. ولم أعرف قبل ذلك ان لليرد رأيا في مثل هذه الأمور. وهل هو مغاير لآرائي؟ وللحقيقة، فإني حاولت دائما جعل اتصالاتي بالروس سرّية. وفيما يتختص بالقوّتين الأعظمين، يجب على المنتصر بعد زوال الأزمة، ان يدرس وبعناية أفضل الطرق التي تمكنه من حمل خصمه على تقبل الهزيمة. وأوضحت هذه الفكرة لزملائي في اجتماع فريق العمل الخاص:

«علينا ان نكمل اتصالاتنا بسرّية، طيلة اليوم، مهما يحدث .ولن تعقد مؤتمرات صحفيّة، حتى الرسمية منها. وإذا تمكنا من الخروج من أزمتنا دون مجابهة السوفيت، ودون قطيعة في علاقاتنا مع العرب، نكون قد حققنا أفضل ما نريد، وما يبقى كله قشور. سنحافظ على مبادئنا، ونكمل مسيرتنا في إرسال العتاد لإسرائيل».

كانت أخبار الصباح مشجّعة، وقبل اجتماع فريق العمل الخاص في السادس عشر من تشرين الأول، علمنا ان طائرة تحمل شخصيات سوفيتية تتجه نحو القاهرة. فاعتقدنا أنها تُقلّ رئيس الوزراء اليكسيس كوسيغين، الذي ألغى فجأة مقابلة مع رئيس الوزراء الدانماركي، الذي كان يقوم بزيارة الإتحاد السوفيتي. ويفهم من كل هذا ان السوفيت يضغطون على السادات، لقبول وجهة نظرنا بوقف إطلاق النار. ولا حاجة بعد لتأكيد موقفه السابق. ويخشى ان تؤدي هذه الضغوط السوفيتية إلى توتّر العلاقات بين الإتحاد السوفيتي ومصر.

وفي الوقت ذاته تقريباً، أبلغنا فعلاً، ان وحدة صغيرة مؤلفة من خمس وعشرين مصفحة إسرائيلية، قد اجتازت قناة السويس في منطقة البحيرة المرّة الكبرى، وأخذت بتدمير بطاريات الصواريخ أرض جو المقامة على الشاطئ الغربي منها. وان عواقب مثل هذا العمل، تدل ولاشك على غلبة إسرائيل، لأن القوات المصرية، المتواجدة على الجانب الآخر من القناة، ستكون عرضة لغارات عنيفة من قبل الطيران الإسرائيلي. ومن السابق لاوانه معرفة قدرة إسرائيل في البقاء علىالشاطئ الغربي. واعتبر مجلس فريق العمل الخاص، هذا التحرّك وكأنه غارة عادية، وهذا ما أذاعه الإسرائيليون.

وكلمت نيكسون، قبل نهاية يوم الثلاثاء، الموافق في السادس عشر من تشرين الأول، وقلت له: ان الاحتمالات الآن هي بمعدل اثنين مقابل واحد، باتجاه جعل نهاية الحرب قريبة وتأكدنا من قرب الوصول إلى وقف إطلاق النار في الثالث عشر من تشرين الاول. وأصبحنا قادرين على تحديد الحلول، لأن الأمور لم تبقَ مرتبطة بالآخرين. والتزامنا الثابت بإرسال العتاد يمكن ان يحسن الحال يوماً بعد يوم، ويقوّي احتمالات نجاح إستراتيجيتنا.

■ الأربعاء/ ١٧ تشرين الأول ١٩٧٣

كان يوم الاربعاء الموافق للسابع عشر من تشرين الأول، يوم انتظار، إذ يجب ترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي، على الرغم من أن الأوضاع كانت تميل إلى صالحنا. استدعاني دوبرينين منذ الصباح الباكر لإبلاغي رسمياً ان كوسيغين موجود في القاهرة. وهو ينقل إليّ مذكرة من بريجنيف، تؤكّد ما قد أصبح معروفاً لدينا وهو: إذا أُتيح للإتحاد السوفيتي، ان يحارب بالوكالة في الشرق الأوسط، فهو على غير استعداد لمجابهتنا. ولايفوت بريجنيف ان يذكرنا بتحذيراته السابقة حول خطر انفجار يحدث في هذه المنطقة من العالم. ويكرّر كعادته، في حال عودة إسرائيل إلى حدود ما قبل حرب عام ١٩٦٧، فان أمنها سيكون مضموناً من قبل القوتين الأعظمين، أو مجلس الأمن الدولي (وهذه هدنة مشكوك بأمرها، علماً ان مجلس الأمن لم يستطع التصويت على أي قرار). وهذه النظرية الإتفاقية، لم تكن سوى مقدمة لتصريح لاحق، في أن الأمور لم تصل بعد إلى نقطة «اللاّعودة» وعلى القوّتين الأعظمين إستخدام نفوذهما لتحسين الأوضاع.

أصبحنا في وضع مُرضٍ، ولا حاجة تدعونا بعد لاستخدام نفوذ ما في سبيل حلّ عسكري. ونحن قادرون على إرسال صفقات عتاد إلى إسرائيل، أكثر ممّا يتمكن الروس إرساله إلى العرب، وكان لدى أصدقائنا إستعداد أكبر لإستخدام العتاد الذي نرسله إليهم. وفي إحدى إجتماعات فريق العمل الخاص، أدلى الجنرال موورير بالتصريح التالي:

إذا استطاع السوريون إيصال دباباتهم الجديدة، إلى جبهات القتال، فلن يستطيعوا استخدامها في المعركة. ومضى القسم الأكبر من يوم الأربعاء، في تهيئة

الخطط الدبلوماسية التي ستعقب نهاية الحرب، والحؤول دون اشتراك العرب المعتدلين، وخاصة أولئك الذين لم يدخلوا المعركة حتى الآن. أما بخصوص رأس الجسر الإسرائيلي، فكان يكبر في الجهة الثانية من القناة، ولا يمكن اعتباره غارة عادية كما وصف، بل هو هجوم مضاد. وليس على السوفيت الآن سوى المطالبة بوقف إطلاق النار.

وتوجه إلى واشنطن اليوم الأربعاء، وفد مشكل من وزراء الشؤون الخارجية في المملكة العربية السعودية، والمغرب، والجزائر، والكويت، للدفاع عن القضيّة العربية. فالتقيتهم أول مرة في تمام الساعة العاشرة والربع. وبيّنت لهم ان هدف أمريكا الرئيسي، هو وضع حدّ للمعارك الدائرة، وسنتعاون بعد ذلك في بذل جهود دبلوماسية، لايجاد وسيلة لإحلال سلام عادل ودائم. ستنتهي الحرب بطريقة تكفل المحافظة على علاقات ودّية قدر الإمكان بين العرب والأمريكان. ان اطالة أمد النزاع، تحمل بين طيّاتها خشية حدوث مجابهة بين القوّتين الأعظمين وعلى الأرض العربية وهذا هو الكابوس المزعج لأصحاب العلاقة. وأردفت قائلاً:ليس بالإمكان الآن المطالبة بتأكيد على القرار (٢٤٢) الذي صيغ بشكل غامض، كما اننا لا نستطيع الحصول على تعهد من الإسرائيليين بالعودة إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧.

وإذا صمّمتم على اتخاذ جميع هذه الأمور شرطاً مسبقاً لوقف إطلاق النار، فإن الحرب لا بدّ مكّملة طريقها.

وأوجز وزير المملكة العربية السعودية، عمر السقاف، الرجل العاقل اللطيف، موقف البلاد العربية وبلهجة معتدلة:

«ليست إسرائيل مهددة بالفناء من قبل العرب».

ولم يخشّ الوزير السعودي التأكيد، أن لهذه البلاد الحق في الوجود، ولكن في حدودها، ما قبل حرب عام ١٩٦٧. «اننا لانطالب بشيء سوى عودتها إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧، واحترام حقوق اللاجئين، في العودة إلى أراضيهم، وتعويضهم ما فقدوه. وهذا يكون كافياً لضمان استقرار وأمن إسرائيل».

فيما كان السقاف يقبل بوجود إسرائيل، وهذا أقل ما يمكن المطالبة به وبكل تأكيد، في سبيل إقامة مفاوضات جادّة، كان ينيط بنا مهمة هرقليّة. ان إسرائيل لن تعود إلى حدود ما قبل عام ١٩٦٧، إثر حرب فرضت عليهم من قبل من يجاورهم، وفي حين ان سير المعارك أخذ يميل إلى صالحها. ومن جهة أخرى، لن يتحقق أي تقدم حقيقي في الشروط المحددة والموضوعة من دون تدخل الولايات المتحدة. ولذا فإن معظم البلدان العربية الممثلة في اجتماع مكتب الرئيس في البيت الأبيض، هي بحاجة الولايات المتحدة لتجنّبها تهديدات جوارها الطامعين (وهم على الغالب عرب) وتحاشي الاضطراب الداخلي. فأصبح من واجبنا نحن وهم، الوصول الى حسم هذه المتناقضات دون تحديدها.

وبحنكة ودراية نيكسون تمكن هذه المرة من إصابة كبد الحقيقة، ووعد ببذل جهود واسعة المدى، دون تعهّد منه يمنحها حلاً خاصاً. وعلى الرغم من أن ليس لدى الرئيس الوقت الكافي ولا القوة الفعّالة في تدبير الشؤون وبشكل دائم (ولا سيما ا نه يستعد لمقابلة ارشيبالد كوكس، الذي يتهيّأ لاتخاذ الإجراءات اللازمة لفسخ الحكم ضدّه) ومع كل ذلك فقد امتلك زمام الاجتماع، وأداره في وسط جو عام من البهجة. وحاول ان يبيّن للزعماء العرب، معنى الحدود المطلوبة، وتصرف بمواربة أكثر مني:

«سأبذل جهودي في سبيل وقف إطلاق النار، وليست نيّتي ان آتيكم بالحيلة لتقفوا حيث أنتم، ولكن لاستخدام وقف القتال، نقطة إنطلاق نحو تسوية ترتكز على

قرار مجلس الأمن الدولي ذي الرقم (٢٤٢). وأتعهد بذلك أمامكم. ومن المهم جداً في هذه اللحظة ان نبدي حذراً واعتدالاً. معلوم لديّ ما تطالب به الشعوب وأفهمه. سنبرهن من جهتنا على الاعتدال وأرجو ان تفعلوا ذلك أيضاً... أني اعاهدكم، ولا أقول بصورة جازمة أني قادر على إعادة إسرائيل إلى حدود ما قبل حرب عام ١٩٦٧، لكننا سنعمل معاً من خلال قرار مجلس الأمن الدولي رقم (٢٤٢).

وبعد ان تملّك نيكسون الحماسة لهذا الموضوع فقد تكلّم بحيوية مفرطة. ووعد ان أفاوض عنه، وأعلن والدهشة تأخذني، ان مثل هذا ضمان لنجاح المشروع ثم عاد إلى موضوع أصبح لديه مألوفاً، منذ بدء ولايته الأولى، يطمئن به ضيوفه فغمز قائلاً: على الرغم من أصله اليهودي (وهو يقصدني) وأنا لا أشك بالتأثيرات الداخلية، ويعني بذلك اليهودية، لكنّ السقاف الذين كان قد صرّح أثناء الحديث انني قمت بأعمال كبيرة، غيّر الموضوع وبلباقة وقال: «نحن كلنا ساميّون».

ومغادراً البيت الأبيض، أدلى السقاف بتصريح علني متساهل، مدلّلاً على ثقته الكبرى بالرئيس نيكسون. وقد جاء في تصريح السقاف: ان الرجل الذي استطاع وضع حد لحرب فيتنام. والرجل الذي تمكن من إحلال السلام في العالم كله، يتمكن من القيام بدور جوهري في السعي لإحلال السلام في منطقتنا الشرق أوسطية».

وعندما التقيتهم بدوري مرة أخرى، بعيد بعض الوقت، رجوتهم ألاّ يطلبوا المستحيل:

«نحن نعلم ان إسرائيل ليست على استعداد لقبول أية شروط عربيّة في هذه الفترة. وقد صرّحت بذلك رئيسة وزراء إسرائيل. وعلى كل حال ومهما تكن الضغوط التي تمارس، تجب العودة إلى النفوذ الامريكي. ولا مجال أبداً للابتعاد أوتغيير هذا النفوذ. وفي حين ان الجيوش العربية، قد أقدمت على عمل ما لم يكن بالحسبان، ومع

ذلك فانها لن تستطيع الوصول إلى ما يهدف إليه زعماؤها من أهداف دبلوماسيّة، دون حرب طويلة الأمد، ودون تحمّل مخاطرات قاسية، خشية تدخل القوتين الأعظمين في هذه الحرب».

لا أستطيع القول ان مثل هذه الملاحظات قد أثارت الحماسة، ولكن كان لها وقع في النفوس. فطلب مني الوزراء الأربعة التدخل شخصيّاً، على الرغم ممّا أبديت من تحفّظ.

بينما كنت في مداولة مع وزراء الشؤون الخارجية العرب، أردت التعرّف بواسطة سكاوكروفت، على ردّ فعل الحكومة الإسرائيلية، حول فكرة ربط وقف إطلاق النار. بنداء يدعو لتطبيق القرار (٢٤٢). وما كنت اتصور مجابهة أية صعوبة في هذا المجال، ولا أنسى في نهاية المطاف، بأن القرار (٢٤٢) كان وبشكل دائم، أساساً لكل مفاوضات تجري في الشرق الاوسط منذ ستة أعوام.

وفي جو مريح، جرت المناقشة اليومية، لفريق العمل الخاص، في تمام الساعة الخامسة عشر، من اليوم السابع عشر لشهر تشرين الأول، وخلال الاجتماع أعلمنا كليمانس ان جسرنا الجوي قد قام بما طلب منه، أعني انه تفوق على الجسر السوفيتي بما يقدّر بـ ٢٥٪.

ومن جهتي فقد كنت ألاحظ بارتياح، ان الحالة النفسية لوزراء الخارجية العرب تظهر لي وبكل تأكيد، أنه لن يكون هناك خطر على البترول في الوقت الحاضر.

ولقد أخطأ تصورّي قليلاً، عندما فكرت ان النشاط الدبلوماسي سيكون في حالة ركود، ما دام كوسيغين لم يصل إلى موسكو. لكن هذا لا يمنعنا من متابعة إرسال المواد الحربية إلى إسرائيل. ويجب علينا ان نغدقها عليها حتى يستسلم أحد خصومها.

وفي نهاية الاجتماع، اصطحبت زملائي في فريق العمل الخاص، إلى المكتب البيضوي حيث سيوجه اليهم نيكسون كلمة ترفع من معنوياتهم. لانه على الرغم من كونه في غمرة الاهتمامات والازعاجات التي جرّتها عليه فضيحة واترغيت (ولا سيما أن القضاء قد اتخذ قراراً حول إذاعه ما تحتويه شرائط التسجيل) فانه لا يزال رابط الجأش فقال:

«ليس هناك أحد يهمّه هذا الموضوع أكثر منّي (وكان يعني البترول والوضع الحاضر الإستراتيجي). اننا لا نستطيع في الوقت الحاضر العمل والإعداد والموافقة على وقف إطلاق النار، دون البدء بمفاوضات ناجحة.

ان بين الوزراء العرب، ما عدا الجزائريين، من يخشى كثيراً ان تبقى نتيجة هذه الحرب تحت رحمة السوفيت. لكن السعوديين، والمغربيين، وحتى الجزائريين يبدون تخوفهم من ذلك. اما الوجه الآخر للقضيّة فهو مشكلة علاقاتنا مع الإتحاد السوفيتي، التي لا تحدّد فقط بالشرق الأوسط. وإذا أتحنا للسوفيت بسط سيطرتهم ولم نقم بأعمال تضاهي أعمالهم وتتفوّق عليها، فلا بدّ لصداقيتنا من الإنهيار في العالم أجمع».

وحين كان المجتمعون ينصرفون، كان المراقبون ومنقّبو الأحداث يوردون أخباراً جديدة ومزعجة، لأن منتجي البترول من العرب المجتمعون في الكويت، أعلنوا منذ وقت قصير تقليصاً سريعاً يقدّر بـ ٥٪ من انتاجهم العام، على أن يتبع هذا التقليص تقليص شهري آخر، طالما ان إسرائيل لم تعدْ إلى حدودها ما قبل حرب عام ١٩٦٧. أضف إلى ذلك، فان هناك مبادرة خاصّة من قبل البلدان الستة في الخليج الفارسي أعضاء منظمة (OPEC) الذين قرروا من جانب واحد زيادة سعر النفط بمقدار ٧٠٪ أي ان سعر البرميل ينتقل من ثلاثة دولارات وواحد بالمائة، إلى خمسة

دولارات واثنا عشر بالمائة للبرميل الواحد. وكنا جد متخوّفين من خطر حظر تصدير البترول، أكثرمن هذا التقليص على الانتاج، الذي قدّرته وكالة المخابرات المركزيّة بمليون برميل يومياً، وظهر لنا انه بمثابة إجراء رمزي. وكان كذلك لكنه لا يخلو من تطبيّقات ثورية. وفعلاً فقد أصبح هذا شبه طبيعي، وأعطى للمنتجين حق تحديد الأسعار التي يريدون، مع تقليص الانتاج، وهكذا فقد بدأت مرحلة جديدة من تاريخ ما بعد الحرب، وقد يحتاج الأمر لعدة شهور للتمكن من احتوائه والحدّ من مساوئه.

وكان لهذا الاجراء نتيجة سريعة ومباشرة، وسرعان ما تحوّل قلق الأوروبين إلى تخلّ عن أمريكا، وهلع داخلي. وكان هم أوروبا الوحيد كسب رضا منتجي البترول. وميشيل جوبرت على رأس القائمة، وهو الذي كان قبل أسبوع أي في الحادي عشر من تشرين الأول، جالساً في مكتبي، وأعلمته عن نشاطنا الدبلوماسي فيما يختص بالحرب، وطلبت إليه خلال محادثاتنا، عدم أخذ الأمور باللامبالاة فتتطوّر دون وضع حدّ لها في الأمم المتحدة. لكن رويتر أعلمتنا ان جوبرت ألقى خطاباً في الجمعية الوطنية الفرنسية، وكان لاذعاً، طلب فيه التعاون مع الإتحاد السوفيتي، طالما ان الجانبين يرسلان الأسلحة بغزارة إلى الشرق الأوسط.

أصبح حسين عصبيّ المزاج، وكان يرى ان الضفّة الغربية بالنسبة له همّه الأكبر، ويصرّ على جلاء الإسرائيليين عنها، ان الاجراءات المتعلّقة بتسوية سلميّة سبّبت المطالبات الأردنية. وفي رسالة وردتني من حسين، كان يتساءل عمّا إذا كان جار إسرائيل الأكثر إعتدالاً من غيره، هو الذي سيدفع تكاليف الوضع الفاسد ثم يجد نفسه منحّى، وجاء في رسالته على ذكر بعض الأمور غير المستحبّة، عندما رفضنا الموافقة على مدّه ببعض الدبّابات، بحجّة عدم توفرها لدينا، في حين اننا نكثر من إرسالها إلى إ سرائيل.

وفي غضون ذلك، كنا نسارع من سير جسرنا الجوي، ونحرص على إجراء إتصالات مع الأطراف ذات العلاقة، وندعو في الوقت ذاته إلى وقف إطلاق نار يرتكز على قرار مجلس الأمن رقم (٢٤٢).وكان هذا يبدو صعب التنفيذ، لكننا لم نتوان في إظهار من له الحق بإيجاد مخرج مشرّف، بالإضافة إلى اننا كنا مجبرين على اجتياز هذا الباب الضيّق، عندما كانت فضيحة واترغيت، تصل للمرة الثانية إلى إحدى مراحلها الحاسمة.

وبعد ظهر اليوم ذاته، أبلغت دينيتز، ان على إسرائيل إدارة عملياتها العسكرية، في حدود النظرية التالية:

لن نستطيع الوصول إلى وقف إطلاق نار قبل ثمان وأربعين ساعة، هذا بعد إجراء المشاورات اللازمة، ونحن على علم بأن معركة مصفحات يستعر لظاها في القسم الأوسط من جبهة سيناء، على طول قناة السويس، لكن أخبار إسرائيل كانت قليلة ومقتضبة، بالإضافة إلى انها غير واضحة.

■ الخميس و الجمعة/ ١٨ و ١٩ تشرين الأول ١٩٧٣

أعلنت إسرائيل، صباح يوم الخميس المصادف للثامن عشر من تشرين الأول، انها تعزّز رأس الجسر الذي اخترقت به قناة السويس من الطرف الآخر، إذ كان يمتّد نحو الشمال بعرض يقدّر باثني عشر كيلو متراً، ونحو الجنوب بستّة كيلو مترات وفيما كان رون زيغلر، يستعدّ لعقد مؤتمره الصحفي اليومي، أبلغته انني لا انتظر التمكن من الوصول الى وقف اطلاق النار، قبل يومي الأحد أو الاثنين (٢١ و ٢٢ تشرين الأول).

وتلقينا هذا اليوم جواب الملك فيصل على رسالة نيكسون، وهو غير بعيد عن الخطوط العريضة التي بيّنتها له في اتصال أجريته معه قبل يومين. وكان يؤكد في جوابه ان اطالة الحرب هي احدى محاولات السوفيت. وان الحرب لن تنتهي، ما لم تعد إسرائيل الى حدود ما قبل حرب عام ١٩٦٧ وختم رسالته، بالتحذير الغامض الذي تضمنته مذكرته السابقة» اذا بقيت الولايات المتحدة الى جانب إسرائيل، فان الصداقة (الأمريكية ـ السعودية) لا بدّ من أن تتناقص يوماً. لكن هذا الموقف النابه الحكيم أتبعه بقرار قاسٍ، ربما اتخذ في اليوم نفسه، أي الثامن عشر من شهر تشرين الأول، وهو ان العربية السعودية تعلن عن مضاعفة مستوى التقليص الذي اتفق عليه وزراء النفط. وسوف تنقص انتاجها الى عشرة في المائة، أضف الى ذلك، فان السعوديين يتعهدون بعمل ذلك كل شهر، ويهدّدون في الوقت ذاته بتعليق تجهيز الولايات المتحدة بالبترول، في حال ان هذه الاجراءات لا تؤدّي الى نتائج سريعة ومقبولة.

وبعد قليل أي في الساعة الثامنة عشر والدقيقة الخامسة والعشرين، أعلمني دينيتز عن ردّ فعل غولدا مائير، على طلبنا المتعلّق بوقف إطلاق نارٍ يرتكز على قرار

مجلس الأمن ذي الرقم (٢٤٢) وكان أحد مظاهر سياسة إسرائيل التقليدية في طريقة المفاوضات، وهي تقوم على التوفيق بين عاملين:

إظهار القبول بطريقة غير عادية، من جهة ومن أخرى إيجاد تكتيك سياسي داخلي معقّد جداً. وكل من عرفت من القادة الإسرائيليين كانوا وبكل تأكيد متفقين حول نقطة واحدة، عدم قبول أي اقتراح صادر عن الولايات المتحدة مهما تكن حسناته، ومهما يكن نوعه.

ان ما يقرّه ويشجّعه المجتمع الدولي، تقبل به السياسة الإسرائيلية الداخلية وتعتبر انها لا غنى لها عنه. ولذا فإن الطريقة التي تصرّف بها أمورها، توضح بجلاء عن كيفيّة مفاوضة إسرائيل، والتفكير بذلك يشغل البال. ان كل ما يهمها هو التخاصم على أتفه الحلول، وعدم التساهل بأي أمر ما لم يكن الصبر قد نفذ من طول الانتظار، ولن تقدّم أي حلّ إلاّ بعد انهاك قوى مفاوضها، مع العلم ان هذا الحل لن يؤدي في النتيجة الى أيّ انفراج، ولا يدلّل على حسن نيّة. وبهذا العناد وحده ومن خلال هذا الصلف وعدم المرونة والوقوف دون لين حتى النهاية يستطيع مسؤولو الأمن الإسرائيليون أو المفاوضون منهم إقناع زملائهم المرتابين والطامعين، أنهم لم يستطيعوا أكثر من ذلك. وهم على كل حال غير قادرين على إعطاء الوعود الثابتة أو الحلول الآمنة، لأنهم لا يطمئنون إلى اقناع الائتلاف الحكومي على تصديق ما حاولوا البتّ به من أمور، ان المفاوضات بالنسبة الى إسرائيل هي إظهار نشاط عصامي. ورئيس الوزراء هو في خطر من ان يتّهم بالضعف اذا قبل وبسهولة، أي اقتراح تتقدم به الولايات المتحدة، دون دراسة مسبقة ودقيقة عمّا اذا كان يمكن الحصول على مغانم أكثر من التي نصّ عليها.

وبناءً على ذلك فإن غولدا مائير تمانع الآن أي إجراء يهدف إلى وقف إطلاق النار، بعد ان كانت تطالب به قبل أسبوع، وهي ترفض كل ما له علاقة بقرار مجلس الأمن الدولي ذي الرقم (٢٤٢) الذي كان يعتبر كلاماً مقدّساً بالنسبة لإسرائيل طوال

ستة سنوات من المفاوضات. وطالما صرّحت غولدا مائير، ان القرار ذا الرقم (٢٤٢) كان مخرجاً لحرب عام ١٩٦٧، اما الآن فليس له أية علاقة مع الحرب الحاضرة. ان هذا القرار ليس بالترياق، ولا ثمة حاجة تدعو الى الإسراع في أي إجراء ما.

لم تكن المذكرة لتدلّ على تشبّث برأي ما، وعزمت من جهتي على عدم الاحتفاظ بها. لقد رأينا إسرائيل وهي تعاني خطر الموت طيلة الإسبوعين الأخيرين. وجمدّنا كافة الإجراءات الممكن اتخاذها في الأمم المتحدة، عندما كانت إستراتيجيتنا المشتركة تقتضي ذلك. ومن ثم اقترحنا وقف اطلاق النار، عندما أصبحت إسرائيل على أتم الإستعداد. وارسلنا مواد حربية بوفرة وغزارة عندما كانت إسرائيل تقترب من نهايتها.

أما الآن فلسنا على استعداد لتدمير علاقاتنا مع أوروبا واليابان، ونتحمل خطر حظر بترولي، متجاوزين الأعراف الدولية، وغير عابئين بإرادة السوفيت، وإثارة آخر أصدقاء لنا من العرب، ونحن نؤجّل الى ما لا نهاية، وقف إطلاق النار، أو نتخلى عن قرار مجلس الأمن (٢٤٢) الذي كنا ندفع به الضغوط السوفيتية وأدعاءات المتشددين من العرب طوال ست سنوات. وليس من صالح إسرائيل ان تتصرّف هكذا. اذ بدون القرار (٢٤٢) لن يكون هناك أساس لمفاوضات شرعية وعلى الرغم من تفرّق الأصوات في الأمم المتحدة، فان كل مسعى لتغيير القرار (٢٤٢) لا بدّ ان يكون أسوأ. واذا كان لا بدّ من التغيير، فليس هذا سوى نظريات. ولأجل ذلك أبلغت دينيتز، ان قرار وقف إطلاق النار، لا بدّ من اتخاذه قريباً، حسب معرفتي، فعليه إذاً أن يحثّ إسرائيل لتسريع عمليّاتها العسكرية بنوع القدرة على إنهائها خلال الثماني والأربعين ساعة القادمة.

لقد كان حسّي الداخلي صادقاً، اذ استدعاني دوبرينين في تمام الساعة العشرين والدقيقة الخامسة والأربعين، من يوم الخميس الموافق في الثامن عشر من شهر تشرين الأول، لإبلاغي ان هناك مذكرة عاجلة من بريجنيف، وتبيّن من فحوى ما

أسمعني ان السوفيت مستعدّون لاجراء مناقشات رسمية. واكمل قراءة المذكرة فاذا بها تتضمن مشروع اقتراح من ثلاث نقاط، لعرضه على مجلس الأمن، وهي :

١ ـ توجيه نداء بوقف اطلاق نار مكاني.

٢ ـ توجيه نداء لانسحاب عاجل ومبرمج ينفّذه الإسرائيليون فيخلون جميع الأراضي العربية المحتلّة، الى خط يتوافق مع قرار مجلس الأمن الدولي (٢٤٢) ويجب ان يتمّ هذا الانسحاب في أقصر مدّة ممكنة.

٣ ـ توجيه نداء حول البدء بمشاورات مناسبة، تؤدي الى إحلال سلام عادل.

كانت النقطة الأولى ممكنة القبول، وهي التي اقترحناها نحن أنفسنا بموافقة إسرائيل، قبل خمسة أيام. وهي تخوّل الإسرائيليين البقاء على بعد ثلاثين كيلو متراً عن الشاطئ الغربي لقناة السويس.

أما النقطة الثانية، فكانت على وجه العموم غامضة، ولا يستطيع أحد لضمان وقف إطلاق النار، مطالبة إسرائيل بالإنسحاب السريع، على طول خطّ محدد. وان تنهي هذا الانسحاب بأقرب فرصة ممكنة.

اما النقطة الثالثة فلا يمكن اعتبارها سوى وفاء دين. والمشاورات المناسبة التي وردت ضمنها يمكن ان تعني أشياء كثيرة. واذ كان المقصود بهذه المشاورات البدء بمفاوضات عادية، بإشراف الأمم المتحدة، فان هذا يعني مكاسب قليلة. واذا كنا في كل مرة نثير إجراء مفاوضات مباشرة بين العرب وإسرائيل، فان هذا مطلب رئيسي ومنعطف أساسي في شؤون الشرق الأوسط. فلأول مرة يقبل العرب باجراء مفاوضات مباشرة مع إسرائيل ووجهاً لوجه.

كلمت نيكسون هاتفياً وقلت له: ان الأمور تسير لصالحنا، لكنهم لم يقتربوا منا بعد. وفي تقديري، انهم لايزالون بحاجة الى ثماني وأربعين أو اثنتي وسبعين ساعة.

ثم أطلعت دينيتز على ما يجري، مؤكداً ردود فعله، أهملت التكلّم عن النقطة الثالثة، لأني كنت أعرف سلفاً ان إسرائيل لن تقبل بالنقطة الثانية، وكنت أرجو ان أضفي على الثالثة صيغة مناسبة، قبل تقديمها بشكل نداء لأجراء مفاوضات مباشرة بين الفرقاء، وهذا ما كانت إسرائيل تتمناه منذ زمن طويل.

أما بخصوص دوبرينين فقد أجّلت الحديث معه عن كل الأمور، وأكدت له ان الإقتراح السوفيتي يتضمن مبادئ إيجابية. ومع ذلك فان النقطة الثالثة لا تزال بحاجة لدراسة وتحديد، بينما ان الثانية غيرمقبولة. وفي سبيل كسب الوقت، وللمحافظة على جوّ لائق، ولإعطاء المجال للجانب السوفيتي لدارسة وتحديد بعض النقاط، فقد ارسلنا جواب مذكرة بريجنيف المليئة بالعموميات وبعض الأفكار الغامضة، وفي تمام الساعة الثانية والعشرين والنصف. وعلى الرغم من ان مذكرة بريجنيف لم تكن مؤكدة على وقف إطلاق النار، فمع ذلك كان جوابنا، عبارة عن درس بيان وبلاغة، غايته تأكيد العلاقات بين البلدين، متضمناً وعوداً كثيرة ببذل جهود كبيرة، في سبيل تنفيذ إحلال السلام في الشرق الأوسط، بعد انتهاء الأعمال العدوانية.

وتحاشينا قدر الأمكان، التعليق على موضوع مشروع القرار السوفيتي حول وقف اطلاق النار، ولم ينتبه دوبرينين الى اننا نعيق الأمور، وهذه سياسة عادية يتبعها كل منتصر. الذي ينتظر تحسناً في حالته ومواقفه ساعة بعد ساعة.

ولما كان قرار وقف اطلاق النار وشيكاً، رأيت من اللياقة، الإبقاء على إتصالات وديّة، مع أهم زعماء العرب، فأبرقت الى الملك حسين:

«لي الشرف ان اطلعكم أنتم بالذات، على ما أفعله. اننا نجري مباحثات مع السوفيت في سبيل الاتفاق على قرار يصدر عن مجلس الأمن الدولي. ويقصد بالقرار وقف اطلاق نار، يتبع حالاً بمفاوضات بين الفرقاء لتسوية أساسية. وعند اجراء مثل

تلك التسوية فلا يعقل ان تبقى المصالح الأردنية، التى أوضحتموها لنا سابقاً، دون دراسة ودون ضمان. سيكون لوجهات نظركم و أؤكد لكم، كل ما تستحق من عناية».

ان الفريق الذي كنا نرى انه لا بد محتاج لإبقاء علاقاته معنا سليمة، هذا الفريق هو نصف خصمنا وموجود في القاهرة، وعلى اعتقادنا انه لا بدّ الآن في مرارة من الحياة. والجيش المصري سيعرّض الآن لمصاعب خطيرة، ومصلحتنا لا تدعونا الى القبول بهزيمة مصر. ونحن اردنا في الوقت نفسه منع الانتصار عن طريق الأسلحة السوفيتية. ولا نقبل أبداً بإسقاط السادات، ولا تدمير مصر، ولا وقوعها تحت سيطرة متشددين نتيجة هزيمة شاملة.

وعندما كنت أناقش الاقتراح السوفيتي مع سكاوكروفت، في تمام الساعة الثانية والعشرين والدقيقة الخامسة والأربعين، أكدت له قائلاً:

«ان ما يهمنا، هو تحميل السوفيت خسارة ما بعد الإنتهاء من جميع الأمور، وهذه الخسارة يمكن ان تكون مادية أو سياسية.

«إن الأسباب التي تدعونا الى عدم القبول بهزيمة إسرائيل، لأن انتصارها سيكون له دور ضد الامتحان السوفيتي، حتى لو إدعى العرب ان جسرنا الجوي، كان المسبّب لذلك. وهذا أمر سيكون له دوره الفعّال في إنعطافهم وارتدادهم الى معسكرنا».

وهكذا عند منتصف الليل، ارسلت مذكرة مشجّعة الى السادات عن طريق اسماعيل. وكنت أعيد فيها على أسماعه، ما عرضناه عليه قبل يومين أي وقف إطلاق نار يرافقه تأكيد للقرار (٢٤٢) الذي اتخذه مجلس الأمن، ولندلّل بوضوح على ما نكنّه من احترام لكرامة مصر، أضفيت أهمية خاصة مبيّناً ان مصر وحلفاءَنا العرب، أدخلوا تحسينات هامة على الوضع، نتيجة ما أظهروا من قدرة وكفاءة في ميادين

القتال. وعلينا الآن عدم التخلّي عن هذه المكاسب بإطالتنا أمد الحرب. وانهيت المذكرة بمناشدته بالقبول بوقف اطلاق النار، منذ ان يسمح الوضع العسكري بذلك. (لكني لم آتِ أبداً على ذكر النقطة الأخيرة).

ورجوت ألاّ يتبادر الى ذهنه ، أي حرمان من حقّه، فينهدم ذلك البناء من الآمال، الذي يسعى السادات وأنا ببنائه، هذا وأني أورد هنا موجز المذكرة:

«ان السيد اسماعيل يعرف كم أعلّق من أهميّة على سرعة انهاء الأعمال العدوانية ضمن شروط، تجعل بذل الجهود ممكّنة للوصول الى إحلال سلام دائم. ان وجهات نظرنا لم تتغيّر، ومن أجل هذا يحسن ان يحتفظ الفريقان بموقف يتصف بالاعتدال، يمكن على أساسه إقامة علاقات طويلة الأمد.

كنا على أهبة وضع حد للحرب من خلال الشروط التي نضعها نحن، ولذا نحن مسؤولون عن أي تخاذل. و الإتحاد السوفيتي قادر في أية لحظة على مفاجأتنا وتقديم اقتراحه الى مجلس الأمن شخصياً أو بوساطة طرف ثالث. وربما يوافق على هذا الاقتراح استناداً الى الأوروربيين والدول غير المنحازة، كما ان الصين أيضاً لا بدّ ان تؤيدّه. فبإسم من وتحت أي شعار تعارضه وتستخدم حق الفيتو ضدّه؟

واذا قمنا بذلك، فسنصبح معزولين خلال الأزمة التي يدعو اليها خصومنا، والتي يتخذها السوفيت سبّباً لتهديدنا، وتحمل الأوروبيين على الابتعاد والتخلّي عنا، وتدفع بالعرب نحو التشدد. وفي نهاية المطاف لانكون قد حصلنا على شيء.

كنت شديد الاهتمام بمقارنة أفضل الاجراءات الدبلوماسية عندما ينفذ صبر بريجنيف ويشير علينا بمخرج لهذ الورطة.

انهيت الاجتماع اليومي لفريق العمل الخاص، ليوم الجمعة التاسع عشر من شهر تشرين الاول، ولم تردنا معلومات جديدة عن ميادين المعارك، إذ كنا فقط على

علم ان هجوم الإسرائيليين المضاد، كان في تقدّم مستمر، وقد تقدمت ثلاثمائة دبابة الى الشاطئ الغربي للقناة، وهم في طريقهم الى قطع خطوط المواصلات المصرية في جميع الإتجاهات. وعلمت قبيل نهاية اليوم، ان الإسرائيليين على الرغم من هذه الأخبار، لم يعلمونا نواياهم المباشرة أو أهدافهم الإستراتيجية، ولم يحدّدوا التوقيت المراد اتّباعه في إستراتيجيتهم مهما يكن نوعها.

وعندما اجتمع فريق العمل الخاص، صباح اليوم الثاني، قرّرنا الاحتفاظ بتسيير الجسر الجوي، حتى الإعلان عن وقف إطلاق النار. وأوعزنا بتسريع الرحلات البحرية شريطة عدم التمادي فيها، حال الإعلان عن وقف اطلاق نار مفاجئ، أو حالما يوعز السوفيت إلى أصدقائهم العرب باللجوء الى حرب الاستنزاف.

لم تمضِ بضع دقائق بعد الساعة الحادية عشر، حتى استدعاني دوبرينين، قائلاً ان لديه مذكرة عاجلة من بريجنيف الى نيكسون. وكان موضوعها الرئيسي يدور حول تفاقم الخطر في الشرق الأوسط، والذي ربما سبب اضراراً، بل قطع علاقات بين الإتحاد السوفيتي و الولايات المتحدة. ويرى ان من الموافق اتخاذ قرارات عاجلة مثمرة:

«بما ان الزمن هو الذي يقوم بدور أساسي في القضية، وعلينا ان نحسب منذ الآن حساب الساعات، لا الأيام.

لذا فاني أنا وزملائي، نقترح ان يأتي وزير الخارجية، أقوى مساعديكم الدكتور كيسنجر، بسرعة الى موسكو، لنتمكن من البدء بمفاوضات مناسبة معه، وبصفته ممثلاً شخصياً للرئيس ومفوضاً عنه. ويفضل ان يصل يوم غد العشرين من شهر تشرين الأول.

ساكون ممتنّاً لكم اذا أجبتموني بالسرعة الكليّة».

وما ان قرأت هذه الدعوة، حتى تخيّلت انها لا بدّ ان تحلّ جميع مشاكلنا. ويبقى

العمل خارج حظيرة الأمم المتحدة، الى ان نكون قد تمكنا من إيجاد صيغة لحل مقبول. وتبادر الى ذهني أيضاً ان مسافة الطريق لتلبية الدعوة وأثناء المفاوضات، قد تتيح المفاخرة للسوفيت بحسن نيّتهم، ويكسبنا وقتاً لا تقل مدته عن أثنتين وسبعين ساعة، يكون فيها الهجوم العسكري قد توطّد أكثر. وتكلّم نيكسون وأنا في هذه المواضيع مع هيغ وسكاوكروفت، وخلصنا الى نتيجة ان سفري الى موسكو مؤيّد لما نقوم به من إستراتيجية.

بقي أمامي عائق يحول دون سرعة سفري. ان مديرمكتب الإتصال الصيني، السفير هوانغ شين، كان قد دعاني إلى وليمة عشاء كبرى، تقام على شرفي هذا المساء، في فندق ماي قلوار. وبصراحة لا أستطيع إلغاء هذه الدعوة للذهاب إلى موسكو. لكن هذا التأخير يعطينا مريحاً إضافياً لم نكن نتوقعه. وأصبحت لديّ حجّة قوية لتأجيل سفري، حتى الساعات الأولى من صباح السبت، وسيؤخّر هذا بالطبع وصولي الى موسكو، وبالتالي لن تبدأ المفاوضات إلاّ يوم الأحد. وهذا يزيد في توقيتنا مهلة ثمان وأربعين ساعة.

استدعيت دوبرينين، لأبلغه اننا نعير أكبر إهتمام لأقتراح بريجنيف. وسألته لماذا لا يأتي غروميكو إلى واشنطن؟ فبرّر دوبرينين عدم مجيئه، بان القرارات الواجب اتخاذها في الإتحاد السوفيتي تقتضي إشتراك بريجنيف وكوسيغين فيها (علماً ان كوسيغين كان عائداً من القاهرة). ووعدت دوبرينين بإعطاء الجواب، بعد الظهر.

وفي غضون ذلك، أطلعت دينيتز على واقع الحال، وتذاكرت مرة ثانية مع نيكسون وهيغ حول واقع الأمور، وفي تمام الساعة الثالثة عشر والدقيقة الخامسة والثلاثين، ومن مكتبي في وزارة الخارجية، استدعيت دوبرينين لاعطائه الجواب النهائي:

سأسافر حالاً أي صباح السبت، وأصل موسكو في المساء. لن أكون على استعداد لإجراء مفاوضات، إلاّ صباح الأحد. ولن تجري محادثات تتعلّق بالتسوية النهائية ولا بأمور لا علاقة لها بوقف إطلاق النار. ولن يقدم أحد منا على عملٍ أحادي الجانب، فيما أكون في طريقي إلى موسكو. وكان قصدي من وراء ذلك، عدم تقديم أي تهديد أومبادرة لدى الأمم المتحدة أو خارجها.

كما يجب تحديد الإعلان عن زيارتي اني ذاهب إلى موسكو تلبية لدعوة من الإتحاد السوفيتي، وهذا يمنع ان أعتبر بمثابة سائل.

فقبل دوبرينين هذه الشروط، نيابة عن بريجنيف في تمام الساعة السادسة عشر والنصف. وكررت له القول، اني غير مستعد لبحث أي أمر يمتّ إلى تسوية سياسيّة بصلة. فاعتقد دوبرينين بدوره، ان الأمور قد سوّيت جميعها وبوضوح. ثم أجريت لقاء قصيراً مع دينيتز لمعرفة ما وصلت إليه الأمور واقعياً.

أبلغت الصينيين عن سفري في الساعة الثامنة عشر والنصف، كذلك السفارة البريطانية في الساعة الثامنة عشر والدقيقة الخمسين. وأوقفت دينيتز على حقيقة الأمر هاتفياً. وطمأنته اني سأبدأ المفاوضات بصيغة ترضي إسرائيل، تلك الصيغة التي لاتربط بين وقف إطلاق النار ومطالب اخرى، إلاّ بمفاوضات مستقبلية بين الأطراف ذات العلاقة، وبالإضافة إلى ذلك، لن أقبل بأي شكل كان، النظرية السوفيتية، التي يطالب بموجبها القرار (٢٤٢) بإنسحاب إسرائيلي شامل وسريع. لكني حذّرت دينيتز كذلك، ان ليس بمقدوري تحاشي كل عودة إلى القرار (٢٤٢). وفعلاً لم أر من المناسب إهمال الإطار الشرعي الوحيد الذي يقضي باجراء مفاوضات. وطلبت منه بالمناسبة، إبلاغي أخبار الموقف العسكري مفصلّة خلال إقامتي في موسكو. وعلى الرغم أني لم أكن أنتظر نتائج مطمئنة قبل ظهر يوم الأحد (حسب توقيت موسكو) فإذا جَدّ شيء فلا بدّ من إعلام

إسرائيل، التي يجب عليها حفظ هذه المواعيد. وفي تمام الساعة التاسعة عشرة والربع، التقيت وعلى عجل زملائي من فريق العمل الخاص، الذي كنت التقي بهم طوال الأسبوعين الماضيين في إجتماعات دائمة وهم : جيم شليسنجر، توم فورير، بيل كولبسي، وبرانت سكاوكروفت. وكانت اجتماعاتنا تلك تمتد يومياً إلى ساعات متأخرة، ولم نكن دائماً متفقي الآراء، لكني أؤكد أننا عالجنا أزمة صعبة، وكنا في طمأنينية إلى أنها سوف تنتهي بشكل جيد. وقد تمكنا من معرفة نهاية الطريق، وتغلّبنا على أكثر الأخطار سوءاً. وفتح أمامنا إنفراج يساعدنا على معالجة جدّية لقضايا الشرق الأوسط. وشعرنا بارتياح عظيم. ثم أجملت لهم الإستراتيجية التي سأتبعها ، خلال سفري إلى موسكو قائلاً:

«ان مجرد الذهاب إلى موسكو، يتيح لنا كسب بعض الوقت، ونتعاون على حلّ الأمور. والمناسبة ذاتها تجنّبنا مجئ غروميكو إلى هنا حاملاً تعليمات عنيفة. إن برانت سيطلعكم على كل ما سوف يجري تباعاً. سأعمل على التوصّل إلى وقف إطلاق نار فقط، ربما يلحق بتوجيه نداء لإجراء مفاوضات. ان ما يقلق هو ان إسرائيل في تعنّت ولا تريد قبول شيء، ويتراءى لي وجوب العودة إلى القرار (242) عسانا نصل إلى الوضع الراهن السابق، الذي كنا نؤمل الوصول إليه منذ البداية.

«وكل من في الشرق الأوسط يعلم، انه إذا أريد السلام، يجب المرور بنا. لقد حاولوا ثلاث مرات إحلال السلام عن طريق الإتحاد السوفيتي ولقد أخفقوا في جميعها».

وفي ما بقى من النهار، أرسلت مذكراتِ إلى الملك حسين، وإلى الشاه، لإعلامهم عن سفري المفاجيء، ولإبلاغهم انّا قد اتخذنا هذا القرار العاجل، جواباً على طلب مُلحّ من قبل السوفيت. وستبقى أهدافي كما كانت عليه سابقاً خلال المحادثات التي سأقوم بها، وهي وقُف مباشر للأعمال العدوانية، على أسس تتيح إمكانيات تقدّم جلّي نحو إحلال سلام نهائي عادل ودائم».

الفصل الثالث عشر

السفر إلى موسكو

سافرت إلى الإتحاد السوفيتي، مع معاونيّ، في تمام الساعة الثانية من صباح يوم السبت المصادف العشرين من شهر تشرين الأول، قرابة نهاية الأسبوع الثاني على بداية الحرب. ورافقني أيضاً سفير الإتحاد السوفيتي، اناتولي دوبرينين، كان المفروض ان يكون سفري سرّياً لكن البيت الأبيض، أعلن بعد إقلاع طائرتي بقليل، ان الرئيس نيكسون قد أرسلني إلى موسكو، لاجراء محادثات مباشرة مع الزعماء السوفيت، حول الوسائل، التي يمكنها ان تضع حداً للأعمال العدوانية في الشرق الأوسط.

تلقّيت خلال طيراني في الجو، تقريرين من دينيتز، يعلمني فيهما عن تقدّم القوات الإسرائيلية، وأسماء الأماكن التي وصلت إليها باللغة العربية. دون بيان الأهداف التي يتطّلعون إلى تحقيقها، ولا الوقت اللازم والكافي لتحقيقها. وكان يتضمن أحد التقريرين: ان الإسرائيليين يؤكدون ان وقف إطلاق النار بات قريباً. وان فراغ ذخيرتهم، سيحول قريباً دون تقدّمهم، على الرغم ممّا يجري في موسكو.

«ندير جميع أعمالنا، آخذين بعين الإعتبار، ما يمكن ان يفاجئنا به وقف إطلاق النار، من عدم تحرّك مفاجئ. وعند وضعه موضع التنفيذ، يجب ان نكون في موقف له قيمته من حيث وجهة النظر السياسية والعسكرية. ان اندفاعنا إلى الأمام، يجب أن نكمله بفعل روح قواتنا العالية، لكن علينا ألاّ ننسى ان هذه القوات تخوض غمار معارك ضارية، ودون هوادة أو انقطاع منذ السادس من شهر تشرين الأول».

أما التقرير الثاني فإنه يؤكد ان القوات الإسرائيلية قطعت طريق القاهرة ـ السويس، لكن المصريين يحاولون وبالطبع استردادها. وقواتهم الموجودة على الشاطئ الآخر للقناة تشكل قوتين اعداد كل منهما خمسة وثلاثون ألف رجل تقريباً. القوّة الثانية تقاتل في القطاع الشمالي، أما الثالثة فهي موجود في الجنوب، أمام مدينة السويس ويجب ان تطوّق فيما إذا كان الإسرائيليون قطعوا طريق القاهرة السويس.

فأبلغت برقياً برانت سكاوكروفت في البيت الأبيض، باستلامي هذين التقريرين وقلت في برقيتي:

«لا ألحّ على إطلاعي بالضرورة على جميع تفاصيل الوضع العسكري، انا بحاجة تقديرات دقيقة وعلى وجه السرعة.

«يجب على دينيتز، أكرّر يجب، ان يقدم لكم ثلاثة تقارير يومياً على الأقل، ويجب ان تصلني مباشرة. قل له ان ينظم اتصالاته بشكل حسن، إذا لم ينظمها حتى الآن. كما يجب ان تكون هذه التقارير واضحة وحقيقية.

لا أستطيع تجنّب الأخطاء، ما لم أكن على علم دقيق بما يجري، ولا سيما في ميادين القتال».

لا ضرورة تدعو إلى تلقيّ تقارير عسكرية إسرائيلية أخرى، إبان إقامتي في

موسكو، بل معلومات عن مصادر أمريكية، ولم أتلقّ للأسف أي تفسير حول هذا الموضوع. لأن القادة الإسرائيليين أنفسهم، ربما كانوا يجهلون هم أنفسهم مواقع وحداتهم التي كانت تتحرك بسرعة، ولا مدى نجاح هجوم مضاد يقام به في عدة اتجاهات.

لقد كان سفري مليئاً بالإهتمامات، لكنه مقلق. وكنت شديد الإهتمام ان تطوّرات واشنطن، لا تضيع عليّ فرص نجاحي هنا في موسكو. وكلفت سكاوكروفت منذ اعتلائي متن الطائرة، ان يقاوم ما ترمي إليه وزارة الدفاع، من حيث تقليص ضغوط الموازنة، فتحدث تخفيضاً على جسرنا الجوي نحو إسرائيل اثناء وجودي في الإتحاد السوفيتي. وذكّرته أيضا «حالما تربح إسرائيل، فان عمليات الإمداد لن تستمر، وإذا لم تستطع إتخاذ قرار وموافقتنا على وجهات نظرنا، سوف أكون في حلّ، وأبذل جهوداً مستميتة في سبيل البدء بالمفاوضات».

عند اقترابنا من موسكو، كان لديّ إنطباع اننا في موقف جيّد. و إسرائيل كانت على أهبة الإنتصار النهائي. لكن اطمئناني تهاوى، عندما تلقّيت مذكرة غير منتظرة من نيكسون، عندما استقلّينا الطائرة نحو روسيا، لم نكن على بيّنة ممّا يخبىء يوم العشرين من شهر تشرين الأول، الذي كان حاسماً بالنسبة للرئاسة، وكنا نجهل تلك المآسي التي دعيت فيما بعد «مجازر مساء السبت» لقد رفض النائب الخاص قبول موجز شرائط تسجيل نيكسون، الموضوعة تحت تصرّف عضو مجلس الشيوخ جون ستنّسن وكان يطالب بالشرائط ذاتها، رافضاً الاقتراح الذي تقدّم به نيكسون من حيث تقديم وثائق أخرى، حالما يرفض هذه. وهكذا فان نيكسون قد أحرج موقف الجميع، بطرده كوكس، الأمر الذي حمل النائب العام ايليوت ريشاردسون ومعاونه وليم ريكاولشاوس على تقيدم استقالتيهما.

لم أبلغ بشيء من هذا، فيما انا في الجو. وظهرت لي الأمور بادئ ذي بدء وكأنها

تحرّك دبلوماسي استثنائي من قبل نيكسون، والذي حدث هو اني أمطرت ببرقيات من البيت الأبيض فيما كنت ذاهباً إلى إحدى أهم المفاوضات، وإرسالها كان يؤدي بالرئيس إلى إراحة أعصابه، وليظهر لي انه لا يزال هو سيد الموقف، ولقد اتضح في النتيجة ان لا قيمة لما قد وصلني، ولا شيء فيها يشغل البال. ولقاء ذلك قرّر هذه المرة اتخاذ مبادرة ذات أهمية خاصّة، لا عودة عنها تجاه المحادثات. وكل هذا بدأ ببرقية عاجلة من سكاوكروفت تنقل إليّ مشروع الرسالة التي ينوي نيكسون إرسالها بوجه السرعة إلى بريجنيف بواسطة سفير الإتحاد السوفيتي في واشنطن. وخلاصة هذه الرسالة هي جعلي مفوضاً فوق العادة مطلق الصلاحية، لي ملء الحق والسلطة، وقد جاء فيها:

«ان الالتزامات التي يلزم بها نفسه كيسنجر، خلال محادثاتكم، أوليها كامل دعمي ودون تحفّظ».

وبالنسبة لبريجنيف فقد احتوت مايلي:

«ان الالتزام الثابت الذي نأخذه على عاتقنا نحن الإثنين، في تكريس جلّ جهودنا الشخصيّة في سبيل تحقيق هذا الهدف (سلام دائم) والبرهنة على سياسة ناشطة، غايتها إقناع أصدقائنا ذوي العلاقة في المنطقة. وها اني مرسل مذكرة للدكتور كيسنجر، سينقلها بدوره إليكم شفهياً، مدلّلة على صدق وثبات التزامي في هذا السبيل».

لقد صعقت، لأن مثل هذه المذكرة، لا تبقي لديّ أيّة إمكانية لتأخير الأمور وتأجيلها. وإمتلاك ملء السلطة يمنعني أيضاً من تأجيل حتى المشاريع التي لا قيمة لها لنيل موافقة الرئيس، سوى لأخذ رأي إسرائيل بشأنها. أضف إلى ذلك، فإن القصد من كل هذا هو اننا والسوفيت ملزمون بفرض تسوية عامة على الأطراف المتنازعة في الشرق الأوسط،، وإني مفوض بمناقشة مثل هذه المواضيع.

انها تساهلات تخالف على وجه العموم إستراتيجيتنا، التي كنا نسعى من ورائها حتى الآن، إلى فصل وقف إطلاق النار، عن تسوية سياسية.

أرسلت مذكرة إلى سكاوكروفت، موضحاً عدم رضاي عمّا حدث، وعن منحي ملء السلطة، الأمر الذي اعتبرته استثنائياً. كان عليّ والحالة هذه ان أؤكد للروس، على ضرورة تسليمي جميع الاقتراحات المنوي الاتفاق عليها لعرضها على الرئيس وتدقيقها، وكان تقديم تساهل مثل هذا يحول دون هذه الإمكانية أمّا بالنسبة للقيام بنشاط فعّال يقنع أصدقائنا أصحاب العلاقة في المنطقة، فقد حذّرت سكاوكروفت وبصراحة، ان حالما تنشر هذه الصيغة، فإن الرئيس سيجد نفسه في متاعب.

وصلت مذكرتي متأخرة، وكل ما ورد فيها من قنوط أنقلب إلى ابتهاج. لأن نيكسون كان قد ألحّ على سكاوكروفت لضرب الرسالة على الآلة الكاتبة وبالسرعة المكنة، ليتمكن من توقيعها، قبل أن يصله تعليقي عليها. ومن ثم فقد هدّد بتهيئتها وإرسالها من قبل أمينة سرّه، روز ماري ووديس، وعد ذلك أجبر سكاوكروفت على الخضوع. والمتعمقون في دراسة تاريخ البيت الابيض يعلمون ان أيّة ملاحظة يكتبها نيكسون أو أي رئيس سواه، بعد ضرب الرسالة على الآلة الكاتبة تجعل إعادة الرسالة مستحيلة، أما الملاحظة التي أضافها هذه المرة نيكسون وبخط يده فقد جاء فيها:

«السيدة نيكسون تشترك معي بأهدائكم أصدق تحيّاتها الشخصية للسيدة بريجنيف ولكم انتم ايضاً».

وهذا ما حرم سكاوكروفت من إجراء أي تعديل على تلك الرسالة، وهذا يعني انه لولا تلك الإضافة، لاستطاع إعادة ضربها على الآلة الكاتبة مع التعديلات التي أشرت إليها. وهكذا فقد سلمت لسفارة الإتحاد السوفيتي في تمام الساعة الحادية عشر والدقيقة الخامسة والعشرين، حسب توقيت واشنطن.

والروس من طبعهم عدم تفويت مكسب، يأتيهم بلا تعب، عندما ينوون حلّ المشاكل. وخلال بضع ساعات، كان جواب بريجنيف قد وصل إلى واشنطن. بسرعة لاتضاهى لا قبل ولا بعد، في تبادل المراسلات طوال سني إقامتي في البيت الأبيض. وان الرئيس السوفيتي فهم جيداً ما كان قد جرى فقال بريجنيف:

«فهمت ما قد أوضحتم، فالدكتور كيسنجر أقوى وأقرب مساعديكم ويتمتع بكامل ثقتكم سيتكلّم هذه المرة أيضاً باسمكم، وان الالتزامات التي سنأخذها على عاتقنا نحن وأنتم، اثناء محادثاتنا معه ستنال كامل موافقتكم».

ولكي يبقى كل ما يجرى في الحدود العائلية، فقد أضاف بريجنيف بدوره ملاحظة قال فيها:

«تشكركم السيدة بريجنيف، على ما أبديتموه نحوها من تحيات صادقة، وتشترك معي هي أيضاً لتسديكم تقديرها الشخصي للسيدة نيكسون ولكم أيضاً».

عند وصولنا الى موسكو نحو الساعة التاسعة عشر والدقيقة الثلاثين من يوم السبت الموافق للعشرين من شهر تشرين الاول، في الزيارة الاولى بصفتي وزيراً للخارجية، فان وزير الشؤون الخارجية السوفيتي، أندريه غروميكو، جاء بنفسه الى المطار لاستقبالي، واصطحبنا بسرعة وكأننا في مسابقة سرعة بطولة عالمية، حتى المقر المهيّأ لضيافتي على جبال لينين المشرفة على موسكوفا. وهذا هو المقر ذاته، الذي نزلت فيه سابقاً، وبنفس الاحتفاء والفارق الوحيد هذه المرة، أن رُفع العلم الأمريكي بسبب وظيفتي، وهذه اللياقة البروتوكولية بعثت التأثير في نفسي.

وماكدنا نستريح قليلاً، حتى دعينا الى وليمة اجبارية فخمة، استسلمنا بعدها وبسببها الى الكسل. ثم حاول مضيفي تغيير وجهة نظري من حيث عدم اجراء مفاوضات حتى صباح اليوم التالي (الاحد) كما كنت قد قرّرت سابقاً، وهذا أمر أطلعت عليه دوبرينين أيضاً. ولذا قاموا بحيلة بارعة، فبعث بريجنيف يدعونا أنا

ومساعدي ، لتناول طعام عشاء خاص، في آخر السهرة، في مكاتب اللجنة السياسية للحزب الشيوعي في الكرملين. علماً اننا أكلنا منذ قليل، لكن هذا لايهم.

يستحيل رفض دعوة الأمين العام، مهما تكن آراؤنا في أسبابها. وكنت لا أزال قلقاً ومتعباً بسبب طيران خمس عشرة ساعة، يشارك ذلك انتفاخ معدة على اثر الغداء الروسي، الذي دعينا اليه ولم يستقر بنا المقام. فتابع صفّنا سيره منهكاً الى الكرملين، وكانت الساعة تشير الى الحادية والعشرين تماماً. فاستقبلنا بريجنيف وهو مرتدٍ نوعاً من المعاطف على طريقة تشرشل يميل لونه الى الأزرق وقادنا الى حيث كانت طاولة اجتماعات، تتّسع لأربعين شخصاً وأكثر. وفي الجهة المقابلة لها كان مكتب فخم تعلوه شبكة هواتف موضوعة على حامل أبعاده شبيه بأبعاد أرغن متوسط الحجم.

كان للحرب النفسية التي استخدمها السوفيت، تأثير كبير، اضطرّنا الى قبول وبارتياح نفسي اقتراح بريجنيف، باجراء محادثة «غير رسمية» قبل البدء بتناول الطعام. ولم يبتعد في حديثه عما اتفق عليه تقريباً، فلا مفاوضات في الأمسية الأولى، لكن محادثة رئيس دولة شيوعية لا تعتبر مخالفة للأعراف، فأخذ بريجنيف بالكلام وكان فصيحاً، وتكلّم عن العلاقات الخاصة بين زعماء بلاده ونيكسون، وكان القصد من هذا الحديث، ان يحول بيني وبين الشدّة، عندما يأتي دور المباحثات الرسمية. ولم يفته ان يذكرني انني امتلك ملء السلطة، وانني لست ولن أكون مجبراً للعودة الى أخذ رأي واشنطن. ورغبة مني في تأجيل الأمور بادرت الى إظهار اتفاق الآراء كليّة حول المبادئ المناسبة، وعدم اتخاذ مواقف أحادية الجانب، أواللجوء الى الضغوط.

وماتكلمت به لم يكن سوى ثمن ضعيف وهزيل في مجال كسب الوقت، لكنه غير خالٍ من بعض الغرابة، لأن العلاقات بين البلدين كانت قد وصلت على وجه العموم الى القمة، في وقت معيّن، حيث كان البلدان، يرسلان عتاداً حربياً بآلاف الأطنان الى

طرفين متخاصمين يخوض كلاهما حرباً دون هوادة. وكان كل من البلدين يحاول تقليص بل إزالة نفوذ الآخر.

ولتوضيح هذا الغموض، بادر بريجنيف فأكد ان الإتحاد السوفيتي لم يقدم على شيء غير مألوف، بإقامة جسريه الجوي والبحري الى الشرق الأوسط. فما هذا العمل سوى تنفيذ لاتفاقيات قديمة منذ أربعة أعوام، تجبر الإتحاد السوفيتي على ارسال كمية من المدافع.

لم يكن إذكاء نار حرب الشرق الأوسط،، حسب تفكير الإتحاد السوفيتي، سوى تنفيذ التزامات موقعة، ولابدّ انكم توافقونني على ان التسليم فيه صعب، لكنه أضفى جوّاً من الصفاء على أمسيّة كانت فيها المحادثات كناية عن مماطلة.

فأجبته، وكان يشوب جوابي بعض التهكّم، انكم تنفذون اتفاقيات عقدت في أربع سنوات، خلال اسبوعين، انه انتصار ذو معنى!

لن يكون تاماً اللقاء بالزعماء السوفيت، دون سماع كلام تفاخر!

وعاد بريجنيف الى الكلام عن حرب طارئة، مرة ثانية، بسبب أزمة الشرق الأوسط ليعود بنا الى ما كان قد قاله سابقاً في زافيدوفو وسانت كليمانت وكان بما معناه: «يجب على القوتين العظميين فرض سلام شامل في هذه المنطقة من العالم».

فقاطعته قائلاً: اني آتٍ لاجراء محادثات حول وقف اطلاق نار، لا حول تسوية، وبعد بعض مغالطات لا طائل تحتها، قرّرنا إن ننتظم بالعمل في صباح اليوم التالي (الاحد) الساعة الحادية عشرة. تبادر الى ذهني المزاح فقلت ان تحدي مثل هذه الساعة المتأخرة، هو لإتاحة الفرصة لدوبرينين لتأدية الطقوس الدينية، فأجاب بريجنيف وباللهجة ذاتها : «هذه رغبته المفضّلة» وعلى كل حال، كنا نعلم هو وأنا، انه يلزمنا بعض الوقت لدراسة البلاغات العسكرية لتحديد مواقفنا في المفاوضات القادمة.

كنت معتقداً ان موقفنا لا بد ان يكون قوياً، وانجاز المحادثات على الأسس التي نريد، من حيث وقف اطلاق نار مكاني، مع عودة الى القرار (242) الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي، وفتح باب المفاوضات المباشرة بين إسرائيل وجيرانها العرب، ولأول مرة منذ وجودها.

لكني عندما وصلت لمكان إقامتي، كانت تنتظرني مفاجأة لم أكن أتوقّعها، لأن التوجيهات التي كان قد ألمح إليها نيكسون في رسالته الى بريجنيف، وإعلان البيت الأبيض عن ارسالها، وجدتها كلها على المكتب امامي.

وكانت المذكرة مقسمة الى جزءين: تحليل الوضع الراهن في الشرق الأوسط،، والنقاط الأساسية، الواجب بحثها شفهياً مع بريجنيف، وقد أملى كليهما نيكسون بالذات. ان الوثيقة تتضمن حكماً واضحاً على مشكلة الشرق الأوسط،، ولقد أثارتني قوّة هذا الحكم، الذي كان بمثابة تكثيف أحكام بالنسبة لعاصفة فضيحة واترغيت، التي لاتزال تعصف حوله. وقسمها التحليلي يختص بي أنا، ويؤيد الثقة في أن الولايات المتحدة الأمريكية او الإتحاد السوفيتي، لا بدّ أنهما عاملان على وضع حد للحرب القائمة. وإحلال السلام الشامل في الشرق الأوسط،. ان التقدم الإسرائيلي الحالي في السويس يجب ان إلاّ يثني عزمنا، عن بذل أقصى جهودنا، للوصول الآن الى تسوية عادلة. ولا بأس، من أخذ مصلحة إسرائيل بعين الإعتبار، وممارسة الضغوط الممكنة للتوصل الى قبول تسوية معقولة، ونحث السوفيت لحمل العرب على الرضا بها. ومن ثمّ عدّد نيكسون تلك العوائق التي حالت حتى اليوم من الوصول الى حلّ، ومنها عناد إسرائيل ورفض العرب التفاوض على أساس قواعد واقعية، ومساعينا نحن نحو مبادرات جديدة، ويستحسن ان يقبل الفريقان بحلّ دائم.

ان المذكرة المرسلة الى بريجنيف لتنقل إليه شفهياً لم تكن لتختلف عن تلك التوجيهات التي وصلتني. وكان عليّ ان أؤكد، ان خلافاً لما قد جرى في تنفيذ الاتفاق

التجاري الأمريكي السوفيتي، فان نيكسون قادر على استخدام نفوذه في الشرق الأوسط،، دون اللجوء الى الكونغرس، ولقد جاء فيها أيضاً، ان وجهات نظر بريجنيف الصحيحة والصائبة، قد عرضت وعرفت في شهر حزيران في سان كليمانت وهي: «ان الإسرائيليين والعرب ليسوا بقادرين على معالجة مثل هذه المواضيع وبطريقة معقولة. ولأجل ذلك فإني أنا و نيكسون، نسعى الى أخذ الأمور بالإعتبار المطلوب وبكل رباطة جأش، وعازمون على اتخاذ احسن السبل للوصول الى تسوية عادلة، ومن ثم ممارسة الضغوط اللازمة، على اصدقائنا ذوي العلاقة، في سبيل تسوية، تُحلّ السلام في هذه المنطقة المضطربة».

❐ ❐ ❐

اصبح ضرورياً الآن أكثر من أي وقت كان، ان نضع حداً للحرب، قبل ان يحاول السوفيت استغلال مأساتنا الداخلية. فألزمت نفسي إذاً بالمخطط السابق، والاكثر اختصاراً، الذي وافق عليه نيكسون قبل سفري، لكن بريجنيف من جهته، كان على عجل في أمره للتوصّل الى وقف إطلاق نار، متغاضياً عن التوجيهات، التي ألمح إليها نيكسون في رسالته إليّ.

أجّل لقائي بالأمين العام الى ظهر يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول. الأمر الذي جعلنا نأخذ جميع الاستعدادات اللازمة. وعلى الرغم من توصياتي المتكررة الى دينيتز، فان الحكومة الإسرائيلية، لم ترسل لي أي تقرير عسكري خاص. لكن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، أرسلت إلي في ساعة متأخرة من ليلة السبت، بلاغات ضابط إسرائيلي كبير، تقول ان القوات الإسرائيلية، قد قطعت جميع طرق المواصلات والسكك الحديدية من القاهرة الى الإسماعيلية والسويس، عازلة القوات المصرية في الساحل الشرقي من القناة. وهذه البلاغات مثلها مثل الكثير من الإدّعاءات الإسرائيلية طيلة الحرب، لا بد وان تكون غير دقيقة. لكنها بالنسبة لنا في

موسكو، تبدو وكأنها تحمل برهاناً جديداً على ان إسرائيل هي في طريقها الى كسب أهدافها الإستراتيجية الرئيسية على الجبهة المصرية.

ونحن من جانبنا لانزال نقول ان موسكو وضعت في حالة التأهب، قوات قادرة على التدخل في الشرق الأوسط،، وبينها عدة فرق محمولة جواً. وعلى أيّة حال فان بريجنيف على الرغم من تصريحاته ومناداته بالسلام، فانه لا بد قد وضع مسبقاً مبادرة عسكرية في حال فشل المفاوضات.

وكانت المعلومات الواردة من أجهزتنا صباح يوم الأحد، أكثر غموضاً. وأشارت وكالة المخابرات المركزية، الى وجود معارك ضارية حول قناة السويس وان الفريقين المتحاربين لا بد وانهما أمام متاعب خطيرة، وبيّنت ان مركز العمليات الإسرائيلية ونشاطها هو بين البحيرة المرّة الكبرى والإسماعيلية. ومن يتأمل في هذه المعلومات يجد ان الاندفاع متجه نحو الشمال، لا حركة التفافية نحو السويس كما كانت تظهر. (وفي الواقع، فان القوات الإسرائيلية كانت تهاجم في اتجاهين معاً، الشمال والجنوب، لكن الاتجاه الثاني كان اكثر واقعية). وأبرق لي سكاوكروفت، انه تقدم للرئيس بتقرير يؤكد تقدماً إسرائيلياً منتظماً، لكنه بطيء. ولم يردني شيء مباشرة من القدس، لا عن عملياتها ولا عن نواياها.

ان المعلومات الأكثر وضوحاً، جاءت ضمن بلاغ إذاعه موشي دايان وزير الدفاع. ذكر فيه ان موقف بلاده لايزال في تحسّن، غير انه لم يتعرّض في بلاغه الى وقف إطلاق النار. لكنه لمحّ إليه، انه عند بحثه يجب ان يرتكز على أحد هذين الشرطين:

١ ـ عودة الفريقين الى خطوط ما قبل النزاع.

٢ ـ محافظة كل من الفريقين على الأراضي المحتلة في وقت إعلان وقف اطلاق النار.

ولسنا ببعيدين عن تطبيق الشرط الثاني، عند وصول نص بلاغ دايان إلينا، وصلتني مذكرة من القاهرة، عن طريق واشنطن، قبل لقائي ببريجنيف، أي في ساعة مبكرة من صباح الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول. وللمرة الأولى، يعلمني اسماعيل فيها ان السادات راغب في التفريق بين وقف اطلاق النار، والتسوية الشاملة. وكتب قائلاً: ان القاهرة تكتفي بمؤتمر سلام، وضمان الولايات المتحدة و الإتحاد السوفيتي لوقف اطلاق النار، يتبعه حالاً انسحاب سريع للقوات الإسرائيلية. ولم نكن على استعداد لإعطاء ضمان مثل هذا، لا سيما بالاتفاق مع الإتحاد السوفيتي. واني لا اعتقد كذلك ان هذه المذكرة، هي كلمة مصر الأخيرة حول هذا الموضوع.

وبسبب الفارق الزمني، فالوقت الآن صباحاً في واشنطن، ولم يصلني شيء اضافي وأكيد حول الأعمال السيئة التي جرت «مساء السبت» ولم أتلقْ أبداً تعليمات أو معلومات أخرى جديدة، إلا في طريق عودتي، بعد الانتهاء من المفاوضات.

واذا كانت معلوماتنا نادرة، ولاتعطي انطباعاً حقيقياً لأي شيء، فان السوفيت كانوا على علم أكيد أكثر منيّ. وفعلاً عندما وصلت الى مكتب بريجنيف ظهر يوم الأحد لمست رغبة شديدة في وضع حد للأمور، التي لم نتفاوض عليها رسميا. فبدأ بريجنيف الجلسة مبدياً بعض الملاحظات، وغالباً ما كانت طويلة، وبيّن انه على استعداد لمناقشة مبادئ تسوية عامة، او وقف إطلاق النار. وعندما قلت له اني على استعداد لمناقشة الموضوع الثاني فقط، قبل بكل لطف.

بعد ان بدأ النقاش، عاد الى مناوراته السياسية السوفيتية المعتادة، زاعماً انني وافقت على مخطط مناقشة قدّمه دوبرينين ويتألف من ثلاث نقاط وهذا شيء جديد بالنسبة لي، لأني كنت قد رفضت نقطتين من الثلاث نقاط التي كان قدّمها. وأكدت على موقفنا مرّة أخرى.

وعلى وجه العموم فان السوفيت يدافعون عن مواقفهم بعناد ولا يتراجعون، ثم

يتساهلون فيتخلون عن اقتراح متعنّت نظير هذا. وهذه المرة بالذات لاحظت ان بريجنيف تقبّل ملاحظاتي بل واقتراحاتي قبل ان أنهي تقديمها. فقلت له:

«اني لا أزعم ان اقتراحاتي هي على درجة المثالية، حتى تقبل على علاّتها».

ولكي اتمكن من التهرب من اتخاذ المشروع السوفيتي أساساً للمحادثة، قدّمت اقتراحاً معارضاً أعددته مع جوسيسكو خلال الليل. وهو يبحث مبدئياً بوقف إطلاق النار. ومن ثم يستبعد الرأي السوفيتي من حيث التأكيد على انسحاب إسرائيلي مباشر، ولا يلمحّ إليه، بل يطالب الفريقين المتخاصمين بتنفيذ قرار مجلس الأمن (٢٤٢) في جميع بنوده.

وهذه صيغة مبهمة تستولي على اهتمام الدبلوماسيين طوال سنوات عديدة دون الوصول الى اتفاق.

أما النقطة الثالثة من مشروعنا، فهي تطالب بمفاوضات مباشرة، بين الأطراف ذات العلاقة، بإشراف جهات مختصة. وبعبارة أخرى، فان وقف اطلاق النار، سيؤدي الى مفاوضات مباشرة مع إسرائيل، الأمر الذي رفضه دائما العرب وطالب به معظم الوزراء الإسرائيليين مبينين أنه الحل الوحيد الذي يحملهم على تنازلات وتساهلات، ولم نأت بمشروعنا على ذكر «ضمانات».

وكانت دهشتنا كبيرة، عندما قبل بريجنيف وغروميكو بنص مشروعنا بعد أن أجريا عليه تغييراً طفيفياً ، لم يمس سوى صيغة تركيبه، تتعلق بالإشراف على المفاوضات المباشرة، وضمان نجاحها من قبل الولايات المتحدة و الإتحاد السوفيتي، وتلميح الى السلام الدائم والعادل الواجب ان يعقبها.

فرفضت أيضاً هذا الاقتراح وأكدت أن الأشراف يجب ان يكون بحضور دبلوماسيين سوفيت وأمريكان، لدى افتتاح المفاوضات، ومن ثم لا عمل لهم الا في

الامور التي تحتاج الى معونة لحلها. وبعد ان اكملت كلامي، وافق أيضاً بريجنيف وغروميكو بعد ان أجريا بعض التعديل.

بعد أربع ساعات من المفاوضات، اتفق على نص وقف اطلاق النار، ضمن بلاغ أمريكي - سوفيتي، بما فيه تحديد كلمة «اشراف».

لقد كان هذا مدهشاً حقاً، اذا أخذنا بعين الاعتبار وجوب ترجمة النصوص وتدقيقها. والتوقف الذي يطرأ على الجلسات للتشاور بين الفرقاء.

أضف الى ذلك فان الاتفاق كان افضل مما كنا ننتظر منذ اسبوعين. ان المشروع الأمريكي المبدئي كان يهدف الى وقف اطلاق النار، وعودة الى تطبيق نصوص القرار (242) الصادر عن مجلس الأمن الدولي. وفي البلاغ الذي صدر منذ أربعة شهور على أثر اجتماع قمة بريجنيف - نيكسون، أذكر ان بريجنيف كان قد رفض كل تعبير من هذا النوع. ولما اندلعت الحرب، أخذ السوفيت يطالبون ان نتعاون في تفسير نصوص القرار (242) ونفرض شروطاً لا تبتعد في مراميها عما يطالب به العرب. أما الآن فقد توصلنا الى انجاح خطتنا، من حيث الابقاء على تفسير القرار (242) لمفاوضات مباشرة بين الأطراف. أما الاشراف الذي كان غامضاً في تحديده، كما أبرقت لسكاوكروفت، فهو خشيتي من تدخل جهات تفرض علينا ضغوطاً، وعلي أن أصرح، كنت أخشى تدخل بعض الأوروبيين.

ولاتزال أمامنا نقطة واحدة لمناقشتها في موسكو، وهي البدء بتنفيذ قرارنا المشترك في نيويورك، حول وقف اطلاق النار. ورأى بريجنيف وغروميكو تقديمه لمجلس الامن الدولي في الحال، وتنفيذه منذ اقراره، ولا بد ان تكون هذه السرعة برهاناً (على أمر لم أبلغه رسمياً من مصادرنا، ولا من مصادر إسرائيلية) على أن الجيوش العربية في ضيق. على أن هذا الاقتراح كان غير ممكن التحقيق على وجه العموم. وكانت الساعة السادسة عشر في موسكو، والتاسعة في واشنطن، ولا يزال

أمامنا ساعة على الأقل، لصياغة التقرير وملحقاته، بالاضافة الى ساعة أخرى للتمكن من إرساله الى واشنطن. ولا بد أن يتبع ذلك مباحثات مع أهم أعضاء مجلس الأمن ولا سيما إسرائيل، واذا دققنا في اعتباراتنا، فان هذه المحادثات لن تبدأ قبل الظهر، حسب توقيت واشنطن، فاقترحت أن يطالب ممثلو الأمريكان والسوفيت، اجتماع مجلس الأمن، في تمام الساعة الثامنة عشر حسب توقيت نيويورك، وعلى أن يعقد في الساعة الحادية والعشرين، وهكذا يبقى أمامنا متسع من الوقت بقدر تسع ساعات للمداولة.

ان وقف اطلاق النار لن يكون قابلا للتنفيذ، الا بعد اثنتي عشرة ساعة من اقراره، حيث يحتاج الى عدة ساعات من المناقشة، قبل بريجنيف هذا التوقيت على مضض، علماً انه يؤجل العمل به ثمانية وعشرين ساعة في أحسن الأحول. ثم أخذ يستخدم نفوذه لتتم مبادلة الأسرى في أقصر مدة ممكنة، تطابقاً مع الحاحي حول هذا وكنت أطالب به بإسم إسرائيل.

عاد الفريق الأمريكي الى مقر الضيافة، ليضع خلاصات ما تم الاتفاق عليه، وسرعان ما أعددت بمساعدة مرافقيّ تقريراً الى الرئيس، ورسالة يرسلها بدوره الى رئيسة الوزراء غولدا مائير، وسكاوكروفت هو الذي سيقوم بتسليمها الى دينيتز في واشنطن بعد وصولها اليه مباشرة، وطبعاً لن تصل الا بعد الظهر حسب توقيت واشنطن، بموجب تقديراتي، أي تسع ساعات قبل اجتماع مجلس الأمن، ونحو اثنتي عشر ساعة قبل اجراء التصويت.

أما رسالة نيكسون لمائير، فهي تلخص ما قد أنجزنا:

«السيدة رئيسة الوزراء، حسب تقديرنا يجب الوصول الى نجاح بالغ الأهمية لكم ولنا، وقادر على الحفاظ على بطولة قواتكم.

١ ـ سيتيح المجال أمام قواتكم بالبقاء حيث هي.

٢ ـ لم يرد أي ذكر للانسحاب في القرار المنوي اقراره.

٣ ـ لاول مرة، استطعنا الحصول على موافقة الإتحاد السوفيتي لاصدار قرار يتبنى اجراء مفاوضات مباشرة بين الأطراف، دون شروط أو تحفظ، وتحت اشراف مناسب.

وفي الوقت ذاته، فقد اتفقنا نحن والسوفيت، على جعل أنفسنا تحت تصرف الأطراف مجتمعة في سبيل الاشراف، لتسهيل تنفيذ القرار، اذا كانت هذه الأطراف أي إسرائيل والعرب، وافقت على ذلك».

وهكذا فان الرسالة أوضحت الفارق الرئيسي، بين قرار وقف اطلاق النار هذا بصيغته الجديدة، وبرنامج السادات الذي أعلن عنه منذ خمسة أيام، وبالطبع توقعنا ورود جواب.

وأرسلت أيضاً مذكرات بهذا المعنى لحافظ اسماعيل، والشاه والملك حسين وسفيرنا في الأمم المتحدة، جون سكالي وفي الساعة السابعة عشر والدقيقة الثلاثين، بتوقيت موسكو، يكون كل شيء قد تم.

وفي تمام الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الثلاثين، طالبت مقابلة سفراء بريطانيا العظمى وفرنسا واستراليا الموجودين في موسكو، والاثنان الأولان كونهما أعضاء دائمين في مجلس الأمن، والثالث كونه يمثل بلاده في نيويورك، التي ترأس مجلس الأمن خلال شهر تشرين الاول. ولقد أبدى الدبلوماسيون حكمة بديهية عندما يقصد باعطاء رأي في مواضيع لم تطلع عليها بلادهم بعد، وبادروا الى تهنئتي على ما أحرزته من نجاح قبل الاسراع بارسال تقرير الى عواصم بلادهم بهذا الخصوص. ولأسباب فنية واضطراب في المواصلات، ربما تصل اخبارياتهم قبل وصول تقاريرنا.

تمددت ساعة لآخذ قسطاً من الراحة، وعندما استيقظت في الساعة العشرين (الساعة الثالثة عشر بتوقيت واشنطن) دهشت من عدم وصول أية تقارير مما أرسلت الى واشنطن، حاول معاونيّ ارسالها أولا عن طريق سفارتنا (والتي تبعد عن مقر ضيافتنا نحو خمس وأربعين دقيقة) ولكن هذه كانت تصطدم بعقبات تحول دون ارسالها المباشر. حينذاك أوعز الى طائرتنا الرئاسية، التي كانت تحط في مطار فنوكوفو رقم (٢) حتى تهيّئ اتصالا بقاعة لوبوانت في البيت الأبيض، وهكذا وصلت البرقيات بصورة تحتاج لاعادة فك رموزها. فبادر معاوني لاري ايغلبرغر، وأجرى اتصالا بسفارتنا، ثم اتصل ببرانت سكاوكروفت في واشنطن عن طريق خط هاتفي عادي، لكن رسالة غولدا مائير تأخر وصولها الى دينيتز. ولم يبق أمامنا خيار، ووجب علينا أن نعود الى السفارة، للاعلام عن طريقها.

بقي الوضع على ما هو عليه، على الرغم من هذه الصعوبات الطارئة. وهكذا فقد أضعنا أربع ساعات على الأقل، وضاع معها جزء كبير من ثقة الإسرائيليين التي يمنحوننا اياها. فاعتقدت بادئ ذي بدء إن هناك عطلا تقنياً غير معروف، فقيل لي أن زوبعة مغناطيسية في الجو هي التي تحول دون إيصال الرسائل. واستغربت جداً في اليوم التالي، ان وسائل الإرسال في الطائرة الرئاسية قد عطلت جميعها وبشكل مفاجئ علماً انه منذ خمسة أعوام لم تعرف أجهزة ارسالها الدبلوماسية خللاً. ثم تذكرت ما جرى معي من تأخير وعطل في ايصال برقيات دبلوماسية أردت ارسالها الى نيكسون، خلال زيارتي السرية السابقة الى موسكو، في نيسان ١٩٧٢، قبل انعقاد مؤتمر موسكو. واذا كان هذا العطل مقصوداً في حينه، الأمر الذي لا أستطيع اثباته، فلم ينتفع منه السوفيت سوى القليل ، لانه لا بد من تسوية الأمور. وان ما كان يدعوني للتأثر هو عدم الثقة، لأن البيروقراطية مستعدة لإغتنام مكاسب مهما تكن بسيطة.

لا مجال للشك في أن هذا التعطيل قد قلص الوقت الذي كانت تحتاجه إسرائيل لإكمال عملياتها العسكرية، لدى اقتراب وقف اطلاق النار. ولا نعير هذا أهمية كبرى، لأن القدس كانت على علم أني في موسكو لمناقشة وقف الأعمال العدوانية؛ ومن المعلوم أن الوقت المطلوب لاكمال العمليات بعد المفاوضات، سيكون قصيراً. ولقد ضاعفنا تقريباً الثماني والأربعين ساعة، التي حدثت عنها دينيتز منذ أسبوع، وعلى إسرائيل ان تتقدم بكل سرعة، مهما تكن الظروف والأحوال.

أضف الى ذلك فقد استطعت استعادة احدى الساعات الضائعة الماضية، حيث قررت أن أبرق الى جون سكالي في نيويورك وبينت له ان مصلحة أمريكا والإتحاد السوفيتي غير متماثلتين في وقف اطلاق النار.

ان التأثير الحقيقي لهذه المناورة، فيما اذا وجدت، هي تعطيل الاتصال بين أمريكا وإسرائيل. والساعات الضائعة من جراء مشاكل الإتصال، لم تبق أمام إسرائيل سوى ثماني ساعات لتصمم ما تريد عمله، بدلاً من أثنتي عشر ساعة كنا نقدرها لها. وأصبح لدى القدس انطباع بإصدار بلاغ نهائي، لا يتفق ونياتنا. ولأخذ العلم فان إبلاغنا باقي الحكومة بهذا الشأن والشخصيات المسؤولة في الكونغرس وبقية الحكومات، ولا سيما جمهورية الصين الشعبية كلها قد تأخرت. وأخذ سكاوكروفت اكمال هذه الأمور بنشاطه المعتاد. وبقي هوانغ شين، مدير مكتب الارتباط الصيني هو الوحيد بين دبلوماسيي بلاده، لم يطلع على ما جرى. ولم يرضه كثيراً بعد أن علم بموضوع حصول اتفاق أمريكي روسي حول اقتراح يقدم لمجلس الامن، لكننا عرفنا السبيل الى اطلاع بكين على واقع الأمر خلال إستراتيجيتنا (وفي النهاية فان الصين لم تشترك في التصويت على قرار مجلس الامن، لانها لم يُتح لها الوقت بدراسة أبعاد القرار).

كنت ولا ازال أعتقد حتى الآن، اننا حصلنا على أعظم قدر ممكن، وكل طلب زيادة ربما اقترن بالذل والخسران، وربما أفسد مشروع السلام الذي كنا مصممين

على انتزاعه والتحكم فيه. وهكذا فقد أثبتنا أن الأسلحة السوفيتية لن تشكل خياراً حقيقياً وواقعياً للعرب، ولنستغل هذا الموقف يجب علينا أن نظهر أن الإعتدال جدير بالنجاح أيضاً.

ليست لنا أية مصلحة لحمل العرب على قبول السلام، من خلال توسط المتشددين او السوفيت. أما بالنسبة لموسكو فقد وصلنا معها الى مجابهة ربما تكون خاسرة. لكننا لن نتراجع أمام صدمة، نرى وراءها مغانم حيوية، سنبينها للعالم بعد أيام قليلة، لكننا لانفكر أبداً أن تغيير وجه عربي بهزيمة يدخل ضمن هذه الزاوية.

لكن سكالي أشار لاحقاً، أن مجلس الأمن قد أقر القرار (٢٣٨) أعني به الاقتراح الامريكي حول وقف اطلاق النار في تمام الساعة العاشرة وخمسين دقيقة حسب توقيت نيويورك في اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، وهذا يقابل الساعة السابعة والدقيقة الخمسين في موسكو، وكنت إذ ذاك أتناول الفطور مع غروميكو في مقر الضيافة، الأمر الذي يجعلني أنا صاحب البيت والدعوة. وكنا نشعر بحيوية مفرطة ترافق عادة نهاية كل مفاوضات استلزمت جهوداً جبارة وأخطاراً متناسقة. وكانت الغاية الرئيسية من هذا اللقاء تدارس معنى ومن يملك حق (الاشراف المناسب) الذي ورد في مقرراتنا. ولا مجال للشك في أن الروس سوف يقنعون أتباعهم من العرب، أنهم استطاعوا اقناعنا لتطبيق برنامجهم وللحقيقة فإن ما حدث هو عكس ذلك، وهذا ما اتفق عليه ووقعت وثيقة بهذا الصدد تحدد الاشراف.

ستجري المفاوضات بين الأطراف ذات العلاقة بمساهمة فعالة من قبل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، وأثناء النقاش، وعند معالجة المشاكل الرئيسية للتسوية.

لقد كثر الحديث والتأثر عن أهمية توثق العلاقات الأمريكية السوفيتية ولا بد من أن يكون البعض قد نالها ببعض السخرية، في سبيل استبعاد قرارات لا عودة عنها،

وخلال جلستنا كان غروميكو يتحدث عن صديقه وحليفه السادات وعلى الرغم من أن الوقت لا يزال باكراً، لجأ الحضور إلى احتساء الكونياك. ولم يطل بنا المقام حتى عدنا إلى اخبار الحروب والقتال، وصعوبة تطبيق وتنفيذ القرارات والتي طغت على جميع تقاريرنا.

❐ ❐ ❐

أوحت إلي غولدا مائير رئيسة وزارة إسرائيل خلال اتصال هاتفي أن أتوقف في إسرائيل في رحلة عودتي من الاتحاد السوفيتي. وخطر لي أنها مناسبة لائقة أتمكن فيها من توضيح الأمور، لكن تل أبيب، ليست على نفس الاتجاه الذي يفصل موسكو عن واشنطن مباشرة. وبلبقاتها المعهودة لم تربط قبولي بالزيارة بالقرار (٣٣٨) الذي عرض للتصويت من قبل مجلس الأمن الدولي. لكنها ولو لم تبح بذلك شعرت أنها بحاجة لدعم موقفها، لتتمكن من مواجهة مرحلة ما بعد الحرب، والمحافظة على نفوذها في حكومتها.

وحالما قبلت الدعوة، أعلمت السادات وحسين والسوفيت والسفراء المعتمدين لدى حلف شمال الأطلسي، وفي الوقت ذاته نظمت أموراً جديدة لم تطرح بعد وهي بحاجة للحل. اتخذت قراري نحو الساعة السادسة من اليوم الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، وقررت السفر من موسكو بعد أربع ساعات. وفي سبيل ذلك يجب علي أن أحصل على تسهيلات مرورية، وليس أمراً سهلاً وجود موظف رسمي سوفيتي يعمل حتى هذه الساعة المتأخرة، فنبين له خط سيرنا واجتيازنا لأكبر قسم من الأجواء السوفيتية وهي محرّمة عموماً على الأجانب، لا سيما إذا عرفوا أننا غيرنا وجهة سيرنا من الغرب إلى الجنوب، وكان لنا قائم بالأعمال في موسكو يدعى ادولف (سبيك) دويس وهو دبلوماسي ممتاز، (اغتيل عام ١٩٧٩، حين كان موظفاً في

أفغانستان)، فأخذ الأمر على عاتقه، وبوسائل خاصة لا يدركها سوى اعضاء السلك الدبوماسي، ويحتفظون بها لأنفسهم نفّذ جميع الاجراءات خلال وقت قصير.

أقلعنا نحو الساعة العاشرة، حسب توقيت موسكو، وعندما أصبحنا في نصف الطريق تقريباً فكّرت حالاً أننا سائرون باتجاه مستقيم نحو منطقة العمليات، ووقف إطلاق النار لن يعتبر قابل التنفيذ، إلا بعد بضع ساعات، ومن الممكن ألاّ نستطيع الحصول على حماية جويّة من طائراتنا في الأسطول السادس في مثل هذا الوقت القصير الحرج، فأخذ لاري ايغلبرغر بالاتصال بالبنتاغون، الذي بدوره أعلم مركز القيادة العسكرية القومية بالأمر، فوعد بإجراء ما يلزم بسرعة، وهكذا كان، وجاءنا العون من الطيران الحربي، ولحقت بنا عدة طائرات حربية فوق أجواء جزيرة قبرص، ورافقتنا حتى هبوطنا في مطار اللد في تل أبيب.

وللحقيقة لم أتمكن من معرفة ما حدث، وكان في حينه دانيال مورفي آمر الأسطول السادس، وهو مساعد أركان قديم لوزير الدفاع ملفن ليرد، ثم رقُي فيما بعد إلى وظيفة أمين عام لدى نائب الرئيس جورج بوش، وبعد عدة أشهر، التقى به ايغلبرغر في إحدى حفلات الاستقبال في واشنطن، وهنأه وشكره على إقدامه العجيب في شهر تشرين الأول عام ١٩٧٣، فحدّثه مورفي عمّا جرى.

كان الأسطول السادس يتأهب لعمليات حربية بحرية، عندما وصله طلب البنتاغون حول القيام بتغطية جوية لطائرة وزير الخارجية، فتساءل الاميرال عن الأجواء التي كنا فيها، وهذا سؤال معقول، لكن مركز القيادة العسكرية القومية أجابه بالحال: «في جوّ ما بين موسكو وتل أبيب»، وقائد طائرتنا لم يرض بإعطاء تحديدات أكثر خوفاً من مهاجمتنا من قبل طائرات غريبة، تتعرف على النقطة التي وصلنا إليها. فأرسل مورفي في الحال عدة طائرات لتقوم بمسح جوّي في أجواء الجهة الشرقية من البحر الأبيض المتوسط، وطلب إلى الطائرات التي كانت في الجو أن تفتّش عنا أيضاً

(على مدى ما يسمح لها وقودها). وهكذا قضى مورفي بعض الوقت قلقاً حين يرده جواب الطيارين انهم لم يجدونا، وقد بعث بجواب أيضاً للبنتاغون «أننا لم نجده بعد لكن هذا لن يطول». وفعلاً لقد لحقت بنا الطائرات وهدأ قلق القبطان لكن مستوى الوقود قد تدنّى، ولم يبق فيها سوى ما يعيدها إلى حاملتها. ولقد قال مورفي لايغلبرغر، أن هذه الحادثة كانت بمثابة أكبر اختبار لأيام قيادته لقوى الأسطول السادس الجويّة.

ولقد سئلت مراراً، عن أحرج لحظة مرّت عليّ خلال سنوات خدمتي في الحكومة، وكان يصعب عليّ مقارنة ما مرّ بي من أحداث تستحق الذكر كانت قد مرّت بي في ظروف ثقافية وسياسية مختلفة. ولكن وبكل تأكيد أستطيع أن أضع برأس القائمة وصولي إلى إسرائيل في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٩٧٣.

هبطت طائرتنا في مطار اللد (يدعى اليوم بن غوريون) في تمام الساعة الثالثة عشرة، حسب التوقيت المحلّي، وكتب ونشر الشيء الكثير على اثر ذلك أن اسرائيل راغبة في متابعة الحرب، وغير قابلة بوقف اطلاق النار، وساعدها قدومنا إليها، ولا يوجد هناك من خالجه الشك في ذلك، لكن الحقيقة تختلف:

جنود ومدنيون كانوا يرحبون بالسلام وكأنه أحسن صنيع يرتجى. لقد أبدت اسرائيل قدرة، لكن مقاومتها أشرفت على الانهيار.

إن من جاء لاستقبالنا، كان يشعر في أعمق أعماق كيانه، هول الكارثة التي خرج منها للتو، والإضناء الذي ألمّ بهم خلال اسبوعي الحرب الفائتين. وكانت فئات قليلة من جنود ومدنيين، يهلّلون ويصفّقون وعيونهم مغرورقة بالدموع، ويرتسم على وجوههم الضنى، الذي يشعر بقدرة احتمال وحدود المعاناة الانسانية. أن اسرائيل كانت منهكة، مهما تكن انتصاراتها العسكرية. وشعبها متطلّع ومتشوّق للسلام كهؤلاء الذين لم يذوقوا له طعماً. وكان الجو مماثلاً في هرتزيليا، بالقرب من تل أبيب، في بناء المستقبل العتيد المدعو: «دار الضيافة» وكان مقاماً على تلّة، واستقبلت فيها

من قبل غولدا وحكومتها، وهي مسوّرة بأسلاك شائكة، ولها حراسة مشدّدة، وأثاثها من طراز حديث، لا يعتبر من الأنواع الفخمة. وصدف أني دخلت إلى هذا البناء عدّة مرات، وثبت لي أنه لم يدخله مدعوون سواي. وهو مكان آمن للقاءات سرّية مع زوّار أجانب.

يمكنني أن أعد بين من استقبلني، غولدا ـ دايان ـ دافيد اليعزر، رئيس الأركان العامة، وفريق من الضبّاط والوزراء، بينهم السفير السابق اسحق رابين، الذي هو الآن دون وظيفة رسمية، وحضر المحادثات لكنه لم ينبس ببنت شفة، وكان في الوقت نفسه قلق البال. والانفعال مرتسم على جميع الوجوه. ولا بدّ من سماع إطراء أصبح لديهم طبعاً، لكنه في هذا الظرف كان يتعب المشترك فيه أكثر من تصديقه. وكان الكلام مقصوراً على الانتصارات وكأني بهم يريدون إظهار ما يتمتعون به من منعة. وكان بعضهم يدمدم، أن ثلاثة أيام فقط ستكون كافية للإحاطة بالجيش المصري الثالث وتدميره. ومن كرّر منهم: يلزمنا ثلاثة أيام» كانوا جدّ متفائلين. ولم يجري أيّ حديث يوحي بمنح إسرائيل هذه المهلة، لأن هذا سيعّرض العلاقات بين القوتين الأعظمين للخطر، ويسيء الى الموقف الأمريكي في العالم العربي، وهذا ليس ببعيد عن أذهان الإسرائيليين. وكان حديثهم عقلياً لا عتابياً، ويعودون بأقوالهم إلى امجاد عام ١٩٦٧، أكثر ممّا يجري حالياً.

على أية حال فإن الجيش الثالث، لم يحتلّ مكانة مرموقة بأحاديثنا التي دارت في دار الضيافة، وعندما سألت غولدا، عما تهدف إليه اسرائيل، في حال عدم تطبيق وقف اطلاق النار، فأجابت على الفور: بور فؤاد، في نهاية طرف القناة الشمالي، في قطاع الجيش الثاني، بعيداً قدر الامكان عن الجيش الثالث. وإذا تأمل المرء ملياً يوم الاعلان عن وقف إطلاق النار يجد أننا فقدنا ألفي جندي وهؤلاء يقابلون خسارة مائتي ألف أمريكي على حدّ قولها.

كان الاسرائيليون يعلمون ومن أعماق نفوسهم، أنهم حتى لو ربحوا المعركة الأخيرة، فإنهم فقدوا هالة عدم الانكسار، والجيوش العربية لم تدمّر، على الرغم من عدم انتصارها. لكنّها لم ترتجف أمام بطش إسرائيل، التي قدّر لها الإفلات من كارثة محتومة، ومن ثم تمكنت من الانتصاب بعد الركوع، ولو أنها تحارب الآن في أراض محتلة، لكنها تلاقي مستقبلاً غامضاً منعزلاً، يضيق يوماً بعد يوم ويخسر الأصدقاء. نظرة غير واقعية إلى مجهول أكثر من كيان طبيعي غير معقول.

ومعظم القادة الإسرائيليين الذين التقيت بهم، كانوا يحددون الصدمة والخسارة من زاوية الوظيفة التي يشغلوها، وكان جميعهم يؤكدون أن هذه الحرب قد أفسدت عليهم مخطّط مستقبلهم، وفعلاً لم يبق منهم أحد في وظيفته حتى نهاية العام.

أما بالنسبة لغولدا، فإن ما شغلته من وظائف طوال حياتها قد يعطيها بعض العزاء، وإن كانت تتمنى لو أن الأمر انقضى دون هذه الخسائر الفادحة. أن فكرة عزلها عن منصبها لم تكن لتؤلمها أكثر من تلك الكارثة، التي كانت تعتقد إمكانية اجتنابها بقليل من الحكمة. لقد كرّست كل حياتها حتى الخاصّة منها في اعتبار اسرائيل عائلة لها. وكل قتيل خسارة شخصية هي ابتليت بها، ولذا فإن قلبها محطّم لا بسبب هذه الكوارث فحسب بل بسبب مستقبل غامض تعلمه أكثر من زملائها.

ولقد تحمّلت غولدا، دون تبّرم مسؤولية تخلّف أجهزة المخابرات وعدم تقديرها لوقوع الحرب، ولم تبد عذراً، ولم تعط تفسيراً، وبعد أن تخلّت نفسها عن كل مطمع وظيفي وحكومي، كانت تُعد نفسها لاستقبال ما سوف يكون. وكان ماثلاً أمامها ذلك التحدّي الذي جوبهت به إسرائيل طوال سنوات. والتي لا يمكن البرهنة عليها الان إلا بتنازلات عدّة.

لقد أصبحت الحرب الحالية، في خبر كان بالنسبة لها، وهي تتطلّع منذ الآن إلى حرب ثانية، تكون سبباً في تخفيف أعباء بلادها المتراكمة، والتي ترجو أن تسرع

الولايات المتحدة فتنقذها مما تعاني، نفسياً وماديّاً، وهكذا في قلقها واضطرابها، كانت غولدا تروح وتجيء في دار الضيافة، غير قادرة على كبت غيظها، مقدّرة بذل أغلى التضحيات وكنت من جهتي احاذر في حديثي معها تجاوز بعض الحدود التي تقلقها.

وكان للجنرال دافيد «دادو» اليعزر أفكاره أيضاً، فهو يؤكد أن لكل حرب ضحاياها، وأنه سيصبح ضحيّة صلف اسرائيل. وسوف يخسر منصبه في الجيش حالما تسوّى المشاكل السياسية. ولن أبحث أبداً في مدى مسؤوليته عن تأخير التعبئة الإسرائيلية، لأن هذا الأمر ليس من اختصاصي. واستطيع القول أنه كان رجلاً ذا صفات نادرة. رصيناً في منطقه، ونبيلاً في سلوكيته، وأوضح لنا جميع الأمور بتجرد تام، وكأنه يقرّر أقوالاً صادقة للتاريخ. واستقال في السنة التالية بعد أن اتهمته لجنة حكومية بقسط كبير من عدم إعداد الجيش. عاد إلى حياته الخاصة التي لم تكن لترضيه، ومات بعد عام، وكانت الأزمة القلبية هي سبب الوفاة، وهذا ما يطلق عادة على سبب وفيات أصحاب القلوب المحطّمة.

أما دايان فكان وضعه أكثر تعقيداً، أنه أحد دعائم التاريخ الإسرائيلي، ولكونه مواطناً مثقفاً ثقافة فريدة، فقد أوجد نفسه زعيماً في منظومة زعماء بلاده. وطني محب لبلاده وأرضه، مدافع بعناد عن قضاياه، يحمي كل بوصة بقوة وصبر ويعتبر أن الدبلوماسية هي شكل آخر لأشكال الحرب (وهذا ما كتبه عنه كلاوسويتز) كان دايان مزيجاً فريداً من القديم والحديث، وينفرد بين زملائه بقوة المخيّلة وبعد النظر، وحدّة الذكاء، وجعل إسرائيل إحدى القرائن العالمية. وتعمّقه في علم الآثار كان يؤهله لنظرة تاريخية، تتجاوز تاريخ بلاده الطويل. وكان يوقن أن التجارب ليست وقفاً على إسرائيل وحدها، ولو أصابها الكثير منها، فهناك شعوب كثيرة عانت أيضاً مما تعانيه إسرائيل. كان إذاً متفهماً ومدركاً تماماً لوجهات نظر ومصير الشعوب

الأخرى، ولا سيما العربية منها، وكان يمتاز بذلك على جميع قادة بلاده. وكان يتحلّى بشعور شاعر، ويجيب محدثه بتعمّق وإدراك غير متوقّف عند إجابة واحدة كما هي الحال لدى غيره من الزعماء، لا سيما عند رئيسة وزرائه. وطالما حدّثت نفسي أن مثل هذه الصفات النادرة والمزايا الفريدة، التي يتحلّى بها دايان لا بدّ من وجودها عند رجل دولة في اسرائيل لدى مباحثات السلام.

إن ما جعل مصير دايان غير محتمل، هو عدم قدرته على تحقيق صحّة رؤيته في حال تحقيقها، فهو كان يحذّر منذ عدة سنوات، أن الحرب لا بدّ واقعة، إذا عاندت إسرائيل وتمسكت بالبقاء على حدود قناة السويس. وطالب بفك ارتباط القوات وعند الاقتضاء، إجراء انسحاب إسرائيلي، يكوّن منطقة عازلة، ولم يستطيع إقناع زملائه في الحكومة ولا غولدا، ولم تكن قدراتهم العقليّة لتحتمل إجراء انسحاب من جانب واحد. لقد ثبتت وجهات نظر دايان، ولكن في ظروف آلت إلى انهائه، لأنه لم يقدر على تهيئة نفسه وشعبه لردّ خطر كان يحذّر منه دائماً، وفسر على غير حقيقته، وكثيرون هم الذين لم يستطيعوا تحليل النوايا المصرية، وهذا أحد الأسباب التي أفقدت الأبطال ثقتهم في نفوسهم، ولما كان دايان وحيداً في تفكيره ولم يقدر على اقناع غولدا، فقد تحمّل بشرف كل خطأ في التقدير.

وبدلاً من ذلك، فان دايان بعد حرب ١٩٧٣، لم يبقَ كما هو، بل كان طوال أيام الحرب تائهاً بين الأمل واليأس، وعلى الرغم من إيعازه بانسحابات كبيرة في صحراء سيناء، فلقد كان يطالب في الوقت ذاته بانتصارات مبكرة، خدعت اخبارها دبلوماسيّة كنا متفقين عليها، وكأني به أصبح كلاعب الروليت الذي يخسر ويحاول إظهار كسبه بمضاعفة المبلغ. لقد أوشك أن تتحقق رؤياه فيصبح رئيساً للوزراء. غير ان غولدا بوصولها إلى ذروة المجد لم تكن لتفكر بالمدة التي ستقضيها فيها، فلم يصل إلى هذه المرتبة، ولم يسقط في الهوّة التي سقط فيها اليعزر، فكان مشدوداً بين طموحه وحسّه

الداخلي. ونفس أبيّة لا تقبل التخاذل، وثقة تحمله على التكيّف مع واقعه الجديد. ولذلك فقد كان في دار الضيافة، متهكما تارة، ومشجعاً أخرى، وكنت ترى عند ابتعاد الأنظار عنه، أن مسحة الألم والمرارة مرتسمة على وجه هذه الشخصية الفريدة.

قمت خلال هذه الزيارة المؤثّرة بإجراء لقاءات ثلاثة، لقاء خاص بغولدا من الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين، إلى الساعة الرابعة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة، وأثناء حفلة الغداء، مع فريق من أهم قادة الحزبين، من الساعة الرابعة عشرة والدقيقة الثلاثين إلى الساعة السادسة عشرة، وأخيراً في عرض تفصيلي للحالة العسكرية من الساعة السادسة عشرة والربع إلى الساعة السابعة عشرة.

وعندما استقرّ بنا المقام في قاعة منفردة، كان اول سؤال وجهته إلي غولدا، عن المستقبل، لا عن الحرب الدائرة. فقالت: هل هناك محاولة سرية أميركية سوفيتية، لإعادة اسرائيل إلى حدود ما قبل حرب عام ١٩٦٧؟ فأنكرت ذلك بعنف، ثم سألتني، عما إذا كانت هناك محاولة أخرى لفرض حدود جديدة، فنفيت ذلك أيضاً. وفيما كانت تحاول استطلاع جميع خفايا السياسة الأمريكية، أوضحت لي بصورة لا تقبل الشك، ما كانت تعانيه اسرائيل من الناحيتين الجغرافية والسكانية، ومدى ارتباطها بالولايات المتحدة.

فأجبتها: لقد وقفنا بجانب إسرائيل مدة اسبوعين، وملأنا ترساناتها أسلحة، ولقد توقعنا حظراً على البترول وهذا ما حصل، ولقد شدّدنا من دبلوماسيتنا وجعلنا من القرار (٣٣٨) أكثر مما توقّعنا في الأسبوع الأول، في حين ان مفاوضات مباشرة بين العرب واسرائيل لم تطرح قط. وعلى الرغم من أن وقف الأعمال العدوانية أوجد سريعا آلاماً مبرّحة لا بدّ أن تظهر في ما سوف يطبّق منها.

جهدت الدبلوماسية الاسرائيلية طوال خمسة وعشرين عاماً للوصول إلى مفاوضات مباشرة وقد أصبحت الآن منها قاب قوسين أو أدنى، فصعقت غولدا لهذا

الخبر، لا سيما وأن زملاءها لم يطلعوا عليه بعد، ولأن توقيت المفاوضات سيعرّض بلادها لمخاطر جسيمة طالما تحاشتها.

إن مخاوف اسرائيل التاريخية، تبدو وكأنها نابعة من تفسير تلمودي، فأمضينا وقتاً طويلاً في مناقشة، عما إذا كانت الفقرة الثانية من قرار وقف إطلاق النار، تتضمن تطبيق القرار (٢٤٢) وهل لها علاقة مباشرة مع المفاوضات المنصوص عنها في الفقرة الثالثة. وبعبارة أخرى، هل هذه المفاوضات لها مفعول إعادة اسرائيل الى حدود ما قبل حرب عام ١٩٦٧. أو هل يحق لإسرائيل تطبيق تفسيرها للقرار (٢٤٢)؟ فطمأنت غولدا وزملاءها، أن ليس هناك تواطؤ أو تحديد لما يجب أن تقترحه الأطراف المتفاوضة.

وبالاختصار، فإن مخاوف إسرائيل كانت كبيرة جداً، حتى أن الحديث عنها كان بمثابة وقع السهام. وغولدا تعلم جيداً، أنها ولو توصلت إلى أهداف طالما رغبتها فإنها لا تتكافأ وتعديل الوضع النفسي في إسرائيل. وعندما سألتها عن السادات وإمكانية بقائه بعد وضع الحرب أوزارها، فأجابت بهدوء ولم لا. فإنه بطل وجريء. وكانت على حق لأن إسرائيل كانت في وضع مخز، وعلى الرغم من أن الحرب انتهت لصالحها، فإن مستقبلها يفوق امكاناتها البشرية. والتغلّب على أعدائها لا يمكنها من السيطرة، وللتمكن من ذلك يجب سحقهم حتى لا يستطيعون البقاء، وأنّى لها ذلك، ما دامت مدينة القاهرة وحدها تعد ضعفي إسرائيل. والتاريخ لا يروي، أن شعباً مهما كان قوياً استطاع تحمّل مثل هذه المسؤولية.

ولذا فإن السلام ضروري بالنسبة لإسرائيل بقدر ما هو مرعب.

إن المشكلة الحقيقية التي اقلقت بالي عند قيامي بهذه الزيارة، هل يتم السلام إبان موجة الانتصار العارمة، أو بعد أن تطفو الأمواج على الصخر المنفرد؟

وفيما نحن نتناول الغداء، وصلت برقية تنبئ أن مصر قبلت بوقف إطلاق نار فعلي في تمام الساعة السابعة عشرة، حسب توقيت القاهرة (أي قبل ساعتين من

انتهاء المهلة). أن رد الفعل الإسرائيلي، الذي رأيته على وجوه المجتمعين، كان يدل على انفراج وغبطة وتعقّل، متبايناً بين الأمل والحذر. وتلا ذلك حديث مقتضب حول قواعد تطبيقه، ثم غيّر الحديث فجأة كما يحدث عادة في الدقائق التاريخية. هل القاهرة وتل أبيب يتبعان نفس التوقيت؟ كان الفارق كبيراً بين الجانبين ولا يستطيع أحد إيضاحه. فأرسلت في الحال ايغلبرغر ليسأل واشنطن هاتفياً، وفيما نحن ننتظر الجواب بشكل رسمي قررّت أن لا بدّ لإسرائيل من تحديد الساعة الثامنة عشرة والدقيقة الثانية والخمسين حسب التوقيت المحلّي، أي الساعة الثانية عشرة تماماً بعد إقتراح وقف إطلاق النار، وبعد تقدير الوقت الذي حدّدته القاهرة، كان الوقتان متماثلين.

بعد الظهر جرى عرض تفصيلي للوضع العسكري الراهن، فتوضح لي وللمرة الأولى ما كنت أحاول انتزاعه من الإسرائيليين منذ أسبوع، أي المواقف والأهداف الصحيحة والدقيقة لقواتهم المتواجدة على الشاطئ الغربي للقناة. فكانت الخرائط تظهر بجلاء أن خطوط تموين الجيش المصري الثالث مقطوعة، باستثناء طريق ثانوية في أقصى الجنوب. وكان الضباط الإسرائيليون يكبرون مواقف المقاتلين المصريين والسوريين، ولا يبالون بالوحدات العراقية.

غادرت إسرائيل مسروراً، وكان سروري ممزوجاً ببعض القلق. لقد توصلنا إلى تحقيق هدفنا الاستراتيجي، لكن هذا الهدف فتح أمامنا باباً نحو المجهول، يحتاج اجتيازه إلى تنظيم، ووحدة أفكار، وتصميم. سارعت مصر إلى قبول إجراء مفاوضات، وليست مذكرة حافظ إسماعيل، التي يدعوني بها إلى التوقف في القاهرة لدى عودتي من تل أبيب سوى برهان على ذلك. لكني في قرارة نفسي قلت: أن ما تعانيه إسرائيل من مرارة لن يسمح لها الآن بذلك. ولو كنّا نحن أنفسنا في صدد إجراء مباحثات رسمية مع مصر.

فاعتذرت إذاً بلياقة قائلا:

«إن كيسنجر وزير خارجية الولايات المتحدة، يتقدم بشكره العميق للسيد إسماعيل على دعوته اللطيفة بالتوقف في القاهرة. ويؤسفني أن أعلمكم أن الدعوة وصلت حال مغادرتي المنطقة، وأنا في طريقي إلى لندن. أما الآن وبعد أن قبل وقف إطلاق النار وسوف يصار إلى تنفيذه، فإني أتقبل الدعوة شاكراً، وسأكون في القاهرة في المستقبل القريب. وأرجو أن يحدّد الموعد بناء على رغبة الطرفين قريباً، وأرجو أن تظل اتصالاتنا بنفس هذه الثقة».

وخلال هذا الوقت، كان الوضع قد تفجّر في واشنطن على أثر ما جرى «مساء السبت» وفيما كنت متوجهاً بطائرتي نحو الغرب، لم يصلني سوى تقريرين موجزين: أحدهما من سكاوكروفت، ويدور حول مواضيع أخرى:

«إن اهتمام الساعة، الذي يشغل أذهان جميع الناس، هو قضّية ريشاردسون/كوكس/روكيلشوس، وجميع الصحف تحمل تعليقات حول الإقالة. ومما لا شك فيه أن وقف إطلاق النار، يشغل حيّزاً كبيراً منها. كل صعقة واترغيت الأخيرة تنسي جميع الأمور الأخرى».

لكن هيغ أعطاني في برقيّته تفاصيل أوفى:

«ستعود إلى الوطن، ولكن للأسف ستجد أمامك جوّ أزمة قوميّة كبرى، وهو نتيجة فصل كوكس واستقالة ريشاردسون وروكيلشوس اللذين لحقا به. وبعد أن استثيرت الأفكار، فإن النجاحات التي أحرزت في موسكو قد كشفت بعض الشيء، ولم تكن لها تلك الأهمية المبتغاة. ولأجل ذلك علينا أن نتعاون معاً في الحفاظ على الرؤية القومية، وبذل جهود خاصّة لتركيز انتباه البلاد إلى الدور الرئيسي الذي يقوم به الرئيس في تسوية قضيّة الشرق الأوسط، ستجري غداً مشادّة كبرى في الكونغرس حول فصل كوكس، لكن إذا أحسن تدبير الأمور فإن الرئيس رابح.

«إن الرئيس يرى حالياً، أن الضرورة تدعو إلى عقد اجتماع يضم زعماء الحزبين، على أن يجري في البيت الأبيض، ستلقى خلاله كلمة تكون بمثابة تقرير تورد فيه بالتفصيل جميع النجاحات والنتائج التي أحرزت في قضيّة الشرق الأوسط وكيف أن الرئيس كانت له اليد الطولى في إحرازها. وتبيّن من ثم حاجتنا الملحة إلى وحدة قوميّة، والوقوف صفّاً واحداً في الأيام العصبية التي تنتظرنا.

ومساء الاثنين الموافق للثاني والعشرين من تشرين الأول، وعند توقفي في مطار هيثرو، استطعت أن اطلع السير أليك دوغلاس هوم على آخر التطورات التي جاءت على ذكرها الصحف البريطانية بوصف ممتع. عدت إذاً وكل إجراءات الفصل كانت قد نفذّت. وأخذت العاصمة تسهم بأحاديث السلام في الشرق الأوسط، وتتمنى أن يكون فيه لبلادها الحظ الأوفر.

❑ ❑ ❑

تساءل السير أليك بعد اطمئنانه على انتهاء الحرب في الشرق الأوسط، عن مدى محافظة أطراف النزاع على وقف اطلاق النار بينهم، خاصة وأن معلومات وصلته مؤخراً، تفيد أن الرئيس السوري حافظ الأسد، يُعد هجوماً في اليوم التالي، وتكاد الحرب تشتعل من جديد. ونظراً لأن وقتي ثمين أكملت إتصالي بواشنطن، فأراد معاونو هوم مساعدتي في الاتصال فطلبوا سفير الاتحاد السوفيتي في لندن، أن يضع جهاز الاتصال تحت تصرّفي. فلم يلب السفير الطلب حالاً واضطررت إلى الانتظار قليلاً. وأحتجت مساعدة موظفي الخارجية في لندن لإقناعه بإعطائي الاتصال. فقبل أخيراً أن يعطي هو نفسه المخابرة فكانت أشبه بمذكرة فجاءت دون تعليق: قبلت إسرائيل وقف إطلاق النار، وتستعد سورية لشن هجوم، لسنا مسؤولين عن النتائج.

لكن الشرق الأوسط ومشاكله، أدّى بنا إلى معرفة الحدود واليقظة الانسانية. حوفظ على وقف إطلاق النار وبصورة وسطية، ولم يهلهل كما كنا نخشى في هيثرو. وفي الوقت الذي انتهت فيه الحرب برعاية القوتين الأعظمين، أخذت الصحافة تكشف عمّا كان للانفراج السياسي بين أميركا والاتحاد السوفيتي من فضل في تهدئة الأمور ووقف إطلاق النار. لكنه أخذ يتراءى لنا بجميع مراحله التي اجتزناها خلال سبعة عشرة يوماً.

بعد نوم أربع ساعات، عدت إلى مكتبي، فكان عليه مذكرتان بانتظاري: واحدة من القاهرة والأخرى من القدس. كان حافظ إسماعيل يعلمني وبإيجاز أن قوات إسرائيلية خرقت وقف إطلاق النار، وتسعى إلى احتلال مواقع جديدة. وأن مصر تقوم من جانبها بأخذ الاستعدادات اللازمة للمحافظة على أمنها. ويتساءل إسماعيل عمّا تنوي أمريكا والاتحاد السوفيتي، عمله لحمل إسرائيل على التقيّد بقرار وقف إطلاق النار.

وكانت المذكرة الثانية من كينيت كاتنغ، سفيرنا في إسرائيل، وهي أطول وأكثر تعقيداً. ويعلمني أن غولدا دعته للقيام بجولة استطلاعية، ومن خلال ما حدّثته بيّنت له أن قرار وقف إطلاق النار يجد معارضة قويّة في البلاد. وأنها تسعى للحصول على موافقة البرلمان بكثير من الوعود والحوار، وتكلّمت من ثم عن وضع الحدود الأردنية وعدم وجود الأمن الكامل فيها، على الرغم من أن الملك حسين قبل بوقف إطلاق النار على الضفة الغربيّة لكن الخوف يتسرّب إلى نفسها، من حيث أن سورية لم تأمر بعد بوقف إطلاق النار في منطقة لا تزال المعركة تدور فيها، ووصلت إليها نجدات أردنية. ولم يفتها أن تتحدث أيضاً عن جبهة السويس، حيث كان الجنود الاسرائيليون لا يزالون يخرقون وقف إطلاق النار ويحملون مصر على خرقه أيضاً. ويؤكد السفير أن الاسرائيليين يحتلون مواقع جديدة، وأن غولدا تخشى تفاقم

الخطر، بعد أن طالبها قادتها العسكريون بيومين او ثلاثة، لإتمام تطويق الجيش الثالث المصري في الجنوب (الشيء الذي لم نحط به علماً أثناء وجودنا في موسكو) وأضاف كاتنغ نقلاً عن غولدا: لكن الحكومة رفضت هذا الطلب، وقد حدث نحو أواخر الليل ويالّلأسف، وبعد أن دخل وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ، خرق المصريون الهدنة، وقاموا بهجوم عنيف، فلم تتمكن حيال هذا الواقع، إلا أن سمحت للجيش الإسرائيلي بإكمال القتال إلى أن يتوقف المصريون.

كانت لهجة كاتنغ مشوبة ببعض الارتياب والشك وشاركته أنا أيضاً في ذلك لأني أثناء مروري بتل أبيب وسماعي عن أوضاع الجيش الإسرائيلي والمصري. لم يعلمني هؤلاء القادة بحاجتهم إلى بعض الوقت للبدء بتنفيذ وقف إطلاق النار، موضحين أن الأمر يحتاج إلاّ لبضع ساعات تنتهي خلال سفري ووصولي إلى واشنطن. وطالما أن المهلة المحدّدة قد انتهت، فلن يبّرر شيء اعتداء كل من الطرفين. وعلى كل حال لاحظت أن كتابة كل من إسماعيل وغولدا كانت معتدلة ولا تنذر بأزمة خانقة أو مستعصية.

وإيصال كل من هاتين المذكرتين إلى موسكو، لا بد أن يحتاج بعض الوقت، وفي تقدير الكرملين لا بد من حدوث بعض المخالفات، بعد الانتهاء من نزاع عنيف. وأرسل لي يولي فورونتزوف القائم بالأعمال السوفيتي، في تمام الساعة السابعة والدقيقة الخمسين (لأن دوبرينين لم يكن بعد قد عاد من موسكو) جواباً إيجابياً على مذكرة أرسلتها إلى الكرملين من مطار هيثرو حول موضوع هجوم سوري طارئ:

«بعد أن تسلمنا مذكرة وزير الخارجية كيسنجر، قمنا باتخاذ الاحتياطات اللازمة. ويسرنا أن نعلم الآن الدكتور كيسنجر، أن فيما يتعلّق بآخر قرار اتخذه مجلس الأمن الدولي وحسب معلوماتنا، لن يصدر عن سورية ما يخالفه».

ونحو الساعة التاسعة والنصف، استدعاني كورت فالدهايم، الأمين العام للأمم المتحدة ليعلمني احتجاج مصر رسمياً، بسبب خرق إسرائيل لقرار وقف إطلاق النار، وتدعو إلى اجتماع لمجلس الأمن الدولي، ويقترح تشكيل قوة دولية من الدول الاسكندنافية ودول أخرى غيرها، لمراقبة تطبيق وقف إطلاق النار. فأجبته أني سأبدأ حالاً بإجراء مشاورات مع زملائي والسوفيت.

بعد بضع دقائق، أخذت أناقش هذا الموضوع مع داود بوير، مساعد وزير الخارجية لشؤون الأمم المتحدة. فرأى من المناسب تكليف فريق المراقبين، الذين أرسلتهم الأمم المتحدة سابقاً ويتواجدون الآن على طول قناة السويس.

حينئذ أخذت بمكالمة فورونتزوف، وللوصول في حديثي إلى نقطة إيجابية، رجوته أولاً أن يشكر بريجنيف على حسن ضيافته، ثم أتيت على ذكر الأشراف المشترك الذي اتفقنا عليه حول المفاوضات، وأرجو تنفيذ الوعود التي قطعناها على أنفسنا، في سبيل إطلاق سراح الأسرى الإسرائيليين. وتوصلت أخيراً إلى الغاية من مكالمتي وهي إبلاغه أن كل فريق يشكو الآخر من خرق قرار وقف إطلاق النار. وبيّنت أن أحسن علاج لهذه المشكلة، هي إصدار توصية من قبل مجلس الأمن، وتكليف فالدهايم بتحذير الفرقاء جميعهم والتمسك بحسن تطبيق قرار إطلاق النار. وفي حال تمكن مجلس الأمن من إرسال مراقبين، أو قوة من الأمم المتحدة، فنحن نمنح موافقتنا سلفاً. لكن محادثي الذي لم يتلقّ بعد أية تعليمات بهذا الخصوص، اكتفى بإسماعي بعض عبارات مبهمة وأضاف إليها: «نعم» و«حسن»، مدللاً على تفهّمه ما أوردت. وعندما اقترحت عليه وضع مركز اتصالات البيت الأبيض تحت تصرّفه، لتسريع الاتصال بموسكو، رفض عرضي مدّعيا انه يستطيع الاتصال بالعاصمة السوفيتية، «خلال وقت قصير جداً»، غير أني أذكر ودون ريب أن دوبرينين في أول يوم للحرب، أحتجّ بعسر الاتصال، واستعمل مراكز اتصالنا ليؤكد لنا بوضوح، أن ليس هناك تواطؤ سوفيتي عربي.

لم تمض خمس دقائق، حتى استدعاني فورونتزوف ثانية، فان مذكرتي قد اختلطت بأخرى واردة من موسكو، والقلق بادٍ في كلامه. وأعلمني أن بريجنيف يبعث لي بمذكرة، وهذا شيء جديد بالنسبة لي، لأن الأمين العام، كان يرسل دائماً مذكراته إلى نيكسون. واحتاجت المذكرة إلى ساعة لترجمتها وإيصالها إليّ عن طريق سفارة الاتحاد السوفيتي. وكان مضمونها أن قوات إسرائيلية تتحرك نحو الجنوب، بمحاذاة الشاطئ الغربي لقناة السويس. والمعلومات آتية من مصدر موثوق، غير مصري، ولا بد أن تكون صادرة عن طائرات الميغ (٢٥) التي تقوم بطلعات استطلاعية، في الأجواء المصرية، وكان بريجنيف يصف الأعمال الاسرائيلية، أنها غير مقبولة، وأنها مخالفات مشهودة، تبيّن أن المصريين يعانون مصاعب كبيرة. ويقترح دعوة مجلس الأمن إلى الانعقاد ظهراً، أي بعد أقل من ساعتين، مؤكداً من خلال اجتماعه قرار وقف إطلاق النار، على أن تطبّقه جميع القوات في الحدود التي كانت فيها يوم إقراره في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، أي قبل اثنتي عشرة ساعة من اعتباره نافذاً (حيلة ماهرة تعود بالاسرائيليين إلى الوراء كثيراً عن المواقع التي اندلع منها القتال ثانية).

ويرفق بريجنيف مشروع قرار، يبعث به لمجلس الأمن موضحاً أفكاره من خلاله.

أصبحنا في وضع لا يرضي. أن أهمية النداء الذي يبعث به بريجنيف، تثبت أن الجيش المصري الثالث، ربما كان في وضع سيء جداً، لم تنبئنا به أجهزة مخابراتنا، كما أن إسرائيل لم تعلمنا عنه. وإذا لم تتحرك الولايات المتحدّة، فيما الجيش المصري الثالث يدمّر بعد قرار وقف إطلاق النار، الذي اتخذه مجلس الأمن الدولي، برعاية الولايات المتحدة، وثبتته زيارة وزير الخارجية الأمريكية لإسرائيل، فإذا لم تتحرك الولايات المتحدة، فلن تتعاون معها أية دولة عربية، مهما تكن معتدلة، يجب علينا إذاً التحرّك حالاً.

وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الرابعة، استدعيت دينيتز، لأطّلع عما إذا كان لديه ما يضيفه على تقرير كاتنغ. فأجاب أنه لا يعلم شيئاً عن الخطوط الجديدة للقتال، وكان يستطيع فقط إبلاغي باسم رئيسة الوزراء «شخصياً، وسرّياً، وصراحة» أن جميع الأعمال الدائرة الآن على الجبهة المصرية، ليست بمبادرتنا.

وعلى الرغم من كل تقديري لغولدا، فقد اعتقدت، أنها تغشّني، عندما استعملت كلمة «مبادرة». فكيف أصدّق أن الجيش الثالث المصري، يقوم بهجمات بعد وقف إطلاق النار، ويطالب بتحديد وقف إطلاق النار؟ لكن الواقع مختلف تماماً، أنهم الاسرائيليون الذين يهاجمون ويتقدمون.

لم يكن الوقت مناسباً لاجراء مناقشات فارغة. فدققت في مشروع القرار السوفيتي مع دينيتز، وقلت له: أننا لن نقبل بالعودة إلى الخطوط التي كانت فيها الجيوش ساعة اتخاذ مجلس الأمن قراره بوقف إطلاق النار. كما اني لا أجّد سبباً لرفض الانسحاب إلى تلك الخطوط التي كانت فيها الجيوش، عند القبول وتقرير العمل به، (أي بعد اثنتي عشرة ساعة من إقراره) وبيّنت له أيضاً أننا موافقون على إرسال مراقبين من الأمم المتحدة. وعند ختام المحادثة وعدني دينيتز بتزويدي بمعلومات جديدة.

لم تمض بضع دقائق، حتى كلمتني غولدا، خصيصاً لتقول لي: أن المصريين هم الذين أول من خرق وقف إطلاق النار. وهذا كان يعني أن تأكيدي على إسرائيل بوجوب المحافظة على وقف إطلاق النار، ومخاطر خرقه، حملت الجنود الاسرائيليين على أن يحسبوا ألف حساب، لما سوف تحمله الأحداث، وبعد أن أنهت محادثتها، بيّنت لها ما أفكر بخصوص الأمم المتحدة وإرسال مراقبين، وهذا سيحمل إسرائيل على أن تعود إلى الوراء بضع مئات من الأمتار، عن المواقع التي تحتلها أثناء محادثتنا، الأمر الذي نتمكن أن ندعوه: خطوط وقف إطلاق النار القديمة. «ومن

يستطيع التعرّف عليها؟ وأين كانت؟ إذ ليست سوى خط في وسط الصحراء؛ ساور غولدا القلق فتهدّج صوتها وبان اغتمامها ولو عن بعد تسعة آلاف كيلومتر. فأجابت: «إن خطوطنا الحالية معروفة جيداً»:

عندئذ فهمت، أن اسرائيل قد قطعت آخر خط تموين للجيش المصري الثالث، الذي عزل تماماً على الساحل الشرقي للقناة.

كان أول اهتمامي لإنقاذ الموقف، أن اتصلت مع فورونتزوف، في تمام الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين، فقلت له: أننا لا نعارض دعوة مجلس الأمن للاجتماع ظهراً، لكننا لا نستطيع إجراء التصويت، إلا بعد هذا الوقت بكثير. ولسنا على استعداد، على أية حال للقبول بالاقتراح السوفيتي، حول الانسحاب إلى الخطوط التي كان يشغلها المتخاصمون، في وقت تصويت مجلس الأمن الدولي على قرار وقف إطلاق النار.

استدعاني دينيتز ظهراً، لينقل إليّ مذكرة كثيرة التعقيد، وخلاصتها أن القوات الإسرائيلية، لن تتخلّى عن مواقعها التي تشغلها حالياً، وحكومة إسرائيل تؤيد ذلك وتعتقد أن ما من أحد يستطيع تحديد خط وقف إطلاق النار الأول، ولن تقبل أن تفرض عليها العودة إليه. أن إسرائيل غير راغبة أبداً في مخالفة أوامر الأمم المتحدة التي تنوي إصدار قرار جديد لا يمكن تطبيقه.

إن هذه الطريقة والأسلوب الجديد لدى إسرائيل لم يخفَ عليّ، وتصنيع بل تنميق الكلام لن يحل المشكلة. وكنت أوعزت لسكالي سفيرنا في نيويورك تأجيل ما يجري في مجلس الأمن ريثما نتمكن من تسوية الأمور.

وفي تمام الساعة الثانية عشرة والدقيقة السادسة والثلاثين، وصلت مذكرة عاجلة من بريجنيف، موجهة هذه المرة إلى الرئيس كلماتها كانت عنيفة بحق خيانة

إسرائيل وخرقها قرار مجلس الأمن في وقف إطلاق النار، وتؤكد تأكيداً مطلقاً أن العرب بدورهم سيحترمون القرار آنف الذكر. وكان الألم بادياً من خلال مذكرته، حتى أنه لا يأتي على المشكلة التي تكاد تسبّب لنا صعوبة كبرى:

إلى أين يجب أن تنسحب إسرائيل؟ وإذا كان يجب أن تنسحب فإلى أي خط؟ فليس الأمر الآن إيقاف القتال.

وتحت شعار ضمان أمريكي سوفيتي لم يرد ذكره في قرار وقف إطلاق النار، تتمكن موسكو من التمسك به وفرضه، في سبيل حمل القاهرة على التقيّد بالقرار المبدئي، وتطالبنا في الوقت نفسه، باتخاذ إجراءات ذات فعالية ومشتركة ودون إبطاء، لإيقاف الأعمال العدوانية، فتكوّنت لديّ فكرة، أن في حال التصميم على ذلك، لا بدّ من التوّصل إلى قرار وقف إطلاق نار جديد، يجعل مهمتنا سهلة، كما أنه لا مجال لطلب انسحاب إسرائيلي لأن هذا يسبّب لنا دوّامة جديدة.

وفسّرنا الاقتراح السوفيتي حرفياً، وأجبنا عليه خلال ساعة من الزمن بتوقيع الرئيس نيكسون بإجابة صريحة:

«أتشرف بالتأكيد لكم، أننا نتحمل كامل المسؤولية ونبذل جهوداً مستميتة في سبيل الوصول إلى إنهاء تام لأعمال إسرائيل العدوانية».

«إن المعلومات التي نستقيها من أجهزتنا السرّية تدلّل بوضوح مسؤولية الفريق المصري في خرق وقف إطلاق النار. لكن الظرف غير مؤاتٍ لمناقشة هذه القضية. «لقد قمنا بإجراءات جادّة وطالبنا إسرائيل بوضع حد سريع لوقف أعمالها العدوانية. وأرجوكم أن تقوموا بالشيء نفسه لدى الفريق المصري».

وفي تمام الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين، أطلعت فورونتزوف على ما قررنا القيام به، مطالبة مجلس الأمن بإصدار نداء جديد حول

وقف إطلاق النار والتقيّد به، والعودة إلى المواقع التي كان فيها الفريقان حال تنفيذ وقف النار والأعمال العدوانية. وبيّنت له وجوب التفاوض بين مصر وإسرائيل حول هذه المواقع. وأوصيت أن يدوم هذا التفاوض طويلاً «لأن غايتنا السير بأناة في هذا السبيل» وبدا لي أنه يوافقني على وجهة نظري إذ قال:

«فليتناقشوا شريطة عدم الاقتتال، وهذا كل ما في الأمر». وعدت إلى تنبيهه أن مصر تعمل حسناً إذا أطلقت سراح الأسرى الاسرائيليين.

لم يلزم لفورونتزوف، سوى خمسة دقائق لإجراء اتصال مع موسكو وأخذ موافقتها. وفي تمام الساعة الرابعة عشرة والدقيقة السادسة والعشرين، عاد بريجنيف وأخذ زمام المبادرة وأرسل مذكرة جديدة لنيكسون.

أعتقد أننا أعطينا لإسرائيل مجالاً كافياً لإجراء مفاوضات. ويمكنها استخدام تلك المفاوضات في سبيل تحقيق مطالب أخرى، لا سيما اطلاق سراح الأسرى الاسرائيليين. لكنها لا تقف عند حد، وتطالبنا بما لا نستطيع الوفاء به:

«استخدام حق الفيتو ضد كل القرارات المتخذة مهما يكن مؤدّاها، وإطلاق يدها في إلحاق الهزيمة بالجيش المصري الثالث».

وعند ظهيرة اليوم نفسه، أي الثلاثاء الثالث والعشرون من شهر تشرين الأول، وصل اتصال غاضب من غولدا قرأه دينيتز، جاء فيه:

أنها تعتبر قرار مجلس الأمن الجديد، الذي نحن في صدد إقراره وكأنه خدعة سوفيتية مصرية، حول خرق القاهرة وقف إطلاق النار، لذا فإنها تعلن: «يستحيل على إسرائيل أن تقبل على ذاتها بتلقي إنذارات روسية ومصرية متواصلة، تكفلها الولايات المتحدة في النهاية».

ولا يمكن اعتبار مطالبة الفريقين بالعودة إلى حدود يقبل بها الطرفان إنذاراً، لا

سيما أنها تتم نتيجة مفاوضات، واحترس كلانا من تحديدها. وتضيف غولدا في اتصالها: أن بلادها لن تقبل بالقرار المقترح، ولا بالتحدث عنه. وظهر لي من خلال كلامها أن بلادها عازمة على وضع حدّ للحرب بإلحاق الهزيمة بمصر. ونحن بصراحة، لن نقبل بخرق وقف إطلاق نار اتخذ قراره بإشراف كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة. لا بدّ لإسرائيل أن تفهم أنها بعنادها هذا تضع حداً لكل أمل في السلام، وهي بلا شك معرّضة لاقتتال دائم. وإذا خسر السادات فعلاً، فان الظروف ستتيح إبداله بحاكم راديكالي موالٍ للسوفيت. فيأتي هؤلاء ويعيدون تسليح الجيش المصري الثالث وغيره، فتنتهي الأمور إلى خلق معضلات جديدة وحروب كالتي نخرج منها حالياً، صحيح أن مشروع السلام الذي نوليه نحن والسوفيت جلّ اهتمامنا سينتهي قبل بدء تلك الحرب المتوقعة، لكنها إذا حدثت، فسوف تقع في ظروف غير مؤاتية.

إن الحكومة الإسرائيلية منهمكة جداً بما لديها من اختلاجات سياسية داخلية تعاني منها، ولا تستطيع رؤية هذا الواقع، ولم تكن غايتها سوى الثأر، واعادة سمعة عدم الانهزام التي أفقدتها إياها هذه الحرب، وهي التي لم تعرف للسلام طعماً، فإن همّها الوحيد ألاّ تتخلّى عن مغانم مهما غلا ثمنها. قبل أن تستطيع أمريكا تطبيق مشروع سلام فاشل. ولما كانت أيضاً (أي إسرائيل) ضحيّة عدة حروب سبّبتها شروط هدنة اعتبارية غير ثابتة، لذا فإنها لا تعتبر خرقها لوقف إطلاق النار الجديد أمراً دولياً بالغ الأهمية.

كانت وجهات نظر القاهرة مختلفة تماماً. ففي الساعة الثالثة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة، وصلت مذكرة عاجلة من السادات موّجهة إلى نيكسون مباشرة، عن طريق أجهزة الاستخبارات، وهذه هي المرة الأولى التي يكشف النقاب فيها عن اسم «الريّس» في المذكرات المرسلة، مما يدل أن هناك شيئاً بالغ الخطورة.

كانت المذكرة جريئة وقد ورد فيها: ليس للولايات المتحدة علاقات دبلوماسية مع مصر منذ ستة أعوام، ومع ذلك فهي مدعوة لتدخل فعلي، واستخدام القوة إذا اقتضت الحال، لضمان التطبيق التام لقرار وقف إطلاق النار، الذي أقره مجلس الأمن الدولي بإشراف امريكا والاتحاد السوفيتي. وتضيف المذكرة أن الولايات المتحدة أكدت ضمانها منفردة لهذا القرار، وأن ما يجري حالياً في ضوء هذه الضمانة، لا يحملنا على الثقة بضمانات قادمة مهما تكن. وعلى الرغم من أنها تشير في نهايتها إلى فصم عرى هذه الاتصالات الجديدة، فإنها لا تخلو من عواطف طيّبة.

إن الاقتراح المصري باستخدام القوة ضد حليفتنا إسرائيل، لا نتمكن من العمل به. فمهما كانت إسرائيل تبدي رغبتها في أن نتحمل مسؤولية الإجراءات الدبلوماسية وهي تحاول إلحاق الهزيمة بجيش حاصرته بعد وقف إطلاق النار.

قارنّا بين الأمرين وعزمنا على متابعة تنفيذ خطتنا العملية من حيث وقف الاقتتال فوراً وإجراء مفاوضات لتحديد خطوط وقف إطلاق النار.

وأرسلت إلى بريجنيف في الساعة السابعة عشرة والدقيقة الخامسة عشرة جواب مذكرته التي وصلتني في ساعة مبكرة من هذا اليوم (قبل المذكرات التي وصلت إلى نيكسون) فأكدت أسوة بما جاء في جواب نيكسون، أننا متفقون حول اعتماد قرار جديد لوقف إطلاق النار، على الرغم من بعض التحفظات، نظراً للأهمية التي نعلّقها على وقف إطلاق نار فعلي. وعند تنفيذ هذه الفكرة، يطلب إلى الأطراف ذات العلاقة اهتمام كلّي في المساعدة على التطبيق، وبيّنت صعوبة تحديد المواقع الصحيحة التي كان يرابط فيها الطرفان في الثاني والعشرين من شهر تشرين الأول، ساعة أصبح وقف اطلاق النار في حيّز التنفيذ وقد جاء فيها أيضاً:

«كما قلت للسيد فورونتزوف، وأوصله إليكم ونال موافقتكم عليه، أن قبولنا المبدئي لاقتراحكم، في العودة إلى مجلس الأمن لتحديد وقف جديد لإطلاق النار،

أصبح ممكناً لأن حكومتكم أكّدت لي أن تتخذ موقف الاعتدال تجاه الاختلاف الحاصل بين الأطراف ذات العلاقة حول مواقع وقف إطلاق النار.

ولم يفتني التأكيد أيضاً، على أن تبادل الأسرى يساعد على الخروج من المأزق ويثبت وقف إطلاق النار.

وأجبت السادات باسم نيكسون، بعد ظهر يوم الثلاثاء أيضاً. وعالجت موضوع التصريح السوفيتي حول ضمان الولايات المتحدة احترام وقف إطلاق النار. وبيّنت أن ما ضمنته الولايات المتحدة هو اتخاذ اجراءات حثيثة دبلوماسية وسياسية لتقريب وجهات النظر وإيصال الطرفين إلى تسوية مقبولة. كما قمنا بمطالبة إسرائيل التقييد بالقرار (٣٣٨). وطالبنا في الوقت ذاته، القوات المصرية بالمحافظة على وقف إطلاق النار.

وأعلمني دينيتز في الساعة العشرين والدقيقة الثلاثين، أن باستطاعتي ابلاغ السادات عن وعد رسمي تقطعه غولدا على نفسها وهو: حالما تحترم مصر وقف إطلاق النار، فإن القوات الإسرائيلية ستتوقف عن إطلاق النار. لقد ساورني الشك في سخاء مثل هذا الاقتراح وصدق ظني، عندما أكمل دينيتز حديثه قائلاً:

«لقد قطعت جميع الطرق المؤدية إلى الجيش المصري الثالث».

ورجوت ألاّ يكون لهذه المشكلة ردود فعل مباشرة. وعندما تيقنت من قبول اسرائيل لمبدأ وقف جديد لإطلاق النار، ولم تظهر استياءها من الدور الذي قرّرنا القيام به، عندئذ أرسلت مذكرة استرضائية إلى حافظ اسماعيل، ورجوت بإلحاح أن يوعز السادات إلى جيشه بوقف إطلاق النار. وأضفت لعدم الإبقاء على اية ثغرة، «في حال إصدار مثل هذا الأمر، فإني أرجو السيد اسماعيل، إذا رغب، إعلامي بذلك لأستطيع إبلاغ الجانب الأمريكي، والدول الأخرى التي تتجه إلينا متسائلة عن مثل هذا الأمر».

وهكذا ففي آخر يوم الثلاثاء الموافق للثالث والعشرين من شهر تشرين الأول، كان الهدوء سائداً. واتخذ مجلس الأمن الدولي قراراً جديداً برقم (٣٣٩) يثبت قرار وقف إطلاق النار الذي اتخذ في الثاني والعشرين منه، ويطالب بإلحاح بتطبيقه والعودة إلى الحدود السابقة. فوافقت إسرائيل ومصر على تنفيذها فعلياً في تمام الساعة المحددة حسب التوقيت المحلّي، في اليوم التالي صباحاً أي الرابع والعشرين من تشرين الأوّل (وكانت الساعة الواحدة في واشنطن). بالإضافة إلى أن سورية قد اعلنت رسمياً في نهاية اليوم الثالث والعشرين قبولها لوقف إطلاق النار.

لقد ربحنا إذاً جولة دبلوماسية، وعندما التقيت هيغ مساء، أخبرني أن نيكسون أصبح خائر القوى، بسبب فضيحة واترغيت. وأن ثمانية قرارات إقالة قدّمت هذا اليوم للجنة القضائية في مجلس النواب. وأنا اعلم ان نيكسون على استعداد أن يكون ثابتاً، على الرغم من تناقضات هذه المأساة الشخصيّة، تجاه الاجراءات الدبلوماسية المعقّدة التي تنتظرنا.



وجدت على مكتبي في البيت الأبيض، في الساعة الثامنة من يوم الأربعاء الموافق للرابع والعشرين من تشرين الأول، أي بعد سبع ساعات من دخول وقف إطلاق النار حيّز التنفيذ، مذكرة من حافظ إسماعيل، يخبرني فيها أن الاسرائيليين استعادوا هجومهم. واتصل السادات سريعاً بنيكسون وطالبه باتخاذ الاجراءات السريعة والكفيلة، لإجبار إسرائيل بالتقيد بوقف اطلاق النار.

وأطلعت دينيتز الذي كان خارج مكتبه على الموضوع، فبيّن أنه بحاجة العودة إلى مكتبه لأن لديه خطاً مباشراً مع اسرائيل. وبعد الاتصال أخبرني في الساعة التاسعة والدقيقة الثانية والعشرين، أن الجيش المصري الثالث المحاصر، يحاول التلخص من

الحصار عبر ثلاث جهات: نحو مدينة السويس في الغرب، ونحو مضيق الدلتا في الشرق، ونحو الجيش المصري الثاني في الشمال، ولقد صدّت جميع محاولاته، وليس على إسرائيل سوى الدفاع عن نفسها وإيقاف الهجمات المصرية (وخلال ذلك، لا تعرف الطريقة التي استولت فيها على قاعدة السويس البحرية المصرية). لا استطيع القول أني صدقت جميع ما أورد دينيتز على الرغم من تقديري له.

أنا أفهم أن جيشاً مطوّقا لا بدّ له أن يبذل جهوداً مستميتة في محاولة التخلص من ذلك الطوق، وما الداعي إذاً أن يقوم بهجوم باتجاه مضيق المتلا، فيبتعد هكذا عن جميع خطوط مواصلاته المقطوعة وليس له في ذلك أي مكسب إستراتيجي؟ ويفهم من ذلك أن هناك عملية اسرائيلية للتخلّص من رأس الجسر المصري على الساحل الشرقي من القناة، وأضفت قائلاً: إذا وجدنا أنفسنا هذا المساء أمام عشرين الف أسير مصري، فهل تتمكن من إقناعي أن المصريين هم الذين بدؤوا القتال؟.

وما كنت أنهي حديثي مع دينيتز، حتى وصلت مذكرة من السادات إلى نيكسون، يتهم فيها إسرائيل باستعادة القتال، ويرجو الرئيس للمرة الأخيرة، أن يتدخل سريعاً فيجبر إسرائيل على احترام وتطبيق وقف إطلاق النار، ويذكره أنه وعد بذلك، وكانت لهجته لا تدل على وثوقه من أن جيشه انتقل إلى مرحلة الهجوم.

فأبلغت دينيتز حالاً بالواقع. وكانت رؤيتي واضحة، فإذا بقيت الأوضاع على ما هي عليه، فإن مجابهة مع السوفيت تنتظرنا لا محالة. وفقدنا في الوقت ذاته كل امل بتلقي تقارير جديدة من مصر، وكل امكانية لإجراء مفاوضات. وأذاعت موسكو مساءً، بياناً رسمياً تهدّد فيه إسرائيل بأخطر العواقب، إذا لم تضع حداً لعدوانها. واتخذت جميع الاجراءات اللازمة لاستنفار قواتها، وفرقها المحمولة جوّاً وتعزيز أسطولها في البحر الأبيض المتوسط، وكانت هذه الأوامر معطاة من قبل بريجنيف شخصياً.

عندما اصبح الوضع خطيراً إلى هذا الحدّ توجهت إلى دينيتز وقلت له أن فنّ

تسيير سياسة خارجية، يتطلب جمع عوامل الانتصار لا تفتيتها، أننا على الرغم من كل الصداقة التي تربطنا بإسرائيل، فإن هناك حدوداً لا نستطيع تخطّيها، وأهمّها اعتبار زعيم دولة كبرى بمثابة أحمق، لو كان السادات قد طلب الى السوفيت كما طلب منا، استخدام القوة لاحترام وتطبيق وقف اطلاق النار، لفعلوا ذلك ووقعت اسرائيل في مكيدتها ذاتها.

فأجاب دينيتز على الفور: أن إسرائيل مستعدة لوقف الاقتتال، فيما إذا قابلها المصريون بذلك، واقترح الايعاز إلى الملحقين العسكريين الأمريكان المتواجدين في السفارة الأمريكية في تل أبيب، بالتوجيه إلى الجبهة للتثبت من وقف إطلاق النار. وكان جوابه هذا مراوغة لكسب الوقت، وتأكد لي ذلك، ففي هذا الوقت بالذات، كانت تدور رحى معركة كبرى منذ الصباح، ويقتضي إجراء محادثات طويلة لوقف إطلاق النار. ومن ثم ما هو المقصود من إرسال مراقبين عسكريين امريكان إلى أعماق صحراء سيناء؟ وتقضي السياسة الخارجية، أن يتصرّف المرء بما لديه، فأرسل جوابنا السريع إلى السادات ومهما يكن ارتيابنا مما نسمع، فقد بقي جواب نيكسون محايداً، وأبلغنا مصر معارضتنا الكلّية للعمليات الهجومية، وألمحنا إلى مفاوضات السلام:

لقد أجابت الحكومة الإسرائيلية مبيّنة أن الجيش المصري الثالث هو الذي بدأ بالهجوم والقوات الإسرائيلية هي بحالة دفاع عن النفس، وصدرت إليها الأوامر بعدم إطلاق النار إلاّ في الرّد على الهجمات. ونحن بدورنا لا نستطيع الحكم على صحّة هذه الأقوال. وأني لا أزال أؤكد لكم أن الولايات المتحدة تعارض بشدة الأعمال العسكرية الاسرائيلية الهجومية وهي مستعدة لاتخاذ الاجراءات الكفيلة لوضع حدّ لها.

فهل تستطيعون بدوركم التأكيد أن قواتكم أوقفت كذلك كل الأعمال العسكرية؟ أن وزير الخارجية كيسنجر. سيوالي اتصالاته بالسيد اسماعيل لتدارس امكانية اجراء محادثات مباشرة بيننا وبينكم، حول العمل الدبلوماسي الممكن اجراؤه بعد الحرب.

على الرغم من أن موسكو لم تتحرك بعد، فمن الممكن أن يكون السادات قد توّجه بنداء مماثل وسريع إلى بريجنيف. والاتصال، والترجمة، والايصال، لا بدّ أنها تحتاج لبعض الوقت لكني كنت واثقاً أن الظروف ستفاجئنا بعاصفة لا بدّ أنها تحتاج لبعض الوقت لكني كنت واثقاً أن الظروف ستفاجئنا بعاصفة جليدية آتية من الكرملين.

صممت على استباقها، فاستدعيت دوبرينين في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين، وكان قد عاد من موسكو فقلت له: «أن مجانين الشرق الأوسط عازمون على العودة إلى الحرب». ودون إطالة حديث أكدت له أن كل فريق يدعي أنه ضحيّة لهجوم الآخر وأكملت حديثي قائلا: ربما ان المصريين هم الذين بدؤوا هذه المرة. لكننا غير متأكدين من ذلك، وليس لدينا دليل قاطع لإثباته، وانـي أريد فقط اعلامك بالواقع، ومن ثم شرحت له أننا طلبنا من الاسرائيليين إيقاف عملياتهم الهجومية فقبلوا، شريطة أن تقابلهم مصر بالمثل، وسنبذل جميع جهودنا في سبيل احترام وتطبيق وقف إطلاق النار.

لم يكن لدى دوبرينين تعليمات جديدة، وعليه أن يطلع موسكو بما سمع. وكان هذا في صالحنا وبعد عشرين دقيقة، أي نحو الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة، فاتحت دوبرينين بالموضوع الذي اقترحته اسرائيل من حيث تفويض الملحقين العسكريين الأمريكان بالذهاب إلى الجبهة ومراقبة وقف إطلاق النار، إلى أن يصل المراقبون الأمريكان. وارسلت أيضاً نسخة من آخر مذكرة أرسل بها نيكسون إلى السادات. وهي تدعو إلى حفظ كرامة الكرملين وكان عملي هذا دليلاً على احترام متبادل، وطالما أن هناك بلاداً كثيرة تتدارس الأمور ولا تستطيع المبادرة، قررت ابلاغ السادات بالتطوّرات الأخيرة:

«لقد ابلغتنا رئيسة وزراء اسرائيل، أنها أعطت تعليمات شديدة لقواتها المسلّحة لتبقى في أماكنها الدفاعية، وألاّ تطلق النار ما لم يطلق عليها النار.

«جواباً على اقتراحكم بإرسال مراقبين أميركان، فإن الحكومة الاسرائيلية قد قبلت ايضاً تفويض الملحقين العسكريين الأمريكان، المتواجدين في سفارتنا في تل أبيب، للتوجّه مباشرة إلى منطقة النزاع، للتأكد من تنفيذ هذه الأوامر.

«ونكون جد ممنونين، إذا أصدرتم مثل هذه الأوامر إلى قوّاتكم.

لكن احداث الشرق الأوسط، تسارعت بصورة لا تجدي فيها نفعاً مثل هذه المراقبة واستدعاني دوبرينين في الساعة العاشرة والدقيقة التاسعة عشرة، ليعلمني ورود مذكرة أخرى من بريجنيف، قاسية اللهجة، ولا تخلو من العموميات موجهة إلى الرئيس نيكسون وتتضمن تفصيلاً للهجوم الاسرائيلي المثير، على جانبي قناة السويس، بعد بضع ساعات من الاتفاق على آخر قرار لوقف إطلاق النار

وكانت المذكرة على وجه العموم غامضة، ولهجتها تهديدية:

إننا نتساءل بالطبع، عما وراء كل ذلك. ويسرّني أن أصارحكم يا سيدي الرئيس، أننا على ثقة ان لديكم الامكانات الكبيرة للتأثير على إسرائيل في سبيل وضع حدّ أكيد لما يجري في تل أبيب.

وإننا نرجو صادقين، أن نكون نحن وأنتم أمينين لمبادئنا وكلامنا والمبادرة التي قمنا بها.

وإننا نرحب أيضاً بجميع ما تتخذه اسرائيل من خطوات دقيقة ومباشرة لتطبيق قراري مجلس الأمن اللذين اتخذهما يومي٢٢ و ٢٣ تشرين الأول الحالي.

وأعلمت دوبرينين أنني ساتصل به حالما ننتهي من إعداد جوابنا على مذكرة بريجنيف، وكان عليّ خلال هذا الوقت أن افهم اسرائيل خطورة الوضع الحاضر. وكل مرّة، كنت أريد بها إعطاء وزن اكبر لأعمالي، أو تحاشي مجابهة مع اسرائيل، كنت الجأ إلى هيغ وأرجوه أن يتكلم باسم نيكسون، وهذا ما عملته هذه المرة أيضاً،

فاستدعى دينيتز وكلّمه بما اتفقنا عليه، ولكني كنت أخشى أن دينتيز الذي يعرف حق المعرفة وضع نيكسون، يهتم له أو يطيعه، وعلى كل حال لا بد أن يتوجّس خيفة من اتخاذ قرارات حاسمة في هذا السبيل، وفعلاً هذا ما بيّنه له هيغ وطالب بحزم وضع حدّ للعمليات الاسرائيلية الهجومية.

وفي تمام الساعة العاشرة والنصف من يوم الأربعاء، دعوت إلى اجتماع فريق العمل الخاص لأطلع زملائي على الوضع الراهن، وللتعاون على وضع الحلول الصحيحة فقلت:

«يتمكن العرب من احتقارنا، ومعاداتنا، بالإضافة إلى النظر إلينا بعين الكراهية، لكنهم قد علموا انهم إذا أرادوا تسوية، عليهم ان يتوجهوا إلينا، وليس هناك غيرنا من يستطيع إجابتهم في هذا الطلب. لقد وضعوا ثقتهم ثلاث مرّات بالتسلّح الروسي، وخسروا في المرّات الثلاث. ولدينا جميع مؤهلات النجاح إستراتيجيا إذا أحسنّا التصرّف».

وبعد انتهاء اجتماع فريق العمل الخاص، عاودت بذل جهودي لأهيّيء الأفكار لقبول الدبلوماسية الجديدة، فأرسلت مذكرة لإسماعيل أبلغه أنني قبلت دعوة السادات لزيارة القاهرة، واقترحت يوم السابع من شهر تشرين الثاني موعداً لها. وهناك أستطيع رؤية الأمور عن كثب، وأبدأ بتحركات ترمي إلى تسوية دائمة.

وعلمت في الوقت ذاته، أن مكالمة هيغ الهاتفية، قد أثارت ردود فعل غامضة، فان دايان أرسل مذكرة عن طريق دينيتز، والتقت غولدا بالسفير كاتنغ، وكانت النتيجة أن كلام الاثنين كان متطابقاً، في أن القوات الإسرائيلية تبتعد عن الرد ولا تقاوم، ولم تحاول التقدّم طوال اليوم الفائت، ولن تحاول.

ففهمت من كل هذا أنها تقوم بحرب استنزاف، تستنفد بها ذخيرة الجيش المصري الثالث وتجبره على الاستسلام.

كانت إسرائيل قد طالبت بمراقبين من الأمم المتحدة للتوجه من القاهرة إلى الشاطئ الغربي للقناة، لكن مصر عارضت، فبقي كل ما يجري على الشاطئ الغربي غامضاً.

وكانت إسرائيل تدعي أن لديها براهين ثابتة، أن مصر تعد نفسها لمتابعة القتال بمساندة دبابات وصلت من القاهرة، لتحطيم الجبهة الإسرائيلية على الشاطئ الغربي.

ولم تكن نيّة إسرائيل مهاجمة القوات المصرية على الشاطئ الغربي.

وتضيف مذكرة دايان: أن كاتنغ سيُعلم تماماً بكل مستجد لدى إسرائيل، وغايته من وراء ذلك ارضاء وزير الخارجية وإثبات نوايا إسرائيل الطيّبة.

ومهما يكن لنا من رأي شخصي وخاص، فقد قبلنا بما ورد في مذكرة دايان واتخذناه أساساً لمذكرة رئاسية، أرسلناها إلى بريجنيف في تمام الساعة الثالثة عشرة أوجزنا فيها التأكيدات الاسرائيلية.

وفيما أنا أجري اتصالاً بإسماعيل، إذا بالسادات يجري اتصالاً بنيكسون ويؤكد له أن إسرائيل قامت بعمليات هجومية، ويطالبنا بشيء لم نقترحه، سرعة إرسال مراقبين أمريكان، أو فريق آخر للإشراف على تنفيذ قرار الأمم المتحدة من الجانب المصري، حدث جديد كنت أشكّك فيه قبل ساعات ثلاث، لأن السادات كان يقول أنه سيتوجه إلى السوفيت لإرسال فريق مراقبة.

وعلمت بعد ذلك أن القاهرة أصدرت بلاغاً رسمياً تعلن فيه عن مطالبتها باجتماع مجلس الأمن، وإرسال قوات امريكية وسوفيتية إلى الشرق الأوسط، لأن بوادر أزمة خانقة بدأت تلوح في الأفق.

لم نكن على استعداد لإرسال فرق أمريكية إلى مصر، ولا القبول بإرسال مثلها من قبل موسكو، لأننا لم نعمل طوال سنوات عدة لتقليص التواجد العسكري

السوفيتي في مصر، حتى نأتي الآن ونسهم في إدخالها مجدداً عن طريق قرار تتخذه الأمم المتحدة.

وليست نيتنا الاشتراك بقوّة أمريكية سوفيتية، تعطي السوفيت دوراً شرعياً في المنطقة وتشدّد من إزر العناصر المتشددة، وربّما ترعب المعتدلين من العرب مثل العربية السعودية، والامارات العربية، والأردن، والكويت، عندما يتأكدون من هذا التعاون الغريب بين واشنطن وموسكو. ويصبح مستحيلاً علينا مستقبلاً زحزحة القوات السوفيتية، التي ستجد ذرائع كثيرة لتتخذ نقطة ارتكاز لها ضد حكومة إسرائيل، وحتى الحكومات العربية المعتدلة.

وفيما كنا ننتظر التأكد من صحّة ما نشرته القاهرة، إذا بالسوفيت يصعّدون الموقف، فقد استدعاني دوبرينين في الساعة الخامسة عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين، لينقل إلي هذه المرّة مذكرة من غروميكو، ومذكرة عن وزير الشؤون الخارجية، لا بدّ أن تخفض من مستوى المجابهة وتحدث تعزية على الرغم مما كانت تحمل من اضطراب، ادّعى غروميكو ان إسرائيل تكثف عملياتها العسكرية وكل ما أوردته هذه الدولة من تأكيدات للسلام كانت كاذبة. وهو لا يطالب بعمل معيّن، ويرجو إبلاغ الرئيس أن تعاون الفريقين في حل المشكلة، سوف يجنّبنا كوارث لا تحمد عقباها.

فرجوت دوبرينين أن يأتي إلي في الساعة العاشرة لمناقشة الأمر أمام دينيتز، الذي وصله تأكيد قبل خمس دقائق أن كل شيء هادئ.

هناك عدة تأويلات لهذه المتناقضات، وربما أن أقوال الفريقين صادقة لأن ما يقومان به من عمليات، كان يجري في أوقات متفاوتة، وإذا أخذنا بعين الاعتبار الزمن الذي تحتاج اليه الاتصالات، فإن اخبار انتهاء العمليات العسكرية لا تكون قد وصلت إلى موسكو، عند إرسال دوبرينين مذكرته. وربما أن الفريقين أيضاً هما

في تناقض في أقوالهما. وإذا كانت إسرائيل كاذبة ولا تزال تتابع عملياتها فان المجابهة واقعة لا محالة.

وإذا كان غروميكو يعلم أن إسرائيل قد أوقفت عملياتها، وأرسل مذكرته آنفة الذكر، فإن هذا يعني ان موسكو تقصد المفاخرة أمام القاهرة، أنها هي التي أجبرتنا على وقف إطلاق النار، أو انها تعتزم إيجاد ذريعة لإحلال ضربة قاضية بالجيش الإسرائيلي وإنقاذ الجيش المصري الثالث، وهذا عمل يؤهلها إعادة قواتها إلى مصر، وفي هذه الحال وغيرها من الأحوال لن يحل وقف إطلاق النار مشاكلنا. والجيش المصري سيبقى مطوقاً وفي خطر، حتى لو انتهت العمليات الإسرائيلية.

صمّمنا على مقاومة فكرة إدخال فرق سوفيتية إلى الشرق الأوسط، مهما يكن السبب وقلت لدوبرينين الذي وصل إلى مكتبي بعد الساعة السادسة عشرة بقليل، أننا عازمون على استخدام حق الفيتو ضد قرار تتخذه الأمم المتحدة حول إرسال قوات من الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي، وبهذا حفظت ماء وجه السوفيت إذا أرادوا الرجوع عن إرسال قواتهم إلى مصر.

أظهر دوبرينين قبولاً، لأنه لم يتسلّم أية تعليمات جديدة، وكانت الساعة تشير حينئذ إلى الثالثة والعشرين في موسكو وأصبح الوقت متأخراً لإرسال توجيهات أو أخبار، ويبدو أن الأمور قد هدأت، وهذا ما فكرنا به نحن الاثنين معاً.

ثم رأينا أن أفضل طريقة هي أن يصدر مجلس الأمن رأياً بهذا الموضوع، ويوجه نداءً جديداً لوضع حد للأعمال العدوانية، فوافقنا على هذا الرأي لأنه أقصر السبل لتخفيف وطأة الأزمة.

عقدت في اليوم التالي مؤتمراً صحفياً، حيث بدا أن الجوّ كان هادئاً، وكان يدور جميعه حول المشتركين في قضية الشرق الأوسط، والاجراءات التي تتخذ لعقد مؤتمر سلام، ولا يغيب عن بالي أن دوبرينين كان يشاركني الرأي في مؤتمر سلام، يكون

افضل وسيلة للخروج من هذه المأساة المقلقة، حتى بالنسبة لمصير الجيش المصري الثالث، ونحن بدورنا كنا على استعداد للتعاون في هذا السبيل.

ولأثبت صدق تصوّري طلبت من مكتب الشرق الأوسط في وزارة الخارجية، إعداد التقارير حول الاجراءات المطلوبة لتشكيل مؤتمر سلام.

ظهر ممثل الاتحاد السوفيتي في الأمم المتحدة، ياكوف مالك، المتواجد في نيويورك، وكأنه غير مقتنع بطلب مصر حول إرسال قوات أمريكية سوفيتية.

قارب الوقت منتصف الليل في موسكو، وربما قد تجاوزنا أزمة جديدة، لأن كلّ ساعة تمر تقرّبنا من مخرج دبلوماسي.

لم أرَ نيكسون أبداً، كما رأيته في ذلك الوقت، فقد كان مضطرباً وقلقاً، ولقد رجاني ان أتكلم في اليوم التالي المخصّص للإعلام، فأوجّه كلامي إلى زعماء الكونغرس عن دورهم الرئيسي في أزمة الشرق الأوسط، ورجاني أيضاً استدعاء بعض أعضاء مجلس الشيوخ لأقول لهم الشيء نفسه، وهذا مؤشر إلى ما وصل إليه هذا الرجل الكبير من عزلة.

وفجأة في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الخامسة من هذا اليوم الأربعاء الواقع في الرابع والعشرين من تشرين الأول (والساعة تقابل الثانية والدقيقة الخامسة حسب توقيت موسكو)، أعلمني دوبرينين أن مالك قد كلّف مساندة قرار يتخذه مجلس الأمن يطالب بإرسال قوات أمريكية وسوفيتية إلى الشرق الأوسط، في حال اقتراحه من قبل احد الفرقاء أو الأعضاء وهذا أمر سهل، ومصر قادرة عليه، فأصبح لدي الوقت المناسب لأبلغ دوبرينين عدم موافقتنا على ذلك، وقطعت الحديث لأكلّم الرئيس الذي وجدته مضطرباً ومنهكاً، فأخذ يحدّثني عن نهايته السياسية، والطبيعية، ثم أضاف قائلاً: أنهم يعلمون ذلك، لأنهم يريدون قتل الرئيس وربّما ينجحون، وربّما أموت جسدياً، حاولت تهدئة أعصابه فقلت له أن يظهر كل شدّته في الخصومة فسمعته يكمل حديثه قائلاً:

«إن ما يسعون إليه هو الخراب، يصل بي الأمر احياناً إلى إلقاء الحبل على الغارب وأدعهم يعملون، أتمنى رؤيتهم يديرون هذه البلاد، لأرى ما سوف يعملون. . . إذا تركت، سوف تبدأ المأساة الحقيقية، إذ سيتهدّم كل ما عملناه، وحينئذ يسعى الروس إلى إيجاد أتباع جدد، ويفقد الصينيون ثقتهم فينا، أما الأوروبيون فانهم لن يحرّكوا ساكناً طالما أنهم يراقبون ويتطلّعون من النافذة.

لا أعرف، لا أعرف بحقّ السماء!!».

تركت الرئيس نيكسون، لأتحقّق مما جرى بشأن أزمة السياسة الخارجية، وهي في نظر الجميع أكثر خطراً من رئاسة نيكسون، ولأنها كانت تنذر بمجابهة مباشرة بين القوّتين الأعظمين، فكيف تجوز مقارنتها مع رئيس أنهكته المعارضة، ولا يستطيع استخدام القوة العسكرية، التي حدّد الكونغرس تحرّكها (بقانون دعي قانون السلطات الحربية) كنت جدّ متألم عندما انهيت محادثتي هذه مع الرئيس في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة عشرة، لأعاود الاتصال بدوبرينين، الذي قبل بالتراجع عن رأيه، وعرف أن ما قاله لي قبل ساعات ثلاث كان غير حقيقي.

أن الاتحاد السوفيتي راغب في أن ترسل الأمم المتحدة قوات، تكون بينها قوات سوفيتية، إلى الشرق الأوسط لإقرار وقف إطلاق النار. فأجبته بفتور أننا على استعداد لاستخدام حق الفيتو ضد هذا الرأي.

اتخذت استعدادات عاجلة، وقمت أنا بدوري بإجراءات مشابهة في الدقائق العشر التي تلت ذلك، وكلفت سكالي باستخدام حق الفيتو ضد كل قوة تقرّر من القوّتين الأعظمين، لتثبيت السلام في الشرق الأوسط، واستخدام حق الفيتو ايضاً ضد كل إدانة لإسرائيل. لأن هذا ربّما يتخذ ذريعة لتدخل خارجي. ولقاء ذلك كنا موافقين على تعزيز مراقبي الأمم المتحدة، الذي ورد ذكرهم في أحد بنود القرار (٣٣٩). وطلبت من سكالي أيضاً إبلاغ هوانغ هوا سفير الصين توجيهاتي هذه،

لأني كنت على ثقة أن الصين غير راغبة في إرسال قوات سوفيتية إلى الشرق الأوسط تحت إشراف الأمم المتحدة. وستنضم الصين بالطبع الينا في المعارضة، عند تفهمها وجهات نظرنا. ولما كنت غير متأكد من هو الدبلوماسي الذي سيثير الموضوع أمام الأمم المتحدة، طلبت على سكاوكروفت إبلاغ هوانغ شين، مدير مكتب الارتباط في واشنطن، عن قرارتنا وما نحن عازمون على إجرائه.

وبعد وضع الخطوط العريضة، استدعيت دوبرينين في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الخامسة والعشرين، ورجوته بإلحاح عدم إثارتنا، وأننا سنتعاون معهم لإرسال مراقبين من الأمم المتحدة بأعداد كبيرة، ولن نقبل إرسال قوات سوفيتية مهما تكن الحجّة. فأجابني دوبرينين أن موسكو مصرّة بل مصمّمة على إرسال قوات سوفيتية. فأكدت عليه ثانية تحاشي إتخاذ مثل هذا القرار لأنه يؤسفني أن تخلق مناسبة فتحدث مجابهة.

إن دوبرينين في فترة الأزمات، لا يلين ولا يتكلم بهوادة. فأجابني أنه سيطلع جميع المعلّقين على ذلك، وأنه أطلعهم في موسكو على الموضوع وعرف ما يقرّرون.

استدعيت حالاً سفير بريطانيا العظمى، اللورد كرومر، لأطلب إليه انضمام لندن الينا في استخدام حق الفيتو، وأطلعت دينيتز على واقع الحال في الساعة التاسعة عشرة والدقيقة الخامسة والثلاثين، ثم اتصلت مجدداً بدوبرينين، بعد الساعة العشرين وأخبرته بمعلومات حديثة وردتنا. بعدم حدوث أية معركة في الشرق الأوسط ولا يزال أمامنا متسع لتجنّب أية مجابهة، وكانت تلك طريقتي الإعلامية بصدق وتصميم، فما كان من دوبرينين، إلا أنه أكّد عليّ إيقافه على الوضع الراهن بدقة، وكأن موسكو بحاجة على معلوماتنا لتطلّع على ما يجري!! وأضاف قائلاً: سأرسل برقية.

وفيما أنا مرهق، وسط هذه الضغوط المتراكمة. وصلتني مذكرة حافظ إسماعيل تبلغني قبول اقتراحي، وتمكني من التوجه إلى القاهرة في السابع من تشرين الثاني.

وأبلغني دوبرينين في الساعة العشرين والدقيقة الخامسة والعشرين، أن الزيّات وزير الشؤون الخارجية المصرية، طالب رسمياً أثناء إلقاء كلمته أمام مجلس الأمن، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، إرسال قوات إلى مناطق القتال فأوصيت حينئذ باتخاذ موقف تحفّظ. ولم يصبح الاقتراح المصري قراراً. وإذا ما اتخذ هذه الصفة، فهذا يعني أننا ننتقل من مواطن التعاون الوثيق، إلى مسلك خطر جداً. ولم تصل دوبرينين أية توجيهات جديدة، بل دأب إلى إعادة ما قاله الزيّات أمام مجلس الأمن.

وفي الحال قمت بإرسال مذكرة عاجلة إلى السادات وباسم نيكسون، أقول له فيها:

إننا سنستخدم حق الفيتو ضد كل قرار يتخذ بموجب المطالب المصرية من حيث إرسال قوات أمريكية وسوفيتية، وحذّرته أن إجراء كهذا ربما يصل بي إلى إلغاء سفري إلى القاهرة، وأنه إذا أصرّ على استقدام مثل تلك القوات، فإنه يعرّض للفشل كل محاولة تقارب بيننا.

لم يَمض بعض الوقت حتى وصلتني أخبار مطمئنة من مجلس الأمن الدولي، إذ قد استدعاني جون سكالي، ليعلمني أن خطاب الممثل السوفيتي في مجلس الأمن، وعلى الرغم من إدانته إسرائيل، ومحاولته مهاجمة الولايات المتحدّة، لم يأت على تأييد المطالب المصرية، فكلّفت سكالي حينئذ بعرض وجهة نظرنا ضمن خطاب حماسي، يعارض بشدّة تدخّل القوتين الأعظمين ويطالب بإرسال عدد كبير من المراقبين بإشراف الأمم المتحدة، دون توجيه أي لوم لإسرائيل أو لمصر.

أبلغت هيغ في تمام الساعة الحادية والعشرين والدقيقة الثانية والثلاثين عن الوضع في الأمم المتحدة، وبحثت معه إمكانية إيضاح ذلك من قبل نيكسون في

بداية المؤتمر الصحفي المتوقع اجراؤه في اليوم التالي. ولم أتمكن أنا وهيغ من محادثة نيكسون بالأمر لأنه ذهب لينام، فتأكدنا أننا لا بد واصلون إلى أزمة خانقة ضمن ولاية مضطربة.

ثبتت مخاوفنا وبشكل مأسوي، بعد بضع دقائق، كلمني دوبرينين في الساعة الحادية والعشرين والدقيقة الخامسة والثلاثين (الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين حسب توقيت موسكو). ليعلمني أن قد وصلته رسالة عاجلة من بريجنيف، ويرى مناسباً أن يقرأها هاتفياً: فهمت حالاً قصده، وتأكد لديّ أنها بمثابة إنذار نهائي، فهو (أي بريجنيف) يقترح إرسال قوات سوفيتية وأمريكية، ليحقّق ليس فقط وقف إطلاق النار. بل اتفاقنا الأخير من حيث ضمانة تنفيذ قرارات مجلس الأمن. وبعبارة أخرى فإنه يقصد فرض صلح شامل وهذا ما جاء في تلك الرسالة:

«لنرسل إلى مصر وبسرعة، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة معاً، مراقبين وعسكريين سوفيت وأمريكان، لضمان تنفيذ قراري مجلس الأمن الدولي اللذين اتخذهما في (٢٢ و ٢٣ من شهر تشرين الأول)، المتعلقين بوقف إطلاق النار وكل نشاط عسكري، ولتنفيذ ما ضمناه معاً من حيث تطبيق قرارات مجلس الأمن.

«أن الوقت ضيّق ويدعونا إلى سرعة التصرّف، وأني أكلمكم بصراحة، أنه حالما تقررون استحالة التعاون معنا في هذا السبيل، نجد أنفسنا في حل من جميع ارتباطاتنا والمجال مفتوح أمامنا لمواجهة جميع الاحتمالات، واتخاذ القرارات الضرورية من جانب واحد، ولا نسمح لإسرائيل بإستخدام تعسّفها».

يمكن اعتبار الرسالة بمثابة أكبر تحدّ يوجّه إلى رئيس أمريكي، من قبل زعيم سوفيتي منذ بدايتها «السيد الرئيس» حتى ختامها الذي يطالب بجواب سريع وواضح. ومن جملة الاقتراحات التي أوردها: لن تكون مهمّة القوّات العسكريّة السوفيتية والأمريكية، تنفيذ وقف إطلاق النار فقط، بل العمل على إجراء تسوية

نهائية، بموجب شكليّات لم يحدّدها، لكن موسكو قد صرّحت عنها مراراً عديدة، خلال السنة الفائتة، وطالما رفضناها نحن. وهدّد أيضاً بإرسال قوات من جانب واحد في حال رفضنا اقتراحه.

كان الاقتراح غير مقبول، والقيام بهذا الدور بالاتفاق مع موسكو يعني إعادة القوات السوفيتية إلى مصر بمباركتنا، وعلينا أن نكون في هذه الحال تبعاً في مظاهرة قوّة تقوم بها موسكو ضدّ إسرائيل، أو أن الأمر ينتهي بنا إلى الاصطدام بقوّاتها في بلاد تشاطرها وجهة نظرها من حيث وقف إطلاق النار، ولا تستطيع إظهار أية معارضة.

سيكون للصدمة صدى أبعد من مصر. إذا ظهرت قوات موسكو بكثرة في القاهرة وكانت القوات الأمريكية في مؤخرتها وتابعة لها. فلا مجال للشك أن حلفاءنا التقليدين من العرب المعتدلين، سيفقدون ثقتهم فينا نهائياً، من جرّاء مثل هذه المظاهرة التي لا بدّ أن يعتبروها بمثابة حكم ثنائي سوفيتي أمريكي. أن الاستراتيجية التي دأبنا على أتباعها وبحكمة طيلة سنوات أربع وبدبلوماسية ماهرة. بالإضافة إلى الأسبوعين المنصرمين من الأزمة الخانقة التي لا نزال فيها، أن هذه الاستراتيجية ستنهار، وتدور مصر مجدداً في فلك السوفيت، وهؤلاء مع حلفائهم المتشددين سيجعلون أنفسهم المسيطرون على الشرق الأوسط. أما الصين وأوروبا فلا بد أنهم سيصدمون، من هذا التعاون العسكري الأمريكي السوفيتي في هذه المنطقة الحيوية من العالم. وإذا قدّرنا إمكانية القيام بذلك، فان مشروعنا المشترك لا شك فاشل، وينقلب إلى أزمة بيننا وبين موسكو، ونصبح وحيدين.

لا مجال للتساؤل عندي، يجب رفض اقتراح موسكو وبتصميم، ليتخلّى السوفيت عن العمل الأحادي الجانب الذي يهدّدون به، ويعدّون له، كما تشير جميع معلوماتنا. ولدينا أسباب تدعونا إلى الاهتمام بهذا التهديد. لأن وكالة المخابرات

المركزية الأمريكية أشارت إلى أن الجسر الجوي السوفيتي، قد توقف العمل به نهائياً اعتباراً من الرابع والعشرين في حين أننا كنا نتابع إرسال المعدّات. فيمكن أن نستنتج من ذلك أن الطائرات السوفيتية قد تجمعت لتنقل معاً بعض الفرق المحمولة جواً. ويمكن قياس هذا الأمر على القوات المتواجدة في المانيا الشرقية. وبالنسبة لعدد البوارج الحربية السوفيتية في البحر الأبيض المتوسط، فقد ارتفع إلى خمس وثمانين، ويمكن أن يصل إلى مائة.

وشوهد في اليوم التالي أسطولاً سوفيتياً مؤلفاً من اثنتي عشرة بارجة منها اثنتان برمائيتان، يتجه نحو الاسكندرية، كما وردت أخبار مقلقة أيضاً من بعض مصادر وثيقة، ولا أخفي أبداً أنني اعتقدت أن المكتب السياسي سيجرؤ على تهديدنا وإنزال ضربة بنا، بعد تأكده مما يعانيه نيكسون من فضيحة واترغيت.

أخذ القلق يساورني من هذه الأفكار، فيما كنت أعيد قراءة مذكرة بريجنيف التي أملاها عليّ دوبرينين، لأطمئنه على حسن فهمها. وحذّرته من اتخاذ مبادرة أحادية الجانب، فوعدني بنقل هذا التحذير إلى موسكو. وأصبح كل منا يعدّ دفاعه للمجابهة. وللتمكن من اجتناب التصادم، يجب على كل منا تغيير طريقة تفكيره.

فأبلغت هيغ بواقع الحال في الساعة الحادية والعشرين والدقيقة الخمسين، وقد كان يعتقد أن السوفيت يخادعون وقال: أنهم لن يحضروا الآن قواتهم وقد انتهت الحرب. لم أوافقه على رأيه، ويجب علينا أن نكون حذرين ولا نكتفي بالاعتقاد أنهم يذرون الرماد في العيون فقط. وإذا بقينا غير مبالين أمام هذا التهديد، فإن زعماءهم لن يجدوا عائقاً من جعل التهديد حقيقة. ولا نملك الخيار فعلينا إذاً التصدّي للتحدّي بحقائق راسخة.

فسألت هيغ عما إذا كان يرى إيقاظ الرئيس، فأجابني بلا «أكيدة» فهمت منها أن الرئيس متعب وقلق ولا يستطيع المشاركة بمثل هذه المحادثات المرهقة. ومن خلال

المحادثة التي كنت أجريتها في العشيّة مع الرئيس، أدركت أن هيغ على حق، وأنه يجب عليّ تحمل المسؤولية كاملة.

أن القرار الواجب اتخاذه، يتطلب اجتماع أهم أعضاء الحكومة، وفي الوقت ذاته دعوت فريق العمل الخاص إلى اجتماع يعقد في وزارة الخارجية في تمام الساعة الثانية والعشرين والنصف.

وفيما كنت انتظر بدء الاجتماع، استدعيت دينيتز هاتفياً وأبلغته فحوى رسالة بريجنيف، وطلبت إليه الاتصال وإعلامي وجهة نظره، وأفهمته أننا مصممون على عدم قبول الاقتراح.

كلمت دوبرينين هاتفياً في الساعة الثانية والعشرين والربع، لأتأكد منه معرفة وجهة نظرنا، ومطالبته بردع الكرملين عن القيام بعمل مفاجئ.

كيسنجر: أننا نجمع رجالنا لدراسة رسالتكم، وأبلغكم في الوقت ذاته، إذا اتخذتم اية مبادرة أحادية الجانب، قبل التمكن من إجابتكم، فإننا سنعتبر هذا الأمر في غاية الخطورة.

دوبرينين: نعم، حسناً.

كيسنجر: أنه أمر مقلق، لا تحاولوا الضغط علينا، وأكرر القول: لا تحاولوا الضغط علينا.

دوبرينين: حسناً.

لا شك في أن هذه المخابرة الوجيزة، زادت في خطورة رسالة بريجنيف التهديدية، سهل على دوبرينين بعث الطمأنينة في نفوسنا، وعدم قيام السوفيت بمفاجأة قبل وصول جوابنا اليهم. وسهل أيضاً إبلاغ موسكو بالآف الوسائل الموضوعة تحت تصرّف موظف محترف مثله، أن ردود فعلنا بازدياد، وأن التهديد

باللجوء إلى عمل أحادي الجانب يغيظنا في الصميم. وعليه أيضاً أن يدلل على صدق انطباعه من تفاقم الأزمة، إذا بادرت موسكو إلى التدخل في شؤون الشرق الأوسط العسكرية، وهذه هي الفكرة التي صمّمنا على اتباعها في اجتماعنا الذي دعونا إليه.

كلمت هيغ ثانية في الساعة الثانية والعشرين والدقيقة العشرين، واتفقت آراؤنا على أننا أمام تهديد حقيقي من تدخل سوفيتي. ونصحني هيغ بعقد الاجتماع في قاعة لوبوانت، ليكون بإشراف البيت الأبيض، وطلب مني في الوقت ذاته أن أرأس الاجتماع بصفتي نائباً عن الرئيس، لا بصفة وزير خارجية. وعندما اعدت عليه السؤال حول إيقاظ الرئيس كان الجواب أكثر ابهاماً، ومن الأفضل عقد الاجتماع في البيت الأبيض، وورد في مذكرات نيكسون حول هذا الموضوع ما يلي:

«عندما اعلمني هيغ بمضمون هذه الرسالة، أجبته أن عليه وكيسنجر عقد اجتماع في البيت الأبيض، لوضع الخطوط العريضة لردود فعل أكيدة، لما يمكن اعتباره تهديداً حقيقياً. إن الكلمات وحدها لا تكفي للتعبير عن وجهة نظرنا، نحن نفتقر للأفعال، بل إلى استنفار عسكري إذا اقتضت الحال».

بدأ الاجتماع الذي كنت قد دعوت إلى عقده، في تمام الساعة الثانية والعشرين والدقيقة الأربعين، في قاعة لوبوانت، في قبو الجناح الغربي، يوم الأربعاء الموافق للرابع والعشرين من تشرين الأول. وكان برئاستي وامتدّ حتى الساعة الثانية من صباح الخميس.

حضر هذا الاجتماع كل من: وزير الدفاع جيمس شليسنجر، مدير المخابرات المركزية وليم كولبسي، رئيس هيئة الأركان العامة المشتركة، الأميرال توماس موورير، أمين عام الرئاسة الكسندر هيغ، نائب مستشار الرئيس لقضايا الأمن القومي، الجنرال برانت سكاوكروفت، القائد العام جوماتان هاو، نائبي العسكري في مجلس الأمن القومي، وأنا.

وصف هذا الاجتماع من قبل البيت الأبيض، وكأنه اجتماع مجلس الأمن القومي، وقد تساءل المجتمعون عما إذا كان يجوز عقد اجتماع لمجلس الأمن القومي دون حضور الرئيس؟ (ولم يحضر معنا نائب الرئيس، لأن نيكسون كان قد عيّن جيرالد فورد في الثاني عشر من شهر تشرين الأول، ولم يصدّق مجلس الشيوخ على تعيينه بعد) وكان الحاضرون يشكلون الاجتماع القانوني لمجلس الأمن القومي، بتخلّف الرئيس ونائبه.

وللحقيقة فإن هذا الاجتماع يمثل اجتماعات فريق العمل الخاص، باستثناء الرئيس. ومنذ تعييني وزيراً للخارجية، كان الرئيس يمرّ بالمجتمعين ويشجعهم ببعض الكلمات ولا يحضر معهم ولذا فإن المجتمعين لم يفاجئوا بغياب الرئيس.

افتتحت الجلسة بعرض تفصيلي، وبينّت للحاضرين الغاية التي أوجبت علينا الاجتماع، وأوجزت لهم ما قلته حول موضوع تدخل سوفيتي في الحرب الدائرة في الشرق الأوسط، وحال تساهلنا في ذلك، نفقد ثقة حلفائنا من العرب المعتدلين بالإضافة إلى الصين وأوروبا، اللتين تنتظران أن نكون دائماً أسياد الموقف. ثم بينّت لهم أن هناك إمكانات ثلاث:

١ ـ أن السوفيت مصممّون على التدخل في الشرق الأوسط، ودعوتي إلى موسكو ليتاح لهم الوقت لتنفيذ هذا الأمر.

٢ ـ لقد صمموّا على ذلك، عندما أخذت بوادر هزيمة العرب تبدو لهم واضحة.

٣ ـ أصبح لديهم انطباع أننا بالتعاون مع إسرائيل، عازمون على إلحاق الهزيمة بالجيش الثالث المصري، بعد وقف إطلاق النار.

وحسب رأيي فإن تحركهم الحالي، نتيجة فعلية للفقرتين الثانية والثالثة.

تلك كانت افتتاحية أهم المناقشات الدقيقة، التي حضرتها خلال سنوات وظيفتي

في الحكومة. فأخذ الحاضرون يقارنون بين أقوال وأفعال وتحركات ونوايا السوفيت، واتفق على الرأي التالي:

إن الكرملين يتأهب لاتخاذ قرار خطير. وعلينا أن ننتظر ما سوف يقوم به الجسر الجوي، منذ فجر الغد في أوروبا الشرقية، أي بعد حوالي ساعتين.

انسحبت من الجلسة في الساعة الثالثة والعشرين، للالتقاء بدينتيز في بهو الجناح الغربي، وأكدت له ثانية رفضنا للاقتراح السوفيتي، ولا بدّ لنا من الإطلاع على وجهة نظر إسرائيل حول الموضوع.

عند عودتي إلى قاعة الاجتماع، كان الحضور قد اتفقوا على نص يستدرج السوفيت إلى تأجيل ما ينوون القيام به، والدخول في مباحثات.

فأجبت أن جواباً مثل هذا لا يكون مجديا إذا لم يستند إلى قرار يثبت عزمنا على مقاومة كل المبادرات أحادية الجانب، وأن على موسكو أن تعرف أيضاً ردود فعلنا قبل وصول جوابنا.

وأجلت تهيئة الجواب لموسكو للتمكن من مناقشة الوضع العسكري ومدى استعداداتنا الحربية في جميع الجهات التي تتواجد فيها أساطيلنا وقطعنا البحرية. ثم اتفق الجميع على رفع درجة الاستنفار إلى أقصى الدرجات.

وفي تمام الساعة الثالثة والعشرين والدقيقة الخامسة والعشرين، أحضر لي دينيتز جواب إسرائيل ومعالجتها لهذه المشكلة. وكان الجواب يعيدنا إلى إجراءات إسرائيلية لعام ١٩٦٧:

تنسحب القوات الإسرائيلية إلى الشاطئ الشرقي لقناة السويس. والقوات المصرية إلى الشاطئ الغربي، وبعد تلك المقايضة تحدث منطقة منزوعة السلاح تقدّر بعشرة كيلو مترات على كل من جانبي القناة.

فرأيت أن هذا مشروعاً غير قابل للتحقيق. ولابدّ أن يغتاظ السادات إذا طلب إليه إخلاء مناطق، يعترف بها الإسرائيليون أنفسهم أنها أراضٍ مصرية. ولا يطيب له إنهاء حرب بتراجع يقدّر بعشرة كيلو مترات بدءاً من نقطة بدئها. وأصبح الوقت متأخراً لإجراء مفاوضات لتفادي التدخل السوفيتي، إذا كان قد دخل في حيز التنفيذ أساساً. ويمكن لهذا التصرّف تسريع تدخل الروس، إذا بقي السادات غاضباً ومصراً على تدخل قوة عظمى.

فقلت لدينيتز، إني سأعلم زملائي بالأمر، لكني أوكد لك منذ الآن أن هذا غير مجدٍ. وللحقيقة لم يبحث المشروع الإسرائيلي طالما ثبت لنا أن التدخل السوفيتي أصبح في منعطف حادّ.

وعزم المجتمعون على تأجيل الخيارات الدبلوماسية الصادرة عن موسكو، والسعي لدى القاهرة لسحب طلبها بإرسال قوات سوفيتية. وقررنا في الساعة الثالثة والعشرين والدقيقة الخامسة والخمسين، إرسال مذكرة إلى السادات بأسم نيكسون، ليؤكد معنا رفض إرسال قوات سوفيتية أمريكية، والفقرة الخاصة المتعلقة بهذا الموضوع تتضمن ما يلي: سنضطر حال وصول قوات سوفيتية، إلى مقاومتها على الأراضي المصرية ذاتها. وعلى أية حال، فإن سفري إلى القاهرة في مثل هذه الظروف، سوف يلغى:

"أطلب إليك تقدير النتائج التي تتعرض لها بلادك، في حال حدوث مجابة عسكرية على أرضها، بين القوتين النوويتين الأعظمين. وأرجوك أيضاً أن تأخذ بعين الاعتبار عدم تمكننا من الشروع بمبادرتنا الدبلوماسية التي تبدأ بوصول كيسنجر إلى القاهرة في السابع من تشرين الثاني، إذا تدخلت إحدى القوتين الأعظمين عسكرياً في الأرض المصرية".

حالما رفع الاستنفار إلى الدرجة القصوى، طلبت من سكاوكروفت، مغادرة الاجتماع واستدعاء دوبرينين وإبلاغه التوجيهات التالية:

"قل له أن يمتنع عن الإتيان بأي عمل، حتى نقدم له جوابنا.

"قل له أنك غير مفوّض بإعطائه أي جواب.

" قل له أنني في اجتماع ولا أستطيع تلبيه من يدعوني لمغادرة الاجتماع.

"عدم الإقدام على أي عمل أحادي الجانب، وإذا حدث ستكون له عواقب خطيرة.

"إذا سألك عن أي شيء تستطيع الإجابة أن هذه هي التوجيهات ولا تعليق عليها.

"عليهم أن يتأكدوا أننا جادّون".

"إن الدور كبير، ولا نتمكن وحدنا من القيام به"

سمع دوبرينين الكلام ولم يدل هو أيضاً بأي تعليق، بل اكتفى بالقول بأنه سيبلغ رسالتنا إلى موسكو. ولم يتكلم بأية كلمة من شأنها بعث الطمأنينة في قلوبنا، أو كلمة توضيح أن هناك سوء تفاهم، أو الايحاء بأننا جميعاً ذاهبون الآن للنوم وقد انتصف الليل. على أن نعود إلى مناقشاتنا في صباح اليوم التالي، إذ لا وجود لخطر ما. ولم يصدر عنه سوى تعليق مقتضب وهو أنه: سينتظر جوابنا.

لو كان هذا الموقف معّداً لزيادة فهمنا وإدراكنا، لنجح نجاحاً رائعاً. وعلى الرغم من ذلك فإن قناعتنا بأننا مهددون بتدخل روسي مداهم لم تتضاءَل، بل زادت عندما فوجئنا بتلقيّ خبر نحو أواخر الليل يقول أن ثماني طائرات أوتونوف (٢٢) تستطيع كل منها نقل مائتي رجل أو أكثر، ستغادر بودابست باتجاه مصر، خلال الساعات القادمة. وتوضح لنا أيضاً أن بعض عناصر القوات المسلحة في ألمانيا الشرقية، قد وضعت في التهيئة العامة، اعتباراً من الساعة الخامسة، حسب توقيت واشنطن، أعني بعد خمس ساعات.

كنا نقدّر أن موسكو قادرة على نقل خمسة آلاف جندي في اليوم إلى مصر، وفي هذه الحال فإن رفع استنفارنا إلى الدرجة القصوى، لا يعني شيئاً تجاه ما تتخذه موسكو من تدابير. فعلى واشنطن أن تتدبّر أمرها.

في الدقيقة العشرين من بدء هذا اليوم، أوعز فريقنا إلى الفرقة الثانية والثمانين المحمولة جواً، إنها قد تتحرك عما قريب، وفي تمام الدقيقة الخامسة والعشرين أعطي الأمر إلى حاملة الطائرات فرانكلين روزفلت، المتواجدة في عرض السواحل الايطالية، بالتوجّه سريعاً إلى البحر الأبيض المتوسط، لتنضّم إلى حاملة الطائرات اندباندانس في جنوب جزيرة كريت. كما تلقت حاملة الطائرات جون كينيدي، مع قوات التدخل السريع التي كانت ترافقها، أوامر باجتياز المحيط الأطلسي إلى البحر الأبيض المتوسط.

وأخذت الأسئلة تنهال، فصرّحت: لقد وصلنا إلى نقطة ضعف لا تطاق، وإذا لم نتحرك فإننا ولابد واصلون إلى أسوأ العواقب. وطّرح سؤال آخر: هل تستطيع الولايات المتحدة الوقوف بوجه القوات السوفيتية في مصر، وأن تخليها منها ؟ وخشي البعض أن يمنعنا وضعنا السياسي الداخلي عن مثل هذا التدخل العسكري، فلم يتغيّر موقفي وقلت يجب أن ننطلق من خلال مصلحتنا القومية، مهما يكن تشكيك الصحافة والمعارضة السياسية، وسيكون لدينا ما ندافع به ضد اتهامات الصحافة، التي ربما تبين خطر لها أننا نحن الذين نثير الأزمة. والصحيح، أن ضعفنا قد أثارها !!

إن الإجراءات التي اتخذت في سبيل التعبئة العامة، قد قوت أصرارنا بالتوجّه إلى موسكو. فأخذ الفريق بتهيئة جواب الرئيس الرسمي الذي سوف يرسل إلى بريجنيف، ويؤمل إنهاؤه وإرساله نحو الساعة الخامسة والنصف حسب توقيت واشنطن. ولما كان قرار موسكو يرتبط بجوابنا، فهذا يعني أننا ننهي جميع

استعداداتنا قبل وصول جوابنا إلى موسكو، التي لابد أنها ستطلع عليها. وفي الساعة الواحدة والدقيقة الثالثة أبلغت كرومر سفير الحكومة البريطانية، عما قمنا به من إجراءات استنفارية، وأيضاً عن رسالة بريجنيف، وأخبرته أيضاً أننا سنطلع بصورة رسمية مجلس حلف شمال الأطلسي عن كل ما يستجد من أمور، بعد ساعة من إرسال جوابنا إلى السوفيت، أو نحو الظهر حسب توقيت بروكسل، أملين مساندة لندن وغيرها من العواصم.

وكان هذا أنموذجاً تقليدياً عن علاقاتنا الخاصة مع بريطانيا العظمى، من حيث إجراء مشاورات بين الحلفاء، لقد أطلعت بريطانيا العظمى بصورة تلقائية، علماً أن حكومة هيث كانت تسعى بجميع إمكاناتها لمساندتها في أوروبا بعد أن بيّنت وجهة نظرها المختلفة بشأن الشرق الأوسط. ولم أستطع مشاورة حلفائنا الآخرين لأسباب احتفظ بها لنفسي. على الرغم من أن تصرّفي هذا كان خاطئاً وكنت أستطيع إعلامهم عن كل شيء خلال ساعة أو ساعتين قبل تسليم جواب موسكو، وتحملّت نتيجة تهرّبهم.

وعاد دينيتز في الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والثلاثين، ليستحلفنا باسم رئيسة الوزراء، بعدم مطالبة إسرائيل أن تنسحب إلى الخط الذي كانت فيه عند تطبيق قرار وقف إطلاق النار الذي اتخذه مجلس الأمن يوم ٢٢ تشرين الأول، فطمأنته أننا لن نمارس مضايقات على بلاده، نتيجة تهديد سوفيتي.

وفي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والأربعين، استدعى سكاوكروفت السفير الروسي دوبرينين بناء على طلبي، لينقل إليه للمرة الثانية ما أوصيته بإيصاله إليه سابقاً، ويضيف إليه أن لا تزال أمامنا عدة ساعات للتفكير ولتجنيب بعضنا أزمات لا نريدها، وقد يتمكن السفير أن يستنتج من كلامي أني على غير استعداد للتفاوض معه. فأجاب بدوره أيضاً وكالمرة الأولى أنه سينقل هذا إلى موسكو وهو بانتظار جوابنا.

وفيما كان سكاوكروفت ينقل كلامي إلى دوبرينين، صدر أمر إلى قائد قواتنا في أوروبا لتأجيل عودتها إلى الولايات المتحدة، وهي التي كانت في أوروبا تشارك في تمارين حلف شمال الأطلسي السنوية، لاختبار إمكانية إرسال نجدات سريعة إلى هذه المنطقة من العالم.

وبعد مضي بضع دقائق على انتهاء اجتماعنا، اي في الساعة الثانية والدقيقة التاسعة، أخبرت دينيتز أننا انتهينا من إعداد جواب بريجنيف، وهو لا يتضمن أي اقتراح جديد، ما عدا زيادة عدد مراقبي الأمم المتحدة. وإننا نرفض مقدماً كل عمل عسكري مشترك، وسنقاوم كل عمل أحادي الجانب، بالقوة عند اقتضاء الحال.

ثم سألت السفير دينيتز سؤالاً شخصياً، ما هو الوقت الذي تحتاجه إسرائيل لتهزم الجيش المصري الثالث، إذا اضطررنا لاستخدام القوة؟

وبناء على تعليمات وردت إليها، فإن هيئة الأركان العامة، أوعزت في تمام الساعة الثالثة والنصف، إلى طائرات B52 المتمركزة في غوام، أن تعود إلى الولايات المتحدة، علماً أنها أُبقيت هناك منذ حرب فيتنام، لمنع عودة المعارك إلى الهند الصينية، ولقد أمرنا بعودتها، على الرغم من تعليمات الكونغرس التي صدرت عام ١٩٧٣، التي تحول دون ذلك لكن الضرورة الملحة حملتنا على دعوتها لنبرهن للسوفيت، أننا نجمع قواتنا لوضع حد نهائي لهذه الأزمة.

وأخيراً سلم جواب بريجنيف إلى السفير دوبرينين، في الساعة الخامسة والدقيقة الأربعين باسم نيكسون. وقد أرسل عن طريق مراسل، تحسباً لأي سؤال، والجواب يرفض جميع الإجراءات السوفيتية. ويدلّل على موافقة وقبول أمريكا، بالمساهمة في قوةّ تتفق عليها الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة، وتنفيذ تعليمات وقف إطلاق النار من قبل الطرفين. ويتضمن الجواب أيضاً:

"يجب أن تعلموا أيضاً، أننا لا نقبل أبداً بعمل أحادي الجانب، وسنعتبره

مخالفة لمبادرتنا المشتركة والمبادئ التي رسمناها ووقعنا عليها في موسكو عام ١٩٧٢، وخرقاً للمادة الثانية من اتفاقية حظر حرب نووية. وكما بيّنت في أعلاه، فإن أقدامكم على عمل كهذا سيكون له نتائج خطيرة، لا تكون في مصلحة بلدينا، بل تضع حداً لجهودنا بالكامل».

❐ ❐ ❐

في تمام الساعة السادسة والنصف من صباح يوم الخميس الخامس والعشرين من تشرين الأول، وبعد قضاء ثلاث ساعات من النوم، تبيّنت أن الرأي العام الأمريكي، أصبح مطلّعاً على الاستنفار الذي فرضناه على قواتنا في العالم أجمع. ولم تكن أخبار الصباح تحمل سوى هذه المعلومات.

أدهشني ذلك لأن دعاية غير منتظرة كهذه، تضفي مهابة كبرى على موسكو، وتثير مخاوف الأمريكان، وتعقّد ما يؤمل من تراجع سوفيتي، وتبين في الوقت ذاته ما وصل إليه التنظيم الحكومي من إهمال، منذ الأزمة الأردنية في شهر أيلول عام ١٩٧٠. أما الآن ونحن نعلن استنفاراً شبيهاً بذلك، تكاد الأزمة تمّر، ولم يشعر الشعب بوطأتها إلاّ منذ ثلاث ساعات وفي الليلة الماضية، بعد أن تكثّفت أخبار استنفارنا إذ أصبحنا الآن أمام مجابهة علنية، ليس مع بديل للسوفيت كما جرى عام ١٩٧٠ لكن مع الكرملين ذاته.

على الرغم من هذه المتاعب التي تراكمت ونهار العمل لم يبدأ، عاد إليّ الأمل عندما دخلت مكتبي في البيت الأبيض قبل بعض دقائق من حلول الساعة الثامنة، ووجدت مذكرتين مصدرهما مصر، وبين ورود الواحدة والأخرى ساعة زمنيّة، كانتا جواباً على مذكرتي التي أرسلتها إلى إسماعيل، ومذكرة نيكسون إلى السادات. وقد أضفى عليهما المصريون اعتناء خاصاً يتناسب مع الوضع، فرقموهما ترقيماً زمنياً،

لنتمكن من خلاله معرفة ما يجول في أفكارهم. كانت المذكرة الأولى مرسلة من إسماعيل بتاريخ الرابع والعشرين من تشرين الأول ظهراً، وفيها تقدير للجهود المبذولة لحمل إسرائيل على قبول وقف إطلاق النار. وعلى الرغم من الوضع الحرج الذي يعانيه الجيش المصري الثالث، الذي لا يأتي على ذكره أبداً، فإن إسماعيل يوافق على عروضنا حول تنفيذ وقف إطلاق النار.

ولا يرى ضرورة لإرسال فرقة أمريكية خاصّة، بل يساند فكرة إرسال قوة مشتركة أمريكية سوفيتية، ويؤكد أن هذا يشكل الخيار الأنسب.

ولما كانت أمريكا لا تزال ترفض مثل هذا الإجراء، فإن مصر تطالب مجلس الأمن الدولي بتشكيل قوّة دولية. وهذا يوضح أنها تسحب طلبها السابق الذي كان ولا يزال يثير أزمة، وتطالب بتشكيل قوة دولية، سيشترك فيها بموجب نظام الأمم المتحدة، أفراد من الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن، ومنها القوة التي يطالب بها بريجنيف (سوفيتية - أمريكية).

أما المذكرة الثانية المرسلة من السادات إلى نيكسون، فإنها توضح ذلك تماماً، لأنها تطابق بصورة مبدئية ما أرسل باسم نيكسون الليلة الماضية وتقول:

«إني متفهم جيداً للاعتبارات التي أتيتم على ذكرها من حيث تشكيل قوة مشتركة أمريكية ـ سوفيتية، وقد طلبنا من مجلس الأمن الدولي سرعة إرسال قوة دولية إلى المنطقة، لتطبيق القرارات التي اتخذها مجلس الأمن. ونأمل أن مثل هذا الإجراء سيفسح المجال أمام إجراءات أخرى، من خلال القرار الذي اتخذه مجلس الأمن في الثاني والعشرين من تشرين الأول، هادفاً إلى إحلال سلام عادل في المنطقة».

أصبحنا قاب قوسين أو أدنى، من نجاح خطواتنا الدبلوماسيّة، ولولا مساندة مصر لنا، فمن المشكوك فيه جداً أن يتخذ مجلس الأمن الدولي قراراً بتشكيل قوة سوفيتية ـ أمريكية. وإذا أرسلت موسكو قوة من قبلها، فسيعتبر عملاً أحادياً، لن

يحظى بموافقة البلد المضيف (مصر) ولا الأمم المتحدة، ويصبح لنا الحق بمعارضته، كما كنا عازمين عليه. وهذا كان يساعدنا على حمل السادات لمساندتنا دبلوماسياً، لنتمكن من مواجهة الضغوط العسكرية السوفيتية، في سبيل تأمين مستقبل بلاده.

وهناك عنصر مشجع آخر وهو تقرير من جون كالي إلى الأمم المتحدة. يذكر فيه أنه عارض وبقوة إرسال قوة مشتركة سوفيتية أمريكية، مساء اليوم الماضي، لذا فإن التحمّس لمثل هذه الفكرة قد تضاءل كثيراً، ولا سيما ان مجلس الأمن، لا يخالف عادة رأياً صريحاً تبديه قوّة عظمى، في حال التمكن من إبداله، ولا يزال المجال واسعاً لاتخاذ غيره. ولما رأت الدول الأعضاء، نفسها، أمام استخدام أمريكا لحق الفيتو، عرضت في الخامس والعشرين من تشرين الأول، مشروع قرار، يطالب الأمين العام بزيادة عدد المراقبين الدوليين، وتشكيل سريع لقوات تكون بإشراف مجلس الأمن.

وعلى الرغم من كون هذه الصياغة مبهمة، فان مشروع هذا القرار، يوضح بجلاء استثناء القوتين الأعظمين من إشراك قواتهما. وحدد موعد اجتماع مجلس الأمن في الساعة العاشرة والنصف لدراسة هذا المشروع.

وقبيل الظهر وردنا ردّ فعل بريطانيا، على رسالة بريجنيف، وهي تقف إلى جانبنا في ما نهدف إليه. ويبلغنا كرومر قائلاً: «لا تختلف لندن عنكم في موقفها تجاه رسالة بريجنيف». لقد كُلّف سفير بريطانيا العظمى في موسكو، لتقديم احتجاجنا على ما ينوي عمله بريجنيف، وتحذيره من الإقدام على عمليات عسكرية أحادية الجانب.

وفيما كانت الآمال تعود إلى نفوسنا، وبذهن يقظ، عزمت أنا وهيغ على إطلاع نيكسون على واقع الحال، بعد الساعة الثامنة بقليل من هذا اليوم الخميس الخامس والعشرين من تشرين الأول. ولا أدري ما نقله إليه هيغ منذ الصباح قبل ذهابنا إليه، ولذلك، حرصت كما هي عادتي على إظهار الحقيقة، فأوقفته على جميع الوقائع الدبلوماسية والعسكرية التي حدثت في الليلة الماضية. وكعادته في أوقات الأزمات،

أظهر نيكسون رباطة جأش وحزماً. واتفقنا على أنه لا يجوز للاتحاد السوفيتي، إرسال قوات إلى بلاد لا تدخل في نطاقه، وتخالف رأي بلد محلي، واعتبار ذلك تحدّياً دون سابقة، وبالتالي حدثاً خطيراً.

وعلى الرغم من القانون الجديد، الذي صوّت عليه الكونغرس منذ أيام، محدّداً السلطات الحربية، فان نيكسون قد عزم على الردّ على كل تجمع سوفيتي في المنطقة بقوات أمريكية، تاركاً للكونغرس وضع حدّ لمثل هذه العمليات، في ضوء الإجراءات الجديدة.

بعد ذلك ارسل جواب إلى السادات، وتضمّن تحية حارة وتقديراً كبيراً له بصفته رجل دولة، اثبت مواقف بطولية في سبيل المحافظة على السلام. وأكد فكرة أمريكا حول إرسال قوة دولية، واستثنى من هذه القوة الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن.

احتجنا أنا ونيكسون إلى أكثر من ثلاث ساعات، لنتمكن من إيقاف زعماء الكونغرس، على مجريات أحداث الليلة الماضية هؤلاء الزعماء الذين كان لا يهمهم الاطلاع الصحيح على الأمور، فكانوا مزدوجي الأفكار حول ما يجري. لقد أقرّوا الاستنفار، وصفّقوا بحرارة. لرفضنا فكرة تشكيل قوة سوفيتية ـ أمريكية، لكن رضاهم هذا لا يزال يعكس عزلتنا إبان حرب فيتنام، أكثر من جرأتهم على اتخاذ موقف إستراتيجي متّزن، وناهضوا بقوّة إرسال قوات مشتركة لأنهم ضدّ إرسال قواتنا إلى الخارج. وكلمة أمريكي الواردة في فكرة تشكيل هذه القوّة، كانت تغيظهم كثيراً. حتى أنهم كانوا يعارضون إرسال مغدات أمريكية، فيما لو كانت ضرورية، حسب وجهة نظرنا، للتمكن من الوقوف في وجه تدخل سوفيتي أحادي الجانب.

إن وضعاً كهذا لا يعتبر حاسماً بالنسبة لهم، حتى ولو زعزع توازن القوى العالمي وحرمنا من مكاسب حيوية. وهكذا فقد فتر أمل التعاون معهم، لا سيّما عندما أكد نيكسون نيّته على إرسال قوات أمريكية إلى إسرائيل، أو إلى بلدان عربية صديقة،

لكي يساوي بينها وبين تلك القوات التي ينوي السوفيت إرسالها من جانب واحد. فأبدى العديد من أعضاء الكونغرس تحفظهم الشديد حول هذه الأفكار، ولم يتقدموا بوجهات نظر معاكسة. وقالوا إذا ما كان نيكسون قد فهم بأنهم موافقون ضمنياً على حالة الاستنفار. يجب ألاّ يفهم من هذا أنهم يوافقون على تحريك القوات.

كنت لا أزال أفكّر بذاك الاجتماع المخيب للآمال، عندما عقدت اجتماعاً لفريق العمل الخاص، في الساعة العاشرة والربع، والتقيت بعده الصحفيين ظهراً.

إن إشاعات مضادة كانت تدور في أفكار الرأي العام والكونغرس، فتهدّد موقفنا وتجعلنا نراوح في مكاننا. لقد نوقشت قضيّة الانفراج السياسي، وأصبحت الأصوات تعلو يرافقها نشاز حادّ، لتتهمنا أننا فريسة خداع السوفيت.

والواقع أن العكس هو الصحيح كانت تقوم سياستنا على تقليص أو إذا أمكن إزالة نفوذ موسكو من منطقة الشرق الأوسط. وكانت سياستنا هذه تتقدّم في ظلّ الانفراج ووضع حدّ لفكرة عزم عليها أخيراً السوفيت، ومباغتتنا بقضيّة عقدت إستراتيجيتنا في هذه المنطقة من العالم. غير أن هذه المباغتة في المجابهة حدثت في ظرف كانت فيه سلطتنا التنفيذية في أقصى درجات الضعف واشتداد أزمات النوبة عليها.

فهل كان باستطاعتنا تحمّل الصدمة وما الذي نستطيع عمله؟

ما هي المواقف الأكثر مناسبة لاتقاء السقوط في مهاوي هذه المضاعفات ويستطيع المتفرجون إمدادنا بها.

لم يكن الانفراج منّة نسديها للاتحاد السوفيتي، فهو ضروري للفريقين، ونافع نسبياً للاتحاد السوفيتي، ولا سيّما أننا نحاول من خلاله حمل الشرق الأوسط على إقامة علاقات وثيقة معنا، على حساب السوفيت، ولا بدّ من الانفراج السياسي في عهد نووي مقبل.

ولهذه الأسباب مجتمعة، بدأت مؤتمري الصحفي، دون استعداد بمقدمة عادية أكثر منها فلسفيّة، حول تفهمّنا للعلاقات الثنائية بين السوفيت وأمريكا:

"إن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، هما بالطبع خصمان أيديولوجيان، وإلى حدّ ما في الشؤون السياسية. لكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يشتركان في مسؤوليات غير عاديّة. ويملك كل منا ترسانات أسلحة نووية قادرة على تدمير البشرية. ويتوجب على كل منا أن يحرص على احتواء المجابهات ضمن حدود لا تمكنها من تهديد الحياة الآمنة المتحضرّة. ويجب علينا نحن وهم، التوصل في يوم من الأيام إلى تفاهم، وندرك أن المشاكل التي تتقاسم العالم اليوم، لا تستوجب إنزال كارثة لا نظير لها، تسبّبها حرب نووية. . .

"ولقد قلت في كلمة القيت في مؤتمر " السلام على الأرض" أن هناك حدوداً لا يجوز تجاوزها، وأوضحت بل أكدت معارضتنا لأية محاولة يقوم بها بلد، يرمي من ورائها إلى الهيمنة على العالم أو على منطقة ما، وسنقف بكل عزم في وجه مثل هذه المحاولات وهدفنا إحلال انفراج سياسي دائم، وهذا بالطبع لا يعني إضعاف تحالفنا. وسنسعى بكل قوانا إلى تقليص التوتر الذي يُستغل لإعلاء شأن النزاعات في العالم. وعلى الكل أن يعلم أن هذه كانت مبادئنا في الوضع الراهن.

"يسهل على البعض البدء بالنزاع، لكن عهدنا الحاضر يدعونا إلى التفكير بنهايته لا بطريقة البدء به".

ولم أترك مجالاً للشك حول ما قررنا عمله تجاه الأزمة الحالية:

«لن تحبذ الولايات المتحدة إرسال قوة سوفيتية أمريكية إلى الشرق الأوسط ولن تقبل به. في تقدير الولايات المتحدة إن الضروري بالنسبة للشرق الأوسط، تحديد واقعه ومعرفة خطوطه ومن يطلق النار منهم يتمكن مجلس الأمن من اتخاذ الإجراءات المناسبة ضده».

لن يكون مقبولاً أن ترسل القوتان الكبيرتان قوات من قبلها وبأعداد كبيرة لوضع حد بين الفرقاء المتخاصمين.

لن يكون مقبولاً أن تحول القوتان الكبيرتان خصومتهما إلى الشرق الاوسط، أو أن تفرض عليه حكماً ثنائياً عسكرياً أمريكياً وسوفيتياً.

ستقاوم الولايات المتحدة وبشدّة، إدخال قوات عسكرية أحادية الجانب إلى الشرق الأوسط من قبل قوة عظمى مهما تكن، وبحجة أولى، قوة نووية مهما يكن شكلها.

ثم بيّنت وبصورة إجمالية، ان غموض بعض الأعمال والاتصالات وبعض الاجراءات التي اتخذت كالاستنفار الذي لاحظناه، لا بد انها تكون قد أدّت بنا إلى أخذ بعض الاحتياطات والاجراءات العسكرية. فإذا كانت الغاية منها احتواء الأزمة فلا بأس من اتخاذ قرارات حازمة وإفساح المجال في الوقت نفسه للعدو ان ينقذ نفسه منها.

جميل بنا ان نقدم على أعمال لابراز الذات «الأنا» لكن هذا مكروه وقبيح في شؤون السياسة الخارجية. ان تحدّياً معلناً يوشك ان يؤدّي بالسوفيت إلى تجاوز ما يرسم المكتب السياسي من حدود. وقد بدأت عدّة حروب لأنه لم يرسم لها خطة تراجع. ويتوجب على القوّتين الكبيرتين أكثر من غيرهما عدم اتخاذ فكرة إذلال متبادل. ولما كانت موسكو تعلم اننا نسير نحو النجاح ختمت كلامي بتعابير مقبولة من الجانب السوفيتي.

«اني أؤكد ان الاتحاد السوفيتي لم يتخذ حتى الآن مبادرة لا يستطيع العودة عنها وأرجو صادقاً ألاّ يقدم عليها».

اني أكرر مرة أخرى ما قد أعدته مرات عديدة في هذا المؤتمر الصحفي: اننا

لا نسعى أبداً إلى مجابهة الاتحاد السوفيتي، ولن نطالبه أبداً بالعودة عن قرار كان قد اتخذه.

«ان اتباع طريقة مشتركة لدى مجلس الأمن في ضوء دبلوماسية موحدة لا يزال مفتوحاً. ان الاجراءات التي اتخذناها واقترنت بموافقة الرئيس لم تكن إلا من باب الحيطة، ولم تكن موجهة ضد أية مبادرة اتخذت، فلا حجة لبلد ما بالتراجع أو التخلّي عن شيء لم يعلمه».

لم أنوّه بشيء في الرسالة التي أرسلت إلى بريجنيف، لأني فضلت عدم التعرض إلى كرامة الأمين العام الشخصية. لكن هذا لم يجدي نفعاً فان عضو مجلس الشيوخ هنري جاكسون، الذي علم بالرسالة، على الرغم من محدودية الأشخاص الذين عرفوا بإرسالها، قد أتى على وصف الرسالة بانها قاسية اللهجة وتهديدية فسألني صحفي في اليوم التالي عن رأيي بهذا الوصف، فامتنعت عن التعليق على ذلك، بل دللت وبضيق نفس،أن هناك عدة وقائع وأمور، سيطلّع عليها الرأي العام، خلال أسبوع، ولا أزال عند رأيي أني عاجز عن تحديد الأمور ونتائجها لا تزال قيد المناقشة لكن دوري الوحيد هو في الدفاع عن المصالح الأمريكية في الأوقات الحرجة. والتاريخ مليء بالعبر. فهو يعلمنا أن أخطر الأوقات، هي تلك التي كان ينوى الخصم التراجع فيها، فإذا به يقف فجأة متحدياً من جديد لأن كرامته قد جُرحت.

وسرعان ما غمرت صلافة واترغيت المجسّمة أخبار استنفارنا. حينئذ أخذت توجّه إليّ الأسئلة، أشبه ما تكون بالقذائف:

هل أثارت مشاحناتنا الداخلية الإجراءات التي يقوم بها السوفيت ؟

وهل أننا على العكس من ذلك، أثرنا الأزمة، لأسباب داخلية أكثر مّما هي خارجية ؟

وحسب إدّعاء صحفيّ غير لبق بيّن أن تصرّفنا الحالي تقليدي !!

إن هذه التساؤلات حول البواعث السوفيتية أتاحت لي العودة إلى تأمّلاتي المعتادة فقلت: لا يمكن تدبير أزمة سلطة في مجتمع ما، وخلال أشهر، دون دفع ثمنها ذات يوم.

والتساؤل حول بواعثنا الخاصة، كان أشد إيلاماً، بعد ليلة قضيت في الشك وضيق النفس. إذ تأكدنا من ضيق أفق عملنا. فإذا أخذنا برأي فريق من المواطنين ممّن يكرهون الإنفراج السياسي، سنصطدم بكل تأكيد بهؤلاء الذين أثارت حفيظتهم فضيحة واترغيت، وأخذوا يعتبرون كل ما يجري بيننا وبين السوفيت، عملا من صنع عدوهم البغيض نيكسون، وسبباً لإفلاته من براثنهم. ولكي أضفي على أفق أعمالنا بعض المدى، أجبت وببعض النزق:

"نحاول أن نجعل من السياسة الخارجية الأمريكية، لا أداة انتخابيّة، بل هدى واستقراراً للأجيال المقبلة. والتفكير والقول أن الولايات المتحدة تستنفر قواتها، لأسباب سياسة داخلية، هو أيضاً أحد أعراض الأمراض الداخلية المستحوذة على هذا البلد.

وأجبت على سؤال آخر فقلت:

"نحاول صيانة السلام في ظروف حرجة جداً. وعليكم أنتم أيها السيدات والسادة، أن تحكموا عما إذا كان الظرف مؤاتياً، لخلق أزمة ثقة أيضاً، في مجال السياسة الخارجية.

"يجب أن يكون حّد أدنى من الثقة، وحدّ أدنى من اليقين، هذا اليقين الذي معظم أعضاء الحكومة الأمريكية، لا يوجدونه في حياة الشعب الأمريكي".

يرعبني التفكير بالمصير الذي احتفظ لنا به القدر، وزجّنا بهذه الأزمة الخانقة، وما سوف نعمل لو امتدّت أياماً وأياماً؟؟

ولحسن حظّنا فإن السوفيت أيضاً، كانوا يخشون هم أيضاً امتداد المجابهة، على الرغم ممّا نحن فيه من وضع داخلي مهلهل.

وحالاً بعد أن أنهيت المؤتمر الصحفي، أي نحو الساعة الثالثة عشرة والدقيقة العاشرة، وجدت على مكتبي مذكرة من السادات، يقبل بها رسمياً فكرة تشكيل قوة دولية من الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن (لابد أن أوضح أن هناك خطأ في الإنشاء والصياغة، لأنه يقصد استثناء الأعضاء الدائمين في المجلس فقط، ويترك الباب مفتوحا أمام بقية أعضاء الأمم المتحدة الآخرين)، وبعد بضع دقائق كان فالدهايم يبلغني أن سفير الاتحاد السوفيتي، مالك، يساند من جهته هذا المشروع.

وفي الساعة الرابعة عشرة والدقيقة العشرين، كان دوبرينين يستدعيني ليخبرني بورود رسالة جديدة من بريجنيف. وكدت أقول عند سماعي قراءتها، أن أزمة الليلة الماضية لم توجد. ودون المجيء على ذكر أي تلميح إلى التهديد بالتدخل الأحادي الجانب الذي كان يلوّح به قبل بضع ساعات، وهو يبلغ نيكسون أيضاً أنه أرسل سبعين مراقباً سوفيتياً وبلباسهم المدني، ليراقبوا تنفيذ وقف إطلاق النار، ومن ثم يُشجّع ويُظهر انه هو صاحب الفكرة وأننا سننسج على منواله ونتبع خطواته واقتراحه فقال: "أعلم أنكم أصبحتم الآن، حسب اعتقادنا، على استعداد لترسلوا إلى مصر فريقاً من المراقبين الأمريكيين، يكلفون بالمهمة ذاتها، فنحن نبدي لكم موافقتنا منذ الآن لنعمل معاً في هذا السبيل. ولم يتوقف عند هذا الحدّ، بل تقدّم بنظرية مذهلة إذ قال: أن أحداث الأربع والعشرين ساعة الأخيرة، يجب أن تمهّد لتعاون أوثق، وهذا بعض ما جاء في الرسالة:

"بعد أن قمنا بإرسال مراقبين، سنتابع بكل عزم اجراءاتنا السياسية الأخرى التي تتفق مع قرار مجلس الأمن، والاتفاق الذي كنا قد توصلنا إليه في موسكو مع الدكتور كيسنجر، الذي كان يفاوضنا باسمكم".

لقد تراجع السوفيت عن أفكارهم، ومضى الخطر الداهم إلى غير رجعة، لكننا لم نزل نعاني من مزالق أخرى، ونأمل تنمية نفوذنا في مشروع السلام، إذا ما بذلنا قليلاً من الحنكة وبعد النظر، لأن السادات أصبح على اعتقاد أن ليس هناك حاجة تدعوه إلى استدعاء القوات العسكرية السوفيتية للعودة إلى أرض مصر.

وأصبح لزاماً علينا معالجة الأزمة بحذر شديد وحرص وثيق، من أن تحدّياً آخر، يأتي فيحل محلّها. ثم أخذت الهاتف وكلمت جيم شليسنجر، رفيقي في مباحثات تلك الليلة بكاملها في قاعة لوبوانت، وغايتي من هذه المحادثة تقديم الشكر له، ولتوماس موورير وبيل كليمانس، على جميع ما قاموا به من خدمات، وقمت بهذا الواجب عن حسن نيّة وتصميم، لأن تفانيهم ونشاطهم ورباطة جأشهم، هي التي ساعدتنا على تجاوز تلك الأزمة الخانقة، وجعلتنا نتصرف في أمورنا بحزم واتحاد نادرين. وأوعزت إلى شليسنجر، أن يعيد الاستنفار إلى مستواه العادي اعتباراً من منتصف الليل.

ثم انهمرت المكالمات الهاتفية، من صحفيين لهم شأنهم، يطالبون بالافصاح عن معلومات حقيقية وعديدة، تؤكد للجمهور، أننا اجتزنا أزمة صعبة وأكيدة. وكتب أحد هؤلاء الصحفيين مقالاً افتتاحياً، أظهر فيه أن جميع البراهين التي أوردتها الحكومة عن وجود أزمة، كانت واهية ولا يجوز تصديقها. وكانت أجوبتي صادقة بعواطفي. كما أن الإشارة إلى تراجع الاتحاد السوفيتي، يعد بالنسبة لي عدم فطنة وتفاهة.

ذهبت إلى نيكسون وكان مبتهجاً، في تمام الساعة الخامسة عشرة والدقيقة الخامسة، لأطلعهُ على الموقف العام، فمررنا في أحاديثنا، على قرار مجلس الأمن، وبعض الإجراءات المتعلقة بالإعلان عن الاستنفار، ومن ثم رسالة بريجنيف. وأعلمته أنني في مؤتمري الصحفي، لم آت على ذكر رسالة الرابع والعشرين من تشرين الأول، لأنني خشيت من انقلاب الأمر إلى مجابهة شخصية بينه وبين الأمين العام

(بريجينف) وهذا خطر وغير جائز. ثم أظهر استياءه من تدخل الصحافة ورجالها، الذين اعتقدوا انه أثار هذه الأزمة، للتقليص من مصاعبه الداخلية، وأردف قائلا: إني أعلم حق العلم وأكثر ممن يصطادون بالماء العكر، أن مثل هذه التّرهات لا تستند على شيء.

وأتخذ مجلس الأمن قراره رقم (٣٤٠) بعد ظهر هذا اليوم، وهو جدّد فيه مطالبته بالعودة إلى خطوط وقف إطلاق النار الأولية، ليوم الثاني والعشرين من تشرين الأول، وهكذا توصلنا إلى نص محايد يطالب بالعودة، لا بالانسحاب، ويدعو إلى تشكيل قوة دولية، تتضمن أعضاء من الأمم المتحدة باستثناء القوتين الأعظمين. ورجوت فالدهايم بمكالمة هاتفية، أن يستثني أيضاً البلاد المتواجدة تحت المظلة السوفيتية، مدلّلاً على إشراك البلدان المرتبطة بتحالف عسكري معها.

عارضت غولدا وبعنف هذا القرار، أكثر مما أبدته في الليلة الفائتة وادّعت أن مضايقة اسرائيل أصبحت عادية ومألوفة.

واستخدمت اليوم التالي، في مبادلة القاهرة بمذكرات تستوجب الاهتمام، وهي التي طالبت بأدوية مختلفة أخرى، لجيشها الثالث الذي لا يزال محاصراً. أما إسرائيل، التي كانت موافقة مبدئياً على هذا الطلب، لم تكلف نفسها إرسال شيء من هذا، مؤمّلة استسلام هذه القوات.

واتجهت أفكاري نحو دبلوماسية، تؤدي بنا إلى توازن قوى حقيقي، غير ذاك التوازن الهش القائم حالياً. أما الأزمة وقد انتهت، فقد أخذت أتأمل أن يحدّد العرب موقفهم من حيث قضية السلام. ولذلك، وقبل انتهاء اليوم الخامس والعشرين، وبحجّة الاستفسار عن الاحتياطات التي ستتخذ لزيارتي إلى القاهرة، فقد أرسلت مذكرة إلى حافظ إسماعيل، جاء فيها:

يسرني لقاؤكم، أنتم وجميع الأشخاص الذين تختارون، ويتمكنون من أجراء

مباحثات تمهيدية وبنّاءة، حول جميع القضايا التي تهم بلدينا. وعلينا خلال الفترة التي تسبق هذا اللقاء المنتظر، أن نسعى لايجاد جوّ بنّاء يسود العلاقات القائمة بين مصر والولايات المتحدة.

قبيل نهاية اليوم استدعاني نيكسون هاتفياً من كامب ديفيد ليهنئني على نجاح مؤتمري الصحفي، الذي شاهد إعادته على شاشة التلفزيون. لكنني أحسست من خلال صوته وكلامه، أنه لا يزال أسير فضيحة واترغيت، لاسيما أنه لم يمضِ بعد على "كارثة مساء السبت" سوى خمسة أيام، ولا يزال الكونغرس يتجه نحو الإقالة.

وطلب مني دعوة أهم زعماء المنظمات الإعلامية، في اليوم التالي إلى البيت الأبيض وإيقافهم على حقيقة ما جرى، في أمر الاستنفار، وكيف أن نجاح جميع ما قمنا به يعود إلى بعد نظر ودراية نيكسون.

بعد بضع دقائق استدعاني ثانية، وطلب إلي القيام بالإجراء ذاته تجاه زعماء الطائفة اليهودية، وقال:

"أجمعهم في قاعة وقل لهم: أنكم أمريكان أولاً، وأعضاء في المجتمع اليهودي الأمريكي، وتهتمون بمصير إسرائيل. ومن ينقذ إسرائيل، فسوف ينقذها في المستقبل؟"

كان كلامه مؤثراً لكنه دقيق وصحيح، وكان مستعداً لملاقاة جميع المصاعب برباطة جأش وحزم. وعلينا ألاّ نسمح لمشكلة واترغيت أن تستأثر بأمورنا، بل نبقى ثابتين في المسيرة الصحيحة لسياستنا الخارجية. وإذا علق شيء من فضيحة واترغيت، بأذهان الرأي العام، فلا بد لدبلوماسيتنا، وتطلعاتنا للسلام، من الزوال. فنتحدث مع هيغ حول هذه المواضيع واتفقت آراؤنا على العدول عن ذكرها.

ولا تزال هناك عوائق أمامنا. لأن اثنتي عشرة بارجة سوفيتية كانت لا تزال

تقترب من مصر، وكانت تقاريرنا الرسمية تلوّح إليها وتدعوها" بالكتلة القارّية". وتابعت تقدّمها حتى بعد صدور القرار (٣٤٠) وربما أن موسكو قد أهملت أمرها، أو أنها قد أبقت عليها خشية حدوث ما يعيق تنفيذ وقف إطلاق النار.

وأخيراً أشارت المخابرات المركزية، قبيل هبوط ليل الخامس والعشرين من تشرين الأول أن الأسطول قد توقف على بعد مائة ميل بحري إلى شمال من مرسى مطروح، وتفرّق في اليوم التالي، ولم يحدث بعده أي نشاط سوفيتي يقلق.

كانت الصحف الأمريكية الصادرة صباح يوم الجمعة الموافق للسادس والعشرين من شهر تشرين الأول، طافحة بالتعليقات حول استنفارنا العسكري، مؤكدة أنه كان سبب الخلاص من أزمة محتومة، كادت تقع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، ولولاه لما استطعنا النجاح في إلغاء تدخل قوات من قبل القوتين الكبيرتين في مراقبة تنفيذ وقف إطلاق النار.

نشرت الواشنطن بوست هذا اليوم مقالين افتتاحيين، كان أولهما يلقي الضوء على قضية واترغيت، وكيف عالجتها في مؤتمري الصحفي الذي عقدته للصحفيين الذين كانوا يلغمون ثقة الرأي العام، إذ تمادوا فقالوا: أن الرئيس هو الذي خلق أزمتنا الداخلية. أما المقال الافتتاحي الآخر، فكان يعالج الانفراج السياسي، ويبين ضرورة وجوده، لتتمكن الدول من العيش في ظل الطمأنينة والسلام ولقد خلص إلى القول: أن نيكسون، حسب رأينا قد تصرف بحكمة واعتدال عجيبين، وقد جاء فيه أيضاً:

"لقد كنا قاب قوسين أو أدنى من الخطر!وسوف نتعرف على حقيقة هذا الخطر وواقعه، عندما تنشر الحكومة، كما وعد الدكتور كيسنجر النصوص والوقائع ذات العلاقة بهذه الأحداث، فعلينا إذاً ألا نستعجل الحكم. أن الواجب يدعونا الآن أن نذكر بصدق وامتنان تلك العلاقات التي توطّدت في السنوات الأخيرة بين السيدين نيكسون وبريجنيف".

وحملت النيويورك تايمس الصادرة في السادس والعشرين من شهر تشرين الأول، مقالين افتتاحيين أيضاً، بيّنا أن الأزمة أوضحت بجلاء، كيف أن الانفراج السياسي بين القوتين الكبيرتين لا يزال هشاً.

أما التايمس فكانت تطالب بسرعة بدء المفاوضات، إذ قالت: لقد بيّن كيسنجر أن البدء بالمفاوضات، يحتاج إلى بعض الوقت، لكننا نرى الإسراع بها.

وساندت صحيفة" وول ستريت جورنال" الحكومة فقالت: ادّعى بعض الصحفيين في المؤتمر الصحفي الذي عقده كيسنجر، أن الرئيس هو الذي أوجد هذه الأزمة الدولية ليبعد أنظار الناس، عمّا يجري في البلاد من توتّر وضغوط داخلية. أننا لا نستطيع تصديق ذلك. وبالنسبة للشيكاغو تريبيون فقد قالت: أن السياسة الشرق أوسطية، التي حدّدها كيسنجر، كانت رائعة. وأردفت قائلة: أنها فرصة مؤاتية للأمريكان أن يولوا حكومتهم ملء الثقة بسياستها الخارجية.

علينا تفكيك جذور هذه الأزمة ومعالجة جميع توابعها دون التعرّض لأية مصلحة تسيء إلى السوفيت، ليس هو وقت التطبيل والضجيج الآن، لنشعر العالم بانتصارنا علماً أن موسكو قادرة على استغلال أية مناسبة ومهما تكن لإلغاء النتيجة التي توصلنا إليها الليلة الماضية.

لقد أحسن بريجنيف صنعاً، عندما ألقى خطاباً رائعاً، بتاريخ السادس والعشرين من شهر تشرين الأول، لدى انعقاد المؤتمر العالمي للسلام في موسكو، مدللا على أهمية الانفراج السياسي، ولو يأتِ على ذكر الاستنفار الأمريكي، لكنه انتقد إسرائيل وبعنف، التي تخرق وبغدر وقف إطلاق النار، ثم أعاد إلى الأذهان خطة موسكو التقليدية في سبيل إقامة تسوية في الشرق الأوسط تساند المتشددين العرب. ولم يدل بإيضاحات كافية لتطبيق هذه الخطّة، التي مضى على طرحها أكثر من أربع سنوات وكانت بمثابة هدف حقيقي لاستراتيجيتنا.

أوجز معاوني هلموت سونفلدت غموض الجو الذي تتخبط فيه مناقشاتنا العامة فقال: من الأسباب التي دعت بريجنيف لإلقاء خطابه، قوة ردود فعلنا تجاه التهديد السوفيتي، الذي عانينا منه تلك الليلة، وهناك أسباب أخرى هي مطالبته الدائمة بوجود انفراج سياسي، ليبقي على العلاقة وطيدة والسلم دائماً، ولو أن الانفراج حمل الكثيرين عندنا على التقوّل أننا اصطنعنا الأزمة لتغطية ما يدور عندنا من أسباب داخلية دعت إليها فضيحة واترغيت.

وعلى أية حال، فإن الانفراج لم يمنع الأزمة، كما ادّعى بعض منتقدينا، متناسين بالطبع، أن الانفراج يحدّد ليس فقط مدى الصداقة، بل الاستراتيجية في إطار العلاقات بين المتخاصمين. وعلى وجه العموم،أن إحدى الغايات الأساسية في سياستنا الشرق أوسطية، هي تقليص نفوذ الاتحاد السوفيتي، كما كان هو نفسه يحاول ذلك. واعتقادي أن الانفراج قد خفّف وطأة تعاقب الأزمات التي يسببها الاختلاف في الأيديولوجية، والمصالح الجغرافية السياسية، وإني اعتقد كذلك أننا خدمنا في مصلحتنا القومية. ومن ثم أخذنا نحاول تحديد دور وعدد المراقبين الذين أرسلهم بريجنيف إلى مصر وهذا لابد أن يخفف قليلاً من وطأة الأزمة، ولا مجال بعد لبقائهم، لأن مجلس الأمن أقر إرسال قوة من الأمم المتحدة.

ولم يجب نيكسون على رسالة بريجنيف المؤرخة في الخامس والعشرين من تشرين الأول، إلاّ في الساعة الثالثة عشرة من اليوم السادس والعشرين، أي بتأخير قدره أربع وعشرون ساعة. والجواب يتضمن توضيحاً لنيّتنا بتقليص عدد مراقبي القوتين الكبيرتين إلى الحد الأدنى الممكن: "أما الآن وقد نظّم أمر مراقبة الهدنة، وأوجدت قوة من قبل الأمم المتحدة، فلم تبقّ حاجة لمراقبة سوفيتية أمريكية. واقترح أن ننيط بالأمين العام تشكيل قوّة المراقبة الدولية، ولا أرى حاجة لوجود قوات مراقبة مميّزة".

أما أنا فأمضيت يومين، بمداولات مع دوبرينين، حول أهمية وجود مراقبين أمريكان وسوفيت. وبعد مناقشة توصلنا إلى أن ليس هناك حاجة لأكثر من عشرين من كل جانب، وأخيراً اتفقنا على ستة وثلاثين. ولقد أضعنا وقتنا سدى، لأن مصر غيّرت رأيها بسرعة، فقد صرّح إسماعيل فهمي، وزيرها الجديد للشؤون الخارجية، أنها غير راغبة بعد في وجود مراقبين. وهكذا أسدل الستار على المحاولة السوفيتية لتشكيل مراقبين أمريكان وسوفيت.

لقد استبعدنا تهديد التدخل السوفيتي، لكن السبب الأولي الذي دعا إليه لا يزال قائماً. وهو وضع الجيش المصري الثالث الذي لا يزال مطوّقاً. وليس محاصراً فحسب، بل بحاجة ملحّة للأدوية والتموين. وشحنة الأدوية التي حاولنا إرسالها منذ أربع وعشرين ساعة، أوقفها الإسرائيليون على مشارف مدينة السويس، بحجّة أو بأخرى زاعمين أن التجهيزات كانت تصلهم مباشرة، لكنّنا مفتقرون لتصديق ذلك. كانت كل محاولاتهم تدل على أنهم يريدون إلحاق الهزيمة بالمصريين، وتسلّط الجيش الإسرائيلي على جيوشهم. وهذا شيء لن يرضى به السادات نهائياً.

وفعلاً فإنه لم يقبل به، فنحو الساعة التاسعة والنصف من يوم الجمعة الموافق السادس والعشرين من تشرين الأول، أرسل مذكرة عاجلة إلى نيكسون، يتهم الإسرائيليين باستغلال الموقف "والسيطرة على خطوط مواصلات الجيش المصري الثالث، محاولين عزله، وإجباره على الاستسلام". كما أنهم (أي الإسرائيليون) لا يزالون يمانعون في وصول مراقبي الأمم المتحدة إلى المنطقة، ويهدّد في الوقت ذاته بالقيام بعمل أحادي الجانب، لفتح خطوط التموين، ويعلمنا أنه سيعلم الكرملين بذلك. ثم يوضح مؤكداً أن إطالة أمد مثل هذا المأزق، سيحول دون إمكانية إجراء محادثات بنّاءة معي.

ثم يردف قائلاً: إني أبلغكم أننا نعمل جاهدين في عمل كل ما يلزم لإنجاح هذه

الزيارة، أملين أن تحقّق جميع الأهداف المرجوّة، والتي لابدّ أنها ستشكل انعطافاً حقيقياً نحو تسوية نهائية. وزيارة كهذه تفاوتت وتباعدت أوقاتها تحتاج لجهود جبّارة لإنجاح أهداف طيبّة علقّت عليها. وعلى أية حال فإننا والقاهرة نسعى لاستخدامها بصورة أفضل وقد تنفعنا من جهتنا لضرب إسفين بين الاتحاد السوفيتي ومصر، بطريقة تصل إلى منع السادات من الالتجاء إلى موسكو وطلب عونها، وبالنسبة لمصر، لتحملنا على منع إسرائيل من إلحاق الهزيمة بالجيش المصري الثالث وتدميره، والمتأمّل يرى أن الهدفين يتوافقان.

لقد ساندنا إسرائيل طيلة مدّة الحرب لدوافع تاريخية عديدة، وأدبية واستراتيجية وكدنا نعرّض بلادنا لخطر حرب من الاتحاد السوفيتي، فيما نعاني معاناة قاسية داخلية فرضتها علينا فضيحة واترغيت. ولكن للأسف أن مجتمعنا، لا يريد أن يتفهم أبعاد تدمير الجيش المصري الثالث.

إن مشكلة هذا الوضع سهلة جداً، إذ أن إسرائيل أنهت تطويق الجيش المصري الثالث، بعد وضع قرار وقف إطلاق النار موضع التنفيذ، هذا القرار الذي أجبرنا على مفاوضات طويلة. وإذا كانت إسرائيل قد حصلت على ذلك وبهذه الطريقة، فلا يحق لها والحالة هذه أن تطالب باستسلام الجيش المصري الثالث.

وفي ليل الخامس والعشرين من تشرين الأول، أجابت إسرائيل بناء على طلبي، أنها لا تزال بحاجة إلى ثلاثة أو أربعة أيام من القتال على طول الجبهة، وهي تؤكد على إرسال كميات كبيرة من العتاد الحديث، لتتمكن من تدمير هذه الجيوب. فتبيّن لي من خلال ذلك، أنه يستحيل تحقيق هذه الأهداف، دون إثارة أزمة خطيرة مع الاتحاد السوفيتي، ومعاداة جميع الدول العربية، وإلحاق الهزيمة بالسادات.

إن إلحاق هزيمة نهائية بالجيش المصري، وبعد أن أصبح وقف إطلاق النار نافذاً، لا يخدم مصالح الإسرائيليين على المدى البعيد. أما هم، وقد أسخطتهم

المفاجأة، وأغضبتهم خسائرهم الكبيرة، وفقدوا الثقة بالسادات الذي دبّر هزيمتهم، لذا فقد صمّم الزعماء الإسرائيليون على إنهاء الحرب بهزيمته.

إن ما تدّعيه إسرائيل لا يخلو من الصحّة، لكن إحدى الاهتمامات الأولية عندي أن أكسب رضا زعماء العرب المعتدلين، وأحملهم على التوجّه نحو السلام. كما أن مبادلة الأحاديث مع القاهرة، أدّت بي إلى الاعتقاد أن أنور السادات، يمثل أربح ورقة للسلام في الشرق الأوسط.

لقد منعنا التدخل السوفيتي، وعلينا الآن البدء بتدبير قضيّة السلام، التي تفرض دون شك، انفراجاً سريعاً، ومهما يكن شكله، للجيش المصري الثالث. وهذه مشكلة تعبوية صعبة. إن حكومتنا المجمعة الآراء حول الأهداف، كانت منقسمة حول طرق التنفيذ. إذ كانت وزارة الدفاع قد أعدّت مشروعاً لإعادة تموين الجيش المصري الثالث بواسطة الطائرات الأمريكية (C130) ومورست عدة ضغوط علينا لإلغاء الجسر الجوّي. ولم ترضني كلا الفكرتين. لأننا لا نستطيع خلال أسبوعين تأمين التموين جوّاً لمعسكرين متضادّين في حرب الشرق الأوسط. ومن جهة أخرى، فإن الوقف الفجائي لجسرنا الجوي إلى إسرائيل، سيعتبر بمثابة التخلّي عن حليفنا الرئيسي، ويدعو العرب إلى العناد، وربما حمل السوفيت على إعادة تدخلهم في المنطقة.

أمضيت يوم الجمعة، السادس والعشرين من تشرين الأول، محاولاً حمل إسرائيل على مدّ يد العون وبطيبة خاطر للجيش المصري الثالث، لتجنّب نفسها معارضتنا الأكيدة. هذه مهمّة شاقّة إذا حدثت. وكان عليّ إقناع بلد نزق، وساخط، بالعودة عن طريق يؤمّل منه بعض المكاسب على الصعيد الداخلي، في الانتخابات العامة (التي كانت محددّة في الثلاثين من تشرين الأول، وأجلت بسبب الحرب إلى الحادي والثلاثين من كانون الأول) وهذا الإقناع يمتزج بوجوب الإبقاء على بعض العلاقات الوطيدة. ويلزمنا أيضاً الإبقاء على ثقة مصر فينا، خلال ساعات المعاناة، لا

سيما أننا بحاجتها لإقناع إسرائيل في المستقبل خلال مفاوضات السلام. وكان صراعاً عنيفاً بين قدرتنا على الإقناع وبين ما يعانيه الجيش المصري الثالث، وبين ما نؤمّله من بقاء حكومة معتدلة في مصر.

بعد وصول مذكرة السادات، أجريت اتصالاً بدينيتز. وفي غضون ذلك كان الجيش المصري الثالث، يحاول فكّ طوق الحصار المضروب حوله من قبل القوات الإسرائيلية، في الشمال من السويس، وفي حال عدم الاستطاعة، فإن هذا قد يُنفذ صبره، ويفاقم في خطر وضعه، باستنزاف ذخيرته. ويثير أمامنا سلسلة جديدة من خرق وقف إطلاق النار. عندئذ طالبت إسرائيل وبإلحاح، القيام بإجراءين اثنين: دعوة سريعة لمراقبي الأمم المتحدة، ودون تأجيل، للتمركز في نقاط محددة بين الجيشين لمراقبة تنفيذ وقف إطلاق النار، والسماح للقوافل المحملة بالغذاء والماء والدواء بالوصول إلى الجيش المصري الثالث.

ولما كان هذا الجيش محاصراً، ولا يستطيع القتال، فإنه ينفعنا في المقايضة، شريطة عدم هزيمته واستسلامه. فوعدني دينيتز بجواب سريع. وأعلمته كذلك عن زيارتي المرتقبة لمصر.

كان نيكسون إذ ذاك في كامب ديفيد، حيث كان يعد مؤتمراً صحفياً متلفزاً لذا أرسلت باسمه مذكرة إلى السادات في تمام الساعة العاشرة والنصف، وأطلعته على الاقتراحات التي طالبت بها إسرائيل وقلت له:

"إن الضرورة تدعو لانتظار بضع ساعات لاستلام جواب نهائي حول هذه النقاط. وأني أمل صادقاً الا تقدموا على اتخاذ قرارات لا عودة عنها.

"لقد شجعتموني كثيراً باستعدادتكم ذات الشأن، حول المحادثات التي ستجري عند زيارة الدكتور كيسنجر إلى القاهرة. إني أطمئنكم بأنه سيبادلكم الثقة وبمواقف بنّاءة. وإني أرجو أن تشكل زيارته منفذاً يؤدي إلى تسوية دائمة وعادلة".

وما أن أزف الظهر، حتى أجريت محادثة مع نيكسون وأطلعته على ما أقدمت عليه. وعندما علم بورود مذكرة عاجلة من السادات، في الصباح، طلب إليّ تحويلها وبسرعة، وكما هي إلى الإسرائيليين. وهذا ما كنت قد عملته.

ولم يصلني أي جواب من تل أبيب، لذلك استدعيت دينيتز مستفسراً. فأجاب أنه لم يتسلم توجيهات جديدة، لكنه طرح علي فكرة خاصّة: "كل مصري يريد الانفصال عن الجيش المصري الثالث، يستطيع ذلك، شريطة ترك عتاده في مكانه". لم استغرب طرح فكرة خاصّة مؤداها إلحاق هزيمة كاملة بمصر. أهملت هذه الفكرة لأنها غير جديرة بالاهتمام، وعدت أطالب باقتراحي حول إيصال العتاد غير الحربي إلى الجيش المصري الثالث، وأضفت قائلاً: لن تستطيعوا أسر هذا الجيش، أنا واثق، وبعد أخذ ورد، حذّرته مجدّداً: أقول صادقاً أنكم ترتكبون خطأ، إذا أقدمتم على هجوم شامل. وطالبت مرّة أخرى بجواب سريع.

وفيما نحن بانتظار أخبار من إسرائيل، وصلت في الساعة الرابعة عشرة والدقيقة الثلاثين مذكرة من السادات إلى نيكسون، يبدو عليها التأثر، وقد جاء فيها:

"في الوقت الذي كنت أتلقى فيه مذكرتكم المشجعّة، المتضمنة الخطوات الواجب اتخاذها في سبيل السلام، في هذا الوقت بالذات، كان الإسرائيليون يهاجمون جواً وبراً الجيش المصري الثالث، تحت ذريعة كاذبة، أنه هو الذي بدأ القتال.

"يهمني إبلاغكم أن الوضع خطير، ومستقبل السلام في حرج. إن ضمانكم لقرار مجلس الأمن، قد سُخِر منه وبحجج واهية.

"أرجو التعاون والقيام بعمل سريع يمنع تدهور الوضع".

وأعلمني كورت فالدهايم بعد قليل، ان الزيّات الذي كان في موقف قلق، اتصل به، للتشاور حول دعوة مجلس الأمن الى عقد جلسة خاصّة، للاحتجاج على خرق

متعمد جديد من قبل إسرائيل لقرار وقف إطلاق النار. ان الجيش المصري الثالث لن يستسلم، وستكون مصر في حلّ عند اقدامها على أمر أحادي الجانب، ان الوضع، حسبما أورد الزيّات، يشكل منعطفاً حاسماً.

عندما أطلعت دينيتز على المذكرة المصرية في تمام الساعة السادسة عشر والربع، لم يكن قد استلم توجيهات جديدة، على الرغم من مضي سبع ساعات على طلبي الملحّ. لأن حكومته كانت تسعى بالطبع، لتأجيل الأمور، على أمل إجبار الجيش الثالث المصري على الإستسلام، فاقترح عليّ دينيتز مجدّداً، ان ترسل إسرائيل أحد القادة ليوقفني على حقيقة الوضع والتداول حول الموضوع من ثمّ وضع الخطوط الموافقة، لكن هذا يحتاج الى وقت، لا نستطيع ان نضحّي به الآن. عندئذ حذّرت السفير قائلاً: ان لنا حدوداً لا نستطيع تجاوزها، فأجابني على الفور موضحاً قصد بلاده: «لن نسمح بالإفراج عن الجيش المصري الثالث، دون الحصول على شيء لقاء ذلك».

ومعلوم، ان حالما أضع المشكلة بين ايدي أجهزتنا، لوضع حلّ لها، لا بد أنها تشير حالاً بتأمين تموين الجيش الثالث من قبلنا، وهذه فكرة أوصت بها وزارة الدفاع.

ثم عدت الى الحديث مع دينيتز وقلت له: ان وضع إسرائيل جيد وتستطيع المساومة وتتمكن من الحصول على شيء، غير المطالبة باستسلام القوات المطوّقة. سنبذل من جهتنا المستحيل لإجراء محادثات مباشرة بين مصر وإسرائيل، وهذه غاية تنشدها إسرائيل منذ فترة طويلة. لكن الإبقاء على مثل هذا الوضع مقلق جدّاً، ثم أردفت قائلاً:

«يلزمنا الوقت لاجراء مثل هذه المباحثات، ونرجو ان نصل الى محادثات مباشرة بينكم وبين المصريين، تتمكنون من خلالها حل هذه المشكلة. نحن على استعداد للتعاون معكم في هذا السبيل، لكنني لا أستطيع البتّ بما سوف يجري. كما انكم، في الوقت ذاته، لا تتمكنون من منازلة الرئيس في مجابهة يرفضها يوماً بعد يوم».

وطالبت بجواب قبل افتتاح مناقشة مجلس الأمن المتوقع حدوثها في تمام الساعة الحادية والعشرين من هذا اليوم.

وفيما كنت آمل تجنّب مصادمة فجائية مع إسرائيل، وراجياً تلقّي جواب ايجابي ارسلت في هذه الأثناء مذكرة تسويفية الى السادات وبإسم نيكسون، بيّنت له فيها شروط إسرائيل لقبول مراقبين من الأمم المتحدة، كما أطلعته أيضاً على الاتفاق المبدئي الذي وافقت عليه إسرائيل، حول إرسال قافلة طبيّة الى السويس. وتبيّن الوثيقة ان وجهات نظر الفريقين بشأن مخالفات وقف إطلاق النار كانت متناقضة تماماً. وقد قلت له : يجب ان تعلموا انه يستحيل علينا تحديد هوية من يحترم ومن يخرق وقف إطلاق النار، كما تضمنت الوثيقة وعداً، أن الولايات المتحدة على استعداد لتحديد هوية بل إدانة المخالفين.

كان هذا بمثابة شدّ أزر ضعيف بل لا يذكر بالنسبة للسادات. إذا قورن بمتطلبات الشرف المصري، الذي تحاول إسرائيل المسّ به، ونفاذ ذخيرة الجيش المصري الثالث، والجهود التي نبذلها لإنجاح دبلوماسية معقدة، واذا قارنّا جميع هذه الأمور بواقع الحال، تبقىالكارثة وشيكة الوقوع.

وأخيراً وفيما كان نيكسون يعقد مؤتمره الصحفي، وصل جواب إسرائيل الرسمي، في تمام الساعة التاسعة عشر والدقيقة العاشرة. وهو مسوّف كالمعتاد. لكن رئيسة الوزراء مائير، توافق على اقتراحي باجراء محادثات مباشرة مع المصريين حول الطريقة التي تضمن وضع حد لهذه المشكلة. وبالمناسبة فانها لا تبيّن عن أي انفراج بالنسبة للجيش المصري الثالث، الأمر الذي كانت تأخذه بمأخذ البساطة والسهولة إذ تقول: «نفكرّ بتقديم شيء له،وهو ليس بالأسر ولا الهزيمة، لكنّه منفذ مشرّف لهذا الوضع. وكل ما يجب على المصريين عمله، هو تحديد التاريخ والمكان ورتبة ممثّليهم».

إن الواقع فعلاً كان أكثر تعقيداً، ان نفسيّة العرب العالية، التي برهنوا عليها في أحايين كثيرة، لاتحملهم على القبول باجراء محادثات مباشرة، سببها التصميم على إذلال وإلحاق الهزيمة بالجيش المصري الثالث.

كحدّ أدنى، يزمنا بعض الوقت لتنظيم لقاء، في حين ان كل ساعة تمرّ، توهن قوّة الوحدات المطوّقة. وغولدا مائير التي يهمّها الموضوع أكثر من غيرها، حاولت استرضاءَنا، فقالت: ان الجيش المصري الثالث ليس في وضع ميؤوس منه، بل على العكس من ذلك، انه السادات، وهذا كلام فارغ لا يتجاوب مع متطلباتنا، لاننا لا نحاول الدفاع عن الرئيس وإبقاءه، اكثر من جيوشه، وفعلاً فان الاثنين أصبحا غير منفصلين، لأن الواحد منهما صار بديل الآخر.

وفي تمام الساعة التاسعة عشر والدقيقة الخامسة والخمسين، نقلت خلاصة هذه المذكرة الى حافظ اسماعيل في القاهرة، مقترحاً عليه اجراء محادثات مصرية إسرائيلية مباشرة.

في غضون ذلك، حدث حادثان آخران، أدّيا الى رفع حرارة الجو. فقد أعلموني قرابة الساعة السادسة عشرة والنصف، ان مذكرة سوفيتية جديدة هي في طريقها إليّ. وان مهلة الإعلام فيما سلف، ما كانت لتتجاوز خمس عشر دقيقة، أما هذه المرّة فقد مضى أكثر من ساعتين ولم تصل.

عندئذ سألت دوبرينين، فأكّد أن لا علم له بشيء، فأخذت أفكر، هل هذه عملية حرب نفسية، لاختبارنا قبل حلول أزمة مفاجئة قبل ثمان وأربعين ساعة؟ وهل غيّرت موسكو رأيها عمّا كانت تنوي ارساله؟ ليس علينا سوى الإنتظار، ورأيت اننا لسنا الآن عرضة لتهديد جديد قاسٍ مفاجئ، كالذي تغلبنا عليه.

فيما كنت انتظر المذكرة السوفيتية، بدأ نيكسون مؤتمره الصحفي في الساعة التاسعة عشرة، في القاعة الشرقية من البيت الأبيض، وكادت بعض الأسئلة والأجوبة

تطيح بالتوازن الهشّ للحديث، الذي حاولنا الحفاظ عليه بقوّة ممتنعين عن كل إثارة. ومن خلال دراستي التاريخ، أصبح لديّ اعتقاد، ان الفترة التي تأتي مباشرة بعد انتصار دراماتيكي، هي عموماً عابرة. يحاول المنتصر اجراء بعض الضغوط، لكن الخاسر، وقد حزّت في نفسه آثار الانكسار، لا بدّ ان يسارع الى أخذ ثأره مهملاً جميع التقديرات التقليدية.

لكن نيكسون كانت تتملكه بواعث أخرى، فعزم على إظهار، انه على الرغم من اسبوع مضى في الصراخ بسبب «احداث السبت»، وعلى الرغم من التهديد بالإقالة، فانه لا يزال آخذاً بفرامل القيادة، وانه الرجل الذي لا يستغنى عنه، ولقد كان مضطراً الى إقناع الجمهور، ان هناك أزمة كانت، وهي أكيدة، لكن فضيحة واترغيت لم تكن سببها، وكان على حق لتجريد نفسه منها أمام الصحافة.

ولقد بيّن أيضاً اننا تلقينا معلومات، أدّت بنا الى الاعتقاد ان الإتحاد السوفيتي يستعد لأرسال قوة كبيرة جداً الى الشرق الأوسط، وهي قوة عسكرية، ولقد أصدرت أوامري باجراء استنفار، لأدلّل للسوفيت ان أمريكا لن تقبل بأي عمل أحادي الجانب.

اعتبر كلامه هذا بمثابة تحدّ شخصي لبريجنيف بعد ايراد ميلودراماتيكي لجميع الرسائل المتبادلة. وكان الأفضل له ان يقول: تلقيت منه مذكرة قاسية وبادلته بمثلها، ثم أخذ على بريجنيف أيضاً كيفية فهمه للقدرة الأمريكية ولنيكسون نفسه. ولم يتمالك نفسه، اذ عاد الى تذكارات قديمة وكيف انه هو الذي أمر بقصف فيتنام الشمالية على الرغم من كل ضغوط الرأي العام. وتوّج حديثه بتراجع بريجنيف الأخير، وأعتبر ذلك أشد أزمة مررنا بها، منذ أزمة كوبا لعام ١٩٦٢، وهذا تشبيه جئت على ذكره في مؤتمري الصحفي.

كل ما أورده ، كان صحيحاً، لكن الوقت غير مؤاتٍ ليبيّن لبريجنيف انه رجل الساعة. لانه على الرغم ممّا قدم من أمجاد وبطولات، فقد كانت الصحافة تنتظر

لتزعزع موقفه باسئلة لا تخلو من الوقاحة، وتتهمه أنه فريسة فضيحة واترغيت. وتحادثت مع هيغ حول هذه المواضيع، فطلب مني محادثة نيكسون بكل لطف لأنه أشرف على النهاية. وهذا ما يحدث له غالباً بعد كل مؤتمر صحفي. ورأيت من جهتي عدم الدخول في مناقشات حول الوضع الراهن، ريثما ينجلي الموقف.

ان موقف الصحفيين في المؤتمرين، مؤتمري ومؤتمر نيكسون، كان غير مُرضٍ. وعند أواخر النهار، أعلمني سكالي الذي كان يتكلم من الأمم المتحدة إذا لم تحمل الإسرائيليين على الانسحاب، فان أؤكد انه لن يبقى لنا صديق». فاستدعيت دينيتز، في الساعة العشرين والدقيقة الخامسة والأربعين، لا بصفة وزير خارجية، بل بصفة صديق، وقلت له أن مذكرة سوفيتية هي في طريقها إلينا، ويبدو لي ان إسرائيل ترغب في أن تحمل قسراً على الأمور. أفضل من اتخاذها قراراً بمحض إرادتها. وكنت أتحاشى بحديثي حمله على القبول بآرائي بفعل الضغوط، لان هذا سيخلق جواً غير طبيعي. وطالبته الاشتراك بالمناقشة التي تجري الآن في مجلس الأمن، عساه يقدّم أقوالاً تخفف من غلوائها. فألفيته لا يتقبل الآراء الشخصية، ولا يعترف إلاّ بالإتصالات الرسميّة، ثم أخذ يعدّد الخسائر التي تكبّدتها إسرائيل، اثناء الحرب، وأكمل حديثه زاعماً، ان الجيش المصري الثالث، سيشن هجوماً حالما تصله الذخائر (وهذا جواب كان بعيداً جداً عن الموضوع، لأن ليس هناك من أحد، يقترح إرسال ذخائر حربية، بل مؤونة تمنعه من الموت جوعاً) وبتُ أعتقد وكأن إسرائيل تريد إماتته جوعاً.

قلت له: انكم سترغمون على الإفراج عنه، عندما تصله إمداداته، وأكملت حديثي قائلاً: لا تقدموا على شيء طالما ان الوضع لا يدعو إليه.

وأخذت مذكرة بريجنيف بالوصول قرابة الساعة الحادية والعشرين، وهي لا تخلو من التهديد، لكن لهجتها كانت أخف من اليومين السابقين، فهي تتهم إسرائيل بتعريض السلام للخطر. وكان بريجنيف يوجز فيها ما أصبحنا ندركه:

لقد طالب السادات الولايات المتحدة بالتدخل لايقاف العدوان الإسرائيلي، وتأتي لنجدة الجيش المصري الثالث، لقد وعدنا بعمل شيء في الساعات القادمة، لكن الوقت قد فات، وبقي طلب السادات دون جواب.

«واذا لم نتلقّ خلال الساعات القادمة، أخباراً باتخاذ الإجراءات اللازمة، لوضع حلّ للقضيّة التي طالب بها السادات، نصبح في وضع محرج».

ويطالبنا بريجنيف بجواب إيجابي، خلال الساعات القادمة. وينتقد استنفارنا للمرة الأولى، ويبيّن انه لولا حسن تصرّفه لما تقلصت الضغوط الدولية.

لعمري انها مذكرة غريبة، فهي تتحدث عن تهديد السلم العالمي، ولا تأتي على ذكر أيّة مساهمة من الإتحاد السوفيتي في الحفاظ عليه. وهي تطالب أيضاً بجواب أمريكي في أقصر مدة ممكنة، ولا تعالج أية أمور أخرى، سوى التشكك في نوايانا، وتدين الاستنفار على الرغم ممّا نُفّذ من نتائج طيّبة.

مانعت من الإنصياع لضغوط الإدارة المطالبة بتوليّ أمريكا إمداد الجيش المصري الثالث بأني كنت على اطلاع ان عناد إسرائيل يقلب الأمور إلى قلق ويأس، ولا سيما أنها التي لاتزال تخط بحروف من نار، ما سبق ومرّ بها من عزلة وكوارث، طوال آلاف السنين من تاريخها القاسي، وهي لا تزال واضعة نصب عينيها عدم التساهل في الأمور الحيوية. كما انها تعكس تجمع حكومة مقسمّة، لا يستطيع أي عضو الظهور بمظهر اللين أكثر من زملائه.

وأمضيت يومي في اقناع زملائي بعدم التخلّي عن إسرائيل علناً للحفاظ على نفسيّة هذا البلد، وإقناعها بعدم التمادي في غيّها. وأصبح الآن معلوماً أن إسرائيل لن تقدم بخيارها على إتخاذ قرار، وتفضّل ان تجبر على التخلّي عن مكاسبها لا التخلّي عنها بطيبة خاطر، ولما كانت مسؤوليتي الخاصة، هي واجبات وزارة خارجية الولايات المتحدة، لا واجبات طبيب نفسي لدى الدولة الإسرائيلية، لذا فقد صمّمت

على مطالبتها بعمل ما، وللتدليل على حسن صداقتي طالبت بعدم إفشاء سرّ تدخلي، هذا في حال سماحها لي بالعمل. وهكذا ففي الساعة الثانية والعشرين والدقيقة الثامنة والخمسين من يوم الجمعة، استدعيت دينيتز باسم نيكسون، ولا أذكر اني أطلعته على ما جرى سابقاً، وعلى كل حال كنت واثقاً من مساندته، فيما إذا عرضت عليه ما حدث في المؤتمر الصحفي وقضية واترغيت بالإضافة إلى إمداد أمريكا للجيش المصري الثالث. وهذا ما قلته لدينيتز:

«اني مورد لك ردود فعل الرئيس، في أقسام مميّزة»:

أولاً: لقد طلب إليّ أن أؤكد لكم، اننا لا نسمح بتدمير الجيش المصري في الوضع الراهن لا سيّما بعد التوصل الى وقف إطلاق النار، نتيجة مفاوضات اشتركنا فيها. انه إذا خيار غير موجود.

ثانياً: انه يطالبكم ان يحصل منكم، وفي برهة لا تتجاوز الساعة الثامنة من صباح الغد، جواباً حول التجهيزات غير العسكرية، الواجب إيصالها إلى هذا الجيش، وفي حال عدم قبولكم هذا الطلب، نجبر حينذاك على مساندة مجلس الأمن، لاتخاذ قرار يدعم به القرارين (٣٣٨ و ٣٣٩) وسنجبر على ذلك عندما نراكم عاجزين عن اتخاذ قرار.

ومهما تكن الأسباب، فان هذا هو موقفنا، كما رغب الرئيس في إيقافكم عليه، جواب يسمح لاجراء نوع من المفاوضات، وردّ فعل إيجابي نحو التجهيزات غير العسكرية، وإلاّ فاننا سوف ننضم، إلى أعضاء مجلس الأمن الآخرين، لنجعل من هذا الأمر قضية دولية. إني مضطر لابلاغكم وللمرة الأخيرة ان سلوككم انتحاري. ولن نسمح لكم بتدمير هذا الجيش، وتدميره يعني تدمير إمكانية إجراء مفاوضات.

وقلت لـ (دينيتز) أيضاً: اننا لن نطلع القاهرة على إجراءاتنا هذه، لكننا سننقل إليها جميع إقتراحات تل أبيب، بالإضافة إلى رفضها تجهيز الجيش الثالث المصري

عسكرياً. ولم يفت دينيتز ان يفهم من خلال حديثي معه. وهو يعتبر من السفراء النابهين المعتمدين في واشنطن، اننا لانطالب بانسحاب بلاده إلى خطوط وقف إطلاق النار، التي كانت فيها في ٢٢ تشرين الأول. وطمأنته أيضاً اننا لن نطلع بقية الدول الأخرى، على الضغوط التي نمارسها على دولة إسرائيل.

وأرسلت الرسالة الرئاسية الى الكرملين، نحو الساعة الثانية والنصف، من يوم السبت الواقع في السابع والعشرين من تشرين الأول، وكانت مهذّبة لكنّها لا تخلو من بعض الغموض، وهي تؤكد التزامنا تجاه وقف اطلاق النار، ويعد فيها نيكسون بالسعي لدى الحكومة الإسرائيلية، للسماح بوصول التجهيزات غير العسكرية للجيش المصري الثالث، لكن الرسالة تتحاشى ذكر ما قمنا به، والتاريخ الذي حدّدناه، لأننا لا نريد سماع انذارات سوفيتية في مواقف كدنا نأتي إلى نهايتها. وانتهت الرسالة بتلميح إلى الاستنفار:

بالنسبة للإجراءات التي اتخذتها الولايات المتحدة، على أثر رسالتكم بتاريخ الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول، يسعدني ان أعيد على مسامعكم جملتين من تلك الرسالة: «يجب ان نتفق دون تردّد، وأقول لكم بصدق، إذا استحالت عليكم مشاركتنا في هذا العمل، نجد انفسنا مضطرين، إلى اتخاذ القرارات الضرورية من جانب واحد».

وما كدنا نرسل رسالة موسكو، حتى وردتنا رسالة أخرى ارسلتها غولدا مائير. لأني كنت أرسلت إليها الرسالة بإسم نيكسون، وهي لياقة منها فقد توجهت برسالتها مباشرة الى الرئيس. وكانت تبقي على المشاحنات للمرؤوسين، وتحتفظ بالأحاديث المنسّقة الموزونة للرئيس، بقصد عدم الاساءة الى العلاقات الطيبة معه.

كانت الرسالة تدل على ذوق حسن ولباقة، ويمكن ان يكون لها تأثير كبير بالنسبة للحكومة الإسرائيلية، أكثر من حكومة الولايات المتحدة. وكانت ترى ان

القضيّة هي في حدود تجاوز سلطات القوتين الكبيرتين، وجعلتنا نشعر اننا خاضعون للسوفيت. وخضوعنا هذا إذا كان صحيحاً ووصل إلى أسماع منتقدينا، الذين يتربصون بنا الدوائر، فانه يثير ضدنا الحدود العليا من الضغوط الداخلية.

ثم أردفت غولدا قائلة: «ليس لديّ توهم فيما أخطط ، واني أعلم جيداً ان كل شيء يفرض علينا من قبل القوّتين الكبيرتين». وقولها هذا اشارة إلى ما طلب إليها الإجابة عليه منذ أكثر من ثماني عشر ساعة.

ولم تنهِ رسالتها بسلام، بل طلبت إلينا ان ندلّها على ما يجب عمله، لتتمكن مصر من إعلان انتصارها في عدوانها. وهذا كان جوابها على اقتراحنا بإيصال الغذاء والماء الى جيش طُوّق بعد ثمان وأربعين ساعة، من اتخاذ قرار وقف إطلاق النار نتيجة مفاوضات اشتركت فيها الولايات المتحدة، وهذا الجيش سيبقى محاصراً ولو وصله الحدّ الأدنى من المعونات.

وإذا خطر لغولدا تقديم بعض التنازلات، فليس هناك شيء يجبرها على عمل ذلك دون مقابل. وهناك أمر لا يمكن أحد ان يمنعنا من الإقدام عليه، وهو الإعلان عن حقيقة الوضع الراهن، ان إسرائيل لا تعاقب على أعمالها أبداً بل على تعاليها وعزلتها.

لم تكن لتخفى عني نقطة جوهرية، وهي ان غولدا ترفض تقديم اقتراح ما. فهي كانت تطالبنا به. وهذا ما حاولت جاهداً تحاشيه. وهذه المطالبة تدل ليس فقط على ثقتها، بل على ما تعاني من تعقيد في سياسة حكومتها الإسرائيلية، بالإضافة إلى الانتخابات القادمة وما تبنيه من آمال عليها. أما وقد أصبحتُ نهباً بين الانذهال والغيظ، قلت لسكاوكروفت: ليس هؤلاء سوى أبطال مجانين. وكنت على أهبة تهيئة رسالة، لكن السادات حسم الموقف، وكلفني هذا ليلة دون نوم. ففي تمام الساعة الثالثة والدقيقة السابعة من هذا الصباح، أعلمني حافظ اسماعيل ان بلاده قبلت بإجراء محادثات مباشرة بين ضباط مصريين وإسرائيليين، على أن يكون جميعهم

من رتبة عميد لمناقشة الشؤون العسكرية، حول تطبيق القرارين (٣٣٨ و ٣٣٩) اللذين اتخذهما مجلس الامن الدولي بتاريخ ٢٢ و٢٣ تشرين الأول عام ١٩٧٣. على أن تتم هذه المناقشات بإشراف الأمم المتحدة، في موقع (١٠١) على طريق القاهرة السويس. وستكون شروط هذه المناقشات الوحيدة هي، وقف إطلاق النار الكامل، الذي دخل حيّز التنفيذ بساعتين قبل موعد اللقاء المقترح في الساعة الخامسة عشر، حسب توقيت القاهرة، هذا اليوم ذاته أي السبت، وان يتم أيضاً مرور قافلة تحمل تجهيزات غير عسكرية إلى الجيش المصري الثالث، بإشراف الأمم المتحدة والصليب الأحمر.

ان هيجان غولدا كان سابقاً لأوانه، وبفضل وساطتنا، ستدخل إسرائيل بأول محادثات مباشرة مع ممثلين عرب. منذ تكوين دولتها. وكانت لا تزال تسيطر على مخرج الجيش المصري الثالث. على الرغم من ان مجلس الأمن اجمع الرأي ودعا إلى انسحاب إسرائيلي إلى خطوط الثاني والعشرين من تشرين الأول. وكل هذا يجري دون السماح بمرور قافلة تحمل إمدادات غير عسكرية.

وقلت لحافظ اسماعيل في الساعة الرابعة والدقيقة الحادية والثلاثين، ان مذكرته التي نالت قبولنا، قد نقلت وبسرعة إلى إسرائيل، التي قبلت في الساعة السادسة والدقيقة العشرين، الاقتراح المصري بكامله، فأبلغت السادات بذلك حالاً.

ولتقليص الوقت قدر الإمكان، خشية حدوث مفاجآت من قبل السوفيت، فقد أعلمت بريجنيف بعد ثلاث ساعات، برسالة وجهتها إليه باسم نيكسون، وأعلمته فيها أن المحادثات المصرية الإسرائيلية وشيكة الوقوع، وعن قبول إسرائيل مرور قافلة تجهيزات. لكن الشرق الأوسط ليس من عادته قبول حلول مجزّأة. ويجب علينا تلّمس الأرض لدى كل خطوة، للتأكد من انها لاتمور تحت أقدامنا.

وفي الساعة الحادية عشر (حسب توقيت واشنطن) وهي توازي للساعة السابعة عشر حسب توقيت القاهرة، أعلمتنا إسرائيل ان ممثلي مصر لم يصلوا في الوقت والمكان المحدّدين، فبدأت عاصفة من الإتصالات تتجه إلى جميع الجهات، والذي ظهر بعدئذ ان الممثلين العسكريين المصريين عندما وصلوا إلى موقع (٨٥) وهم في طريقهم الى الموقع (١٠١) أوقفهم الحرس الإسرائيلي، الذي لم يكن قد تلقّى بعد تعليمات للسماح لهم بالمرور، إذ لم يطلب من إسرائيل اعلام جميع الجهات المسؤولة بهذا الحدث الفريد الذي لا سابقة له، وعند وصول الممثلين المصريين، حاول عميد مصري التكلم مع نظيره الإسرائيلي، وسرعان ما زال سوء التفاهم. فاستدعيت غولدا شخصياً وكلمتها حول ما يجري، وطلبت إليها إعتماد أحد قادتها الموثوقين للاتصال بجنرال من الأمم المتحدة، انسيو سيلازفو، وتحديد موعد جديد يتمكنان من نقل أحداث النهار إلينا علماً ان المسافة الفاصلة تقدّر بثمانية عشر ألف كيلو متر، بالإضافة إلى مئات الكيلو مترات أيضاً التي تتخلل الأماكن التي تجري فيها المحادثات، وبعد أخذ ورد كادا لا يتنتهيان اتفقنا ان يجتمع الجنرال انسيو سيلازفو ومن تعينه غولدا مائير كل يوم عند منتصف الليل.

وأخيراً التقى الممثلون المصريون والإسرائيليون في تمام الساعة الواحدة والنصف (حسب التوقيت المحلي) من يوم الأحد الموافق للثامن والعشرين من تشرين الأول، أي بتأخير ساعة ونصف عن التوقيت الجديد. وكان اللقاء لإجراء محادثات مباشرة، بإشراف مراقبي الأمم المتحدة، ولأول مرة منذ خمسة وعشرين عاماً، لكن الإسرائيليين عملوا بنوع أنهم أخّروا وصول قافلة الإمداد طول ذاك اليوم. ونمي إليّ بعد حين، أن الجيش المصري الثالث، لم يكن لديه في السادس والعشرين من تشرين الأول، من مؤونة وماء، إلاّ لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة، غير أن

أفراده صمّموا على الصمود واحتمال ما هم فيه. وإذا قدّر لهم عدم الإحتمال وأصابهم قدرهم، فلا مجال للشك أن إسرائيل لن تذرف عليهم دمعة، وهي التي سبّبت لهم هذه الآلام.

وأخيراً استطعت الاتصال بحافظ إسماعيل صباح يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر تشرين الأول، لأزفّ إليه بشرى وصول قافلة الإمدادات. ورضيت مصر بإجراء لقاءات أخرى، ولو أنها كانت غير مجدية.

ما أستطيع قوله، هو ان التحوّل قد بدأ، وفتح باب المفاوضات على مصراعيه ولن يطول أمد التوجّه نحونا، لوضع حدّ لكل هذه الأمور.



لقد وصلنا في استراتيجيتنا إلى ما كنا نهدف إليه. فان الحرب قد وضعت أوزارها، ومع انتهاء الحرب، انتهت جميع المصاعب التي كانت تقف عائقاً في وجه السياسة الامريكية في الشرق الأوسط. وأصبحنا نشكل العامل الرئيسي في تحريك الدبلوماسية، وأخذت مصر تتحرك في اتجاهنا أيضاً، وليس هذا فقط، بل بدأت في دعوة النظم المتشددة نفسها، لإعادة النظر في أسس علاقاتها الدولية، والسادات نفسه دلّل على تغيير اتجاه سياسته، ولن يقبل أيّ تفسير لسلوكيّته التي يسير بها بخطى ثابتة ورباطة جأش ووضوح. ولقد تم كل ذلك، فيما كنّا نساند صديقتنا إسرائيل إبّان الحرب، وعملنا على عدم إبقائها معزولة ووحيدة في خضّم مفاوضات وقف إطلاق النار.

ونستطيع القول ان ما توصلنا إليه، لم يكن ليختلف أبداً عمّا كان يهدف إليه السوفيت من خلال محادثاتهم واتصالاتهم. وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول، أرسل بريجنيف رسالة الى نيكسون، كانت لهجتها تدل على الشكاية والإتهام

والتهديد، وتدور بمجملها حول تأخر بدء المحادثات المصرية الإسرائيلية، والسماح بمرور القافلة ووصولها إلى الجيش المصري الثالث، وتطرّقت الرسالة إلى أزمة الثقة الحاصلّة من جرّاء ما أقدمت عليه أمريكا من مساندة كليّة للزمرة الإسرائيلية الحاكمة (ووجهة نظره هذه لم يشاركه فيها فريق من منتقدينا، الذين كانوا ينتقدوننا فعلاً بالتواطؤ مع موسكو). وأطرى بريجنيف تعاوننا معاً ضد العدوان، وندّد بكل ما يجري من خداعٍ في سبيل الاساءة إلى العلاقات الوثيقة بين الإتحاد السوفيتي و الولايات المتحدة.

ولم يفت الرسالة أن تأتي على ذكر ما جرى أخيراً، وعن اختيارنا تلك الطريق الوعرة. وهنا لا بدّ لي من القول ان التهديدات السوفيتية قد فقدت الكثير من مصداقيتها، وما كان تذمّر السوفيت واحتجاجه على ما يجري سوى تأخير تلك المكاسب التي كنا في طريقنا إلى الوصول إليها.

وأستطيع القول أيضاً، أنه على الرغم ممّا اضطررنا إلى استخدامه من مواعيد للتمكن من إجراء اتصالات بين القاهرة وموسكو ومن ثم بين موسكو وواشنطن، فان جميع القضايا قد وجدت الطريق لحلها أو كادت عندما تلقينا مراسلات الكرملين. وكما بيّنت ذلك لنيكسون في الواحد والثلاثين من تشرين الأول:

«لم يبقّ بالفعل غيرنا لإنقاذ الإسرائيليين من مأزقهم، في حين ان السوفيت، لا يزالون يحاولون وضع انفسهم في موضع قوّة يستطيعون تهديدنا من خلالها، أو ممارسة ضغوط علينا، ويشيرون علينا بعمل كذا وكذا، وهذه أمور كانت نصب أعيننا ونحن عازمون على تنفيذها وإتمامها»!!

وما ان اقتنع السوفيت بخسارتهم المعركة، حتى أخذوا يحاولون فتح ميدان ثنائي، خارج الأمم المتحدة، يخوّلنا وإياهم تنظيم تشريع رسمي نستطيع من خلاله مراقبة وقف اطلاق النار. ورغبة مني في تهدئة خواطرهم، دون إشراكهم في

دبلوماسيتنا اليومية المعتادة، إقترحت على دوبرينين في الحادي والثلاثين من تشرين الاول، ان يعيّن كل بلد ممثلاً يكلف بتغطية أمور الإشراف على مفاوضات السلام، التي نَصّ عليها القرار (٣٣٨).

ووصلتنا في اليوم التالي موافقة غروميكو بتولّي هؤلاء الممثلين مبدئياً الإشراف على وقف إطلاق النار. لكن السادات أخذ يظهر في هذه الآونة عزمه على الإعتراف فقط بالدور الأمريكي. وإسماعيل فهمي وزير خارجيته الذي كان إذ ذاك في زيارة لواشنطن، لم يكن راضياً مثلنا عن الإشراف السوفيتي، فقد أخذ يجرّر الأمور ويؤجّلها، فطوي أمر الإشراف ولم يسمع عنه بعد ذلك أي شيء.

وعلى كل حال، إذا تمكنا القيام بدورنا وبطريقة جيدة، نستطيع دون شك، ان نقلص شيئاً فشيئاً النفوذ السوفيتي، ومعه نفوذ المتشددين في العالم العربي، وحمل الكرملين على اتباع سياسة أكثر إعتدالاً.

وفي الثالث من تشرين الثاني، أجبنا بريجنيف على رسالته، أعني بعد خمسة أيام على ورودها، وأكدنا في جوابنا على التعايش السلمي، كما أكدت رسالة نيكسون على مبدأ الإعتدال ورفض الامتيازات أحادية الجانب. ولقد أوردت وبصورة واقعية ما هي عليه المفاوضات الأمريكية السوفيتية الجارية حالياً، بدءاً من تحديد التسلح الإستراتيجي حتى بوادر انشاء علاقات اقتصادية. وكانت الغاية من وراء ذلك، إظهار ما لدينا من نيّة ثابتة لرفض كل مجابهة مهما تكن، ومن ثم إعادة الأمور إلى نصابها لا سيّما بعد ان حلّت الأمور ووضع حد للأزمة، مع أملنا الوطيد بعدم حدوث أيّة ضغوط في المستقبل.

غير ان مجتمعاً إعتاد أجوبة صريحة وواضحة، ووسطاً سياسيا فتكت به كوارث فضيحة واترغيت، لا بد أن يضفي على سياستنا الحالية شيئاً من الغموض والارتباك، وأن يثير فيه معارضة داخلية. لذا فان المحافظين تنمّ

تصرفاتهم عن عدم الرضا حتى عن التحدث بين السوفيت والأمريكان. أما الليبراليون فأنهم يرتابون في نجاحها وهؤلاء وأولئك كانوا يطالبون بمواطنة أمريكية مثالية وسياسة ترتكز على مبادئ أكثر سمواً من مصلحة عابرة يطلق عليها لقب القومية. أما أنا فقد كنت أعّد نفسي لرحلة إلى الشرق الأوسط، وغايتها البرهنة ليس فقط على دبلوماسيّتنا، بل على قدرتنا وتمكننا من تجاوز ضغوط خصومنا في بلادنا.

وأمريكا التي أصبحت الآن عاملاً حاسماً في المعركة في سبيل سلام الشرق الأوسط هل تستطيع التحرّر من قسوتها، واضفاء شكل جديد على تنظيمات قديمة مضىعليها أكثر من ربع قرن؟